٦٥٨

# التبيان

في

# تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ٤٦٠ هـ

الجزء التاسع

تحقيق

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

٦٥٨

# التبيان

في

## تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ٤٦٠ هـ

الجزء التاسع

تحقيق

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة

شبكة الفكر
alfeker.net

شابك (دورة) ٥ ـ ٠٧٠ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
ISBN 978 - 964 - 470 - 070 - 5

# التبيان
## في تفسير القرآن
## (ج ٩)

■ تأليف: شيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي ﷺ □
■ الموضوع: التفسير □
■ طبع و نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي □
■ عدد الصفحات: ٦٧٦ □
■ الطبعة: الأُولىٰ □
■ المطبوع: ٥٠٠ نسخة □
■ التاريخ: ١٤٣٠ هـ. ق □
■ شابك ج ٩: ٦ ـ ٩٢٩ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨ □
ISBN 978 - 964 - 470 - 929 - 6

قم ـ شارع الأمين ـ ابتداء شارع الجمهورية الإسلامية ص . ب ٧٤٩ ـ ٣٧١٨٥
تلفون: ٢٩٣٣٢١٩ ـ ٢٩٣٢٢١٩ فاكس: ٢٩٣٣٥١٧

# سورة الأنبياء

هي مكّية في قول قَتادة ومجاهد، وهي مائة واثنتنا عشـرة آيـة فـي الكوفي وإحدى عشرة في البصري والمدنيّين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم
مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ
فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ
هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلّا أبا بكر وخلفاً ﴿قال ربّي﴾ على وجه الخبر، الباقون ﴿قلْ ربّي﴾ على وجه الأمر.

هذا إخبار من الله تعالى بأنّه ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ يعني دنـا وقت حسابهم، ومعناه: دنا وقت إظهار ما للعبد وما عليه ليجازى بـه وعـليه. و«الحساب» إخراج مقدار العدد بعقد يحصل. ويقال: هو إخراج الكـمّية من مبلغ العدّة. وقيل: إنّه دنا، لأنّه بالإضافة إلى ما مضى يسير.

وقيل: نزلت الآية في أهل مكّة استبطؤا عذاب الله تكذيباً بالوعيد، فقُتِلوا يوم بدر[١]. و«الاقتراب» قصر مدّة الشيء بالإضافة إلى ما مضى من زمانه. وحقيقة القرب: قلّة ما بين الشيئين، يقال: قرّب ما بينهما تقريباً: إذا قلّل ما بينهما من مدّة أو مسافة أي فاصلة، والقرب قد يكون في الزمان، وفي المكان، وفي الحال. وقد قيل: كلّ آتٍ قريب. فلذلك وصف الله تعالى القيامة بالاقتراب، لأنّها جائية بلا خلاف.

وقوله: ﴿وهم في غفلةٍ معرضون﴾ فالغفلة: السهو، وهو ذهاب المعنى عن النفس، ونقيضها: اليقظة، ونقيض السهو: الذِكْر، وهو حضور المعنى للنفس، و«النسيان»: هو عزوب المعنى عن النفس بعد حضوره. وقوله: ﴿معرضون﴾ يعني عن الفكر في ذلك، والعمل بموجبه. وقيل: هم في غفلة بالاشتغال بالدنيا، معرضون عن الآخرة[٢]. وقيل: هم في غفلة بالضلال، معرضون عن الهدى. وهو مثل ما قلناه.

وقوله: ﴿ما يأتِيهِمْ من ذِكْرٍ من ربّهمْ محدَث﴾ معناه: أي شيء من القرآن محدَث بتنزيله سورة بعد سورة وآية بعد آية ﴿إلّا استمعوه وهم يلعبون﴾ أي كلّما جدّد لهم الذكر استمرّوا على الجهل، في قول الحسن وقَتادة.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ القرآن محدَث، لأنّه تعالى أخبر أنّه ليس يأتيهم ذكر مُحدَث من ربّهم إلّا استمعوه وهم لاعبون. و«الذِكْر»: هو القرآن، قال الله تعالى: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذِكْرَ وإنّا له لحافظون﴾[٣] وقال: ﴿وأنزلنا إليك الذِكْرَ لتبيّن للناس ما نزّل إليهم﴾[٤] يعني القرآن، ويقوّيه في

---

(١) قاله الضحّاك، كما في الجامع لأحكام القرآن ١١: ٢٦٧.

(٢) قاله الماوردي في النكت والعيون ٣: ٤٣٦.

(٣) الحجر: ٩.

(٤) النحل: ٤٤.

هذه الآية قوله: ﴿إلّا استمعوه﴾ والاستماع لا يكون إلّا في الكلام، وقد وصفه بأنّه مُحدَث، فيجب القول بحدوثه.

ويجوز في ﴿محدَث﴾ الجرّ والرفع والنصب؛ فالنصب على الحال، والرفع على تقدير: هو محدَث، ولم يقرأ بهما، والجرّ على أنّه صفة.

وقوله تعالى: ﴿لاهيةً قلوبُهُم﴾ نصب ﴿لاهيةً﴾ على الحال، وقال قَتادة: معناه غافلة. وقال غيره: معناه طالبة للّهو هازلة. و«اللهو»: الهزل الممتع. وقوله: ﴿وأسرّوا النجوى الّذين ظلموا﴾ فموضع ﴿الّذين ظلموا﴾ من الإعراب يحتمل أن يكون رفعاً على البدل من الضمير في قوله: ﴿وأسرّوا﴾ كما قال تعالى: ﴿ثمّ عَمُوا وصَمّوا كثير منهم﴾[1]. ويجوز أن يكون رفعاً على الاستئناف، وتقديره: وهم الّذين ظلموا. ويحتمل وجهاً ثالثاً: أن يكون خفضاً بدلاً من الناس، والمعنى: أن الّذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله وجحدهم أنبياءه، وأخفوا القول فيما بينهم. وقالوا: ﴿هل هذا﴾ يعنون رسول الله ﴿إلّا بشر مثلكم﴾. وقال قوم: معناه: أنّهم أظهروا هذا القول لأنّ لفظة «أسرّوا» مشتركة بين الإخفاء والإظهار، والأوّل أصحّ.

وقوله: ﴿أفتأتون السحر﴾ معناه: أفتقبلون السحر ﴿وأنتم تُبصرون﴾ أي: وأنتم تعلمون أنّه سحر. وقيل: معناه أفتعدلون إلى الباطل وأنتم تعلمون الحقّ وتنكرون ثبوته.

ثمّ أمر نبيّه ﷺ فقال: ﴿قل﴾ يا محمّد ﴿ربّي﴾ الّذي خلقني واصطفاني ﴿يعلم القول في السماء والأرض﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك، بل يعلمه جميعه ﴿وهو السميع العليم﴾ أي: هومن يجب أن يسمع المسموعات إذا

---

(١) المائدة: ٧١.

وجدت، عالم بجميع المعلومات.

وقوله تعالى: ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه﴾ فالمعني في «بل» الإضراب بها عمّا حكي أنّهم قالوه أوّلاً، والإخبار عمّا قالوه ثانياً، لأنّهم أوّلاً قالوا: هذا الّذي أتانا به من القرآن أضغاث أحلام، أي تخاليط رؤيا رآها في المنام، في قول قَتادة.

قال الشاعر. كضغثِ حُلمٍ غُرّ منه حالمه[1].

ثمّ قالوا: لا ﴿بل افتراه﴾ أي تخرّصه وافتعله. ثمّ قالوا: ﴿بل هو شاعر﴾ وإنّما قالوا: هو شاعر، قول متحيّر قد بهره ما سمع، فمرّة يقول: ساحر، ومرّة يقول: شاعر، ولا يجزم على أمر واحد. قال المبرّد: في ﴿أسرّوا﴾ إضمار هؤلاء اللاهية قلوبهم، والّذين ظلموا بدل منه. وقال قوم: قدّم علامة الجمع، لأنّ الواو علامة الجمع، وليست بضمير[2] كقولهم: انطلقوا إخوتك، وانطلقا صاحباك، تشبيهاً بعلامة التأنيث، نحو: ذهبت جاريتك، وهذا يجوز، لكن لايختار في القرآن مثله.

قوله تعالى:

مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ عاصم ﴿نوحي﴾ بالنون، الباقون بالياء على ما لم يسمّ فاعله، من

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٣٥، ولم ينسبه إلى أحد.

(٢) انظر مجاز القرآن ٢: ٣٤، الجامع لأحكام القرآن ١١: ٢٦٩.

قرأ بالنون أراد الإخبار من الله تعالى عن نفسه، بدلالة قوله: ﴿وما أرسلنا﴾ لأنّ النون والألف اسم الله.

لمّا حكى الله تعالى ما قال الكفّار في القرآن الّذي أنزله الله على نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله ـ من أنّهم قالوا تارةً: هو أضغاث أحلامٍ، يريدون أقاويله، وتارةً قالوا: بل اختلقه وافتعله، وتارةً قالوا: هو شاعر، لتحيرّهم في أمره، ثمّ قالوا: ﴿فليأتنا بآية﴾ غير هذا على ما يقترحونها ﴿كما أُرسل﴾ الأنبياء ﴿الأوّلون﴾ بمثلها ـ فقال الله تعالى: ﴿ما آمنتْ قَبلَهُمْ مِنْ قَريةٍ أهلكناها أَفَهُمْ يؤمنونَ﴾ أي إنّا أظهرنا الآيات الّتي اقترحوها على الأُمم الماضية فلم يؤمنوا عندها، فأهلكناهم، فهؤلاء أيضاً لا يؤمنون لو أنزلنا ما أرادوه.

وأراد الله بهذا الاحتجاج عليهم أن يبيّن أنّ سبب مجيء الآيات ليس لأنّه سبب يؤدّي إلى إيمان هؤلاء، وإنّما مجيئها لما فيها من اللطف والمصلحة، بدلالة أنّها لو كانت سبباً لإيمان هؤلاء لكانت سبباً لإيمان أُولئك، فلمّا بطل أن تكون سبباً لإيمان أُولئك، بطل أن تكون سبباً لإيمان هؤلاء على هذا الوجه.

وقيل: إنّ معناه إنّا لمّا أظهرنا الآيات الّتي اقترحوها على الأُمم الماضية فلم يؤمنوا أهلكناهم، فلو أظهرنا على هؤلاء مثلها لم يؤمنوا وكانت تقتضي المصلحة ان نهلكهم[1]. ومثله قوله: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلّا أن كذّب بها الأوّلون وآتينا ثمودَ الناقة مبصرةً﴾[2] وقال الفرّاء: المعنى ما آمنت قبلهم أُمّة جاءتهم آية، فكيف يؤمن هؤلاء![3].

---

(١) في تفسير الطبري ذيل الآية عن قتادة قوله: ﴿ما أمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون﴾ أي الرسل كانوا إذا جاءوا قومهم بالبيّنات فلم يؤمنوا لم ينظروا.

(٢) الإسراء: ٥٩.

(٣) معاني القرآن ٢: ١٩٩.

ثمّ أخبر تعالى أنّه لم يرسل قبل نبيّه محمّدﷺ إلى الأُمم الماضية ﴿إلّا رجالاً نوحي إليهم﴾ ووجه الاحتجاج بذلك: أنّه لو كان يجب أن يكون الرسول إلى هؤلاء الناس من غير البشر ـ كما طلبوه ـ لوجب أن يكون الرسول إلى من تقدّمهم من غير البشر، فلمّا صحّ إرسال رجال إلى من تقدّم، صحّ إلى من تأخّر. وقال الحسن: ما أرسل الله امرأة، ولا رسولاً من الجنّ، ولا من أهل البادية. ووجه اللطف في إرسال البشر أنّ الشكل إلى شكله آنس. وعنه افهم ومن الأنفة منه ابعد، لأنّه يجري مجرى النفس، والإنسان لا يأنف من نفسه.

ثمّ قال هلمّ ﴿فاسألوا أهلَ الذِكْرِ﴾ عن صحّة ما أخبرتكم به من أنّه لم يرسل إلى من تقدّم إلّا الرجال من البشر. وفي الآية دلالة على بطلان قول ابن حائط: من أنّ الله تعالى بعث إلى البهائم والحيوانات كلّها رسلاً.

واختلفوا في المعنيّ بأهل الذكر، فروي عن أمير المؤمنينعليه السلام أنّه قال: «نحنُ أهلَ الذِكْر»[1] ويشهد لذلك أنّ الله تعالى سمّى نبيّه ذكراً بقوله: ﴿ذكراً * رسولاً﴾[2] وقال الحسن وقَتادة: هم أهلالتوراةوالإنجيل[3]. وقال ابنزيد: أراد أهل القرآن، لأنّ الله تعالى سمّى القرآن ذكراً في قوله: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ وقال قوم: معناه واسألوا أهل العلم بأخبار من مضى من الأُمم هل كانت رسل الله رجالاً من البشر أم لا ؟.

وقيل في وجه الأمر بسؤال الكفّار عن ذلك قولان:

أحدهما: أنّه يقع العلم الضروري بخبرهم إذا كانوا متواترين، وأخبروا

---

(١) الكشف والبيان ٦: ٢٧٠، الجامع لأحكام القرآن ١١: ٢٧٢. (٢) الطلاق: ١٠ ـ ١١.
(٣) قاله الحسن وقتادة كما في النكت والعيون ٣: ٤٣٨ وتفسير الطبري ذيل الآية.

عن مشاهدة، هذا قول الجبّائي.

والثاني: أنّ الجماعة الكثيرة إذا أخبرت عن مشاهدة حصل العلم بخبرها إذا كانوا بشروط المتواترين وإنْ لم يوجب خبرهم العلم الضروري. وقال البلخي: المعنى أنّك لو سألتهم عن ذلك لأخبروك أنّا لم نرسل قبلك إلّا رجالاً. وقال قوم: أراد من آمن منهم، ولم يرد الأمر بسؤال غير المؤمن(١).

ثمّ أخبر تعالى أنّه لم يبعث رسولاً ممّن أرسله إلّا وكان مثل سائر البشر يأكل الطعام، وأنّه لم يجعلهم مثل الملائكة لا يأكلون الطعام، وأنّهم مع ذلك لم يكونوا خالدين مؤبّدين، بل كان يصيبهم الموت والفناء كسائر الخلق. وإنّما وحّد «جسداً» لأنّه مصدر يقع على القليل والكثير، كما لو قال: وما جعلناهم خلقاً.

ثمّ قال تعالى: ﴿ثمّ صدقناهم الوعد﴾ يعني الأنبياء الماضين ما وعدناهم به من النصر والنجاة، والظهور على الأعداء، وما وعدناهم به من الثواب، فأنجيناهم من أعدائهم، ومعهم من نشاء من عبادنا، وأهلكنا المسرفين على أنفسهم، بتكذيبهم للأنبياء. وقال قَتادة: المسرفون هم المشركون. و«المسرف» الخارج عن الحقّ إلى ما تباعد عنه. يقال: أسرف إسرافاً: إذا جاوز حدّ الحقّ وتباعد منه.

ثمّ أقسم تعالى بقوله: ﴿لقد أنزلنا إليكم﴾ لأنّ هذه اللام يتلقّى بها القسم، بأنّا أنزلنا عليكم ﴿كتاباً﴾ يعني القرآن ﴿فيه ذكركم﴾ قال الحسن: معناه فيه ما تحتاجون إليه من أمر دينكم. وقيل: فيه شرفكم إن

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه ٣: ٣٨٥.

تمسّكتم به، وعملتم بما فيه[١]. وقيل: ذكر، لما فيه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال[٢] ﴿أفلا تعقلون﴾ يعني أفلا تتدبّرون، فتعلموا أنّ الأمر على ما قلناه.

قوله تعالى:

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً: إنّه قصم قرى كثيرة، ويريد أهلها. وقوله: ﴿كانت ظالمة﴾ لمّا أضاف الهلاك إلى القرية أضاف الظلم إليها، والتقدير: وكم قصمنا أهل قرية كانوا ظالمين لنفوسهم بمعاصي الله وارتكاب ما حرّمه. و ﴿كم﴾ للكثرة وهي ضدّ ﴿ربّ﴾ لأنّ ﴿ربّ﴾ للتقليل. و﴿كم﴾ في موضع نصب بـ﴿قصمنا﴾. و«القصم»: كسر الصلب قهراً، قصمه يقصمه قصماً، فهو قاصم الجبابرة، وانقصم انقصاماً مثل انقصف انقصافاً.

وقوله: ﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ يعني أوجدنا بعد هلاك أُولئك الجبابرة قوماً آخرين. و«الإنشاء»: إيجاد الشيء من غير سبب يولّده، يقال: أنشأه إنشاءاً. والنشأة الأُولى: الدنيا، والنشأة الثانية: الآخرة. ومثل الإنشاء: الاختراع والابتداع، هذا في اللغة. فأمّا في عرف المتكلّمين، فالاختراع هو ابتداع الفعل في غير محلّ القدرة عليه.

وقوله: ﴿فلما أحسّوا بأسنا﴾ معناه: لمّا أدركوا بحواسّهم عذابنا،

---

(١) قاله ابن عيسى كما في النكت والعيون ٣: ٤٣٩.

(٢) قاله سفيان كما في النكت والعيون ٣: ٤٣٩.

و«الاحساس»: الإدراك بحاسّة من الحواسّ الخمس: السمع، والبصر، والأنف، والفم، والبشرة. يقال: أحسّه إحساساً وأحسّ به. وقال قوم: أراد عذاب الدنيا[١]. وقال آخرون: أراد عذاب الآخرة[٢].

وقوله: ﴿إذا هم منها يركضون﴾ فالركض: العدو بشدّة الوطء، ركض فرسه إذا حثّه على المرّ السريع فمعنى يركضون: يهربون من العذاب سراعاً، كالمنهزم من عدوّ[٣]. فيقول الله تعالى لهم: ﴿لا تركضوا﴾ أي: لا تهربوا من الهلاك ﴿وارجعوا إلى ما أترفتم فيه﴾ أي ارجعوا إلى ما كنتم تنعمون فيه، توبيخاً لهم وتقريعاً على ما فرّط منهم. ومعنى ﴿ما أترفتم فيه﴾: نعمتم، فالمترف: المنعم و«التترّف»: التنعّم، وهو طلب النعمة. ﴿ومساكنكم لعلّكم تسألون﴾ أي: ارجعوا إلى مساكنكم لكي تفيقوا بالمسألة، في قول مجاهد. وقال قَتادة: إنّما هو توبيخ لهم في الحقيقة. والمعنى تسألون عن دنياكم؟ على طريق الهزء بهم، فقالوا عند ذلك معترفين على نفوسهم بالخطأ: ﴿يا ويلنا إنّا كنّا ظالمين﴾ لنفوسنا بترك معرفة الله وتصديق أنبيائه، وركوب معاصيه. و«الويل»: الوقوع في الهلكة، ونصب على معنى: «ألزمنا ويلنا».

ثمّ أخبر الله تعالى عنهم بأنّ ما حكاه عنهم من الويل ﴿دعواهم﴾ ونداؤهم أبداً ﴿حتّى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ بالعذاب، في قول الحسن.

---

(١) قاله قتادة كما في تفسير الطبري ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا﴾ المؤمن: ٨٥. (٢) انظر مجمع البيان ٨: ٥٣٥.

(٣) وردت العبارة في «س» هكذا: «إذاهم منها يركضون، معنى يركضون يهزمون من العذاب سراعاً، هرب المنهزم من عدوه، فالركض: العدو بشدّة الوطء: يقال: ركض فرسه: إذا حثه على السير السريع».

وقال مجاهد: يعني بالسيف، وهو قتل بخت نصر لهم. و«الحصيد»: قتل الاستئصال، كما يحصد الزرع بالمنجل، والخمود [الهمود] كخمود النار إذا طفيت.

قوله تعالى:

وَمَآ خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً على وجه التمدّح: إنّا ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما أي ما أنشأناها ﴿لاعبين﴾ ونصبه على الحال.

و«اللعب»: الفعل الّذي يدعو إليه الجهل بما فيه من النقص، لأنّ العلم يدعو إلى أمر، والجهل يدعو إلى خلافه. والعلم يدعو إلى الاحسان، والجهل يدعو إلى الإساءة لتعجيل[1] الانتفاع. واللعب يستحيل في صفة القديم تعالى، لأنّه عالم لنفسه بجميع المعلومات، غنيّ عن جميع الأشياء، ولا يمتنع وصفه بالقدرة عليه كما نقول في سائر القبائح وإن كان المعلوم أنّه لا يفعله، لما قدّمناه.

ثمّ قال تعالى: ﴿لو أرَدْنا آن نتّخذَ لهواً لاتّخذناه من لدُنّا﴾ قال الحسن ومجاهد: اللهو: المرأة. وقال قَتادة: اللهو: المرأة بلغة أهل اليمن وهو من اللهو المعروف، لأنّه يطلب بها صرف الهمّ. وهذا إنكار لقولهم: الملائكة

---

(١) في الحجريّة: «لتعجّل».

بنات الله، والمسيح ابن الله، تعالى الله عن ذلك. وروي عن الحسن البصري أيضاً أنّه قال: اللهو: الولد.

ووجه اتّصال الآية بما قبلها: أنّ هؤلاء الّذين وصفوهم أنّهم بنات الله وأبناء الله هم عبيد الله، على أتمّ وجه[١] العبوديّة، وذلك يحيل معنى الولادة لأنّها لاتكون إلّا مع المجانسة. ومعنى ﴿لو أرَدْنا أن نتّخذَ لهواً لاتّخذناه من لدنّا﴾. الإنكار على من أضاف ذلك إلى الله، ومحاجّته[٢] بأنّه لو كان جائزاً في صفته لم يتّخذه بحيث يظهر لكم أو لغيركم من العباد؛ لما في ذلك من خلاف صفة الحكيم الّذي يقدر أن يستر النقص، فيظهره. وإنّما استحال اللهو على الله تعالى، لأنّه غنيّ بنفسه عن كلّ شيءٍ سواه، فيستحيل عليه المرَح. واللاهي: المارِح والملتذّ بالمناظر الحسنة والأصوات المونقة.

وقوله: ﴿إن كنّا فاعلين﴾ قيل في معنى ﴿إن﴾ قولان:

أحدهما: أنّها بمعنى ﴿ما﴾ الّتي للنفي، والمعنى لم نكن فاعلين[٣].

والآخر: أنّها بمعنى «الّتي» للشرط[٤] والمعنى: إن كنّا نفعل ذلك، فعلناه من لدنّا، على ما أردناه إلّا أنّا لا نفعل ذلك.

وقوله: ﴿من لدنّا﴾ قيل: معناه: ممّا في السماء من الملائكة[٥]. وقال الزجّاج: معناه ممّا نخلقه[٦].

---

(١) في «س»: «وجوه». (٢) في «س»: «والمحاجّة».

(٣) قاله ابن جريج كما في النكت والعيون ٣: ٤٤٠.

(٤) النكت والعيون ٣: ٤٤٠، وانظر معاني القرآن وإعرابه ٣: ٣٨٧.

(٥) قال ابن جريج: لاتّخذنا نساءً وولداً من أهل السماء وما اتّخذنا من أهل الأرض، النكت والعيون ٣: ٤٤٠. (٦) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٣٨٦.

ثمّ قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغُهُ﴾ معناه: إنّا نلقي الحقّ على الباطل فيهلكه، والمراد به: إنّ حجج الله تعالى الدالّة على الحقّ تبطل شبهات الباطل. ويقال: دمغ الرجل: إذا شجّ شجّة تبلغ أُمّ الدماغ، فلايحيا صاحبها بعدها. وقوله: ﴿فإذا هو زاهق﴾ أي هالك مضمحلّ، وهو قول قَتادة. يقال: زهق زهوقاً: إذا هلك.

ثمّ قال لهم يعني الكفّار: ﴿ولكُمْ الويلُ ممّا تصفون﴾ يعني الوقوع[١] في العقاب، جزاءً على ما تصفون الله به من اتّخاذ الأولاد.

ثمّ أخبر الله تعالى بأنّ ﴿له مَن في السماواتِ والأرضِ ومَن عندَه﴾ يعني الملائكة أي يملكهم بالتصرّف فيهم ﴿لا يستكبرون﴾ هؤلاء عن عبادة الله ﴿ولا يستحْسِرون﴾ قال قَتادة: معناه: لا يعيون. وقال ابن زيد: لا يملّون، من قولهم: بعير حسير إذا أعيا ونام، ومنه قول علقمة بن عبدة:

بها جيَفُ الحسرى فأمّا عِظامُها فبيضٌ وأمّا جِلدُها فصليبُ[٢]

وقيل: معناه يسهل عليهم التسبيح، كسهولة فتح الطرف والنفس، في قول كعب. و«الاستحسار»: الانقطاع من الإعياء، مأخوذ من قولهم: حسر عن ذراعه إذا كشف عنه.

ثمّ وصف تعالى الّذين ذكرهم بأنّهم ﴿يسبّحونَ الليلَ والنَهارَ﴾ أي ينزّهونه عمّا أضافه هؤلاء الكفّار إليه من اتّخاذ الصاحبة والولد، وغير ذلك من القبائح ﴿لا يفتَرُون﴾ أي لا يملّونه فيتركونه، بل هم دائمون عليه.

قوله تعالى:

أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ

(١) العبارة في «س» هكذا: «ثمّ قال: ولكم، أي يا أيّها الكفّار، الويل ممّا يصفون، يعني لكم الوقوع...».

(٢) ديوان علقمة بن عبدة الفحل: ٢٧.

لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى: إنّ هؤلاء الكفّار الّذين اتّخذوا مع الله شركاء عبدوهم وجعلوها آلهة ﴿هم ينشرون﴾ أي هم يحيون؟؟ تقريعاً لهم وتعنيفاً لهم على خطئهم، في قول مجاهد. يقال: أنشر الله الموتى فنشروا، أي أحياهم فحيوا، وهو النشر بعد الطيّ، لأنّ المحيا كأنّه كان مطويّاً بالقبض عن الإدراك، فأُنشر بالحياة. والمعنى في ذلك: أنّ هؤلاء إذا كانوا لا يقدرون على الاحياء الّذي من قدر عليه قدر على أن ينعم بالنعم الّتي يستحقّ بها العبادة، فكيف يستحقّون العبادة؟!. وحكى الزجّاج: أنّه قرئ بفتح الشين[1] والمعنى: هل اتّخذوا آلهة لا يموتون أبداً، ويبقون أحياءً أبداً؟! أي لا يكون ذلك.

ثمّ قال تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة﴾ يعني في السماء والأرض آلهة، أي من يحقّ له العبادة غير الله لفسدتا لأنّه لو صحّ إلّهان أو آلهة لصحّ بينهما التمانع، فكان يؤدّي ذلك إلى أنّ أحدهما إذا أراد فعلاً وأراد الآخر ضدّه، إمّا أن يقع مرادهما فيؤدّي إلى اجتماع الضدّين أو لا يقع مرادهما، فينتقض كونهما قادرين، أو يقع مراد أحدهما، فيؤدّي إلى نقض كون الآخر قادراً، وكلّ ذلك فاسد، فإذاً لا يجوز أن يكون الإلـه إلّا واحداً. وهذا مشروح في كتب الأُصول[2].

---

(١) انظر معاني القرآن وإعرابه ٣: ٣٨٨ وفيه: «بفتح الياء»، وهو الصحيح.

(٢) المراد به كتب الكلام والفلسفة.

ثمّ نزّه تعالى نفسه عن أن يكون معه إلٓه يحقّ له العبادة، بأن قال: ﴿فسبحان الله ربّ العرش عمّا يصفون﴾ وإنّما أضافه إلى العرش، لأنّه أعظم المخلوقات، ومن قدر على أعظم المخلوقات كان قادراً على ما دونه.

ثمّ قال تعالى: ﴿لا يسأل عمّا يفعل﴾؛ لأنّه لا يفعل إلّا ما هو حكمة وصواب، ولا يقال للحكيم: لمَ فعلت الصواب؟[1] ﴿وهم يسألون﴾ لأنّه يجوز عليهم الخطأ.

ثمّ قال تعالى: ﴿أم اتّخذوا من دونِهِ آلهة﴾ معنى ﴿أم﴾ بل.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿هاتُوا برهانَكم﴾ على ذلك وحججكم على صحّة ما فعلتموه، فالبرهان هو الدليل المؤدّي إلى العلم، لأنّهم لا يقدرون على ذلك أبداً، وفي ذلك دلالة على فساد التقليد، لأنّه طالبهم بالحجّة على صحّة قولهم.

قال الرماني: ﴿إلّا﴾ في قوله: ﴿إلّا الله﴾ صفة، وليست باستثناء، لأنّك لا تقول: لو كان مَعَنا إلّا زيد لهلكنا، على الاستثناء؛ لأنّ ذلك محال، من حيث إنّك لم تذكر ما تستثني منه، كما لم تذكره في قولك: كان معنا إلّا زيد لهلكنا، قال الشاعر:

وكلّ أخٍ مفارقُهُ أخوه لعَمرُ أبيك إلّا الفَرقدانِ[2]

أراد وكلّ أخٍ يفارقه أخوه غير الفرقدين.

ثمّ قال تعالى لنبيّه ﷺ وقل لهم: ﴿هذا ذِكْرُ مَن مَعي﴾ بما يلزمهم من الحلال والحرام والخطأ والصواب، ﴿وذِكْر مَن قبلي﴾ من الأمم، ممّن نجا

---

(١) كذا في «س»، وفي المطبوعتين: «لو فعلت الصواب».

(٢) أنشده سيبويه في الكتاب ٢: ٣٣٤، ونسبه إلى عمرو بن معدي كرب.

بالإيمان أو هلك بالشرك، في قول قَتادة. وقيل: معناه: ذكر من معي بالحقّ في إخلاص الإلهيّة والتوحيد في القرآن، وعلى هذا ﴿ذكر من قبلي﴾ في التوراة والإنجيل. ثمّ أخبر أنّ أكثرَهم لا يعلمون الحقّ ولا يعرفونه، فهم يعرضون عنه إلى الباطل.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿وما أرسلنا من قبلك﴾ يا محمّد ﴿من رسول﴾ أي رسولاً، و ﴿من﴾ زائدة ﴿إلّا نوحي إليه﴾ نحن، فيمن قرأ بالنون، ومن قرأ بالياء معناه إلّا يوحي الله إليه، بأنّه لا إله، أي لا معبود على الحقيقة سواه ﴿فاعبُدُونِ﴾ أي وجّهوا العبادة إليه دون غيره.

قوله تعالى:

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾* وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

خمس آيات بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن الكفّار الّذين تقدّم ذكرهم أنّهم ﴿قالوا اتّخذَ الرحمنُ ولداً﴾ أي تبنّى الملائكة بنات، فنزّه الله تعالى نفسه عن ذلك بأن قال: ﴿سبحانه بل عبادٌ مُكْرَمون﴾ أي هؤلاء الّذين جعلوهم أولاداً لله هم عبيدالله مكْرَمون لديه، و ﴿عباد﴾ رفع بأنّه خبر ابتداء وتقديره: هم عباد، ولايجوز عليه تعالى التبنّي، لأنّ التبنّي إقامة المتّخذ لولد غيره مقام ولده لو كان له، فإذا استحال أن يكون له تعالى ولد على الحقيقة استحال أن يقوم ولد

غيره مقام ولده، ولذلك لا يجوز أن يشبّه بخلقه على وجه المجاز[١] لما لم يكن مشبّهاً به على الحقيقة.

والفرق بين الخلّة والبنوّة أنّ «الخلّة»: إخلاص المودّة بما يوجب الإخلاص والاختصاص بتخلّل الأسرار، فلما جاز أن يطلع الله إبراهيم على أسرار لا يطلع عليها غيره تشريفاً له اتّخذه خليلاً على هذا الوجه. و«البنوّة»: ولادة ابن أو إقامته مقام ابن لو كان للمتّخذ له، وهذا المعنى لا يجوز عليه تعالى، كما يستحيل أن يتّخذ إلّهاً، تعالى الله عن ذلك.

ثمّ وصف تعالى الملائكة بأنّهم ﴿لا يَسبقونَه بالقول﴾ ومعناه لا يخرجون بقولهم عن حدّ ما أمرهم به، طاعة لربّهم، وناهيك بهذا جلالة لهم وتعظيماً لشأنهم ﴿وهم بأمرِه يَعملُونَ﴾ أي لا يعملون القبائح وإنّما يعملون الطاعات الّتي أمرهم بها.

وقوله: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ قال ابن عبّاس: معناه يعلم ما قدّموا وما أخّروا من أعمالهم. وقال الكلبي ﴿ما بين أيديهم﴾ يعني القيامة وأحوالها ﴿وما خلفهم﴾ من أمر الدنيا ﴿ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى﴾ قال أهل الوعيد: معناه لا يشفع هؤلاء الملائكة إلّا لمن ارتضى الله جميع عمله، قالوا: وذلك يدلّ على أنّ أهل الكبائر لا يُشفَع فيهم، لأنّ أعمالهم ليست رضاً لله. وقال مجاهد: معناه إلّا لمن رضي عنه. وهذا الّذي ذكروه ليس في الظاهر، بل لا يمتنع أن يكون المراد: لا يشفعون إلّا لمن رضي الله أن يشفع فيه، كما قال تعالى: ﴿من ذا الّذي يشفع عنده إلّا بإذنه﴾[٢] والمراد

---

(١) في «س»: «على وجه البلاغة» وفي الحجريّة: «على وجه المجاز عنه».

(٢) البقرة: ٢٥٥.

أنّهم لا يشفعون إلّا من بعد إذن الله تعالى لهم، فيمن يشفعون فيه، ولو سلّمنا أنّ المراد إلّا لمن رضي عمله، لجاز لنا أن نحمل على أنّه رضي إيمانه وكثيراً من طاعاته. فمن أين أنّه أراد: إلّا لمن رضي جميع أعماله؟! ومعنى رضا الله عن العبد: إرادته لفعله الّذي عُرّض به للثواب. وقوله: ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ إخبار منه تعالى أنّ الملائكة من خوف عقاب الله مشفقون من مواقعة المعاصي.

ثمّ هدّد الملائكة بقوله: ﴿ومن يقلْ منهم إنّي إله﴾ تحقّ لي العبادة من دون الله ﴿فذلك نجزيه جهنّم﴾ معناه: إن ادّعى منهم مدّعٍ ذلك فإنّا نجزيه بعذاب جهنّم، كما نجازي الظالمين بها. وقال ابن جريج وقَتادة: عنى بالآية إبليس، لأنّه الّذي ادّعى الإلّهية من الملائكة دون غيره، وذلك يدلّ على أنّ الملائكة ليسوا مطبوعين على الطاعات، كما يقول الجهّال. وقوله: ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ معناه: مثل ما جازينا هؤلاء نجزي الظالمين أنفسهم بفعل المعاصي.

ثمّ قال سبحانه: ﴿أو لم يرَ الّذين كفروا﴾ أي أو لم يعلموا ﴿أنّ السماواتِ والأرضَ كانَتا رَتْقاً ففتقناهما﴾ وقيل في معناه أقوال، قال الحسن وقَتادة: ﴿كانتا رَتْقاً﴾ أي ملتصقتين ففصل الله بينهما بهذا الهواء.

وقيل: ﴿كانتا رَتْقاً﴾ السماء لا تمطر والأرض لا تنبت، ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات، ذكره ابن زيد وعكرمة، وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام (١).

---

(١) روى الشيخ الكليني في الكافي ٨: ١٢٠، ح ٩٣ معناه عن أبي جعفر عليه السلام وروى القمّي في تفسيره ٢: ٦٩ معناه عن أبي عبدالله عليه السلام.

وقيل معناه: كانتا منسدّتين لا فرج فيهما فصدعهما عمّا يخرج منهما. وإنّما قال: السماوات، والمطر والغيث ينزل من سماء الدنيا، لأنّ كلّ قطعة منها سماء، كما يقال: ثوب أخلاق، وقميص أسمال.

وقيل: الرتق: الظلمة، ففتقهما بالضياء[١] وإنّما قال: ﴿كانتا﴾ والسماوات جمع، لأنّهما صنفان، كما قال الأسود بن يعفر النهشلي:

إنّ المنيةَ والحتوفَ كلاهما ... يُوفي المخارمَ يَرقُبان سَوادي[٢]

لأنّه على النوعين، وقال القطامي:

ألم يحزنك أنّ حبالَ قَيس ... وتَغلِبَ قد تبايَنتا انقطاعا[٣]

فثنّى الجمع لمّا قسّمه صنفين: صنف لقيس وصنف لتغلب. و«الرتق»: السدّ رتَقَ فلا الفتقَ رَتْقاً: إذا سدّه، ومنه الرتقاء: المرأة الّتي فرجها ملتحم. ووحّد لأنّه مصدر وصف به.

وقوله: ﴿وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيّ﴾ والمعنى: إنّ كلّ شيء صار حيّاً، فهو مجعول من الماء، ويدخل فيه الشجر والنبات على التبع. وقال بعضهم: أراد بالماء: النطف الّتي خلق الله منها الحيوان[٤]. والأوّل أصحّ. وقوله تعالى: ﴿أفلا يؤمنون﴾ معناه: أفلا يصدّقون بما أخبرتهم. وقيل: معناه: أفلا يصدّقون بما يشاهدونه، من أفعال الله الدالّة على أنّه المستحقّ للعبادة لا غير والمختصّ بها، وأنّه لا يجوز عليه اتّخاذ الصاحبة والولد.

وقرأ ابن كثير وحده ﴿ألم يرَ الّذين كفروا﴾ بغير واو، الباقون ﴿أ ولم﴾ بالواو، والألف الّتي قبل الواو ألف توبيخ وتقرير.

---

(١) تفسير الطبري ذيل الآية.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٣٦.

(٣) أنشده الطبري ذيل الآية.

(٤) قاله أبوالعالية كما في معالم التنزيل ٤: ٢٨، زاد المسير ٥: ٢٥٧.

قوله تعالى:

وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قال المبرّد: معنى ﴿أن تَميد﴾ أي منع الأرض أن تميد، أي لهذا خلقت الجبال[١] ومثله قوله: ﴿أن تضلّ إحداهما﴾[٢] والمعنى عُدّة أن تضلّ إحداهما، كقول القائل: أعددت الخشبة أن يميل الحائل فأدعَمَهُ، وهو لم يعدها ليميل الحائط، وإنّما جعلها عُدّة لأن يميل، فيدعم بها.

يقول الله تعالى: انّا جعلنا في الأرضِ رواسي وهي الجبال، واحدها: راسية، يقال: رست ترسو رسوّاً إذا ثبتت بثقلها، وهي راسية، كما ترسو السفينة إذا وقفت متمكّنة في وقوفها ﴿أن تميد﴾ بكم معناه: ألّا تعيد بكم، كما قال تعالى: ﴿يبيّن الله لكم أن تضلّوا﴾[٣] والمعنى: ألّا تضلّوا. وقال الزجّاج: معناه كراهة أن تميد بكم[٤].

و«الميد» الاضطراب بالذهاب في الجهات، يقال: ماد يميد ميداً، فهو مائد. وقيل: إنّ الأرض كانت تميد وترجف رجوف السفينة بالوطء، فثقّلها الله تعالى بالجبال الرواسي، ليمنع من رجوفها. والوجه في تثقيل الله تعالى الأرض بالرواسي مع قدرته على إمساك الأرض أن تميد ما فيه من

---

(١) قد تقدّم مثله في سورة النحل: ١٥. (٢) البقرة: ٢٨٢.
(٣) النساء: ١٧٦. (٤) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٣٩٠، وفيه: «بهم» بدل «بكم».

المصلحة والاعتبار، وكان ابن الأخشاد يقول: لو لم يثقّل الله الأرض بالرواسي لأمكن العباد أن يحرّكوها بما معهم من القدر، فجعلت على صفة ما لا يمكنهم تحريكها. وقال قَتادة: تميد بهم معناه تمور، ولا تستقرّ بهم. وقوله: ﴿وجعلنا فيها فجاجاً﴾ يعني في الأرض طرقاً، و«الفَجّ» الطريق الواسع بين الجبلين.

﴿لعلّكم يهتدون﴾ أي لكي يَهتدوا فيه إلى حوائجهم ومواطنهم، وبلوغ أغراضهم. ويحتمل أن يكون المراد لتهتدوا، فيستدلّوا بذلك على توحيد الله وحكمته. وقال ابن زيد: معناه ليظهر شكرهم فيما يُحبّون، وصبرهم فيما يكرهون.

وقوله: ﴿وجعلنا السماءَ سَقْفاً محفوظاً﴾ وإنّما ذكّرها، لأنّه أراد السقف، ولو أنّث كان جائزاً. وقيل: حفظها الله من أن تسقط على الأرض(١). وقيل: حفظها من أن يطمع أحد أن يتعرّض لها بنقض، ومن أن يلحقها ما يلحق غيرها من الهدم أو الشعث على طول الدهر(٢). وقيل: هي محفوظة من الشياطين بالشهب الّتي يرجمون بها(٣).

وقوله: ﴿وهُم عن آياتها معرضون﴾ أي هم عن الاستدلال بحججها وأدلّتها على توحيد الله معرضون.

ثمّ قال تعالى مخبراً بأنّه ﴿هو الّذي خَلقَ الليلَ والنهارَ والشمس والقمَر﴾ وأخبر أنّ جميع ذلك ﴿في فلك يسبحون﴾ فالفلك هو المجرى الّذي تجري فيه الشمس والقمر، بدورانهما عليه، في قول الضحاك. وقال قوم: هو مرج

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣: ٤٤٥.
(٢) نقله الطبرسي عن الحسن في مجمع البيان ٧: ٤٦.
(٣) انظر معالم التنزيل ٤: ٢٨، معاني القرآن للفرّاء ٢: ٢٠١.

مكفوف تجريان فيه. وقال الحسن: الفلك طاحونة كهيئة فلك المغزل. و«الفلك» في اللغة: كلّ شيء دائر، وجمعه أفلاك، قال الراجز:

باتت تناصي الفَلَك الدوارا حتّى الصباح تُعمِل الأقتارا(١)

ومعنى ﴿يسبَحون﴾ يجرون، في قول ابن جريج. وقال ابن عبّاس ﴿يسبحون﴾ بالخير والشرّ، والشدّة والرخاء. وإنّما قال: ﴿يسبحون﴾ على فعل ما يعقل، لأنّه أضاف إليها الفعل الّذي يقع من العقلاء، كما قال: ﴿والشمس والقمر رأيتُهُم لي ساجِدينَ﴾(٢) وقال: ﴿لقد علمتَ ما هؤلاءِ يَنطقونَ﴾(٣) وقال النابغة الجعدي:

تَمزّزتُها والديكُ يدعو صباحَه إذا ما بنو نَعْشٍ دنَوْا فتصوّبُوا(٤)

وقوله: ﴿كلٌّ في فلكٍ يسبحون﴾ أراد الشمس والقمر والنجوم، لأنّ قوله ﴿الليل﴾ دلّ على النجوم.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿وما جعلنا لبشر من قَبلِكَ الخُلدَ﴾ أي البقاء دائماً في الدنيا ﴿أفإن متَ فهُم الخالدون﴾ أي لم يجعل لهم الخلود، حتّى لو متَ أنتَ لبقوا أُولئك مخلّدين وما أُولئك مخلّدين، ثمّ أكّد ذلك وبيّن بأن قال: ﴿كلّ نفسٍ ذائقةُ الموت﴾ والمعنى لابدّ لكلّ نفس حيّة بحياة أن يدخل عليها الموت، وتخرج عن كونها حيّة، وإنّما قال: ﴿ذائقة﴾ لأنّ العرب تصف كلّ أمر شاقّ على النفس بالذوق كما قال: ﴿ذق إنّك أنتَ العزيزُ الكريم﴾(٥). وقال الفرّاء: إذا كان اسم الفاعل لما مضى جازت الإضافة، وإذا كان للمستقبل، فالاختيار التنوين، ونصب ما بعده(٦).

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٣٨ ولم ينسبه إلى أحد.
(٢) يوسف: ٤.
(٣) الأنبياء: ٦٥.
(٤) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٣٨.
(٥) الدخان: ٤٩.
(٦) راجع معاني القرآن ٢: ٢٠٢.

ثمّ قال تعالى: ﴿ونَبلُوكُمْ﴾ أي نختبركم معاشر العقلاء ﴿بالشَّرِّ وَٱلخَيْرِ﴾ يعني بالمرض والصحّة والرخص والغلاء وغير ذلك من أنواع الخير والشرّ ﴿فتنةً﴾ أي اختباراً منّي لكم، وتكليفاً لكم. ثمّ قال تعالى: ﴿وإلينا ترجعون﴾ يوم القيامة، فنجازي كلّ إنسان على قدر عمله. ودخلت الفاء في قوله: ﴿أفإن﴾ وهي جزاء وفي جوابه، لأنّ الجزاء متّصل بكلام قبله. ودخلت في ﴿فَهُم﴾ لأنّه جواب الجزاء، ولو لم يكن في ﴿فَهُم﴾ الفاء، كان جائزاً على وجهين: أحدهما: أن تكون مرادة، وقد حذفت. والآخر: أن تكون قد قدّمت على الجزاء، وتقديره: ﴿افهمُ الخالدون﴾ إن متَ.

قوله تعالى:

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَاتَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيّه محمّدﷺ: إنّه ﴿إذا رآكَ الذينَ كَفَروا﴾ وجحدوا وحدانيّة الله ولم يقرّوا بنبوّتك ﴿إن يتّخذُونَك﴾ أي ليس يتّخذونك ﴿إلّا هُزُواً﴾ يعني سخريّة، جهلاً منهم وسخفاً. وفي ذلك تسلية لكلّ محقّ يلحقه أذى من جاهل مبطل. و«الهزوء» إظهار خلاف الإبطان، لإيهام النقص عن فهم القصد، يقال: هزئ منه يهزء هزواً، فهو هازئ، ومثله السخريّة ﴿أهذا الّذي يذكر آلهتَكُمْ﴾ حكاية، أي: يقولون ذلك، ومعناه إنّهم يعيبون من جحد إلهيّة من لا نعمة له، وهم يجحدون إلهية مَنْ كلّ نعمة

فهي منه، وهذا نهاية الجهل. والمعنى: أهذا الّذي يعيب آلهتكم، تقول العرب: فلان يذكر فلاناً أي: يعيبه، قال عنترة:

لا تَذكُري مُهري وما أطعمتُه
فيكون جلدُكِ مثلَ جلدِ الأجربِ[1]

وقوله: ﴿وهم بذكر الرحمن﴾ معناه وهم بذكر توحيد الرحمن ﴿هم كافرون﴾.

وقوله: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ قال قَتادة: معناه خلق الإنسان عجولاً، والمراد به جنس الإنسان. وقال السدّي: المعنيّ به آدمعليه السلام. وقال مجاهد: خلق الإنسان على تعجيل قبل غروب الشمس يوم الجمعة. وقال أبو عبيدة: معناه خلقت العجلة من الإنسان على القلب[2]. وهو ضعيف، لأنّه لاوجه لحمله على القلب. وقال قوم: معناه على حبّ العجلة[3]، لأنّه لم يخلقه من نطفة ومن علقة بل خلقه دفعة واحدة. والّذي قاله قَتادة أقوى الوجوه. وقيل: خلق الإنسان من عجل مبالغة[4] كأنّه قيل: هو عجلة، كما يقال: فإنّما هي إقبال وإدبار[5].

وقال المبرّد: خلق على صفة من شأنه أن يعجل في الأُمور وقال

(١) ديوان عنترة بن شداد: ٩٦، وهو يخاطب زوجه وكانت تلومه على عنايته بفرسه وكان يسقيها لبن الإبل. ومثل جلد الأجرب، كناية عن تهديدها بالضرب حتّى يتغيّر جلدها، أو عن مفارقتها كما يتحاشى الأجرب، ويروى الأشهب، والشبهة حمرة تضرب إلى السواد، والبيت في معاني الفرّاء ٢: ٢٠٣، واللسان «ذكر» ونقله الزجّاج في معانيه ٣: ٣٩٢ والطبري ذيل الآية، والثعلبي في الكشف والبيان ٦: ٢٧٥ وفي بعضها: «فرسي» بدل «مهري».

(٢) مجاز القرآن ٢: ٣٨ ـ ٣٩، وذكره الطبري ذيل الآية.

(٣) قاله الماوردي في النكت والعيون ٣: ٦٤٨.

(٤) انظر معالم التنزيل ٤: ٢٩.

(٥) عجز بيت للخنساء، قالته في وصف بقرة وصدره «ترتع ما رتعت حتّى إذا ادّكرت» وقولها: إقبال وإدبار، أي: لا تنفكّ تقبل وتدبر كأنّها خلقت منهما، انظر ديوان الخنساء: ٤٨.

الحسن: معناه خلق الإنسان من ضعف، وهو النطفة. وقال قوم: العجل هو الطين الّذي خلق آدم منه، قال الشاعر:

والنَبعُ ينبتُ بينَ الصـخرِ ضـاحيةً    والنَخْلُ ينبتُ بينَ الماءِ والعَجَلِ[١]

يعني الطين. و«الاستعجال»: طلب الشيء قبل وقـته الّـذي حـقّه أن يكون فيه دون غـيره. و«العـجول» الكـثير الطـلب للشـيء قـبل وقـته. و«العجلة»: تقديم الشيء قبل وقته، وهي مـذمومة. و«السـرعة»: تـقديم الشيء في أقرب أوقاته، وهي محمودة.

وقوله: ﴿سأُورِيكم آياتي فلا تَستعجلُون﴾ أي سأُظهر بيّناتي وعلاماتي، فلا تطلبوه قبل وقته.

ثمّ أخبر تعالى عن الكـفّار أنّـهم ﴿يقولون متى هذا الوعد﴾ يـريدون ما توعّد الله به من الجزاء والعقاب على المعاصي بالنيران وأنواع العـذاب ﴿إن كُنتم صادقين﴾ يعني يقولون: ﴿إن كنتم صادقين﴾ ومحقّين فيما تقولون متى يكون ما وعدتموه، فـقال الله تـعالى: ﴿لو يعلم الّذين كفروا﴾ الوقت الّـذي ﴿لا يَكُفّون﴾ فـيه أي: لا يـمنعون فـيه ﴿عن وجوههمُ النارَ ولا عن ظهورِهِم﴾ يعني إنّ النار تحيط بهم من جميع وجوههم ﴿ولا هُمْ يُنصَرونَ﴾ أي لا يدفع عنهم العذاب بوجه من الوجـوه. وجـواب ﴿لو﴾ مـحذوف، وتقديره: لعلموا صدق ما قد وعدوا به من الساعة. ثـمّ قـال: ﴿بل تأتيهم بغتةً﴾ يـعني السـاعة، والقـيامة بـغتة أي فـجأة ﴿فتبَهتُهُم﴾ أي تـحيّرهم والمبهوت: المتحيّر ﴿فلا يستطيعون ردّها﴾ ومعناه: لا يقدرون على دفعها

---

(١) أنشده السيّد المرتضى في الأمالي ١: ٤٦٩،ولم ينسبهُ إلى أحد، ونقله الماوردي في النكت والعيون ٣: ٤٤٨ والبغوي في معالم التنزيل ٤: ٢٩.

﴿ولا هم يُنظَرون﴾ أي لا يؤخّرون إلى وقت آخر. وقال البلخي: ويجوز أن تكون العجلة من فعل الله وهو ما طبع الله عليه الخلق من طلب سرعة الأشياء، وهو كما خلقهم يشتهون أشياء ويميلون إليها، ويحسن أمرهم بالتأنّي عنها، والتوقّف عند ذلك، فلأجل ذلك قال: ﴿فلا تستعجلون﴾ كما حسن نهيهم عن ارتكاب الزنا الّذي تدعوهم إليه الشهوة.

قوله تعالى:

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١) قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر ﴿ولا تُسمِعْ﴾ بالتاء وضمّها وكسر الميم ﴿الصُمَّ﴾ بالنصب، الباقون بالياء مفتوحة وبفتح الميم وضمّ ﴿الصُّمُّ﴾.

فوجه قراءة ابن عامر، أنّه وجّه الخطاب إلى النبيّ ﷺ فكأنّه قال: ﴿ولا تسمع﴾ أنتَ يا محمّد ﴿الصمّ﴾ كما قال تعالى: ﴿وما أنتَ بِمُسمع مَن في القبور﴾ (١) لأنّ الله تعالى لمّا خاطبهم فلم يلتفتوا إلى ما دعاهم إليه، صاروا بمنزلة الميّت الّذي لا يسمع ولا يعقل.

ووجه قراءة الباقين: أنّهم جعلوا الفعل لهم، ويقوّيه قوله: ﴿إذا ما ينذرون﴾ وقال أبو عليّ: ولو كان على قراءة ابن عامر، لقال: إذا

(١) فاطر: ٢٢.

ينذرون[١]. و﴿الصمّ﴾ وزنه «فعل» جمع أصمّ وأصله «أصمم» فأدغموا الميم في الميم. وتصغير أصمّ: أُصيمم. و«الصمم»: ثقل في الأُذن، فإذا كان لا يسمع شيئاً قيل «أصلج». وقال ابن دريد[٢]: أصمّ أصلج بالجيم[٣]. و«الوقر» الثقل في الأُذن.

لمّا قال الله تعالى لنبيّه محمّد: إنّ الكفّار إذا ما رأوك اتّخذوك هزواً وسخريّة علم أنّ ذلك يغمّه فسلّاه عن ذلك بأن أقسم بأنّ الكفّار فيما سلف استهزؤا بالرسل الّذين بعث الله فيهم، وسخروا منهم ﴿فحاق بالّذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ أي حلّ بهم عقوبة ما كانوا يسخرون منهم، وحاق، معناه: حلّ، حاق يحيق حيقاً، ومنه قوله: ﴿ولا يحيق المكرُ السيّئُ إلّا بأهله﴾[٤] أي يحلّ وبال القبيح بأهله الّذين يفعلونه، فكان كما أرادوه بالداعي لهم إلى الله حلَّ بهم. والفرق بين الهزء والسخريّة، أنّ في السخريّة معنى الذلّة، لأنّ التسخير: التذليل، والهزء يقتضي طلب صغر القدر ممّا يظهر في القول.

ثمّ أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بأن يقول لهؤلاء الكفّار: ﴿من يكلَؤُكم بالليل والنهار﴾ أي من يحفظكم من بأس الرحمن وعذابه. وقيل: من عوارض الآفات يقال: كلأه يكلؤه، فهو كالئ، قال ابن هرمة:

---

(١) العبارة في المصدر هكذا: «ولوكان: ﴿ولا تسمع الصمُّ﴾ كما قال ابن عامر، لكان: إذا تنذرهم، فأمّا ما ينذرون فحسن أن يتبع ولا يَسمع الصمُّ إذا ما أُنذروا. انظر الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ١٥٨.

(٢) كذا في الحجريّة، وفي «س» والحروفيّة: «ابن زيد».

(٣) لم نقف عليه في الجمهرة، وفي لسان العرب: «قال الأزهري وسمعت غير واحد من إعراب قيس وتميم يقول للاصمّ أصلج، وفيه لغة أُخرى لبني أسد ومن جاورهم أصلخ بالخاء» «وقال ابن الأعرابي، فإذا بالغوا بالأصمّ قالوا: اصمّ أصلخ» (انظر لسان العرب «صلج» و«صلخ»).

(٤) فاطر: ٤٣.

إنّ سـليمى والله يكـلَؤُها ضنّت بشيء ما كان يرزَؤُها[١]

ومعنى ﴿يكلؤكم... من الرحمن﴾ أي من يحفظكم من أن يحلّ بكم عذابه وقوله: ﴿بل هم عن ذكرِ ربّهم معرضون﴾ معناه كأنّه قال: ما يلتفتون إلى شيء من الحجج والمواعظ، بل هم عن ذكر ربّهم معرضون. وقيل: من يحفظكم ممّا يريد الله إحلاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة[٢]. ثمّ قال على وجه التوبيخ لهم والتقريع: ﴿أم لهم آلهةٌ تمنعُهُم من دونِنا﴾ أي من عذابنا وعقوباتنا.

ثمّ أخبر أنّهم ﴿لا يستطيعون نَصرَ أنفسهم﴾. وقيل: إنّ المعنى إنّ آلهتهم لا يقدرون على نصر أنفسهم، فكيف يقدرون على نصر غيرهم؟! وقيل: إنّ الكفّار لا يستطيعون نصر أنفسهم[٣]. وهو الأشبه أي لا يقدرون على دفع ما ينزل بهم عن نفوسهم ﴿ولا هُمْ منّا يُصحبَون﴾ معناه لا يصحبهم صاحب يمنعهم منّا. وقيل: ولا هم منّا يُصحبَون بأن يجيرهم مجير علينا. وقال ابن عبّاس: معناه ولا الكفّار منّا يجارون، كما يقولون: إنّ لك من فلان صاحباً، أي مَن يجيرك ويمنعك. وقال قَتادة: معناه ولا هُمْ منّا يصحبون بخير.

ثمّ قال تعالى: ﴿بل متّعنا هؤلاء وآباءَهم حتّى طال عليهم العمر﴾ أي فلم نعاجلهم بالعقوبة حتّى طالت أعمارهم. ثمّ قال موبّخاً لهم: ﴿أفلا يرون﴾ أي ألا يعلمون ﴿إنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قيل: بخرابها[٤]. وقيل:

---

(١) أنشده الطبري ذيل الآية.

(٢) قاله الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٢٠٤.

(٣) قاله ابن جريج كما في تفسير الطبري ذيل تفسير قوله تعالى ﴿فقد كذبوكم بما يقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً﴾ جامع البيان ٩: ٣٧٥.

(٤) قاله عكرمة عن ابن عبّاس: «أنّها القرية تخرب حتّى تبقى الأبيات في ناحيتها» زاد المسير ٤: ٢٦٠.

بموت أهلها(١). وقيل: بموت العلماء(٢). وقوله: ﴿أفهم الغالبون﴾ قال قَتادة: أفهم الغالبون رسول الله مع ما يشاهدونه من نصر الله له في مقام بعد مقام، توبيخاً لهم، فكأنّه قال: ما حملهم على الإعراض إلّا الاغترار بطول الإمهال حيث لم يعاجلوا بالعقوبة.

ثمّ قال تعالى لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿قل﴾ لهم ﴿إنّما أُنذرِكُم بالوحي﴾ أي أُعلمكم وأُخوّفكم بما أوحى الله إليَّ، ثمّ شبّههم بالصمّ الّذين لا يسمعون النداء إذا نودوا، فقال: ﴿ولا يسمع الصمّ الدعاءَ إذا ما يُنذَرون﴾ أي يخوّفون، من حيث لم ينتفعوا بدعاء من دعاهم، ولم يلتفتوا إليه. فسمّاهم صمّاً مجازاً أو توسّعاً.

قوله تعالى:

وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل المدينة: ﴿مثقال حبّة﴾ برفع اللام هاهنا وفي لقمان، الباقون بنصبها. فمن رفع اللام جعل ﴿كان﴾ تامّة بمعنى حدث، كما قال: ﴿إلّا أن تكون تجارة﴾(٣) ولا خبر لها. ومن نصبه جعل في ﴿كان﴾ ضميراً ونصب مثقال بأنّه خبر كان وتقديره: فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان الشيء ﴿مثقالَ حبّةٍ من خَردل﴾ وإنّما قال تعالى: ﴿بها﴾ بلفظ التأنيث والمثقال مذكّر، لأنّ

---

(١) قاله مجاهد وعطاء وقتادة كما في زاد المسير ٤: ٢٦٠.
(٢) قاله عطاء والضحّاك كما في النكت والعيون ٣: ٤٤٩.
(٣) البقرة: ٢٨٢.

مثقال الحبّة وزنها، ومثله قراءة الحسن: ﴿تَلتقِطُهُ بعضُ السيّارة﴾[1] لأنّ بعض السيّارة سيّارة. وروي أنّ مجاهد قرأ ﴿آتينا﴾ ممدوداً بمعنى جازينا بها.

أخبر الله تعالى أنّه لو مسّ هؤلاء الكفّار ﴿نفحة من عذاب ربّك﴾ ومعناه لو لحقهم وأصابهم دفعة يسيرة، فالنفحة: الدفعة اليسيرة، يقال: نَفَح يَنفَحُ نفحاً، فهو نافح، لأيقنوا بالهلاك، ولقالوا: ﴿يا ويلنا﴾ أي الهلاك علينا ﴿إنّا كنّا ظالمين﴾ لنفوسنا بارتكاب المعاصي اعترافاً منهم بذلك. ومعنى ﴿يا ويلنا﴾ يا بلاءنا الّذي نزل بنا، وإنّما يقال استغاثه ممّا يكون منه، كما يستغيث الإنسان بنداء من يرفع به.

ثمّ قال تعالى: ﴿ونضعُ الموازينَ القسطَ ليومِ القيامةِ﴾ قال قَتادة: معناه نضع العدل في المجازاة بالحقّ لكلّ أحد على قدر استحقاقه، فلا يبخس المثاب بعض ما يستحقّه، ولا يفعل بالمعاقب فوق ما يستحقّه. وقال الحسن: هو ميزان له كفّتان ولسان، يذهب إلى أنّه علامة جعلها الله للعباد يعرفون بها مقادير الاستحقاق. وقال قوم: ميزان ذو كفّتين تُوزن بها صحف الأعمال. وقال بعضهم: يكون في إحدى الكفّتين نور، وفي الأُخرى ظلمة، فأيّهما رجح علم به مقدار ما يستحقّه، وتكون المعرفة في ذلك ما فيه من اللطف والمصلحة في دار الدنيا.

وقوله: ﴿ليوم القيامة﴾ معناه لأهل يوم القيامة. وقيل: في يوم القيامة.

وقوله: ﴿وإن كانَ مثقال حَبّةٍ من خردلٍ أتينا بها﴾ معناه أنّه لا يضيع لديه قليل الأعمال والمجازاة عليه، كانت طاعة أو معصية ﴿وكفى بنا حاسبين﴾ أي وكفى المطيع أو العاصي بمجازاة الله [وحسبه ذلك] وفي ذلك غاية التهديد، لأنّه إذا كان الّذي يتولّى الحساب لا يخفى عليه قليل ولا كثير،

---

(١) يوسف: ١٠.

كان أعظم. والباء في قوله: ﴿كفى بنا﴾ زائدة. و﴿حاسبين﴾ يحتمل أن يكون نصباً على الحال أو المصدر في قول الزجّاج[1].

ثمّ أخبر الله تعالى بأنّه آتى موسى وهارون الفرقان، قال مجاهد وقَتادة: هو التوراة الّتي تفرق بين الحقّ والباطل. وقال ابن زيد: هو البرهان الّذي فرق بين حقّه وباطل فرعون، كما قال تعالى: ﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقانِ يومَ التقى الجمعان﴾[2].

وقوله: ﴿وضياءً﴾ أي وآتيناه ضياءً يعني أدلّة يهتدون بها كما يهتدون بالضياء. وآتيناه ﴿ذكراً للمتّقين﴾ أي مذكّراً لهم، يذكرون الله به. ومن جعل الضياء والذكر حالاً للفرقان قال: دخلته واو العطف، لاختلاف الأحوال، كقولك: «جاءني زيد الجواد والحليم والعالم» وأضافه إلى المتّقين، لأنّهم المتنفعون به دون غيرهم. ثمّ وصف تعالى المتّقين بأن قال: هم ﴿الّذين يَخشَون﴾ عذاب الله فيجتنبون معاصيه في حال السرّ والغيب. وقال الجبّائي: معناه يؤمنون بالغيب الّذي أخبرهم به، وهم من مجازاته يوم القيامة ﴿مشفقون﴾ أي خائفون.

ثمّ أخبر عن القرآن، فقال: ﴿وهذا ذِكْرٌ مباركٌ﴾ يعني القرآن ﴿أنزلناه﴾ عليك يا محمّد. وخاطب الكفّار فقال: ﴿أفأنتم له منكرون﴾ أي تجحدونه، على وجه التوبيخ لهم والتقرير، وفي ذلك دلالة على حدوثه، لأنّ ما يوصف بالإنزال وبأنّه مبارك يتنزّل به لا يكون قديماً، لأنّ ذلك من صفات المحدثات.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٣٩٤.

(٢) الأنفال: ٤١.

هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ خمس آيات.

لمّا أخبر الله تعالى أنّه آتى موسى وهارون الفرقان والضياء والذكر، وبيّن أنّ القرآن ذكر مبارك أنزله على محمّدﷺ أخبر أنّه آتى إبراهيم أيضاً قبل ذلك ﴿رشده﴾ يعني آتيناه من الحجج والبيّنات ما يوصله إلى رشده، من معرفة الله وتوحيده. و«الرشد» هو الحقّ الّذي يؤدّي إلى نفع يدعو إليه، ونقيضه: الغيّ، رشد يرشد رشداً ورَشَداً، فهو رشيد. وفي نقيضه: غوي يغوى غيّاً، فهو غاو. وقال قَتادة ومجاهد: معنى «آتيناه رشده» هديناه صغيراً. وقال قوم: معنى ﴿رشده﴾ النبوّة.

وقوله: ﴿وكنّا به عالمين﴾ أي كنّا عالمين بأنّه موضع لإيتاء الرشد، كما قال تعالى: ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾(١) وقيل: كنّا نعلم أنّه يصلح للنبوّة: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيلُ الّتي أنتم لها عاكِفونَ﴾. ﴿إذ﴾ في موضع نصب، والعامل فيه «آتيناه رشده... إذ قال» أي في ذلك الوقت، وفيه إخبار عمّا أنكر إبراهيم على قومه وأبيه حين رآهم يعبدون الأصنام والأوثان، فإنّه قال لهم: أيّ شيء هذه الأصنام؟! يعني الصور الّتي صرتم لازمين لها بالعبادة، و«العكوف»: اللزوم لأمر من الأُمور، عكف عليه عكوفاً، فهو عاكف. وقيل في معنى: ﴿لها عاكفون﴾ لأجلها. وقوله: ﴿من قبل﴾ يعني من قبل موسى وهارون. وقال مجاهد: ﴿هذه التماثيل﴾ الأصنام. ثمّ حكى ما أجابه به قومه، فإنّهم قالوا: ﴿وجدنا آباءنا لها﴾ لهذه الأصنام ﴿عابدين﴾ فأحالوا على مجرّد التقليد، فقال لهم إبراهيم: ﴿لقد

(١) الدخان: ٣٢.

كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ فذمّهم على تقليد الآباء، ونسب الجميع إلى الضلالة والعدول عن الحقّ. فقالوا له عند ذلك: ﴿أجئتنا بالحقّ أم أنت من اللاعبين﴾ ومعناه: أجادٌّ أنت فيما تقول، محقّ عند نفسك، أم أنت لاعب مازح؟ وذلك أنّهم كانوا يستبعدون إنكار عبادتها عليهم.

قوله تعالى:

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ الكسائي ﴿جذاذاً﴾ بكسر الجيم، الباقون بضمّها. فمن ضمّ الجيم أراد جعلهم قطعاً، وهو ﴿فعال﴾ على وزن الرُفات والفتات والرقاق، وجذذته أجذّه جذّاً أي قطعته. وقال ابن عبّاس: الجذاذ الحطام. ومن كسر الجيم فإنّه أراد جمع جذيذ ﴿فعيل﴾ بمعنى مجذوذ، ومثله كريم وكرام، وخفيف وخفاف، وبالضمّ مصدر لا يثنّى ولا يجمع، قال جرير:

بنو المهلّبِ جذّ اللهُ دابرهُمْ     أمسَوْا رَماداً فلاأصلٌ ولا طَرفُ[1]

حكى الله تعالى ما ردّ به إبراهيم على كفّار قومه حين قالوا له: ﴿أجئتنا بالحقّ أم أنت من اللاعبين﴾ فإنّه قال لهم ﴿بل ربّكم ربّ السماوات والأرضِ الّذي﴾ خلقكم ودبّركم، والّذي خلق السماوات والأرض و﴿فَطَرهنَّ﴾ معناه: ابتدأهنّ، و«الفطر»: شقّ الشيء من أمر ظهر منه يقال: فطره يفطره فطراً وانفطر انفطاراً، ومنه: تفطر الشجر بالورق، فكأنّ السماء تنشقّ عن شيء فظهرت بخلقها.

---

(١) ديوان جرير: ٢٩٣، وفيه «آل» بدل «بنو».

ثمّ قال إبراهيم: ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ يعني أنا على ما قلت لكم: من أنّه تعالى خالقكم وخالق السماوات شاهد بالحقّ لأنّه دالّ، والشاهد: الدالّ على الشيء عن مشاهدة، فإبراهيمعليه السلام شاهد بالحقّ دالّ عليه بما يرجع إلى ثقة المشاهدة.

ثمّ أقسم إبراهيم فقال: ﴿وتالله لأكيدنَّ أصنامكم﴾ وذلك قسم، والتاء في القسم لا تدخل إلّا في اسم الله تعالى، لأنّها بدل من الواو والواو بدل من الباء، فهي بدل من بدل، فلذلك اختصّت باسم الله. وقال قَتادة: معناه: لأكيدنَّ أصنامَكم في سرّ من قومه. و«الكيد»: ضرّ الشيء بتدبير عليه، يقال: كاده يكيده كيداً فهو كائد، وقوله: ﴿بعد أن تولّوا مدبرين﴾ يقال: إنّه انتظرهم حتّى خرجوا إلى عيد لهم فحينئذٍ كسر أصنامهم.

ثمّ أخبر تعالى أنّه ﴿جَعلَهُم جُذاذاً﴾ أي قطعاً ﴿إلّا كبيراً لهم﴾ تركه على حاله، ويجوز أن يكون كبيرهم في الخلقة، ويجوز أن يكون أكبرهم عندهم في التعظيم ﴿لعلّهم إليه يرجعون﴾ أي لكي يرجعوا إليه فينتبهوا على ما يلزمهم فيه من جهل من اتّخذوه إلهاً، إذا وجدوه على تلك الصفة. ولمّا كسر الأصنام على ما ألزمهم من فعل الكبير لما كان من التكسير وسؤالهم عن حالهم كان ذلك كيداً لهم، وفي الكلام حذف، لأنّ تقديره: إنّ قومه رجعوا من عيدهم، فوجدوا أصنامهم مكسّرة ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنّه لمن الظالمين﴾ فـ﴿من﴾ بمعنى الّذي، وتقديره: الّذي فعل هذا بمعبودنا، فإنّه ظلم نفسه.

وقوله: ﴿قالوا سمعنا فتىً يذكرُهُم يُقالُ له إبراهيم﴾ قيل: تخلف بعضهم فسمع إبراهيم يذكرها بالعيب، فذكر ذلك، ورفع «إبراهيم» بتقدير: يقال له:

هذا إبراهيم، أو ينادى يا إبراهيم، ذكره الزجّاج[١].

قوله تعالى:

قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

لمّا قال بعضهم: إنّه سمع إبراهيم يعيب آلهتهم وحكاه لقومه قالوا: جيئوا به على أعين الناس لعلّهم يشهدون، وقيل في معناه قولان: أحدهما: قال الحسن وقَتادة والسدّي: كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة، فقالوا: جيئوا به بحيث يراه الناس، ويكون بمرأى منهم ﴿لعلّهم يشهدون﴾ بما قاله: إنّي أكيد أصنامهم شهادة تكون حجّة عليه. الثاني: قال ابن إسحاق ﴿لعلّهم يشهدون﴾ عقابه. وقيل: ﴿لعلّهم يشهدون﴾ حجّته وما يقال له من الجواب[٢] فلمّا جاؤوا به قالوا له: ﴿أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾ مقرّرين له على ذلك، فأجابهم إبراهيم بأن قال: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾.

وإنّما جاز أن يقول: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وما فعل شيئاً، لأحد أمرين: أحدهما: أنّه قيّده بقوله: ﴿إن كان ينطقون﴾ فقد فعله كبيرهم. وقوله: ﴿فاسألوهم﴾ اعتراض بين الكلامين، كما يقول القائل: عليه الدارهم فاسأله إن أقرّ.

والثاني: أنّه خرج مخرج الخبر وليس بخبر، وإنّما هو إلزام دلّ على تلك الحال، كأنّه قال: بل ما تنكرون فعله كبيرهم هذا، فالإلزام تارةً يأتي

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٣٩٦.
(٢) قاله ابن كامل، كما في النكت والعيون ٣: ٤٥١.

بلفظ السؤال وتارةً بلفظ الأمر، كقوله: ﴿فأتوا بسورة مثله﴾[١] وتارة بلفظ الخبر. والمعنى فيه: أنّه من اعتقد كذا لزمه كذا.

وقد قرئ في الشواذّ[٢] ﴿فعلّه كبيرُهُم﴾ [بتشديد اللام بمعنى فلعلّ كبيرهم][٣] فعلى هذا لا يكون خبراً[٤] فلا يلزم أن يكون كذباً، والكذب قبيح لكونه كذباً، فلا يحسن على وجه، سواء كان فيه نفع أو دفع ضرر.

وعلى كلّ حال فلا يجوز على الأنبياء القبائح، ولا يجوز أيضاً عليهم التعمية في الإخبار، ولا التقيّة في إخبارهم، لأنّه يؤدّي إلى التشكيك في إخبارهم، فلا يجوز ذلك عليهم على وجه.

فأمّا ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله بأن قال: «لم يكذب إبراهيم إلّا ثلاث كذبات كلّها في الله»[٥] فإنّه خبر لا أصل له، ولو حسن الكذب على وجه ـ كما يتوهّم بعض الجهّال ـ لجاز من القديم تعالى ذلك. وزعموا أنّ الثلاث كذبات هي قوله: ﴿فعلَه كبيرُهم هذا﴾ وما كان فعله. وقوله: ﴿إنّي سقيم﴾[٦] ولم يكن كذلك. وقوله في سارة لما أراد الجبّار أخذها: إنّها أُختي، وكانت زوجته. حتّى قال بعضهم: كان الله أذن له في ذلك[٧]. وهذا باطل، لأنّه لو أذن الله له فيه، لكان الكذب حسناً. وقد بيّنّا أنّه قبيح على كلّ حال. وقيل:

---

(١) يونس: ٣٨.

(٢) وهي قراءة محمّد بن السميفع اليماني كما في مختصر في شواذّ القرآن لابن خالويه: ٩٤.

(٣) لم يرد في «س».

(٤) العبارة في «س» هكذا: «فعلى هذا لا يجوز أن يكون إلّا خبراً».

(٥) جزء من حديث طويل رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن أنس بن مالك، وفيه: «... ثلاث كذبات كذبهنّ، قوله إنّي سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وأتى على جبّار مترف ومعه امرأته فقال: أخبريه انّي أخوك، فإنّي مخبره أنّك أُختي. انظر مسند أحمد ٣: ٢٤٤.

(٦) الصافّات: ٨٩.

(٧) قاله الثعلبي في الكشف والبيان ٦: ٢٨٠.

معنى قوله: ﴿إنّي سقيم﴾ أي سأُسقم[١] لأنّه لمّا نظر إلى بعض الكواكب علم أنّه وقت نوبة حمّى كانت تجيئه، فقال: إنّي سقيم. وقيل معناه: إنّي سقيم غمّاً بضلالكم. وقيل: معناه: سقيم عندكم، فيما أدعوكم إليه من الدين. وقيل: إنّ من كانت عاقبته الموت جاز أن يقال فيه: سقيم، مثل المريض المشفي على الموت. وأمّا قوله في سارة: إنّها أُختي، فإنّه أراد في الدين. وأمّا قول يوسف لأخوته: ﴿إنّكم لسارقون﴾[٢] فقد قال قوم: هو من قول مؤذّن يوسف على ظنّه فيما يقتضيه الحال من الظنّ الّذي يعمل عليه[٣]. وقيل: معناه: أنّكم لسارقون يوسف عليه السلام[٤].

وقوله تعالى: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي عادوا إلى نفوسهم، يعني: بعضهم إلى بعض وقال بعضهم لبعض: ﴿إنّكم أنتم الظالمون﴾ في سؤاله، لأنّها لو كانت آلهة لم يصل إبراهيم إلى كسرها.

وقوله تعالى: ﴿ثمّ نكسوا على رؤوسهم لقد علمتَ ما هؤلاءِ ينطقون﴾ فالنكس هو جعل الشيء أسفله أعلاه، ومنه النكس في العلّة إذا رجع إلى أوّل حاله. والمعنى: أدركتهم حيرة سوء، فنكسوا لأجلها رؤوسهم. ثمّ أقرّوا بما هو حجّة عليهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون﴾ فأقرّوا بهذا للحيرة الّتي لحقتهم، فكان ذلك دلالة على خطئهم، لكنّهم أصرّوا على العناد.

---

(١) قاله الضحّاك كما نقله البغوي في معالم التنزيل ٤: ٣٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٦: ٣١٢.

(٢) يوسف: ٧٠.

(٣) قال ابن جرير: أنّ المنادي نادى وهو لا يعلم أنّ يوسف أمر بوضع السقاية في رحل أخيه فكان غير كاذب في قوله، زاد المسير ٤: ١٩٨.

(٤) قاله الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه ٣: ١٢٣.

قوله تعالى:

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَالاَ يَنفَعُكُم شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُم ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَآ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ خمس آيات.

يقول الله تعالى: لمّا قال كفّار قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿لقد علمتَ ما هؤلاء يَنطقُونَ﴾ فقال لهم إبراهيم منبّهاً لهم على خطئهم وضلالهم: ﴿أفتعبُدونَ مِنْ دُونِ الله﴾ أي توجّهون عبادتكم إلى الأصنام الّتي لا تنفعكم شيئاً ولا تدفع عنكم ضرّاً، لأنّها لو قدرت على نفعكم وضرّكم لدفعت عن نفسها حتّى لم تكسّر، ولأجابت حين سئلت من دون الله الّذي يقدر على ضرّكم ونفعكم من ثوابكم وعقابكم، وأنّه يفعل معكم ما لا يقدر عليه سواه.

وليس كلّ من قدر على الضرّ والنفع يستحقّ العبادة، وإنّما يستحقّها من قدر على أُصول النعم ـ الّتي هي خلق الحياة والشهوة والقدرة وكمال العقل ـ ويقدر على الثواب والعقاب أو لمنافع تقع على وجه لا يقدر على إيقاعها على ذلك الوجه سواه. قال الرماني: لأنّه تعالى لو فعل حركة فيها لطف في إيمان زيد كزلزلة الأرض في بعض الأحوال، ثمّ آمن عندها إيماناً يتخلّص به من العقاب ويستحقّ الثواب الّذي ضمنه بالإيمان لا يستحقّ (١) ـ بفعل الحركة على هذا الوجه ـ العبادة.

ثمّ قال مهجّناً لأفعالهم مستقذراً لها: ﴿أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ فمعنى ﴿أُفٍّ﴾ الضجر بما كان من الأمر وهي كلمة مبنيّة، لأنّها وضعت وضع الصوت الخارج عن دلالة الإشارة والإفادة، فصارت كدلالة

(١) في «س»: لاستحقّ.

الحرف، لأنّه يفهم المعنى بالحال المقارنة لها، وبنيت على الحركة لالتقاء الساكنين إذ لا أصل لها في التمكّن مستعمل، فتستحقّ به البناء على الحركة. وكسرت على أصل الحركة لالتقاء الساكنين.

وقال الزجّاج: معنى ﴿أُفٍّ لكم﴾ نتناً لأفعالكم، ويجوز ضمّ الفاء للاتّباع لضمّة الهمزة، ويجوز الفتح لثقل التضعيف، ويجوز التنوين على التنكير[1].

وقوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ معناه: أفلا تتفكّرون بعقولكم في أنّ هذه الأصنام لا تستحقّ العبادة، ولا تقدر على الضرّ والنفع، فلمّا سمعوا منه هذا القول قال بعضهم لبعض: ﴿حرِّقُوه﴾ يعني بالنار ﴿وانصُرُوا آلهتكم﴾ أي عظّموها وادفعوا عنها وعن عبادتها ﴿إنْ كُنْتُم فاعِلين﴾ معناه: إن كنتم ناصريها، ولم تريدوا ترك عبادتها. و«التحريق» هو التقطيع بالنار يقال: حرّقه تحريقاً وأحرقه إحراقاً، وثوب حرق، أي: متقطّع كالتقطّع بالنار. واحترق الشيء احتراقاً، وتحرّق على الأمر تحرّقاً. وقال ابن عمر: الّذي أشار بتحريق إبراهيم رجل من أكراد فارس. وفي الكلام حذف لأنّ تقديره: أوثقوا إبراهيم واطرحوه في النار.

فقال الله تعالى عند ذلك للنار: ﴿كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ وقيل في وجه كون النار برداً وسلاماً قولان:

أحدهما: أنّه تعالى أحدث فيها برداً بدلاً من شدّة الحرارة الّتي فيها، فلم تؤذه.

والثاني: أنّه تعالى حال بينها وبين جسمه، فلم تصل إليه؛ ولو لم يقل «سلاماً» لأهلكه بردها، ولم يكن هناك أمر على الحقيقة. والمعنى أنّه فعل

---

(١) انظر معاني القرآن وإعرابه ٣: ٣٩٨.

ذلك، كما قال: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾[١] أي صيّرهم كذلك من غير أن أمرهم بذلك. وقال قَتادة: ما أحرقت النار منه إلّا وثاقه. وقال قوم: إنّ إبراهيم لمّا أوثقوه ليلقوه في النار قال: ﴿لا إله إلّا أنت سبحانك ربّ العالمين، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك﴾[٢].

ثمّ أخبر تعالى أنّ الكفّار أرادوا بإبراهيم كيداً وبلاءً، فجعلهم الله الأخسرين يعني بتأييد إبراهيم وتوفيقه، ومنع النار من إحراقه حتّى خسروا وتبيّن كفرهم وضلالهم.

قوله تعالى:

وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ خمس آيات.

يقول الله تعالى: إنّا نجّينا إبراهيم ولوطاً من الكفّار الّذين كانوا يخافوهم، وحملناهما إلى الأرض الّتي باركنا فيها للعالمين. قال قَتادة: نجّيا من أرض كوثى إلى الشام. وقال أبو العالية: ليس ماء عذب إلّا من الصخرة الّتي في بيت المقدس. وقال ابن عبّاس: نجّاهما إلى مكّة، كما قال: ﴿إنّ أوّل بيت وضع للناس لَلّذي ببكّة مباركاً﴾[٣] وقيل: إلى أرض بيت المقدس[٤] . وقال الزجّاج: من العراق إلى أرض الشام[٥]. وقال الجبّائي:

---

(١) البقرة: ٦٥.
(٢) رواه البغوي في معالم التنزيل ٤: ٣٤ عن أُبيّ بن كعب.
(٣) آل عمران: ٩٦.
(٤) قاله أبو العوام كما في النكت والعيون ٣: ٤٥٤.
(٥) في معاني القرآن وإعرابه ٣: ٣٩٨: جاء في التفسير أنّها من أرض الشام إلى العراق.

أراد أرض الشام، وإنّما قال: ﴿للعالمين﴾ لما فيها من كثرة الأشجار والخيرات الّتي ينتفع جميع الخلق بها إذا حلّوا بها. وإنّما جعلها مباركة، لأنّ أكثر الأنبياء بعثوا منها، فلذلك كانت مباركة. وقيل: لما فيها من كثرة الأشجار والثمار[١]. و«النجاة» هو الدفع عن الهلاك، فدفع الله إبراهيم ولوطاً عن الهلكة إلى الأرض المباركة. و«البركة» ثبوت الخير النامي، ونقيضها: الشؤم، وهو إمحاق الخير وذهابه. وقيل: في هذه الآية دلالة على نجاة محمّد ﷺ كما نجّا إبراهيم من عبدة الأصنام، إلى الأرض الّتي اختارها له.

ثمّ قال: ﴿ووهبنا له﴾ يعني إبراهيم أي أعطيناه اجتلاباً لمحبّته، فالله تعالى يحبّ أنبياءه ويحبّونه، ويحب أن يزدادوا في محبّته بما يهب لهم من نعمه ﴿إسحاق ويعقوب﴾ أي أعطيناه إسحاق ومعه يعقوب ﴿نافلة﴾ أي زيادة على ما دعانا به. وقوله: ﴿نافلةً﴾ أي فضلاً، في قول ابن عبّاس وقَتادة وابن زيد، لأنّه كان سأل الله أن يرزقه ولداً من سارة، فوهب له إسحاق، وزاده يعقوب ولد ولده. وقيل: جميعاً نافلة، لأنّهما عطيّة زائدة على ما تقدّم من النعمة، في قول مجاهد وعطاء و«النفل»: النفع الّذي يوجب الحمد به، لأنّه ممّا زاد على حدّ الواجب، ومنه صلاة النافلة، أي فضلاً على الفرائض. وقيل: نافلة، أي غنيمة، قال الشاعر:

لله نافلةُ الأعزّ الأفضلِ[٢]

وقوله: ﴿وكلّاً جعلنا صالحين﴾ يحتمل أمرين:

---

(١) معالم التنزيل ٤: ٣٥.

(٢) هذا صدر بيت للبيد بن ربيعة، كما في ديوانه: ١٢٦، وفيه:

لله نافلة الأجلّ الأفضل ... وله العلى وأثيث كلّ مؤثّل

الاثيث: الكثرة، والمؤثل: الدائم الراسخ الأصول.

أحدهما: أنّه جعلهم بالتسمية على وجه المدح بالصلاح أي سمّيناهم صالحين.

والثاني: أنّا فعلنا بهم من اللطف الّذي صلحوا به.

ثمّ وصفهم بأن قال: ﴿وجعلناهم أئمّةً﴾ يقتدى بهم في أفعالهم ﴿يَهدونَ﴾ الخلق إلى طريق الحقّ ﴿بأمرنا وأوحينا إليهم فعلَ الخيراتِ﴾ أي أوحينا إليهم بأن يفعلوا الخيرات ﴿وإقام الصلاة﴾ أي وبأن يقيموا الصلاة بحدودها، وإنّما قال: ﴿وإقام الصلاة﴾ بلا «هاء» لأنّ الإضافة عوض الهاء ﴿وإيتاء الزكاة﴾ أي بأن يؤتوا الزكاة، الّتي فرضها الله عليهم.

ثمّ أخبر أنّهم كانوا عابدين لله وحده لا شريك له، لا يشركون بعبادته سواه.

وقوله: ﴿ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً﴾ نصب «لوطاً» بـ«آتيناه» وتقديره: وآتينا لوطاً آتيناه، كقوله: ﴿والقمر قدّرناه منازِلَ﴾[١]. ويجوز أن يكون نصباً بتقدير: اذكر لوطاً آتيناه حكماً أي أعطيناه الفصل بين الخصوم بالحقّ أي جعلناه حاكماً، وعلّمناه ما يحتاج إلى العلم به.

وقوله: ﴿ونجّيناه من القريةِ الّتي كانت تعملُ الخبائثَ﴾ يعني أنّهم كانوا يأتون الذكران في أدبارهم ويتضارطون في أنديتهم، وهي قرية «سَدُوم»[٢] على ما روي[٣].

ثمّ أخبر ﴿أنّهم كانوا قومَ سَوءٍ فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعة الله إلى

---

(١) يس: ٣٩.

(٢) ضبطه الجوهري وغيره بالدال، وقال الفيروزآبادي: الصواب أنّه بالذال. وقال البغدادي في المحبّر: ٤٦٧: ومدائن قوم لوط: سدوم... وذكرها.

(٣) رواه عليّ بن إبراهيم عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام كما في البحار ١٢: ١٥٢.

معاصيه. ثمّ عاد تعالى إلى ذكر لوط فقال: ﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾ أي نعمتنا ﴿إنّه من الصالحين﴾ الّذين أصلحوا أفعالهم. فعملوا بما هو حسن منها، دون ما هو قبيح.

قوله تعالى:

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ﴿لنحصنكم﴾ بالنون أبو بكر عن عاصم، وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم بالتاء، الباقون بالياء. فمن قرأ بالتاء، فلأنّ الدروع مؤنّثة، فأسند الفعل إليها. ومن قرأ بالياء أضافه إلى «لَبوس»، وهو مذكّر، ويجوز أن يكون أسند الفعل إلى الله تعالى. ويجوز أن يضيفه إلى التعليم، ذكره أبوعليّ[1]. ومن قرأ بالنون أسند الفعل إلى الله ليطابق قوله: ﴿وعلّمناهُ﴾.

يقول الله تعالى لنبيّه محمّد ﷺ: واذكر يا محمّد ﴿نوحاً﴾ حين ﴿نادى من قبل﴾ إبراهيم. و«النداء»: الدعاء على طريقة «يا فلان» فأمّا على طريقة «افعل» و «لا تفعل» فلا يسمّى نداء وإن كان دعاء. والمعنى: إذ دعا ربّه، فقال: ربّ، أي يا ربّ، نجّني وأهلي من الكرب العظيم فقال الله تعالى: ﴿فاستجبنا له﴾ أي أجبناه إلى ما التمسه ﴿فنجّيناه وأهله من الكرب

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ١٦٠ وفيه: «ويجوز أن يكون اللباس، لأنّ اللبوس بمعنى اللباس من حيث كان ضرباً منه، ويجوز أن يكون داود ويجوز أن يكون التعليم يدلّ عليه (علّمنا)».

العظيم﴾[١] و«الكرب»: الغمّ الّذي يحمى به القلب، ويحتمل أن يكون غمّه كان لقومه. ويجوز أن يكون من العذاب الّذي نزل بهم. وقوله: ﴿ونصرناهُ من القومِ الّذين كذَّبوا بآياتِنا﴾ أي منعناه منهم أن يصلوا إليه بسوء. ومعنى نصرته عليه: أعنته على غلبته[٢]. ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّهم كانوا قوم سوء﴾ فأغرقهم الله أجمعين بالطوفان.

ثمّ قال: واذكر يا محمّد ﴿داود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ﴾ في الوقت الّذي ﴿نفشت فيه غنم القوم﴾ و«النفش» لا يكون إلّا ليلاً على ما قاله شريح. وقال الزهري: الهَمَل والنَشْر بالنهار، والنَفَش بالليل. والحرث الّذي حكاه فيه قال قَتادة: هو زرع وقعت فيه الغنم ليلاً، فأكلته. وقيل: كرم قد نبتت[٣] عناقيده، في قول ابن مسعود وشريح. وقيل: إنّ داود كان يحكم بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبيّ الله، قال: وما ذاك؟ قال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوّم عليه حتّى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتّى إذا عاد الكرم كما كان دفع كلّ واحد إلى صاحبه، ذكره ابن مسعود، وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[٤].

وقال أبو عليّ الجبّائي: أوحى الله إلى سليمان ممّا نسخ به حكم داود الّذي كان يحكم به قبل، ولم يكن ذلك عن اجتهاد، لأنّ الاجتهاد لا يجوز أن يحكم به الأنبياء. وهذا هو الصحيح عندنا.

---

(١) العبارة من قوله: «فقال الله تعالى» إلى هنا لم ترد في الحجريّة.

(٢) كذا في الحجريّة، وفي س: «أعنته عليه حتّى غلبه»، وفي الحروفيّة: «أعنته على غلبه».

(٣) في الحجريّة: «يبست» بدل «نبتت».

(٤) نقله الطبرسي في مجمع البيان ٧: ٥٧، وانظر الكافي ٥: ٣٠١ ـ ٣٠٢، الحديث ٢ و٣ وروى الشيخ في التهذيب ٧: ٢٢٤، ح ٩٨٢ معنى الحديث ٢.

وقال ابن الأخشاد والبلخي والرماني: يجوز أن يكون ذلك عن اجتهاد، لأنّ رأي النبيّ أفضل من رأي غيره، فكيف يجوز التعبّد بالتزام حكم غيره من طريق الاجتهاد، ويمتنع من حكمه من هذا الوجه.

والدليل على صحّة الأوّل: أنّ الأنبياء عليهم السلام يوحى إليهم، ولهم طريق إلى العلم بالحكم، فكيف يجوز أن يعملوا بالظنّ؟! والأُمّة لا طريق لها إلى العلم بالأحكام فجاز أن يكلّفوا ما طريقه الظنّ. على أنّ عندنا لا يجوز في الأُمّة أيضاً العمل على الاجتهاد. وقد بيّنّا ذلك في غير موضع[١]. ومن قال: إنّهما اجتهدا، قال: أخطأ داود وأصاب سليمان.

وذكروا في قوله: ﴿إذ يحكمان﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: إذ شرعا في الحكم فيه من غير قطع به في ابتداء الشرع.

وثانيها: أن يكون حكمه حكماً معلّقاً بشرط لم يفعله بعد.

وثالثها: أن يكون معناه طلباً بحكم في الحرث، ولم يبتديا به بعد.

ويقوّي ما قلناه قوله تعالى: ﴿ففهّمناها سليمان﴾ يعني علّمنا الحكومة في ذلك سليمان. وقيل: إنّ الله تعالى فهّم سليمان قيمة ما أفسدت الغنم.

ثمّ أخبر تعالى بأنّه آتى كلّاً حكماً وعلماً، فدلّ على أنّ ما حكم به داود كان بوحي الله وتعليمه. وقيل: معنى قوله: ﴿ففهّمناها سليمانَ﴾ أي فتحنا له طريق الحكومة، لما اجتهد في طلب الحقّ فيها، من غير عيب على داود فيما كان منه في ذلك، لأنّه اجتهد فحكم بما أدّى اجتهاده إليه.

وقوله: ﴿وسخّرنا مع داود الجبال﴾ معناه سيّر الله تعالى الجبال مع داود حيث سار، فعبّر عن ذلك بالتسبيح، لما فيها من الآية العظيمة الّتي تدعو له

---

(١) راجع التبيان ٣: ٣٦٥ ذيل تفسير الآية ٢٣٠ من سوره البقرة و٤: ١٦١ ذيل الآية ٩٣ من سورة آل عمران.

بتعظيم الله وتنزيهه عن كلّ ما لا يليق به، ولا يجوز وصفه به، وكذلك سخّر له الطير[١] وعبّر عن ذلك التسخير بأنّه تسبيح من الطير، لدلالته على أنّ من سخّرها قادر لا يجوز عليه العجز، كما يجوز على العباد.

وقوله: ﴿وكنّا فاعلين﴾ أي وكنّا قادرين على ما نريده[٢]. وقال الجبّائي: أكمل الله تعالى عقول الطير حتّى فهمت ما كان سليمان يأمرها به وينهاها عنه، وما يتوعّدها به متى خالفت.

وقوله: ﴿وكنّا لحكمهم شاهدين﴾ إنّما جمعه في موضع التثنية، لأنّ داود وسليمان كان معهما المحكوم عليه ومن حكم له، فلا يمكن الاستدلال على أنّ أقلّ الجمع اثنان. ومن قال: إنّه كناية عن الاثنين، قال: هو يجري مجرى قوله: ﴿فإن كان له إخوة﴾[٣] في موضع فإن كان له أخوان. وهذا ليس بشيء، لأنّ ذلك علمناه بدليل الإجماع، ولذلك خالف فيه ابن‌عبّاس، فلم يحجب بأقلّ من الثلاثة.

وقوله: ﴿وعلّمناه﴾ يعني داود ﴿صنعةً لَبوس لكم﴾ أي علّمناه كيف يصنع الدروع. وقيل: إنّ اللبوس ـ عند العرب ـ هو السلاح كلّه، درعاً كان، أو جوشناً، أو سيفاً، أو رمحاً، قال الهذلي:

وَمَعِي لبوسٌ للبئيس كأنّهُ  روقٌ بجبهةِ ذي نعاجٍ مُجفِلِ[٤]

يصف رمحاً. وقال قَتادة والمفسّرون: المراد به في الآية الدروع. و«الإحصان»: الإحراز، و«البأس»: شدّة القتال. وقوله: ﴿فهل أنتم شاكرون﴾ تقرير للخلق على شكره تعالى على نعمه الّتي أنعم بها عليهم بأشياء مختلفة.

---

(١) في «س»: «وكذلك سخّرنا له الطير».
(٢) في «س»: «أي قادرين على ما ندبّره».
(٣) النساء: ١١.
(٤) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٤١.

قوله تعالى:

وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى: وسخّرنا ﴿لسليمانَ الريحَ عاصفةً﴾ من رفع «الريح» وهو عبد الرحمن الأعرج: أضاف الريح إلى سليمان إضافة الملك[1] كأنّه قال: له الريح. و ﴿عاصفة﴾ نصب على الحال في القراءتين. و«الريح» هو الجوّ، يشتدّ تارة ويضعف أُخرى. وحدّ الرماني الريح بأن قال: هو جسم منتشر لطيف، يمتنع بلطفه من القبض عليه ويظهر للحسّ بحركته. وقولهم: سكنت الريح مثل قولهم: هبّت الريح، وإلّا فإنّها لا تكون ريحاً إلّا بالحركة، ويقولون: أسرع فلان في الحاجة كالريح، وراح فلان إلى منزله.

و ﴿العصوف﴾: شدّة حركة الريح، وعصفت تعصف عصفاً وعصفة، يعصف عصفاً وعصوفاً: إذا اشتدّت، والعصف: التبن، لأنّ الريح تعصفه بتطييرها له. وقيل: عصوف الريح شدّة هبوبها. وذكر أنّ الريح كانت تجري لسليمان إلى حيث شاء، فذلك هو التسخير. ﴿تجري بأمره﴾ يعني بأمر سليمان ﴿إلى الأرض الّتي باركنا فيها﴾ يعني الشام، لأنّها كانت مأواه، فأيّ مكان شاء مضى إليه، وعاد إليها بالعشيّ.

---

(١) العبارة في «س» هكذا: «قرأ عبدالرحمن الأعرج: الريح بالرفع والباقون بالنصب فمن رفع الريح أضافها إلى سليمان إضافة الملك».

وقوله: ﴿وكنّا بكلّ شيءٍ عالمين﴾ معناه: علمنا معه على ما يعلمه[١] من صحّة التدبير، فإنّ ما أعطيناه من التسخير يدعوه إلى الخضوع له، ويدعو طالب الحقّ إلى الاستبصار في ذلك، فكان لطفاً يجب فعله.

وقوله: ﴿ومن الشياطين من يَغُوصُون له﴾ أي: وسخّرنا لسليمان قوماً من الشياطين يغوصون له في البحر ﴿ويَعملُونَ عملاً دون ذلك﴾ قال الزجّاج: معناه سوى ذلك ﴿وكنّا لهم حافظين﴾ أي: يحفظهم الله من الإفساد لما عملوه[٢]. وقيل: كان حفظهم لئلّا يهربوا من العمل. وقال الجبّائي: كشف الله تعالى أجسام الجنّ حتّى تهيّأ لهم تلك الأعمال، معجزة لسليمان عليه السلام قال: إنّهم كانوا يبنون له البنيان والغوص في البحار وإخراج ما فيه من اللؤلؤ وغيره، وذلك لا يتأتّى مع رقّة أجسامهم. قال: وسخّر له الطير بأن قوّى أفهامها، حتّى صارت كصبياننا الّذين يفهمون التخويف والترغيب.

ثمّ قال تعالى: واذكر يا محمّد ﴿أيّوب إذ نادى ربّهُ﴾ أي حين دعاه، فقال: يا ربّ ﴿إنّي مسّني الضُرّ﴾ أي نالني الضُرّ، يعني: ما كان ناله من المرض والضعف. قال الجبّائي: كان به السلعة ﴿وأنتَ أرحم الراحمين﴾ فارحمني. وقيل: إنّما فعل ذلك بأيّوب، ليبلغ بصبره على ذلك المنزلة الجليلة الّتي أعدّها الله ـ عزّ وجلّ ـ له ولكلّ مؤمن فيما يلحقه من مصيبة أُسوة بأيّوب، قال الجبّائي: لم يكن ما نزل به من المرض فعلاً للشيطان، لأنّه لا يقدر على ذلك، وإنّما آذاه بالوسوسة وما جرى مجراها. قال الحسن: وكان الله تعالى أعطاه مالاً وولداً، فهلك ماله ومات ولده، فصبر،

---

(١) العبارة في «س» هكذا: «علمنا معه على ما نعلمه».

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤٠١.

فأثنى الله عليه.

ثمّ قال تعالى: ﴿فاستجبنا له﴾ يعني أجبنا دعاءه ونداءه ﴿فكشفنا ما به من ضرّ﴾ أي: أزلنا عنه ذلك المرض ﴿وآتيناه أهلَه ومثْلَهُم معهُمْ﴾ قيل: ردّ الله إليه أهله الّذين هلكوا بأعيانهم، وأعطاه مثلهم معهم، في قول ابن‌مسعود وابن عبّاس. وقال الحسن وقَتادة: إنّ الله أحيا له أهله بأعيانهم وزاده إليهم مثلهم. وقال عكرمة ومجاهد ـ في رواية ـ : إنّه خيّر فاختار إحياء أهله في الآخرة، ومثلهم في الدنيا، فأُوتي على ما اختار. وقال ابن عبّاس: أبدله الله تعالى بكلّ شيءٍ ذهب له ضعفين ﴿رحمةً من عندنا﴾ أي نعمة منّا عليه ﴿وذكرى للعابدين﴾ أي عظة يتذكّر به العابدون‌لله تعالى مخلصين.

وقوله: ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكِفْل﴾ أي أُذكر هؤلاء الّذين عددتهم لك من الأنبياء، وما أنعمت عليهم من فنون النعمة. ثمّ أخبر تعالى أنّهم كانوا كلّهم ﴿من الصابرين﴾ يصبرون على بلاء الله، والعمل بطاعته دون معاصيه.

واختلفوا في ذي الكفل، فقال أبو موسى الأشعري وقَتادة ومجاهد: كان رجلاً صالحاً، كفل لنبيّ بصوم النهار وقيام الليل، وألّا يغضب ويقضي بالحقّ، فوفى لله بذلك، فأثنى الله عليه. وقال قوم: كان نبيّاً كفل بأمر وفى به. وقال الحسن: هو نبيّ اسمه ذو الكفل. وقال الجبّائي: هو نبيّ، ومعنى وصفه بالكفل أنّه ذو الضعف أي ضعف ثواب غيره، ممّن في زمانه لشرف عمله.

قوله تعالى:

وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ يعقوب ﴿فظنّ أن لن يقدر عليه﴾ بالياء مضمومة وفتح الدال، الباقون بالنون وكسر الدال، والمعنيان متقاربان.

يقول الله تعالى: إنّا أدخلنا هؤلاء الّذين ذكرناهم من الأنبياء ﴿في رحمتنا﴾ أي في نعمتنا، ومعنى ﴿أدخلناهُم في رحمتِنا﴾ غمرناهم بالرحمة، ولو قال: رحمناهم لما أفاد الإغمار، بل أفاد أنّه فعل بهم الرحمة الّتي هي النعمة. وقوله: ﴿إنّهم من الصالحين﴾ معناه: إنّما أدخلناهم في رحمتنا، لأنّهم كانوا ممّن صَلُحت أعمالهم وفعلوا الطاعات وتجنّبوا المعاصي. و«صالح» صفة مدح في الشرع.

ثمّ قال لنبيّه محمّد ﷺ: واذكر ﴿ذا النون إذ ذهب مغاضِباً فظنّ أن لن نقْدِرَ عليه﴾ والنون الحوت، وصاحبها يونس بن متى، غضب على قومه ـ في قول ابن عبّاس والضحّاك ـ فذهب مغاضباً لهم، فظنّ أنّ الله لا يضيّق عليه، لأنّه كان ندبه إلى الصبر عليهم والمقام فيهم من قوله: ﴿ومن قُدِرَ عليه رزقُهُ﴾ (١) أي ضيّق.

وقوله: ﴿اللهُ يَبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويَقْدِرُ﴾ (٢) أي يضيّق، وهو قول ابن‌عبّاس ومجاهد والضحّاك وأكثر المفسّرين. وقال الزجّاج والفرّاء: معناه ﴿ظنّ أن لن نقْدِرَ عليه﴾ ما قدّرناه(٣). وقال الجبّائي: ضيّق الله عليه

---

(١) الطلاق: ٧. (٢) الرعد: ٢٦.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤٠٢، معاني القرآن ٢: ٢٠٩.

الطريق[١] حتّى ألجأه إلى ركوب البحر حتّى قذف فيه، وابتلعته السمكة.

ومن قال: إنّ يونس عليه السلام ظنّ أنّ الله لا يقدر عليه من القدرة، فقد كفر. وقيل: إنّما عوتب على ذلك لأنّه خرج مغاضباً لهم قبل أن يؤذن له، فقال قوم: كانت خطيئة، من جهة تأويله أنّه يجوز له ذلك. وقد قلنا: إنّه كان مندوباً إلى المقام فلم يكن ذلك محظوراً، وإنّما كان ترك الأولى.

فأمّا ما روي عن الشعبي وسعيد بن جبير من أنّه خرج مغاضباً لربّه فلا يجوز ذلك على نبيّ من الأنبياء، وكذلك لا يجوز أن يغضب[٢] لم عفا الله عنهم إذ آمنوا فباطل، لأنّ هذا اعتراض على الله بما لا يجوز في حكمته.

وقوله تعالى: ﴿فنادى في الظلماتِ أن لا إله إلّا أنت سبحانكَ إنّي كنتُ من الظالمين﴾ فالظلمات قيل: إنّها ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، على ما قاله ابن عبّاس وقَتادة. وقيل: حوت في بطن حوت، في قول سالم بن أبي حفصة[٣]. وقيل: إنّ أكثر دعائه كان في جوف الليل في الظلمات. والأوّل أظهر في أقوال المفسّرين. وقال الجبّائي: الغضب عداوة لمن غضب عليه، وبقاؤه في بطن الحوت حيّاً معجز له. ولم يكن يونس في بطن الحوت على جهة العقوبة، لأنّ العقوبة عداوة للمعاقب، لكن كان ذلك على وجه التأديب، والتأديب يجوز على المكلّف وغير المكلّف، كتأديب الصبيّ وغيره. وقال قوم: معنى قوله: ﴿فظنّ أن لن نَقْدِرَ﴾

---

(١) العبارة في «س» هكذا: ظنّ أن لن نضيق عليه الطريق.

(٢) العبارة من قوله «فلا يجوز ذلك» إلى هنا لم ترد في الحجريّة.

(٣) كذا في النسخ، وفي تفسير الطبري ذيل الآية، وزاد المسير ٥: ٢٨١ ومجمع البيان ٧: ٦١ والنكت والعيون ٣: ٤٦٦ وفيها: سالم بن أبي الجعد.

الاستفهام، وتقديره أفظنّ[١]. وهذا ضعيف، لأنّهم لا يحذفون حرف الاستفهام إلّا وفي الكلام عوض عنه من «أم» أو غيرها.

وقوله: ﴿إنّي كنتُ من الظالمين﴾ أي كنت من الباخسين نفسي ثوابها لو أقمت، لأنّه كان مندوباً إليه، ومن قال: يجوز الصغائر على الأنبياء قال: كان ذلك صغيرة نقصت ثوابه، فأمّا الظلم الّذي هو كبيرة، فلا يجوّزها عليهم إلّا الحشويّة الجهّال، الّذين لا يعرفون مقادير الأنبياء، الّذين وصفهم الله بأنّه اصطفاهم واختارهم.

ثمّ أخبر تعالى أنّه استجاب دعاءه ونجّاه من الغمّ الّذي كان فيه، ووعد مثل ذلك أن ينجّي المؤمنين. وقد قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿نجّي المؤمنين﴾ بنون واحدة مشدّدة الجيم، الباقون بنونين، وهي في المصحف بنون واحدة حذف الثانية كراهة الجمع بين المثلين في الخطّ، ولأنّ النون الثانية تخفى مع الجيم، ومع حروف الفم، ولا تظهر، ولذلك ظنّ قوم أنّها أُدغمت في الجيم، فقرأوها مدغماً وليس بمدغم. ولا وجه لقراءة عاصم هذه ولا لقول أبي عبيدة حاكياً عن أبي عمرو أنّ النون مدغمة[٢] لأنّها لا تدغم في الجيم. وقال الزجّاج: هذا لحن، ولا وجه لمن تأوّله: نجّى النجا المؤمنين، كما لا يجوز ضرب زيداً بمعنى ضرب الضرب زيداً[٣]. وقال الفرّاء: هو لحن[٤].

وقال قوم ـ محتجّين لأبي بكر ـ إنّه أراد فعلاً ماضياً، على ما لم يسمَّ

(١) منهم ابن زيد كما في مجمع البيان ٧: ٦٠.

(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ١٦١، وفيه: «وكذلك من حكى عن أبي‌عمرو أنّه أدغم النون الثانية من نجّى في الجيم، فهو أيضاً وهم» وتقدّم منه في ص ١٦٠ أنّ النون لاتدغم في الجيم.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤٠٣.

(٤) معاني القرآن ٢: ٢١٠.

فاعله، فأُسكن الياء، كما قرأ الحسن ﴿وذروا ما بقي من الربا﴾[١] أقام المصدر مقام المفعول الّذي لا يذكر فاعله، فكذلك نجّى النجا المؤمنين، واحتجّوا بأنّ أبا جعفر قرأ ﴿لنجزي قوماً﴾[٢] في الجاثية، على تقدير لنجزي الجزاء قوماً، قال الشاعر:

ولو ولدتْ قُـفَيرةٌ جـرو كـلبٍ  لَسُبَّ بـذلك الجـروِ الكِلابا[٣]

ثمّ قال تعالى لنبيّه عليه السلام: واذكر ﴿زكريّا إذ نادى ربّه﴾ أي دعاه، فقال: يا ﴿ربّ لا تذرني فرداً﴾ أي وحيداً، بل ارزقني ولداً، ثمّ قال ﴿وأنتَ خيرُ الوارثين﴾ ومعناه أنت خير من يرث[٤] العباد من الأهل والولد، فقال الله تعالى: إنّا استجبنا له دعاءه ﴿وهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجَه﴾.

قال قَتادة: إنّها كانت عقيماً فجعلها الله ولوداً. وقيل: كانت سيّئة الخلق فرزقها الله حسن الخلق[٥].

ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ أي يبادرون في فعل الطاعات ﴿ويدعوننا﴾ أي يدعون الله ﴿رغبةً﴾ في ثوابه ﴿ورهبةً﴾ من عقابه ﴿وكانوا﴾ لله ﴿خاشعين﴾ متواضعين. وقال الجبّائي: إجابة الدعاء لا تكون إلّا ثواباً.

وقال ابن الأخشاد: يجوز أن تكون استصلاحاً لا ثواباً، ولذلك لا يمتنع أن يجيب الله دعاء الكافر والفاسق. فأمّا قولهم: فلان مجاب الدعوة فلايجوز إطلاقه على الكفّار والفسّاق، لأنّ فيه تعظيماً وأنّ له منزلة جليلة عند الله. والأمر بخلاف ذلك.

---

(١) البقرة: ٢٧٨. (٢) الجاثية: ١٤.

(٣) أنشده الثعلبي في تفسيره ٦: ٣٠٤، ولم ينسبه لأحد.

(٤) في الحجريّة «يرزق» بدل «يرث». (٥) قاله محمّد بن كعب كما في زاد المسير ٥: ٢٨٢.

قوله تعالى:

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ خمس آيات.

قرأ أهل الكوفة إلّا حفصاً عن عاصم ﴿وحِرْم﴾ بكسر الحاء بلا ألف، الباقون بفتح الحاء وإثبات الألف، وهما بمعنى واحد.

يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ: واذكر أيضاً ﴿الّتي أحصنتْ فَرْجَها﴾ يعني مريم بنت عمران، و«الإحصان» إحراز الشيء من الفساد، فمريم أحصنت فرجها بمنعه من الفساد فأثنى الله تعالى عليها، ورزقها ولداً عظيم الشأن، لا كالأولاد المخلوقين من النطفة، وجعله نبيّاً.

وقوله: ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ معناه أجرينا فيها روح المسيح، كما يجري الهواء بالنفخ، وأضاف الروح إلى نفسه، على وجه الملك تشريفاً له في الاختصاص بالذكر. وقيل: إنّ الله تعالى أمر جبرائيل بنفخ الروح في فرجها، وخلق المسيح في رحمها.

وقوله: ﴿وجعلناها وابنها آيةً للعالمين﴾ معناه إنّا جعلنا مريم وابنها عيسى آية للعالمين، وإنّما قال: ﴿آيةً﴾ ولم يثنِّ، لأنّه في موضع دلالة لهما، فلا يحتاج أن يثنّي، والآية فيهما أنّها جاءت به من غير فحل، فتكلّم في المهد بما يوجب براءة ساحتها من العيب. وفي ذلك دليل واضح على سعة مقدوراته تعالى، وأنّه يتصرّف كيف يشاء.

وقوله: ﴿إنّ هذه أمّتكُمْ أُمّةً واحدةً﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد والحسن: معناه دينكم دين واحد. وأصل الأُمّة الجماعة الّتي على مقصد واحد،

فجعلت الشريعة أُمّة، لاجتماعهم بها على مقصد واحد. وقيل: معناه جماعة واحدة في أنّها مخلوقة مملوكةلله. ونصب ﴿أُمّة﴾ على الحال، ويسمّيه الكوفيّون قطعاً.

ثمّ قال: ﴿وأنا ربّكُمْ﴾ الّذي خلقكم ﴿فاعبُدُون﴾ ولا تشركوا بي أحداً.

وقوله: ﴿وتَقَطّعوا أمرَهُمْ بَينَهم﴾ معناه اختلفوا في الدين بما لا يسوغ ولا يجوز، في قول ابن زيد. ثمّ قال مهدّداً لهم: ﴿كلٌّ إلينا راجعون﴾ أي إلى حكمنا، في الوقت الّذي لا يقدر على الحكم فيه سوانا، كما يقال: رجع أمرهم إلى القاضي أي إلى حكمه.

وقوله تعالى: ﴿فمن يعمل من الصالحاتِ وهو مؤمن﴾ قيل: الصالحات ـ هاهنا ـ صلة الرحم، ومعونة الضعيف، ونصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، والكفّ عن الظلم، ونحو ذلك من أعمال الخير، وإنّما شرط الإيمان لأنّ هذه الأشياء لو فعلها الكافر لم ينتفع بها عند الله.

وقوله: ﴿فلا كُفْرانَ لسعيهِ﴾ معناه: لا جحود لإحسانه في عمله، وهو مصدر كفر كفراً وكفراناً. قال الشاعر:

من الناسِ ناسٌ لا تنامُ جدودُهم وجـدّي ولا كـفرانَ للهِ نـائمُ(١)

وقوله: ﴿وإنّا له كاتِبُون﴾ أي ملائكتنا يثبتون ذلك ويكتبونه، فلا يضيع لديه شيء.

وقوله: ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنّهم لا يرجعون﴾ قيل: «لا» صلة، والمعنى: حرام رجوعهم. وقيل: «إنّهم لا يرجعون» أي حال قبول التوبة. وقال قوم: حرام على قرية أهلكناها، لأنّهم لا يرجعون. وقال الزجّاج: المعنى وحرام على قرية أهلكناها أن نتقبّل منهم عملاً، لأنّهم لا يرجعون،

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٤٢ ولم ينسبه لأحد.

أي لا يتوبون أبداً. وحِرْمٌ وحَرامٌ لغتان مثل حِلّ وحَلال[١]. وقيل في معنى ﴿وحرامٌ على قرية﴾: معناه واجب عليهم ألّا يرجعون إلى تلك القرية أبداً[٢]. وقال الجبّائي: معناه وحرام على قرية أهلكناها عقوبة لهم أن يرجعوا إلى دار الدنيا.

قوله تعالى:

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر ﴿فتّحت﴾ مشدّدة، على التكثير، الباقون بالتخفيف.

يقول الله تعالى: إنّه حرام على أهل قرية أهلكناها رجوعهم ﴿حتّى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ أي ينفرج السدّ عن[٣] يأجوج ومأجوج ويظهروا، والتقدير فتحت جهة يأجوج ومأجوج، و«الفتح»: انفراج الشيء عن غيره.

وقوله: ﴿وهُمْ من كلّ حَدَبٍ يَنسلُون﴾ قال مجاهد: إنّ قوله ﴿وهم﴾ كناية عن الناس، يحْشَرون إلى أرض الموقف يوم القيامة. وقال عبد الله بن مسعود: «هم» كناية عن يأجوج ومأجوج. ويأجوج ومأجوج إسمان أعجميّان، وهما قبيلان. ولو كانا عربيّين لكانا من أجّ النار، أو الماء الأُجاج. وقال قَتادة: الحدب: الأكم. وقيل: هو الارتفاع من الأرض بين

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤٠٤.
(٢) وهو قول قتادة، وقد روي عن ابن عبّاس نحوه كما في زاد المسير ٥: ٢٨٥.
(٣) في الحجريّة: السدّان.

الانخفاض، ومعناهما واحد. و«الحَدَبة» خروج الظهر، يقال: رجل أحدب إذا احدودب كبراً.

وقوله: ﴿ينسلون﴾ فالنسول الخروج عن الشيء الملابس، يقال: نسل ينسل وينسل نسولاً، قال امرئ القيس:

فإن تكُ قد ساءتكِ منّي خليقَةٌ فسلّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ[١]

ونسل ريش الطائر: إذا سقط. وقيل: النسول الخروج بإسراع مثل نسلان الذئب[٢] قال الشاعر:

عَسَلانَ الذئبِ أمسى قارباً بَرَد الليلُ عليه فَنَسلْ[٣]

وقوله تعالى: ﴿واقترب الوعد الحقّ﴾ قال قوم: الواو مقحمة، والتقدير: اقترب الوعد الحقّ، يعني القيامة[٤] وقال آخرون: ليست مقحمة، بل الجواب محذوف[٥]. وهو الأجود، والتقدير على قول الأوّلين: حتّى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كلّ حدب ينسلون... اقترب الوعد الحقّ، ذكره الفرّاء[٦] قال: وهو مثل قوله ﴿وتلّه للجَبينِ * وناديَناه﴾[٧] وكقوله: ﴿حتى إذا جاؤُها وفُتِحتْ أبوابها﴾[٨] والمعنى فتحت. وعلى قول البصريّين الواو مرادة، والتقدير: حتّى إذا فتحت، واقترب الوعد الحقّ، قالوا: يا ويلنا قد كنّا في غفلة. وقيل: خروج يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة.

وقوله: ﴿فإذا هي شاخصةٌ﴾ قيل: إنّ الضمير في قوله سبحانه: ﴿فإذا هي﴾

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٣٧.
(٢) النكت والعيون ٣: ٤٧١.
(٣) أنشده الأزهري في التهذيب ٢: ٩٦ «مادة عسل» ونسبه إلى النابغة الجعدي. وانظر تفسير الطبري ذيل الآية.
(٤) قاله الفرّاء وجماعة كما في معالم التنزيل ٤: ٥٠.
(٥) انظر معالم التنزيل ٤: ٥٠.
(٦) معاني القرآن ٢: ٢١١.
(٧) الصافّات: ١٠٣ و١٠٤.
(٨) الزمر: ٧٣.

عائد إلى معلوم ينبّه عليه ﴿أبصار الّذين كفروا﴾ كما قال الشاعر:

لعمرُو أبيها لا تقولُ ظعينتي ألا فرّعني مالكُ بن أبي كَعْب(١)

فكنّى في أبيها ثمّ بيّن ذكرها. وقال قوم: إضمار العماد على شروط التفسير كقوله تعالى: ﴿فإنّها لا تعمى الأبصارُ ولكن تَعمى القلوبُ الّتي في الصدور﴾(٢).

وقوله: ﴿يا ويلنا﴾ أي يقول الكفّار الّذين شُخِصتْ أبصارهم: الويل لنا إنّا قد كنّا في غفلة من هذا اليوم ، وهذا المقام، بل كنّا ظالمين لنفوسنا بارتكاب معاصي الله، فيقول الله تعالى لهم: ﴿إنّكُمْ وما تَعبُدونَ من دونِ الله حصبُ جَهنّم أنتم لها واردون﴾ والمعنى أنّكم أيّها الكافرون والّذي عبدتموه من الأصنام والأوثان حصب جهنّم، وقال ابن عبّاس: وقودها. وقال مجاهد: حطبها. وقيل: إنّهم يرمون فيها، كما يرمى بالحصباء، في قول مجاهد، وقال: إنّما يحصب بهم أي: يُرمى بهم. وقرأعليّ عليه السلام وعائشة ﴿حطب﴾. وقرأ الحسن ﴿حضب﴾ بالضاد. ومعناه ما تهيج به النار وتذكا به. والحضب الحيّة.

وقوله: ﴿أنتم لها واردون﴾ خطاب لجميع الكفّار أنّهم يردون جهنّم ويدخلونها لا محالة. فالورود قد يكون الدخول، كقولك: وردتُ الدار، أي دخلتُها. وقد يكون بالإشراف، كقوله: ﴿ولمّا وردَ ماءَ مدَينَ﴾(٣) ومعناه: أشرف عليه. والمراد في الآية الدخول، لأنّ الكفّار يدخلون النار لا محالة.

ثمّ قال تعالى: لو كان هذه الأصنام والأوثان آلهة لم يردوا جهنّم. ويحتمل أن يكون أراد: ما وردت الأصنام جهنّم، لأنّه كان يكون عبادتهم

---

(١) البيت غير منسوب في معاني القرآن للفرّاء ١ : ٢١٢ والطبري ذيل الآية والكشف والبيان ٦: ٣٠٩.
(٢) الحجّ: ٤٦.
(٣) القصص: ٢٣.

واقعة موقعها، ولكانوا أيضاً: يقدرون على الدفاع عنهم والنصرة لهم.

ثمّ أخبر تعالى أنّ الكلَّ في جهنّم خالدون، مؤبّدون فيها، وأنّ لهم في جهنّم زفيراً، وهو شدّة التنفّس. وقيل: هو الشهيق لهول ما يرد عليهم من النار[1] ﴿وهم فيها﴾ يعني في جهنّم ﴿لا يسمعون﴾ قال الجبّائي: لا يسمعون ما ينتفعون به وإن سمعوا ما يسوؤهم. وقال ابن مسعود: يجعلون في توابيت من نار، فلا يسمعون شيئاً. وقال قوم: المراد بقوله: ﴿وما تعبدون من دون الله﴾ الشياطين الّذين دعوهم إلى عبادة غير الله، فأطاعوهم فكأنّهم عبدوهم، كما قال: ﴿يا أبتِ لا تَعبدِ الشَيطان﴾[2] أي: لا تطعه.

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ خمس آيات بلاخلاف.

قرأ أهل الكوفة إلّا أبا بكر ﴿للكتب﴾ على الجمع، الباقون ﴿للكتاب﴾ على التوحيد. وقرأ حمزة وحده ﴿الزبور﴾ بضمّ الزاي الباقون بالفتح. من ضمّ الزاي أراد الجمع. ومن فتحها أراد الواحد. يقال: زبرت الكتاب أزبره زبراً إذا كتبته.

لمّا أخبر الله تعالى: أنّ الكفّار حصب جهنّم وأنّهم واردون النار

---

(١) في النكت والعيون ٢: ٥٠٤ والشهيق النفس الطويل الممتدّ، مأخوذ من قولهم جبل شاهق أي طويل، قاله ابن عيسى.

(٢) مريم: ٤٤.

وداخلون فيها مؤبّدين أخبر ﴿إنّ الذين سبقت لهم منّا الحسنى﴾ يعني الوعد بالجنّة ـ وقيل: الحسنى الطاعة لله تعالى ـ يجازون عليها في الآخرة بما وعدهم الله به. وأخبر تعالى أنّ من هذه صفته مبعد عن النار ناءٍ عنها، ويكونون بحيث ﴿لايَسمَعُون حسيسَها﴾ يعني صوتها الّذي يحسّ، وأنّهم فيما تشتهيه أنفسهم من الثواب والنعيم خالدون. و«الشهوة»: طلب النفس للذّة. يقال: اشتهى شهوة، وتشهّى تشهّياً. ونقيض الشهوة: تكرّه النفس، فالغذاء يشتهى والدواء يتكرّه. وقيل: الحسنى: الجنّة الّتي وعد الله بها المؤمنين[١]. وقال ابن زيد: الحسنى السعادة لأهلها من الله، وسبق الشقاء لأهله، كأنّه يذهب إلى أنّ معنى الكلمة أنّه: سيُسعَد أو أنّه سيُشقَى. وقال الحسن ومجاهد: الّذين سبقت لهم منّا الحسنى عيسى وعزير، والملائكة الّذين عبدوا من دون الله وهم كارهون. استثناهم من جملة من أخبر أنّهم مع الكفّار في جهنّم.

وقوله: ﴿لا يَحزُنُهمُ الفزَع الأكبرُ﴾ معناه لا يغمّ الّذين سبقت لهم من الله الحسنى الفزع الأكبر. ومن ضمّ الياء أراد لا يفزعهم. والفزع الأكبر قال سعيد بن جبير وابن جريج: هو عذاب النار على أهلها. وقال ابن عبّاس: هي النفخة الأخيرة. وقال الحسن: هو حين يؤمر بالعبد إلى النار ﴿وتَتلقّاهُمْ الملائكةُ﴾ قيل: تتلقّاهم الملائكة بالتهنئة ويقولون لهم: ﴿هذا يَومُكمُ الّذي كُنتُمْ تَوعَدونَ﴾ به أي تخوّفون بما فيه من العقاب، وترغبون فيما فيه من الثواب.

وقوله: ﴿يومَ نَطوِي السماءَ﴾ يحتمل نصب «يوم» وجهين:

---

(١) قاله ابن عبّاس وعكرمة كما في زاد المسير ٥: ٢٨٩، وهو قول السدّي كما في النكت والعيون ٣: ٤٧٣.

أحدهما: أن يكون بدلاً من «توعدون» لأنّ تقديره: توعدونه.

الثاني: أنّه نَعِدكم يوم نطوي السماء.

وقوله: ﴿كطيّ السِجِلّ للكتب﴾ فالسجلّ: الصحيفة تطوى على ما فيها من الكتابة، فشبّه الله تعالى طيّ السماء يوم القيامة بطيّ الكتاب، في قول ابن عبّاس ومجاهد. وقال ابن عمر والسدّي: السجلّ ملك يكتب أعمال العباد. وقال ابن عبّاس ـ في رواية أُخرى ـ: السجلّ كاتب كان لرسول الله ﷺ والتقدير: كطيّ الكتاب السجلّ، واللام مؤكّدة.

ويحتمل أن يكون المعنى كطيّ السجلّ، وقد تمّ الكلام ثمّ قال للكتب[1] أي لما كتبناه وعلّمناه فعلنا ذلك، كما قال: ﴿ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ من ربّك﴾[2].

وقوله: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ العامل في كما بدأنا نُعيدُه والمعنى نعيد الخلق كما بدأناه. وقال ابن عبّاس: معناه أنّه يهلك كلّ شيء كما كان أوّل مرّة. ثمّ قال: إنّ الّذي ذكرناه وعيد منّا لازم نفعله لا محالة[3].

ثمّ قال تعالى: ﴿ولقَدْ كتبنا في الزَبُورِ مِنْ بَعدِ الذِكْرِ﴾ وقيل: الزبور كتب الأنبياء ﴿من بعد الذكر﴾ من بعد كتبه في أُمّ الكتاب، في قول سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد. وقيل: الزبور زبور داود من بعد الذكر في توراة موسى، في قول الشعبي. وقال قوم: ﴿من بعد الذكر﴾ معناه: قبل الذكر الّذي هو القرآن، حكاه ابن خالويه.

وقوله: ﴿أنّ الأرضَ يَرِثُها عبادي الصالحون﴾ قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير وابن زيد: يعني أرض الجنّة يرثها الصالحون من عباد الله، كما قال:

---

(١) في الحجرية: للكتاب.

(٢) يونس: ١٩، هود: ١١٠، طه: ١٢٩، فصلت: ٤٥، الشورى: ١٤.

(٣) العبارة في «س» هكذا: أنّ الّذي ذكرناه وعد لازم نحن نفعله لا محالة.

﴿وأورثنا الأرض نَتَبوّأُ من الجنّة حيثُ نَشاءُ﴾ (١) وقيل: هي الأرض في الدنيا الّتي تصير للمؤمنين في أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله من بعد إجلاء الكفّار عنها، في رواية أُخرى عن ابن عبّاس. وقيل: يعني أرض الشام، يرثها الصالحون من بني إسرائيل، ذكره الكلبي. وعن أبي جعفر عليه السلام أنّ ذلك وعد للمؤمنين بأنّهم يرثون جميع الأرض(٢).

قوله تعالى:

إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ سبع آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى: ﴿إنّ في هذا﴾ المعنى الّذي أخبرتكم به ممّا توعّدنا به الكفّار من النار والخلود فيها، وما وعدنا به المؤمنين من الجنّة والكون فيها ﴿لبلاغاً﴾ وقيل: ﴿إنّ في هذا﴾ يعني القرآن ﴿لبلاغاً﴾ أي لما يبلغ إلى البغية من أخذ به وعمل عليه(٣). و«البلوغ» الوصول. و«البلاغ» سبب الوصول إلى الحقّ، ففي البرهان بلاغ، والقرآن دليل وبرهان.

وقيل: معناه أنّه يبلغ رضوان الله ومحبّته وجزيل ثوابه ﴿لقوم عابدين﴾ لله مخلصين له. ثمّ قال لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله: ﴿وما أرسلناك﴾ يا محمّد ﴿إلّا

---

(١) الزمر: ٧٤.

(٢) في البرهان ٣: ٨٤٨ عن أبي جعفر عليه السلام قال قوله عزّوجلّ ﴿أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾: هم أصحاب المهديّ عليه السلام في آخر الزمان. وعن عليّ بن إبراهيم في معنى الآية قال: الكتب كلّها ذكر ﴿وأنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ قال: القائم عليه السلام وأصحابه.

(٣) النكت والعيون ٣: ٤٧٥.

رحمةً للعالمين﴾ أي نعمة عليهم، ولأن ترحمهم.

وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبّرة في أنّه: ليس لله على الكافرين نعمة، لأنّه تعالى بيّن أنّ إرسال الله رسوله نعمة على العالمين، وعلى كلّ من أُرسل إليهم، ووجه النعمة على الكافر أنّه عرّضه للإيمان ولطف له في ترك معاصيه. وقيل: هي نعمة على الكافر بأن عوفي ممّا أصاب الأُمم قبلهم من الخسف والقذف، في قول ابن عبّاس.

ثمّ قال تعالى له ﷺ: قلْ لهم ﴿إنّما يُوحى إليَّ أنّما إلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ فهل أنتم مسلمونَ﴾ أي مسلمون لهذا الوحي الّذي أُوحي إليَّ، من إخلاص الإلهيّة والعبادة لله تعالى.

ثمّ قال: ﴿فإن تولّوا﴾ يعني إن أعرضوا عن هذا الّذي تدعوهم إليه من إخلاص التوحيد فقلْ لهم ﴿آذَنتُكُمْ على سواء﴾ أي أعلمتكم على سواء في الإيذان تتساوون في العلم به، لم أُظهر بعضكم على شيء كتمته عن غيره، وهو دليل على بطلان قول أصحاب الرموز، وأنّ للقرآن بواطن خصّ بالعلم بها أقوام. وقيل: على سواء في العلم إنّي صرت مثلكم، ومثله قوله: ﴿فانبِذ إليهمْ على سواء﴾ (١) أي ليستوي علمك وعلمهم. وقيل معناه: لتستووا في الإيمان به.

وقوله: ﴿وإن أدري أقريبٌ أم بعيدٌ ما تُوعدونَ﴾ معناه: لست أعلم أنّ ما وعدكم الله به من العقاب أقريب مجيئه أم بعيد.

وقوله: ﴿وإن أدري لعلَّهُ فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين﴾ أي لست أدري لعلّ التأخير شدّة في عبادتكم يظهر بها ما هو كالسرّ فيكم من خير أو شرّ، فيخلص الجزاء بحسب العمل. وأصل الفتنة: التخليص بالشدّة، كتخليص

---

(١) الأنفال: ٥٨، والعبارة من قوله: «في العلم» إلى هنا لم ترد في الحجريّة.

الذهب بشدّة النار من كلّ شائب من غيره. وقيل: ﴿فتنةٌ لكم﴾ أي اختبار لكم ﴿ومتاعٌ إلى حين﴾ أي تتمتّعون إلى الوقت الّذي قدّره الله لإهلاككم.

ثمّ قال سبحانه لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿ربِّ احكُمْ بالحقّ﴾ إنّما أمره أن يدعو بما يعلم أنّه لابدّ من أن يفعله تعبّداً، لأنّه إذا دعا بهذا ظهرت رغبته في الحقّ الّذي دعا به. وقال قَتادة: كان النبيّ ﷺ إذا شهد قتالاً قال: ﴿ربِّ احكُمْ بالحقّ﴾ بيني وبين المشركين بما يظهر به الحقّ للجميع.

وقرأ حفص وحده ﴿قال ربّ أحكم﴾ على الخبر، الباقون على الأمر، وضمّ الباء أبو جعفر اتّباعاً لضمّ الكاف، الباقون بكسرها على أصل حركة التقاء الساكنين.

وقوله: ﴿وربّنا الرحمن المستعان على ما تَصِفونَ﴾ أي على ما تذكرون، ممّا ينافي التوحيد.

وحكي عن الضحّاك أنّه قرأ: ﴿قال ربّي أحْكَمُ﴾ بإثبات الياء[١] وهو خلاف المصاحف، ويكون على هذا ﴿ربّي﴾ مبتدأ و﴿أحكَمُ﴾ خبره، كقوله: ﴿الله أحسنُ الخالقين﴾[٢].

وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر ﴿عمّا يَصفون﴾ بالياء يعني: على ما يكذّب هؤلاء الكفّار من إنكار البعث، الباقون بالتاء على الخطاب لهم بذلك[٣].

---

(١) مختصر في شواذّ القرآن: ٩٦. (٢) المؤمنون: ١٤.

(٣) جاء في آخر النسخة المرقّمة ٦٨١ من مكتبة آية الله الحكيم في النجف مايلي: «تمّ الجزء السابع من التبيان، ويتلوه الجزء الثامن، أوّله سورة الحجّ، قال قتادة: هي مدنيّة إلّا أربع آيات. ونجّز استنساخه على نسخة كثيرة الغلط والتحريف فأصلحتها بقدر الإمكان على مراجعة مجمع البيان وبعض التفاسير الّتي عندي، وكان الفراغ في السابع والعشرين من محرّم سنة ألف وثلاثمائة وتسع وخمسين هجريّة في النجف بقلم محمّد ابن الشيخ طاهر السماوي حامداً مصلّياً مستغفراً».

# سورة الحجّ

قال قَتادة هي مدنيّة إلّا أربع آيات فإنّها مكّيّات من قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلِكَ من رسولٍ ولا نبيّ﴾ إلى قوله: ﴿عذاب مقيم﴾ وقال مجاهد وعيّاش بن أبي ربيعة: هي مدنيّة كلّها. وهي ثمان وسبعون آية في الكوفيّ، وستّ في المدنيّين وخمس في المكّي[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ أربع آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿سُكرى﴾ بلا ألف بسكون الكاف في الموضعين، الباقون ﴿سكارى﴾ هذا خطاب من الله تعالى لجميع المكلّفين

---

(١) العبارة في «س» هكذا: وهي سبعون وستّ آيات حجازي، وثمان آيات كوفي، وخمس آيات بصري، وأربع آيات شامي.

من البشر يأمرهم بأن يتّقوا معاصي الله لأنّـه يستحقّ بفعله المعاصي والإخلال بالواجبات العقوبات يوم القيامة. ثمّ أخبر ﴿إنّ زَلْزَلةَ الساعةِ﴾ يعني القيامة ﴿شيءٌ عظيم﴾ و«الزلزلة» شدّة الحركة على حالة هائلة، ومنه زلزلة الأرض لما يلحق من الهول، وكأنّ أصله زلّت قدمه إذا زالت عن الجهة بسرعة، ثمّ ضوعف. فقيل: زلزل الله أقدامهم، كما قيل: دكّة ودكدكة[١] والزلزلة والزلزال بكسر الزاي مصدر، والزلزال بالفتح الاسم، قال الشاعر:

يعرفُ الجاهلُ المضللُ أنّ الدهـ ـــر فيه النكراءُ والزلزالُ[٢]

وقال علقمة والشعبي: الزلزلة من أشراط الساعة. وروى الحسن في حديث رفعه عن النبيّ ﷺ أنّها يوم القيامة[٣]. و«العظيم» المختصّ بمقدار يقصر عنه غيره، وضدّه الحقير. و«الكبير» نقيض الصغير. وفي الآية دلالة على أنّ المعدوم يسمّى شيئاً، لأنّ الله تعالى سمّى الزلزلة يوم القيامة شيئاً، وهي معدومة اليوم.

وقوله: ﴿يومَ تَرونَها تَذهلُ كلّ مرضعةٍ عمّا أرضعت﴾ قال الفرّاء والكوفيّون: يجوز أن يقال: مرضع بلا «هاء» لأنّ ذلك لا يكون في الرجال، فهو مثل حائض وطامث. وقال الزجّاج وغيره من البصريّين: إذا أجريته على الفعل قلت: أرضعت فهي مرضعة، فإذا قالوا: مرضع، فالمعنى أنّها ذات رضاع[٤]. وقيل في قولهم: حائض وطامث معناه أنّها ذات حيض وطمث. وقال قوم: إذا قلت: مرضعة، فإنّه يراد بها أُمّ الصبيّ المرضع، وإذا أسقطت الهاء فإنّه يراد بها المرأة الّتي معها صبيّ مرضعة لغيرها.

---

(١) في «س»: «دكه ودكدكه» بالهاء فيهما.
(٢) أنشده الطبري ذيل الآية.
(٣) زاد المسير ٥: ٢٩٥.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤٠٩ ـ ٤١٠.

والمعنى أنّ الزلزلة هي شيء عظيم، في يوم ترون فيها الزلزلة، على وجه ﴿تذهل كلّ مرضعة﴾ أي يشغلها عن ولدها اشتغالها بنفسها، وما يلحقها من الخوف. وقال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل لغير تمام. و«الذهول» الذهاب عن الشيء دهشاً وحيرة، تقول: ذهلتُ عنه ذَهولاً، وذِهلتُ بالكسر أيضاً، وهو قليل، والذهل السلوّ، قال الشاعر:

صَحَا قَلبُهُ يا عَزَّ أو كادَ يَذهَلُ (١)

وهذا تهويل ليوم القيامة، وتعظيم لما يكون فيه من الشدّة على وجه لو كانت هناك مرضعة لشغلت عن الّذي ترضعه، ولو كانت هناك حامل لأسقطت من هول ذلك اليوم، وإن لم يكن هناك حامل ولا مرضعة.

وقوله: ﴿وتَرى الناسَ سُكارى وما هُمْ بسكارى﴾ معناه تراهم سكارى من الفزع، وما هم بسكارى من شرب الخمور، وإنّما جاز ﴿وتَرى الناسَ سُكارى وما هُم بسكارى﴾، لأنّها رؤية تخيّل. وقيل: معناه كأنّهم سكارى من ذهول عقولهم لشدّة ما يمرّ بهم، فيضطربون كاضطراب السكران من الشراب. وقال أبو هريرة: ﴿وترى الناس﴾ بضمّ التاء، والناس منصوب على أنّه مفعول ثانٍ، وتقديره: وترى أنّ الناس، وتكون ﴿سكارى﴾ نصباً على الحال.

ومن قرأ: ﴿سكرى﴾ جعله مثل جرحى. وقيل: هما جمعان كسكران وسكرى. قال أبو زيد: يقولون: مريض ومراضى ومرضى. فمن قرأ ﴿سكرى﴾ فلأنّ آفة السكر كالمرض والهلاك، فقالوا: «سكرى» مثل هلكى ومثل عكلى. ومن قرأ: ﴿سكارى﴾ فلأنّه روي أنّ النبيّ ﷺ قرأ

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٤٤، ونسبه إلى كثير بن عزة.

كذلك. ثمّ علل تعالى ذلك فقال: ليس هم بسكارى ﴿ولكنّ عذابَ اللهِ شَديدٌ﴾ فمن شدّته يصيبهم ما يصيبهم من الاضطراب.

ثمّ أخبر تعالى أنّ ﴿من الناسِ من يجادِلُ﴾ أي يخاصم ﴿في الله﴾ أي فيما يدعوهم إليه من توحيد الله ونفي الشرك عنه ﴿بغير علم﴾ منه بل للجهل المحض ﴿ويتّبعُ﴾ في ذلك ﴿كلّ شيطانٍ مريد﴾ يغويه عن الهدى ويدعوه إلى الضلال، وذلك يدلّ على أنّ المجادل في نصرة الباطل مذموم، وأنّ من جادل بعلم ووضع الحجّة موضعها بخلافه. و«المريد» المتجرّد للفساد. وقيل: أصله الملاسة، فكأنّه متملّس من الخير، ومنه صخرة مرداء أي ملساء، ومنه الأمرد. و«المريد» الداهية المنكرة، ويقال: تمرّد فلان، والممرّد من البناء المتطاول المتجاوز.

وقوله: ﴿كُتِبَ عليه أنّه من تولّاهُ فأنّه يضلّهُ ويهديه إلى عذابِ السعير﴾ يقول الله تعالى: إنّه كتب في اللوح المحفوظ أنّ من تولّى الشيطان واتّبعه وأطاعه فيما يدعوه إليه فإنّه يضلّه. وقال الزجّاج: معناه كتب عليه أنّه من تولّاه يضلّه، فعطف «أنّ» الثانية على الأُولى تأكيداً، فلذلك نصبت «أنّ» الثانية[1].

والأكثر في التأكيد أن لا يكون معه حرف عطف غير أنّه جائز، كما يجوز: زيد فافهم في الدار. وقال قوم: نصبت «أنّ» الثانية، لأنّ المعنى فلأنّه يضلّه عن طريق الحقّ ويهديه إلى عذاب السعير. أي عذاب النار الّذي يستعر ويلتهب. والهاء في ﴿كتب عليه﴾ راجعة إلى الشيطان، وتقديره: كتب على الشيطان أنّه من تولّى الشيطان واتّبعه فإنّ الشيطان يضلّه، فالهاء في يضلّه عائدة إلى «من» في قوله: ﴿من تولّاه﴾.

(١) انظر معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤١١.

قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ آية واحدة بلا خلاف.

قرأ أبو جعفر ﴿وربَأتْ﴾، الباقون ﴿رَبَتْ﴾.

خاطب الله تعالى بهذه الآية جميع المكلّفين من البشر، فقال لهم: ﴿إنْ كنتم في ريبٍ من البَعثِ﴾ والنشور، والريب أقبح الشكّ ﴿فإنّا خلقناكُمْ من تُرابٍ﴾ قال الحسن: المعنى خلقنا آدم من تراب الّذي هو أصلكم وأنتم نسله. وقال قوم: أراد به جميع الخلق، لأنّه إذا أراد أنّه خلقهم من نطفة ـ والنطفة يجعلها الله من الغذاء، والغذاء ينبت من التراب والماء ـ فكان أصلهم كلّهم التراب، ثمّ أحالهم بالتدريج إلى النطفة، ثمّ أحال النطفة علقه ـ وهي القطعة من الدم جامدة ـ ثمّ أحال العلقة مضغة، وهي شبه قطعة من اللحم ممضوغة، والمضغة مقدار ما يمضغ من اللحم.

وقوله: ﴿مخلّقة وغير مخلّقة﴾ قال قَتادة: تامّة الخلق وغير تامّة. وقيل: مصوّرة وغير مصوّرة، وهي السقط، في قول مجاهد.

وقوله: ﴿لنبيّنَ لكم﴾ معناه لندلّكم على مقدورنا، بتصريفه في ضروب الخلق، وقوله: ﴿ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى﴾ مستأنف، فلذلك رفع. وقال مجاهد: معناه نقرّه إلى وقت تمامه. وقوله: ﴿ثمَّ نُخرجُكُمْ طفلاً﴾ يعني [نخرجكم] من بطون أُمّهاتكم وأنتم أطفال. و«الطفل» الصغير من الناس، ونصب طفلاً على المصدر، وهو في موضع جمع وقيل: هو نصب

على التمييز، وهو جائز. وتقديره: نخرجكم أطفالاً. [وقيل: الطفل إلى][١] قبل مقاربة البلوغ. وقوله: ﴿ثمّ لتبلُغُوا أشُدّكم﴾ يعني وقت كمال عقولكم وتمام خلقكم. وقيل: وقت الاحتلام والبلوغ، وهو جمع «شدّ»، والأشُدّ في غير هذا الموضع قد بيّنّا اختلاف المفسّرين فيه[٢].

وقوله: ﴿ومنكم من يتوّفى﴾ يعني قبل بلوغ الأشدّ. وقيل: قبل أن يبلغ أرذل العمر ﴿ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذلِ العمر﴾ وقيل: معناه أهونه وأخسّه عند أهله. وقيل: أحقره. وقيل: هي حال الخرف. وإنّما قيل: أرذل العمر، لأنّ الإنسان لا يرجو بعده صحّة وقوّة، وإنّما يترقّب الموت والعناء، بخلاف حال الطفوليّة، والضعف الّذي يرجو معها الكمال والتمام والقوّة، فلذلك كان أرذل العمر. وقوله: ﴿لكيلا يَعلَمَ مِن بعدِ علمٍ شيئاً﴾ معناه إنّا رددناه إلى أرذل العمر لكي لايعلم، لأنّه يزول عقله من بعد أن كان عاقلاً عالماً بكثرة من الأشياء ينسى جميع ذلك. وقوله: ﴿وترى الأرضَ هامدةً﴾ أي دارسة داثرة يابسة، يقال: هَمَدَ يَهْمُدُ هُمُوداً إذا درسته ودثرته، قال الأعشى:

قالتْ قُتَيلَةُ ما لجسْمِكَ شاحِباً    وأرى ثيابَكَ بالياتٍ هُمّدا[٣]

وقوله تعالى: ﴿فإذا أنزلنا عليها الماءَ﴾ يعني الغيث والمطر ﴿اهتزّت ورَبَتْ﴾ فالاهتزاز شدّة الحركة في الجهات. و«الربو» الزيادة فيها، أي تزيد ما يخرج منها من النبات، وتهتزّ بما يذهب في الجهات ﴿وأنبتَتْ﴾ يعني الأرض ﴿من كلّ زوج بهيج﴾ فالبهيج الحسن الصورة، الّذي يمتّع في الرؤية. وقال الزجّاج: «ربت» و «ربأت» لغتان. وقال الفرّاء: إن ذهب

(١) مابين المعقوفتين سقط من الحجريّة وأثبتناه من المطبوع.
(٢) تقدّم ذلك عند تفسير الآية ١٥٢ من سورة الأنعام، والآية ٣٤ من سورة الإسراء، فراجع.
(٣) ديوان الأعشى: ٥٤، «قُتَيلَة» بدل «فتيلَة» و«سايئاً» بدل «شاحباً».

أبوجعفر في قراءته «رَبَأت» إلى أنّه من الربيئة الّتي تجري بين الناس فهو مذهب، وإلّا فهو غلط، ويغلّط العرب كقولهم: حلّأتُ السويقَ، ولبّأت بالحجِّ، ورثأتُ الميّتَ. وقد قرأ الحسن البصري في يونس ﴿ولا أدْرَأْتُكُم به﴾[1] وهو ممّا يرخّص في القراءة[2].

قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى: إنّ الّذي ذكرناه إنّما دللنا به لتعلم أنّ الله هو الحقّ وأنّه الواحد الّذي لا يستحقّ العبادة سواه، ومن اعتقده كذلك فمعتقده على ما هو به، وهو محقّ، والحقّ هو ما كان معتقده على ما اعتقده ﴿وأنّه يُحيي المَوتَى﴾ لأنّ من قدر على إنشاء الخلق ابتداءً ونقله من حال إلى حال على ما وصف فإنّه يقدر على إعادته حيّاً بعد كونه ميّتاً، ويعلم أيضاً أنّه قادر على كلّ ما يصحّ أن يكون مقدوراً له، وأصل الوصف بالحقّ من قولهم: حقّه يحقّه حقّاً، وهو نقيض الباطل. والفرق بين الحقّ والعدل أنّ العدل جعل الشيء على قدر ما تدعو إليه الحكمة، و«الحقّ» في الأصل جعل الشيء لما هو له فيما تدعو إليه الحكمة، غير أنّه نقل إلى معنى مستحقّ لصفات التعظيم فالله تعالى لم يزل حقّاً أي: أنّه لم يزل مستحقّاً لمعنى صفة التعظيم بأنّه الإلٰه الواحد الّذي هو على كلّ شيء قدير.

---

(١) يونس: ١٦.

(٢) معاني القرآن ٢: ٢١٦، وفيه: يهمز. وهو ممّا يُرفَض من القراءة.

ثمّ أخبر تعالى أنّ في جملة الناس من يخاصم و﴿يُجادِلُ في الله﴾ وصفاته ﴿بغَيرِ عِلْمٍ﴾ بل للجهل المحض ﴿ولا هُدىً﴾ أي: ولا حجّة ﴿ولا كتابٍ مُنير﴾ أي: ولا حجّة كتاب ظاهر وهذا يدلّ أيضاً على أنّ الجدال بالعلم صواب، وبغير العلم خطأ، لأنّ الجدال بالعلم يدعو إلى اعتقاد الحقّ وبغير العلم يدعو إلى الاعتقاد بالباطل، ولذلك قال تعالى: ﴿وجادِلْهُمْ بالتي هِيَ أحْسَنُ﴾ (١).

وقوله: ﴿ثانِي عِطْفِهِ﴾ نصب على الحال، يعني الّذي يجادل بغير علم يثني عطفه. قال مجاهد وقَتادة: يلوي عنقه كبراً. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث ابن كلدة، ذكره ابن عبّاس.

وقوله: ﴿ليُضِلّ عَنْ سبيلِ اللهِ﴾ من فتح الياء معناه يفعل هذا ليضلّ عن طريق الحقّ المؤدّي إلى توحيد الله. ومن ضمّ الياء أراد أنّه يفعل ذلك ليضلّ غيره.

ثمّ أخبر تعالى أنّ مَنْ هذه صفته ﴿له في الدنيا خِزْيٌ﴾ وأنّه يذيقه ﴿عذابَ الحَريقِ﴾ يوم القيامة أي العذاب الّذي يحرق بالنار.

ثمّ قال: ﴿ذلكَ بما قدّمتْ يَداكَ﴾ أي يقول الله تعالى عند نزول العذاب به: ﴿ذلك بما قدّمت يداكَ وأنّ اللهَ ليسَ بظَلّامٍ للعَبيدِ﴾ ومعناه أنّ ما يفعل بالظالم نفسه من عذاب الحريق جزاء على ما كسبت يداه، فذكر اليدين مبالغة في إضافة الجرم إليه، وهذا يدلّ على أنّ ذكر اليدين قد يكون لتحقيق الإضافة. وقوله: ﴿وأنّ الله﴾ أي ولأنّ الله ﴿ليس بظلّام للعبيد﴾ وإنّما ذكره بلفظ المبالغة وإن كان لا يفعل القليل من الظلم لأمرين:

أحدهما: أنّه خرج مخرج الجواب للمجبّرة، وردّاً عليهم، لأنّهم

---

(١) النحل: ١٢٥.

ينسبون كلّ ظلم في العالم إليه تعالى، فبيّن أنّه لو كان كما قالوا لكان ظلّاماً وليس بظالم.

والثاني: أنّه لو فعل أقلّ قليل الظلم لكان عظيماً منه، لأنّه يفعله من غير حاجة إليه، فهو أعظم من كلّ ظلم فعله فاعله لحاجته إليه.

قوله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ (١٦) ستّ آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وأبو عمرو ورويس وورش ﴿ثمّ ليقطع﴾ ﴿ثمّ ليقضوا﴾ [1] بكسر اللام فيهما، ووافقهم قنبل في ﴿ثمّ ليقضوا﴾ الباقون بسكون اللام.

معنى قوله ﴿ومِن الناسِ مَن يعبُدُ اللهَ على حَرْفٍ﴾ أي في الناس من يوجّه عبادته إلى الله على ضعف في العبادة، كضعف القيام على حرف جرف، وذلك من اضطرابه في استيفاء النظر المؤدّي إلى المعرفة، فأدنى شبهة تعرض له ينقاد لها، ولا يعمل في حلّها. والحرف والطرف والجانب نظائر، و«الحرف» منتهى الجسم، ومنه الانحراف الانعدال إلى الجانب. وقلم محرف قد عدل بقطعته عن الاستواء إلى جانب، و«تحرّف» القول

---

(١) الحجّ: ٢٩.

هو العدول به عن جهة الاستواء، فالحرف معتدل إلى الجانب عن الوسط. وقال مجاهد: معنى على حرف شَكّ. وقال الحسن: يعبد الله على حرف يعني المنافق يعبده بلسانه دون قلبه. وقيل على حرف: الطريقة لا يدخل فيه على تمكين.

وقوله: ﴿فإن أصابَهُ خيرٌ اطمأنَّ به وإن أصابَتْه فتنةٌ انقلبَ على وجهه﴾ قال ابن عبّاس: كان بعضهم إذا قدم المدينة فإن صحّ جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً رضي به واطمأنّ إليه، وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخّرت عنه الصدقة قال: ما أُصبت منذ كنت على ديني هذا إلّا شرّاً، وكلّ ذلك من عدم البصيرة. وقيل: إنّها نزلت في بني أسد كانوا نزلوا حول المدينة. و«الفتنة» – هاهنا ـ معناه المحنة بضيق المعيشة، وتعذّر المراد من أُمور الدنيا. ثمّ أخبر الله تعالى أنّ مَن هذه صفته على خسران ظاهر، لأنّه يخسر الجنّة وتحصل له النار.

ثمّ أخبر عمّن ذكره أنّه ﴿يدعو من دونِ اللهِ ما لا يضرّهُ وما لا ينفَعُهُ﴾ يعني الأصنام والأوثان، لأنّها جماد لا تضرّ ولا تنفع، فإنّه يعبدها دون الله. ثمّ قال تعالى: ﴿ذلكَ هو الضلالُ البعيدُ﴾ يعني عبادة مالا يضرّ ولا ينفع من العدول عن الصواب، والانحراف عن الطريقة المستقيمة إلى البعيد عن الاستقامة. و﴿ذلك﴾ في موضع نصب بـ«يدعو» ومعناه «الّذي» كأنّه قال: الّذي هو الضلال البعيد [يدعوه].

وقوله: ﴿يدعو لمن﴾ مستأنف على ما ذكره الزجّاج[١]. وقوله ﴿يدعو لمن ضَرّهُ أقرَبُ من نفعِهِ﴾ يعني يدعو هذه الأصنام الّتي ضررها أقرب من نفعها، لأنّ الضرر بعبادتها عذاب النار، والنفع ليس فيها. وإنّما جاز دخول

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤١٦.

اللام في ﴿لمن ضرّهُ﴾ لأنّ «يدعو» معلّقة، وإنّما هي تكرير للأُولى، كأنّه قال: يدعو ـ للتأكيد ـ للّذي ضرّه أقرب من نفعه [يدعو](١). ثمّ حذفت «يدعو» الأخيرة اجتزاءً بالأُولى، ولا يجوز قياساً على ذلك ضربتُ لزيدٍ، ولو قلت بدلاً من ذلك: يضرب لمن خيره أكثر من شرّه يضرب، ثمّ حذفت الخبر جاز، والعرب تقول: عندي لما غيره خير منه، كأنّه قال: للّذي غيره خير منه عندي، ثمّ حذف الخبر من الثاني والابتداء من الأوّل، كأنّه قال: عندي شيء غيره خير منه، وعلى هذا يقال: أُعطيك لما غيره خير منه، على حذف الخبر. وقيل: الخبر في «لمن ضرّه» «لبئس المولى». وقيل: يدعو بمعنى يقول، والخبر محذوف. وتقديره: يقول لمن ضرّه أقربُ من نفعه هو آلهة، قال عنترة:

يدعونَ عنترَ والرماحُ كأنّها أشطانُ بئرٍ في لبانِ الأدهَمِ(٢)

أي يقول يا عنتر. وقيل تقدير اللام التأخّر وإن كانت متقدّمة، والمعنى يدعو من لضرّه أقربُ من نفعه.

وقوله: ﴿لَبِئسَ المولى ولَبئسَ العَشِيرُ﴾ فالمولى هو الوليّ، وهو الناصر الّذي يولّي غيره نصرته إلّا أنّها نصرة سوء، و«العشير» الصاحب المعاشر أي المخالط، في قول ابن زيد. وقال الحسن: المولى ـ هاهنا ـ الوليّ. وقيل: ابن العمّ أي بئس القوم لبني عمّهم بما يدعونهم إليه من الضلال. وقيل: اللام لام اليمين، والتقدير: يدعو وعزّتي لمن ضرّه أقربُ من نفعه.

ثمّ أخبر تعالى أنّه ﴿يُدخلُ الّذين آمنوا﴾ بالله وأقرّوا بوحدانيّته وصدّقوا

---

(١) مابين المعقوفتين سقط من الحجريّة، وأثبتناه من المطبوع.

(٢) ديوان عنترة : ٦١ ، وفيه : «والدروع» بدل «والرماح» وعجزه «حَدَقُ الضفادعِ في غديرٍ أدهمِ».

رسله ﴿وعمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصالحاتِ﴾ الّتي أمرهم بها ﴿جنّاتٍ﴾ أي بساتين ﴿تَجْري مِن تَحتِها الأنهارُ إنّ الله يفعلُ ما يريد﴾ من ذلك لا اعتراض عليه في ذلك.

ثمّ قال: ﴿مَن كانَ يظُنُّ أنْ لنْ ينصُرَهُ اللهُ في الدنيا والآخرةِ فَليمدُدْ بسببٍ إلى السماءِ ثمّ ليقْطَعْ فَلينظرْ هل يُذهبَنَّ كَيدُهُ ما يَغيظُ﴾ فالهاء في قوله ﴿ينصُرَهُ اللهُ﴾ قال ابن عبّاس وقَتادة: عائدة إلى النبيّ ﷺ والمعنى من كان يظنّ أن الله لا ينصر نبيّه ولا يعينه على عدوّه، ويظهر دينه فليمت غيظاً. و«النصرة» المعونة، في قول قَتادة. وقال مجاهد والضحّاك: إنّ الكناية عائدة إلى «من» والمعنى إنّ من ظنّ أن لا ينصره الله. وقال ابن عبّاس: النصرة ـ هاهنا ـ الرزق. والمعنى من ظنّ أنّ الله تعالى لا يرزقه. والعرب تقول: من ينصرني نصره الله أي من يعطيني أعطاه الله، وقال الفقعسي:

وإنّكَ لا تعطى امرءاً فوقَ حظّهِ
ولا تَملِكُ الشقَّ الّذي الغيثُ ناصِرُهْ[1]

أي معطيه وجايده، ويقال: نصر الله أرض فلان أي جاد عليها بالمطر.

وقوله: ﴿فليمدُدْ بسببٍ إلى السماءِ ثمّ ليقطعْ﴾ قيل في معنى «السماء» قولان:

أحدهما: قال ابن عبّاس: أراد سقف البيت. والسبب الحبل. وقال ابن زيد: إلى السماء سماء الدنيا، والسبب المراد به الوحي إلى النبيّ ﷺ ﴿ثمّ ليقطعْ﴾ الوحي عن النبيّ ﷺ والمعنى من ظنّ أنّه لا يرزقه الله على وجه السخط لما أُعطي ﴿فليمدُدْ﴾ بحبل إلى سماء بيته واضعاً له في حلقه، على طريق كيد نفسه ليذهب غيظه به، وهذا مثل ضربه الله لهذا الجاهل،

(١) أنشده الطبري ذيل الآية.

والمعنى مَثَلُه مَثَلُ من فعل بنفسه هذا فما كان إلّا زائداً في بلائه. وقيل: هذا مثل رجل وعدته وعداً، ووكّدت على نفسك الوعد، وهو يراجعك. لا يثق بقولك [فتقول له:](١) فاذهب فاختنق، يعني اجهد جهدك [فلا ينفعك](٢) وهذه الآية نزلت في قوم من المسلمين نفروا من اتّباع النبيّ صلى الله عليه وآله خيفة من المشركين يخشون أن لا يتمّ له أمره.

[وقرأ ابن مسعود ﴿يدعو من ضرّه أقربُ من نفعه﴾ بلا لام، الباقون بإثبات اللام، ووجهه أنّ «من» كلمة لا يبين فيها الإعراب فاستجازوا الاعتراض باللام دون الاسم الّذي يبين فيه الإعراب، ولذلك قالت العرب: عندي لما غيره خير منه. وقد يجوز أن يكون «يدعو» الثانية من صلة الضلال البعيد، ويضمر في يدعو الهاء، ثمّ يستأنف الكلام باللام. ولو قرئ بكسر اللام كان قويّاً. قال الفرّاء: كأن يكون المعنى يدعو إلى ما ضرّه أقرب من نفعه، كما قال تعالى: ﴿الحمدُللهِ الّذي هدانا لهذا﴾ (٣) أي إلى هذا، إلّا أنّه لم يقرأ به أحد(٤).](٥)

وقوله: ﴿وكذلك أنزلناهُ﴾ أي مثل ما ذكرناه من الأدلّة الواضحة أنزلنا ﴿آياتٍ﴾ واضحات، لأنّ ﴿اللهَ يهدي من يُريدُ﴾ منه فعل الطاعات ويدلّه عليها.

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ

(١ و٢) مابين المعقوفتين سقط من الحجريّة، أثبتناه من المطبوع.

(٣) الأعراف: ٤٣.

(٤) معاني القرآن ٢: ٢١٧.

(٥) من المناسب أن يكون مابين المعقوفتين قبل: وقوله ﴿لبئس المولى﴾.

ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ستّ آيات.

أقسم الله تعالى لأنّ «إنّ» يتلقّى بها القسم، فأقسم تعالى ﴿إنّ الذين آمنوا﴾ بالله وصدّقوا بوحدانيّته وصدّقوا أنبياءه ﴿والّذين هادُوا﴾ يعني اليهود ﴿والصابئين والنّصارى والمجوسَ والذين أشرَكُوا﴾ مع الله غيره ﴿إنّ الله يفْصِلُ بَينهمْ يومَ القيامةِ﴾ فخبر ﴿إنّ الذين آمنوا﴾ قوله: ﴿إنّ الله يفصلُ﴾ فدخل «إنّ» على الخبر تأكيداً كما يقول القائل: إنّ زيداً إنّ الخير عنده لكثير، وقال جرير:

إنّ الخليفةَ إنّ الله سَرْبَلَهُ سِربالَ مُلكٍ به تُرجى الخواتيمُ[1]

وقال الفرّاء: لا يجوز أن تقول: إنّ زيداً إنّه صائم لاتفاق الاسمين[2]. قال الزجّاج: يجوز ذلك. وهو جيّد بالغ[3].

ومعنى قوله: ﴿يَفْصِلُ بينهم﴾ يعني إنّ الله يفصل بين الخصوم في الدين يوم القيامة بما يضطرّ إلى العلم بصحّة الصحيح ويبيّض وجه المحقّ، ويسوّد وجه المبطل. و«الفصل» هو التمييز بين الحقّ والباطل، وإظهار أحدهما من الآخر.

وقوله: ﴿إنّ الله على كلّ شيءٍ شهيدٌ﴾ أي عالم بما من شأنه أن يشاهد،

---

(١) ديوان جرير: ٣٩٨، وفيه: «يكفي الخليفة أنّ...» بدل «إنّ الخليفة».

(٢) معاني القرآن: ٢١٨.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤١٧.

فالله تعالى يعلمه قبل أن يكون، لأنّه علّام الغيوب.

ثمّ خاطب نبيّه صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلّفين فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ومعناه ألم تعلم ﴿أنّ اللهَ يَسجُدُ له من في السماوات ومن في الأرض﴾ من العقلاء. ﴿و﴾ يسجد له ﴿الشمس والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ وكثيرٌ من الناسِ وكثيرٌ حقَّ عليه العذاب﴾ فسجود الجماد هو ما فيه من ذلّة الخضوع الّتي تدعو العارفين إلى السجود سجود العبادة لله المالك للأمور، وسجود العقلاء هو الخضوع له تعالى والعبادة له.

وقوله: ﴿مَن في السماواتِ ومَن في الأرض﴾ وإن كان ظاهره العموم فالمراد به الخصوص إذا حملنا السجود على العبادة والخضوع، لأنّا علمنا أنّ كثيراً من الخلق كافرون بالله تعالى. فلذلك قال ﴿وكثيرٌ من الناس وكثيرٌ حقّ عليه العذابُ﴾ ارتفع كثير بفعل مقدّر، كأنّه قال: وكثيرٌ أبى السجود، فـ﴿حقّ عليه العذاب﴾ دلّ عليه، لأنّهم يستحقّون العقاب بجحدهم وحدانيّة الله وإشراكهم معه غيره. وقيل: سجود كلّ شيء ـ سوى المؤمنين ـ سجود ظلّه حين تطلع الشمس وحين تغيب، في قول مجاهد. كأنّه يجعل ذلك لما فيه من العبرة بتصريف الشمس في دورها عليه سجوداً.

وقوله: ﴿وكثيرٌ حقّ عليه العذابُ﴾ يعني لإبائه السجود. وقيل: بل هو يسجد بما يقتضيه عقله من الخضوع وإن كفر بغير ذلك من الأمور، وأنشدنا في السجود بمعنى الخضوع:

بجمعٍ تضلُّ البلق في حُجراته ... تُرى الاكمُ فيها سُجّداً للحوافرِ [١]

وقوله: ﴿ومن يُهن اللهُ فما له من مكرِمٍ﴾ معناه من يهنه الله بالشقوة

(١) أنشده الطبري ذيل الآية ونسبه إلى الشاعر زيد الخيل، وقد تقدّم من الشيخ الطوسي إنشاده هذا البيت ونسبته إلى الشاعر المذكور في ٢: ٣٣٥.

بإدخاله جهنّم ﴿فما له من مُكْرِمٍ﴾ بالسعادة بإدخاله الجنّة، لأنّه الّذي يملك العقوبة والمثوبة ﴿إنّ اللهَ يفعلُ ما يَشاء﴾ يعني يكرم من يشاء ويهين من يشاء إذا استحقّ ذلك.

وقوله: ﴿هذانِ خصمانِ﴾ يعنى الفريقين من المؤمنين والكفّار يوم بدر، وهم حمزة بن عبد المطّلب قتل عتبة بن ربيعة، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام قتل الوليد بن عتبة، وعبيدة بن الحارث قتل شيبة بن ربيعة، في قول أبي‌ذرّ. وقال ابن عبّاس: هم أهل الكتاب، وأهل القرآن. وقال الحسن ومجاهد وعطاء: هم المؤمنون والكافرون.

﴿اختصموا في ربّهم﴾ لأنّ المؤمنين قالوا بتوحيد الله وأنّه لا يستحقّ العبادة سواه، والكفّار أشركوا معه غيره، وإنّما جمع قوله: ﴿اختصموا﴾ لأنّه [أراد ما يختصمون فيه أو][1] أراد بالخصمين القبيلتين وخصومهم.

ثمّ قال تعالى: ﴿فالّذين كفروا﴾ بالله وجحدوا وحدانيّته ﴿قُطّعتْ لهم ثيابٌ من نارٍ﴾ ومعناه إنّ النار تحيط بهم كإحاطة الثياب الّتي يلبسونها، و﴿يُصبُّ من فوقِ رؤسهم الحَميمُ﴾ روي في خبر مرفوع: أنّه يصبّ على رؤوسهم الحميم، فينفذ إلى أجوافهم فيسلب ما فيها. و«الحميم» الماء المغليّ. وقيل: ثياب نحاس من نار [تقطع لهم][2] وهي أشدّ ما يكون حمى. وقوله: ﴿يُصهَرُ به ما في بُطونِهم والجلودُ﴾ فالصهر الإذابة. والمعنى يذاب بالحميم الّذي يصبّ من فوق رؤوسهم ما في بطونهم من الشحوم وتساقط من حرّه الجلود، تقول: صهرت الألية بالنار إذا أذبتها، أصهرها صهراً، قال الشاعر:

---

(١) مابين المعقوفتين سقط من الحجريّة، أثبتناه من المطبوع.
(٢) مابين المعقوفتين ليس من الحجريّة، أثبتناه من المطبوع.

تَروِي لَقىً أُلقِيَ في صَفصَفٍ تَصْهَرُهُ الشمسُ فما يَنْصَهِرْ[١]

يعني ولدها، و«تَروي» معناه أن تحمل له الماء في حوصلتها، فتصير له راوية كالبعير الّذي يحمل عليه الماء، يقال: رويت للقوم إذا حملت لهم الماء. و«اللقي» كلّ شيءٍ ملقى من حيوان أو غيره، وقال الآخر:

شَكُّ السَفافِيدِ الشواءَ المُصْطَهَرْ[٢]

وقوله تعالى: ﴿ولَهُمْ مقامِعُ من حَديدٍ﴾ فالمقامع جمع مقمعة، وهي مدقّة الرأس، ومثله المنقفة. قمعه قمعاً إذا ردعه عن الأمر. فالزبانية بأيديهم عمد من حديد يضربون بها رؤوسهم إذا أرادوا الخروج من النار ـ من الغمّ الّذي يلحقهم والعذاب الّذي ينالهم ـ ردّوا بتلك المقامع فيها وأُعيدوا إلى حالتهم الّتي كانوا فيها من العقاب. وقيل: يرفعهم زفيرها حتّى إذا كادوا أن يخرجوا منها ضربوا بالمقامع حتّى يهووا فيها.

وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق، فالذوق طلب إدراك الطعم، فهو أشدّ لإحساسه عند تفقّده وطلب إدراك طعمه، فأهل النار يجدون ألمّها وجدان الطالب لإدراك الشيء، و«الحريق» الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك. وقيل: هو بمعنى محرق كأليم بمعنى مؤلم، فهؤلاء أحد الخصمين. والآخرون هم المؤمنون الّذين وصفهم في الآية بعدها.

قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى

---

(١) أنشده الأزهري في التهذيب ١٥: ٣١٤ مادة «روى» ونسبه إلى ابن أحمر.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٤٧، وفي الحجريّة: «يشكّ الشفافيه سواء المطهر» وما أثبتناه من المصدر وهو الموافق لما في تفسير الطبري وغيره.

ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ أربع[1] آيات بلا خلاف.

قرأ نافع وأبو بكر ﴿ولؤلؤاً﴾ بالنصب، الباقون بالجرّ.

لمّا حكى الله تعالى أمر الخصمين اللذين يختصمان، من الكفّار والمؤمنين، ثمّ بيّن ما للكفّار من عذاب النار، وإصهار ما في بطونهم، والمقامع من الحديد، وغير ذلك بيّن ما للمؤمنين، وهم الفريق الآخر في هذه الآية فقال: ﴿إنّ الله يُدخِلُ الذين آمنوا﴾ بالله وأقرّوا بوحدانيّته، وصدّقوا رسله ﴿وعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصالحاتِ جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ يُحَلّونَ فيها﴾ [أي يلبسون الحلي] ﴿من أساوِرَ من ذهبٍ﴾.

و«الأساور» جمع أسوار، وفيه ثلاث لغات أُسوار بالألف وسِوار وسُوار، فمن جعله أسوار جمعه على أساورة، ومن جعله سُوار وسِوار، جمعه أسوِرَة. وفي قراءة عبد الله ﴿أساوير﴾ واحدها إسوار أيضاً. وسوار وأساور مثل كراع وأكارع، وجمع الأسوِرَة سوراً.

﴿ولؤلؤاً﴾ فمن جرّه عطفه على ﴿من﴾ وتقديره: يحلّون أساور من ذهبٍ ولؤلؤٍ، ومن نصبه عطفه على الموضع، لأنّ «من» وما بعدها في موضع نصب، فعطف ﴿ولؤلؤاً﴾ على الموضع، وتقديره: ويحلّون لؤلؤاً. وقد روي عن عاصم همز الأُولى وتليين الثانية. وروي ضدّه، وهو تليين الأُولى وهمزة الثانية. الباقون يهمزونهما، وكلّ ذلك جائز في العربيّة.

واللؤلؤ الكبار، والمرجان الصغار، ويجوز أن يكون اللؤلؤ مرصّعاً في الذهب، فلذلك قال: يحلّون لؤلؤاً. وقوّى القراءة بالنصب أنّ في المصاحف

(١) هكذا في الخطّية والحجريّة والصواب: «ثلاث» وهو المثبّت في المصاحف.

مكتوباً بالألف، قال أبو عمرو: كتب كذلك كما كتبوا كفروا بالألف.

ثمّ أخبر أنّ لباسهم في الجنّة حرير، فحرّم الله على الرجال لبس الحرير في الدنيا وشوّقهم إليه في الآخرة.

ثمّ قال: ﴿وهُدُوا﴾ يعني أهل الجنّة إلى الصواب من القول، قال الجبّائي: هدوا إلى البشارات من عند الله بالنعيم الدائم. وقيل: معناه إلى القرآن. وقيل: إلى الايمان. وقال الكلبي: إلى قول لا إلٰه إلّا الله. وقال قوم: هو القول الّذي لا تخشن فيه ولا صخب ﴿وهدُوا إلى صراطِ الحميدِ﴾ وقيل: إلى الإسلام. وقيل: إلى الجنّة، فالحميد هو الله المستحقّ الحمد. وقيل: المستحمد إلى عباده بنعمه، في قول الحسن. أي الطالب منهم أن يحمدوه. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: ما أحد أحبّ إليه الحمد من الله ـ عزّ وجلّ ـ.

ثمّ قال تعالى: ﴿إنّ الّذين كفروا﴾ بوحدانيّته واختصاصه بالعبادة. ﴿ويصدّون﴾ أي ويمنعون غيرهم ﴿عن﴾ اتّباع ﴿سبيل الله﴾ بالقهر والإغواء ﴿والمسجد الحرام﴾ أي ويمنعونهم عن المسجد الحرام أن يجيئوا إليه حجّاجاً وعُمّاراً ﴿الّذي جَعلناه﴾ أي جعله الله تعالى ﴿للناس﴾ كافّة قبلة لصلاتهم ومنسكاً لحجّهم، والمراد بالمسجد الحرام المسجد نفسه. وقيل: الحرم كلّه.

﴿سواءً العاكفُ فيه والبادِ﴾ قال ابن عبّاس وقَتادة: سواء العاكف فيه والبادِ، والعاكف المقيم فيه، والباد الطارئ. ونصب ﴿سواء﴾ حفص عن عاصم على أنّه مفعول ثان من قوله: ﴿جعلناه للناس سواءً﴾ أي مساوياً، كما قال: ﴿إنّا جعلناه قرآنا عربيّاً﴾ [١] ويرتفع «العاكف» في هذه القراءة بفعله أي يستوي العاكف والبادي.

---

(١) الزخرف: ٣.

ومن رفع [سواء] جعله ابتداءاً وخبراً، كما تقول: مررت برجل سواء عنده الخير والشرّ، وتقديره: العاكف والبادي سواء فيه بالنزول فيه. وقال مجاهد: معناه أنّهم سواء في حرمته وحقّ الله عليهما فيه. واستدلّ بذلك قوم على أنّ أُجرة المنازل في أيّام الموسم محرّمة، وقال غيرهم: هذا ليس بصحيح، لأنّ المراد به سواء العاكف فيه والبادِ، فيما يلزمه من فرائض الله تعالى فيه، فليس لهم أن يمنعوه. وأمّا الدور والمنازل فهي لملّاكها، وهو قول الحسن. وإنّما عطف بالمستقبل على الماضي من قوله: ﴿كفروا ويصدّون﴾ لأنّ المعنى ومن شأنهم الصدّ، ونظيره ﴿الّذينَ آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهُم بذكْرِ اللهِ﴾[1] ويجوز في «سواء» الرفع والنصب والجرّ، فالنصب على أن يكون المفعول الثاني لـ«جعلناه» على ما بيّنّاه، والرفع على تقدير: هم سواء فيه. والجرّ على البدل من قوله ﴿للناس سواء﴾ وقوله: ﴿ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم﴾ معناه من إرادته فيه بإلحاد، كما قال الشاعر:

أُريد لأنسى ذِكْرَها فكأنّـما تَمثّلُ لي ليلى بكلّ سبيلِ[2]

ذكره الزجّاج[3]. والباء في قوله: ﴿بإلحاد﴾ مؤكّدة. والباء في قـوله: ﴿بظلم﴾ للتعدية، ومثله قول الشاعر:

بوادٍ يمانٍ ينبتُ الشثَ صدرُه وأسفلُهُ بالمرخِ والشَـبَهانِ[4]

والمعنى ينبت المرخ، ومثله قوله: ﴿تُنبِتُ بالدُهنِ﴾[5]. أي تَـنبِتُ الدهن، وقال الأعشى:

ضَـمِنَتْ بـرزقِ عـيالنا أرمـاحُنا نيلَ المراجلِ والصريحَ الاجرَدا[6]

---

(١) الرعد: ٢٨.
(٢) للشاعر كثيّر عزّة، راجع ديوانه: ١٧٦.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤٢١.
(٤) أنشده الطبري ذيل الآية.
(٥) المؤمنون: ٢٠.
(٦) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٤٩، وفي الحجرية: «بل» وما أثبتناه من المصدر.

وقال امرؤ القيس:

ألا هـل أتـاها والحـوادثُ جـمّةٌ    بأنَّ امرأ القيس بن تملكَ بـيَقرا[١]

وقال الآخر:

فلما جـزتْ بـالشربِ هـزّلها العـصا

شـــحيح له عــند الإزاء نَــهيمُ[٢]

وقال الآخر:

ألم يـــأتيكَ والأنـباءُ تَـنمي    بما لاقتْ لبون بني زيادِ[٣]

ويجوز أن يكون المعنى ومن يرد فيه منعاً «بإلحاد» أي يميل بظلم. فتكون حينئذٍ معدّية للإرادة، وذلك أنّه يمكن أن يريد منعاً لا بإلحاد، كما يمكن أن يميل لا بظلم، وكما يمكن أن يمرّ لا بشيء. وقال ابن عـبّاس: المعنى فيه من يرد استحلال ما حرّم الله. و«الإلحاد» هو الميل عن الحقّ.

وقـــوله: ﴿نذِقْهُ من عذابٍ أليم﴾ يـعني مـؤلم. وحكـى الفـرّاء: أنّـه قرئ ﴿ومن يرد﴾ بفتح الياء من الورود، ومعناه من ورده ظلماً على غير ما أمـــر الله بـــه[٤]. إلّا أنّـــه شـاذّ. وقـال مـجاهد: مـعناه مـن ظـلم فـيه وعمل شيئاً وأشرك بالله غيره. وقال ابن مسعود: من استحلّ ما حرّمه الله. وقال ابن عبّاس: هو استحلال الحرم متعمّداً. وقال حسّان بن ثابت: هـو احتكار الطعام بمكّة. وقيل: نزّلت في أبي سفيان وأصحابه، حين صدّوا رسول الله ﷺ عن عمرة الحديبيّة.

---

(١) أنشده الطبري ذيل الآية.

(٢) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٢٢٢، ونسبه إلى أبي الجرّاح.

(٣) أنشده الثعلبي في تفسيره ٧: ١٧.

(٤) معاني القرآن ٢: ٢٢٣.

قوله تعالى:

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ: واذكر يا محمّد ﴿إذ بوّأنا لإبراهيم مكانَ البيت﴾ ومعناه جعلنا له علامة يرجع إليها. وقال قوم: معنى بوّأنا وطّأنا له. وقال السدّي: كانت العلامة ريحاً هبّت فكشفت حول البيت، يقال لها: الحجوج. وقال قوم كانت: سحابة تطوّقت حيال الكعبة، فبنى على ظلّها. وأصل «بوّأنا» من قوله: ﴿باؤا بغضبٍ من الله﴾ أي رجعوا بغضب منه. ومنه قول الحارث بن عباد «بؤبشسعِ كليب» أي ارجع، قال الشاعر:

فـإن تكـنِ القَـتْلى بَـواءً فـإنّكم ... فتىً ماقتلتم آلَ عوفِ بنعامرِ(١)

أي قد رجع بعضها ببعض في تكافئ الدماء. وتقول: بوّأته منزلاً أي جعلت له منزلاً يرجع إليه. و«المكان» و«الموضع» و«المستقرّ» نظائر. و«البيت» مكان مهيّأ بالبناء للبيتوتة، فهذا أصله، وجعل البيت الحرام على هذه الصورة.

وقوله: «ألّا تشرك بي شيئاً» معناه وأمرناه ألّا تشركبي شيئاً فيالعبادة ﴿وطهّر بيتي﴾ قال قَتادة: يعني من عبادة الأوثان. وقيل: من الأدناس.

---

(١) ديوان ليلى الأخيلية: ٧٠.

وقيل: من الدماء والفرث والأقذار الّتي كانت تُرمى حول البيت، ويلطخون به البيت إذا ذبحوا.

وقوله: ﴿للطائفين﴾ يعني حول البيت ﴿والقائمين والركّعِ السجود﴾ يعني طهّر حول البيت للّذين يقومون هناك للصلاة والركوع والسجود. وقال عطاء: والقائمين في الصلاة. وإذا قال: طاف فهو من الطائفين، وإذا قعد فهو من العكّف، وإذا صلّى فهو من الركّع السجود. وفى الآية دلالة على جواز الصلاة في الكعبة.

وقوله: ﴿وأذّن في الناسِ بالحجّ﴾ قال الحسن والجبّائي: هو أمر للنبيّ صلى الله عليه وآله أن يؤذّن للناس بالحجّ ويأمرهم به، وأنّه فعل ذلك في حجّة الوداع. وقال ابن عبّاس: إنّ إبراهيم قام في المقام، فنادى «يا أيّها الناس إنّ الله قد دعاكم إلى الحجّ» فأجابوا بـ«لبّيك اللّهمّ لبّيك».

وقوله: ﴿يأتُوكَ رِجالاً﴾ أي: مشاةً على أرجلهم، فرجال جمع راجل مثل صاحب وصحاب، وقائم وقيام ﴿وعلى كلّ ضامر﴾ أي على كلّ جمل ضامر، وهو المهزول، أضمره السير ﴿من كلّ فجٍّ عميقٍ﴾ أي طريق بعيد، قال الراجز:

يَقْطَعنَ بُعْدَ النازحِ العميقِ(١)

وإنّما قال: ﴿يأتين﴾ لأنّه في معنى الجمع. وقيل: لأنّ المعنى وعلى كلّ ناقة ضامر. وقوله: ﴿ليشهدُوا منافع لهم﴾ قيل: الأجر والثواب في الآخرة، والتجارة في الدنيا. وقال أبو جعفر عليه السلام: المغفرة(٢).

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٤٩ ولم ينسبه لأحد.

(٢) رواه الطبري في ذيل الآية هكذا: حدّثنا القاسم قال: ثنا الحسين، قال: ثني أبوتميلة عن أبي‌حمزة عن جابر قال: قال محمّد بن عليّ: مغفرة.

وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسمَ اللهِ في أيّام معلوماتٍ﴾ قال الحسن وقَتادة: الأيّام المعلومات عشر من ذي الحجّة، والأيّام المعدودات أيّام التشريق. وقال أبو جعفر عليه السلام الأيّام المعلومات أيّام التشريق، والمعدودات العشر[١]، لأنّ الذكر الّذي هو التكبير في أيّام التشريق. وإنّما قيل لهذه الأيّام: معدودات لقلّتها. وقيل لتلك: معلومات للحرص على علمها بحسابها، من أجل وقت الحجّ في آخرها.

وقوله: ﴿على ما رزقَهم من بهيمةِ الأنعام﴾ يعني ممّا يذبح من الهدي. وقال ابن عمر: الأيّام المعلومات أيّام التشريق، لأنّ الذبح فيها الّذي، قال الله تعالى: ﴿ويذكروا اسمَ اللهِ في أيّام معلومات على مارزقهُمْ من بهيمةِ الأنعام﴾.

وقوله: ﴿فكلُوا منها وأطعموا البائسَ الفقير﴾ قال مجاهد وعطاء: أمرنا بأن نأكل من الهدي وليس بواجب. وهو الصحيح، غير أنّه مندوب إليه. و«البائس» الّذي به ضرّ الجوع، و«الفقير» الّذي لا شيء له، يقال: بؤس فهو بائس إذا صار ذا بؤس، وهو الشدّة. أمر الله تعالى أن يعطى هؤلاء من الهدي.

وقوله: ﴿ثمَّ ليقضُوا تَفَثَهُمْ﴾ فالتفث مناسك الحجّ، من الوقوف والطواف والسعي ورمي الجمار والحلق بعد الإحرام من الميقات. وقال ابن عبّاس وابن عمر: التفث جمع المناسك. وقيل: التفث قشف الإحرام، وقضاؤه بحلق الرأس والاغتسال ونحوه. قال الأزهري: لا يعرف التفث في لغة العرب إلّا من قول ابن عبّاس.

وقوله: ﴿وليُوفُوا نذورَهُمْ﴾ أي يوفوا بما نذروا، من نحر البُدن، في قول ابن عبّاس. وقال مجاهد: كلّ ما نذر في الحجّ. وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿وليُوفّوا﴾ مشدّدة الفاء، ذهب إلى التكثير.

---

(١) التهذيب ٥: ٤٨٧ ح١٧٣٦.

وقوله: ﴿وليطَّوَّفوا بالبَيتِ العتيقِ﴾ أمر من الله تعالى بالطواف بـالبيت. قال ابن زيد: سمّي البيت عتيقاً، لأنّه أعتق من أن تملكه الجبابرة عن آدم. وقيل: لأنّه أوّل بيت بني، كقوله تعالى: ﴿إنّ أوّل بيتٍ وُضِعَ للناسِ للّذي ببكّة مبارَكاً﴾ [١] ثمّ أعاده إبراهيم عليه السلام. وقيل: لأنّه أعتق من الغرق أيّام الطوفان، فغرقت الأرض كلّها إلّا موضع البيت، روي عن أبي جعفر عليه السلام [٢].

والطواف المأمور به من الله في هذه الآيـة، قـال قـوم: هـو طـواف الإفاضة بعد التعريف إمّا يوم النحر، وإمّا بعده، وهو طواف الزيارة، وهـو ركن بلا خلاف. وروى أصحابنا أنّ المراد ـ هاهنا ـ طواف النساء الّـذي يستباح به وطء النساء، وهو زيادة على طواف الزيارة. وقوله: ﴿ذلكَ ومن يُعَظِّم حُرُماتِ اللهِ﴾ بأن يقبل ما حرّمه الله.

وقوله: ﴿وأُحِلّتْ لَكُمُ الأنعامُ إلّا ما يُتلى عَليكُمْ﴾ يعني إلّا ما يتلى عليكم في كتاب الله: من الميتة، والدم، ولحم الخـنزير، والمـوقوذة، والمـتردّية، والنطيحة، وما أكل السبع، وما ذبـح عـلى النـصب. وقـيل: ﴿وأُحلّت لَكُمُ الأنعام﴾ من الإبل والبقر والغنم في حال إحرامكم ﴿إلّا ما يُتلى عَليكُمْ﴾ من الصيد، فإنّه يحرم على المحرم.

وقـوله: ﴿فاجتنِبُوا الرِجْسَ من الأوثانِ﴾ مـعنى «مـن» لتـبيين الصـفة، والتقدير: فاجتنبوا الرجس الّذي هو الأوثان. وروى أصـحابنا أنّ المـراد به اللعب بالشطرنج والنرد، وسائر أنواع القـمار [٣] ﴿واجتنِبُوا قولَ الزُورِ﴾ يعني الكذب، وروى أصحابنا أنّه يدخل فـيه الغـناء [٤] وسـائر الأقـوال الملهّية بغير حقّ.

---

(١) آل عمران: ٩٦.
(٢) علل الشرائع: ٩٩، الباب ١٤٠ ح ٥.
(٣) الكافي ٦: ٤٣٥ / ٢ و٧.
(٤) الكافي ٦: ٤٣١ / ١.

قوله تعالى:

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قوله: ﴿حُنَفاءَ﴾ نصب على الحال من الضمير في قوله: ﴿واجتنِبُوا قولَ الزُورِ﴾ ومعنى ﴿حنفاء﴾ مستقيمي الطريقة، على أمر الله. و«أصل» الحنف الاستقامة. وقيل للمائل القدم: أحنف، تفاؤلاً بالاستقامة. وقيل: أصله الميل. والحنيف المائل إلى العمل بما أمر الله. والأوّل أقوى، لأنّه أشرف في معنى الصفة. وقوله: ﴿غَيرَ مشركينَ به﴾ أي غير مشركين بعبادة الله غيره. و«الإشراك» تضييع حقّ عبادة الله بعبادة غيره، أو ما يعظم عظم عبادة غيره، وكلّ مشرك كافر، وكلّ كافر مشرك.

ثمّ قال تعالى: ﴿ومَنْ يُشرِكْ باللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنْ السَماء﴾ أي من أشرك بعبادةالله غيرالله، كان بمنزلة من وقع من السماء ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَيرُ﴾ أي تتناوله بسرعة وتستلبه. و«الاختطاف» و«الاستلاب» واحد. يقال: خَطِفَه يَخْطَفه خَطفاً، وتَخطَّفَه تَخطّفاً إذا أخذه من كلّ جهة بسرعة. وقرأ ابن عامر ﴿فَتَخطّفُه﴾ بتشديد الطاء بمعنى فتختطفه فنقل فتحة الطاء إلى الخاء وأُدغم التاء في الطاء، الباقون بالتخفيف، وهو الأقوى كقوله: ﴿إلّا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ﴾[1].

(١) الصافّات: ١٠.

وقوله: ﴿أو تهوي به الريحُ في مكانٍ سحيقٍ﴾ والسحيق البعيد. والمعنى أنّ من أشرك بالله غيره كان هالكاً بمنزلة من زلّ من السماء، واستلبه الطير ورمى به الريح في مكان بعيد، فإنّه لا يكون إلّا هالكاً. وقيل: شبّه المشرك بحال الهاوي في أنّه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً يوم القيامة. وقيل: شبّه أعمال الكفّار في أنّها تذهب فلا يقدر على شيء منها، في قول الحسن.

وقوله: ﴿ذلكَ ومَنْ يعظِّمْ شعائرَ اللهِ فإنّها من تقوى القلوب﴾ قال سيبويه: تقديره: ذلك الأمر من يعظّم. فالشعائر علامات مناسك الحجّ كلّها، منها رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة، في قول ابن زيد. وقال مجاهد: هي البُدُن، وتعظيمها استسمانها واستحسانها. والشعيرة العلامة الّتي تشعر بها لما جعلت له، وأشعرت البدن إذا علّمتها بما يشعر أنّها هدي.

وقوله: ﴿فإنّها من تقوى القلوب﴾ فالكناية في قوله ﴿فإنّها﴾ تعود إلى التعظيم، ويجوز أن تعود إلى الخصلة من التعظيم. وقيل: شعائر الله دين الله. وقوله: ﴿فإنّها من تقوى القلوب﴾ معناه إنّ تعظيم الشعائر من تقوى القلوب أي من خشيتها.

ثمّ قال: ﴿لكُمْ فيها منافعُ إلى أجلٍ مسمّىً﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد: ذلك ما لم يسمّ هدياً أو بدناً. وقال عطاء: ما لم يقلّد، وقيل: منافعها ركوب ظهرها وشرب ألبانها إذا احتاج إليها، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام[١]. وقوله: ﴿إلى أجلٍ مسمّىً﴾ قال عطاء بن أبي رباح: إلى أن تنحر. وقيل: المنافع التجارة. وقيل: الأجر. وقيل: جميع ذلك. وهو أعمّ فائدة.

وقوله: ﴿ثمّ محلّها إلى البيتِ العَتيق﴾ معناه إنّ محلّ الهدي والبدن إلى الكعبة. وعند أصحابنا: إن كان الهدي في الحجّ فمحلّه منى، وإن كان في العمرة المفردة فمحلّه مكّة قبالة الكعبة بالحزورَة. وقيل: الحرم كلّه محلّ

(١) الكافي ٤: ٤٩٢ ح ١، وتفسير القمّي ذيل الآية.

لها[١] والظاهر يقتضي أنّ المحلّ البيت العتيق، وهو الكعبة. وقال قوم ﴿إلى أجلٍ مسمّى﴾ يعني يوم القيامة.

ثمّ أخبر تعالى أنّه جعل لكلّ أُمّة من الأُمم السالفة منسكاً. وقرأ حمزة والكسائي ﴿مَنْسكاً﴾ بكسر السين، الباقون بالفتح، وهما لغتان، وهو المكان للعبادة لما يعرفه يقصده الناس. وقال الحسن: المنسك المنهاج وهو الشريعة جعل الله لكلّ أُمّة من الأُمم السالفة منسكاً أي شريعة. كقوله: ﴿لكلّ أُمّةٍ جعلنا منسكاً هم ناسِكُوهُ﴾[٢] وقال مجاهد: ﴿مَنْسَكاً﴾ يعني عبادة في الذبح، والنسكة الذبيحة. يقال: نسكتُ الشاة أي ذبحتها فكأنّه المذبح، وهو الموضع الّذي يذبح فيه. وقال محمّد بن أبي موسى: محلّ المناسك الطواف بالبيت.

وقوله: ﴿ليذكُرُوا اسمَ اللهِ على ما رزقَهُمْ من بهيمةِ الأنعام﴾ أي جعلنا ذلك للأُمم وتعبّدناهم به ﴿ليذكُرُوا اسمَ اللهِ على ما رزقَهُمْ من بهيمةِ الأنعام﴾ يعني من الإبل والبقر والغنم إذا أرادوا تذكيتها، وفي ذلك دلالة على وجوب التسمية عند الذبيحة.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿فإلهُكمْ إلهُ واحدٌ﴾ أي معبودكم الّذي ينبغي أن توجّهوا العبادة إليه واحد لا شريك له ﴿فَلَهُ أسلِمُوا﴾ أي استسلموا ﴿وبَشّرِ المُخْبتينَ﴾ قال قَتادة: يعنى المتواضعين. وقال مجاهد: يعني المطمئنّين إلى ذكر ربّهم. واشتقاق المخبت من الخبت، وهو المكان المطمئنّ. وقيل: المنخفض، ومعناهما واحد. ثمّ وصف تعالى المخبتين فقال: ﴿الّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلُوبُهُمْ﴾ والمعنى إذا ذكر ثواب الله على طاعاته وعقابه على معاصيه خافوا عقابه وخشوا من ترك طاعاته ﴿والصابرينَ على ما أصابَهُمْ﴾

(١) قاله الطبري ذيل الآية.
(٢) الحجّ: ٦٧.

يعني يصبرون على ما يبتليهم الله، من بلائه في دار الدنيا من أنواع المصائب والأمراض والأوجاع ﴿والمُقيمِي الصلاةِ﴾ يعني الّذين يقيمون الصلاة فيؤدّونها بحقوقها ويدومون عليها. ﴿وممّا رَزقناهُمْ يُنفقُون﴾ أي ممّا ملّكهم الله وجعل لهم التصرّف فيه ينفقون في مرضاته. وفي ذلك دلالة على أنّ الحرام ليس برزق الله؛ لأنّ الله مدح من ينفق في سبيل الله ممّا رزقه، والحرام ممنوع من التصرّف فيه والإنفاق منه فكيف يكون رزقاً؟

قوله تعالى:

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ يعقوب ﴿لن تَنالَ اللهَ لحُومُها ولكِنْ تَنالُهُ﴾ بالتاء فيهما. الباقون بالياء فيهما. وقد مضى ذكر نظائره. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿أذِنَ﴾ بفتح الألف ﴿يُقاتِلونَ﴾ بكسر التاء، وقرأ نافع وحفص ﴿أذِنَ﴾ بضمّ الألف وفتح التاء في ﴿يُقاتَلونَ﴾ وقرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ﴿أذِنَ﴾ بضمّ الألف ﴿يُقاتِلُون﴾ بكسر التاء، وقرأ ابن عامر ﴿أذِنَ﴾ بفتح الألف ﴿يُقاتَلون﴾ بفتح التاء.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿إنّ اللهَ يَدفعُ﴾ و﴿لولا دفعُ اللهِ﴾ بغير ألف في الموضعين، وقرأ نافع ﴿يدافعُ﴾ ﴿ولولا دفاع الله﴾ بإثبات الألف في الموضعين. وقرأ أهل الكوفة(١) ﴿لهدِمَتْ﴾ بتخفيف الدال، الباقون بتشديدها، وهما لغتان، والتشديد للتكثير. قال الحسن: هدمها تعطيلها، فإذا هدّمت مواضع الصلاة فكأنّهم هدموا الصلاة. وقيل: إنّ الصلوات بيوت النصارى، يسمّونها صلوتاً، وقال أبو العالية: الصلوات بيوت الصابئين، وأنشد:

اتّقِ اللهَ والصَلوتَ فَدعْها إنّ في الصومِ والصَلوتَ فساداً

يريد بيت النصارى ومعنى الصوم في البيت ذرق النعام.

ودفعُ الله ودفاعُ اللهِ [لغتان والأغلب أن يكون «فعال» بين اثنين. وقد يكون للواحد مثل عافاه الله وطارقت النعل](٢) وقال ابن عمر: دفاع الله ويدافع لحن. ومن فتح الألف في «أذن» وكسر التاء في «يقاتلون» فالمعنى أذن الله للّذين يقاتلون أن يقاتلوا من ظلمهم، وكذلك المعنى في قراءة الباقين. ومعنى ﴿بأنهم ظلموا﴾ أي من أجل أنّهم ظلموا.

يقول الله تعالى: ﴿والبُدنَ جعلناها﴾ فنصب البدن بفعل مضمر يدلّ عليه ﴿جعلناها﴾ ومثله ﴿والقمرَ قدّرناهُ﴾(٣) فيمن نصب القمر. و«البدن» جمع بدنة، وهي الإبل المبدنة بالسمن. قال الزجّاج: يقولون: بدّنت الناقة إذا سمّنتها. ويقال لها: بدنة من هذه الجهة. وقيل: أصل «البدن» الضخم، وكلّ ضخم بدن. وبدن بدناً إذا ضخم، وبدّن تبديناً فهو بدن، ثقل لحمه للاسترخاء كما يثقل الضخم. والبدنة الناقة، وتجمع على بُدْنٌ وبُدُنْ. وتقع

---

(١) في الخطّية: «ابن كثير وأبوجعفر» بدل «أهل الكوفة».

(٢) مابين المعقوفتين لم يرد في الحجريّة.

(٣) يس: ٣٩.

على الواحد والجمع، قال الراجز:

عليَّ حين تُملَكُ الأُمورا صومُ شهورٍ وجَبتْ نذورا
وحلقُ رأسي وافياً مقصوراً وبدَناً مدرّعاً موفورا[١]

قال عطاء: البدن البقرة والبعير. وقيل: البدنة إذا نحرت علّقت يد واحدة، فكانت على ثلاث، وكذلك تنحر، وعند أصحابنا تشدّ يداها إلى آباطها، وتطلق رجلاها. والبقر تشدّ يداها ورجلاها ويطلق ذنبها. والغنم تشدّ ثلاثة أرجل منها وتطلق فرد رجل.

وقوله: ﴿جعلناها لكم من شعائرِ الله﴾ معناه جعلناها لكم فيها عبادة لله بما في سوقها إلى البيت وتقليدها بما ينبئ أنّها هدي. ثمّ نحرها للأكل وإطعام القانع والمعترّ. وقيل: ﴿من شعائرِ الله﴾ معناه من معالم الله[٢] ﴿لكم فيها خيرٌ﴾ أي منافع في دينكم ودنياكم، مثل ما فسّرناه.

وقوله: ﴿فاذكروا اسمَ اللهِ عليها صَوافّ﴾ أمر من الله أن يذكر اسم الله عليها إذا أُقيمت للنحر صافّة. و«صَوافّ» جمع صافّة، وهي المستمرّة في وقوفها على منهاج واحد، فالصفّ استمرار جسم يلي جسماً على منهاج واحد. والتسمية إنّما تجب عند نحرها دون حال قيامها.

وقوله: ﴿فإذا وَجَبَتْ جنوبُها﴾ معناه وقعت لنحرها، والوجوب الوقوع، ومنه يقال: وجبت الشمس إذا وقعت في المغيب للغروب، ووجب الحائط إذا وقع، ووجب القلب إذا وقع فيه ما يتّجب[٣] به. ووجب الفعل إذا وقع

---

(١) أنشدهما الطبري ذيل الآية، وفيه: «مضفوراً» بدل «مقصوراً» وصدر البيت الأوّل في الحجريّة: «على رحين...» وما أثبتناه من المصدر والمطبوع.

(٢) في الغريبين٣: ١٠٠٨ هكذا: وسمعت الأزهري يقول: الشعائر: المعالم الّتي ندب الله إليها وأمر بالقيام بها.

(٣) كذا في الحجريّة: وفي مجمع البيان «يضطرب».

ما يلزم به فعله. ووجبت المطالبة إذا وقع ما يدعو إلى قبولها. ووجب البيع إذا وقع، وقال أوس بن حجر:

أَلَمْ تُكسفِ الشمسُ والبدْرُ والـ ـكـواكِبُ للـجَبَلِ الواجبِ[١]

أي الواقع.

وقرئ ﴿صوافَّ﴾ على ثلاثة أوجه: صَوافّ بمعنى مصطفّة وعليه القرّاء ﴿وصَوافِيَ﴾ بمعنى خالصة لله وهي قراءة الحسن و﴿صَوافِنَ﴾ بمعنى معلّقة في قيامها بأزمّتها، وهي قراءة ابن مسعود، وهو مشتقّ من صفن الغلام إذا ثنى إحدى يديه حتّى قام على ثلاثة، ومنه قوله: ﴿الصافِناتُ الجياد﴾[٢] قال الشاعر:

أَلِفَ الصُفونَ فما يَزالُ كأنّه ممّا يقومُ على الثلاثِ كَسِيرا[٣]

والصافن من الخيل الّذي يقوم على ثلاث، ويثني سنبك الرابعة.

وقوله: ﴿فكلُوا منها وأطعموا القانعَ والمُعتَرَّ﴾ فقال قوم: الأكل والإطعام واجبان. وقال آخرون: الأكل مندوب والإطعام واجب. وقال قوم: لو أكل جميعه جاز. وعندنا يطعم ثلثه، ويعطى ثلثه القانع والمعترّ، ويهدي الثلث الباقي. و«القانع» الّذي يقنع بما أُعطي أو بما عنده ولا يسأل، و«المعترّ» الّذي يتعرّض لك أن تطعمه من اللحم. وقال ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة: المعترّ الّذي يسأل، والقانع الّذي لا يسأل. وقال الحسن وسعيد بن جبير: القانع الّذي يسأل، قال الشماخ:

لمال المرء يصلحه فيُغني مُفاقِرَة أعفُّ من القُنُوعِ[٤]

أي من السؤال. وقال الحسن: المعترّ يتعرّض ولا يسأل. وقال مجاهد:

---

(١) ديوان أوس بن حجر: ١٠.
(٢) سورة ص: ٣١.
(٣) أنشده في اللسان ٧: ٣٦٩ مادّة «صفن».
(٤) أنشده الفراهيدي في العين ١: ١٧٠.

القانع جارك الغنيّ، والمعترّ الّذي يعتريك من الناس. ويقال: قنع الرجل إلى فلان قنوعاً إذا سأل، قال لبيد:

وأعطانِيَ المولى على حينِ فَقْرِهِ إذا قال: أبصرْ خلّتي وقنوعي[1]

وقنِعت ـ بكسر النون ـ اقنع قناعة وقناعاً إذا اكتفيت.

وقوله: ﴿كذلك سخّرناها لَكُمْ﴾ أي مثل ذلك ذلّلنا هذه الأنعام لكم تصرفوها على حسب اختياركم، بخلاف السباع الممتنعة بفضل قوتها، لكي تشكروه على نعمه الّتي أنعم بها عليكم.

ثمّ قال تعالى: ﴿لن يَنَالَ اللهَ لحومُها﴾ والمعنى لن يتقبّل الله اللحوم ولا الدماء، ولكن يتقبّل التقوى منها وفي غيرها، بأن يوجب في مقابلتها الثواب. وقيل: لن يبلغ رضا الله لحومها ولا دماؤها، ولكن ينالها التقوى منكم.

ثمّ قال: ﴿كذلك سخّرناها لكم﴾ يعني الأنعام ﴿لتكبّروا الله على ما هداكم﴾ أي لتعظّموه ثمّ تشكروه على هدايته إيّاكم إلى معرفته وطريق ثوابه. وقيل: معناه لتسمّوا الله تعالى على الذباحة. وقيل: لتكبّروا الله في حال الإحلال كما يليق به في حال الإحرام.

ثمّ قال تعالى: ﴿وبَشّرِ المحسنينَ﴾ يا محمّد، الّذين يفعلون الأفعال الحسنة وينعمون على غيرهم.

ثمّ قال: ﴿إنّ اللهَ يدافعُ عن الّذين آمنوا﴾ أي ينصرهم ويدفع عنهم عدوّهم تارةً بالقهر، وأُخرى بالحجّة ﴿إنّ اللهَ لا يحبّ كلّ خوّانٍ كفُورٍ﴾ إخبار منه تعالى أنّه لا يحبّ الخوّان، وهو الّذي يظهر النصيحة ويضمر الغشّ للنفاق أو لاقتطاع المال. وقيل: إنّ من ذكر اسم غير الله على الذبيحة فهو

(١) ديوان لبيد: ٨٧، وفيه: «وخشوعي» بدل «وقنوعي».

الخوّان، والكفور هو الجحود لنعم الله وغماط أياديه.

ثمّ أخبر أنّه ﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلُونَ بأنّهم ظُلِمُوا﴾ قيل: إنّ هذه الآية نزلت في المهاجرين الّذين أخرجهم أهل مكّة من أوطانهم، فلمّا قووا أمرهم الله بالجهاد، وبيّن أنّه أذن لهم في قتال من ظلمهم وأخرجهم من أوطانهم. ومعنى ﴿بأنّهم ظلموا﴾ أي من أجل أنّهم ظلموا. ثمّ أخبر أنّه ﴿على نصرهم لقدير﴾ ومعناه أنّه سينصرهم. قال الجبّائي: لا فائدة له إلّا هذا المعنى. وهذه الآية أوّل آية نزلت في الأمر بالقتال.

ثمّ بيّن حالهم فقال: ﴿الّذين أُخرِجُوا من ديارهم بغيرِ حقٍّ﴾ بل ظلماً محضاً ﴿إلّا أن يقولوا ربّنا الله﴾ والمعنى إلّا أن يقولوا الحقّ، فكأنّه قال: الّذين أُخرجوا بغير حقّ، إلّا الحقّ الّذي هو قولهم ربّنا الله. وقال سيبويه «إلّا» بمعنى «لكن» وتقديره: لكنّهم يقولون: ربّنا الله، فهو استثناء منقطع، وهو كقولك: ما غضبت عليَّ إلّا أنّي منصف، وما تبغض فلاناً إلّا أنّه يقول الحقّ، أي: جعلت ذلك ذنبه. وقال الفرّاء: تقديره: إلّا بأن يقولوا، فتكون «أن» في موضع الجرّ[1].

ثمّ قال: ﴿ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهُمْ ببعضٍ لَهدّمتْ صوامعُ﴾ في أيّام شريعة موسى ﴿وبيعٌ﴾ في أيّام شريعة عيسى ﴿ومساجدُ﴾ في أيّام شريعة محمّدﷺ، في قول الزجّاج[2]. وقال مجاهد: صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وهو قول قَتادة. وعن مجاهد أيضاً أنّ البيع كنائس اليهود. وقال الضحّاك: الصلوات كنائس اليهود يسمّونها صَلُوتاً. وقيل: مواضع صلوات المسلمين ممّا في منازلهم. وقيل: الصلوات أراد بها المصلّيات، كما قال: ﴿لا تَقرَبُوا الصلاةَ وأنتُم سُكارى﴾[3] وأراد المساجد. والظاهر أنّه أراد

---

(١) معاني القرآن ٢: ٢٢٧. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤٣١. (٣) النساء: ٤٣.

نفس الصلاة لا يقربها سكران. وقيل تقديره: وتركت صلوات، ذكره الأخفش. وقوله: ﴿يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً﴾ يعني في المساجد والمواضع الّتي ذكرها.

ثمّ قال: ﴿ولينصُرنَّ اللهُ من يَنْصُرُهُ﴾ أي من نصر أولياء الله ودفع عنهم، فإنّ الله ينصره ويدفع عنه. ويجوز أن يكون المراد: من ينصر دين الله ويذبّ عنه فإنّ الله ينصره ﴿إنّ الله لقويٌّ عَزيزٌ﴾ أي قادر قاهر، لا ينال أحد منه ما لا يريده، ولا يتعذّر عليه من يريد ضرّه. وقال الحسن: إنّ الله يدفع عن هدم مصلّيات أهل الذمّة بالمؤمنين.

وقرأ عاصم الجحدري ﴿وصلوت﴾ بالتاء، في رواية هارون. وقال غيره: صلوت بالتاء والصاد واللام مضمومتان، وقال: هي مساجد للنصارى. وقرأ الضحّاك ﴿صلوث﴾ بثلاث نقط، وقال: هي مساجد اليهود. وهذه شواذٌّ لا يقرأ بها، ولا يعرف لها في اللغة أصل.

قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾.

خمس آيات في الكوفي، والمدنيّين. تمام آية منها ﴿وَقَومُ لُوط﴾ وفي الباقي أربع آيات.

قرأ أبو عمرو وحده ﴿أهلَكتُها﴾ بالتاء، لقوله في الآية الّتي فيما بعد: ﴿فأمليتُ﴾ الباقون ﴿أهلكناها﴾ بالنون.

يقول الله تعالى: ﴿الّذين إن مكنّاهم في الأرضِ﴾ فـ«الّذين» صفة من تقدّم ذكره من المهاجرين في سبيل الله، وموضعه النصب، وتقديره: ﴿لينصرنّ الله من ينصُره... الّذين إن مكنّاهم﴾ ومعناه أعطيناهم كلّ ما لا يصحّ الفعل إلّا معه، لأنّ التمكين إعطاء ما يصحّ معه الفعل، فإن كان هذا الفعل لا يصحّ إلّا بآلة، فالتمكين بإعطاء تلك الآلة لمن فيه القدرة، وكذلك إن كان لا يصحّ الفعل إلّا بعلم ونصب دلالة وصحّة سلامة ولطف وغير ذلك، فإعطاء جميع ذلك وإن كان الفعل يكفي ـ في صحّة وجوده ـ مجرّد القدرة، فخلق القدرة هو التمكين.

ثمّ وصفهم، فقال: هؤلاء الّذين هاجروا في سبيل الله ﴿إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاةَ﴾ يعني أدّوها بحقوقها. وقيل: معناه داموا عليها ﴿وآتوا الزكاةَ﴾ أي وأعطوا ما افترض الله عليهم في أموالهم من الزكوات وغيرها.

﴿وأمروا بالمعروفِ ونَهوْا عن المنكرِ﴾. وفي ذلك دلالة على أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، لأنّ ما رغّب الله فيه فقد أراده، وكلّ ما أراده من العبد فهو واجب إلّا أن يقوم دليل على ذلك أنّه نفل، لأنّ الاحتياط يقتضي ذلك. و«المعروف» هو الحقّ، وسمّي معروفاً لأنّه تعرف صحّته، وسمّي المنكر منكراً لأنّه لا يمكن معرفة صحّته.

وقوله: ﴿ولله عاقبةُ الأمورِ﴾ معناه تصير جميع الأملاك لله تعالى، لبطلان كلّ ملك سوى ملكه.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ مسلّياً له عن تكذيب قومه له وقلّة قبولهم منه: ﴿وإن يُكذّبوكَ﴾ يا محمّد فيما تدّعيه من النبوّة ﴿فقد كذَّبتْ قَبلَهُمْ قومُ نوحٍ﴾ نوحاً، وكذّبت قوم ﴿عاد﴾ هوداً وقوم ﴿ثمود﴾ صالحاً ﴿وقومُ إبراهيم﴾ إبراهيم

﴿وقومُ لوطٍ﴾ لوطاً ﴿وأصحابُ مَديَن﴾ شعيباً ﴿وكذّبَ﴾ أصحاب موسى ﴿موسى﴾ وإنّما قال ﴿وكُذّبَ موسى﴾ ولم يقل وقوم موسى، لأنّ قومه بنيإسرائيل وكانوا آمنوا به وإنّما كذّبه قوم فرعون ﴿فأمليتُ للكافرين﴾ أي أخّرت عقابهم وحلمت عنهم ﴿ثمّ أخَذتُهُمْ﴾ فاستأصلتهم بأنواع الهلاك ﴿فكيفَ كانَ نَكير﴾ أي عذابي لهم، وإنّما اقتصر على ذكر أقوام بعض الأنبياء ولم يسمّ أنبياءهم، لدلالة الكلام عليه.

ثمّ قال تعالى: ﴿فكأَيِّنْ من قريةٍ﴾ معناه وكم من أهل قرية ﴿أهلكناها﴾ لما استحقّوا الإهلاك في حال كونها ﴿ظالمةٍ﴾ لنفسها ﴿فهي خاويةٌ على عُرُوشِها﴾ أي أهلكناها في حال كونها ظالمة لنفسها حتّى تهدّمت الحيطان على السقوف. وقال الضحّاك: على عروشها سقوفها. وقوله: ﴿وبئر معطّلَةٍ وقَصرٍ مشيدٍ﴾ معناه وكم من بئر معطّلة أي لا أهل لها. و«التعطيل» إبطال العمل بالشيء، ولذلك قيل للدهري: معطّل، لأنّه أبطل العمل بالعلم على مقتضى الحكمة. ويقال: خوت الدار خواء ممدود وهي خاوية، وخوى جوف الإنسان من الطعام خوىً، مقصور، وهو خوٍ.

وقيل في خفض ﴿وبئرٍ معطّلَة وقصرٍ مشيدٍ﴾ قولان:

أحدهما: بالعطف على قرية، فيكون المعنى إهلاكاً كالقرية.

والثاني: بالعطف على العروش، فيكون المعنى أنّ بها البئر المعطّلة والقصر المشيد. ومعنى و«قصر مشيد» أي مجصّص، و«الشيد» الجصّ، في قول عكرمة ومجاهد. وقال قتادة: معناه رفيع، وهو المرفوع بالشيد. وقال عدي بن زيد:

شادَهُ مرْمَراً وجَلَّلَهُ كِلـ سـاً فللطيرِ في ذُراهُ وُكُورُ[1]

(١) أنشده المبرّد في الكامل ١: ١٣٢.

وقال امرئ القيس.

وتَيماءَ لم يَترُكْ بها جِـذعَ نَـخلَةٍ ولا أُجُـماً إلّا مَشـيداً بِـجنْدلِ[١]

وقال آخر:

كحيّةِ الماءِ بين الطينِ والشيدِ[٢]

ويقال: شدته أشيده إذا زيّنته. وقال الكلبي: قصر مشيد معناه حصين. وقيل: إنّ البئر والقصر معروفان باليمن. وفي تفسير أهل البيت إنّ معنى ﴿وبئر معطّلة﴾ أي وكم من عالم لا يرجع إليه، ولا ينتفع بعلمه، ولا يلتفت إليه. ومعنى الآية: أفلم يسيروا في الأرض فينظروا إلى آثار قوم أهلكهم الله بكفرهم وأبادهم بمعصيتهم، ليروا من تلك الآثار بيوتاً خاوية، قد سقطت على عروشها، وبئر الشرب قد باد أهلها وعطّل رساوها وغار معينها وقصراً مشيداً مزيّناً بالجصّ، قد خلا من السكن وتداعى بالخراب، فيتّعظوا بذلك، ويخافوا من عقوبة الله وبأسه الّذي نزل بهم.

قوله تعالى:

أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٦١، وفيه: «أُطُماً» بدل «أُجُماً».

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٥٣، ولم ينسبه لأحد، ونسبه في تاج العروس إلى الشمّاخ: مادّة «غمر».

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿ممّا يَعدّون﴾ بالياء على الخبر عن الكفّار، الباقون بالتاء على الخطاب.

لمّا أخبر الله تعالى عن إهلاك الأُمم الماضية...[1] على كفرهم ومعاصيهم، نبّه الّذين يرتابون بذلك، فقال: ﴿أفلَم يسيروا في الأرضِ فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها﴾ إذا شاهدوا آثار ما أخبرنا به وسمعوا صحّة ما ذكرناه عمّن أخبرهم بصحّته من الّذين عرفوا أخبار الماضين. وفيها دلالة على أنّ العقل هو العلم، لأنّ معنى ﴿يعقلون بها﴾ يعلمون بها مدلول ما يرون من العبرة. وفيها دلالة على أنّ القلب محلّ العقل والعلوم، لأنّه تعالى وصفها بأنّها هي الّتي تذهب عن إدراك الحقّ، فلولا أنّ التبيين يصحّ أن يحصل فيها لما وصفها بأنّها تعمى، كما لا يصحّ أن يصف اليد والرجل بذلك.

والهاء في ﴿أنّها لا تَعمى﴾ هاء عماد، وهو الإضمار على شروط التفسير، وإنّما جاز أن يقول: ﴿وَلكِن تَعْمَى القُلُوبُ الّتي فِي الصُدُور﴾ للتأكيد لئلّا يتوهّم إلى غير معنى القلب، لأنّه قد يذهب إلى أنّ فيه اشتراكاً كقلب النخلة، فإذا قيل هكذا كان أنفى للّبس بتجويز الاشتراك. وأمّا قوله: ﴿يقولون بأفواههمْ ما ليسَ في قلوبِهم﴾[2] فلأنّ القول قد يكون بغير الفم. والمعنى في الآية أنّ الأبصار وإن كانت عمياً فلا تكون في الحقيقة كذلك، إذا كان عارفاً بالحقّ، وإنّما يكون العمى عمى القلب الّذي يجحد معه معرفة الله ووحدانيّته.

ثمّ قال: ﴿ويستعجلونَكَ﴾ يا محمّد ﴿بالعذاب﴾ أن ينزل عليهم ويستبطؤونه، وأنّ الله لا يخلف ما يوعّد به ﴿وإنّ يوماً عند ربّك كألفِ سنةٍ ممّا تعدّون﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة: يوم من أيّام الآخرة يكون

(١) هنا بياض.

(٢) آل عمران: ١٦٧.

كألف سنة من أيّام الدنيا. وقال ابن زيد: وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس: أنّه أراد يوماً من الأيام الّتي خلق الله فيها السماوات والأرض. والمعنى ﴿وإنّ يوماً عند ربّكَ﴾ من أيّام العذاب في الثقل والاستطالة[1] ﴿كألفِ سنةٍ ممّا تعدّون﴾ في الدنيا، فكيف يستعجلونك بالعذاب لولا جهلهم، وهو كقولهم: أيّام الهموم طوال، وأيّام السرور قصار.

[قال الشاعر:

يطولُ اليومُ لا ألقاكَ فيه ... ويومٌ نلتقي فيه قصيرُ[2]][3]

وأنشد أبو زيد:

تطاولن أيّامُ مَعنٍ بنا ... فيومٌ كشهرينِ إذ يُستَهلّ[4]

وقال جرير:

ويومٌ كإبهامِ الحُبارى لهوتُهُ[5]

وقيل: ﴿وإنّ يوماً عند ربّكَ كألف سنةٍ ممّا تعدّون﴾ في طول الإمهال للعباد لصلاح من يصلح منهم أو من نسلهم، فكأنّه ألف سنة لطوال الأناة. وقيل ﴿وإنَّ يَوماً عِندَ ربّكَ كألفِ سَنةٍ ممّا تعدّون﴾ في مقدار العذاب في ذلك اليوم، أي أنّه لشدّته وعظمه كمقدار عذاب ألف سنة من أيّام الدنيا على الحقيقة، وكذلك نعيم الجنّة، لأنّه يكون في مقدار يوم السرور والنعيم مثل ما يكون في ألف سنة من أيّام الدنيا لو بقي ينعم ويلتذّ فيها.

ثمّ قال تعالى: وكم ﴿من قريةٍ أمليتُ لها﴾ فالإملاء والإملال والتأخير

---

(١) في الحجريّة: «الاستطاعة» وما أثبتناه من الخطّية.
(٢) أنشده أبوعليّ الفارسي في الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ١٧٤، ولم ينسبه لأحد.
(٣) مابين المعقوفتين ليس في الحجريّة أثبتناه من المطبوع.
(٤) أنشده أبوعليّ الفارسي في الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ١٧٤.
(٥) أنشده أبوعليّ الفارسي في الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ١٧٤، ولم ينسبه لأحد.

نظائر ﴿وهي ظالمةٌ﴾ أي مستحقّة لتعجيل العقاب، لكن أخذتها وأهلكتها ﴿وإليّ المصير﴾ لكلّ أحد، بأن يزول ملك كلّ مالك ملك شيئاً من دارالدنيا.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿قلْ يا أيّها الناسُ إنّما أنا لكم نذيرٌ مبينٌ﴾ أي مخوّف من معاصي الله بعقابه، مبيّن لكم ما يجب عليكم فعله، ويجب عليكم تجنّبه ﴿فالّذين آمنوا﴾ أي صدّقوا بالله وأقرّوا برسله ﴿لهم مغفرةٌ﴾ من الله تعالى لمعاصيهم ﴿و﴾ لهم ﴿رزقٌ كريم﴾ أي مع إكرامهم بالثواب الّذي يقارنه تعظيم وتبجيل.

قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿معجّزين﴾ بالتشديد، بمعنى مثبّطين [ومبطّئين، خ ل] وهو قول مجاهد، الباقون ﴿معاجزين﴾ بالألف. قال قتادة: معناه مشاقّين معاندين.

يقول الله تعالى: إنّ ﴿الّذين سعوا في آيات﴾ الله ﴿معاجزين﴾ ومعناه إنّ الّذين يعجزون المؤمنين في قبول هذه الآيات أي يعجزونهم عن إقامتها بجحدهم تدبير الله ـ عزّ وجلّ لها ـ ويحتمل أن يكون معناه يعجزونهم عن

تصحيحها. و«السعي» الإسراع في المشي، ومن قوله: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إذا نُودي للصلاة من يومِ الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيعَ﴾(١) وسعى يسعى سعياً، فهو ساعٍ، وجمعه سعاة، واستسعاه في الأمر استسعاء. وقال قتادة: ظنّوا أنّهم يعجزون الله أي يفوتونه وأن يعجزوه. وقال مجاهد: معناه مبطّئين عن اتّباع آيات الله. ومن قرأ ﴿معاجزين﴾ أراد أنّهم يجادلون عجز الغالب. ومن قرأ ﴿معجّزين﴾ بالتشديد أراد طلب إظهار العجز.

وقال ابن عبّاس: معنى ﴿معاجزين﴾ مشاقّين. وقيل معنى ﴿معجزين﴾ مسابقين، يقال: أعجزني الشيء بمعني سبقني وفاتني. وقال أبو عليّ: معاجزين ظانّين ومعتقدين أنّهم يفوتوننا، لإنكارهم البعث. ومعجزين أي ينسبون من اتّبع النبيّ ﷺ إلى العجز. وقال مجاهد: معناه مثبّطين للناس عن النبيّ ﷺ واتّباعه.

وقوله: ﴿أولئكَ أصحابُ الجَحِيم﴾ معناه الّذين يسعون في آيات الله طالبين إظهار عجزه إنّ لهم عذاب الجحيم، وهم ملازمون لها.

وقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلكَ من رسولٍ ولا نبيّ إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أُمنيّته﴾ روي عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير والضحّاك ومحمّد بن كعب ومحمّد بن قيس أنّهم قالوا: كان سبب نزول الآية أنّه لمّا تلى النبيّ ﷺ ﴿أفرأيتم اللاتَ والعُزّى * ومناة الثالثة الأُخرى﴾(٢) ألقى الشيطان في تلاوته «تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهنّ لترتجى»(٣).

ومعنى الآية التسلية للنبيّ ﷺ وأنّه لم يبعث الله نبيّاً ولا رسولاً [إلّا] إذا تمنّى ـ يعني تلا ـ ألقى الشيطان في تلاوته بما يحاول تعطيله، فيرفع

(١) الجمعة: ٩. (٢) النجم: ١٩ ـ ٢٠.

(٣) انظر تفسير الطبري ذيل الآية، الكشف والبيان ٧: ٢٩.

الله ما ألقاه بمحكم آياته. وقال المؤرّج: الأُمنيّة الفكرة، بلغة قريش. وقال مجاهد: كان النبيّ ﷺ إذا تأخّر عنه الوحي تمنّى أن ينزل عليه فيلقي الشيطان في أُمنيّته، فينسخه الله بمحكم آياته.

وقال أبو عليّ الجبّائي: إنّما كان يغلط في القراءة سهواً فيها، وذلك جائز على النبيّ، لأنّه سهو لا يعرى منه بشر، ولا يلبث أن ينبّهه الله تعالى عليه. وقال غيره: إنّما قال ذلك في تلاوته بعض المنافقين عن إغواء الشياطين، وأوهم أنّه من القرآن. وقال الحسن: إنّما قال: هي عند الله كالغرانيق العلى، يعني الملائكة في قولكم، وأنّ شفاعتهنّ لترتجي في اعتقادكم.

والتمنّي في الآية معناه التلاوة، قال الشاعر:

تمنّى كتابَ الله أوّل ليلهِ وآخرَهُ لاقى حمامَ المقادرِ[١]

وقال الجبّائي: إنّما سها النبيّ ﷺ في القراءة نفسها. فأمّا الرواية بأنّه قرأ تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهنّ لترتجى، فلا أصل لها، لأنّ مثله لا يغلط على طريق السهو، وإنّما يغلط في المتشابه. وقوله: ﴿فينسخُ اللهُ ما يلقي الشيطانُ﴾ أي يزيل الله ما يلقيه الشيطان من الشبهة ﴿ثمّ يُحكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾ حتّى لا يتطرّق عليها ما يشعثها. وقال البلخي: ويجوز أن يكون النبيّ ﷺ سمع هاتين الكلمتين من قومه وحفظهما، فلمّا قرأ النبيّ ﷺ وسوس بهما إليه الشيطان وألقاهما في فكره، فكاد أن يجريهما على لسانه، فعصمه الله ونبّهه ونسخ وسواس الشيطان وأحكم آياته، بأن قرأها النبيّ ﷺ محكمة سليمة ممّا أراد الشيطان. ويجوز أن يكون النبيّ ﷺ حين اجتمع إليه قوم واقترحوا عليه أن يترك ذكر آلهتهم بالسوء، أقبل

(١) أنشده الفراهيدي في العين ٨: ٣٩٠ مادّة «منا» ولم ينسبه لأحد.

عليهم يعظهم ويدعوهم إلى الله، فلمّا انتهى رسول الله إلى ذكر اللات والعزّى قال الشيطان هاتين الكلمتين رافعاً بها صوته، فألقاهما في تلاوته في غمار من القوم وكثرة لغطهم، فظنّ الجهّال أنّ ذلك من قول النبيّ، فسجدوا عند ذلك. وقوله: ﴿واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ معناه أنّه عالم بجميع المعلومات، واضع الأشياء مواضعها.

والآية تدلّ على أنّ كلّ رسول نبيّ، لأنّه تعالى ذكر أنّه أرسلهم. وإنّما قال: من رسول ولا نبيّ، لاختلاف المعنيين، لأنّ الرسول يفيد أنّ الله أرسله، والنبيّ يفيد أنّه عظيم المنزلة يخبر عن الله.

وقد قال بعض المفسّرين: إنّ المراد بالتمنّي في الآية تمنّي القلب، والمعنى أنّه ما من نبيّ ولا رسول إلّا وهو يتمنّى بقلبه ما يقرّبه إلى الله من طاعاته، وأنّ الشيطان يلقي في أُمنيّته بوسوسته وإغوائه ما ينافي ذلك، فينسخ الله ذلك عن قلبه بأن يلطف له ما يختار عنده ترك ما أغواه به.

وقوله: ﴿ليجعلَ ما يُلقي الشيطانُ فتنةً للّذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ بيان من الله تعالى أنّه يجعل ما يلقيه الشيطان من الأُمنيّة فتنة. فمعنى «ليجعل» يحتمل أمرين:

أحدهما: الحكم والتسمية، كما تقول: جعلت حسني قبيحاً، ويكون المراد أنّه ينسخ ما يلقي الشيطان طلباً للفتنة والإغواء.

والثاني: أنّه أراد ليجعل نسخ ما يلقي الشيطان فتنة، لأنّ نفس فعل الشيطان لا يجعله الله فتنة، لأنّ ذلك قبيح، والله تعالى منزّه عن القبائح أجمع، فمعنى الفتنة في الآية المحنة، وتغليظ التكليف ﴿للّذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شكّ ونفاق وقلّة معرفة ﴿والقاسيةِ قلوبُهُمْ﴾ يعني من قسى قلبه عن اتّباع الحقّ. وقيل: هم الظالمون.

ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّ الظالمين﴾ لنفوسهم ﴿لفي شقاقٍ بعيد﴾ أي مشاقّة بعيدة من الله تعالى. وبيّن أنّه يفعل ذلك ﴿ليعلمَ الّذينَ أُوتوا العلم﴾ بالله وصفته وأنّ أفعاله صواب ﴿أنّه الحقّ من ربّكَ﴾ فيصدّقوا به ﴿فتُخبِتَ له قلوبُهُمْ﴾ أي تطمئنّ إليه وتسكن. وبيّن أنّ الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، بأن يلطف له مايعلم أنّه يهتدي عنده ﴿إلى صراطٍ مستقيم﴾.

ثمّ قال: ﴿ولا يزالُ الّذينَ كفروا في مريةٍ منه﴾ يعني من القرآن، ومعناه الإخبار عمّن علم الله تعالى من الكفّار أنّهم لا يؤمنون بالآية خاصّة. وهو قول ابن جريج إلّا أن ﴿تأتيهم الساعةُ﴾ يعني القيامة ﴿بغتةً﴾ أي فجأة وعلى غفلة ﴿أو يأتيهم عذابُ يومٍ عقيمٍ﴾ قال الضحّاك: هو عذاب يوم القيامة. وقال مجاهد وقَتادة: هو عذاب يوم بدر. وقيل معنى ﴿عقيم﴾ أي لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة[١] قال الشاعر:

عُقِمَ النساءُ فلا يكون شَبيهَهُ ... إنّ النساءَ بمثلِه عُقْمُ[٢]

قوله تعالى:

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

---

(١) قاله يحيى بن سلّام كما في النكت والعيون ٤: ٣٧.

(٢) أنشده الجوهري في الصحاح ٥: ١٩٨٩ مادّة «عقم» ولم ينسبه لأحد وفيه: «فما يلدن» بدل «فلا يكون».

قرأ ابن عامر ﴿ثمّ قُتّلوا﴾ بالتشديد، الباقون بالتخفيف. من شدّد أراد التكثير، ومن خفّف فلأنّه يحتمل القليل والكثير.

يقول الله تعالى: إنّ الملك في اليوم الّذي وصفه بأنّه ﴿عقيم﴾ وأنّه لامثل له في عظم الأهوال فيه لله تعالى وحده لا ملك لأحد معه، وإنّما خصّ ذلك به، لأنّ في الدنيا قد ملك الله تعالى أقواماً أشياء كثيرة. و«الملك» اتّساع المقدور لمن له تدبير الأُمور، فالله تعالى يملك الأُمور لنفسه، وكلّ مالك سواه، فإنّما هو مملّك له بحكمه، إمّا بدليل السمع أو بدليل العقل.

وقوله: ﴿يحكُمُ بَينَهُم﴾ أي يفصل في ذلك اليوم بين الخلائق، وينصف بينهم، والحكم الخبر بالمعنى الّذي تدعو إليه الحكمة، ولهذا قيل: الحكم له، لأنّ كلّ حاكم غيره فإنّما يحكم بإذنه وإعلام من جهته إمّا من جهة العقل أو جهة السمع.

ثمّ أخبر تعالى أنّ ﴿الّذين آمنُوا﴾ أي صدّقوا بوحدانيّته وصدق أنبيائه ﴿وعملوا الصالحات﴾ الّتي أمر الله بها أنّهم ﴿في جنّاتِ النعيمِ﴾ منعّمين فيها. ﴿و﴾ أنّ ﴿الّذين كفروا﴾ أي جحدوا ذلك ﴿وكذّبوا﴾ بآيات الله فإنّ لهم عذاباً مهيناً، يهينهم ويذلّهم. و«الهوان» الإذلال بتصغير القدر، ومثله الاستخفاف والاحتقار، أهانه يهينه إهانة فهو مهان مذلّل.

وقيل: نزلت الآية في قوم من المشركين أتوا جماعة من المسلمين، فقاتلوهم في الأشهر الحرم بعد أن نهاهم المسلمون عن ذلك، فأبوا، فنصروا عليهم[1]. وقيل: إنّ النبيّ ﷺ عاقب بعض المشركين بما مثّلوا

(١) حكاه النقّاش كما في النكت والعيون ٤: ٣٧.

بقوم من أصحابه يوم أُحد[١].

وقوله: ﴿والّذينَ هاجَرُوا في سبيلِ اللهِ﴾ يعني الّذين خرجوا من ديارهم وأوطانهم بغضاً للمشركين الّذين كانوا يـؤذونهم بـمكّة ﴿ثمّ قُتِلوا أو ماتُوا ليرزقَنَّهُمُ اللهُ رِزقاً حَسَناً﴾ يعني الجنّة ﴿وإنّ اللهَ لَهُوَ خيرُ الرازِقينَ﴾ ثمّ أقسم تعالى أنّه ليدخلنّ هؤلاء المهاجرين في سبيل الله الّذين قتلوا ﴿لَيدخلَنَّهم مُدخلاً يَرضونَهُ﴾ ويؤثرونه يعني الجنّة، وما فيها من أنواع النعيم.

وقرأ نافع ﴿مَدخلاً﴾ بفتح الميم، يريد المصدر أو اسم المكان، وتقديره: ليدخلنّهم فيدخلون مدخلاً يرضونه أو مكـاناً يـرضونه. والبـاقون بـضمّ الميم، وهـو الأجـود؛ لأنّـه مـن أدخـل مُـدخل، لقـوله: ﴿أدخِلْني مُدخَلَ صِدقٍ﴾[٢] ﴿وإنّ اللهَ لعليمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حليمٌ﴾ عن معاجلة الكفّار بالعقوبة.

وقوله: ﴿ذلكَ ومن عاقبَ بمثلِ ما عوقبَ به ثمّ بُغِيَ عليه لَينصُرَنَّهُ اللهُ﴾ قيل: نزلت في قوم من المشركين لقوا جماعة مـن المسـلمين فـقاتلوهم فـي الأشهر الحرم بعد أن نهاهم المسلمون عـن ذلك فـأبوا، فـنصروا عـليهم. وقيل: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله عاقب بعض المشركين بما مثّلوا بقوم من أصحابه يوم أحد. والأوّل لم يكن عقوبة، وإنّما هو كـقولهم: الجـزاء بـالجزاء، والأوّل ليس بجزاء، وإنّما هو لازدواج الكلام.

قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ

---

(١) حكاه ابن عيسى كما في النكت والعيون ٤: ٣٧.

(٢) الإسراء: ٨٠.

ٱلْحَمِيدُ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴿٦٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل العراق إلّا أبا بكر ﴿وأنّ ما يَدْعُونَ﴾ بالياء، الباقون بالتاء. معنى ذلك أنّ ﴿ذلكَ﴾ الأمر ﴿بأنّ الله يُولجُ الليلَ في النهارِ﴾ أي يدخل الليل على النهار، و«الايلاج» الإدخال بإكراه، ولج يلج ولوجاً، وأولج إيلاجاً، واتّلج اتّلاجاً. وإنّما قال: يولج الليل في النهار ـ هاهنا ـ لأنّ ذلك يقتضي أنّ ذلك صادر من مقتدر لولاه لم يكن كذلك. وقيل: معنى ﴿يُولجُ الليلَ في النهار﴾ أن يدخل ما انتقص من ساعات الليل في النهار، وما انتقص من ساعات النهار في الليل. ومعنى ﴿وأنّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ﴾ ـ هاهنا ـ أنّه يسمع ما يقول عباده في هذا بصير به، لا يخفى عليه شيء منه حتّى يجازي به.

وقوله: ﴿ذلك بأنَّ اللهَ هوَ الحقُّ﴾ وصفه بأنّه الحقّ يحتمل أمرين: أحدهما: أنّه ذو الحقّ في قوله وفعله. الثاني: أنّه الواحد في صفات التعظيم الّتي من اعتقدها فهو محقّ.

وقوله: ﴿وأنّ ما يدْعُون من دونهِ هُوَ الباطلُ﴾ من قرأ بالتاء خاطب بذلك الكفّار، ومن قرأ بالياء أخبر عنهم بأنّ ما يدعونه من دون الله من الأصنام والأوثان هو الباطل على الحقيقة.

﴿وأنّ اللهَ هُوَ العَليُّ الكبيرُ﴾ فالعليّ القادر الّذي كلّ شيء سواه تحت معنى صفته بأنّه قادر عليه، ولا يجوز وصفه بـ«رفيع» على هذا المعنى لأنّ صفة عليّ منقولة إليه، ولم تنقل صفة «رفيع». ووصفه بأنّه الكبير يفيد أنّ كلّ شيء سواه يصغر مقداره عن معنى صفته، لأنّه القادر الّذي لا يعجزه شيء، العالم الّذي لا يخفى عليه شيء.

وقوله: ﴿أَلَم تَرَ﴾ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلّفين يقول الله لهم: ألم تعلموا ﴿أنّ اللهَ أنزلَ من السماءِ ماءً﴾ يعني غيثاً ومطراً ﴿فتُصبحُ الأرضُ﴾ بذلك ﴿مخضرّةً﴾ بالنبات ﴿إنّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ﴾ فاللطيف معناه أنّه المختصّ بدقيق التدبير الّذي لا يخفى عنه شيء ولا يتعذّر عليه، فهو لطيف باستخراج النبات من الأرض بالماء، وابتداع ما يشاء ﴿خَبيرٌ﴾ بما يحدث عنه وما يصلح له.

وقوله: ﴿فتصبحُ الأرضُ﴾ إنّما رفع «فتصبح» لأنّه لم يجعله جواباً للاستفهام، لأنّ الظاهر وإن كان الاستفهام فالمراد به الخبر، كأنّه قال: قد رأيت إنّ الله ينزل من السماء ماء، فتصبح الأرض مخضرّة، إلّا أنّه نبّه على ما كان رآه ليتأمّل ما فيه، قال الشاعر:

أَلم تســأَلِ الرَبـع القَـواءَ فـينطقُ      وهَلْ يُخبرنْكَ اليومَ بيَداءُ سَملَقُ [١]

لأنّ المعنى قد سألته فنطق. ثمّ أخبر تعالى أنّ ﴿له﴾ ملك ﴿ما في السماوات وما في الأرض﴾ لا ملك لأحد فيه. ومعناه أنّ له التصرّف في جميع ذلك لا اعتراض عليه. وأخبر أنّ اللهَ تعالى هو الغنيّ الحميد، فالغنيّ هو الحيّ الّذي ليس بمحتاج، فهو تعالى المختصّ بأنّه لو بطل كلّ شيء سواه لم تبطل نفسه القادرة العالمة، الّذي لا يجوز عليه الحاجة بوجه من الوجوه، وكلّ شيء سواه يحتاج إليه، لأنّه لولاه لبطل، لأنّه لا يخلو من مقدوره أو مقدور مقدوره. و «الحميد» معناه الّذي يستحقّ الحمد على أفعاله، وهو بمعنى أنّه محمود.

ثمّ قال: ﴿أَلم تَرَ﴾ يا محمّد والمراد جميع المكلّفين ﴿أنّ اللهَ سخّرَ لَكُمْ

---

(١) أنشده أبوالفرج الاصفهاني في الأغاني ٨: ١٤٦ ضمن قصيدة للشاعر جميل بن معمر، وفيه: «الخلاء» بدل «القواء».

ما في الأرض﴾ من الجماد والحيوان أي قد ذلّله لكم، تتصرّفون فيه كيف شئتم، وينقاد لكم على ما تؤثرونه، وأنّ الفلك تجري في البحر بأمر الله أي بفعل الله، لأنّها تسير بالريح، وهو تعالى المجري لها ﴿ويُمسكُ السماءَ أنْ تَقعَ على الأرض﴾ أي يمنعها من الوقوع على الأرض، ولا يقدر على إمساكها أحد سواه مع عظمها وثقلها ﴿إلّا باذنه﴾ أي لا تقع السماء على الأرض إلّا إذا أذن الله في ذلك بأن يريد إبطالها وإعدامها. ومعنى «أن تقع» ألّا تقع. وقيل: معناه كراهية أن تقع[1]. ثمّ أخبر أنّه تعالى ﴿بالناس لرؤف رحيمٌ﴾ أي متعطّف منعم عليهم.

قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

لمّا ذكر الله تعالى أنّه الّذي سخّر للخلق ما في الأرض من الحيوان وذلّلها لهم وأجرى الفلك في البحر كنّى عنه بأن قال: ﴿وهو الّذي أحياكم﴾ أيضاً بعد أن لم تكونوا كذلك. يقال: أحياه الله، فهو محي له ﴿ثمّ يميتكم﴾ بعد هذا الإحياء ﴿ثمّ يُحييكُمْ﴾ يوم القيامة للحساب إمّا إلى الجنّة، وإمّا إلى النار. ثمّ أخبر عن الإنسان بأنّه كَفُور أي جحود لنعم الله ممّا فعل به من أنواع النعم وجحوده ما ظهر من الآيات الدالّة على الحقّ في كونه قادراً على الإحياء والإماتة والإحياء بعدها، لا يعجزه شيء من ذلك.

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤٣٧.

ثمّ أخبر تعالى أنّ ﴿لكلّ أمّة منسكاً﴾ أي مذهباً ﴿هُمْ ناسكُوه﴾ أي يلزمهم العمل به. وقيل: المنسك جميع العبادات الّتي أمر الله بها[١]. وقيل: المنسك الموضع المعتاد لعمل خير أو شرّ، وهو المألف لذلك، ومناسك الحجّ من هذا، لأنّها مواضع العبادات فيه، فهي متعبّدات الحجّ[٢]. وفيه لغتان، فتح السين وكسرها. وقال ابن عبّاس ﴿مَنْسكاً﴾ أي عيداً. وقال مجاهد وقتادة: متعبّداً في إراقة الدم بمنى وغيرها.

وقوله: ﴿فلا ينازِعُنّك في الأمر﴾ لأنّهم كانوا يقولون: أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون الميتة الّتي قتلها الله. وقيل: ﴿لا ينازِعُنّك في الأمر﴾ نهي لهم عن منازعة النبيّ ﷺ[٣] وقيل: نهي له لأنّ المنازعة تكون من اثنين، فإذا وجّه النهي إلى من ينازعه، فقد وجّه إليه[٤]. وقرئ ﴿فلا ينزعنّك﴾ والمعنى لا يغلبنّك على الأمر.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿وادعُ إلى ربّك﴾ يا محمّد ﴿إنّك لعلى هُدىً مستقيمٍ﴾ أي على طريق واضح.

ثمّ قال: ﴿وإن جادلوك فقل اللهُ أعلمُ بما تَعملون﴾ معناه إن جادلوك على وجه المراء والتعنّت الّذي يعمله السفهاء فلا تجادلهم على هذا الوجه، وادفعهم بهذا القول وقل: ﴿الله أعلمُ بما تعملون﴾ وهذا أدب من الله حسن، ينبغي أن يأخذ به كلّ أحد.

﴿اللهُ يحكمُ بينكم﴾ أي يفصل بينكم ﴿يومَ القيامةِ فيما كنتم فيه تختلفون﴾ من توحيد الله وصفاته وإخلاص عبادته، وألّا يشرك به غيره.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿ألم تعلم﴾ والمراد به جميع المكلّفين ﴿أنّ اللهَ يعلمُ

---

(١) انظر الغريبين ٦: ١٨٣١. (٢) معاني القرآن ٢: ٢٣٠. (٣) الغريبين ٦: ١٨٢٥.
(٤) قاله الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤٣٧.

ما في السماء والأرضِ﴾ من قليل وكثير، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿إنّ ذلكَ في كتابٍ﴾ يعني مثبتاً في اللوح المحفوظ الّذي أطلع عليه ملائكته ﴿إنّ ذلكَ على اللهِ يسيرٌ﴾ أي سهل غير متعذّر.

قوله تعالى:

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بِصيرٌ ﴿٧٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن حال الكفّار الّذين يعبدون مع الله الأصنام والأوثان: إنّهم ﴿يَعبدونَ من دون اللهِ ما لم يُنزّل به سلطاناً﴾ أي لا حجّة ولا برهاناً، وإنّما قيل للبرهان: سلطان؛ لأنّه يتسلّط على إنكار المنكر، فكلّ محقّ في مذهبه له برهان يتسلّط به على الإنكار لمذهب خصمه.

وقوله: ﴿وما ليسَ لَهُمْ به علمٌ﴾ معناه ولا هو معلوم لهم أيضاً من جهة الدلالة، لأنّ الإنسان قد يعلم صحّة أشياء يعمل بها من غير برهان أدّى إليها كعلمه بوجوب شكر المنعم، ووجوب ردّ الوديعة، ومدح المحسن وذمّ المسيء، وغير ذلك ممّا يعلمه بكمال عقله وإن لم يكن معلوماً بحجّة، فلذلك قال: ﴿وما ليس لهم به علم﴾.

[ثمّ أخبر أنّه ليس للظالمين أنفسهم بارتكاب المعاصي وترك المعرفة

بالله من ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله إذا نزل بهم][١]. ثمّ أخبر تعالى عن حال الكفّار وشدّة عنادهم، فقال: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ يعني من القرآن وغيره من حجج الله تعالى الظاهرات البيّنات ﴿تَعرفُ﴾ يا محمّد ﴿في وجوه الّذين كفروا﴾ بنعم الله وجحدوا ربوبيّته ﴿المنكَر﴾ من القول ﴿يكادُون يسطُونَ بالّذينَ يتلونَ عليهم آياتنا﴾ فالسطوة إظهار الحال الهائلة للإخافة. يقال: سطا عليه سطوة وسطواً، وسطا به أيضاً فهو ساط، والإنسان مسطوّ به، والإنسان يخاف سطوات الله ونقماته. و«السطوة» و«الاستطالة» و«البطشة» نظائر في اللغة. والمعنى أنّ هؤلاء الكفّار إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم قاربوا أن يوقعوا بمن يتلوها المكروه.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿قلْ﴾ يا محمّد ﴿أفأُنبّئكُمْ بشرٍّ من ذلكم﴾ أي بشرّ من اعتدائكم على التالي لآيات الله. وقيل: بشرّ عليكم ممّا يلحق التالي منهم. ثمّ ابتدأ فقال: ﴿النارُ وعدَهَا الله الّذين كفروا وبئسَ المصير﴾ وقيل: التقدير: كأنّ قائلاً قال ما ذلك الشرّ؟ فقيل: ﴿النارُ وعدَهَا الله الّذين كفروا وبئسَ المصير﴾ أي بئس الموضع، وكان يجوز في «النار» الجرّ على البدل من «ذلكم» لأنّه في موضع جرّ بـ«من» وكان يجوز النصب بمعنى أعرفكم شرّاً من ذلكم النار، والّذي عليه القرّاء الرفع. ثمّ أخبر تعالى عن النار بأنّ الله وعدها الّذين كفروا وبئس المرجع.

ثمّ خاطب جميع المكلّفين من الناس، فقال: ﴿يا أيّها الناسُ ضُربَ مثلٌ فاستمعوا له﴾ يعني ضرب مثل، جعل كقولهم: ضرب على أهل الذمّة الجزية، لأنّه كالتثبيت شبّهه بالضرب المعروف، وكذلك الضربة والمثل: شبّه حال الثاني بالأوّل في [الذكر] الّذي صار كالعلم، ومن حكم المثل أن

(١) مابين المعقوفتين ليس من الحجريّة، أثبتناه من المطبوع.

لا يتغيّر، لأنّه صار كالعلم، كقولهم: «أطِرّي إنّكِ ناعلة».

ثمّ قال: ﴿إنّ الذينَ تَدعونَ من دونِ الله﴾ قرأ يعقوب بالياء على الخبر، الباقون بالتاء على الخطاب كقوله: ﴿يا أيّها الناسُ﴾. والّذي عبدوه من دون الله الأصنام والأوثان ﴿لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ على ذلك وعاون بعضهم بعضاً مع صغر الذباب، فكيف بالعظيم من الأشياء. ثمّ زاد في ضرب المثل، فقال: ﴿وإن يسلُبُهم الذبابُ شيئاً...﴾ يعني هؤلاء الكفّار ومن جرى مجراهم لو سلبهم الذباب شيئاً وطار لما قدروا على استنقاذه منه وتخليصه من يديه. ثمّ أخبر تعالى بأنّه ﴿ضعف الطالب﴾ يعني من الأوثان ﴿والمطلوب﴾ من الذباب، وهو قول ابن عبّاس ولم يأت بالمثل، لأنّ في الكلام دلالة عليه، كأنّه قال: يا أيّها الناس مثلكم مثل من عبد آلهة اجتمعت لأن تخلق ذباباً، فلم يقدروا عليه، وإن يسلبها الذباب شيئاً فلم تستنقذه منه، ومثل ذلك في الحذف قول امرئ القيس:

وجَـدِّكَ إن شـيءٌ أتـانا رسُـولُهُ سِواكَ ولكن لم نجد عنكَ مدفعاً[1]

وتقديره: لو أتانا رسول غيرك لرددناه وفعلنا به، ولكن لم نجد عنك مدفعاً، فاختصر لدلالة الكلام عليه. وقال قوم: أراد أنّ الكافرين جعلوا لي الأمثال من الأصنام الّتي عبدوها فاستمعوا لما ضرب لي من الأمثال. ثمّ أخبر عنها كيف هي، وكيف بعدها ممّا جعلوه مثلاً، ويدلّ عليه قوله: ﴿ما قدرُوا الله حَقّ قدره﴾.

واختلفوا في معنى ﴿ما قدروا اللهَ حقَّ قدرِهِ﴾ فقال الحسن: معناه ما عظّموه حقّ عظمته، إذ جعلوا له شريكاً في عبادته، وهو قول المبرّد والفرّاء. وقال قوم: معناه ما عرفوه حقّ معرفته. وقال آخرون: ما وصفوه

(١) ديوان امرئ القيس: ١٣٠، وفيه: «لو» بدل «إن» و«لك» بدل «عنك».

حقّ صفته، وهو مثل قول أبي عبيدة، قال: يقول القائل: ما عرفت فلاناً على معرفته، أي ما عظّمته حقّ تعظيمه.

وفي ذلك دلالة على أنّ من جوّز عبادة غير الله [فهو] كافر، وكذلك من جوّز أن يكون [المنعم] ـ بخلق النفس والبصر والسمع والعقل ـ غير الله، فهو كافر بالله.

ثمّ أخبر تعالى عن نفسه، فقال: ﴿إنّ الله لقويٌّ﴾ أي قادر على ما يصحّ أن يكون مقدوراً ﴿عزيز﴾ لا يقدر أحد على منعه. ثمّ قال تعالى: ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً﴾ أي يختار منهم من يصلح للرسالة ﴿ومن الناسِ﴾ أي ويختار من الناس أيضاً مثل ذلك، وفى ذلك دلالة على أنّه ليس جميع الملائكة رسلاً، لأنّ «من» للتبعيض عند أهل اللغة، وكما أنّ الناس ليس جميعهم أنبياء فكذلك الملائكة.

وقوله: ﴿إنّ الله سَميعٌ بصيرٌ﴾ أي يسمع جميع ما يدرك بالسمع من الأصوات، ودعاء من يدعوه خالصاً، ودعاء من يدعو على وجه الإشراك به بصير بأحوالهم.

قوله تعالى:

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

لمّا أخبر الله تعالى عن نفسه بأنّه ﴿سميع بصير﴾ وصف أيضاً نفسه بأنّه

﴿يعلم ما بينَ أيديهم﴾ يعني ما بين أيدي الخلائق من القيامة وأحوالها، وما يكون في مستقبل أحوالهم ﴿وما خلفَهمْ﴾ أي ما يخلفونه من دنياهم. وقال الحسن: يعلم ما بين أيديهم: أوّل أعمالهم، وما خلفهم: آخر أعمالهم ﴿وإليه ترجعُ الأُمور﴾ يعني يوم القيامة ترجع جميع الأُمور إلى الله تعالى بعد أن كان ملّكهم في دار الدنيا منها شيئاً كثيراً.

ثمّ خاطب تعالى المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اركعوا واسجدوا﴾ أي صلّوا على ما أمرتكم به من الركوع والسجود فيها ﴿واعبُدُوا ربّكُم﴾ الّذي خلقكم ولا تشركوا به شيئاً ﴿وافعلوا الخَيرَ﴾ و«الخير» النفع الّذي يجلّ موقعه وتعمّ السلامة به، ونقيضه الشرّ، وقد أمر الله بفعل الخير، ففعله طاعة له.

وقوله: ﴿لعلّكم تفلحون﴾ أي افعلوا الخير لكي تفوزوا بثواب الجنّة وتتخلّصوا من عذاب النار. وقيل: معناه افعلوه على رجاء الصلاح منكم بالدوام على أفعال الخير واجتناب المعاصي والفوز بالثواب. ثمّ أمرهم بالجهاد فقال: ﴿وجاهدُوا في اللهِ حقَّ جِهادِهِ﴾ قال ابن عبّاس: معناه جاهدوا المشركين، ولا تخافوا في الله لومة لائم. وقال الضحّاك: معناه اعملوا بالحقّ لله حقّ العمل.

وقوله: ﴿هُوَ اجتَباكُمْ﴾ فالاجتباء هو اختيار الشيء لما فيه من الصلاح. وقيل: معناه اختاركم لدينه وجهاد أعدائه، والحقّ يجتبى والباطل يتّقى، ولا بدّ أن يكون ذلك خطاباً متوجّهاً إلى من اختاره الله بفعل الطاعات، دون أن يكون ارتكب الكبائر الموبقات وإن كان سبق منه جهاد في سبيل الله.

وقوله: ﴿وما جَعَلَ عليكُمْ في الدينِ من حَرَجٍ﴾ معناه لم يجعل عليكم

ضيقاً في دينكم، لا مخرج منه، وذلك أنّ منه ما يتخلّص منه بالتوبة، ومنه ما يتخلّص منه بردّ المظلمة، وليس في دين الإسلام ما لا سبيل إلى الخلاص من عقابه. وفيه من الدليل ـ كالّذي في قوله: ﴿ولو شاءَ اللهُ لأعنَتَكُمْ﴾ (١) ـ على فساد مذهب المجبّرة في العدل. ومثله قوله: ﴿لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلّا وُسْعَها﴾ (٢).

وقوله: ﴿ملّةَ أبيكم إبراهيمَ﴾ يحتمل نصب «ملّة» وجهين: أحدهما: اتّبعوا ﴿ملّة أبيكم﴾ والزموا، لأنّ قبله ﴿جاهدوا في اللهِ حقّ جهادِهِ﴾. والآخر: كملّة أبيكم إلّا أنّه لمّا حذف حرف الجرّ اتّصل الاسم بالفعل فنصب. وقال الفرّاء: نصبه بتقدير: وسّع ملّتكم، كما وسّع ملّة أبيكم(٣). وقوله: ﴿ملّة أبيكم إبراهيم﴾ معناه أنّه يرجع جميعهم إلى ولادة إبراهيم، وأفاد هذا أنّ حرمة إبراهيم على المسلمين كحرمة الوالد على الولد، كما قال: ﴿وأزواجُهُ أُمّهاتُهُمْ﴾ (٤) في قول الحسن.

وقوله: ﴿هو سمّاكُمُ المسلمينَ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد: الله سمّاكم المسلمين، فهو كناية عن الله. وقال ابن زيد: هو كناية عن إبراهيم وتقديره: إبراهيم سمّاكم المسلمين بدليل قوله: ﴿ومن ذُرِّيّتِنا أُمّةً مسلِمَةً لكَ﴾ (٥). وقوله: ﴿من قبلُ﴾ أي من قبل القرآن، في قول مجاهد. وقيل: ملّة إبراهيم داخلة في ملّة محمّد صلى الله عليه وآله فلذلك قال: ﴿ملّة أبيكم إبراهيمَ﴾ ﴿وفي هذا﴾ يعني القرآن، وقال السدّي: معناه: وفي هذا الأوان ليكون الرسول شهيداً عليكم بطاعة من أطاع في تبليغه، وعصيان من عصى ﴿وتكونوا شُهداءَ على الناسِ﴾ بأعمالهم فيما بلّغتمُوهم من كتاب ربّهم وسنّة نبيّهم.

(١) البقرة: ٢٢٠. (٢) البقرة: ٢٨٦. (٣) معاني القرآن ٢: ٢٣٠.
(٤) الأحزاب: ٦. (٥) البقرة: ١٢٨.

ثمّ أمرهم بإقامة الصلاة، فقال: ﴿فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ واعتصموا باللهِ﴾ أي بدين الله الّذي لطف به لعباده، في قول الحسن. وقيل معناه امتنعوا بالله من أعدائكم ﴿هُوَ مَولاكُم﴾ أي أولى بكم وبتدبيركم وتصريفكم ﴿فنِعمَ﴾ مالككُم ﴿المولى﴾ يعني الله ﴿ونعم النصير﴾ أي الناصر، والدافع عن الخلق الله تعالى. وقيل ﴿نِعمَ المولى﴾ من لم يمنعكم الرزق لما عصيتموه ﴿ونِعَمَ النصير﴾ حين أعانكم لما أطعتموه.

وروي[1] أنّ الله أعطى هذه الأُمّة ثلاثة أشياء لم يعطها أحداً من الأُمم: جعلها الله شهيداً على الأُمم الماضية، وقال لهم: ﴿ما جَعَل عليكُمْ في الدينِ من حَرَجٍ﴾[2] وقال: ﴿أُدعُوني أستَجِب لَكُمْ﴾[3].

(١) حكاه الزجّاج في المعاني ٣: ٤٤٠.
(٢) الحجّ: ٧٨.
(٣) غافر: ٦٠.

# سورة المؤمنون

مكّية بلا خلاف، وهو قول قتادة ومجاهد، وهي مائة وثمان عشرة آية في الكوفي، وتسع عشرة في البصري والمدنيّين. وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، إلّا ما روي أنّهم كانوا يجيزون الالتفات يميناً وشمالاً وإلى ما وراء، نسخ ذلك بقوله: ﴿في صلاتِهم خاشِعُونَ﴾ فلم يجيزوا أن ينظر إلّا إلى موضع سجوده.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ سبع آيات.

يقول الله تعالى: ﴿قد أفلَحَ المؤمنونَ﴾ أي فازوا بثواب الله الّذين صدّقوا بالله وأقرّوا بوحدانيّته وصدّقوا رسله. وقيل: معناه قد سعدوا[1] قال لبيد:

فاعقلي إن كُنْتِ لمّا تَعْقلي ... ولقَدْ أفلحَ من كان عَقَلْ[2]

(١) قاله السمرقندي في تفسيره ٢: ٤٩٤.

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ١٤٠.

وقيل: معنى ﴿أفلح﴾ بقي أي بقيت أعمالهم الصالحة، ومنه قولهم: ﴿حيّ على الفلاح﴾ أي على بقاء أعمال الخير. ومعنى «قد» تقريب الماضي من الحال، فدلّ على أنّ فلاحهم قد حصل وهم عليه في الحال، وهذا أبلغ في الصفة من تجريد ذكر الفعل.

ثمّ وصف هؤلاء المؤمنين بأوصاف، فقال ﴿الّذينَ هم في صلاتِهم خاشعونَ﴾ أي خاضعون متذلّلون لله فيها. وقيل: معناها يسعون مقبلون على الصلاة بالخضوع والتذلّل لربّهم. وقيل: معناه خائفون. وقال مجاهد: هو غضّ الطرف وخفض الجناح. وقيل: أن ينظر إلى موضع سجوده، وكان النبيّ ﷺ يرفع بصره إلى السماء، فلمّا نزلت هذه الآية طأطأ رأسه ونظر إلى مصلّاه. والخشوع في الصلاة هو الخضوع بجمع الهمّة لها والإعراض عمّا سواها، لتدبّر ما يجري فيها: من التكبير والتسبيح والتحميد لله وتلاوة القرآن، وهو موقف الخاضع لربّه الطالب لمرضاته بطاعاته.

ثمّ زاد في صفاتهم فقال: ﴿والّذينَ هُمْ عن اللّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ و«اللغو» هو القول والفعل الّذي لا فائدة فيه يعتدّ بها، وهو قبيح على هذا الوجه. وقال ابن عبّاس: اللغو هاهنا الباطل. وقال السدّي: هو الكذب. وقال الكلبي: هو الحلف. وحكى النقّاش: أنّهم نهوا عن سباب الكفّار إذا سبّوهم وعن محادثتهم.

ثمّ قال: ﴿والّذينَ هُمْ للزكاةِ فاعِلُونَ﴾ أي يؤدّون ما يجب عليهم في أموالهم من الصدقات، وسمّيت زكاة، لأنّه يزكو بها المال عاجلاً وآجلاً. ثمّ قال: ﴿والّذينَ هُمْ لفروجِهِمْ حافظون﴾ قيل عنى بالفروج هاهنا فرج الرجل خاصّة بدلالة قوله: ﴿إلّا على أزواجِهِمْ أو ما ملَكَتْ أيمانُهُمْ﴾ ثمّ استثنى من الحافظين لفروجهم من لا يحفظ فرجه عن زوجته، أو ما تملك يمينه من

الإماء على ما أباحه الله له، لأنّ التزويج ينبغي أن يكون على وجه إباحة الله تعالى.

و«ملك اليمين» في الآية المراد به الإماء لأنّ الذكور من المماليك لا خلاف في وجوب حفظ الفرج منهم. ومن ملك الأيمان لا يجمع بين الأُختين في الوطء ولا بين الأُمّ والبنت، وكلّ ما لم يجز الجمع بينهم في العقد فلا يجوز الجمع بينهم في الوطء بملك اليمين. ولا يخرج من الآية وطء المتمتّع بها، لأنّها زوجة عندنا وإن خالف حكمها حكم الزوجات في أحكام كثيرة، كما أنّ حكم الزوجات مختلف في نفسه.

وذكره تعالى هذه الأوصاف ومدحه عليها يكفي ويغني عن الأمر بها، لما فيها من الترغيب كالترغيب في الأمر، وأنّها مرادة، كما أنّ المأمور به مراد، وكلّها واجب. وإنّما قيل للجارية: «ملك يمين» ولم يقل في الدار: «ملك يمين» لأنّ ملك الجارية أخصّ من ملك الدار؛ إذ له نقض بنية الدار، وليس له نقض بنية الجارية، وله عارية الدار وليس له عارية الجارية حتّى توطأ بالعارية، فلذلك خصّ الملك في الأمة.

وإنّما قال: ﴿إلّا على أزواجِهِمْ أو ما ملَكَتْ أيمانُهم فإنّهم غيرُ مَلُومينَ﴾ مع تحريم وطئها على وجوه: كتحريم وطء الزوجة، والأمة في حال الحيض ووطء الجارية إذا كان لها زوج، أو كانت في عدّة من زوج، وتحريم وطء المظاهرة قبل الكفّارة، لأنّ المراد بذلك على ما يصحّ ويجوز، ممّا بيّنه الله وبيّنه رسوله في غير هذا الموضع، وحذف لأنّه معلوم، وهي من الأُمور العارضة في هذه الوجوه أيضاً، فإنّ من وطئ الزوجة أو الأمة في الأحوال الّتي حرّم عليه وطؤها فإنّه لا يلزمه من حيث كانت زوجة أو ملك يمين لوم؛ وإنّما يستحقّ اللوم من وجه آخر. و«اللوم» و«الذمّ» واحد، وضدّهما

الحمد والمدح.

ثمّ قال تعالى: ﴿فمن ابتَغَى وراءَ ذلكَ﴾ ومعناه من طلب سوى ذلك ـ يعني الزوجيّة وملك اليمين ـ فهو عادٍ. و«الابتغاء» و«البغية» الطلب. و«البغاء» طلب الزنا، و«الباغي» طالب الاعتداء. و«العادُون» هم الّذين يتعدّون الحلال إلى الحرام. وقوله: ﴿وراء﴾ ـ هاهنا ـ قيل: معناه غير. وقال الفرّاء: معنا ﴿إلّا على أزواجهم﴾ إلّا من أزواجهم ﴿أو ما مَلَكَتْ أيمانُهُمْ﴾ في موضع خفض[١].

قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ۝٩ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ۝١١ أربع آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وحده ﴿لأمانتهم﴾ على التوحيد، الباقون ﴿لأماناتهم﴾ على الجمع، لقوله: ﴿إنّ الله يأمرُكُمْ أن تؤدّوا الأماناتِ إلى أهلِها﴾[٢] وقرأ ابن‌كثير ذلك اختياراً ليطابق قوله: ﴿وعهدهم﴾. وقرأ حمزة والكسائي ﴿على صلاتهم﴾ على التوحيد، لأنّ الصلاة اسم جنس يقع على القليل والكثير، فكذلك قوله: ﴿أمانتهم﴾ والأصل فيه المصدر كالعمل، ومن جمع جعله بمنزلة الاسم، لاختلاف أنواعها، لقوله: ﴿حافِظُوا على الصلَواتِ﴾[٣] قال أبو عليّ النحوي: الجمع أقوى، لأنّه صار اسماً شرعيّاً[٤] الباقون ﴿على صلواتهم﴾ على الجمع، وقد بيّنّا الوجه فيه.

ثمّ زاد الله تعالى في صفات المؤمنين الّذين وصفهم بالفلاح فقال:

---

(١) معاني القرآن ٢: ٢٣١.
(٢) النساء: ٥٨.
(٣) البقرة: ٢٣٨.
(٤) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ١٧٧.

﴿والّذين هُمْ لأماناتِهِمْ وعهدِهِمْ راعُون﴾ ومعناه الّذين يراعون الأمانات الّتي يؤتمنون عليها ولا يخونون فيها، ويحفظون ما يعاهدون عليه من الأيمان والنذور، فلا يحنثون ولا ينكثون. و«المراعاة» قيام الراعي بإصلاح ما يتولّاه.

ثمّ قال: ﴿والّذين هُمْ على صلواتِهِم يحافظون﴾ أي لا يضيّعونها، ويواظبون على أدائها. وفي تفسير أهل البيت أنّ معناه: الّذين يحافظون على مواقيت الصلوات فيؤدّونها في أوقاتها، ولا يؤخّرونها حتّى يخرج الوقت(١). وبه قال مسروق وجماعة من المفسّرين. وإنّما أُعيد ذكر الصلاة ـ هاهنا ـ لأنّه أمر ـ هاهنا ـ بالمحافظة عليها، كما أمر بالخشوع فيها، فيما تقدّم، كما أُعيد ذكر الفلاح، لأنّه يجب بالخصال المذكورة بعده كما وجب في سورة البقرة(٢) بالخصال المذكورة قبله.

ثمّ أخبر تعالى عمّن اجتمعت فيه هذه الخصال، فقال: ﴿أولئكَ هُم الوارِثُونَ﴾ وقيل في معناه قولان: أحدهما: أنّه يؤول أمره إلى النعيم في الجنّة ويملك ما يعطيه الله، كما يؤول أمر الوارث. والثاني: روى أبوهريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «ما منكم أحد إلّا وله منزلان: منزل في الجنّة، ومنزل في النار، فإن مات على الضلال ورث منزله أهل الجنّة، وإن مات على الإيمان ورث هو منزل أهل النار»(٣). وقال مجاهد: يهدم منزله في النار.

ثمّ وصف الله تعالى الوارثين فقال: ﴿الّذينَ يرثُونَ الفِردَوسَ هم فيها خالدون﴾ و«الإرث» حقيقةً ملك ما يتركه الميّت لمن بعده، ممّن هو أولى به في حكم الله، فهذا أصله، ثمّ يشبّه به، فيقال: ورث فلان علم فلان أي

---

(١) تفسير القمّي ٢: ٨٩. (٢) البقرة: ٥. (٣) تفسير الثعلبي ٧: ٤٠.

صار إليه، ومعنى ﴿يرثون الفِردَوسَ﴾ أي يصيرون إليه بعد الأحوال المتقدّمة. و«الفردوس» البستان الّذي يجمع محاسن النبات. وقيل: أصله رومي فعرّب[١]. وقيل: بل هو عربي ووزنه «فعلول» وقيل: الفردوس البستان الّذي فيه كرم[٢] قال جرير:

ما بُعدُ يَبرِينَ من بابِ الفَراديسِ[٣]

وقال الجبّائي: ﴿يرثون الفردوس﴾ على التشبيه بالميراث المعروف من جهة الملك الّذي ينتهي إليه أمره.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿عظماً﴾ في الموضعين على التوحيد، الباقون على الجمع. فمن وحّد فلأنّه اسم جنس يقع على القليل والكثير. ومن جمع فلقوله: ﴿أ إذا كنّا عظاماً ورفاتاً﴾[٤] وقوله: ﴿أ إذا كنّا عظاماً نخرة﴾[٥] وقوله: ﴿من يحيي العِظام﴾[٦] وما أشبه ذلك.

يقول الله تعالى على وجه القسم: إنّه خلق ﴿الإنسان من سلالة من طين﴾ فقال ابن عبّاس ومجاهد: المراد بالإنسان كلّ انسان، لأنّه يرجع

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه ٤: ٨.
(٢) قاله الثعلبي في تفسيره ٧: ٤٠.
(٣) ديوان جرير: ٢٣٩، وصدره:

فقلت للركب إذ جدَّ الرحيلُ بنا:

(٤) الإسراء: ٤٩، ٩٨.
(٥) النازعات: ١١.
(٦) يس: ٧٨.

إلى آدم الّذي خلق من سلالة. وقال قَتادة: المراد بالإنسان آدم، لأنّه استلّ من أديم الأرض. وقيل: استلّ من طين. والسلالة صفوة الشيء الّتي تخرج منه، كأنّها تستلّ منه. و«السلالة» صفوة الشيء الّتي تجري قبل ثفله[١] وكدره، لأنّها متقدّمة على ثفله، كتقديم السلف والأجر. وقد تسمّى النطفة سلالة، والولد أيضاً سلالة وسليلة، والجمع سلالات وسلائل، قال الشاعر:

وهل كنتُ إلّا مُهرة عربية … سَليلةُ أفراسٍ تجلّلها بَغلُ[٢]

وقال آخر:

فجاءتْ به عَضْبَ الأديمِ غَضنفَرا … سُلالةَ فرجٍ كانَ غَيرَ حَصينِ[٣]

وقال آخر:

يَقْذفنَ في أسلالها بالسلائلِ[٤]

وقال آخر:

إذا أنتجتْ منها المهارى تَشابهتْ … على العود إلّا بالأُنوفِ سلائلِهُ[٥]

وفي الآية دلالة على أنّ الإنسان هو هذا الجسم المشاهد لأنّه المخلوق من نطفة والمستخرج من سلالة، دون ما يذهب إليه قوم: من أنّه الجوهر البسيط، أو شيء لا يصحّ عليه التركيب والانقسام، على ما يذهب إليه معمر وغيره.

وقوله: ﴿ثمّ جعلناهُ نطفةً في قَرار مَكينٍ﴾ المعنى جعلنا الإنسان، وهو من ولد من نسل آدم ﴿نطفة﴾ وهي القطرة من ماء المنيّ الّتي يخلق الله منها

---

(١) كذا في الخطّية، وفي الحجريّة: «سلّ ثفله».

(٢) الأغاني ٩: ٢٢١ ونسبه إلى حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاريّة. وفيه: «وهل أنا» بدل «وهل كنت».

(٣) للشاعر حسّان بن ثابت، راجع ديوانه ١: ٥١٩.

(٤) أنشده الطبري ذيل الآية ونسبه إلى الراجز: وفيه: «في أسلابها».

(٥) أنشده الطبري ذيل الآية ولم ينسبه لأحد، وفيه: «على القود» بدل «على العود».

الحيوان، على مجرى العادة في التناسل، فيخلق الله من نطفة الإنسان إنساناً ومن نطفة كلّ حيوان ما هو من جنسه. ومعنى ﴿مكين﴾ أي مكين لذاك، بأن هيّئ لاستقراره فيه إلى بلوغ أمده الّذي جعل له.

وقوله: ﴿ثمّ خلقنا النطفةَ عَلقةً﴾ فالعلقة القطعة من الدم إذا كانت جامدة، فبيّن الله تعالى أنّه يصيّر تلك النطفة علقة، ثمّ يجعل العلقة مضغة، وهي القطعة من اللحم. ثمّ أخبر أنّه يجعل المضغة ﴿عظاماً﴾ وقرئ ﴿عظماً﴾ وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر عن عاصم. فمن قرأ ﴿عظاماً﴾ أراد ما في الإنسان من أقطاع العظم. ومن قرأ ﴿عظماً﴾ فلأنّه اسم جنس يدلّ على ذلك.

ثمّ بيّن تعالى أنّه يكسو تلك ﴿العظام لحماً﴾ ينشئه فوقها، كما تكسى الكسوة. وقوله ﴿ثمّ أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني ينفخ الروح فيه، في قول ابن‌عبّاس ومجاهد. وقيل: نبات الأسنان والشعر[1] وإعطاء العقل والفهم. وقيل: ﴿خلقاً آخر﴾ معناه ذكر أو أُنثى[2].

ثمّ قال: ﴿فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ﴾ ومعنى «تبارك» استحقّ التعظيم بأنّه قديم لم يزل ولا يزال، وهو مأخوذ من البروك، وهو الثبوت. وقوله: ﴿أحسن الخالقينَ﴾ فيه دلالة على أنّ الإنسان قد يخلق على الحقيقة، لأنّه لو لم يوصف بخالق إلّا الله لما كان لقوله: ﴿أحسنُ الخالقين﴾ معنى. وأصل «الخلق» التقدير، كما قال الشاعر:

ولأنتَ تَفْري ما خَلقتَ وبعـ ـضُ القومِ يَخلقُ ثمّ لا يفريْ[3]

ثمّ خاطب الخلق، فقال: ﴿ثمّ إنّكُمْ﴾ معاشر الخَلق بعد هذا الخلق

---

(١) قاله قتادة كما في الكشف والبيان ٧: ٤٢. (٢) قاله الحسن كما في النكت والعيون ٤: ٤٨.
(٣) للشاعر زهير بن أبي سلمى راجع ديوانه: ٢٩.

والإحياء ﴿لميّتونَ﴾ أي تموتون عند انقضاء آجالكم، يقولون لمن لم يمت ويصحّ عليه الموت: ميّت ومائت. ولا يقولون لمن مات: مائت. وكذلك في نظائره سيّد وسائد.

وقوله: ﴿ثمّ إنّكُمْ يومَ القيامةِ تُبعثُونَ﴾ أي تحشرون إلى الموقف والحساب والجزاء بعد أن كنتم أمواتاً، ولا يدلّ ذلك على أنّه لا يحييهم في القبر للمساءلة، لأنّ قوله: إنّه يميتهم عند فناء آجالهم ويبعثهم يوم القيامة لا يمنع من أن يحييهم فيما بين ذلك، ألاترى أنّ القائل لو قال: دخلت بغداد في سنة مائة، وخرجت منها في سنة عشر ومائة، لم يدلّ على أنّه لم يخرج فيما بينهما وعاد، فكذلك الآية. على أنّ الله تعالى أخبر أنّه أحيا قوماً ﴿فقال لَهُم اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أحياهُم﴾ [1] فلابدّ من تقدير ما قلناه للجميع، وفيه دلالة على بطلان قول معمر والنظام في الإنسان.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ ﴿٢٠﴾ أربع آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿سيناء﴾ بكسر السين ولم يصرف لأنّه اسم البقعة، الباقون بفتح السين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿تنبت﴾ بضمّ التاء وكسر الباء، الباقون بفتح التاء وضمّ الباء.

من كسر السين من ﴿سيناء﴾ فلقوله: ﴿طور سينين﴾ [2] و«السيناء» الحسن، وكلّ جبل ينبت الثمار فهو سينين. ومن فتح السين فلأنّه لغتان،

---

(١) البقرة: ٢٤.
(٢) التين: ٢.

وأصله سرياني، ومن فتح السين لا يصرفه في المعرفة ولا النكرة، لأنّ الهمزة في هذا البناء لا تكون إلّا للتأنيث، ولا تكون للإلحاق لأنّ «فعلال» لا يكون إلّا في المضاعف مثل «الزلزال والقلقال».

ومن كسر السين فالهمزة عنده منقلبة عن الياء كـ«علياء وحوباء» وهي الّتي تظهر في يحول وحاية[1] لما بنيت للتأنيث. وإنّما لم يصرف على هذا القول وإن كان غير مؤنّث، لأنّه جعل اسم بقعة أو أرض، فصار بمنزلة امرأة سمّيت بـ«جعفر».

ومن ضمّ التاء من ﴿تنبت﴾ لم يعدّه بالباء، وأراد تنبت الدهن.

قال أبو عليّ الفارسي: ويحتمل أن يكون الباء متعلّقاً بغير هذا الفعل الظاهر، وتقدّر مفعولاً محذوفاً، وتقديره: تنبت ثمرها وفيها دهن وصبغ. ومن فتح التاء عدّى الفعل بالباء كقولهم: ذهبت بزيد وأذهبت زيداً. ويجوز أن يكون الباء في موضع الحال، ولا يكون للتعدّي[2]. مثل ما قلناه في الوجه الأوّل، وتقديره: تنبت وفيها دهن.

يقول الله تعالى: ﴿ولقَدْ خَلقنا فوقَكُمْ سَبعَ طرائِقَ﴾ يعني سبع سماوات، خلقها الله فوق الخلائق، وسمّاها طرائق، لأنّ كلّ طبقة طريقة. وقال الجبّائي: لأنّها طرائق للملائكة، وقال ابن زيد: الطرائق السماوات الطباق. وقال الحسن: ما بين كلّ سماء مسيرة خمسمائة عام، وكذلك ما بين السماء والأرض.

وقوله: ﴿وما كنّا عن الخلق غافلينَ﴾ معناه ما كنّا غافلين أن ينزل عليهم ما يحييهم من المطر. ويحتمل أن يكون أراد ما كنّا غافلين عن أفعالهم وما

---

(١) كذا في الحجريّة وفي مجمع البيان «درحابة» وفي المطبوع: «سينابة».

(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ١٨٠.

يستحقّون بها من الثواب والعقاب، بل نحن عالمون بجميع ذلك. وقيل: ﴿وما كنّا عن الخلق غافلين﴾ بل كنّا حافظين للسماء من أن تسقط عليهم فتهلكهم.

و«الغفلة» ذهاب المعنى عن النفس ومثله السهو، فالعالم لنفسه لايجوز عليه الغفلة، لأنّه لا شيء إلّا وهو عالم به. وإنّما ذكر الغفلة بعد الطرائق، لأنّ من جاز عليه الغفلة عن العباد جاز عليه الغفلة عن الطرائق الّتي فوقهم فتسقط عليهم، فأمسك الله تعالى طرائق السماوات أن تقع على الأرض إلّا باذنه، ولولا إمساكه لها لم تقف طرفة عين.

وقوله: ﴿وأنزلنا من السماء ماءً بقَدَرٍ﴾ أي أنزلنا المطر والغيث بقدر الحاجة، لا يزيد على قدر الحاجة فيفسد، ولا ينقص عنها فيهلك، بل وفق الحاجة. وقوله: ﴿فأسكنّاه في الأرضِ﴾ يعني أنّه تعالى أسكن الماء المنزل من السماء في الأرض وأثبته في العيون والأودية. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «أربعة أنهار من الجنّة: النيل، والفرات، وسيحان، وجيحان»[1]. ثمّ قال تعالى: ﴿وإنّا على ذهابٍ به لقادِرُونَ﴾ لا يعجزنا عن ذلك شيء، ولو فعلناه لهلك جميع الحيوان، فنبّههم بذلك على عظم نعمة الله على خلقه بإنزال الماء من السماء.

ثمّ أخبر تعالى أنّه ينشئ للخلق بذلك الماء ﴿جنّاتٍ﴾ وهي البساتين ﴿من نخيل وأعنابٍ﴾ لتنتفعوا بها معاشر الخلق ﴿لَكُمْ فيها فَواكهُ كثيرةٌ﴾ تتفكّهون بها ﴿ومنها تأكلونَ﴾ وإنّما خصّ النخيل والأعناب، لأنّها ثمار الحجاز من المدينة والطائف، فذكّرهم الله تعالى بالنعم الّتي يعرفونها.

وقوله: ﴿وشجَرَةً تَخرُجُ من طُورِ سَيناءَ﴾ إنّما خصّ الشجرة الّتي تخرج

(١) الخصال: ٢٥٠ ح ١١٦.

من طور سيناء لما في ذلك من العبرة، بأنّه لايتعاهدها إنسان بالسقي، ولا يراعيها أحد من العباد، تخرج الثمرة الّتي يكون فيها الدهن الّذي تعظم الفائدة وتكثر المنفعة به. و«سيناء» البركة، كأنّه قال: جبل البركة، وهو قول ابن عبّاس ومجاهد. وقال قتادة والضحّاك: معناه الحسن. وقال ابن‌عبّاس: طور سيناء اسم الجبل الّذي نودي منه موسى عليه السلام وهو كثير الشجر قال العجّاج:

دانِي جَناحَيهِ من الطُورِ فَمرّ[١]

وقيل: يحتمل أن يكون «سيناء»: فيعالاً من السنة، وهو الارتفاع. والشجرة قيل: إنّها شجرة الزيتون[٢]. وقوله: ﴿تُنبِتُ بالدهنِ﴾ أي تنبت ثمرها بالدهن. ومن فتح التاء فمعناه تنبت بثمر الدهن. وقيل: نبت وأنبت لغتان[٣]. قال زُهَير:

رأيتُ ذوي‌الحاجات حَولَ بيُوتِهِمْ قَطيناً لهم حتّى إذا أنبتَ البَقْلُ[٤]

وقيل الباء زائدة، والمعنى تنبت ثمر الدهن، كما قال الراجز:

نَحنُ بنو جعدة أربابُ الفَلجْ نَضربُ بالبيضِ ونَرجُو بالفَرَجْ[٥]

أي نرجو الفرج . وقوله: ﴿وصبغ للآكلين﴾ أي وجعلناه ممّا يتأدّم به الإنسان ويصطبغون به من الزيت والزيتون. و«الاصطباغ» أن يغمز فيه ثمّ يخرجه ويأكله.

قوله تعالى:

وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٥٧. (٢) قاله الماوردي في النكت والعيون ٤: ٥٠.
(٣) قاله الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٢٣٢. (٤) ديوان زهير: ٦٢، وفيه: «بها» بدل «لهم».
(٥) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٥٦ وفيه: «أصحاب الفَلج» بدل «أرباب الفلج».

وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر ونافع وأبو بكر عن عاصم ﴿نسقيكم﴾ بفتح النون، الباقون بضمّها. قال بعضهم: هما لغتان سقيت وأسقيت، قال الشاعر:

سقَى قَومي بني مَجْدٍ وأسقى نُمَيراً والقَبائِلَ من هِلالٍ[١]

ولا يجوز أن يكون المراد في البيت «وأسقى» مثل قوله: ﴿وأسقَيناكُمْ ماءً فراتاً﴾[٢] لأنّه لا يكون قد دعا لقومه وخاصّته بدون ما دعا للأجنبيّ البعيد منه. والصحيح أنّ سقيت للشفة[٣] وأسقيت للأنهار والأنعام تقول: دعوت الله أن يسقيه.

ومن قرأ بضمّ النون أراد: أنّا جعلنا ما في ضروعها من الألبان سقياً لكم، كما يقال: أسقيناهم نهراً إذا جعلته سقياً لهم، وهذا كأنّه أعمّ، لأنّ ما هو سقياً لا يمتنع أن يكون للشفة، وما يكون للشفة ـ فقط ـ يمتنع أن يكون سقياً. وما أُسقينا من ألبان الأنعام أكثر ممّا يكون للشفة.

ومن فتح النون جعل ذلك مختصّاً به الشفاه دون المزارع والمراعي، فلم يكن مثل الماء في قوله: ﴿فأسقَيناكُمُوهُ﴾[٤] وقوله: ﴿وأسقيناكُمْ ماءً فُراتاً﴾ لأنّ ذلك يصلح للأمرين، ومن ثمّ قال: ﴿وسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً

---

(١) للشاعر لبيد بن ربيعة العامري، راجع ديوانه: ١١٠.
(٢) المرسلات: ٢٧.
(٣) كذا في الخطّية، وفي الحجريّة: «للسقة» بالسين المهملة في الموارد كلّها.
(٤) الحجر: ٢٢.

طَهُوراً﴾(١) وإنّما قال هاهنا: ﴿ممّا في بطونِها﴾ وفي النحل ﴿بطونه﴾(٢) لأنّه إذا أنّث فلا كلام لرجوع ذلك إلى الأنعام، وإذا ذكّر فلأنّ النعم والأنعام بمعنى واحد، ولأنّ التقدير: ونسقيكم من بعض ما في بطونه.

يقول الله تعالى: ﴿وإنّ لَكُمْ﴾ معاشر العقلاء ﴿في الأنعام﴾ وهي الماشية الّتي تمشي على نعمة في مشيها، خلاف الحافر في وطئها، وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لعبرة﴾ يعني دلالة تستدلّون بها على توحيد الله وصفاته الّتي لا يختصّ بها سواه. وقوله: ﴿نُسقيكُمْ ممّا في بُطُونِها﴾ فالسقي إعطاء ما يصلح للشرب، فلمّا كان الله تعالى قد أعطى العباد ألبان الأنعام بإجرائه في ضروعها وتمكينهم منها من غير حظر لها كان قد سقاهم إيّاها.

ثمّ قال: ﴿ولَكُمْ فيها﴾ يعني في الأنعام ﴿منافعُ كثيرةٌ﴾ ولذّات عظيمة، ببيعها والتصرّف فيها وأكل لحومها وشرب ألبانها، وغير ذلك من الانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها، وغير ذلك ﴿ومنها تأكُلُونَ﴾ يعني اللحم وغيره من الألبان وما يعمل منها. قال: ومن منافعها أنّكم تحملون عليها الأثقال في أسفاركم وبأن تركبوها وتحملوا عليها أثقالكم، ومثل ذلك على الفلك، وهي السفن.

ثمّ أقسم تعالى أنّه أرسل نوحاً إلى قومه، يدعوهم إلى الله ويقول لهم: ﴿اعبدُوا اللهَ﴾ وحده لاشريك له، فإنّه لا معبود لكم غيره. ويحذّرهم من عقابه ويقول: ﴿أفلا تتَّقُونَ﴾ نقمة الله بالإشراك معه في العبادة. ثمّ حكى أنّ الملأ وهم ـ جماعة أشراف قومه ـ الكفّار، قال بعضهم لبعض: ليس نوح هذا إلّا مخلوقاً مثلكم وبشر مثلكم وليس بملك ﴿يريدُ أن يتفَضَّلَ عَليكُمْ﴾ فيسودكم ويترأّسكم وأن يكون أفضل منكم ﴿ولو شاءَ اللهُ﴾ ما قاله من

(١) الدهر: ٢١. (٢) النحل: ٦٦.

توحيده واختصاصه بالعبادة ﴿لأنزلَ ملائكةً﴾ عليكم يدعونكم إلى ذلك.

ثمّ قالوا: ﴿ما سمعنا بهذا﴾ يعني بما قال نوح وبمثل دعوته. وقيل بمثله بشراً أتى برسالة من ربّه في أسلافنا الماضين وآبائنا وأجدادنا الّذين تقدّمونا. ثمّ قالوا: ﴿إنْ هُوَ إلّا رجل به جِنّةٌ﴾ أي ليس هو ـ يعنون نوحاً ـ إلّا رجلاً به جِنّة أي تعتاده غمرة تنفّي عقله حتّى يتخيّل إليه ما يقوله ويخرجه عن حال الصحّة وكمال العقل، فكان أشراف قومه يصدّون الناس عن اتّباعه بما حكى الله عنهم، وقالوا: إنّه لمجنون يأتي بجنونه بمثل هذا. ويحتمل أن يكونوا أرادوا كأنّه في طمعه فيما يدعو إليه مجنون. ثمّ قال بعضهم لبعض: ﴿تَربّصُوا بهِ حتّى حينٍ﴾ أي إلى وقت ما، كأنّهم قالوا لهم: تربّصوا به الهلاك وتوقّعوه.

قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّانَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿منزلاً﴾ بفتح الميم، الباقون بضمّها. من فتح الميم جعله اسم المكان أو مصدراً ثلاثيّاً. ومن ضمّ الميم فلأنّه مصدر «أنزل إنزالاً» لقوله: ﴿أنزلني﴾ ومثله ﴿أدخِلني مُدخَلَ صِدقٍ﴾[1] ولو قرئ ﴿وأنتَ خير المنزلين﴾ لكان صواباً بتقدير أنت خير المنزلين به، كما تقول:

(١) الإسراء: ٨٠.

أنزلت حوائجي بك.

وقرأ حفص عن عاصم ﴿من كلٍّ زوجينِ﴾ منوّناً على تقدير: اسلك فيها زوجين اثنين من كلّ، أي من كلّ جنس ومن كلّ الحيوان، كما قال تعالى: ﴿ولكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ أي لكلّ إنسان قبلة ﴿هُوَ مُوَلّيها﴾[1] لأنّ «كلاًّ وبعضاً» يقتضيان مضافاً إليهما. الباقون بالإضافة إلى «زوجين» ونصب «اثنين» على أنّه مفعول به.

يقول الله تعالى: إنّ نوحاً عليه السلام لمّا نسبه قومه إلى الجنّة وذهاب العقل ولم يقبلوا منه دعا الله تعالى، فقال: ﴿رَبِّ انصرني بما كَذَّبُونِ﴾ أي أعنّي عليهم، فالنصرة المعونة على العدوّ، فأجاب الله تعالى دعاءه وأهلك عدوّه فأغرقهم ونجّاه من بينهم بمن معه من المؤمنين.

وقوله: ﴿بما كذّبون﴾ يقتضي أن يكون دعا عليهم بالإهلاك جزاءً على تكذيبهم إيّاه، فقال الله تعالى: إنّا ﴿أوحينا إليه أن اصنَعِ الفلكَ﴾ وهو السفينة ﴿بأعيننا﴾ وقيل في معناه قولان: أحدهما: بحيث نراها كما يراها الرائي من عبادنا بعينه، ليتذكّر أنّه يصنعها والله ـ عزّ وجلّ ـ يراه. الثاني: بأعين أوليائنا من الملائكة والمؤمنين، فإنّهم يحرسونك من منع مانع لك. وقوله: ﴿ووحينا﴾ أي بإعلامنا إيّاك كيفيّة فعلها. وقوله: ﴿فإذا جاء أمرنا﴾ يعني إذا جاء وقت إهلاكنا لهم ﴿وفار التنّور﴾ روي أنّه كان جعل الله تعالى علامة وقت الإهلاك فوران التنّور بالماء، فقال له: إذا جاء ذلك الوقت ﴿فاسلك فيها﴾ يعني في السفينة، وكان فوران الماء من التنّور المسجور بالنار معجزة لنوح عليه السلام ودلالة على صدقه. وأكثر المفسّرين على أنّها التنّور الّتي

---

(١) البقرة: ١٤٨.

يخبز فيها. وروي عن عليّ عليه السلام أنّه أراد طلوع الفجر[١]. ويقال: سلكته وأسلكته، فيه لغتان، كما قال الشاعر:

وكنتُ لِزازَ خصمِكَ لم أُعرِّد وقد سلكوكَ في يومٍ عصيبِ[٢]

وقال الهذلي:

حتّى إذا أسلكُوهُمْ في قُتائِدَةٍ شلّاً كما تَطرُدُ الجمّالَةُ الشُرُدَا[٣]

وقيل: «سلكته» فيه حذف، لأنّ تقديره: سلكت به فيه. ومعنى ﴿فاسلك فيها﴾ احمل فيها وادخل إلى السفينة ﴿من كلّ زوجين اثنين﴾ أي من كلّ زوجين من الحيوان اثنين: ذكراً وأُنثى. والزوج واحد له قرين من جنسه قال الشاعر: وكنت لزاز خصمك... البيت. وقوله ﴿وأهلك﴾ أي احمل أهلك معهم، يعني الّذين آمنوا معك ﴿إلّا مَن سَبقَ عليه القَولُ﴾ بالإهلاك منهم ﴿ولا تُخاطبني في الّذينَ ظَلمُوا﴾ أي لا تسلني في الظالمين أنفسهم بالإشراك معي فـ﴿إنّهم مغرَقُونَ﴾ هالكون.

ثمّ قال له: ﴿فإذا استويتَ أنتَ﴾ يا نوح ﴿ومن مَعَكَ على الفُلكِ﴾ واستقررتم فيه وعلوتم عليه وتمكّنتم منه فقل شكراً لله: ﴿الحمدلله الّذي نجّانا﴾ وخلّصنا ﴿من القوم الظالمين﴾ لنفوسهم بجحدهم توحيد الله. وادع فقل: ﴿ربّ أنزلني مُنزَلاً مبارَكاً وأنت خير المنزِلينَ﴾ وقال الجبّائي: المنزل المبارك هو السفينة. وقال مجاهد: قال ذلك حين خرج من السفينة. وقال الحسن: كان في السفينة سبعة أنفس من المؤمنين ونوح

(١) رواه الماوردي في النكت والعيون ٤: ٥٢. في تفسير العيّاشي ٢: ١٤٧ هكذا: عن الأعمش رفعه إلى عليّ عليه السلام في قوله ﴿حتّى إذا جاء أمرنا وفار التنّور﴾ فقال: أما والله ما هو تنّور الخبز ثمّ أومأ بيده إلى الشمس فقال: طلوعها.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٥٧ ونسبه إلى عدي بن زيد.

(٣) أنشده الثعلبي في تفسيره ٧: ٤٥.

ثامنهم. وقيل: ستّة. وقيل: ثمانين. وقيل: إنّه هلك كلّ ما كان على وجه الأرض إلّا من نجامع نوح في السفينة. وقال الحسن: كان طول السفينة ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ستّمائة ذراع. وكانت مطبقة تسير بين ماء السماء وبين ماء الأرض.

ثمّ قال تعالى: ﴿إنّ في ذلك﴾ يعني فيما أخبرنا به وقصصنا عليك ﴿لآياتٍ﴾ ودلالات للعقلاء، يستدلّون بها على توحيد الله وصفاته ﴿وإن كنّا لمبتلين﴾ أي وإن كنّا مختبرين عبادنا بالاستدلال على خالقهم بهذه الآيات ومعرفته وشكره على نعمه عليهم، وبعبادته وطاعته وتصديق رسله.

قوله تعالى:

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ستّ آيات بلا خلاف.

قرأ أبو جعفر ﴿هيهات هيهات﴾ بكسر التاء، الباقون بفتحها، ولا خلاف في ترك التنوين فيهما.

يقول الله تعالى: ﴿إنّا أنشأنا﴾ واخترعنا من بعد إهلاك قوم نوح بالطوفان قوماً ﴿آخَرِينَ﴾ و«الانشاء» و«الاختراع» واحد، وكلّما يفعل الله تعالى فهو إنشاء واختراع. وقد يفعل الله تعالى الفعل عن سبب بحسب ما تقتضيه المصلحة. و«القرن» أهل العصر على مقارنة بعضهم لبعض، ومنه قرن الكبش لمقارنته القرن الآخر، ومنه القرينة، وهي الدلالة الّتي تقارن الكلام.

وقوله: ﴿فأرسلنا فيهم رسولاً منهم﴾ إخبار منه تعالى أنّه أرسل رسولاً في القرن الّذي أنشأهم من بعد قوم نوح. وقال قوم: هو صالح[١] وقيل: هود[٢] لأنّه المرسل بعد نوح ﴿أن اعبدوا اللهَ ما لكُمْ من إلهٍ غَيرُهُ﴾ أي أرسلناه بأن يقول لهم: اعبدوا الله وحده لا شريك له، ويقول لهم: مالكم معبود سواه، وأن يخوّفهم إذا خالفوه ويقول لهم: ﴿أفلا تتّقُونَ﴾ عذاب الله، وإهلاكه بارتكاب معاصيه. فموضع «أن» من الإعراب نصب، وتقديره بأن اعبدوا الله، فلمّا حذفت الباء نصب بـ«أرسلنا».

وقوله: ﴿وقالَ الملأُ من قومِهِ﴾ يعني الأشراف ووجوههم قالوا لغيرهم ﴿الّذين كفروا﴾ بالله وكذّبوا بآياته وحججه وبيّناته، وجحدوا ﴿وكذّبوا بلقاءِ الآخِرَةِ﴾ والبعث والنشور يوم القيامة. وقوله: ﴿وأترفناهُمْ في الحَياةِ الدُنيا﴾ «والإتراف» التنعّم بضروب الملاذّ، وذلك أنّ التنعيم قد يكون بنعيم العيش، وقد يكون بنعيم الملبس، فالإتراف بنعيم العيش، قال الراجز:

وقد أراني بالديارِ مُترَفاً[٣].

وقوله: ﴿ما هذا إلّا بشرٌ مثلكُمْ﴾ أي ليس هذا الّذي يدّعي النبوّة من قبل الله إلّا بشراً مثلكم ﴿يأكلُ ممّا تأكلُونَ منه﴾ من الأطعمة ﴿ويشربُ ممّا تَشربُونَ﴾ من الأشربة.

ثمّ قالوا لهم: ﴿لئِنْ أطَعتُمْ بَشَراً مثلكُمْ﴾ وعلى هيئتكم وأحوالكم ﴿إنّكم إذا لخاسِرُونَ﴾ فجعلوا اتّباع الرسول خسراناً لأنّه بشر مثلهم، ولم يجعلوا عبادة الصنم خسراناً لأنّه جسم مثلهم، وهذا مناقضة ظاهرة.

---

(١) منهم الطبري ذيل الآية.

(٢) في الكشف والبيان ٧: ٤٦ هكذا: قال المفسّرون يعني هوداً وقومه.

(٣) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٥٨ ونسبه إلى العجّاج.

ثمّ حكى أنّهم قالوا لغيرهم: ﴿أيَعِدُكُمْ﴾ هذا الّذي يدّعي النبوّة من قبل الله ﴿أنّكم إذا مِتّمْ وكنتُمْ تراباً وعظاماً﴾ ورفاتاً ﴿أنّكم مخرَجُونَ﴾ وقيل في خبر «أنّ» الأوّل قولان: أحدهما: أنّه قوله: ﴿مخرجون﴾ وتكون الثانية للتأكيد. والثاني: أن يكون الخبر الجملة، وتقديره: أيعدكم أنّكم إذا متّم وكنتم تراباً وعظاماً ما إخراجكم؟ ونظير تكرير «أنّ» قوله: ﴿ألم يعلموا أنّه من يحادد الله ورسوله فإنّ له نار جهنّم﴾[1] يعني فله نار جهنّم، ذكره الزجّاج[2] إلّا أنّ هذه الثانية عملت في غير ما عملت فيه الأُولى. وإنّما هي بمنزلة المكرّر في المعنى. وموضع ﴿أنّكم﴾ الأولى نصب، وتقديره: أيعدكم بأنّكم، وموضع «أنّ» الثانية كموضع الأُولى، وإنّما ذكرت تأكيداً، والمعنى: أيعدكم أنّكم تخرجون إذا متّم، فلمّا بعد ما بين «أنّ» الأُولى والثانية بقوله: ﴿إذا... كنتم تراباً وعظاماً﴾ أُعيد ذكر «أنّ».

ثمّ قالوا لهم: ﴿هيهاتَ هيهاتَ لما تُوعدون﴾ من البعث والنشور والجزاء بالثواب والعقاب، ومعنى ﴿هيهات﴾ بعد الأمر جدّاً حتّى امتنع، وهو بمنزلة «صه ومه» إلّا أنّ هذه الأصوات الأغلب عليها الأمر والنهي وهذا في الخبر، ونظيره «شتّان» أي بعدما بينهما جدّاً، وإنّما لم تتمكّن هذه الأصوات في الأسماء بخروجها إلى شبه الأفعال الّتي هي معانيها، وليست مع ذلك أفعالاً لأنّه لا يضمر فيها، ولا لها تصرّف الأفعال في أصلها، وإنّما جعلت هكذا للإفهام بما تفهم به البهيمة من الزجر بالأصوات، على هذه الجهة. وقال ابن عبّاس: معنى ﴿هيهات﴾ بعيد بعيد. والعرب تقول: هيهات لما تبغي وهيهات ما تبغي، قال جرير:

---

(١) التوبة: ٦٣.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ١١.

فهيهاتَ هيهاتَ العقيقُ ومَن به ... وهيهاتَ وَصلٌ بالعقيقِ نُواصِلُهْ[١]

ويروى أيهات، وكان الكسائي يقف بالهاء فيقول: هيهاه، على قياس هاء التأنيث في الواحد زائدة نحو «علقاه» واختار الفرّاء الوقف بالتاء، لأنّ قبلها ساكناً، فصارت كما تقول: بنت وأُخت. قال: ولأنّ من العرب من يخفض التاء، فدلّ ذلك على أنّها ليست بهاء التأنيث، وإنّما هي بمنزلة دَرَاكِ، ونَظَارِ ماله. ومن وقف بالهاء جعلها كالأداة[٢]. وقال الزجّاج: يجوز هيهاتَ وهيهاتاً بالتنوين وترك التنوين[٣]. قال الأخفش: يجوز فتح التاء وكسرها، ومنهم من يجعل بدل الهاء همزة فيقول: أيهات، وهي لغة تميم، غير أنّهم يكسرون التاء. ومن العرب من إذا جعلها في موضع اسم قال: لمأره مذ أيهاتٌ من النهار بضمّ التاء وتنوينها، ومنهم من يجعل مكان التاء نوناً، فيقول: أيهان واحدها أيها، قال الشاعر:

ومن دُونَي الأعيار والقيعُ كلُّهُ ... وكتمانُ أيهاناً أشتّ وأبعدا[٤]

قوله تعالى:

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ أربع آيات بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن الملأ الّذين قالوا: ﴿هيهات هيهات لما تُوعَدُونَ﴾ لقومهم الّذين أغووهم، وقالوا أيضاً: ليست الحياة ﴿إلّا حياتنا الدنيا نموتُ

---

(١) ديوان جرير: ٣٦٠، وفيه: «فأيهات» بدل «هيهات» في المواضع الثلاثة، «تواصله» بدل «نواصله».
(٢) معاني القرآن ٢: ٢٣٥.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ١٢.
(٤) أنشده الأزهري في التهذيب ٤: ٣٨١٩، ولم ينسبه لأحد، وفيه: «الأعراض والقِنع» بدل «الأعيار والقيع» و«وكتمان أيهاماً أشتّ وأبعدا» بدل «وكتمان أيهاناً».

ونحيا وما نحنُ بمبعوثين﴾ أي لسنا نبعث يوم القيامة على ما يقول هذا المدّعي للنبوّة من قبل الله.

ومعنى ﴿نموتُ ونحيا﴾ أي يموت منّا قوم ويحيا قوم، لأنّهم لم يكونوا يقرّون بالنشأة الثانية، فلذلك قالوه على هذا الوجه، وشبهتهم في إنكار البعث طول المدّة في القرون الخالية، فظنّوا أنّه أبداً على تلك الصفة، وهذا أبلغ، لأنّه إذا اقتضت الحكمة طول المدّة لما في ذلك من المصلحة للمكلّفين، فلا بدّ منه، لأنّ الحكيم لا يخالف مقتضى الحكمة، فقال النبيّ المرسل عند ذلك: يا ﴿ربِّ انصرني بما كذّبونِ﴾ أي أهلك هؤلاء جزاءً على تكذيبي ونصرة لي ومعونة على صحّة قولي، فقال الله تعالى له: ﴿عمّا قليلٌ﴾ أي عن قليل و «ما» زائدة ﴿ليُصبِحُنَّ﴾ هؤلاء القوم ﴿نادمِينَ﴾ على ما فعلوه من تكذيب الرسل وجحد وحدانيّة الله والإشراك مع الله في عبادته غيره.

واللام في قوله ﴿لَيُصبِحُنَّ﴾ لام القسم يجوز أن يقدّم ما بعدها عليها وتقدير الكلام: ليصبحنّ هؤلاء نادمين عن قليل.

قوله تعالى:

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ ﴿٤٥﴾ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٧﴾.

ستّ آيات في الكوفي والبصري، وسبع في المدنيّين، عدّوا قوله: ﴿ثمّ أرسلنا موسى وأخاه هارون﴾ آية.

لمّا قال الله تعالى لصالح عليه السلام: إنّه عن قليل يصبح هؤلاء الكفّار نادمين على ما فعلوا حكى الله أنّه أخذتْهُمْ الصيحة بالحقّ، و«الصيحة» الصوت الشديد الّذي يفزع منها. فأهلك الله تعالى ثمود بالصيحة وهي صيحة تصدّعت منها القلوب. وقوله: ﴿بالحقّ﴾ معناه على وجه الحقّ، وهو أخذهم بالعذاب من أجل ظلمهم بإذن ربّهم، وهو وجه الحقّ. ولو أُخذوا بغير هذا لكان أخذاً بالباطل، وهو كأخذ كلّ واحد بذنب غيره.

وقوله: ﴿فجعلناهم غثاءً﴾ فالغثاء القشّ الّذي يجيء به السيل على رأس الماء: قصب وحشيش وعيدان شجر وغير ذلك. وقيل: «الغثاء» البالي من ورق الشجر، إذا جرى السيل رأيته مخالطاً زبده[1]. وقوله: ﴿فبعداً لقومٍ لا يؤمنون﴾ معناه بعداً لهم من الرحمة، وهي كاللعنة الّتي هي إبعاد من رحمة الله، وقالوا في الدعاء على الشيء: بعداً له، ولم يقولوا في الدعاء له: قرباً [له] أي من الرحمة، لأنّهم طلبوا الانغماس في الرحمة، فتركوا التقابل لهذه العلّة. وقال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة: الغثاء المتفتّت البالي من الشجر يحمله السيل. وقيل: إنّ الله بعث ملكاً صاح بهم صيحة ماتوا عندها عن آخرهم.

ثمّ أخبر تعالى أنّه أنشأ بعد هؤلاء الّذين أهلكهم بالصيحة ﴿قُرُوناً﴾ أي أُمماً ﴿آخرينَ﴾ وأخبر أنّه ﴿ما تسبقُ من أمّة أجلها وما يستأخرون﴾ وهذا وعيد لهؤلاء المشركين، ومعناه إنّ كلّ أُمّة لها أجل ووقت مقدّر قدّره الله لها إذا بلغته لا تؤخّر عنه ولا تقدّم عليه، بل تهلك عنده.

و«الأجل» هو الوقت المضروب لحدوث أمر من الأُمور، وليس الأجل الوقت المعلوم أنّه يحدث فيه أمر من الأمور، لأنّ التأجيل فعل

---

(١) قاله الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه ٤: ١٣.

يكون به الوقت أجلاً لأمر، وما في المعلوم ليس بفعل. والأجل المحتوم لا يتأخّر ولا يتقدّم. والأجل المشروط بحسب الشرط. والمعنى في الأجل المذكور ـ في الآية ـ الأجل المحتوم.

ثمّ أخبر تعالى أنّه أرسل بعد أن أهلك من ذكره ﴿رسلاً تترا﴾ وقرأ ابن‌كثير وأبو عمرو بالتنوين، الباقون بغير تنوين، ولا خلاف في الوقف أنّه بألف. فمن نوّن لم يمل في الوقف، ومن لم ينوّن فمنهم من يميل، ومنهم من لا يميل. و«المواترة» المتابعة. وقيل: هي المواصلة يقال: واترت بين الخبرين، أي تابعت بينهما.

وقال ابن عبّاس ومجاهد وابن زيد: معنى ﴿تترى﴾ أي متواترين يتبع بعضهم بعضاً، وهي «فعلى» من المواترة. من صرفها جعل الألف للإلحاق، ومن لم يصرفها جعلها للتأنيث. ويقال: جاءت كتبه تترى. وأصل «تترى» وترى، من وترت، فقلبت الواو تاء لكراهتهم الواو أوّلاً، حتّى لم يزيدوها هناك البتّة مع شبهها بالتاء في اتّساع المخرج والقرب في الموضع. وأصله في المعنى الاتّصال، فمنه الوتر الفرد عن الجمع المتّصل، ومنه الوتر لاتّصاله بمكانه من القوس، ومنه وترت الرجل أي قطعته بعد اتّصال.

ثمّ أخبر تعالى أنّه ﴿كلّما جاءَ أُمّة رَسُولُها﴾ الّذي بعثه الله إليهم ﴿كذّبُوهُ﴾ ولم يقرّوا بنبوّته. وقوله: ﴿فاتبعنا بَعضَهُمْ بعضاً﴾ يعني في الإهلاك أي أهلكنا قوماً بعد قوم ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ يتحدّثون بهم على وجه المثل في الشرّ، وهو جمع أُحدوثة، ولا يقال في الخير؛ لأنّ الناس يغرون[1] في الحديث بأسباب الشرّ أكثر وأغلب.

ثمّ قال تعالى: ﴿فبعداً﴾ من رحمة الله ورسوله ﴿لقوم لا يؤمنونَ﴾ أي

---

(١) كذا في الحجريّة، وفي المطبوعة: «يفسّرون».

لا يصدّقون بوحدانيّته فيقرّون بالبعث والنشور والجزاء. ثمّ أخبر تعالى أنّه أرسل ـ بعد إهلاك من ذكره ـ ﴿موسى وهارونَ﴾ نبيّين ﴿بآياتِنا وسلطانٍ مبين﴾ أي بأدلّة من الله وحجج ظاهرة ﴿إلى فرعونَ ومَلائِه﴾ يعني قومه ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً عالين﴾ و«الملأ» الجماعة الّتي تملأ الصدر هيبتهم، وهم أشراف القوم ورؤساؤهم، وخصّوا بالذكر لأنّ من دونهم أتباع لهم، فلمّا استكبروا وردّوا دعوة الحقّ تبعهم غيرهم ممّن هو دونهم.

وقوله: ﴿فاستكبروا﴾ أي تكبّروا وتجبّروا عن الإجابة لهما، وطلبوا بذلك الكبر، فكلّ مستكبر من العباد جاهل، لأنّه يطلب أن يعظّم بما فوق العبد، وهو عبدالله مملوك يلزمه التذلّل له والخضوع، فهي صفة ذمّ للعبد. وكذلك جبّار ومتجبّر، وهو مدح في صفات الله تعالى، لأنّ صفته تجلّ عن صفات المخلوقين وتعلو فوق كلّ صفة.

وقوله: ﴿وكانوا قوما عالينَ﴾ أي كانوا قاهرين للناس بالبغي والتطاول عليهم ولهذا كانت صفة ذمّ. و«العالي» القاهر القادر الّذي مقدوره فوق مقدور غيره لعظمه، يقال: علا فلان إذا ترفّع وطغى وتجاوز، ومنه قوله: ﴿ألّا تعلوا عليّ﴾ (١) وقوله: ﴿إنّ فرعونَ علا في الأرض﴾ (٢) وقوله: ﴿قد أفلحَ اليومَ من استعلى﴾ (٣) أي من علا على صاحبه وقهره بالحجّة.

قوله تعالى:

فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٨﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٥٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيۡنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥١﴾ أربع آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى حكاية عن فرعون وقومه بعد ما أخبر عنهما بالاستكبار،

(١) النمل: ٣١. (٢) القصص: ٤. (٣) طه: ٦٤.

والعلوّ على موسى وهارون، وترك إجابتهما: إنّهم قالوا ﴿أنؤمِن﴾ أي نصدّق ﴿لبشَرَينِ مِثْلِنا﴾ أي إنسانين خلقهم مثل خلقنا. وسمّي الإنسان بشراً، لانكشاف بشرته، وهي جلدته الظاهرة، حتّى احتاج إلى لباس يكنّه، لأنّ غيره من الحيوان مغطّى البشرة بريش أو صوف أو شعر أو وبر أو صدف، لطفاً من الله تعالى لهم إذ لم يكن هناك عقل يدبّر أمره مع حاجته إلى ما يكنّه، وهدى الإنسان إلى ما يستغني به في هذا الباب.

وقوله: ﴿وقَومُهُما لنا عابدون﴾ معناه أنّهم لنا مطيعون طاعة العبد لمولاه. وقال قوم: معناه إنّهم يذلّون لنا ويخضعون. وقال أبو عبيدة: كلّ من دان لملك فهو عابد له، ومنه سمّي أهل الحيرة العبّاد[1] لأنّهم كانوا يطيعون ملوك العجم. قال الحسن: كانت بنوا إسرائيل يعبدون فرعون، وفرعون يعبد الأوثان.

ثمّ أخبر عنهم أنّهم كذّبوا موسى وهارون، فكان عاقبة تكذيبهما أن أهلكهم الله وغرقهم. و«الإهلاك» إلقاء الشيء بحيث لا يحسّ به، فهؤلاء هلكوا بالعذاب، ويقال للميّت: هالك من هذا المعنى. ثمّ أقسم تعالى أنّه آتى موسى الكتاب يعني التوراة الّتي فيها ما يحتاجون إليه لكي يهتدوا إلى طريق الحقّ، من معرفة الله وخلع الأنداد.

وقوله: ﴿وجعلنا ابنَ مريَم وأُمَّهُ آيةً﴾ معناه جعلناهما حجّة، على أنّه تعالى قادر على اختراع الأجسام من غير شيء، كما اخترع عيسى من غير أب، والآية ـ هاهنا ـ في عيسى عليه السلام أنّه ولد من غير فحل، ونطق في المهد، وفى أُمّه أنّها حملته من غير ذكر وبرّأها كلامه في المهد من الفاحشة.

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٥٩.

وقوله: ﴿وآويناهما إلى رَبوةٍ ذاتِ قرارٍ ومعين﴾ يقال: آوى إليه يـأوي، وآواه غيره ويؤويه إيواء أي جعله مأوىً له. و«الربوة» المكـان المـرتفع على ما حوله، ويجوز ضمّ الراء وفتحها وكسـرها، وبـالفتح قـرأ عـاصم وابن عامر، الباقون بالضمّ أيضاً، ولم يقرأ أحد بالجرّ، ويقال: رباوة بـفتح الراء وكسرها و[الألف بعد الباء][١] فصار خمس لغات. والربوة الّتي أويا إليها هي الرملة، في قول أبي هريرة. وقال سعيد بن المسيّب: هي دمشق. وقال ابن زيد: هي مصر. وقال قتادة: هي بيت المقدس. وقال أبو عبيدة: يقال: فلان في ربوة من قومه أي في عزّ وشرف وعدد[٢].

وقوله: ﴿ذاتِ قرارٍ﴾ أي تلك الربوة لها ساحة واسعة أسفل منها. وذات ﴿معين﴾ أي ماء جارٍ، ظاهر بينهم. وقيل: معنى ﴿ذاتِ قرارٍ﴾ ذات استواء يستقرّ عليه. ومعين ماء جارٍ ظاهر للعيون، في قول سعيد والضحّاك. وقال قتادة: ﴿ذاتِ قرارٍ﴾ ذات ثمار، ذهب إلى أنّه لأجـل الثـمار يسـتقرّ فـيها ساكنوها. ومعين مفعول من عنته أعينه، ويجوز أن يكون فعيلاً من معن يمعن، وهو الماعون، وهو الشيء القليل، في قول الزجّاج[٣] قال الراعي:

قومٌ على الإسلامِ لمّا يَمنَعوا ماعُونَهمْ ويبدّلوا التَنزِيلا[٤]

قيل: معناه وفدهم. وقيل: زكاتهم. وأمعن في كذا إذا لم يترك منه إلّا القليل. وقال الفراء: المعن الاستقامة[٥]. قال عبيد بن الأبرص:

واهـيةٌ أو مَـعينٌ مُـمعِنٌ أو هضبةٌ دُونَها لُهُوبُ[٦]

---

(١) مابين المعقوفتين سقط من الحجريّة وأثبتناه من المطبوع.
(٢) مجاز القرآن ٢: ٥٩.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ١٥.
(٤) ديوان الراعي النميري: ٥٦، وفيه: «ويضيعوا التهليلا» بدل «ويبدّلوا التنزيلا».
(٥) معاني القرآن ٢: ٢٣٧.
(٦) ديوان عبيد بن الأبرص: ٢٥.

واحدها لهب ، وهو شقّ في الجبل. واهـية أي وهت. ومـطر مـمعن أي جارٍ[1].

قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٣﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٤﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٥﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٦﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ستّ آيات.

قرأ أهل الكوفة وابن عامر ﴿وإن﴾ بكسر الهمزة، وخفّف ابـن عـامر النون وسكّنها، وقرأ الباقون بفتح الهمزة مشدّدة النون.

قال قوم: هذا خطاب لعيسى عليه السلام حكاه الله تعالى، قـالوا: وذلك لمّـا جرى ذكره كأنّه قال: يا عيسى ﴿كُلُوا من الطيّباتِ﴾ وقال آخـرون: هـو خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله خاصّة [خاطبه] بلفظ الجمع، كما يقال للرجل الواحد: أيّها القوم كفّوا عنّا.

وقال قوم: لمّا ذكر بعض الأنبياء كأنّه قال: وقلنا لهم: ﴿يا أيّها الرسلُ كلوا من الطيّباتِ﴾ و«الأكل» تناول الطعام بالفم ومضغه وابتلاعه. وصورة ﴿كلوا﴾ صورة الأمر، والمراد به الإباحة. وأصل «كلوا» اؤكلوا فـحذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال، والمعنى مفهوم، لأنّه من الأكل.

و«الطيّبات» الحلال، وقيل: هو المستلذّ، فعلى الوجه الأوّل يكون أمراً بنفل، لأنّ تقديره: كلوا من الحلال على الوجه الّذي يستحقّ بـه الحـمد. وعلى الثاني يكون على الإباحة، كما قال تعالى: ﴿قلْ من حرّم زينةَ اللهِ الّتي

---

(١) في الحجريّة والمطبوع: «مار» والصواب ما أثبتناه.

أخرجَ لعباده والطيّبات من الرزق﴾[1].

وقوله: ﴿واعملوا صالحاً﴾ أمر من الله لهم بأن يعملوا الطاعات، واجباتها ونوافلها. و«الصلاح» الاستقامة، على ما تدعو إليه الحكمة. وقال قوم: إنّما هذا حكاية لما قيل لجميع الرسل. وهو الوجه. وقال آخرون: المعنى وقلنا لعيسى: ﴿يا أيّها الرسل﴾ على الجمع على ما ذكرناه من المثال.

وقوله: ﴿وإنّ هذهِ أمّتكم﴾ موضع «إنّ» نصب، لأنّ تقديره: ولأنّ هذه أُمّتكم أُمّة واحدة وأنا ربّكم فاتّقون، أي لهذه فاتّقون. وقيل: موضعه الجرّ بالعطف على ﴿بما تعملونَ عليم﴾ ومن كسر الهمزة استأنف الكلام. ومعنى الأُمّة - هاهنا - الملّة سمّاها بذلك للإجماع عليها بأمر الله. وقال الحسن وابن جريج: معنى ﴿وإنّ هذه أُمّتكم أُمّةً واحدةً﴾ أي دينكم دين واحد. وقيل: جماعتكم جماعة واحدة في الشريعة الّتي نصبها الله لكم. ونصب ﴿أُمّةً واحدةً﴾ على الحال. وقال الجبّائي: معناه ﴿وإنّ هذه أُمّتكم أُمّةً واحدةً﴾ في أنّهم عبيد الله، وخلقه وتدبيره.

وقوله: ﴿فتَقَطّعُوا أمرَهم بَينهم زُبُراً﴾ فالزبر الكتب، في قول الحسن وقتادة ومجاهد وابن زيد، وهو جمع زبور، كرسول ورسل. والمعنى تفرّقوا كتباً دانوا بها وكفروا بما سواها، كاليهود دانوا بالتوراة وكفروا بالإنجيل والقرآن. وكالنصارى دانوا بالإنجيل وكفروا بالقرآن. ومن قرأ ﴿زبراً﴾ بفتح الباء ـ وهو ابن عامر ـ فمعناها جماعات، لأنّه جمع زبرة وزبر، كبرمة وبرم.

وقوله: ﴿كلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحُونَ﴾ أي كلّ طائفة بما عندها تفرح لاعتقادها بأنّ الحقّ معها، فقال الله تعالى لنبيّه: ﴿فذرهم﴾ يا محمّد

(١) الأعراف: ٣٢.

﴿في غمرتهم﴾ أي جهلهم وضلالتهم. وقيل: في حيرتهم[١] وقيل: في غفلتهم[٢] والمعاني متقاربة ﴿حتّى حين﴾ أي حين وقت الموت[٣]. وقيل: حين العذاب[٤].

ثمّ قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أيَحسَبُونَ﴾ أي يظنّون هؤلاء الكفّار ﴿أنّما نُمدُّهم بهِ من مالٍ وبَنينَ﴾ تمام الكلام أحد شيئين: أحدهما: أيحسبون أنّ الّذي نُمدُّهم به من أجل مالهم وبنيهم، بل إنّما نفعل ذلك لما فيه من المصلحة. والثاني: أن يكون فيه حذف، وتقديره: أيحسبون أنّ الّذي نمدّهم به من المال والبنين حقّ لهم أو لكرامتهم عندنا؟ لا، بل نفعل ذلك لما فيه من المصلحة الّتي ذكرناها. ويكون قوله: ﴿نسارِعُ لهم في الخيراتِ﴾ ابتداء كلام، ولا يجوز أن يكون الإنكار وقع لظنّهم أنّ ذلك مسارعة لهم في الخيرات، لأنّه تعالى قد سارع لهم في الخيرات بما فعل بهم من الأموال والبنين، لما لهم في ذلك من اللطف والمصلحة. والغرض في ذلك أن يعرفوا الله ويؤدّوا حقوقه ﴿بل لا يَشعرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون بذلك، ولا يفهمونه لتفريطهم في ذلك. و«المسارعة» تقديم العمل في أوقاته الّتي تدعو الحكمة إلى وقوعه فيه، وهي سرعة العمل. ومثله المبادرة. وإنّما بني على «مفاعلة» لأنّ الفعل كأنّه يسابق فعلاً آخر.

و«الخيرات» المنافع الّتي يعظم شأنها، ونقيضها الشرور وهي المضارّ الّتي يشتدّ أمرها. و«الشعور» العلم الّذي يدقّ معلومه وفهمه على صاحبه دقّة الشعر. وقيل: هو العلم من جهة المشاعر وهي الحواسّ، ولهذا لا يوصف الله تعالى به. وقيل: نسارع لهم في الخيرات أي نقدّم لهم ثواب

(١ و٤) قاله الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه ٤: ١٦.
(٢) قاله ربيع كما في الكشف والبيان ٧: ٤٩. (٣) قاله الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٩.

أعمالهم لرضانا عنهم، ومحبّتنا إيّاهم؟ كلّا، ليس الأمر كذلك، بل نفعله ابتلاء في التعبّد لهم.

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِم لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٠﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦٢﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى: ﴿إنّ الّذينَ هُمْ من خشيةِ رَبّهم﴾ أي خوفاً من عقابه ﴿مُشفِقُونَ﴾ و«الخشية» ظنّ لحاق المضرّة. ومثلها المخافة، ونقيضها الأمنة. فالخشية انزعاج النفس بتوهّم المضرّة، والظنّ كذلك يزعج النفس، فيسمّى باسمه على طريق البلاغة. والخشية من الله خشية من عقابه وسخطه على معاصيه.

﴿والّذين هُمْ بآياتِ ربّهم يؤمِنُونَ﴾ وبحججه من القرآن وغيره يصدّقون ﴿والّذينَ هم بربّهم لا يشركون﴾ أي لا يشركون بعبادة الله غيره من الأصنام والأوثان، لأنّ خصال الإيمان لا تتمّ إلّا بترك الإشراك دون ما يقول أهل الجاهليّة: إنّا نؤمن بالله.

وقوله: ﴿والذينَ يؤتُونَ ما آتوا﴾ أي يعطون ما أُعطوا من الزكاة والصدقة، وينفقونه في طاعة الله ﴿وقلوبُهُمْ وَجِلة﴾ أي خائفة من عقاب الله لتفريط يقع منهم. قال الحسن: المؤمن جمع إحساناً وشفقة. وقال ابن عمر: ما أتوا من الزكاة ﴿وقلوبُهُمْ وَجِلةٌ﴾ أي خائفة في قول قتادة ﴿انّهم إلى رَبّهم راجِعُونَ﴾ أي يخافون من رجوعهم إلى الله يوم القيامة، وإلى مجازاته أي يخافون ذلك، لأنّهم لا يأمنون التفريط.

ثمّ أخبر عمّن جمع هذه الصفات وكملت فيه، فقال: ﴿أولئك يُسارِعُونَ في الخيراتِ﴾ أي يبادرون إلى الطاعات ويسارعون إليها: من الإيمان بالله، ويجتهدون في السبق إليها رغبة فيها وعلمهم بما لهم بها من حسن الجزاء. وقوله: ﴿وهُمْ لها سابِقُونَ﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال: أحدها: قال ابن‌عبّاس: سبقت لهم السعادة. الثاني: وهم من أجل تلك الخيرات سابقون إلى الجنّة. الثالث: وهم إلى الخيرات سابقون.

قوله تعالى:

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٣﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴿٦٤﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٦﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٧﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٨﴾ ستّ آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه: إنّه ﴿لا نكلّفُ نَفْساً إلاّ وُسعَها﴾ يعني إلّا على قدر طاقتها وقوّتها، ومثله قوله تعالى: ﴿لا يكلّفُ اللهُ نفساً إلاّ وسعها﴾ [1] و«الوسع» الحال الّتي يتّسع بها السبيل إلى الفعل. وقيل: إنّ الوسع دون الطاقة. و«التكليف» تحميل ما فيه المشقّة بالأمر والنهي والإعلام، وهو مأخوذ من الكلفة في الفعل، والله تعالى مكلّف عباده تعريضاً لهم للنفع الّذي لا يحسن الابتداء بمثله، وهو الثواب.

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبّرة في تكليف ما لا يطاق، لأنّه لو كلّف ما لا يطيقه العبد لكان قد كلّفه ما ليس في وسعه، والآية تمنع من ذلك.

(١) البقرة: ٢٨٦.

وقوله: ﴿ولدينا كتابٌ ينطقُ بالحقّ﴾ يريد الكتاب الّذي فيه أعمال العباد مكتوبة من الطاعة والمعصية تكتبه عليه الملائكة الموكّلون به كما قال: ﴿ما يلفِظُ من قولٍ إلّا لديه رقيبٌ عتيدٌ﴾[١] ثمّ أخبر تعالى أنّ ﴿هم لا يظلمون﴾ أي لا يؤاخذون بما لا يفعلونه ولا ينقصون عمّا استحقّوه.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿بل قلوبُهم في غمرةٍ مِنْ هذا﴾ أي في غفلة من هذا اليوم وهذه المجازاة. وقال الحسن: معناه في حيرة. وهذا إخبار منه تعالى بما يكون منهم في المستقبل من الأعمال القبيحة، زائدة على ما ذكره وحكاه أنّه فعلهم ﴿ولَهُم أعمالٌ من دونِ ذلكَ هُمْ لَها عامِلُون﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: قال قتادة وأبو العالية ـ وفي رواية عن مجاهد ـ : إنّ لهم خطايا من دون الحقّ. والثاني: قال الحسن وابن زيد ـ وفي رواية عن مجاهد أيضاً ـ : أعمالاً من دون ما هم عليه لابدّ من أن يعملوها.

وقوله: ﴿حتّى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرُونَ﴾ فالمترف المتقلّب في لين العيش ونعومته، ومنه قوله: ﴿وأترفناهُمْ في الحياةِ الدنيا﴾[٢] و﴿يجأرون﴾ معناه يضجّون، لشدّة العذاب. وقال ابن عبّاس: يستغيثون. وقال مجاهد: كان ذلك بالسيوف يوم بدر، و«الجؤار»: رفع الصوت، كما يجأر الثور، قال الأعشى:

يُراوِحُ من صَلَواتِ المليـ ـكِ طَوْراً سُجوداً وطُوراً جُؤارا[٣]

وقيل: معنى ﴿يجأرون﴾ يصرخون بالتوبة، فيقول الله لهم: ﴿لا تجأرُوا اليومَ﴾ أي لا تصرخوا في هذا اليوم ﴿إنّكم منّا لا تنصرون﴾ بقبول التوبة، ولا لكم من يدفع عنكم ما أفعله من العذاب. ثمّ يقول الله تعالى لهم: ﴿قد

---

(١) ق: ١٨. (٢) المؤمنون: ٣٣.

(٣) كذا نقله عنه الطبري ذيل الآية، وفي الحجريّة: «الرقّ» بدل «السيوف».

كانت آياتي﴾ أي حججي وبراهيني ﴿تُتْلَى عليكم﴾ من القرآن وغيره ﴿فكنتم على أعقابِكم تَنْكِصُون﴾ فالنكص الرجوعَ إلى القهقرى وهو المشي على الأعقاب إلى خلف، وهو أقبح مشية، مثل شبّه الله به أقبح حال في الإعراض عن الداعي إلى الحقّ. وقال سيبويه: لأنّه يمشي ولا يرى ماوراءه، فهو النكوص. وقال مجاهد: ينكصون معناه يستأخرون. وقيل: يدبّرون. وقوله: ﴿مُستَكبرينَ﴾ نصب على الحال، ومعناه تنكصون في حال تكبّركم عن الانقياد لحجج الله والإجابة لأنبيائه. وقال ابن عبّاس ومجاهد والحسن وقتادة والضحّاك: ﴿مستكبرين به﴾ أي بحرم الله أنّه لا يظهر عليكم فيه أحد. وقوله: ﴿سامراً تَهجُرُونَ﴾ فالسامر الّذي يحدث بالسمر ليلاً، ومنه السمرة والسمار، لأنّ جميع ذلك من اللون الّذي بين السواد والبياض. وقيل: السمر ظلّ القمر، ويقال له الفخت، ومعنى ﴿سامراً﴾ أي سمّاراً، فوضع الواحد موضع الجمع لأنّه في موضع المصدر، كما يقال: قوموا قائماً أي قياماً قال الشاعر:

من دونهم إن جئتهم سَمَراً     عَزفُ القِيان ومجلسٌ غَمرُ[1]

وكانوا يسمرون حول الكعبة بالليل. وقيل: إنّما وحّد لأنّه في موضع الوقت، وتقديره: لئلّا تهجرون، و«الهجر» الكلام المرفوض، وهو المهجور منه، لأنّه لا خير فيه. والنائم يهجر في نومه أي يأتي بكلام مخلّط لا فائدة فيه. وفي معنى ﴿تهجُرون﴾ قولان: أحدهما: تهجرون الحقّ بالإعراض عنه، في قول ابن عبّاس. الثاني: تقولون الهجر، وهو السيّء من القول، في قول سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد.

وقرأ نافع وحده ﴿تهجرون﴾ بضمّ التاء أراد من الهجر، وهو الكلام

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٦٠ ونسبه إلى ابن أحمر.

السيّء، الباقون بفتح التاء وضمّ الجيم، على ما فسّرناه، يقال: هجر يهجر هجراً: إذا هذى.

قوله تعالى:

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٩﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٧٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧١﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى منكراً على هؤلاء الكفّار: ﴿أفلم يدّبّروا القولَ﴾ الّذي أتاهم به من القرآن ويتفكّروا فيه، فيعلموا أنّه من قبل الله لعجز الجميع عن الإتيان بمثله. وقوله: ﴿أم جاءَهم ما لم يأتِ آباءَهم الأوّلين﴾ توبيخ لهم على إنكار الدعوة من هذه الجهة، ومع ذلك فقد جاءت الرسل الأُمم قبلهم متواترة، فهو عيب وخطأ من كلّ جهة ﴿أم لم يعرفوا رسولَهُمْ﴾ لكونه غريباً فيهم، فلا يعرفون صدقه، ولا أمانته ﴿فَهُم لَه مُنكِرُونَ﴾ لذلك؟! ثمّ أخبر تعالى أنّ النبيّ ﷺ ﴿جاءَهُمْ بالحقّ﴾ من عند الله ﴿وأكثرُهم﴾ يعني أكثر الناس ﴿للحقّ كارهونَ﴾ أي يكرهونه بمجيئه بما ينافي عادتهم.

قوله تعالى:

وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم ﴿خَرجاً﴾ بلا ألف ﴿فَخَراجُ﴾ بألف، وقرأ حمزة والكسائي ﴿خَراجاً فَخَراجُ﴾ بالألف فيهما، وقرأ ابن عامر

﴿خَرجاً فَخرجُ﴾ بلا ألف فيهما.

معنى قوله: ﴿ولو اتّبع الحقّ أهواءَهُمْ﴾ أنّ الحقّ لمّا كان يدعو إلى الأفعال الحسنة والأهواء تدعو إلى الأفعال القبيحة، فلو اتّبع الحقّ داعي الهوى لدعاه إلى قبيح الأعمال وإلى ما فيه الفساد والاختلاط، ولو جرى الأمر على ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السماواتُ والأرض ومَن فيهنَّ﴾ ووجه فساد العالم بذلك: أنّه يوجب بطلان الأدلّة وامتناع الثقة بالمدلول عليه، وأنّه لا يؤمن وقوع الظلم الّذي لا ينصف منه، وتختلط الأُمور أقبح الاختلاط ولا يوثق بوعد ولا وعيد، ولا يؤمن انقلاب عدل الحكيم. وهذا معنى عجيب. وقال قوم من المفسّرين: إنّ الحقّ ـ في الآية ـ هو الله والتقدير: ولو اتّبع الحقّ ـ أعني الله ـ أهواء هؤلاء الكفّار، وفعل ما يريدونه لفسدت السماوات والأرض. وقال الجبّائي: المعنى لو اتّبع الحق ـ الّذي هو التوحيد ـ أهواءَهم في الإشراك معه معبوداً سواه لوجب أن يكون ذلك المعبود مثلاً له ولصحّ بينهم الممانعة، فيؤدّي ذلك إلى الفساد، كما قال تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلّا اللهُ لفسدتا﴾[(١)] و«الهوى» ميل النفس إلى المشتهى من غير داعي الحقّ[(٢)] كما قال تعالى: ﴿وأمّا مَن خافَ مقامَ ربِّهِ ونهى النَفسَ عن الهوى * فإنّ الجنّة هي المأوى﴾[(٣)] فلا يجوز لأحد أن يفعل شيئاً لأنّه يهواه. ولكن يفعله لأنّه صواب، على أنّه يهواه أو لأنّه يهواه مع أنّه صواب حسن جائز. وقال أبو صالح وابن جريج: الحقّ هو الله.

وقال الجبّائي: معنى ﴿ولو اتّبع الحقُّ أهواءَهم﴾ فيما يعتقدون من الآلهة ﴿لفَسَدَتِ السماوات والأرض﴾ كقوله: ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾.

---

(١) الأنبياء: ٢٢. (٢) كذا في المطبوع، وفي الحجريّة: «من غير داعي الهوى».

(٣) النازعات: ٤٠ ـ ٤١.

وقوله: ﴿بل أتيناهُمْ بذكرِهِمْ فَهُمْ عن ذكرِهم معرِضُونَ﴾ قال ابن عبّاس: معنى الذكر البيان للحقّ. وقال غيره: الذكر الشرف، كقوله: ﴿وإنّه لَذِكرٌ لكَ ولِقَومِكَ﴾ (١) وكلّ ذلك يراد به القرآن.

ثمّ قال: ﴿أمْ تَسألُهُمْ﴾ يا محمّد ﴿خَرجاً﴾ أي أجراً على العمل ـ في قول الحسن ـ وأصل «الخرج» و«الخراج» واحد، وهو الغلّة الّتي تخرج على سبيل الوظيفة منه. ومنه خراج الأرض، وهما مصدران لا يجمعان.

ثمّ قال ﴿فَخراجُ ربِّكَ﴾ أي أجر ربّك ﴿خيرٌ وهو خيرُ الرازِقينَ﴾ يعني الله خير من يرزق. وفي ذلك دلالة على أنّ غير الله قد يرزق بإذنه، ولولا ذلك لم يجز خير الرازقين.

ثمّ قال لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله: ﴿وإنّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَتَدعُوهُمْ﴾ [أي] هؤلاء الكفّار ﴿إلى صراطٍ مُستَقيم﴾ من التوحيد وإخلاص العبادة والعمل بالشريعة ﴿وإنّ الّذينَ لا يؤمنونَ بالآخرة﴾ يعني من لا يصدّقون بالبعث يوم القيامة ﴿عن الصراط﴾ صراط الحقّ ﴿لناكِبونَ﴾ أي عادلون عن دين الحقّ. وقال الجبّائي: معناه لناكبون في الآخرة عن طريق الجنّة، بأخذهم يمنة ويسرة إلى النار.

ثمّ قال تعالى: ﴿ولو رحمناهم﴾ في الآخرة ورددناهم إلى دار الدنيا وكلّفناهم فيها ﴿للجّوا في طُغيانِهم يَعمهونَ﴾ كما قال: ﴿ولو رُدُّوا لعادُوا لِما نُهُوا عَنهُ﴾ (٢) وقال ابن جريج: يريد في الدنيا أي لو أنّا رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرّ أو جوع ونحوه ﴿للجّوا في طُغيانِهمْ﴾ أي في غوايتهم يتردّدون.

---

(١) الزخرف: ٤٤.

(٢) الأنعام: ٢٨.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِالعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٨٠﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨١﴾

خمس آيات.

يقول الله تعالى: إنّا أخذنا هؤلاء الكفّار الّذين ذكرناهم بالعذاب. وقيل: هو الجدب وضيق الرزق، والقتل بالسيف ﴿فما استَكانُوا لِرَبِّهمْ﴾ أي لم يذلّوا عند هذه الشدائد، ولم يتضرّعوا إليه، فيطلبوا كشف البلاء منه تعالى عنهم بالاستكانة له. و«الاستكانة» طلب السكون خوفا من السطوة، يقال: استكان الرجل استكانة إذا ذلّ عند الشدّة.

وقوله: ﴿حتّى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذابٍ شديدٍ إذا هُمْ فيه مُبلِسُونَ﴾ فالفتح فرج الباب بطريق يمكن السلوك فيه، فكأنّه فتح عليهم باباً أتاهم منه العذاب. وقيل: إنّ ذلك حين دعا النبيّ ﷺ فقال: «اللّهمّ سنين كسني يوسف»(١) فجاعوا حتّى أكلوا العلهز وهو الوبر بالدم في قول مجاهد. وقال ابن عبّاس: هو القتل يوم بدر. وقال الجبّائي: فتحنا عليهم باباً من عذاب جهنّم في الآخرة. و«الإبلاس» الحيرة لليأس من الرحمة، يقال: أبلس فلان إبلاساً: إذا بهت عند انقطاع الحجّة.

وقوله: ﴿وهو الّذي أنشأ﴾ كُمْ أي أوجدكم واخترعكم من غير سببٍ وجَعلَ ﴿لكم السمعَ والأبصارَ﴾ أي وخلق لكم السمع تسمعون به الأصوات والأبصار تبصرون بها المرئيّات، وخلق لكم ﴿الأفئدة﴾ وهو جمع فؤاد،

(١) صحيح البخاري ٤: ٥٣.

وهو القلب ﴿قليلاً ما تشكرُونَ﴾ نصب «قليلاً» على المصدر و«ما» صلة، وتقديره: تشكرون قليلاً لهذه النعم الّتي أنعم بها عليكم.

ثمّ قال: ﴿وهو الّذي ذرأكم﴾ أي خلقكم وأوجدكم ﴿في الأرض وإليه تُحشَرُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم إمّا الثواب أو العقاب. والمراد إلى الموضع الّذي يختصّ تعالى بالتصرّف فيه، ولا يبقى لأحد هناك ملك. وقال الفرّاء: وهو الّذي خلق السماوات والأرض أي اخترعهما وأنشأهما، وقدّرهما على ما فيهما من أنواع المخلوقات، ليدلّ بها على توحيده وألّا إله سواه ﴿وله اختلاف الليلِ والنهارِ﴾ أي له مرورهما يوماً بعد ليلة وليلة بعد يوم، كما يقال إذا أتى الرجل الدار مرّة بعد مرّة: هو يختلف إلى هذه الدار. وقيل: معناه وله تدبيرهما بالزيادة والنقصان. ثمّ قال: ﴿أفلا تعقلُون﴾ فتفكّرون في جميع ذلك، فتعلمون أنّه لا يستحقّ الإلهيّة سواه، ولا تحسن العبادة إلّا له.

قوله تعالى:

بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴿٨٢﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴿٨٣﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴿٨٤﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴿٨٦﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴿٨٧﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴿٨٨﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٨٩﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴿٩٠﴾ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴿٩١﴾ عشر آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو ﴿سيقولُونَ اللهُ﴾ في الأخيرتين، الباقون ﴿لله﴾ بغير ألف، ولا خلاف في الأُولى أنّها بغير ألف.

أخبر الله تعالى حاكياً عن كفّار من عاصر النبيّ ﷺ أنّهم لم يؤمنوا بالله ولم يصدّقوا رسوله في إخلاص العبادة له تعالى ﴿بل قالوا مِثْلَ ما قالَ الأوّلُونَ﴾ أي مثل الّذي قال الكفّار الأوّلون: من إنكار البعث والنشور والحساب والجنّة والنار، فأقوال هؤلاء مثل أقوال أُولئك.

وإنّما دخلت عليهم الشبهة في إنكار البعث، لأنّهم لم يشاهدوا ميّتاً عاش، ولا جرت به العادة، وشاهدوا النشأة الأُولى من ميلاد من لم يكن موجوداً، ولو فكّروا في أنّ النشأة الأُولى أعظم منه لعلموا أنّ من أنكره فقد جهل جهلاً عظيماً، وذهب عن الصواب ذهاباً بعيداً، لأنّ من قدر على اختراع الأجسام لا من شيء قدر على إعادتها إلى الصفة الّتي كانت عليها مع وجودها.

ثمّ حكى ما قال لكلّ[1] منهم، فإنّهم قالوا منكرين: ﴿أإذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً وعِظاماً أئنّا لمبعُوثُونَ﴾ أي كيف نصير أحياء بعد أن صرنا تراباً ورمماً وعظاماً نخرة؟! ثمّ قالوا: ﴿لَقَدْ وعدنا﴾ بهذا الوعد ﴿نَحنُ وآباؤنا﴾ من قبل هذا الموعد فلم نر لذلك صحّةً ولا لهذا الوعد صدقاً، وليس ﴿هذا إلّا أساطيرُ الأوّلين﴾ أي ما سطّره الأوّلون ممّا لا حقيقة له، وإنّما يجري مجرى حديث السمر الّذي يكتب للإطراف به. و«الأساطير» هي الأحاديث المسطّرة في الكتب واحدها أُسطورة. فقال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المنكرين للبعث والنشور: ﴿لمن الأرض ومن فيها﴾ أي من يملك الأرض ويملك من فيها من العقلاء؟

[وقوله: ﴿إنْ كنتم تَعلَمُونَ﴾ موافقة لهم في دعواهم ثمّ قال في الجواب: ﴿سَيقُولُونَ لله﴾ أي سيقولون إنّ السماوات والأرض ومن فيهما لله، لأنّهم

(١) كذا في الحجريّة، وفي المطبوع: كلّ.

لم يكونوا يجحدون الله وإنّما كذّبوا الرسول. وقوله: ﴿قُلْ أفلا تَذَكَّرونَ﴾ أي أفلا تتفكّرون في مالكها، وتتذكّرون قدرته وأنّه لا يعجزه شيء عن إعادتكم بعد الموت مرّة ثانية كما أنشأكم أوّل مرّة][1].

ثمّ قال له: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم أيضاً: ﴿مَنْ ربّ السماوات السبعِ﴾ أي من مالكها والمتصرّف فيها؟ ولولاه لبطل كلّ شيء سواه، لأنّه لا يصحّ إلّا مقدوره أو مقدور مقدوره، فقوام كلّ ذلك به، ولا تستغني عنه طرفة عين لأنّها ترجع إلى تدبيره على ما يشاء ـ عزّ وجلّ ـ وكذلك هو تعالى ﴿ربّ العرش العظيم﴾ وإنّما وجب أن يكون ربّ السماوات والعرش من حيث كانت هذه الأشياء جميعها محدثة، لابدّ لها من محدث اخترعها وأنشأها ولابدّ لها من مدبّر يدبّرها ويمسكها ويصرفها على ما تتصرّف عليه، ولابدّ أن يختصّ بصفات: من كونه قادراً عالماً لنفسه ليتأتّى منه جميع ذلك على ما دبّره، ولولا كونه على هذه الصفات لما صحّ ذلك. ثمّ أخبر أنّهم يقولون في الجواب عن ذلك: ربّ السماوات وربّ العرش هو ﴿الله﴾ ومن قرأ بلا ألف فمعناه أنّهم يقولون: إنّها ﴿للهِ﴾ فعند ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أفلا تتّقون﴾ الله، ولا تخافون عقابه على جحد توحيده والإشراك في عبادته؟! ثمّ أمره بأن يقول لهم أيضاً: ﴿من بيدِهِ ملكوتُ كلّ شيءٍ﴾ و«الملكوت» عظم الملك ووزنه «فعلوت» وهو من صفات المبالغة نحو «جبروت» ومن كلامهم «رهبوت خير من رحموت» أي ترهب خير من أن ترحم. وقال مجاهد: ملكوت كلّ شيء خزائن كلّ شيء والمعنى أنّه قادر على كلّ شيء إذا صحّ أن يكون مقدوراً له. وقوله: ﴿وهو يُجيرُ﴾ معناه أنه يعقد المنع من السوء، لما يشاء ﴿ولا يُجارُ عليه﴾ أي لا يمكن منع من أراده بسوء منه.

---

(١) مابين المعقوفتين سقط من الحجريّة، أثبتناه من المطبوع.

وقيل: ﴿هو يُجيرُ﴾ من العذاب ﴿ولا يُجارُ عَليهِ﴾ منه. و«الإجارة» الإعاذة، والجار المجير المعيذ، وهو الّذي يمنعك ويؤمنك، ومن استجار بالله أعاذه، ومن أعاذه الله لم يصل إليه أحد. فإنّهم ﴿سيَقُولُونَ للهِ﴾ الّذي له ملكوت كلّ شيء فـ﴿قل﴾ لهم عند ذلك: ﴿أنّى تُسحَرُونَ﴾ ومعناه كيف يخيل إليكم الحقّ باطلاً والصحيح فاسداً مع وضوح الحقّ وتميّزه من الباطل. ومن قرأ﴿الله﴾ بإثبات الألف فلأنّه يطابق السؤال في قوله: ﴿مَنْ ربُّ السماواتِ السبعِ و﴾ ربُّ ﴿الأرضِ... ومَن بيدِهِ ملكوتُ كلِّ شَيءٍ﴾ لأنّ جواب ذلك على اللفظ أن يقولوا: ﴿الله﴾. ومن قرأ ﴿لله﴾ بإسقاط الألف حمله على المعنى دون اللفظ، كقول القائل لمملوك: من مولاك؟ فيقول: أنا لفلانٍ، وأنشد الفرّاء لبعض بني عامر:

وأعلمُ أنّني سأكون رَمْساً إذا سارَ النَواعِجُ لا يَسيرْ
فقال السائلونَ لمن حفرتم فقال المخبرونَ لهم: وزيرُ[١]

لأنّه بمنزلة من قال: من الميّت؟ فقالوا له: وزير، وذكر أنّها في مصاحف أهل الأمصار بغير ألف، ومصحف أهل البصرة فإنّها بألف. فأمّا الأُولى فلا خلاف أنّها بلا ألف لمطابقة السؤال في قوله: ﴿قلْ لمَنِ الأرضُ﴾ والجواب يقتضي أن يقولوا: لله. وإنّما أخبر الله تعالى عنهم بأنّهم يقولون في جواب السؤال: ﴿لله﴾ لأنّهم لو أحالوا على غير الله في أنّه مالك السماوات والأرض، وأنّ غيره بيده ملكوت كلّ شيء وأنّ غيره ربّ السماوات السبع وربّ العرش العظيم لظهر كذبهم، ولعلم كلّ أحد بطلان قولهم، لظهور الأمر في ذلك وقربه من دلائل العقول.

وقوله: ﴿فأنّى تُسحَرُونَ﴾ أي كيف تعمهون عن هذا وتصدّون عنه، من

(١) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٢٤٠، وفيه «النواجع» بدل «النواعج».

قولهم: سحرت أعيننا عن ذلك فلم نبصره. وقيل معنى ذلك: فأنّى تخدعون، كقول امرئ القيس:

ونُسْحَرُ بالطَعامِ وبالشَرابِ[1]

أي نخدع. وقيل: معناه أنّى تصرفون، يقال: ما سحرك عن هذا الأمر أي ما صرفك عنه.

ثمّ أخبر تعالى أنّه أتى هؤلاء الكفّار بالحقّ الواضح: من توحيد الله وصفاته وخلع الأنداد دونه. وأنّه يبعث الخلق بعد موتهم، ويجازيهم على طاعاتهم بالثواب وعلى معاصيهم بالعقاب، وأنّ الكفّار كاذبون فيما يخبرون بخلافه. قال المبرّد: معنى «أنّى» كيف ومن أين.

قوله تعالى:

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩٢﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٣﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٤﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٦﴾ خمس آيات بلاخلاف.

قرأ ﴿عالم الغيب﴾ بالجرّ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم، الباقون بالرفع. من جرّ ردّه على قوله: ﴿سُبْحانَ اللهِ... عالَمِ الغيب﴾ فجعله صفة لله. ومن رفعه فعلى تقدير: هو عالم الغيب.

يقول الله تعالى مخبراً: أنّه لم يتّخذ ولداً أي لم يجعل ولد غيره ولد نفسه، لاستحالة ذلك عليه، لأنّه محال أن يكون له ولد، فلا يجوز التشبيه بما هو مستحيل ممتنع إلّا على النفي والتبعيد.

واتّخاذ الولد: أن يجعل الجاعل ولد غيره يقوم مقام ولده لو كان له.

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٧٢، وصدره: أرَانا موضعين لأمر غيبٍ.

وكذلك التبنّي إنّما هو جعل الجاعل ابن غيره يقوم مقام ابنه الّذي يصحّ أن يكون ولداً له، ولذلك لا يقال: تبنّى شابّ شيخاً، ولا تبنّى الإنسان بهيمة، لما استحال أن يكون ذلك ولداً له. ولا يجوز أن يقال: اتّخذه ولداً إذا اختصّه بضرب من المحبّة، لأنّ في ذلك إخراج الشيء عن حقيقته كما أنّ تسمية ما ليس بطويل عريض عميق جسماً إخراج له عن حقيقته.

ثمّ أخبر أنّه كما لم يتّخذ ولداً لم يكن معه إله. وهذا جواب محذوفٍ ـ وتقديره: لو كان معه إله لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ـ فيه إلزام لمن يعبد الأصنام. وقوله: ﴿لَو كانَ فيهما آلهةٌ إلّا اللهُ لَفَسدَتَا﴾ [1] دليل عامّ في نفي مساوٍ للقديم فيما يقدر عليه من جميع الأجناس والمعاني. ومعنى ﴿إذا لَذَهبَ كلُّ إلَهٍ بما خَلقَ﴾ أي لانفرد به ولحوّله من خلق غيره، لأنّه لا يرضى أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره.

فإن قيل: لم لا يكون كلّ واحد منهم حكيماً، فلا يستعلي على حكيم غيره؟

قلنا: لأنّه إذا كان جسماً وكلّ جسم محتاج، جاز منه أن يستعلي لحاجته، بل لابدّ من أن يقع ذلك منه، لأنّه ليس له مدبّر يلطف له حتّى يمتنع من القبيح الّذي يحتاج إليه، كما يلطف الله لملائكته وأنبيائه بما في معلومه أنّهم يصلحون به.

ثمّ نزّه نفسه تعالى عن اتّخاذ الولد وأن يكون معه إله غيره، فقال: ﴿سُبْحانَ اللهِ عمّا يَصفوُنَ﴾ من الإشراك معه واتّخاذ الولد له. وقوله: ﴿عالمِ الغَيبِ والشَهادَةِ﴾ فلذلك يأتي بالحقّ وهم يأتون بالجهل. ويحتمل أن يكون معناه أنّ عالم الغيب والشهادة لا يكون له شريك، لأنّه الأعلى من

---

(١) الأنبياء: ٢٢.

كلّ شيء في صفته. قال الحسن: هو ردّ لقول المشركين: الملائكة بنات الله. وقال الجبّائي: في الآية دلالة على أنّه يجوز أن يدعو الإنسان بمايعلم أنّه يكون لا محالة وأنّ الله لابدّ أن يفعله.

ثمّ قال تعالى: ﴿فتعالى عمّا يُشرِكُونَ﴾ أي تعاظم الله عن أن يشرك هؤلاء الكفّار معه من الأصنام والأوثان. ثمّ قال لنبيّهﷺ: ﴿قُلْ رَبِّ إمّا تُرِيَنّي ما يُوعَدُونَ﴾ ومعناه إن أريتني ما وعد هؤلاء الكفّار به من العذاب والإهلاك فقل: يا ﴿ربِّ فلا تَجعَلني في القومِ الظالِمينَ﴾ أي لا تجعلني في جملة من شملهم العذاب بظلمهم، وتقديره: إن أنزلت بهم النقمة فاجعلني خارجاً منهم، فقال الله تعالى: ﴿وإنّا على أن نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لقادِرُونَ﴾ معناه إنّ ما وعدتهم به من العذاب والإهلاك على كفرهم قادر عليه، لكنّي لا أفعله لما فيه من المصلحة وأؤخّره إلى يوم القيامة.

قوله تعالى:

ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٧﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٨﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿١٠٠﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠١﴾ خمس آيات بلا خلاف.

أمر الله تعالى نبيّهﷺ أن يدفع السيّئة من الكفّار إليه بالّتي هي أحسن منها، ومعنى ذلك أنّهم إذا ذكروا المنكر من القول الشرك ذكرت الحجّة في مقابلته وذكرت الموعظة الّتي تصرف عنه إلى ضدّه من الحقّ، على وجه التلطّف في الدعاء إليه والحثّ عليه، كقول القائل: هذا لا يجوز، وهذا خطأ وعدول عن حسن، وأحسن منه أن يوصل بذكر الحجّة والموعظة كما بيّنّا. وقال الحسن: ﴿بالّتي هي أحسَنُ﴾ الإغضاء والصفح. وقيل: هو

خطاب للنبيّ ﷺ والمراد به الأُمّة، والمعنى ادفع الأفعال السيّئة بالأفعال الحسنة الّتي ذكرها.

وقوله: ﴿نَحْنُ أعلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ معناه نحن أعلم منهم بما يستحقّون به من الجزاء في الوقت الّذي يصلح الأخذ بالعقوبة إذا انقضى الأجل المضروب بالإمهال.

ثمّ قال له: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد وادع فقل: يا ﴿رَبِّ أعوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَياطِينَ﴾ أي نزغاتهم ووساوسهم، فمعنى «أعوذ» أعتصم بالله من شرّ الشياطين في كلّ ما يخاف من شرّه. والمعاذة هي الّتي يستدفع بها الشرّ، والهمزات دفعهم بالإغواء إلى المعاصي، والهمز شدّة الدفع، ومنه الهمزة: الحرف الّذي يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد. و«العياذ» طلب الاعتصام من الشرّ ﴿وأعُوذُبِكَ رَبِّ أن يَحضُرُونِ﴾ هؤلاء الشياطين فيوسوسوني ويغووني عن الحقّ. وقوله: ﴿حتّى إذا جاءَ أحَدَهُمْ الموتُ قال رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ إخبار من الله تعالى عن أحوال هؤلاء الكفّار، وأنّه إذا حضر أحدهم الموت، وأشرفوا عليه سألوا الله عند ذلك وقالوا: يا رَبِّ ارجعون، أي ردّنا إلى دار التكليف لعلّنا نعمل صالحاً من الطاعات ونتلافى ما تركناه.

وإنّما قال: ﴿ربِّ ارْجِعُونِ﴾ على لفظ الجمع لأحد أمرين: أحدهما: أنّهم استعانوا أوّلاً بالله، ثمّ رجعوا إلى مسألة الملائكة بالرجوع إلى الله، في رواية ابن جريج. والثاني: أنّه جرى على تعظيم الذكر في خطاب الواحد بلفظ الجمع لعظم القدر كما يقول ذلك المتكلّم، قال الله تعالى: ﴿إنّا نحنُ نزّلْنا الذِكْر وإنّا لَهُ لحافِظُونَ﴾ [١] وقال: ﴿ولَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ﴾ [٢] وما جرى مجراه. وروى النضر بن شميل [٣] قال: سئل الخليل عن قوله: ﴿ربِّ

(١ و٢) الحجر: ٩، ٢٦.

(٣) في الحجريّة: «سميل»، الصواب ما أثبتناه.

ارجِعُونِ﴾ ففكّر ثمّ قال: سألتموني عن شيء لا احسنه ولا أعرف معناه، والله أعلم، لأنّه جمع، فاستحسن الناس منه ذلك.

فقال الله تعالى في الجواب عن سؤالهم: ﴿كَلَّا﴾ وهي كلمة ردع وزجر أي حقّاً ﴿إنّها كَلِمةٌ﴾ فالكناية عن الكلمة والتقدير: إن الكلمة الّتي قالوها ﴿كَلِمةٌ هُوَ قائِلُها﴾ بلسانه. وليس لها حقيقة، كما قال: ﴿ولو رُدُّوا لعَادُوا لِما نُهُوا عنه﴾[١].

وقوله: ﴿ومِنْ ورائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَومِ يُبْعثُونَ﴾ فالبرزخ الحاجز، وهاهنا هو الحاجز بين الموت والبعث، في قول ابن زيد. وقال مجاهد: هو الحاجز بين الموت والرجوع إلى الدنيا. وقال الضحّاك: هو الحاجز بين الدنيا والآخرة. «البرزخ» الإمهال. وقيل: كلّ فصل بين شيئين برزخ. وفي الآية دلالة على أنّ أحداً لا يموت حتّى يعرف اضطراراً منزلته عند الله وأنّه من أهل الثواب أو العقاب، في قول الجبّائي وغيره. وفيها دلالة أيضاً على أنّهم في حال التكليف يقدرون على الطاعة بخلاف ما تقول المجبّرة. ومعنى ﴿ومن ورائِهِم﴾ أي أمامهم وقدّامهم، وقال الشاعر:

أيَرجُو بنو مَرْوانَ سمعي وطاعتي    وقومي تَميمٌ والفلاةُ ورائياً[٢]

ومعنى ﴿يُبعثُونَ﴾ يوم يحشرون للحساب والمجازاة، وأُضيف إلى الفعل، لأنّ ظرف الزمان يضاف إلى الأفعال.

قوله تعالى:

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ

(١) الأنعام: ٢٨.
(٢) أنشده المبرّد في الكامل ٢: ٦٢٨، ونسبه إلى سوّار بن المُضَرَّب.

ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴿١٠٦﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول تعالى: إذا نفخ في الصور ليوم الحشر والجزاء، ومعنى نفخ الصور هو علامة لوقت إعادة الخلق. وفي تصوّرهم الإخبار عن تلك الحال صلاح لهم في الدنيا، لأنّهم على ما اعتادوه في الدنيا من بوق الرحيل والقدوم. وقال الحسن: الصور جمع صورة أي إذا نفخ فيها الأرواح وأُعيدت أحياءً. وقال قوم: هو قرن ينفخ فيه إسرافيل بالصوت العظيم الهائل، على ما وصفه الله.

وقوله: ﴿فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتَساءَلُونَ﴾ إخبار منه تعالى عن هول ذلك اليوم، فإنّهم لا يتواصلون هناك بالأنساب، ولا يحنّون إليها، لشغل كلّ إنسان بنفسه. وقيل معناه: أنّهم لا يتناسبون في ذلك اليوم، ليعرف بعضهم بعضاً من أجل شغله بنفسه عن غيره. وقال الحسن: معناه لا أنساب بينهم يتعاطفون بها وإن كانت المعرفة بأنسابهم حاصلة، بدلالة قوله: ﴿يومَ يفِرُّ المَرْءُ من أخيهِ * وأُمِّهِ وأبيهِ * وصاحبَتِهِ وبَنِيهِ﴾[1] فأثبت أنّهم يعرفون أقاربهم وأنّ هربهم منهم لاشتغالهم بنفوسهم. و«النسب» هو إضافة إلى قرابة في الولادة.

وقوله: ﴿ولا يتساءَلُونَ﴾ معناه لا يسأل بعضهم بعضاً عن خبره وحاله كما كانوا في الدنيا، لشغل كلّ واحد منهم بنفسه. وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه من دونه شيئاً. ولا يناقض ذلك قوله: ﴿وأقبَلَ بَعضُهُمْ على بَعْضٍ يَتساءَلُونَ﴾[2] لأنّ هناك مواطن، فمنها ما يشغلهم عن عظيم الأمر الّذي ورد عليهم عن المسألة، ومنها حال يفيقون فيها فيتساءلون.

وقال ابن عبّاس: قوله: ﴿فإذا نُفِخَ في الصُورِ﴾ يعني النفخة الأُولى الّتي

---

(١) عبس: ٣٤ ـ ٣٦. (٢) الصافّات: ٢٧.

يهلك عندها الخلق، فلا أحد يبقى، ولا نسب هناك ولا تساؤل. وقوله: ﴿وأقبلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءَلُونَ﴾ فذلك عند دخولهم الجنّة، فإنّه يسأل بعضهم بعضاً، وهو قول السدّي.

وقوله: ﴿فَمنْ ثَقُلَتْ موازِينُهُ فأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ إخبار منه تعالى أنّ من عظمت طاعاته وسلمت من الإحباط، في قول من يقول بذلك. ومن لا يقول بالإحباط فمعناه عندهم: أنّ من كثرت طاعاته وهو غير مستحقّ للعقاب، فإنّ أُولئك هم المفلحون الفائزون. ﴿ومن خَفّتْ موازِينُهُ﴾ بأن يكون أُحبطت طاعاته، لكثرة معاصيه. ومن لا يقول بالإحباط قال: معناه من لم يكن معه شيء من الطاعات وإنّما معهم المعاصي، لأنّ الميزان إذا لم‌يكن فيه شيء يوصف بالخفّة، كما يوصف بالخفّة إذا كان فيه شيء يسير في مقابلته ما هو أضعافه، فإنّ من هذه صورته ﴿فأُولئكَ الّذين خَسِرُوا أنفُسَهُمْ﴾ لأنّهم أهلكوها بالمعاصي الّتي استحقّوا بها العقاب الدائم، وهم ﴿في جهنّم﴾ مؤبّدون ﴿خالِدُونَ﴾.

وقال الحسن والجبّائي وغيرهما: هناك ميزان له كفّتان ولسان، واختلفوا: فمنهم من قال: يوزن بها صحف الأعمال. وقال بعضهم: يظهر في إحدى الكفّتين النور وفي الأُخرى الظلمة، فأيّهما رجح تبيّنت الملائكة المستحقّ للثواب من المستحقّ للعقاب. وقال قتادة والبلخي: الميزان عبارة عن معادلة الأعمال بالحقّ، وبيان أنّه ليس هناك مجازفة ولا تفريط.

ثمّ أخبر تعالى بأنّ النار الّتي يجعلون فيها ﴿تَلفَحُ وُجُوهَهُمْ﴾ وأنّهم فيها ﴿كالِحُونَ﴾ يقال: لفح ونفح بمعنى واحد، غير أنّ اللفح أعظم من النفح وأشدّ تأثيراً، وهو ضرب من السموم للوجه و«النفح» ضرب الريح للوجه،

و«الكلوح» تقلّص الشفتين عن الأسنان حتّى تبدو الأسنان، قال الأعشى:

وَلَـهُ المُـقْدَمُ لا مـثلَ له ساعةَ الشَدْقِ عن النابِ كَـلَحْ[1]

قوله تعالى:

قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٧﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٠﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١١﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿شقاوتنا﴾ بإثبات الألف. الباقون ﴿شقوتنا﴾ وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ونافع ﴿سخريّاً﴾ بضمّ السين، الباقون بكسرها.

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفّار أنّهم يعترفون على نفوسهم بالخطأ، ويقولون: ﴿ربّنا غَلَبتْ علينا شِقوَتُنا﴾ و«الشقوة» المضرّة اللاحقة في العاقبة، و«السعادة» المنفعة اللاحقة في العاقبة، وقد يقال لمن حصل في الدنيا على مضرّة فادحة: شقي من حيث إنّه يؤدّي إلى أمر شديد، فالمعاصي شقوة، تؤدّي إلى العقاب الدائم. ويجوز أن يكون المراد بالشقوة العذاب الّذي يفعل الله بهم ويغلب عليهم.

وقوله: ﴿وكنّا قوماً ضالّينَ﴾ اعتراف منهم على نفوسهم أنّهم ضلّوا عن الحقّ في الدنيا وزمان التكليف، ويسألون الله تعالى فيقولون: ﴿ربّنا أخرِجْنا مِنها﴾ أي من هذه النار ﴿فإنْ عُدنا فإنّا ظالِمُونَ﴾ ويجوز أن يكونوا لو أُخرجوا إلى دار التكليف لما عادوا، لأنّ الشهوة العاجلة والاغترار بالإمهال يعود إليهم فلا يكونون ملجئين. وقد قال الله تعالى: ﴿ولو رُدُّوا

(١) ديوان الأعشى: ٤٠، وفيه: «في الحرب إذا» بدل «لا مثل له».

لعادُوا لما نُهُوا عَنهُ وإنّهم لَكاذِبُونَ﴾ [١].

وقال الحسن: هو آخر كلام يتكلّمون به أهل النار، فيقول الله تعالى لهم في جوابهم: ﴿اخسَئُوا فيها﴾ يعني في النار ﴿ولا تُكَلِّمُونِ﴾ أي ابعدوا بعد الكلب. وإذا قيل للكلب: اخسأ، فهو زجر بمعنى ابعد بعد غيرك من الكلاب، وإذا خوطب به إنسان فهو إهانة له، ولا يكون ذلك إلّا عقوبة، وخسأت فلاناً أخسأه خسأً، فهو خاسئ إذا أبعدته بمكروه، ومنه قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾ [٢].

وقوله: ﴿ولا تُكَلِّمُونِ﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: أنّ ذلك على وجه الغضب اللازم لهم، فذكر ذلك ليدلّ على هذا المعنى، لأنّ من لا يكلّم إهانة له وغضباً، فقد بلغ به الغاية في الإذلال.

والثاني: ولا تكلّمون في رفع العذاب [عنكم] فإنّي لا أرفعه عنكم ولا افترّه، وهو على صيغة النهي وليس بنهي.

ثمّ يقول الله تعالى لهؤلاء الكفّار على وجه التهجين لهم والتوبيخ: ﴿إنّه كان فَرِيقٌ من عِبادِي﴾ يعني المؤمنين في دار الدنيا ﴿يَقُولُونَ ربَّنا آمنّا فاغفِرْ لَنا وارحَمنا وأنتَ خَيرُ الراحِمينَ﴾ أي يدعون بهذه الدعوات عبادةً لله وطلباً لما عنده من الثواب ﴿فاتّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أنتم يا معشر الكفّار ﴿سِخْرِيّاً﴾ أي كنتم تستهزؤون بهم وتسخرون منهم. وقيل: «السخري» بضمّ السين من التسخير و«السخري» بكسر السين من الهزء. وقيل: هما لغتان.

وقوله: ﴿حتّى أنسوكُمْ ذِكْرِي﴾ معناه لتشاغلكم بالسخريّة نسيتم ذكري ﴿وكُنتُمْ منهم تَضحَكُونَ﴾ فلذلك نسب إليهم أنّهم أنسوهم ذكر الله، لما كان بسببهم، والاشتغال بإغوائهم نسوا ذكر الله.

---

(١) الأنعام: ٢٨. (٢) البقرة: ٦٥.

قوله تعالى:

إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١٢﴾ قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٤﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعلَمُونَ ﴿١١٥﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٦﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٧﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٨﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٩﴾ ثمان آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي وخارجة عن نافع ﴿إنّهم هُمُ الفائِزُونَ﴾ بكسر الهمزة، الباقون بفتحها، وقرأ ابن كثير ﴿قُلْ كَمْ لَبثتُم﴾ على الأمر، الباقون ﴿قال كم لَبِثتُم﴾ على الخبر، وقرأ حمزة والكسائي ﴿قُلْ﴾ فيهما على الأمر، الباقون ﴿قال﴾ فيهما على الخبر، وقرأ ﴿تَرجِعونَ﴾ بفتح التاء وكسر الجيم حمزة والكسائي، الباقون بضمّ التاء وفتح الجيم. وقرأ ﴿تعاليَ﴾ بفتح الياء ابن كثير ونافع وأبوعمرو، الباقون بالإسكان.

أخبر الله تعالى ﴿إنّي جَزَيتهُمُ اليَومَ﴾ يعني المؤمنين الّذين سخر منهم الكفّار في دار التكليف، وأُكافيهم على صبرهم ومضضهم في جنب الله على أقوال الكفّار وهزؤهم بهم بـ﴿أنّهم هُمُ الفائِزُونَ﴾ وحذف الباء ونصب الهمزة. وقيل: إنّها في موضع جرّ، وتقديره: جزيتهم بفوزهم الجنّة. وقيل: تقديره: لأنّهم هم الفائزون. ومن خفض الهمزة فاستأنف.

فالجزاء مقابلة العمل بما يستحقّ عليه من ثواب أو عقاب كما يقال: الناس مجزيّون بأعمالهم إن خيراً فخيراً، وإن شرّاً فشرّاً. و«الصبر» حبس النفس عمّا تنازع إليه ممّا لا يحسن، أوليس بأولى، لأنّ الصبر طاعة الله لما وعد عليه من الجزاء، والطاعة قد تكون فرضاً وقد تكون نفلاً. وقوله:

﴿اليَومَ﴾ يريد به أيّام الجزاء لا يوماً بعينه، لأنّ اليوم هو ما بين طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، وليس المراد في الآية ذلك.

﴿قال كَمْ لَبِثْتُم في الأرضِ عَدَد سِنين﴾ فمن قرأ ﴿قالَ﴾ فمعناه قال الله لهم: كم لبثتم، ومن قرأ ﴿قُلْ﴾ معناه قل لهم يا محمّد. و«اللبث» هو المكث، وهو حصول الشيء على الحال أكثر من وقت واحد. والثابت هو الكائن على الصفة، على مرور الأوقات. و«العدد» عقد يظهر به مقدار المعدود، يقال: عدّه يعدّه عدّاً وعدداً، فهو عادٍ. و«الحساب» هو إخراج المقدار في الكميّة وهي العدّة.

وهذا السؤال لهم على وجه التوبيخ لإنكارهم البعث والنشور، فيقول الله [لهم] إذا بعثهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُم في الأرض عدد سنين﴾ أي أين ما كنتم تنكرون من إجابة الرسل وما جاءت به وتكذبون فيه.

وقوله: ﴿قالُوا لَبِثنا يَوماً أو بَعضَ يومٍ فَسْأَلِ العادِّينَ﴾ قال مجاهد: معناه فسأل العادّين من الملائكة لأنّهم يحصون أعمال العباد. وقال قتادة: العادّين هم الحسّاب الّذين يعدّون الشهور والسنين، ولا يدلّ ذلك على بطلان عذاب القبر، لأنّهم لم يكونوا يعذّبون كاملي العقول، وقد صحّ عذاب القبر بتضافر الأخبار عن النبيّ ﷺ وإجماع الأُمّة عليه ـ ذكره الرماني ـ ولا يحتاج إلى هذا، لأنّه لا يجوز أن يعاقب الله العصاة إلّا وهم كاملوا العقول، ليعلموا أنّ ذلك واصل إليهم على وجه الاستحقاق.

ووجه إخبارهم بيوم أو بعض يوم هو الإخبار عن قِصَر المدّة، وقلّته لما مضى، لسرعة حصولهم فيما توعّدهم الله، فيقول الله تعالى في الجواب: ﴿إن لَبِثتُمْ إلّا قليلاً﴾ أي لم تلبثوا إلّا قليلاً، والمراد ما قلناه من قصر المدّة

كما قال: ﴿اقتَرَبَ للناسِ حِسابُهُمْ﴾ [١] وكما قال: ﴿اقتَرَبَتِ الساعَةُ﴾ [٢] وكما قال: ﴿وما أمرُ الساعَةِ إلّا كَلَمْحِ البَصر أوْ هُوَ أقرَبُ﴾ [٣].

وقال الحسن: معناه ﴿إن لَبِثتمُ إلّا قليلاً﴾ في طول لبثكم في النار، والقلّة والكثرة يتغيّران بالإضافة، فقد يكون الشيء قليلاً بالإضافة إلى ما هو أكثر منه، ويكون كثيراً بالإضافة إلى ما هو أقلّ منه ﴿لو أنّكمْ كُنتُمْ تَعلَمُونَ﴾ صحّة ما أخبرناكم به.

ثمّ قال لهم: ﴿أفَحَسِبْتُمْ﴾ معاشر الجاحدين للبعث والنشور ﴿أنّما خَلَقناكُمْ عَبَثاً﴾ لا لغرض؟! أي ظننتم، و«الحسبان» و«الظنّ» واحد، أي ظننتم أنّا خلقناكم لا لغرض، وحسبتم ﴿أنّكم إلينا لا تُرجَعُونَ﴾ أي إلى الحال الّتي لا يملك نفعكم وضرّكم فيها إلّا الله، كما كنتم في ابتداء خلقكم قبل أن يملك أحداً شيئاً من أمركم.

ثمّ نزّه تعالى نفسه، وأخبر أنّه يتعالى الله الملك الحقّ، ومعناه: علا معنى صفته فوق كلّ صفة لغيره، فهو تعظيم الله تعالى بأنّ كلّ شيء سواه يصغر مقداره عن معنى صفته.

و﴿المَلِكُ الحَقُّ﴾ هوالّذي يحقّ له الملك، بأنّه ملك غير مملّك وكلّ ملك غيره فملكه مستعار له، وإنّما يملك ما ملّكه الله، فكأنّه لا يعتدّ بملكه في ملك ربّه، و«الحقّ» هو الشيء الّذي من اعتقده كان على ما اعتقده، فالله الحقّ، لأنّه من اعتقد أنّه لا إلَه إلّا هو فقد اعتقد الشيء على ما هو به.

وقوله: ﴿رَبُّ العَرشِ الكَرِيمِ﴾ أي خالقه، ووصفه العرش بأنّه كريم تعظيم له بإتيان الخير من جهته، بما دبّره الله لعباده. و«الكريم» في أصل اللغة القادر على التكريم من غير مانع.

---

(١) الأنبياء: ١. (٢) القمر: ١. (٣) النحل: ٧٧.

ثمّ قال: ﴿ومَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ لا بُرهانَ لَهُ بِهِ﴾ ومعناه إنّ من دعا مع الله إلهاً سواه لا يكون له على ذلك برهان ولا حجّة، لأنّه باطل، ولو دعا الله ببرهان لكان محقّاً، وجرى على ذلك قوله: ﴿ويَقْتُلُونَ النَبيّينَ بِغَيرِ حَقٍّ﴾[1] وقول الشاعر:

على لاحِبٍ لا يَهتَدي بِمَنارِهِ[2]

وقوله: ﴿فإنّما حِسابُهُ عند رَبّه﴾ يعني الله الّذي يبيّن له مقدار ما يستحقّه من ثواب أو عقاب. ثمّ أخبر تعالى بأنّه ﴿لا يُفلِحُ الكافِرُونَ﴾ يعني الجاحدين لنعم الله والمنكرين لتوحيده والدافعين للبعث والنشور.

ثمّ أمر نبيّه صلى الله عليه وآله فقال له: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿رَبِّ اغفِر وارحَمْ﴾ أي اغفر الذنوب، وأنعم على خلقك.

﴿وأنتَ خيرُ الراحِمينَ﴾ معناه أفضل من رحم وأنعم على غيره، وأكثرهم نعمة وأوسعهم فضلاً.

---

(١) آل عمران: ٢١.

(٢) للشاعر امرئ القيس، ديوانه: ٩٥، وعجزه: إذا سافه العود النُباطيُّ جَرْجَرا.

# سورة النور

مدنيّة بلا خلاف، وهي أربع وستّون آية في البصري والكوفي، واثنتان في المدنيّين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ آية واحدة بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿وفَرَّضْناها﴾ بتشديد الراء، الباقون بتخفيفها.

[وفسّر أبو عمرو قراءته بمعنى فصّلناها خ] فمعنى قراءة أبي عمرو وفصّلناها وبيّنّاها بفرائض مختلفه [والتقدير: هذه سورة ظ] لأنّ النكرات لا يبتدأ بها. وقال غيره: معنى التشديد حدّدنا فيها الحلال والحرام. وقال قتادة: معنى التشديد: قد بيّنّاها. وقيل: معنى التشديد: جعلناها عليكم وعلى من بعدكم إلى قيام الساعة.

ومن خفّف أراد من الفريضة أي فرض فيها الحلال والحرام، و«الفرض» مأخوذ من فرض القوس وهو الحزّ الّذي فيه الوتر، والفرض أيضاً نزول القرآن، قال الله تعالى: ﴿إنّ الّذي فَرضَ عَليكَ القُرآنَ﴾[1] أي

(١) القصص: ٨٥.

أنزل. وارتفع «سورة» على تقدير هذه «سورة» إلّا أنه حذف على تقدير التوقّع لما ينزل من القرآن، والسورة المنزلة الشريفة، قال الشاعر:

ألم تــر أنّ الله أعــطاك ســورةً ترى كلَّ ملك دونـها يـتذبذَبُ[1]

فسمّيت سورة من القرآن بذلك لهذه العلّة. و«الفرض» هو التقدير، في اللغة، وفصّل بينه وبين الواجب، بأنّ الفرض واجب بجعل جاعل، لأنّـه فرضه على صاحبه، كما أنّه أوجبه عليه، والواجب قد يكون واجباً مـن غير جعل جاعل كوجوب شكر المنعم، فجرى مجرى دلالة الفعل عـلى الفاعل في أنّه يدلّمن غير جعل جاعل له كما تجعل العلامة الوضعيّة إلّا أنّ الله تعالى لا يوجب على العبد إلّا ما له صفة الوجوب في نفسه، كـما لا يرغّبه إلّا فيما هو مرغوب في نفسه.

وقــوله: ﴿أَنْزَلنا فيها آيات بَيّنات لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فــمعنى «الآيـات» الدلالات على ما يحتاج إلى علمه ممّا قد بيّنه الله في هذه السورة، ونبّه على ذلك من شأنها لينظر فيه طالب العلم ويفوز بـبغيته مـنه، والتـقدير: وفرضنا فرائضها. وأضاف الفرائض إلى السورة وهي بعضها، لدلالة الكلام عليه، لأنّها مفهومة منها. و«بيّنات» مـعناه ظـاهرات واضـحات. وقـوله: ﴿لعلّكم تذكّرونَ﴾ معناه لكي تذكّروا الدلائل الّتي فيها، فتكون حاضرة لكم لتعملوا بموجبه وتلتزموا معانيه.

قوله تعالى:

ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ

(١) قائله النابغة الذبياني، ديوانه: ٤٦.

مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ آيتان بلا خلاف.

قرأ ابن كثير إلّا ابن فليح ﴿رأفة﴾ بفتح الهمزة على وزن «رغفة» الباقون بسكونها، وهما لغتان في المصدر، يقال: رأف رأفة مثل كَرم كَرْمَة، وقيل: رآفة مثل سقم سقامة. و«الرأفة» رقّة الرحمة.

أمر الله تعالى في هذه الآية أن يجلد الزاني والزانية إذا لم يكونا محصنين ﴿كلّ واحدٍ منهما مائة جَلْدَة﴾ وإذا كانا محصنين أو أحدهما كان على المحصن الرجم بلا خلاف، وعندنا أنّه يجلد أوّلًا مائة جلدة ثمّ يرجم، وفي أصحابنا من خصّ ذلك بالشيخ والشيخة إذا زنيا وكانا محصنين، فأمّا إذا كانا شابّين محصنين لم يكن عليهما غير الرجم، وهو قول مسروق. وفي ذلك خلاف ذكرناه في خلاف الفقهاء[1].

والإحصان الّذي يوجب الرجم هو أن يكون له زوج يغدو إليه ويروح على وجه الدوام وكان حرّاً، فأمّا العبد فلا يكون محصناً، وكذلك الأمة لاتكون محصنة وإنّما عليهما نصف الحدّ: خمسون جلدة. والحرّ متى كان عنده زوجة يتمكّن من وطئها مخلّى بينه وبينها سواء، كانت حرّة أو أمة، أو كانت عنده أمة يطؤها بملك اليمين فإنّه متى زنا وجب عليه الرجم. ومن كان غائباً عن زوجته شهراً فصاعداً أو كان محبوساً أو هي محبوسة هذه المدّة فلا إحصان. ومن كان محصناً على ما قدّمناه ثمّ ماتت زوجته أو طلّقها بطل إحصانه، وفي جميع ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف[2].

والخطاب بهذه الآية وإن كان متوجّهاً إلى الجماعة فالمراد به الأئمّة بلا خلاف، لأنّه لا خلاف أنّه ليس لأحد إقامة الحدود إلّا للإمام أو من

---

(١) الخلاف ٥: ٣٦٦ المسألة ٢.
(٢) الخلاف ٥: ٣٧١ المسألة ٥.

يولّيه الإمام، ومن خالف فيه لا يعتدّ بخلافه.

و«الزنا» هو وطء المرأة في الفرج من غير عقد شرعي ولا شبهة عقد شرعي مع العلم بذلك أو غلبة الظنّ، وليس كلّ وطء حرام زنا، لأنّه قد يطؤ في الحيض والنفاس، وهو حرام ولا يكون زنا. وكذلك لو وجد امرأة على فراشه فظنّها زوجته أو أمته فوطئها لم يكن ذلك زنا، لأنّه شبهة.

وقوله: ﴿ولا تأخُذْكُمْ بِهِما رَأفَةٌ في دِينِ اللهِ﴾ قال مجاهد وعطاء ابن أبي رباح وسعيد بن جبير وإبراهيم: معناه لا تمنعنّكم الرأفة والرحمة من إقامة الحدّ. وقال الحسن وسعيد بن المسيّب وعامر الشعبي وحمّاد: لا يمنعكم ذلك من الجلد الشديد. «والرأفة» بسكون الهمزة، والرأفة بفتح الهمزة مثل الكأبة والكآبة، والسأمة والسآمة، وهما لغتان. وبفتح الهمزة قرأ ابن كثير على ما قدّمناه.

وقوله: ﴿إنْ كُنتُمْ تُؤمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ﴾ أي إن كنتم تصدّقون بما وعد الله وتوعّد عليه، وتقرُّون بالبعث والنشور، فلا تأخذكم فيمن ذكرناه الرأفة، ولا تمنعكم من إقامة الحدّ على من ذكرناه.

وقوله: ﴿وَلْيَشهَدْ عذابَهُما طائفةٌ من المؤمنينَ﴾ قال مجاهد وإبراهيم: «الطائفة» رجل واحد. وعن أبي جعفر عليه السلام أنّ أقلّه رجل واحد[1]. وقال عكرمة: الطائفة رجلان فصاعداً. وقال قتادة والزهري: هم ثلاثة فصاعداً. وقال ابن زيد: أقلّه أربعة. وقال الجبّائي: من زعم أنّ الطائفة أقلّ من ثلاثة فقد غلط من جهة اللغة، ومن جهة المراد بالآية، من احتياطه بالشهادة وقال: ليس لأحد أن يقيم الحدّ إلّا الأئمّة وولاتهم، ومن خالف فيه فقد غلط، كما أنّه ليس للشاهد أن يقيم الحدّ. وقد دخل المحصن في حكم

---

(١) التهذيب ١٠: ١٥٠ ح ٦٠٢.

الآية بلا خلاف.

وكان سيبويه يذهب إلى أنّ التأويل: فيما فرض عليكم، الزانية والزاني، ولولا ذلك لنصب بالأمر[١]. وقال المبرّد: إذا رفعته ففيه معنى الجزاء، ولذلك دخل الفاء في الخبر، والتقدير: الّتي تزني والّذي يزني[٢] ومعناه من زنى فاجلدوه، فيكون على ذلك عامّاً في الجنس. وقال الحسن: رجم النبيّ صلى الله عليه وآله الثيّب وأراد عمر أن يكتبه في آخر المصحف ثمّ تركه، لئلّا يتوهّم أنّه من القرآن، وقال قوم: إنّ ذلك منسوخ التلاوة دون الحكم. وروي عن عليّ عليه السلام أنّ المحصن يجلد مائة بالقرآن ثمّ يرجم بالسنّة، وأنّه أمر بذلك[٣].

وقوله: ﴿الزاني لا يَنكِحُ إلّا زانيةً أو مُشْرِكَةً والزانيةُ لا يَنكِحُها إلّا زانٍ أو مُشرِكٌ...﴾ الآية. قيل: إنّها نزلت على سبب، وذلك أنّه استأذن رجل من المسلمين النبيّ صلى الله عليه وآله ان يتزوّج امرأة من أصحاب الرايات كانت تسافح، فأنزل الله تعالى الآية[٤] وروي ذلك عن عبد الله بن عمر وابن عبّاس وقال: حرّم الله نكاحهنّ على المؤمنين، فلا يتزوّج بهنّ إلّا زان أو مشرك.

وقال مجاهد والزهري والشعبي: إنّ الّتي استؤذن فيها أمّ مهزول. وقيل: النكاح - هاهنا - المراد به الجماع، والمعنى الاشتراك في الزنا، يعني أنّهما جميعاً يكونان زانيين، ذكر ذلك ابن عبّاس. وقد ضعّف الطبري ذلك، وقال: لا فائدة في ذلك[٥]. ومن قال بالأوّل قال: الآية وإن كان ظاهرها الخبر فالمراد به النهي. وقال سعيد بن جبير: معناه أنّها زانية مثله،

---

(١) الكتاب ١: ١٤٣.
(٢) الكامل ٢: ٨٢٢.
(٣) سنن الدار قطني ٣: ١٢٣ و١٣٧، المحلّى ١١: ٢٣٤.
(٤) تفسير الكشف والبيان ٧: ٦٥.
(٥) تفسير الطبري ذيل الآية.

وهو قول الضحّاك وابن زيد.

وقال سعيد بن المسيّب: كان ذلك حكم كلّ زان وزانيةٍ، ثمّ نسخ بقوله: ﴿وأنكِحُوا الأيامىٰ مِنكُمْ والصالِحينَ﴾ [١] وبه قال أكثر الفقهاء.

وقالالرماني: وجه التأويل أنّهما مشتركان فيالزنا، لأنّه لا خلاف أنّه ليس لأحد من أهل الصلاة أن ينكح زانية وأنّ الزانية من المسلمات حرام على كلّ مسلم من أهل الصلاة، فعلى هذا له أن يتزوّج بمن كان زنى بها.

وعن أبي جعفرعليه السلام «أنّ الآية نزلت في أصحاب الرايات»[٢] فأمّا غيرهنّ فإنّه يجوز أن يتزوّجها وإن كان الأفضل غيرها ويمنعها من الفجور. وفى ذلك خلاف بين الفقهاء.

قوله تعالى:

وَالَّذينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلدُوهمْ ثَمَانينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وأُولئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إلّا الَّذينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وأصلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيمٌ ﴿٥﴾ آيتان بلا خلاف.

قال سعيد بن جبير: هذه الآية نزلت في عائشة. وقال الضحّاك في نساء المؤمنين وهو الأولى، لأنّه أعمّ فائدة وإن كان يجوز أن يكون سبب نزولها في عائشة، فلا تقصر الآية على سببها.

يقول الله تعالى:إنّ الذينَ يرمون المحصنات، أي يقذفون العفائف من النساء بالزنا والفجور، وحذف قوله: «بالزنا» لدلالة الكلام عليه، ولميقيموا على ذلك أربعة من الشهود، فإنّه يجب على كلّ واحد منهم ثمانون جلدة. وقال الحسن: يجلد وعليه ثيابه. وهو قول أبي جعفر.

ويجلد الرجل قائماً، والمرأة قاعدة. وقال إبراهيم: ترمى عنه ثيابه،

---

(١) النور: ٣٢.

(٢) الكافي ٥: ٣/٣٥٥.

وعندنا ترمى عنه ثيابه في الزنا.

وقوله: ﴿ولا تَقْبَلُوا لهم شَهَادَة أبداً﴾ نهي من الله تعالى عن قبول شهادة القاذف على التأبيد، وحكم عليهم بأنهم فسّاق، ثمّ استثنى من ذلك الّذين تابوا من بعد ذلك.

واختلفوا في الاستثناء إلى من يرجع، فقال قوم: إنّه من الفسّاق، فإذا تاب قبلت شهادته حُدَّ أو لم يحدّ، وهو قول سعيد بن المسيّب. وقال عمر لأبي بكرة: إن تبت قبلت شهادتك، فأبى أبو بكرة أن يكذّب نفسه. وهو قول مسروق والزهري والشعبي وعطاء وطاووس ومجاهد وسعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز والضحّاك، وهو قول أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام وبه قال الشافعي من الفقهاء وأصحابه، وهو مذهبنا. وقال الزجّاج: يكون تقديره، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً إلّا الّذين تابوا[1] ثمّ وصفهم بقوله: ﴿وأولئك هُمُ الفاسِقُونَ﴾.

وقال شريح وسعيد بن المسيّب والحسن وإبراهيم: الاستثناء من الفاسقين دون قوله: ﴿ولا تَقبَلُوا لَهُمْ شَهادةً أبداً﴾ وبه قال أهل العراق، قالوا: فلا يجوز قبول شهادة القاذف أبداً. ولا خلاف في أنّه إذا لم يحدّ ـ بأن تموت المقذوفة ولم يكن هناك مطالب ثمّ تاب ـ أنّه يجوز قبول شهادته. وهذا يقتضي الاستثناء من المعنيين على تقدير: وأُولئك هم الفاسقون في قذفهم، مع امتناع قبول شهادتهم إلّا التائبين منهم. والحدّ حقّ المقذوفة لا يزول بالتوبة. وقال قوم: توبته متعلّقة بإكذابه نفسه، وهو المرويّ في أخبارنا[2] وبه قال الشافعي، وقال مالك بن أنس: لا يحتاج إلى ذلك فيه. قال أبو حنيفة: ومتى كان القاذف عبداً أو أمة فعليه أربعون جلدة. وقد

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٢.

(٢) انظر تفسير القمّي ٢: ٩٦، الكافي ٧: ٢٤١/٧.

روى أصحابنا: أنّ الحدّ ثمانون في الحرّ والعبد[١] وظاهر العموم يقتضي ذلك، وبه قال عمر بن عبد العزيز والقاسم بن عبد الرحمن.

قوله تعالى:

وٱلَّذينَ يَرمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إلاّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أحدِهِم أربعُ شهَادَات باللهِ إنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقينَ ﴿٦﴾ وَالخَامِسَةُ أَنَّ لعْنَتَ الله عَليهِ إن كانَ من الكاذِبينَ ﴿٧﴾ وَيَـدْرَؤُ عَنْهَا العَـذَابَ أن تَشْهَدَ أربعَ شَهادَات بِاللهِ إنّهُ لَمِنَ الكاذِبينَ ﴿٨﴾ وَالخَامِسَةَ أنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْها إنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَو لاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكيمٌ ﴿١٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلّا أبا بكر ﴿فشهادة أحدهم أربعُ شهاداتٍ﴾ برفع العين، الباقون بفتحها. وقرأ نـافع ويـعقوب ﴿أن لعنة الله... وأن غضب الله عليها﴾ بتخفيف النون فيهما وسكونها ورفع ﴿لعنة الله﴾ وقـرأ نـافع ﴿غضب الله﴾ بكسر الضاد وفتح الباء ورفع الهاء من اسم الله، وقرأ يعقوب بفتح الضـاد ورفع الباء وخفض الهاء، الباقون بفتح الضاد ونصب الباء وخفض الهـاء. وروى حفص ﴿الخامسة أن غضب الله﴾ بالنصب، الباقون بالرفع.

من رفع قوله: ﴿أربع﴾ جعله خبر الابتداء، والابتداء ﴿فشهادة أحدهم﴾ قال أبو حاتم: من رفع فقد لحن، لأنّ الشهادة واحدة وقد أخبر عنها بجمع فلا يجوز ذلك، كما لا يجوز «زيد إخوتك» وهذا خطأ، لأنّ الشهادة وإن كانت بلفظ الوحدة فمعناها الجمع، كقولك: صلاتي خـمسون، وصـومي شهر. وقال الزجّاج: تقديره: فشـهادة أحـدهم الّـتي تـدرأ العـذاب أربـع شهادات. ومن قرأ بالنصب جعله مفعولاً به أي يشهد أربع شهادات[٢].

وقال أبو عليّ الفارسي: ينبغي أن يكون قوله: ﴿فشهادةُ أحدِهِم﴾ مبنيّاً

(١) الكافي ٧: ٢/٢٠٥.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٢.

على ما يكون مبتدأ، وتقديره: فالحكم أو فالفرض أن يشهد أحدهم أربع شهادات، أو فعليهم أن يشهدوا. ويكون قوله: ﴿إنّه لَمِنَ الكاذبين﴾ على هذا من صلة ﴿شهادة أحدهم﴾ وتكون الجملة الّتي هي قوله: ﴿إنّه لمن الصادقين﴾[١] في موضع نصب، لأنّ الشهادة كالعلم، والجملة في موضع نصب، بأنّه مفعول به ﴿وأربع شهادات﴾ تنتصب انتصاب المصادر. ومن رفع ﴿أربعُ شَهاداتٍ﴾ لم يكن قوله: ﴿إنّه لمن الصادقين﴾ إلّا من صلة شهادات دون شهادة كما أنّ قوله: ﴿بالله﴾ من صلة شهادات دون صلة شهادة لأنّك لو جعلته من صلة شهادة فصلت بين الصلة والموصول. ومن نصب ﴿أربع شهادات﴾ فقياسه أن ينصب ﴿والخامسة﴾ لأنّها شهادة، وإذا رفع ﴿أربع شهادات﴾ ونصب ﴿الخامسة﴾ قدّر له فعلاً ينصبها به، وتقديره: ويشهد الخامسة. ومن رفع ﴿أربع شهادات﴾ ورفع ﴿الخامسة﴾ جعلها معطوفة عليه، وإذا نصب الخامسة لم يجعلها معطوفة عليه وقدّر فعلاً ينصبها به[٢].

وقال أبو عليّ: قراءة نافع في تخفيف «أن» الوجه فيها أنّها المخفّفة عن الثقيلة، ولا تخفّف في الكلام أبداً وبعدها اسم إلّا ويراد إضمار القصّة، ومثله قوله: ﴿وآخِرُ دعواهُمْ أنِ الحَمدُلله﴾[٣]. وإنّما خفّفت الثقيلة المفتوحة على إضمار القصّة والحديث، ولم تكن المكسورة كذلك، لأنّ الثقيلة المفتوحة موصولة ويستقبح النحويّون قراءة نافع في قوله: ﴿أن غضب الله﴾ لأنّ من شأن المخفّفة عن الثقيلة ألّا تلي فعلاً إلّا وفي الكلام عوض، كقوله: ﴿ألّا يَرجِعُ﴾[٤] وقوله: ﴿عَلِمَ أن سَيَكُونُ﴾[٥]. فإنّ «لا» و«السين»

(١) في المصدر: «إنّه لمن الكاذبين» بدل «إنه لمن الصادقين».
(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ١٩٢.
(٣) يونس: ١٠.
(٤) طه: ٨٩.
(٥) المزّمّل: ٢٠.

عوض من الثقيلة، ووجه قراءة نافع أنّه قد جاء في الدعاء ولفظه لفظ الخبر، وقد يجيء في الشعر وإن لم يفصل بين «أن» وبين ما يدخل عليها من الفعل[١] فعلى قول نافع ﴿لعنة الله﴾ رفع بالابتداء و﴿غضب﴾ فعل ماضٍ، واسم ﴿الله﴾ رفع بفعله.

ومعنى الآية أنّ من قذف محصنة حرّة مسلمة بفاحشة من الزنا ولم يأت بأربعة شهداء جلد ثمانين، ومن رمى زوجته بالزنا تلاعنا.

والملاعنة: أن يبدأ الرجل فيحلف بالله الّذي لا إله إلّا هو أنّه صادق فيما رماها به، ويحتاج أن يقول: أشهد بالله أنّي صادق، لأنّ شهادته أربع مرّات تقوم مقام أربعة شهود في دفع الحدّ عنه، ثمّ يشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به. [وإذا جحدت المرأة ذلك شهدت أربع شهادات بالله إنّه لمن الكاذبين فيما رماها به][٢]. وتشهد الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثمّ يفرّق بينهما ولا يجتمعان أبداً، كما فرّق رسول الله ﷺ بين هلال بن أُميّة وزوجته وقضى أنّ الولد لها، ولا يدعى لأب، ولا ترمى هي، ولا يرمى ولدها.

وقال ابن عبّاس: متى لم تحلف رجمت، وإن لم يكن دخل بها جلدت الحدّ، ولم ترجم إذا لم تلتعن، وعند أصحابنا: أنّه لا لعان بينهما ما لم يدخل بها، فمتى رماها قبل الدخول وجب عليه حدّ القاذف، ولا لعان بينهما.

وفرقة اللعان تحصل عندنا بتمام اللعان من غير حكم الحاكم، وتمام اللعان إنّما يكون إذا تلاعن الرجل والمرأة معاً. وقال قوم: تحصل بلعان

(١) الحجّة للقراء السبعة ٣: ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من الحجريّة، أثبتناه من المطبوع.

الزوج الفرقة. وقال أهل العراق: لا تقع الفرقة إلّا بتفريق الحاكم بينهما.

ومتى رجمت عند النكول ورثها الزوج، لأنّ زناها لا يوجب التفرقة بينهما. ولو جلدت ـ إذا لم يكن دخل بها ـ فهما على الزوجيّة. وذلك يدلّ على أنّ الفرقة إنّما تقع بلعان الرجل والمرأة معاً. قال الحسن: وإذا تمّت الملاعنة بينهما ولم يكن دخل بها فلها نصف الصداق، لأنّ الفرقة جاءت من قبله. وإذا تمّ اللعان اعتدّت عدّة المطلقة عند جميع الفقهاء، ولا يتزوّجها أبداً بلا خلاف.

وآية اللعان نزلت في عاصم بن عدي. وقيل: نزلت في هلال بن اُميّة في قول ابن عبّاس[١] ومتى فرّق بينهما ثمّ أكذب نفسه جلد الحدّ ولا ترجع إليه امرأته. وقال أبو حنيفة: ترجع إليه. وإذا أقرّ بالولد بعد اللعان اُلحق به يرثه الابن ولا يرثه الأب. وقال الشافعي: يتوارثان. و «الدرء» الدفع و العذاب الّذي يدرء عنهما بشهادتهما الحدّ لأنّه بمنزلة من يشهد عليها أربعة شهود [بالزنا، وقال قوم: الحبس لأنّه لم تتمّ البيّنة بأربعة شهود][٢] وإنّما التعان الرجل درأ عنه الحدّ في رميه.

قال الجبّائي: في الآية دلالة على أنّ الزنا ليس بكفر، لأنّه ليس لصاحبه حكم المرتدّ، وفيها دلالة على أنّه يستحقّ اللعن من الله بالزنا.

وقوله: ﴿ولولا فَضلُ اللهِ عَليكُمْ ورحمتُهُ وأنّ الله تَوَابٌ حكيم﴾ نصب قوله: ﴿وأنّ اللهَ﴾ لأنّه عطف على موضع «أنّ» لو وقعت بعد لولا؛ لأنها تقع بعد لو لا منصوبة، وجواب «لولا» محذوف، وتقديره: لولا فضل الله عليكم ورحمته لفضحكم بما ترتكبون من الفاحشة، ولعاجلكم بالعقوبة أو

(١) الكشف والبيان ٧: ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) ما بين المعقوفتين ليس في الحجريّة، أثبتناه من الخطيّة.

لهلكتم، وما يجري مجراه، ومثله قولهم: لو رأيت فلاناً وفي يده السيف أي لرأيت شجاعاً ولرأيت هائلاً، قال جرير:

كَذَبَ العَـواذِلُ لَـوْ رأيتَ مُـناخنا    بـحَزيزِ رَامَـةَ والمَـطيُّ سَـوامِ[1]

وفي المثل: «لو ذاتُ سِوارٍ لطَمَتْني»[2].

قوله تعالى:

إنَّ الَّذينَ جَاؤُا بِالإِفْك عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لكُمْ لِكُلِّ امرِىءِ مِنْهُمْ مَا اكتَسَبَ مِنَ الإِثمِ وَالَّذي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمؤمِنُونَ والْمؤمِنَاتُ بِأنفُسِهِم خَيْراً وَقَالُوا هذَا إِفْكٌ مُبينٌ ﴿١٢﴾ لَولَا جاؤُا عَلَيْهِ بِأَربَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُولئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الكاذِبُونَ﴿١٣﴾ وَلَولا فَضْلُ الله عَليكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ في مَا أفضتُمْ فيهِ عَذَابٌ عَظيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّونَهُ بِألسِنَتِكُم وَتَقُولُونَ بِأفوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكَمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظيمٌ ﴿١٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخاطباً لأُمّة محمّدﷺ: ﴿إنّ الّذين جاؤا بالإفْكِ﴾ يعني الّذين أتوا بالإفك، وهو الكذب الّذي قلب فيه الأمر عن وجهه، وأصله الانقلاب ومنه «المؤتفكات» وأفك يأفك إفكاً إذا كذب، لأنّه قلب المعنى عن حقّه إلى باطله، فهو آفك، مثل كاذب. وقوله: ﴿عُصْبةٌ مِنكُمْ﴾ يعني جماعة منكم، ومنه قوله: ﴿لَيُوسُفُ وأخـوُهُ أحَبَّ إلى أبـينا مـنّا ونَـحنُ عُصبةٌ﴾[3] ويقال: تعصّب القوم إذا اجتمعوا على هيئة، فشدّ بعضهم بعضاً. و«العصبة» في النسب العشيرة المقدّرة[4] لأنّه يجمعها التعصّب. وقال ابن عبّاس: منهم: «عبد الله بن أُبيّ بن سلول» ـ وهو الّذي تولّى كبره، وهو من

---

(١) ديوان جرير: ٤١٧.

(٢) جمهرة الأمثال ٢: ١٩٣.

(٣) يوسف: ٨.

(٤) في الحجريّة «المقتدرة، ظ».

رؤساء المنافقين ـ و«مِسْطَح بن أُثاثة، وحسّان بن ثابت، وحِمْنَة بنت جَحش»[١] وهو قول عائشة.

وكان سبب الإفك أنّ عائشة ضاع عقدها في غزوة بني المصطلق، وكانت تباعدت لقضاء الحاجة فرجعت تطلبه، وحمل هودجها على بعيرها ظنّاً بها أنّها فيه، فلمّا صارت إلى الموضع وجدتهم قد رحلوا عنه وكان صفوان بن مُعَطّل السلمي الذكواني من وراء الجيش فمرّ بها، فلمّا عرفها أناخ بعيره حتّى ركبته، وهو يسوقه حتّى أتى الجيش بعد ما نزلوا في قائم الظهيرة. هكذا رواه الزهري[٢] عن عائشة.

وقوله: ﴿لا تَحسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بل هو خَيرٌ لكُمْ﴾ خطاب لمن قرف بالإفك من عائشة، ومن اغتمّ لها، فقال الله تعالى: لا تحسبوا غمّ الإفك شرّاً لكم بل هو خير لكم، لأنّ الله ـ عزّ وجلّ يبرّئ صاحبته[٣] ببراءتها، وينفعها بصبرها واحتسابها، وما نيل منها من الأذى والمكروه الّذي نزل بها، ويلزم أصحاب الإفك ما استحقّوه بالإثم الّذي ارتكبوه في أمرها. ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿لكلّ امرئ منهم ما اكتسبَ من الإثم﴾ أي له جزاء ما اكتسب من الإثم من العقاب.

ثمّ قال: ﴿والّذي تولّى كِبرَهُ منهم﴾ يعني ابن أُبيّ بن سلول تحمل معظمه. و«كبره» مصدر من معنى الكبير من الأُمور. قال أبو عبيدة: فرقوا بينه وبين مصدر الكبر في السنّ، يقال: فلان ذو كبر أي ذو كبرياء[٤]. وقرأ أبو جعفر المدني بضمّ الكاف الباقون بكسرها، فالكبر بضمّ الكاف من كبر السنّ، وهو كبير قومه أي معظمهم، والكبر والعظم واحد. وقيل: دخل

---

(١) تفسير الطبري ذيل الآية.
(٢) الكشف والبيان: ٧: ٧٢ ـ ٧٣.
(٣) في هامش الحجريّة: ساحته، ظ.
(٤) مجاز القران ٢: ٦٤.

حسّان على عائشة فأنشدها قوله في بيته:

حصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبَةٍ وتُصبحُ غَرثى من لُحُومِ الغَوافلِ[١]

فقالت له: لكنّك لست كذلك. وقوله: ﴿له عذابٌ عَظيم﴾ يعني جزاء على ما اكتسبه من الإثم. وقوله: ﴿لولا إذ سَمعتُمُوه ظنَّ المؤمِنُونَ والمؤمِناتُ بأنفُسِهم خَيراً﴾ معناه هلّا حين سمعتم هذا الإفك من القائلين ظنّ المؤمنون بالمؤمنين الّذين هم كأنفسهم خيراً، لأنّ المؤمنين كلّهم كالنفس الواحدة فيما يجري عليها من الأُمور، فإذا جرى على أحدهم محنة، فكأنّه جرى على جماعتهم، وهو كقوله: ﴿فَسلّموا على أنفُسِكُمْ﴾[٢] وهو قول مجاهد، قال الشاعر في «لولا» بمعنى «هلّا»:

تَعدّونَ عقرَ النيبِ أفضلَ مجدِكم

بَني ضَوطَرى لولا الكميّ المُقْنَعا[٣]

أي فهلّا تعدّون قتل الكميّ. وقوله تعالى: ﴿وقالوا هَذا إفكٌ مُبِينٌ﴾ معناه وهلّا قالوا هذا القول كذب ظاهر.

ثمّ قال تعالى: ﴿لولا جاؤوا عليه بأربَعةِ شُهداء﴾ أي هلّا جاؤوا على ما قالوه ببيّنة أربعة من الشهداء ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأُولئك﴾ الّذين قالوا هذا الإفك ﴿هُمُ الكاذِبُونَ﴾ عند الله، والمعنى أنّهم كاذبون في غيبهم، فمن جوّز صدقهم فهو رادّ لخبر الله تعالى، فالآية دالّة على كذب من قذف عائشة وأفك عليها، فأمّا في غيرها إذا رماها الإنسان فإنّا لا نقطع على كذبه عند الله وإن أقمنا عليه الحدّ، وقلنا هو كاذب في الظاهر، لأنّه يجوز أن يكون صادقاً عند الله، وهو قول الجبّائي.

---

(١) ديوان حسّان ١: ٥١٠.
(٢) النور: ٦١
(٣) ديوان جرير: ٢٥٤، وفيه: «هلّا» بدل «لولا».

ثمّ قال تعالى على وجه الامتنان على المؤمنين: ﴿ولولا فَضْلُ اللهِ عَليكُمْ ورحمتُهُ في الدنيا والآخرة لَمسّكُمْ في ما أفضَتُم فيه عذابٌ عظيمٌ﴾ جزاء على خوضكم في قصّة الإفك وإفاضتكم فيه. وقيل في الآية تقديم وتأخير، وتقديره: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسّكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿إذ تَلَقّونَهُ بألسنَتِكُمْ﴾ تقديره: لمسّكم عذاب عظيم حين تلقّونه بألسنتكم، ومعناه يرويه بعضكم عن بعض ليشيعه، في قول مجاهد وروي[1] عن عائشة أنّها قرأت ﴿تَلِقُونَه﴾ من ولق الكذب، وهو الاستمرار على الكذب، ومنه: ولق فلان في السير إذا استمرّ به، ويقال: في الولق من الكذب: الألق والإلق تقول: ألقت وأنتم تألقونه، أنشد الفرّاء:

مــن ليَ بـالمزرَّر اليـلامقِ صاحب أدهانٍ وأَلْقٍ آلقِ[2]

فتح الألف من إدهان، وقال الراجز:

إنّ الجُـــلَيد زَلِـــقٌ وزُمَّـــلقْ جاءتْ به عَنْسٌ من الشامِ تَلِقْ[3]

وينشد أيضاً:

إنّ الحــصينَ زَلِــقٌ وزُمَّــلقْ جاءتْ به عَنْسٌ من الشامِ تَلِقْ
مجوّع البطن كَلاليم الحلقْ[4]

وقــوله: ﴿تَقولُونَ بأفواهِكُمْ ما ليسَ لكُم بهِ عِلمٌ﴾ مـن قـصّة الإفك ﴿وتَحسَبُونَهُ هَيّناً وهو عندَاللهِ عَظيمٌ﴾ أي تظنّونه حقيراً وهو عندالله عظيم، لأنّه كذب وافتراء.

---

(١) الغريبين ٦: ٢٠٣٣. (٢) معاني القرآن ٢: ٢٤٨. (٣) المصدر السابق.

(٤) أنشده في الصحاح ٤: ١٤٩٢ مادة «زلق» وليس فيه: «مجوّع البطن...» وأنشده أيضاً كاملاً، الطبري في تفسيره: ذيل الآية وفيه: «الجُليد» بدل «الحُصين» و «كلابي الخلق» بدل «كلاليم الحلق».

قوله تعالى:

وَلولاَ إذ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذَا سُبْحَانَكَ هذَا بُهْتَانٌ عَظيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴿١٨﴾ إنَّ الّذينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشيعَ الفَاحِشَةُ فِي الّذينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ في الدُّنيَا والآخِرَةِ واللهُ يَعْلَمُ وأنتُم لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلاَ فَضلُ اللهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ وأَنَّ اللهَ رَؤُف رَحيمٌ ﴿٢٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى للمؤمنين: وهلّا حين سمعتم من هؤلاء العصبة ما قالوا من الإفك ﴿قُلتُم﴾ في جوابهم: ﴿ما يَكُونُ لنا أن نَتَكَلّم بهذا﴾ أي ليس لنا ذلك بل هو محرّم علينا، وقلتم: ﴿سُبحانَكَ﴾ يا ربّنا ﴿هذا﴾ الّذي قالوه ﴿بهتانٌ عظيمٌ﴾ أي كذب وزور عظيم عقابه في الظاهر. فالبهتان الكذب الّذي فيه مكابرة تحيّر، يقال: بهته يبهته بهتاً وبهتاناً إذا حيّره بالكذب عليه.

ثمّ قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ الله أن تَعُودُوا﴾ أي كراهة أن تعودوا ﴿لِمِثلِه﴾ أو لئلّا تعودوا إلى مثله من الإفك ﴿أبداً﴾ أي طول أعماركم لا ترجعوا إلى مثل هذا القول ﴿إن كُنتُمْ مؤمنينُ﴾ مصدّقين بالله ونبيّه، قابلين وعظ الله.

وقال ابن زيد: الوعظ يمنع أن يقول القائل: أنا سمعته ولم أختلقه.

﴿ويبيّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ﴾ يعني الدلالات والحجج ﴿واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ أي عالم بمايكون منكم، حكيم فيمايفعله، ولا يضع الشيء إلّا فيموضعه.

ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّ الذينَ يُحبّونَ﴾ ويؤثرون ﴿أن تَشِيعَ الفاحِشَةُ﴾ أي تظهر الأفعال القبيحة ﴿في الذين آمنُوا لَهُمْ عذابٌ أليمٌ﴾ أي موجع جزاء على ذلك ﴿في الدُنيا﴾ بإقامة الحدّ عليهم ﴿و﴾ في ﴿الآخرِةَ﴾ بعذاب النار ﴿واللهُ يعلَمُ﴾ ذلك وغيره ﴿وأنتُمْ لا تعلَمُونَ﴾ أنّ الله تعالى يعلم ذلك. ثمّ قال: ﴿ولولا فضلُ اللهِ عَليكُمْ ورحمتُهُ وأنّ الله رؤف رحيمٌ﴾ لأهلككم

وعاجلكم بالعقوبة، وحذف الجواب لدلالة الكلام عليه.

وفي الآية دلالة على أنّ العزم على الفسق فسق، لأنّه إذا ألزمه الوعيد على محبّة شياع الفاحشة من غيره فإذا أحبّها من نفسه وأرادها كان أعظم.

قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطانِ وَمَن يتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فإِنَّهُ يَأمُرُ بِالفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ وَلَولاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُم ورَحْمَتُهُ مَا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أحد أَبداً وَلكِنَّ اللهَ يُزَكّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ ﴿٢١﴾ وَلا يَأتَلِ أولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ أن يُؤتُوا أُولِي القُربىٰ وَالْمَسَاكينَ والْمُهاجِرينَ في سَبيلِ اللهِ وليَعْفُوا وَليَصفَحُوا ألا تُحِبُّونَ أن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ والله غَفُورٌ رَحيمٌ ﴿٢٢﴾ إنَّ الَّذينَ يَرمُون المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المُؤمِنَاتِ لُعِنُوا في الدُّنيا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم ألسنَتُهُمْ وأيديهمْ وأرْجُلُهُمْ بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دينَهُمُ الحَقّ وَيَعلمُونَ أنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ الْمُبينُ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو جعفر المدني ﴿ولا يَتَألَّ﴾ على وزن «يتفعّل» الهمزة مفتوحة بعد التاء، واللام مشدّدة مفتوحة، الباقون ﴿يأْتَلِ﴾ على وزن «يفتعل» الهمزة ساكنة. وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿يوم يشهد﴾ بالياء، لأنّ تأنيث الألسنة ليس بحقيقي، ولأنّه حصل فصل بين الفعل والفاعل. الباقون بالتاء، لأنّ الألسنة مؤنّثة.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين المعترفين بتوحيد الله المصدّقين لرسله، ينهاهم فيه عن اتّباع خطوات الشيطان، وخطوات الشيطان تخطية الحلال الحرام والمعنى لا تسلكوا مسالك الشيطان، ولا تذهبوا مذهبه، فإنّه من خطوات الشيطان و«الاتباع» الذهاب فيما كان من الجهات الّتي يدعو الداعي إليها بذهابها فيه، فمن وافق الشيطان فيما يدعو إليه من

الضلال فقد اتّبعه. و«الاتّباع» اقتفاء أثر الداعي إلى الجهة بذهابه فيها، وهو بالتثقيل والتخفيف بمعنى الاقتداء به. والمعنى لا تتّبعوا الشيطان بموافقته فيما يدعو إليه.

ثمّ قال: ﴿ومَنْ يتّبِعْ خُطُواتِ الشَيطانِ﴾ فيما يدعوه إليه ﴿فإنّه﴾ يعني الشيطان ﴿يأمُرُبالفَحشاءِ﴾ يعنيالقبائح ﴿والمنكَرِ﴾ منالافعال. و«الفحشاء» كلّ قبيح عظيم. و«المنكر» الفساد الّذي ينكره العقل ويزجر عنه.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَلَوْ لا فضلُ اللهِ علَيكُمْ ورَحمَتُهُ﴾ بأن يلطف لكم، ويزجركم عن ارتكاب المعاصي ﴿ما زَكَى منكُمْ مِنْ أحدٍ أبداً﴾ فـ «من» زائدة، والمعنى ما فعل أحد منكم الأفعال الجميلة إلّا بلطف من جهته أو وعيد من قبله. وقال ابن زيد: معناه لولا فضل الله ما أسلم أحد منكم.

وفي ذلك دلالة على أنّ أحداً لا يصلح في دينه إلّا بلطف الله ـ عزّ وجلّ ـ له، لأنّ ذلك عامّ لجميع المكلّفين الّذين يزكّون بهذا الفضل من الله.

وقوله: ﴿ولكنَّ اللهَ يُزَكّي مَن يَشاءُ﴾ معناه من يعلم أنّ له لطفاً يفعله به ليزكو عنده. وقيل: يزكّي من يشاء بالثناء عليه. والأوّل أجود.

﴿واللهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾ معناه أنّه يفعل المصالح والألطاف على ما يعلمه من المصلحة للمكلّفين. لأنّه يسمع أصواتهم ويعلم أحوالهم. وفي الآية دلالة على أنّه تعالى يريد لخلقه خلاف ما يريده الشيطان، لأنّه ذكره عقيب قوله: ﴿يأمرُ بالفَحْشاءِ والمنكرِ﴾.

وقوله: ﴿ولا يأتلِ أُولوا الفَضلِ مِنكُمْ والسَعَةِ﴾ فالائتلاء القسم، يقال: آلى يؤلي إيلاء: إذا حلف على أمر من الأمور، ويأتل «يفتعل» من الأليّة على وزن «يقتضي» من قضيت [القضية، خ] ومن قرأ ﴿يتألّ﴾ فعلى وزن «يتفعّل». والمعنى لا يحلف أن لا يؤتي.

وقال ابن عبّاس وعائشة وابن زيد: إنّ الآية نزلت في أبي بكر ومِسْطَح بن أُثاثة، وكان يجري عليه ويقوم بنفقته، فقطعها وحلف أن لا ينفعه أبداً، لما كان منه من الدخول مع أصحاب الإفك في عائشة. فلمّا نزلت هذه الآية عاد أبو بكر له إلى ما كان، وقال: والله إنّي لأُحبّ أن يغفر الله لي، والله لا أنزعها عنه أبداً، وكان مِسْطَح ابن خالة أبي بكر، وكان مسكيناً ومهاجراً من مكّة إلى المدينة ومن جملة البدريّين. وقال الحسن ومجاهد: الآية نزلت في يتيم كان في حجر أبي بكر حلف ألّا ينفق عليه.

وروي عن ابن عبّاس وغيره: أنّ الآية نزلت في جماعة من أصحاب رسول الله حلفوا أن لا يواسوا أصحاب الإفك[1].

وقال قوم: هذا نهي عامّ لجميع أولي الفضل والسعة أن يحلفوا ألّا يؤتوا أُولي القربى والمساكين والفقراء، وهو أولى وأعمّ فائدة، ويدخل فيه ما قالوه. وكان مِسْطَح أحد من حدّه النبيّ صلى الله عليه وآله في قذف الإفك.

وقال أبو عليّ الجبّائي: قصّة مِسْطَح دالّة على أنّه قد يجوز أن تقع المعاصي ممّن شهد بدراً بخلاف قول النوابت.

وقوله تعالى: ﴿وليَعفُوا وليَصفَحُوا﴾ أمر من الله تعالى للمرادين بالآية بالعفو عمّن أساء إليهم والصفح عنهم. وأصل «العافي» التارك للعقوبة على من أذنب إليه، والصفح عن الشيء أن يجعله بمنزلة ما مرّ صفحاً. وقال لهم: ﴿ألا تُحبّون أن يَغفِرَ اللهُ لكم﴾ معاصيكم جزاءً على عفوكم وصفحكم عمّن أساء إليكم ﴿واللهُ غفورٌ رَحيمٌ﴾ أي ساتر عليكم منعم.

ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّ الذينَ يَرمُونَ المُحصَنات﴾ ومعناه الّذين يقذفون العفائف من النساء ﴿الغافِلاتِ﴾ عن الفواحش ﴿لُعِنُوا في الدنيا والآخِرَةِ﴾

---

(١) الكشف والبيان ٧: ٨١.

أي أُبعدوا من رحمة الله ﴿في الدنيا﴾ بإقامة الحدّ عليهم وردّ شهادتهم ﴿وفي الآخرة﴾ بأليم العقاب والإبعاد من الجنّة ﴿ولهم﴾ مع ذلك ﴿عذاب عظيم﴾ عقوبة لهم على قذفهم المحصنات. وهذا وعيد عامّ لجميع المكلّفين، في قول ابن عبّاس وابن زيد وأكثر أهل العلم.

وقال قوم: في عائشة، لمّا رأوها نزلت فيها توهّموا أنّ الوعيد خاصّ فيمن قذفها. وهذا ليس بصحيح، وذلك أنّ عند أكثر العلماء المحصّلين: أنّ الآية إذا نزلت على سبب لم يجب قصرها عليه، كآية اللعان وآية القذف وآية الظهار وغير ذلك، ومتى حملت على العموم دخل من قذف عائشة في جملتها.

وقوله: ﴿يَومَ تَشهدُ عَلَيْهِمْ ألسنتُهُمْ وأَيدِيهِمْ وأرجُلُهُمْ﴾ تقديره: ولهم عذاب عظيم في هذا اليوم، وهو يوم القيامة.

وشهادة الأيدي والأرجل بأعمال الفجّار. قيل في كيفيّتها: ثلاثة أقوال: أحدها: أنّ الله تعالى يبنيها[١] بنية يمكنهم النطق بها والكلام من جهتها. الثاني: أن يفعل الله تعالى في هذه البنية كلاماً يتضمّن الشهادة، فكأنّها هي الناطقة. والثالث: أن يجعل فيها علامة تقوم مقام النطق بالشهادة، وذلك إذا جحدوا معاصيهم. وأمّا شهادة الألسن فيجوز أن يكونوا يشهدون بألسنتهم إذا رأوا آية لا ينفعهم الجحد.

وأمّا قوله تعالى: ﴿اليومَ نَخْتِمُ على أفواهِهِمْ﴾[٢] فإنّه يجوز أن تُخرج الألسنة ويُختم على الأفواه، ويجوز أن يكون الختم على الأفواه إنّما هو في حال شهادة الأيدي والأرجل. وقال الجبّائي: ويجوز أن يبنيها بنية مخصوصة، ويحدث فيها شهادة تشهد عليهم بها.

---

(١) في الخطيّة: «يبيّنها» بدل «يبنيها» وهكذا الموارد الآتية.

(٢) يس: ٦٥.

وقوله: ﴿يَومَئذٍ يُوفِّيهمُ اللهُ دينَهُمُ الحقَّ﴾ يعني جزاؤهم الحقّ، والدين ـ هاهنا ـ الجزاء، ويجوز أن يكون المراد جزاء دينهم الحقّ، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ﴿ويَعلمُونَ أنّ اللهَ هُوَ الحقُّ المبينُ﴾ أي يعلمون الله ضرورة في ذلك اليوم، ويقرّون أنّه الحقّ الّذي أبان الحجج والآيات في دار التكليف. وقرأ مجاهد ﴿الحقُّ﴾ بالرفع جعله من صفة الله، ومن نصبه جعله صفة للدين.

قوله تعالى:

أَلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلْطَيِّبَاتِ أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيمٌ﴿٢٦﴾ آية بلا خلاف.

قيل في معنى الآية: أربعة أقوال: أحدها: قال ابن عبّاس ومجاهد والحسن والضحّاك: معناه الخبيثات من الكلم للخبيثين من الرجال أي صادرة منهم.

الثاني: في رواية أُخرى عن ابن عبّاس: أنّ الخبيثات من السيّئات للخبيثين من الرجال والطيّبات من الحسنات للطيّبين من الرجال.

الثالث: قال ابن زيد: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، كأنّه ذهب إلى اجتماعهما للمشاكلة بينهما.

والرابع: قال الجبّائي: الخبيثات من النساء الزواني للخبيثين من الزناة من الرجال [من الرجال الزناة، على التعبّد الأوّل ثمّ نسخ، وقيل: الخبيثات من الكلم إنّما تلزم الخبيثين من الرجال، خ] وتليق بهم[1] والطيّبات للطيّبين والطيّبون للطيّبات عكس ذلك على السواء في الأقوال الأربعة. و«الخبيث» الفاسد الّذي يتزايد في الفساد تزايد النامي في النبات، ونقيضه

(١) في المخطوطة: «تلصق» بدل «تليق».

الطيّب. والحرام كلّه خبيث. والحلال كلّه طيّب.

وقوله: ﴿أولئكَ مُبرَّؤنَ مِمّا يَقُولُونَ﴾ قال مجاهد معناه: الطيّبون من الرجال مبرّأون من خبيثات القول، يغفرها الله لهم، ومن كان طيّباً فهو مبرّأ من كلّ قبيح، ومن كان خبيثاً فهو مبرّأ من كلّ طيب فإنّ الله يردّه عليه ولا يقبله منه.

وقال الفرّاء[١] وغيره: يرجع ذلك إلى عائشة وصفوان بن مُعَطّل، كما قال: ﴿فإنْ كانَ لَهُ إخوَةٌ﴾[٢] والأُمّ تحجب بالأخوين، فجاء على تغليب لفظ الجمع الّذي يجري مجرى الواحد في الإعراب، وإنّما قال: ﴿مبرّؤن ...﴾ الآية، لأنّه ذكر صفة الجمع. و«المبرّأ» المنزّه عن صفة الذمّ، المنفيّ عنه صفة العيب، يقال: برّأه الله من كذا، إذا نفاه عنه. والله تعالى يبرّئ المؤمنين من العيوب الّتي يضيفها إليهم أعداؤهم، ويفضح من يكذب عليهم. وقوله: ﴿لهم مَغفِرَةٌ ورِزقٌ كَريمٌ﴾ أي لهؤلاء الطيّبين من الرجال والنساء مغفرة من الله لذنوبهم وعطيّة من الله كريمة، فالرزق الكريم هو الّذي يعطي الخير على الإدرار المهنّأ من غير تنغيص الامتنان، وهو رزق الله تعالى الّذي يعمّ جميع العباد، ويخصّ من يشاء بالزيادة في الأفعال. وقال قتادة: ﴿لهم مغفرةٌ من الله ورزقٌ كريمٌ﴾ في الجنّة.

قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلىٰ أهلِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإنْ لَمْ تَجِدوُا فيهَا أحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإنْ قيلَ لَكُمُ ارجِعُوا فارجِعُوا هُوَ أزكىٰ لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَليمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسكُونَة فيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ

(١) معاني القرآن ٢: ٢٤٩. (٢) النساء: ١١.

وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِلْمؤمِنينَ يَغُضُّوا مِنْ أبصَارِهِمْ وَيَحفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلكَ أزكىٰ لَهُمْ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ أربع آيات بلا خلاف.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم أن يدخلوا بيوتاً لايملكونها، وهي ملك غيرهم إلّا بعد أن يستأنسوا، ومعناه يستأذنوا، و«الاستئناس» الاستئذان، في قول ابن عبّاس وابن مسعود وإبراهيم وقتادة، كان المعنى يستأنسوا بالإذن. وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: القراءة ﴿حتّى تَسْتأذِنُوا﴾ وإنّما وهم الكتّاب. وهو قول سعيد بن جبير، وبه قرأ أُبيّ بن كعب. وقال مجاهد: حتّى تستأنسوا بالتنحنح والكلام الّذي يقوم مقام الاستئذان.

وقد بيّن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وإذا بلغ الأطفالُ مِنكُمُ الحُلُمَ فَليَستأذِنُوا﴾ (١) قال عطاء: وهو واجب في أُمّه وسائر أهله، و«الاستئناس» طلب الأُنس بالعلم أو غيره، كقول العرب: اذهب فاستأنس هل ترى أحداً، ومنه قوله: ﴿فإنْ ءَانستُم مِنهُمْ رُشْداً﴾ (٢) أي علمتم.

وقوله: ﴿وتسلّموا على أهلِها﴾ معناه على أهل البيوت ينبغي أن يسلّم عليهم إذا أذنوا لهم في الدخول ودخلوها. وروى أبو موسى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «الاستئذان ثلاث، فإن أذنوا، وإلّا فارجع» فدعاه عمر، فقال: لتأتيني بالبيّنة وإلّا عاقبتك، فمضى أبو موسى، فأتى بمن سمعه معه (٣).

والفرق بين الإذن في الدخول وبين الدعاء إليه: أنّ الدعاء إليه يدلّ على إرادة الداعي وليس كذلك الإذن، وفي الدعاء رغبة الداعي أو المدعوّ وليس كذلك الإذن. وقوله: ﴿ذلكُمْ خَيْرٌ لكمْ﴾ يعني الاستئذان خير لكم من تركه، لتذكّروا في ذلك، فلا تهجموا على العورات.

---

(١) النور: ٥٩. (٢) النساء: ٦. (٣) الكشف والبيان ٧: ٨٥.

وقوله: ﴿فإنْ لم تَجِدُوا فيها أحَداً﴾ يعني إن لم تعلموا في البيوت أحداً يأذن لكم في الدخول ﴿فلا تَدخُلُوها﴾ لأنّه ربما كان فيما مالا يجوز أن تطّلعوا عليه إلّا بعد أن يأذن أربابها في ذلك، يقال: وجد إذا علم.

وقوله: ﴿وإنْ قيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فارجِعُوا﴾ أي لا تدخلوا إذا قيل لكم: لاتدخلوا، فإنّ ذلك ﴿أزكَى لَكُمْ﴾ أي أطهر ﴿واللهُ بما تَعملُونَ عَليمٌ﴾ أي عالم بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها.

ثمّ قال: ﴿ليسَ عليكُمْ جَناحٌ﴾ أي حرج وإثم ﴿أنْ تدخُلُوا بُيوتاً غَيرَ مسكونَةٍ فيها متاعٌ لَكُم﴾ أي منافع.

وقيل في معنى هذه البيوت: أربعة أقوال: أحدها: قال قتادة: هي الخانات، فإنّ فيها استمتاعاً لكم من جهة نزولها لا من جهة الأثاث الّذي لكم فيها. وقال محمّد بن الحنفية: هي الخانات الّتي تكون في الطرق مسبّلة. ومعنى «غير مسكونة» أي لا ساكن لها معروف.

وقال عطاء: هي الخرابات للغائط والبول. و قال ابن زيد: هي بيوت التجّار الّتي فيها أمتعة الناس. وقال قوم: هي بيوت مكّة. وقال مجاهد: هي مناخات الناس في أسفارهم يرتفقون بها. وقال قوم: هي جميع ذلك حملوه على عمومه، لأنّ الاستئذان إنّما جاء لئلّا يهجم على ما لا يجوز من العورة. وهو الأقوى، لأنّه أعمّ فائدة.

وقوله: ﴿واللهُ يعلَمُ ما تُبدُونَ وما تَكتُمُونَ﴾ أي لا يخفى عليه ماتظهرونه ولا ما تكتمونه، لأنّه عالم بجميع ذلك.

ثمّ خاطب النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: ﴿قل﴾ يا محمّد ﴿للمؤمنينَ يَغُضُّوا من أبصارِهم﴾ يعني عن عورات النساء وما يحرم النظر إليه. وقيل: العورة من النساء ما عدا الوجه والكفّين والقدمين، فأمروا بغضّ البصر عن عوراتهنّ،

ودخلت «من» لابتداء الغاية، ويجوز أن تكون للتبعيض، والمعنى أن يطرق وإن لم يغمض. وقيل: العورة من الرجل العانة إلى مستغلظ الفخذ من أعلى الركبة، وهو العورة من الإماء. قالوا: ويدلّ على أنّ الوجه والكفّين والقدمين ليس من العورة من الحرّة أنّ لها كشفه في الصلاة، وإذا كانت محرّمة [كانت، ظ] مثل ذلك بالإجماع، والقدمان فيهما خلاف.

وقوله: ﴿ويحفَظُوا فُروجَهُمْ﴾ أمر من الله تعالى أن يحفظ الرجال فروجهم عن الحرام، وعن إبدائها حيث ترى، فإنّهم متى فعلوا ذلك كان أزكى لأعمالهم عند الله و﴿إنّ الله خَبيرٌ بما يصنَعُونَ﴾ أي عالم بما يعملونه أي على أيّ وجه يعملونه.

وقال مجاهد: قوله ﴿فإن لم تَجدُوا فيها أحداً﴾ معناه فإن لم يكن لكم فيها متاع فلا تدخلوها إلّا بإذن، فإن قيل لكم: ارجعوا فارجعوا. وهذا بعيد، لأنّ لفظة «أحد» لا يعبّر بها إلّا عن الناس ولا يعبّر بها عن المتاع.

قوله تعالى:

وَقُلْ لِلمُؤمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أبصَارِهِنَّ ويَحْفَظنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدينَ زينَتَهُنَّ إلّا مَا ظَهَرَ مِنْها وَلْيَضرِبنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدينَ زينَتَهُنَّ إلّا لبُعُولَتِهِنَّ أو آبائهنَّ أو آباء بُعُولَتِهنَّ أو أبنائهنَّ أو أبنَاءِ بُعُولتِهِنَّ أو إخْوانِهِنَّ أو بَني إخوانِهِنَّ أو بَني أخَوَاتِهنَّ أو نِسَائهنَّ أو مَا مَلكَتْ أيْمانُهُنَّ أو التّابِعينَ غَيْرِ أُولي الإرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أو الطِّفلِ الّذينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلىٰ عَوْراتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بأرجُلِهِنَّ ليُعْلَمَ مَا يُخْفينَ مِنْ زينَتِهِنَّ وتُوبُوا إلَى اللهِ جَميعاً أيُّهَ المؤمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ آية بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ﴿غير أُولي الإربة﴾ نصباً، الباقون بالجرّ. وقرأ ابن عامر ﴿أيّهُ المؤمنونَ﴾ بضمّ الهاء، ومثله ﴿يا أيّهُ

السَّاحِرُ﴾[١] و﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾[٢] الباقون ﴿أيّها﴾ بفتح الهاء مع الألف فيها، وكلّهم وقف بلا ألف إلّا الكسائي وأهل البصرة والزينبي من طريق العطّار والمالكي فإنّهم وقفوا بألف. قال أبو عليّ: الوقف بالألف أجود، لأنّها سقطت في الوصل لاجتماع الساكنين[٣].

لمّا أمر الله تعالى الرجال المؤمنين في الآية الأُولى بغضّ أبصارهم عن عورات النساء، وأمرهم بحفظ فروجهم عن ارتكاب الحرام أمر المؤمنات في هذه الآية أيضاً من النساء بغضّ أبصارهنّ عن عورات الرجال وما لا يحلّ النظر إليه، وأمرهنّ أن يحفظن فروجهنّ إلّا عن أزواجهنّ على ما أباحه الله لهم ويحفظن أيضاً إظهارها بحيث ينظر إليها، ونهاهنّ عن إبداء زينتهنّ إلّا ما ظهر منها، قال ابن عبّاس: يعني القرطين والقلادة والسوار والخلخال والمعضد النحر [المنحر، ظ] فإنّه يجوز لها إظهار ذلك لغير الزوج، فأمّا الشعر فلا يجوز أن تبديه إلّا لزوجها.

والزينة المنهيّ عن إبدائها زينتان: فالظاهرة الثياب، والخفية الخلخال والقرطان والسوار، في قول ابن مسعود. وقال إبراهيم: الظاهر الّذي أُبيح الثياب فقط. وعن ابن عبّاس ـ في رواية أُخرى ـ أنّ الّذي أُبيح الكحل والخاتم والحذاء والخضاب في الكفّ. وقال قتادة: الكحل والسوار والخاتم. وقال عطاء: الكفّان والوجه. وقال الحسن: الوجه والثياب.

وقال قوم: كلّما ليس بعورة يجوز إظهاره، وأجمعوا أنّ الوجه والكفّين ليسا بعورة، لجواز إظهارها في الصلاة. والأحوط قول ابن مسعود، والحسن بعده قول إبراهيم[٤].

---

(١) الزخرف: ٤٩.
(٢) الرحمن: ٣١.
(٣) الحجة للقرّاء السبعة ٣: ١٩٧.
(٤) في هامش الهجريّة: بعد قول إبراهيم، ظ.

وقوله: ﴿وليَضرِبنَ بخُمرهنَّ على جُيُوبِهنَّ﴾ فالخمار غطاء رأس المرأة المنسبل على جبينها[١] وجمعه خمر، وقال الجبّائي: هي المقانع.

ثمّ كرّر النهي عن إظهار الزينة تأكيداً وتغليظاً، واستثنى من ذلك: الأزواج وآباء النساء وإن علوا، وآباء الأزواج وأبنائهم، أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن، أو نسائهنّ يعني نساء المؤمنين دون نساء المشركين إلّا إذا كانت أمة، وهو معنى قوله: ﴿أو ما مَلكَتْ أيمانُهنّ﴾ أي من الإماء، في قول ابن جريج، فإنّه لا بأس بإظهار الزينة لهؤلاء المذكورين، لأنّهم محارم.

وقوله: ﴿أو التابِعينَ غَيرِ أُولي الإرْبَةِ من الرجالِ﴾ قال ابن عبّاس: هو الّذي يتبعك ليصيب من طعامك ولا حاجة له في النساء، وهو الأبله، وبه قال قتادة وسعيد بن جبير وعطاء. وقال مجاهد: هو الطفل الّذي لا إرب له في النساء لصغره. وقيل: هو العنّين، ذكره عكرمة والشعبي. وقيل: هو المجبوب[٢]. وقيل: هو الشيخ الهِمّ[٣].

و«الإرْبَة» الحاجة، وهي فعلة من الأرْب، كالمشية من المشي والجلسة من الجلوس. وقد أربت لكذا آرب له أرباً: إذا احتجت إليه، ومنه الأُربة ـ بضمّ الألف ـ العقدة، لأنّ ما يحتاج إليه من الأُمور يقتضي العقدة عليه، ولأنّ الحاجة كالعقدة حتّى تنحلّ بسدّ الخلّة، ولأنّ العقدة الّتي تمنع من المنفعة يحتاج إلى حلّها، ولأنّ العقدة عمدة الحاجة.

وقوله: ﴿أو الطفلِ الّذينَ لم يظهرُوا على عَوراتِ النِساءِ﴾ يعني الصغار

---

(١) كذا في الخطيّة والحجريّة وفي مجمع البيان: المنسدل على جيبها.

(٢) في النكت والعيون ٤: ٩٥: وهذا قول مأثور.

(٣) قاله يزيد بن حبيب كما في النكت ٤: ٩٥.

الّذين لم يراهقوا، فإنّه يجوز إبداء الزينة لهم. وقوله: ﴿ولا يضربنَ بأرجُلهنَّ ليعلَمَ مَا يُخفينَ من زينَتهنَّ﴾ معناه لا تضرب امرأة برجلها ليعلم صوت الخلخال في رجلها، كما كان يفعله نساء أهل الجاهليّة، وذلك يدلّ على أنّ إظهار الخلخال لا يجوز.

ثمّ أمر الله تعالى المكلّفين، فقال: ﴿وتُوبُوا إلى اللهِ جميعاً أيّها المؤمنونَ لعلّكمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لتفوزوا بثواب الجنّة.

ومن نصب «غير» يجوز أن يكون على الاستثناء، ويجوز أن يكون على الحال، ومن كسر جعله نعتاً لـ «التابعين» و«غير» وإن لم يوصف به المعارف فإنّما المراد بـ«التابعين» ليس بمعيّن.

وابن عامر إنّما ضمّ الهاء ووقف بلا ألف في ﴿أيّه﴾ اتّباعاً للمصحف.

قال أبو عليّ: وقراءته ضعيفة، لأنّ آخر الاسم هو الياء الثانية في أيّ، فينبغي أن يكون المضموم آخر الاسم [ولا يجوز ضمّ الهاء][1] كما لايجوز ضمّ الميم في قوله: «اللّهمَّ» ولأنّه آخر الكلام[2] و«ها» للتنبيه، فلايجوز حذف الألف بحال.

قوله تعالى:

وَأنكِحُوا الأيَامىٰ مِنْكُمْ والصَّالِحينَ من عِبَادِكُمْ وإمَائِكُمْ إنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ واللهُ وَاسِعٌ عَليمٌ ﴿٣٢﴾ وَليَسْتَعفِفِ الَّذينَ لَا يَجِدُونَ نكَاحاً حَتّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذينَ يَبْتَغُونَ الْكتابَ مِمّا مَلَكَتْ أيمَانُكُم فَكَاتِبُوهُم إن عَلِمْتُمْ فيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الّذي آتيكُمْ وَلا تُكرِهُوا فَتَياتِكُم عَلَى البِغَاءِ إنْ أرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبتَغُوا عَرَضَ الحَيٰوةِ الدُّنيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فإنّ اللهَ مِن بَعْدِ إكرَاهِهِنَّ

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الحجريّة، أثبتناه من المصدر.
(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ١٩٨.

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ آيتان بلا خلاف.

هذا خطاب من الله للمكلّفين من الرجال يأمرهم الله تعالى أن يزوّجوا الأيامى اللواتي لهم عليهنّ ولاية، وأن يزوّجوا الصالحين المستورين الّذين يفعلون الطاعات من المماليك والإماء إذا كانوا ملكاً لهم، والأيامى جمع أيّم، وهي المرأة الّتي لا زوج لها سواء كانت بكراً أو ثيّباً، ويقال للرجل الّذي لا زوجة له: أيّم أيضاً. ووزن أيّم «فيعل» بمعنى «فعيل» فجمعت كجمع يتيم ويتيمة ويتامى، وقال جميل:

أُحبّ الأيامى إذ بثينةُ أيّمٌ وأحببتُ لما أن غنيتِ الغَوانيا[1]

ويجوز جمعه أيايم، ويقال: امرأة أيّم وأيّمة إذا لم يكن لها زوج، قال الشاعر:

فإن تَنكحي أنكِحْ وإن تَتأيّمي وإن كنتُ أفتى منكم أَتأيّمُ[2]

وقال قوم: الأيّم الّتي مات زوجها، ومنه قوله عليه السلام: «والأيّم أحقّ بنفسها» يعني الثيّب. ومعنى أنكحوا زوّجوا، يقال: نكح إذا تزوّج، وأنكح غيره إذا زوّجه. وقيل: إنّ الأمر بتزويج الأيامى إذا أردن ذلك أمر فرض، والأمر بتزويج الأمة إذا أرادت ندب، وكذلك العبد.

وقوله: ﴿إن يكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ من فَضلِهِ واللهُ واسعٌ عَليمٌ﴾ معناه لاتمتنعوا من إنكاح المرأة أو الرجل إذا كانوا صالحين لأجل فقرهما وقلّة ذات أيديهما ، فإنّهم وإن كانوا كذلك فإنّ الله تعالى يغنيهم من فضله، فإنّه تعالى واسع المقدور كثير الفضل، عليم بأحوالهم وبما يصلحهم، فهو يعطيهم على قدر ذلك. وقال قوم: معناه إن يكونوا فقراء إلى النكاح يغنهم الله بذلك عن الحرام. فعلى الأوّل تكون الآية خاصّة في الأحرار، وعلى

(١) ديوان جميل بثينة: ١٠٦.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٦٥.

الثاني عامّة في الأحرار والمماليك.

وقوله: ﴿وليستَعفِفِ الّذينَ لا يجدُونَ نِكاحاً حتّى يُغنيهُمُ اللهُ من فَضلِهِ﴾ أمر من الله تعالى لمن لايجد السبيل إلى أن يتزوّج ـ بأن لا يجد طولاً من المهر، ولا يقدر على القيام بما يلزمها من النفقة والكسوة ـ أن يتعفّف ولايدخل في الفاحشة، ويصبر حتّى يغنيه الله من فضله.

وقوله: ﴿والّذينَ يَبتَغُونَ الكِتابَ ممّا مَلَكَتْ أيمانُكم﴾ معناه أنّ الإنسان إذا كانت له أمة أو عبد يطلب المكاتبة ـ وهي أن يقوّم على نفسه وينجّم عليه ليؤدّي قيمة نفسه إلى سيّده ـ فإنّه يستحبّ للسيّد أن يجيبه إلى ذلك ويساعده عليه، لدلالة قوله تعالى: ﴿فكاتِبُوهُمْ إنْ علمتُمْ فيهِم خَيراً﴾ وهذا أمر ترغيب بلا خلاف عند الفقهاء. وقال عمرو بن دينار وعطاء والطبري: هو واجب عليه إذا طلب.

وصورة المكاتبة أن يقول الإنسان لعبده أو أمته: قد كاتبتك على أن تعطيني كذا وكذا ديناراً أو درهماً فينجوممعلومة على أنّك إذا أدّيت ذلك فأنت حرّ، فيرضى العبد بذلك ويكاتبه عليه ويشهد بذلك على نفسه. فمتى أدّى ذلك ـ وهو مال الكتابة في النجوم الّتي سمّاها ـ صار حرّاً، وإن عجز عنأداء ذلك كان لمولاه أن يردّه فيالرقّ. وعندنا ينعتقمنه بحساب ماأدّى ويبقى مملوكاً بحساب ما بقي عليه إذا كانت الكتابة مطلقة، فإن كانت مشروطة بأنّه متى عجز ردّه في الرقّ، فمتى عجز جاز له ردّه في الرقّ.

و«الخير» الّذي يعلم منه هو القوّة على التكسّب. وتحصيل ما يؤدّي به مال الكتابة. وقال الحسن: معناه إن علمتم منهم صدقاً. وقال ابن عبّاس وعطاء: إن علمتم لهم مالاً. وقال ابن عمر: إن علمتم فيهم قدرة على التكسّب، قال: لأنّه إذا لم يقدر على ذلك قال: أطعمني أوساخ أيدي

الناس، وبه قال سلمان.

واختلفوا في الأمر بالكتابة مع طلب المملوك لذلك وعلم مولاه أنّ فيه خيراً، فقال عطاء: هو الفرض. وقال مالك والثوري وابن زيد: هو على الندب. وهو مذهبنا.

وقوله: ﴿وآتُوهُمْ مِن مالِ اللهِ الّذي آتاكُمْ﴾ أمر من الله تعالى أن يعطي السيّد مكاتبه من ماله الّذي أنعم الله عليه بأن يحطّ شيئاً منه. وروى عبد الرحمن السلمي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: يحطّ عنه ربع مال الكتابة[1]. وقال سفيان: أُحبّ أن يعطيه الربع أو أقلّ، وليس بواجب. وقال ابن عبّاس وعطاء وقتادة: أمره بأن يضع عنه من مال الكتابة شيئاً. وقال الحسن وإبراهيم: حثّه الله تعالى على معونته.

وقال قوم: المعنى آتوهم سهمهم من الصدقة الّذي ذكره في قوله: ﴿وفي الرقاب﴾[2] ذكره ابن زيد عن أبيه، وهو مذهبنا.

واختلفوا في الحطّ عنه، فقال قوم: هو واجب، وقال آخرون ـ وهو الصحيح ـ إنّه مرغّب فيه. وقوله: ﴿ولا تكرهوا فتياتِكمْ على البِغاءِ إنْ أردنَ تحصُّناً﴾ نهي عن إكراه الأمة على الزنا. قال جابر بن عبد الله: نزلت في عبد الله بن أُبيّ بن سلول، حين أكره أمته مسيكة على الزنا. وهذا نهي عامّ لكلّ مكلّف عن أن يكره أمته على الزنا طلباً لمهرها وكسبها. وقوله: ﴿إن أردنَ تَحصُّناً﴾ صورته صورة الشرط وليس بشرط وإنّما ذكر لعظم الإفحاش في الإكراه على ذلك. وقيل: إنّها نزلت على سبب فوقع النهي عن المعني على تلك الصفة.

وقوله: ﴿ومَن يُكرِههُنَّ﴾ يعني على الفاحشة ﴿فإنّ اللهَ مِن بعد إكراهِهِنَّ

---

(١) رواه الطبري ذيل الآية.

(٢) التوبة: ٦٠.

غفورٌ رحيمٌ﴾ أي لهنَّ غفور رحيم إن وقع منها صغير في ذلك، والوزر على المكره.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمثَلاً مِنَ الَّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوعِظَةً للمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ اللهُ نُورُ السَّمٰواتِ والأرضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشكٰوةٍ فيها مِصْبَاحُ المِصبَاحُ في زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كأنَّها كَوكبُ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَربيَّةٍ يَكادُ زَيتُهَا يُضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نورٌ عَلىٰ نُور يَهْدي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأمثَالَ لِلنّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيء عَليمٌ ﴿٣٥﴾ آيتان بلا خلاف.

قرأ ﴿درّي﴾ [مشدّدة، خ] بضمّ الدال من غير همز ابن كثير ونافع وابن‌عامر وحفص عن عاصم، وقرأبكسر الدال والهمز أبو عمرو والكسائي، وقرأ بضمّ الدال والهمز حمزة وعاصم في رواية أبي بكر. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿توقد﴾ بفتح التاء والدال، وقرأ بالياء مخفّفة مرفوع مضموم الياء نافع وابن عامر وحفص عن عاصم والكسائي، وقرأبضمّ التاء والدال مخفّفة مرفوعة حمزة وأبو بكر عن عاصم.

فمن قرأ﴿درّي﴾ بكسر الدال فهو من «درأت» أي دفعت، والكوكب درّي لسرعة دفعه في الانقضاض، والجمع الدراريّ، وهي النجوم الّتي تجيء وتذهب. وقال قوم: هي أحد الخمسة المضيئة: زحل، والمشتري، والمرّيخ، والزهرة، وعطارد.

ومن قرأ بضمّ الدال نسبه إلى الدرّ في صفائه وحسنه. ومن ضمّ الدال وهمز فهو غير معروف عند أهل اللغة، لأنّه ليس في الكلام فُعيل ذكره الفرّاء[١]. وقال أبو عبيدة: وجهه أن يكون بفتح الدال، كأنّه فَعيل. قال

---

(١) معاني القرآن ٢: ٢٥٢.

سيبويه: ليس في الكلام فعيل وإنّما تكسر الفاء مثل «سكيت».

وروى المفضّل عن عاصم أنّه قرأ بكسر الدال من غير همز ولا مدّ. ومعناه: أنّه جاركالنجومالدراريّ الجارية، مأخوذ من درّالوادي إذا جرى.

ووجه قراءة ابن كثير في ﴿توقد﴾ أنّه على فعل ماض وضمّ الدال ابنمحيصن أراد «تتوقّد». ومن ضمّ الياء مثل نافع وابن عامر ردّه على الكوكب. وقال الفرّاء: ردّه على المصباح. ومن ضمّ التاء والدال ردّه على الزجاجة[1].

أقسم الله تعالى أنّه أنزل ﴿آيات﴾ يعني دلالات ﴿مبيّنات﴾ يعني مفصّلات بيّنهنّ الله وفصّلهنّ فيمن قرأ بفتح الياء، ومن كسر الياء معناه أنّ هذه الآيات والحجج تبيّن المعاني وتظهر ما بطن فيها. وقوله: ﴿ومثلاً مِنَ الذينَ خَلوْا من قَبْلِكُمْ ومَوعِظةً للمتّقينَ﴾ معناه أنّه أنزل إليكم أخبار من كان قبلكم من أُمم الرسل، وجعل ذلك عبراً لنا. وقيل: ليعتبروا بذلك ويستدلّوا به على ما يرضاه الله منّا فنفعله، وعلى ما يسخطه فنتجنّبه.

وقوله: ﴿اللهُ نورُ السمواتِ والأرضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشكاةٍ﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: أنّ الله هادي أهل السموات والأرض ذكره ابن عبّاس في رواية وأنس. والثاني: أنّه منوّرالسموات والأرضبنجومها وشمسها وقمرها في رواية أُخرى عن ابن عبّاس، وقال أبو العالية والحسن مثل ذلك.

ثمّ قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشكاةٍ فيها مِصباحٌ﴾ الهاء في قوله: ﴿نوره﴾ قيل: إنّها تعود على المؤمن، وتقديره: مثل النور الّذي في قلبه بهداية الله، وهو قول أُبيّ بن كعب والضحّاك. وقال ابن عبّاس: هي عائدة على اسم الله، ومعناه مثل نور الله الّذي يهدي به المؤمن. وقال الحسن: مثل هذا

---

(١) معاني القرآن ٢: ٢٥٢.

القرآن في القلب كمشكاة. وقيل: مثل نوره وهو طاعته، في قول ابن‌عبّاس في رواية. وقيل: مثل نور محمّدﷺ وقال سعيد بن جبير: النور محمّد، كأنّه قال: مثل محمّد رسول اللهﷺ فالهاء عن الله.

و«المشكاة» الكوّة الّتي لا منفذ لها، في قول ابن عبّاس وابن جريج. وقيل: هو مثل ضرب لقلب المؤمن والمشكاة صدره، والمصباح القرآن والزجاجة قلبه، في قول أُبيّ بن كعب وقال: فهو بين أربع خلال إن أُعطي شكر، وإن ابتلي صبر، وإن حكم عدل، وإن قال صدق. وقيل: المشكاة عمود القنديل الّذي فيه الفتيلة، وهو مثل الكوّة. وقال كعب الأحبار: المشكاة محمّدﷺ والمصباح قلبه، شبّه صدر النبيّﷺ بالكوكب الدرّي.

ثمّ رجع إلى المصباح أي قلبه شبّهه بالمصباح كأنّه في زجاجة و﴿الزُجاجَةُ كأنّها كَوكَبٌ درّي يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيتُونَةٍ لا شرقيّة ولا غَربيّةٍ يَكادُ زَيتُها يضِيءُ﴾ أي يتبيّن للناس ولو لم يتكلّم أنّه نبيّ.

ومن قال: ﴿اللهُ نورُ السمواتِ﴾ يعني منوّرها بالشمس والقمر والنجوم، ينبغي أن يوجّه ضرب المثل بالمشكاة على أنّ ذلك مثل ما في مقدوره، ثمّ تنبثّ الأنوار الكثيرة عنه. ضرب الله تعالى المثل لنوره الّذي هو هدايته في قلوب المؤمنين بالمشكاة، وهي الكوّة الّتي لا منفذ لها إذا كان فيها مصباح، وهو السراج، ويكون المصباح في زجاجة، وتكون الزجاجة مثل الكوكب الدرّي المنسوب إلى الدرّ في صفائه ونوره. ومن كسر الدال شبّهها بالكوكب في سرعة تدفعه بالانقضاض.

ثمّ عاد إلى وصف المصباح، فقال: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرةٍ مُبارَكةٍ زَيتونَةٍ﴾ أي يشتعل من دهن شجرة مباركة، وهي الزيتونة، قيل: لأنّ زيتون الشام أبرك. وقيل: وصفه بالبركة لأنّ الزيتون يورق من أوّله إلى آخره.

وقوله: ﴿لا شَرقيّةٍ ولا غَربيّةٍ﴾ قال ابن عبّاس في رواية: معناه لاشرقيّة بشروق الشمس عليها فقط ولا غربيّة بغروبها عليها فقط، بل هي شرقيّة غربيّة بأخذها حظّها من الأمرين، فهو أجود لزيتها. وقيل: معناه أنها وسط البحر، روي ذلك عن ابن عبّاس أيضاً. وقال قتادة: هي ضاحية للشمس. وقال الحسن: ليست من شجر الدنيا.

﴿يكادُ زيتُها يضيءُ ولَو لَمْ تَمسسهُ نارٌ﴾ أي زيتها من صفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسّه نار وتشتعل فيه. وقال ابن عمر: الشجرة إبراهيم عليه السلام والزجاجة ـ الّتي كأنّها كوكب درّي ـ محمّد صلى الله عليه وآله.

وقوله: ﴿نُورٌ على نُورٍ﴾ قيل: معناه نور الهدى إلى توحيده على نور الهدى بالبيان الّذي أتى به من عنده. وقال زيد بن أسلم ﴿نُورٌ على نُورٍ﴾ معناه يضيء بعضه بعضاً. وقيل ﴿نَورٌ على نُورٍ﴾ معناه أنّه يتقلّب في خمسة أنوار، فكلامه نور، وعلمه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومسيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنّة. وقال مجاهد: ضوء النار على ضوء الزيت على ضوء الزجاجة.

وقوله: ﴿يَهدي اللهُ لنورهِ مَن يَشاءُ﴾ أي يهدي الله لدينه وإيمانه من يشاء بأن يفعل له لطفاً يختار عنده الإيمان إذا علم أنّ له لطفاً. وقيل: معناه يهدي الله لنبوّته من يشاء، ممّن يعلم أنّه يصلح لها. وقيل: معناه يهدي الله لنوره أي يحكم بإيمانه لمن يشاء، ممّن آمن به. وقوله: ﴿ويَضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ﴾ معناه يضرب الله الأمثال للّذين يفكّرون فيها ويعتبرون بها ﴿واللهُ بكلِّ شيءٍ عَليمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية.

قوله تعالى:

في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾

رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقامِ الصَّلٰوةِ وإيتَاءِ الزَّكٰوةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيهِ القُلُوبُ وَالابصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجزِيَهُمُ اللهُ أحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾.

ثلاث آيات [عراقي وشامي، واثنتان حجازي، لأنّ الأوّل عدّوا ﴿بالغدوّ والآصال﴾ ولم يعدّه الحجازيّون خ] في الكوفي والبصري تمام الآيةالأُولى ﴿والآصال﴾ وفيالباقي آيتانآخرهما ﴿الأبصار﴾ و﴿حساب﴾.

قرأ ابن عامر وأبو بكر وابن شاهين عن حفص ﴿يسبّح﴾ بفتح الباء، الباقون بكسرها، فمن فتح الباء وقرأ على ما لم يسمّ فاعله احتملت قراءته في رفع ﴿رجال﴾ وجهين:

أحدهما: أن يكون الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿والآصال﴾ ثمّ قال: ﴿رجال لا تُلهِيهمْ تِجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكرِ اللهِ﴾ فالتجارة الجلب، والبيع ما يبيع الإنسان على يده.

والوجه الثاني: أن يرفع ﴿رجال﴾ بإضمار فعل يفسّره الأوّل، فيكون الكلام تامّاً عند قوله: ﴿والآصال﴾ ثمّ يبتدئ ﴿رجال﴾ بتقدير يسبّحه رجال. وقال أبو عليّ: يكون أقام الجارّ والمجرور مقام الفاعل، ثمّ فسّر من يسبّحه، فقال: ﴿رجال﴾ أي يسبّحه رجال، ومنه قول الشاعر:

لِيُبكَ يَزِيدُ ضارعٌ لخُصومةٍ(١)

كأنّه قال: ليبك يزيد. قيل: من يبكيه؟ فقال: يبكيه ضارع(٢).

وقال المبرّد: يجوز أن يكون يسبّح نعتاً للبيوت، وتقديره: ويذكر

---

(١) حكى سيبويه عن إنشاد بعضهم أنّه للحارث بن نَهيك، راجع الكتاب ١: ٢٨٨، وعجزه: ومختبط ممّا تُطيحُ الطوائحُ.

(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٤: ٢٠١.

ـ ويسبّح ظ ـ مسبّح له[١] فيها رجال لا تلهيهم تجارة.

ومن قرأ بكسر الباء ورفع رجالاً [رجال، خ] بفعلهم: فعلى هذه القراءة لا يجوز الوقف إلّا على ﴿رجال﴾ وعلى الأوّل على قوله: ﴿والآصال﴾ و«الآصال» جمع أصيل. وقرأ أبو محلم ﴿والاصال﴾ بكسر الألف جعله مصدراً.

قوله: ﴿في بيوتٍ أذن اللهُ﴾ قيل في العامل في ﴿في﴾ قولان: أحدهما: المصابيح في بيوت، والعامل استقرار المصابيح، وهو قول ابن زيد. والثاني: توقد في بيوت، وهذه البيوت هي المساجد، في قول ابن‌عبّاس والحسن ومجاهد. وقال عكرمة: هي سائر البيوت. وقال الزجّاج: يجوز أن تكون «في» متّصلة بـ«يسبّح» ويكون فيها[٢] كقولك: في الدار قام زيد فيها.

وقوله: ﴿أذن اللهُ أن تُرفَعَ﴾ قال مجاهد: معناه أذن الله أن تبنى، وترفع بالبناء، كما قال: ﴿وإذ يَرفعُ إبراهيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيتِ وإسماعيلُ﴾[٣] وقال الحسن: [معناه] أن تعظّم، لأنّها مواضع الصلوات. وقوله: ﴿ويُذْكَرُ فيها اسمُهُ﴾ أي يذكر اسم الله في هذه البيوت. وقيل: تنزّه من النجاسات والمعاصي.

وقوله: ﴿يُسبّحُ لَهُ فيها بالغدوِّ والآصالِ﴾ قال ابن عبّاس: معناه يصلّي له فيها بالغداة والعشيّ، وهو قول الحسن والضحّاك. وقال ابن عبّاس: كلّ تسبيح في القرآن صلاة.

وقوله: ﴿رِجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بَيعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ أي لا تشغلهم

(١) وفي المطبوع: في بيوت أذن الله برفعها وذكر اسمه يسبّح.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٥.
(٣) البقرة: ١٢٧.

ولا تصرفهم التجارة والبيع عن ذكر الله بتعظيمه. وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنّه تعالى مدح قوماً إذا دخل وقت الصلاة تركوا تجاراتهم وبيعهم واشتغلوا بالصلاة.

وقوله: ﴿وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ﴾ أي لا تصرفهم تجارتهم عن ذكر الله وعن إقامة الصلاة، وحذف [التاء] لأنّ الإضافة عوض عنها، لأنّه لا يجوز أن تقول: أقمته إقاماً، وإنّما يجوز إقامة، والهاء عوض عن محذوف، لأنّ أصله إقوام، فلمّا أضافه قامت الإضافة مقام الهاء ﴿وإيتاءِ الزكاةِ﴾ أي ولا يصرفهم ذلك عن إعطاء الزكاة الّتي افترضها الله عليهم. وقال ابن عبّاس: الزكاة الطاعة لله. وقال الحسن: هي الزكاة الواجبة في المال، قال الشاعر:

إنّ الخليطَ أجدّوا البَينَ فانجرَدوُا وأخلفوكَ عِدَ الأمرِ الّذي وَعَدُوا[١]

يريد عدة الأمر فحذف [الهاء لما أضاف].

وقوله تعالى: ﴿يَخافُونَ يَوماً تتقلّبُ فيهِ القُلوبُ والأبصارُ﴾ أي يخافون عذاب يوم أو أهوال يوم تتقلّب فيه القلوب من عظم أهواله، والأبصار من شدّة ما يعاينوه. وقيل: تتقلّب فيه القلوب ببلوغها الحناجر، وتقلّب الأبصار بالعمى بعد النظر.

وقال البلخي: معناه أنّ القلوب تنتقل من الشكّ الّذي كانت عليه إلى اليقين والإيمان، وأنّ الأبصار تتقلّب عمّا كانت عليه، لأنّها تشاهد من أهوال ذلك اليوم ما لم تعرفه، ومثله قوله: ﴿لَقدْ كُنتَ في غَفلَةٍ من هذا﴾[٢] الآية. وقال الجبّائي: تتقلّب القلوب والأبصار عن هيئاتها بأنواع العقاب كتقلّبها على الجمر. وقوله: ﴿ليجزيهُمُ اللهُ أحسنَ ما عمِلوا﴾ أي يفعلون ذلك

---

(١) للشاعر زهير بن أبي سلمى، راجع ديوانه: ٢٦.

(٢) ق: ٢٢.

طلباً لمجازاة الله إيّاهم بأحسن ما عملوا من ثواب الجنّة، ويزيدهم على ذلك من فضله وكرمه.

ثمّ أخبر تعالى أنّه ﴿يَرزُق﴾ [من يشاء بغير حساب من كثرته لايحسب، ويجوز أن يكون المراد بغير مجازاة على عمل بأفضل منه والثواب، خ] على عمل ما تفضّل به تعالى ﴿مَن يَشاءُ بغَيرِ حِسابٍ﴾ والثواب لا يكون إلّا بحساب، والتفضّل يكون بغير حساب.

قوله تعالى:

وَالّذينَ كَفَرُوا أعمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقيعَة يَحْسَبُهُ الظمانُ مَاءً حَتّى إذَا جَاءهُ لَم يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفّيهُ حسَابَهُ وَاللهُ سَريعُ الِحسَابِ ﴿٣٩﴾ أوْ كَظُلُمَاتٍ في بَحْرٍ لُجّي يَغْشيهُ مَوجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إذَا أخرَجَ يَدهُ لَمْ يَكَدْ يَريهَا ومَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾ آيتان بلاخلاف.

ثمّ أخبرالله تعالى عن أحوال الكفّار، فقال: ﴿والّذينَ كَفَروُا﴾ بتوحيد الله وإخلاص العبادة وجحدوا أنبياءه ﴿أعمالهم﴾ الّتي عملوها [يعملونها، خ] يعني الّتي يعتقدون أنّها طاعات وقربات ﴿كَسَرابٍ بقِيعَةٍ﴾ فالسراب شعاع يتخيّل كالماء يجري على الأرض نصف النهار حين يشتدّ الحرّ. و«الآل» شعاع يرتفع بين السماء والأرض ـ كالماء ضحوة النهار، والآل يرفع الشخص [الشخوص، خ] فيه. وإنّما قيل: سراب، لأنّه يتسرّب أي يجري كالماء.

و«قيعة» جمع قاع، وهو المنبسط من الأرض الواسع، وفيه يكون السراب، ومثله جارٍ وجيرة، ويجمع أيضاً على أقواع وقيعان، والشعاع بالقاع يتكيّف[1] فيرى كالماء، فإذا قرب منه صاحبه انفشّ كالضباب،

---

(١) في المطبوع: «يتكثّف».

فلم يره شيئاً، كما كان. وقال ابن عبّاس: القيعة الأرض المستوية. والمعنى: أنّ الكافر لم يجد شيئاً على ما قدّر. وقوله: ﴿ووَجَدَ اللهَ عِندَهُ فوفّاه حِسابَهُ﴾ والمعنى أنّ الّذي قدّره من جزاء أعماله لا يجده، ويعلمه الله عند عمله فيوفّيه جزاءه على سوء أفعاله.

وقوله: ﴿واللهُ سَريعُ الحِسابِ﴾ أي سريع المجازاة، لأنّ كلّ ما هو آت سريع قريب. وقال الجبّائي: لأنّه تعالى يحاسب الجميع في وقت واحد، وذلك يدلّ على أنّه لا يتكلّم بآلة وأنّه ليس بجسم، لأنّه لو كان متكلّماً بآلة لما تأتّى ذلك إلّا في أزمان كثيرة.

ثمّ شبّه الله تعالى أفعال الكافر بمثال آخر، فقال: ﴿أو كَظُلُماتٍ في بَحْرٍ لجّيٍّ﴾ أي أفعاله مثل ظلمات، يعني ظلمة البحر وظلمة السحاب وظلمة الليل، لأنّ الكافر حاله ظلمة واعتقاده ظلمة ومصيره إلى ظلمة، وهو [في] النار يوم القيامة نعوذ بالله منها.

وتلخيص الكلام: أنّ أعمال هؤلاء الكفّار كالسراب يحسبه الظمآن من بعد ماءً يرويه، حتّى إذا دنا منه لم يجده شيئاً، أي حتّى إذا مات لم يجد عمله شيئاً لأنّه بطل بكفره، ووجد الله عند عمله يجازيه عليه. ثمّ ضرب مثلاً آخر فقال: ﴿أو كَظُلُماتٍ﴾ يعني أنّه في حيرة من كفره مثل هذه الظلمات ﴿ومَن لم يَجعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً﴾ في قلبه ويهديه به ﴿فما لَهُ مِن نُورٍ﴾ يهتدي به.

وقوله: ﴿في بَحْرٍ لُجّيّ يَغشاهُ مَوجٌ مِن فَوقِهِ مَوجٌ مِن فَوقِه سَحابٌ ظلماتٌ بَعضُها فَوقَ بعض﴾ مبالغة في تشبيه هذه الأفعال بالظلمات المتكاثفة على ما وصفه الله تعالى، ولجّة البحر معظمه الّذي تتراكب فيه أمواجه لا يرى ساحله والظلمات مثل لحيرة الجهل الّذي يغشى القلب.

وقوله: ﴿حتى إذا أخرَجَ يَدهُ لَم يَكدْ يراها﴾ إنّما قال: لم يكد يراها مع أنّ في دون هذه الظلمات لا يراها، لأنّ كاد يراها معناه قارب أن يراها، ولم يكد يراها لم يقارب أن يراها، فهي نفي مقاربة الرؤية على الحقيقة. وقيل: إنّه دخل «كاد» بمعنى النفي كما يدخل الظنّ بمعنى اليقين، كأنّه قال: يكفيه أن يكون على هذه المنزلة فكيف أقصى المنازل. وقيل: رآها بعد جهد وشدّة، رؤية تخيّل لصورتها. وقال الحسن لم يرها لم يقارب الرؤية، قال الشاعر:

ما كِدتُ أعرفُ إلّا بعد إنكارِ[1]

وقالوا: كاد العروس يكون أميراً. وكاد النعام يطير. وقوله: ﴿ومَن لَمْ يَجعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فما لَهُ مِن نُورٍ﴾ معناه من لم يجعل الله له هداية إلى الرشد، فما له من نور، أي فما له ما يفلح به على وجه من الوجوه. وقيل: من لم يجعل الله له نوراً يوم القيامة يهديه إلى الجنّة، فما له من نور يهديه إليها.

وفي الآية دلالة على فساد قول من يقول: إنّ المعارف ضرورة، لأنّه لا يصحّ مع المعرفة الضروريّة الحسبان.

قوله تعالى:

ألمْ تَرَ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ في السَّمواتِ والأرضِ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبيحَهُ واللهُ عَليمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وللهِ مُلكُ السَّمٰواتِ وَالأرضِ وإلَى اللهِ الْمَصيرُ (٤٢) ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يُزْجي سَحَاباً ثُمَّ يُؤلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ من خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ منَ السَّماءِ مِنْ جِبَالٍ فيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَنْ يَشَاءُ يَكادُ سَنَا بَرقِهِ يَذهَبُ بالأبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ

---

(١) أنشده أبو عليّ الفارسي في الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٧٣ ولم ينسبه لأحد، وصدره:
حَيّوا الديار وحَيّوا ساكِنَ الدارِ

إنَّ في ذلكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِى الأبْصارِ﴿٤٤﴾

أربع آيات في البصري والكوفي، وثلاث في غيرها، لأنّهم لم يعدّوا ﴿بالأبصار﴾ آخر آية.

قرأ أبو جعفر المدني ﴿يذهب بالأبصار﴾ بضمّ الياء، الباقون بفتحها، وقد مضى ذكر مثله.

يقول الله تعالى لنبيّه محمّدﷺ: ﴿ألم تَرَ﴾ يا محمّد أي ألم تعلم أنّ الّذي ذكره في الآية لايرى بالأبصار وإنّما يعلم بالأدلّة. والمراد به جميع المكلّفين. ﴿أنّ الله يُسبّحُ لَهُ مَن في السَموات والأرضِ﴾ فالتسبيح التنزيه لله تعالى عن جميع ما لا يجوز عليه ولا يليق به. فمن نفى عنه الصاحبة والولد فقد سبّحه، لأنّه برّأه ممّا لا يجوز عليه. ومن نفى عنه أن يكون له شريك في ملكه أو عبادته فقد سبّحه، لأنّه برّأه ممّا لا يجوز عليه. وكذلك من نفى عنه فعل القبيح فقد سبّحه، لأنّه برّأه ممّا لا يجوز عليه. وتسبيح من في السموات والأرض إنّما هو بما فيها من الدلالات على توحيده، ونفي الصاحبة عنه ونفي تشبيهه بخلقه وتنزيهه عمّا لا يليق به ممّا يدلّ على ذلك ويدعو إليه ، كأنّه المسبّح له.

وقوله: ﴿والطَيرُ صافّاتٍ﴾ معناه وتسبّحه الطير صافّات في حال اصطفافها في الهواء، لأنّها إذا صفّت أجنحتها في الهواء وتمكّنت من ذلك كان في [ذلك] دلالة وعبرة على أنّ ممكّنها من ذلك لا يشبه شيئاً من المخلوقات.

وقوله: ﴿كلٌّ قد عَلِمَ صلاتَه وتسبيحَهُ﴾ معناه: أنّ جميع ذلك قد علم الله تعالى صلاته، يعني دعاءه إلى توحيده وتسبيحه وعلم تسبيحه وتنزيهه عمّا لا يليق به. وقال مجاهد: الصلاة للإنسان، والتسبيح لكلّ شيء. وقيل:

كلّ قد علم صلاته أي صلاة نفسه وتسبيح نفسه، فيكون الضمير في علم لـ«كلّ» وعلى الأوّل يعود على اسم الله، والأوّل أجود، لأنّ هذه الأشياء كلّها لا يعلم كيفيّة دلالتها غير الله، وإنّما الله تعالى عالم بذلك، ويقوّيه قوله: ﴿والله عَليمٌ بما يفعلُونَ﴾ أي عالم بأفعالهم، لا يخفى عليه شيء منها، فيجازيهم بحسبها.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿ولله مُلكُ السمَواتِ والأرضِ﴾ والملك المقدور الواسع لمن يملك السياسة والتدبير، فملك السماوات والأرض لا يصحّ إلّا لله وحده لا شريك له، لأنّه لا يقدر على خلق الأجسام غيره، وليس ممّا يصحّ أن يملكه العبد، لأنّه لا يمكنه أن يصرفه أتمّ التصريف، فالملك التامّ لا يصحّ إلّا لله تعالى. وقوله: ﴿وإلى اللهِ المصير﴾ أي إليه المرجع يوم القيامة إلى ثوابه أو عقابه.

ثمّ قال: ﴿ألم تَرَ﴾ أي ألم تعلم ﴿أنّ اللهَ يُزجِي سَحاباً﴾ أي يسوق سحاباً إلى حيث يريده، ومنه زجا الخراج إذا انساق إلى أهله، وأزجاه فلان: أي ساقه ﴿ثمّ يُؤَلِّفُ بَينهُ﴾ أي يبين بعضه وبعض، لأنّ لفظ «سحاب» جمع، واحده سحابة، وهو كقولهم: جلس بين النخل، لأنّ لفظ «بين» لا تستعمل إلّا في شيئين فصاعداً.

وقوله: ﴿ثمّ يَجعلُهُ رُكاماً﴾ وهو المتراكب بعضه فوق بعض ﴿فَترى الوَدْقَ﴾ يعني المطر، يقال: وَدَقَتْ السحابة تَدِقُ وَدْقاً إذا أمطرت، قال الشاعر:

فلا مُـزنةٌ وَدَقَت وَدْقَـها ولا أرضَ أبقلَ إبقالَها[1]

﴿يَخرُجُ مِن خِلالِهِ﴾ فالخلال جمع خلل. وقوله: ﴿ويُنَزِّلُ مِنَ السَماءِ مِنْ

(١) نسبه سيبويه لعامر بن جوين الطائي، راجع الكتاب ٢: ٤٦.

جِبالٍ فيها مِنْ بَرَدٍ﴾ معنى «من» الأُولى لابتداء الغاية، لأنّ «من السماء» ابتداء الإنزال بالمطر. والثانية للتبعيض، لأنّ البرد بعض الجبال الّتي في السماء. والثالثة لتبيين الجنس، لأنّ جنس الجبال جنس البرد.

وقيل: في السماء جبال برد مخلوقة في السماء. وقال البلخي: يجوز أن يكون البرد يجتمع في السحاب كالجبال ثمّ ينزل منها. وقيل: السماء هو السحاب، لأنّ كلّ ما علا مطبقاً فهو سماء. وقال الفرّاء: يجوز أن يكون المراد وينزّل من السماء قدر جبال من برد، كما تقول: عندي بيتان من تبن أي بقدر بيتين[١] وقال الحسن: في السماء جبال برد، وقيل: المعنى: قدر جبال يجعل منها برداً على ما حكيناه عن الفرّاء.

وقوله: ﴿فيُصيبُ بهِ﴾ يعني بذلك البرد، فيصيب به من يشاء، أن يهلك أو يهلك ماله ﴿ويَصرِفُهُ عمّن يَشاءُ﴾ على حسب اقتضاء المصلحة. وقوله: ﴿يَكادُ سنا بَرقِهِ﴾ أي ضياء البرق، فسنا البرق مقصور، وسناء المجد ممدود. وقال ابن عبّاس وابن زيد: يعني ضوء برقه يكاد يختطف الأبصار. وقال قتادة: لمعان برقه.

وقوله: ﴿يُقلّبُ اللهُ الليلَ والنهارَ﴾ يعني يجيء بالنهار عقيب الليل وبالليل عقيب النهار. وقيل: يزيد من هذا في ذاك وينقص من ذاك في هذا ﴿إنّ في ذلكَ لَعِبرَةً﴾ أي دلالة ﴿لأُولي الأبصار﴾ يعني ذوي العقول الّذين يبصرون.

في الآية دلالة على وجوب النظر وفساد التقليد، لأنّه تعالى مدح المعتبرين بعقولهم بما نبّه من الدلالات والآيات على توحيده وعدله وغير ذلك.

---

(١) معاني القرآن ٢: ٢٥٧.

قوله تعالى:

﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِن مَاءٍ فَمِنهُمْ مَنْ يَمشي عَلىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلىٰ رِجْلينِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلىٰ أربَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشاءُ إنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شيءٍ قَديرٌ ﴿٤٥﴾﴾ آية بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿واللهُ خالقُ﴾ على وزن «فاعل»، الباقون ﴿خلق﴾ على فعل ماض. من قرأ خالق فلقوله: ﴿خالِقُ كلِّ شيءٍ﴾ [١] ومن قرأ خلق، فلأنّه فعل ذلك فيما مضى، ولقوله: ﴿ألم تَرَ أنّ اللهَ خَلَقَ السَّمواتِ﴾ [٢] وقوله: ﴿خَلَقَ كلَّ شيء فَقدّرهُ تَقدِيراً﴾ [٣].

أخبر الله تعالى أنّه خالق كلّ شيء يدبّ من الحيوان من ماء، ثمّ فصّله فقال: منهم من يمشي على بطنه كالحيّات والسمك والدود وغير ذلك، ومنهم من يمشي على رجلين كالطير وابن آدم وغير ذلك، ومنهم من يمشي على أربع كالبهائم والسباع وغير ذلك، ولم يذكر ما يمشي على أكثر من أربع، لأنّه كالّذي يمشي على أربع في مرأى العين، فترك ذكره، لأنّ العبرة تكفي بذكر الأربع. وقال البلخي: لأنّ عند الفلاسفة أنّ ما زاد على الأربع لا يعتمد عليها، واعتماده على الأربع فقط.

وإنّما قال: ﴿مِن ماء﴾ لأنّ أصل الخلق من ماء، ثمّ قلب إلى النار فخلق الجنّ منه، وإلى الريح فخلقت الملائكة منه، ثمّ إلى الطين فخلق آدم عليه السلام.

ودليل أنّ أصل الحيوان كلّه الماء قوله تعالى: ﴿وَجَعلنا مِنَ الماءِ كلَّ شيءٍ حَيّ﴾ [٤].

(١) الأنعام: ١٠٢، الرعد: ١٦، غافر: ٦٢.
(٢) إبراهيم: ١٩.
(٣) الفرقان: ٢.
(٤) الأنبياء: ٣٠.

وإنّما قال: ﴿منهم﴾ تغليباً لما يعقل على ما لا يعقل إذا اختلط في خلق كلّ دابّة. وقيل: ﴿مِن ماءٍ﴾ أي من نطفة، ذكره الحسن، وجعل قوله: ﴿كلّ دابّة﴾ خاصّاً، فيمن خلق من نطفة. وقوله: ﴿يخلق اللهُ ما يشاءُ﴾ أي يخترع ما يشاء، وينشئه من الحيوان وغيره ﴿إنّ اللهَ على كلّ شيءٍ قَديرٍ﴾ لايتعذّر عليه شيء يريده.

قوله تعالى:

لَقَد أنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا باللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِن بَعدِ ذَلِكَ وَمَا أُولئِكَ بِالمُؤمِنينَ ﴿٤٧﴾ وَإذَا دُعُوا إلَى اللهِ ورَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَينَهُم إذَا فَرِيقٌ مِنْهُم مُعْرِضونَ ﴿٤٨﴾ وَإن يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأتُوا إلَيهِ مُذعِنينَ ﴿٤٩﴾ أفي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أمِ ارْ تَابُوا أم يَخَافُونَ أنْ يَحيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَل أُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ خمس آيات بلاخلاف.

أقسم الله تعالى في هذه الآية أنّه أنزل ﴿آياتٍ مبيّناتٍ﴾ أي دلالات واضحات تظهر بها المعاني، وتتميّز ممّا خالفها حتّى تعلم مفصّلة. ومن كسر الياء جعلها من المبيّنة المظهرة مجازاً، من حيث يتبيّن بها، فكأنّها المبيّنة.

وقوله: ﴿واللهُ يهدي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ﴾ معناه والله يلطف لمن يشاء بما يعلم أنّه يهتدي عنده إلى صراط مستقيم واضح: من توحيده وعدله وصدقأنبيائه. و«الهداية» الدلالة الّتي يهتديبها صاحبها إلى الرشد، وقد تطلق على ما يصحّ أن يهتدى بها، كما قال تعالى: ﴿وأمّا ثَمُودُ فَهَديناهُمْ فاستَحبُّوا العَمى عَلَى الهُدَى﴾ (١) إلّا أنّ المراد في الآية اللطف على ما قلناه.

وقال الجبّائي: قوله: ﴿يَهدِي مَن يَشاءُ﴾ يعني المكلّفين دون من ليس

(١) فصّلت: ١٧.

بمكلّف، ويجوز أن يكون المراد هدايتهم في الآخـرة إلى طـريق الجـنّة. و«الصراط المستقيم» الإيمان، لأنّه يؤدّي إلى الجنّة.

وقوله: ﴿وَيَقُولُون آمنّا باللهِ وبالرَسُولِ وأطعنا ثمّ يتَولّى فَريقٌ مِنهم مِن بَعْدِ ذلكَ وما أولئِكَ بالمؤمنينَ﴾ قيل: إنّها نزلت في صفة المنافقين، لأنّهم يقولون بألسنتهم: آمنّا باللهِ وصدّقنا رسوله، فإذا انصرفوا إلى أصحابهم قالوا خلاف ذلك، فأخبر الله تعالى أنّ هؤلاء ليسوا بمؤمنين على الحقيقة.

ثمّ أخبر عـن حـال هـؤلاء فـقال: ﴿وإذا دُعُوا إلى اللهِ ورسُولِهِ ليحكُمَ بَينهمُ﴾ في شيء يختلفون فيه ﴿إذا فَريقٌ مِنهُم﴾ يعني المنافقين ﴿مُعرضُونَ﴾ عن ذلك ولا يختارونه، لأنّه يكون الحقّ عليهم. ثمّ قـال: ﴿وإنْ يكُنْ لَهُمُ الحقُّ﴾ وتتوجّه لهم في الحكومة ﴿يأتُوا إليه﴾ يعني إلى النبيّ صلى الله عليه وآله منقادين ﴿مُذْعنينَ﴾ و«الإذعان» هو الانقياد من غير إكراه، فهولاء المـنافقون إذا دعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليحكم بينهم في شيء اختلفوا فيه، امتنعوا ظلماً لأنفُسِهم وكفروا بنبيّـهم، ففضحهم الله بما أظهر من جهلهم ونفاقهم.

وقيل: إنّها نزلت في رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة، فدعاه اليهودي إلى رسـول الله، ودعـاه المـنافق إلى كـعب بـن الأشرف[١]. وقيل: إنّها نزلت في عليّ عليه السلام [أميرالمؤمنين عليه السلام خ] ورجـل من بني أُميّة دعاه عليّ إلى رسول الله، ودعاه الأُموي إلى اليهود، وكـان بينهما منازعة في ماء وأرض.

وحكى البلخي أنّه كانت بين عليّ عليه السلام وعـثمان مـنازعة فـي أرض اشتراها من عليّ، فخرجت فيها أحجار، وأراد ردّها بالعيب فلم يأخذها، فقال: بيني وبينك رسول الله، فقال الحكم ابن أبي العاص: إن حاكمته إلى

---

(١) قاله الماوردي في النكت والعيون ٤: ١١٥.

ابن عمّه حكم له، فلا تحاكمه إليه، فأنزل الله الآية.

ثمّ قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أفي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شكّ في قلوبهم، وسمّي الشكّ مرضاً، لأنّه آفة تصدّ [القلب] عن إدراك الحقّ، كالآفة في البصر تصدّ عن إدراك الشخص. وإنّما جاء على لفظ الاستفهام والمراد به الإنكار لأنّه أشدّ في الذمّ والتوبيخ، أي أنّ هذا أمر قد ظهر حتّى لا يحتاج فيه إلى البيّنة، كما جاز في نقيضه على طريق الاستفهام، لأنّه أشدّ مبالغة في المدح، كما قال جرير:

أَلستُمْ خَيرَ مَن رَكِبَ المَطايا وأندَى العالَمينَ بُطُونَ راحِ[1]

فقال الله تعالى: ﴿أفي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شكّ في النبيّ ﴿أم ارتابُوا﴾ بقوله وبحكمه ﴿أم يَخافُونَ أنْ يَحيفَ اللهُ ورسُولُهُ عَلَيهِمْ﴾ أي يجور عليهم. و«الحيف» الجور بنقض الحقّ ورسوله ويظلمهم، لأنّه لا وجه للامتناع عن المجيء إلّا أحد هذه الثلاثة.

ثمّ أخبر تعالى فقال: لا ليس لشيء من ذلك، بل لأنّهم الظالمون نفوسهم وغيرهم والمانعون لهم حقوقهم، وإنّما أفرد قوله: ﴿ليحكم بينهم﴾ بعد قوله: ﴿إلى اللهِ ورسولِه﴾ لأنّه حكم واحد يوقعه النبيّ صلى الله عليه وآله بأمر الله.

قوله تعالى:

إنَّمَا كَانَ قَوْلَ المُؤمِنِينَ إذَا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيُحْكُمَ بَيْنَهُمْ أنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وأطَعْنَا وَأُولَئِك هُمُ المُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِع اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخشَ اللهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الفَائِزوُن ﴿٥٢﴾ وَأقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِم لَئِن أَمَرتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوُفَةٌ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ فَإنْ تَوَلَّوْ فَإنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَليكُم مَا حُمِّلْتُم وَإنْ تُطِيعُوهُ تَهتَدوُا وَمَا عَلىٰ الرَّسُولِ إلّا

---

(١) ديوان جرير: ٧٤.

البَلاغُ المُبينُ﴿٥٤﴾ أربع آيات بلا خلاف.

قرأ أبو بكر وأبو عمرو ﴿ويتّقه﴾ ساكنة القاف، لأنّ الهاء لما اختلطت بالفعل وصارت مزدوجة ثقلت الكلمة فخفّفت بالإسكان. وقيل: إنّهم توهّموا أنّ الجزم واقع عليها. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وورش ﴿ويتّقهي﴾ بكسر الهاء لمجاورة القاف المكسورة وبعد الهاء ياء.

وروى قالون باختلاس الحركة، وهو الأجود عند النحويّين، لأنّ الأصل يتقيه باختلاس الحركة، فلمّا سقطت الياء للجزم بقيت الحركة مختلسة، كما كانت. وروى حفص بإسكان القاف وكسر الهاء، لأنّه كره الكسرة في القاف وأسكنها تخفيفاً، كما قال الشاعر:

عَجِبْتُ لمولودٍ ولَيْسَ لَه أبٌ ... وذي وَلَدٍ لم يَلدهُ أبوانِ[(١)]

ويجوز أن يكون أسكن القاف والهاء ساكنة، فكسر الهاء لالتقاء الساكنين، ولأنّ من العرب من يقول: لم يتّق مجزوم القاف بعد حذف الياء.

لمّا أخبر الله تعالى عن المنافقين أنّهم إذا دعوا إلى الله ورسوله في الحكم بينهم فيما يتنازعون فيه ـ فإنّهم عند ذلك يعرضون عن ذلك ولا يجيئون إليه ـ أخبر أنّ المؤمنين بخلافهم وأنّهم إذا قيل لهم: تعالوا ﴿إلى اللهِ ورسُولِهِ لِيحْكُمَ بَينهُمْ﴾ ينبغي ﴿أن يَقُولُوا﴾ في الجواب عن ذلك: ﴿سمعنا وأطعنا﴾ أي قبلنا هذا القول وانقدنا إليه وأجبنا إلى حكم الله ورسوله. ثمّ أخبر تعالى عن هؤلاء المؤمنين بأنّهم ﴿هُمُ المفلِحُونَ﴾ الّذين فازوا بثواب الله وكريم نعمه، وعن أبي جعفر عليه السلام أنّ المعنيّ بالآية أمير المؤمنين عليه السلام بخلاف ما وصف خصمه الّذي ذكره في الآية الأُولى. ثمّ قال تعالى: ﴿وَمنْ يُطِعِ اللهَ ورسُولَهُ﴾ بأن يفعل ما أمره به ويبادر إليه ﴿ويَخْشَ

(١) أنشده سيبويه في الكتاب ٤: ١١٥، ونسبه إلى رجل من أزد السراة.

اللهَ ويتّقهِ﴾ بأن يخاف عقابه فيجتنب معاصيه، فإنّ من هذه صفته من الفائزين. و«الفوز» أخذ الحظّ الجزيل من الخير، تقول: فاز يفوز فوزاً فهو فائز. وسمّيت المهلكة مفازة تفاؤلاً، فكأنّه قيل: منجاة.

ثمّ أخبر تعالى عن جماعة من المنافقين بأنّهم ﴿أقسمُوا باللهِ جَهدَ أَيمانِهمْ﴾ أي حلفوا به أغلظ أيمانهم وقدر طاقتهم ﴿لئن أمرتَهُمْ﴾ يا محمّد بالخروج ﴿لَيخرُجُنَّ﴾ يعني إلى الغزو، فقال الله تعالى لهم: ﴿لا تُقسِمُوا﴾ أي لا تحلفوا ﴿طاعةٌ معروفةٌ﴾.

وقيل في معناه قولان: أحدهما: هذه طاعة معروفة منكم يعني بالقول دون الاعتقاد. أي أنّكم تكذبون، ذكره مجاهد. والثاني: طاعة وقول معروف أمثل من هذا القسم، والقول المعروف هو المعروف صحّته، فإنّ ذلك خير لكم من هذا الحلف. ثمّ أخبر تعالى بأنّه ﴿خَبيرٌ﴾ أي عالم ﴿بِما تَعملُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء على أيّ وجه توقعون أفعالكم فيجازيكم بحسبها، وفي ذلك تهديد.

ثمّ قال: ﴿فإنْ تَولّوا فإنّما عَليه ما حُمِّل وعَليكُمْ ما حُمّلتُمْ﴾ أي تتولّوا، فحذفت التاء، وليس كقوله: ﴿وإنْ تولّوا فإنّما هُمْ في شِقاقٍ﴾[١] لأنّ الأوّل مجزوم، وهو للمخاطبين، لأنّه قال: ﴿وَعليكُمْ ما حُمِّلتُمْ﴾ ولو كان لغير المخاطبين لقال: وعليهم، كما قال: ﴿وإنْ تَوَلّوا فإنّما هُمْ في شِقاقٍ﴾ وكان يكون في موضع نصب لأنّه بمنزلة قولك: فإن قاموا ، والجزاء يصلح فيه لفظ المستقبل والماضي من «فعل يفعل» كما قال: ﴿فإن فاؤا فإنّ اللهَ﴾[٢]. وقوله: ﴿وإنْ تَولّوا فإنّما هُمْ في شِقاقٍ﴾ في موضع نصب ذكره الفرّاء[٣]. وقوله: ﴿فإنّما عَليه﴾ يعني على المتولّي جزاء ما حمّل أي كلّف، فإنّه

---

(١) البقرة: ١٣٧. (٢) البقرة: ٢٢٦. (٣) معاني القرآن ٢: ٢٥٨.

يجازى على قدر ذلك، وعليكم جزاء ما كلّفتم إذا خالفتم ﴿وإن تُطيعُوهُ تَهتَدُوا﴾ يعني إن أطعتم رسوله تهتدوا.

ثمّ أخبر أنّه ليس على الرسول إلّا البلاغ الظاهر والقبول يتعلّق بكم ولا يلزمه عهد به، ولا يقبل منكم اعتذار تركه بامتناع غيره.

قوله تعالى:

وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كما استَخْلَفَ الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الّذي ارْتَضىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أمْناً يَعْبُدُونَني لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولئكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴿٥٥﴾ آية بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم ﴿وليبدلنهم﴾ بالتخفيف، الباقون بالتشديد، وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿كما استخلف﴾ بضمّ التاء على مالم يسمّ فاعله، الباقون بفتحها. قال أبو عليّ: الوجه فتح التاء، لأنّ اسم الله قد تقدّم ذكره، والضمير في يستخلفنّهم يعود إلى الاسم، فكذلك قوله: ﴿كما استخلف﴾ لأنّ المعنى ليستخلفنّهم استخلافاً كاستخلافه الّذين من قبلهم. ومن ضمّ التاء ذهب إلى أنّ المراد به مثل المراد مع الفتح[١].

في هذه الآية وعد من الله تعالى للّذين آمنوا من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وعملوا الصالحات بأن يستخلفهم في الأرض، ومعناه يورثهم أرض المشركين من العرب والعجم ﴿كما استَخلفَ الذينَ مِن قَبلِهم﴾ يعني بني إسرائيل بأرض الشام بعد إهلاك الجبابرة بأن أورثهم ديارهم وجعلهم سكّانها. وقال الجبّائي: ﴿استخلفَ الّذينَ من قَبلِهِمْ﴾ يعني في زمن داود وسليمان. وقال النقّاش: يريد بالأرض أرض مكّة، لأنّ المهاجرين سألوا

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢٠٥ باختلاف يسير.

ذلك، والأوّل قول المقداد بن الأسود، فروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لا يبقى على الأرض بيت مدر ولا وبر إلّا ويدخله الإسلام بعزّ عزيز أو ذلّ ذليل»(١). وفي ذلك دلالة على صحّة نبوّة النبيّ صلى الله عليه وآله لأنّه أخبر عن غيب وقع مخبره على ما أخبر، وذلك لا يعلمه إلّا الله تعالى.

﴿ولَيُمكّننَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذي ارتضى لهم﴾ يعني يمكّنهم من إظهار الإسلام الّذي ارتضاه ديناً لهم ﴿وليبدّلنّهم مِنْ بَعدِ خَوفِهِمْ أمناً﴾ أي نصرهم بعد أن كانوا خائفين بمكّة وقت غلبة المشركين آمنين بقوّة الإسلام وانبساطه.

ثمّ أخبر عن المؤمنين الّذين وصفهم: يعبدون الله تعالى وحده لايشركون بعبادته سواه من الأصنام والأوثان وغيرهما. ويجوز أن يكون موضعه الحال. ويجوز أن يكون مستأنفاً.

ثمّ قال: ﴿ومَن كَفَر بَعدَ ذلك﴾ يعني بعد الّذي قصصنا عليك ووعدناهم به ﴿فأُولئِكَ هُمُ الفاسِقُون﴾ وإنّما ذكر الفسق بعد الكفر مع أنّ الكفر أعظم من الفسق لأحد أمرين: أحدهما: أنّه أراد الخارجين في كفرهم إلى أفحشه، لأنّ الفسق في كلّ شيء هو الخروج إلى أكثره. الثاني: أراد من كفر تلك النعمة بالفساد بعدها فسق، وليس يعني الكفر بالله، ذكره أبو العالية.

و«التبديل» تغيير حال إلى حال أُخرى، تقول: بدّل صورته تبديلاً. وتبدّل تبدّلاً، و«الإبدال» رفع الشيء بأن يجعل غيره مكانه، قال أبو النجم:

عَزْلُ الأَميرِ بالأَميرِ المبدَلِ(٢)

و«التبديل» رفع الحال إلى حال أُخرى، و«الإبدال» رفع النفس إلى نفس أُخرى. والأصل واحد، وهو البدل. واستدلّ الجبائي ومن تابعه على

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٦: ٤.

(٢) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٢٥٩.

إمامة الخلفاء الأربعة بأن قال: الاستخلاف المذكور في الآية لم يكن إلّا لهؤلاء، لأنّ التمكين المذكور في الآية إنّما حصل في أيّام أبي بكر وعمر، لأنّ الفتوح كانت في أيّامهم، فأبو بكر فتح بلاد العرب وطرفاً من بلاد العجم، وعمر فتح مدائن كسرى إلى حدّ خراسان وسجستان وغيرهما، فإذا كان التمكين والاستخلاف ـ هاهنا ـ ليس هو إلّا لهؤلاء الأئمّة وأصحابهم علمنا أنّهم محقّون. والكلام على ذلك من وجوه:

أحدها: أنّ الاستخلاف ـ هاهنا ـ ليس هو الإمارة والخلافة، بل المعنى هو إبقاؤهم في أثر من مضى من القرون، وجعلهم عوضاً منهم وخلفاً، كما قال: ﴿هو الّذي جَعَلكُمْ خَلائفَ في الأرضِ﴾ [1] وقال: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أنْ يُهلِكَ عَدوَّكُمْ ويَسْتخلِفَكُمْ في الأرضِ﴾ [2] وقال: ﴿وَرَبُّكَ الغنيُّ ذُو الرَحمَةِ إنْ يَشأْ يُذْهِبْكُمْ ويَسْتَخْلِفْ مِن بَعدِكُمْ مَا يَشاءُ﴾ [3] وكقوله: ﴿وَهُوَ الّذي جَعَلَ اللّيلَ والنَهارَ خِلفَةً﴾ [4] أي جعل كلّ واحد منهما خلف صاحبه.

وإذا ثبت ذلك، فالاستخلاف والتمكين الّذي ذكره الله في الآية كانا في أيّام النبيّ صلى الله عليه وآله حين قمع الله أعداءه وأعلى كلمته ونشر ولايته وأظهر دعوته وأكمل دينه، ونعوذ بالله أن نقول: لم يمكّن الله دينه لنبيّه في حياته حتّى تلافى ذلك متلاف بعده.

وليس كلّ التمكين كثرة الفتوح والغلبة على البلدان، لأنّ ذلك يوجب أنّ دين الله لم يتمكّن بعد إلى يومنا [هذا] لعلمنا ببقاء ممالك للكفر كثيرة لم يفتحها المسلمون، ويلزم على ذلك إمامة معاوية وبني أُميّة، لأنّهم تمكّنوا أكثر من تمكّن أبي بكر وعمر، وفتحوا بلاداً لم يفتحوها.

---

(١) فاطر: ٣٩.
(٢) الأعراف: ١٢٩.
(٣) الأنعام: ١٣٣.
(٤) الفرقان: ٦٢.

ولو سلّمنا أنّ المراد بالاستخلاف الإمامة للزم أن يكون منصوصاً عليهم، وذلك ليس بمذهب أكثر مخالفينا. وإن استدلّوا بذلك على صحّة إمامتهم احتاجوا أن يدلّوا على ثبوت إمامتهم بغير الآية، وأنّهم خلفاء الرسول حتّى تتناولهم الآية.

فإن قالوا: المفسّرون ذكروا ذلك.

قلنا: لم يذكر جميع المفسّرين ذلك، فإنّ مجاهداً قال: هم أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله. وعن ابن عبّاس وغيره: قريب من ذلك. وقال أهل البيت عليهم السلام: إنّ المراد بذلك المهديّ عليه السلام لأنّه يظهر بعد الخوف، ويتمكّن بعد ان كان مغلوباً، فليس في ذلك إجماع المفسّرين. وقد استوفينا ما يتعلّق بالآية في كتاب الامامة[١] فلا نطوّل بذكره ـ هاهنا ـ وقد تكلّمنا على نظير هذه الآية، وأنّ ذلك ليس بطعن على واحد منهم، وإنّما المراد الممانعة من أن يكون فيها دلالة على الإمامة، وكيف يكون ذلك؟ ولو صحّ ما قالوه لما احتيج الى اختياره، ولكان منصوصاً عليه، وليس ذلك مذهباً لأكثر العلماء، فصحّ ما قلناه.

قوله تعالى:

وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوٰيهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ آيتان بلا خلاف إلى آخر ﴿المصير﴾.

قرأ حفص وابن عامر وحمزة ﴿لا يحسبنَّ﴾ بالياء، الباقون بالتاء، فمن قرأ بالياء فموضع ﴿الّذين﴾ رفع. ومن قرأ بالتاء فموضعه نصب، و﴿معجزين﴾ المفعول الثاني، والمفعول الثاني لمن قرأ بالياء قوله: ﴿في

(١) تلخيص الشافي ٣: ١١٢ ـ ١١٥.

الأرض﴾. وقال أبو عليّ: المفعول الثاني على هذه القراءة محذوف، وتقديره: ولا يحسبن الذين كفروا إيّاهم معجزين[1]. وقال الأخفش: من قرأ بالياء يجوز أن يكون ﴿الذين﴾ في موضع نصب، على تقدير لا يحسبنّ محمّد الّذين، فيكون محمّد الفاعل.

أمر الله تعالى في الآية الأُولى جميع المكلّفين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللذين أوجبهما عليهم وأن يطيعوا الرسول فيما يأمرهم به ويدعوهم إليه، ليرحموا جزاء على ذلك ويثابوا بالنعم الجزيلة.

ثمّ قال: ﴿لا تَحسبنّ﴾ يا محمّد أي لا تظننّ ﴿الّذين كفروا معجزين في الأرض﴾ أي لا يفوتوني. ومن قرأ بالياء قال تقديره: لا يظننّ من كفر أنّه يفوتني، ويعجزني أيَّ مكان ذهب في الأرض. ثمّ أخبر تعالى أنّ مأوى الكافرين ومستقرّهم النار عقوبة لهم على كفرهم، وأنّها بئس المرجع وبئس المستقرّ والمأوى. وإنّما وصفها بذلك لما ينال الصائر إليها من العذاب والآلام والشدائد وإن كانت من فعل الله وحكمته صواباً.

قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلٰثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلوٰةِ الْفَجْرِ وَحينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلوٰةِ العِشَاءِ ثَلٰثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلىٰ بَعضٍ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللّاتي لا يَرجُونَ نِكَاحاً فَلَيسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعنَ ثِيَابَهُنَّ غَيرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعفِفنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللهُ

(١) الحجّة للقراء السبعة ٣: ٢٠٥.

سَميعٌ عَليمٌ﴿٦٠﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلّا حفصاً ﴿ثلاث عورات﴾ بفتح الثاء، الباقون بالرفع.

قال أبو عليّ النحوي: من رفع، فعلى أنّه خبر ابتداء محذوف، وتقديره هذه ثلاث عورات، لأنّه لمّا قال: ﴿الّذينَ مَلكتْ أيمانُكُمْ والّذينَ لَمْ يَبلُغُوا الحُلْمِ مِنْكُم ثَلاثَ مرّاتٍ﴾ وفصّل الثلاث بقوله ﴿مِنْ قَبلِ صَلاةِ الفَجْرِ وَحينَ تَضعُونَ ثيابَكُمْ مِنَ الظَّهيرةِ ومِنْ بَعدِ صَلاةِ العِشاءِ﴾ صار كأنّه قال: هذه ثلاث عورات، فأجمل بعد التفصيل. ومن نصب جعله بدلاً من قوله: ﴿ثلاث مرّات﴾ وإنّما أبدل «ثلاث عورات» وليس بزمان من «ثلاث مرّات» وهي زمان، لأنّه مشتمل على زمان من حيث إنّ التقدير: أوقات ثلاث عورات، فلمّا حذف المضاف أقام المضاف إليه مقامه. و«العورات» جمع عورة، وحكم ما كان على وزن «فعلة» من الأسماء أن تحرّك العين منه، نحو صَحْفَة وصحفات، وجفنة وجفنات إلّا أنّ عامّة العرب يكرهون تحريك العين فيما كان عينه واواً أو ياء، لأنّه كان يلزمه الانقلاب إلى الألف فأسكنوا لذلك، فقالوا: عورات وجوزات وبيضات[1].

وقرأ الأعمش بفتح الواو من عورات، ووجهه ما حكاه المبرّد أنّ هذيلاً يقولون في جمع جوزة وعورة ولوزة: جوزات وعورات ولوزات، فيحرّكون العين فيها، وأنشد بعضهم:

أَبــو بَــيَضاتٍ رائــحٌ مــتأوِّبٌ ... رَفيقٌ بمسحِ المنكِبَينِ سَبُوحُ[2]

فحرّك الياء من بيضات، والأجود عند النحويّين ما ذكرناه.

هذه الآية متوجّهة إلى المؤمنين بالله المقرّين برسوله، يقول الله لهم:

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) أنشده ابن جنّي في الخصائص ٣: ١٨٤، ولم ينسبه لأحد.

مُروا عبيدكم وإماءكم أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول إلى مواضع خلواتكم. وقال ابن عبّاس وأبو عبد الرحمن: الآية في النساء والرجال من العبيد. وقال ابن عمر: هي في الرجال خاصّة. وقال الجبّائي: الاستئذان واجب على كلّ بالغ في كلّ حال، ويجب على الأطفال في هذه الأوقات الثلاثة بظاهر هذه الآية. وقال قوم: في ذلك دلالة على أنّه يجوز أن يؤمر الصبيّ الّذي يعقل، لأنّه أمره بالاستئذان. وقال آخرون: ذلك أمر للآباء أن يأخذوا الأولاد بذلك، فظاهر الآية يدلّ على وجوب الاستئذان ثلاث مرّات في ثلاث أوقات من ساعات الليل والنهار.

ثمّ فسّر الأوقات فقال: ﴿من قَبلِ صلاةِ الفَجرِ وَحينَ تَضعُونَ ثَيابَكُمْ من الظهيرةِ ومِن بَعدِ صلوة العِشاءِ﴾ الآخرة، لأنّ الغالب على الناس أن يتعرّوا في خلواتهم في هذه الأوقات ذكره مجاهد.

ثمّ بيّن أنّه ليس عليكم ولا عليهم جناح فيما بعد ذلك من الأوقات أن يدخلوا عليكم من غير إذن، يعني في الّذين لم يبلغوا الحلم، وهو المراد بقوله: ﴿طوّافُونَ﴾ أي طوّافون ﴿عَلَيكُمْ بَعْضُكُمْ على بَعضٍ﴾ ثمّ قال: مثل ما بيّن لكم هذه العورات بيّن الله لكم الدلالات على الأحكام ﴿واللهُ عَليمٌ﴾ بما يصلحكم ﴿حكيمٌ﴾ فيما ذكره وغيره من أفعاله. ثمّ قال: ﴿وإذا بَلَغ الأطفالُ مِنكُم الحُلُمَ فليستأذنُوا كما استأذَنَ الذينَ مِن قَبلِهِم﴾ يعني يرتفع [إلى حقّه، خ] في [من، ظ] دخوله بغير إذن إذا بلغ، وصار حكمه حكم الرجال في وجوب الاستئذان على كلّ حال. ثمّ قال: مثل ما بيّن لكم هذا بيّن لكم أدلّته ﴿واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ﴾.

ثمّ قال: ﴿والقَواعِدُ مِنَ النساءِ اللاتي لا يَرجُونَ نِكاحاً﴾ يعني المسنّات من النساء اللاتي قعدن عن التزويج، لأنّه لا يرغب في تزويجهنّ. وقيل:

هنّ اللاتي ارتفع حيضهنّ، وقعدن على ذلك، اللاتي لا يطمعن في النكاح أي لا يطمع في جماعهنّ لكبرهنّ ﴿فَليسَ عَليهنَّ جُناحٌ أن يَضَعنَ ثيابَهنَّ﴾ قيل: هو القناع الّذي فوق الخمار وهو الجلباب، والرداء الّذي يكون فوق الشعار. وفى قراءة أهل البيت عليهم السلام ﴿أن يَضعنَ مِن ثيابِهنَّ﴾ وبه قرأ أُبيّ.

وقوله: ﴿غَيرَ مُتَبرّجاتٍ بزينةٍ﴾ أي لا يقصدن بوضع الجلباب إظهار محاسنها، وما ينبغي لها أن تستره. و«التبرّج» إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره.

ثمّ أخبر تعالى أنّ الاستعفاف عن طرح الجلباب خير لهنّ في دينهنّ ﴿واللهُ سَميعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَليمٌ﴾ بما تضمرونه حليم عليكم لا يعاجلكم بالعقوبة في معاصيه. وإنّما ذكر القواعد من النساء، لأنّ الشابّة يلزمها من التستّر أكثر ممّا يلزم العجوز، ومع ذلك فلا يجوز للعجوز أن تبدي عورة لغير محرم، كالساق والشعر والذراع.

قوله تعالى:

لَيسَ عَلَى الأعْمىٰ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَريضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى أنْفُسِكُمْ أنْ تَأكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أو بُيُوتِ آبَائِكُمْ أوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُم أو بُيُوتِ إخْوَانِكُمْ أوْ بُيُوتِ أخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أعمَامِكُمْ أَو بُيُوتِ عَمَّاتِكُم أوْ بُيُوتِ أخوَالِكُمْ أو بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ أوْ مَا مَلكتُمْ مَفَاتِحَهُ أو صَديقِكُمْ لَيْس عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أن تَأكُلُوا جَميعاً أو أَشْتَاتاً فإذَا دَخَلتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلىٰ أنفُسِكُم تَحيَّةً مِنْ عندِ اللهِ مُبَارَكةً طَيِّبَةً كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعقِلُونَ(٦١) آية بلا خلاف.

يقول الله تعالى: إنّه ﴿لَيسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ﴾ وهو الّذي كفّ بصره ﴿ولا على الأعرجِ حَرجٌ﴾ وهو الّذي يعرج من رجليه أو أحدهما ﴿ولا على المريضِ حَرجٌ﴾ وهو الّذي يكون عليلاً، و«الحرج» الضيق في الدين، مشتقّ

من الحرجة، وهي الشجر الملتفّ بعضه ببعض لضيق المسالك فيه، وحرج فلان: إذا أثم. وتحرّج من كذا: إذا تأثّم من فعله، نفى الله الحرج عن هؤلاء لما يقتضيه حالهم من الآفات الّتي بهم ممّا تضيق على غيرهم.

واختلفوا في تأويل ذلك، فقال الحسن وابن زيد والجبّائي: ليس عليهم حرج في التخلّف عن الجهاد، ويكون قوله: ﴿ولا على أنفسِكُمْ﴾ كلاماً مستأنفاً.

وقال ابن عبّاس: ليس من مؤاكلتهم حرج، لأنّهم كانوا يتحرّجون من ذلك.

قال الفرّاء: كانت الأنصار تتحرّج من ذلك، لأنّهم كانوا يقولون: الأعمى لا يبصر فنأكل جيّد الطعام ويأكل دونه. والأعرج لا يتمكّن من الجلوس. والمريض يضعف عن المأكل(١).

وقال مجاهد: ليس عليكم في الأكل من بيوت من سمّي على جهة حمل قراباتهم إليهم يستتبعونهم في ذلك حرج. وقال الزهري: ليس عليهم حرج في أكلهم من بيوت الغزاة إذا خلّفوهم فيه بإذنهم. وقيل: كان المخلّف في المنزل المأذون له في الأكل يتحرّج، لئلّا يزيد على مقدار المأذون له فيه. وقال الجبّائي: الآية منسوخة بقوله: ﴿يا أيّها الذينَ آمنُوا لا تَدخُلوُا بيوتَ النبيّ إلّا أن يُؤذَنَ لَكُمْ إلى طَعامٍ غَيرَ ناظِرينَ إناه﴾(٢) ويقول النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا يحلّ مال امرئ مسلم إلّا عن طيب نفسه»(٣) والّذي روي عن أهل البيت عليهم السلام: أنّه لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت من ذكرهم الله بغير إذنهم، قدر حاجتهم من غير إسراف.

---

(١) معاني القرآن ٢: ٢٦١. (٢) الأحزاب: ٥٣.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٥: ٧٢، السنن الكبرى للبيهقي ٦: ١٠٠، الخلاف ٣: ٣٧٢.

وقوله: ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ قال الفرّاء: لمّا نزل قوله: ﴿لا تأكُلُوا أموالَكُمْ بَينكُمْ بالباطل إلّا أن تَكونَ تجارَةً﴾[1] ترك الناس مؤاكلة الصغير والكبير ممّن أذن الله تعالى في الأكل معه، فقال تعالى: وليس عليكم في أنفسكم وفي عيالكم حرج أن تأكلوا منهم ومعهم إلى قوله: ﴿أو صَديقِكُمْ﴾ أي بيوت صديقكم ﴿أو ما مَلكتُم مَفاتِحَهُ﴾ أي بيوت عبيدكم وأموالهم[2]. وقال ابن عبّاس: معنى ما ملكتم مفاتحه هو الوكيل وما جرى مجراه. وقال مجاهد والضحّاك: هو ما ملكه الرجل نفسه في بيته. وواحد المفاتح مفتاح ـ بكسر الميم ـ وفي المصدر مفتح بفتح الميم. وقال قتادة: معنى قوله: ﴿أو صديقكم﴾ لأنّه لا بأس في الأكل من بيت صديقه بغير إذنه.

وقوله: ﴿لَيسَ عَليكُمْ جُناحٌ أن تأكُلُوا جميعاً أو أشتاتاً﴾ قيل: يدخل فيه أصحاب الآفات على التغليب للمخاطب كقوله: أنت وزيد قمتما، ولايقولون: قاما. وقال ابن عبّاس: معناه لا بأس أن يأكل الغنيّ مع الفقير في بيته. وقال ابن عبّاس والضحّاك: هي في قوم من العرب كان الرجل منهم يتحرّج أن يأكل وحده. وقال ابن جريج: كانوا من كنانة. وقال أبوصالح: كانوا إذا نزل بهم ضيف تحرجوا أن يأكلوا معه، فأباح الله الأكل منفرداً ومجتمعاً. والأولى حمل ذلك على عمومه، وأنّه يجوز الأكل وحداناً وجماعاً.

وقوله: ﴿فإذا دَخَلْتُمْ بُيوتاً فسلّمُوا على أنفُسِكُمْ﴾ قال الحسن: معناه ليسلّم بعضكم على بعض. وقال إبراهيم: إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقال قوم: أراد بالبيوت المساجد.

---

(١) النساء: ٢٩.

(٢) معاني القرآن ٢: ٢٦١.

والأولى حمله على عمومه. فأمّا ردّ السلام فهو واجب على المسلمين. وقال الحسن: يجب الردّ على المعاهد، ولا يقول الرادّ: ورحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِن عِندِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً﴾ يعني هذا السلام يحيّون به تحيّة من أمر الله مباركة طيّبة، لما فيها من الأجر الجزيل والثواب العظيم. ثمّ قال: ﴿كذلك يبيّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعلّكُمْ تَعقِلُونَ﴾ أي يبيّن الله لكم الأدلّة على جميع الأحكام وجميع ما يتعبّدكم به لتعقلوا ذلك، وتعملوا بموجبه [به، خ].

قوله تعالى:

إنَّمَا الْمؤمِنُونَ الذينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإذَا كَانُوا مَعَهُ عَلىٰ أمرٍ جَامعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إنَّ الَّذينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذينَ يُؤمِنُونَ بِاللهِ ورَسُولِهِ فَإذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيمٌ(٦٢) لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الّذينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُم لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أمْرِهِ أنْ تُصيبَهُمْ فِتْنَةٌ أوْ يُصيبَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ(٦٣) ألَا إنَّ للهِ مَا فِي السَّمواتِ وَالأرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أنتُمْ عَلَيهِ وَيَوْمَ يُرجَعُونَ إلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ(٦٤) ثلاث آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى: ليس المؤمنون على الحقيقة إلّا ﴿الّذينَ آمنُوا باللهِ﴾ أي صدّقوا بتوحيده وعدله، وأقرّوا بصدق رسوله، وإذا كانوا مع رسوله ﴿على أمرٍ جامِعٍ﴾ ـ وهو الّذي يقتضي الاجتماع عليه والتعاون فيه: من حضور حرب أو مشورة في أمر، أو في صلاة جمعة، وما أشبه ذلك ـ لم ينصرفوا عن رسوله أو عن ذلك الأمر، إلّا بعد أن يأذن لهم الرسول في الانصراف متى طلبوا الإذن من قبله. و«الاستئذان» طلب الإذن من الغير.

ثمّ قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿إنّ الّذينَ يستأذِنونَكَ﴾ يا محمّد فهم الّـذين يصدّقون بالله ورسوله على الحقيقة، دون الّذين ينصرفون بلا استئذان، ثمّ قال لنبيّه ﷺ أيضاً: متى ما استأذنوك هؤلاء المؤمنون أن يذهبوا لبعض مهمّاتهم وحاجاتهم ﴿فأذن لمن شِئتَ منهم﴾ فخيّره عليه السلام بين أن يـأذن وألّا يأذن، وهكذا حكم الإمام.

وقوله: ﴿واستغفِرْ لَهُمُ الله إنّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾ أي اطلب لهم المغفرة من الله. واستغفار النبيّ ﷺ هو دعاؤه لهم باللطف الّذي تقع معه المغفرة، فإنّ الله غفور رحيم أي ساتر لذنوبهم منعم عليهم.

ثمّ أمـر المكـلّفين فـقال تـعالى: ﴿لا تجعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَينَكُمْ كدُعاءِ بَعضِكُمْ بَعضاً﴾ وقيل في معناه قولان: أحدهما: احذروا دعاءه عـليكم إذا أسخطتموه، فإنّ دعاءه موجب، ليس كدعاء غـيره، ذكـره ابـن عـبّاس. و[الثاني]: قال مجاهد وقتادة: ادعوه بالخضوع والتعظيم، وقـولوا له: يـا رسول الله ويا نبيّ الله، ولا تقولوا: يا محمّد، كما يقول بعضكم لبعض.

وقوله: ﴿قَد يَعْلَمُ اللهُ الّذينَ يَتَسلّلونَ مِنْكُمْ لِواذاً﴾ معناه إذا تسلّل واحد منكم من عند النبيّ ﷺ فإنّ الله عالم به. وقال الحسن: معنى ﴿لواذاً﴾ فراراً من الجهاد. قال الفرّاء: كان المنافقون يحضرون مع النـبيّ الجـمعة، فـإذا نزلت آية فيها ذمّ للمنافقين ضجروا، وطلبوا غرّه[١] واستتر بعضهم ببعض، يقال: لاوذت بفلان ملاوذة، ولواذاً[٢]. قال الزجّاج: المـلاوذة المـخالفة، ولذت به ألوذ لياذاً[٣].

ثمّ حذّرهم من مخالفة رسوله بقوله: ﴿فَلَيَحذَرِ الّذينَ يُخالِفُونَ عن أمرِهِ﴾

---

(١) معناه طلبوا اختصار الحديث، أي طيه على غرّه.

(٢) معاني القرآن ٢: ٢٦٢.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٥٦.

وإنّما دخلت «عن» في قوله: ﴿عن أمره﴾ لأنّ المعنى يعرضون عن أمره. وفي ذلك دلالة على أنّ أوامر النبيّ ﷺ على الإيجاب، لأنّها لو لم تكن كذلك لما حذّر من مخالفته، وليس المخالف هو أن يفعل خلاف ما أمره، لأنّ ذلك ضرب من المخالفة. وقد يكون مخالفاً بألّا يفعل ما أمره به. ولو كان الأمر على الندب لجاز تركه وفعل خلافه.

وقوله: ﴿أن تُصيبَهُمْ فتنَةٌ﴾ أي فليحذروا من أن تصيبهم فتنة: أي بليّة تظهر ما في قلوبهم من النفاق. و«الفتنة» شدّة في الدين تخرج ما في الضمير ﴿أو يُصيبَهُمْ عَذابٌ أليمٌ﴾ في الآخرة جزاء على خلافهم الرسول. ويجوز أن يكون المراد: أن تصيبهم عقوبة في الدنيا، أو يصيبهم عذاب مؤلم في الآخرة. وقيل: معناه أن تصيبهم فتنة أي قبل أن يصيبهم عذاب في الآخرة.

وقوله: ﴿ألا إنّ للهِ ما في السَموات والأرضِ﴾ المعنى أنّ له ملك ما في السماوات والأرض والتصرّف في جميع ذلك، ولايجوز لأحدٍ الاعتراض عليه، ولايجوز مخالفة أمر رسوله، ولايخالف أمره، لأنّ الهاء في قوله: ﴿عن أمرِهِ﴾ يحتمل أن تكون راجعة إلى الرسول، ويحتمل أن تكون راجعة إلى الله، وقد مضى ذكرهما قبلها. ثمّ بيّن أنّه ﴿يَعلَمُ ما أنتُم عَليهِ﴾ من الإيمان والنفاق، لايخفى عليه شيء من أحوالكم لا سرّاً ولا علانية.

وقوله: ﴿وَيَومَ يُرجَعُونَ إليهِ﴾ أي يوم يردّون إليه يعني يوم القيامة، الّذي لا يملك فيه أحد شيئاً سواه، ومن ضمّ الياء: أراد يردّون، ومن فتحها نسب الرجوع إليهم. وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ أي يعلمهم جميع ما عملوه من الطاعات والمعاصي ويواقفهم عليها. ﴿واللهُ بكلِّ شيءٍ عَليمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك.

## سورة الفرقان

قال مجاهد وقتادة: هي مكّية. وقال ابن عبّاس نزلت ثلاث آيات منها بالمدينة من قوله: ﴿والّذينَ لا يَدعونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخر﴾ إلى قوله: ﴿رحيماً﴾ وعدد آياتها سبع وسبعون آية ليس فيها خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ستّ آيات بلاخلاف.

معنى تبارك: تقدّس وجلّ بما لم يزل عليه من الصفات، ولا يزال كذلك ولا يشاركه فيها غيره، وأصله من بروك الطير على الماء، فكأنّه قال:

ثبت فيما لم يزل ولا يزال الّذي نزّل الفرقان. وقال ابن عبّاس: تبارك تفاعل من البركة، فكأنّه قال ثبت بكلّ بركة أو حلّ بكلّ بركة. وقال الحسن: معناه الّذي تجيء البركة من قبله، و«البركة» الخير الكثير. و«الفرقان» هو القرآن، سمّي فرقاناً لأنّه يفرّق به بين الصواب والخطأ والحقّ والباطل في أُمور الدين، بما فيه من الوعظ والزجر عن القبائح والحثّ على أفعال الخير.

ثمّ بيّن تعالى أنّه إنّما نزّل هذا القرآن، وغرضه أن يكون نذيراً للعالمين، أي مخوّفاً وداعياً لهم إلى رشدهم وصارفاً عن غيّهم وضلالتهم، يقال: أنذره إنذاراً إذا دعاه إلى الخير، بأن يخوّفه من تركه، إذا كان غافلاً عنه، وقال ابن زيد: النذير هو النبيّ ﷺ. وقال آخرون: هو القرآن.

ثمّ وصف تعالى ﴿الّذي نَزّلَ الفُرقانَ﴾ بأنّه ﴿الّذي لَهُ مَلكُ السَموات والأرضِ﴾ والتصرّف فيهما، بسعة مقدوره بسياستها. وأنّه ﴿لَمْ يَتَّخذْ ولداً﴾ كما يدّعيه النصارى في أنّ المسيح ابن الله. ويزعم جماعة من العرب أنّ الملائكة بنات الله. وأنّه ليس له شريك في الملك، بل هو المالك لجميع ذلك وحده. وأنّه ﴿خَلقَ كلّ شيءٍ﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: أنّ كلّ شيء يطلق عليه اسم مخلوق فإنّه خلقه، لأنّ أفعالنا لا يطلق عليها اسم الخلق حقيقة، لأنّ الخلق يفيد الاختراع، وإنّما يسمّونها بذلك مجازاً.

والثاني: أنّه لا يعتدّ بما يخلقه العبد في جنب ما خلقه الله، لكثرة ذلك وقلّة ما يخلقه العبد.

ويحتمل أن يكون المراد قدّر كلّ شيء، لأنّ أفعال العباد مقدّرة لله، من حيث بيّن ما يستحقّ عليها من الثواب والعقاب أو لايستحقّ شيئاً من

ذلك. ويقوّي ذلك قوله: ﴿فَقَدَّرَهُ تَقديراً﴾ لأنّ المعنى فيه وكلّ شيء على مقدار حاجتهم إليه وصلاحه لهم.

ثمّ أخبر تعالى عن الكفّار، فقال: واتّخذوا من دون الله آلهةً من الأصنام والأوثان، ووجّهوا عبادتهم إليها من دون الله. ثمّ وصف آلهتهم بما ينبئ أنّها لاتستحقّ العبادة، بأن قال: ﴿لا يَخلُقُونَ شَيئاً﴾ ولايقدرون عليه، وهم مع ذلك مخلوقون ومصرّفون، وأنّهم لا يملكون أي لايقدرون لأنفسهم على ضرّ ولا على نفع ﴿ولا يَملِكُونَ﴾ أي لا يقدرون على موت ولا على حياة ولا على بعث بعد الموت.

و«النشور» هو البعث بعد الموت، يقال: نشر الميّت، فهو ناشر نشوراً، وأنشره الله إنشاراً، ومنه قوله: ﴿ثمّ إذا شاء أنشره﴾[1] وجميع ذلك يختصّ الله بالقدرة عليه، والعبادة تستحقّ بذلك، لأنّها أُصول النعم.

ثمّ أخبر عن الكفّار بأنّهم يقولون: ليس هذا القرآن الّذي أنزلناه ﴿إلّا إفْكٌ﴾ يعني كذب افتعله النبيّ ﷺ ﴿وأعانَهُ عليه قَومٌ آخَرُونَ﴾ قال الحسن: قالوا: أعانه عليه عبد حبشي، يعني الحضرميّ. وقال مجاهد: قالوا: أعانه عليه اليهود. ثمّ حكى تعالى عنهم بأنّهم قالوا ذلك و ﴿جاءوا﴾ في هذا القول ﴿ظُلماً وزُوراً﴾ أي جاؤوا بظلم، فلمّا حذف الباء نصبه، أي أنّهم أضافوه إلى غير من صدر عنه، وكذبوا فيه.

وحكى عنهم أنّهم قالوا أيضاً: هذا القرآن ﴿أَساطِيرُ الأوّلِينَ﴾ ورفع أساطير بأنّه خبر ابتداء محذوف، وتقديره: هذا أساطير الأوّلين. قال ابن عبّاس: الّذي قال ذلك النضر بن الحارث بن كلدة، يعني أخباراً قد سطّرها الأوّلون من الأُمم اكتتبها هو، وانتسخها ﴿فَهيَ تُملَى عَلَيه﴾ حتّى

---

(١) عبس: ٢٢.

ينسخها ﴿بُكرةً وأصيلاً﴾ يعني غداة وعشيّاً. و«الأصيل» العشيّ، لأنّه أصل الليل وأوّله. ومعناه: انّه يقرأ عليه على هوى النفس، فأمر الله تعالى نبيّهﷺ أن يقول لهم تكذيباً لقولهم: ﴿قُلْ أنزَلَهُ﴾ يعني القرآن ﴿الّذي يَعلَمُ السرَّ﴾ يعني الخفايا ﴿في السَماواتِ والأرضِ﴾ والمعنى أنّه أنزله على مايعلم من المصلحة وبواطن الأمور وخفاياها، لا على ما تقتضيه أهواء النفوس وشهواتها.

وقال الجبّائي: السرّ ـ هاهنا ـ الغيب. و«السرّ» إخفاء المعنى في القلب أسرّ إليه إسراراً أي ألقى إليه ما يخفيه في قلبه، وسارّه مسارّة وسراراً إذا أخفى ما يلقيه إليه من السرّ عن غيره. وقوله: ﴿إنّه كانَ غَفوراً﴾ معناه الّذي يعلم السرّ في السموات والأرض لايعاجِلهم بالعقوبة بل يستر عليهم، وهكذا كان على من تقدّم من الكفّار والعصاة ﴿رَحيماً﴾ أي منعماً عليهم.

قوله تعالى:

وَقَالُوا مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمشي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذيراً (٧) أو يُلقىٰ إلَيْه كَنْزٌ أو تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأكُلُ مِنهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إنْ تَتَّبِعُونَ إلّا رَجُلًا مَسْحُوراً (٨) أُنظُرْ كَيفَ ضَرَبُوا لكَ الأمثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطيعُونَ سَبيلاً (٩) تَبَارَكَ الَّذي إنْ شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (١٠) أربع آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي ﴿نأكل﴾ بالنون، الباقون بالياء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ويَجعلُ لكَ قُصوراً﴾ بالرفع، الباقون بالجزم. من قرأ ﴿يأكل﴾ بالياء أراد النبيّﷺ فكأنّهم[1] كرهوا أن يكون نبيّ من قبل الله يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وقالوا: هلّا كان معه

(١) كذا في الخطّية: وفي الحجريّة: «فإنّهم».

ملك؟ فيكون معه معيناً مخوّفاً لعباده وداعياً لهم. ومن قرأ بالنون أراد نأكل نحن، فيكون له بذلك مزيّة علينا في الفضل فأكلنا [بأكلنا، خ] من جنّته. ومن جزم [﴿ويجعل﴾ عطفه على موضع ﴿جعل﴾، لأنّ موضع «جعل» جزم] لأنّه جزاء الشرط، فعطف «ويجعل» على الموضع كما قرأ من قرأ قوله: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرْهُمْ﴾ [1] [بالجزم] ومن رفع استأنفه وقطعه من الأوّل، كمن قرأ ﴿ويذرهم﴾ بالرفع.

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفّار الّذين وصفهم أنّهم قالوا: أيّ شيء لهذا الرسول يأكل الطعام كما نأكل ﴿ويَمشي في الأسواقِ﴾ في طلب المعاش كما نمشي ﴿لولا أُنزل إليه﴾ ومعناه هلّا أنزل الله عليه ملكاً إن كان صادقاً، فيكون معيناً له على الإنذار والتخويف، وإن لم ينزل إليه ملك، هلّا ﴿يُلقَى إليهِ كَنزٌ﴾ يستغني به ويكون عوناً له على دنياه وما يريده ﴿أو تكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ أي بستان ﴿يأكلُ مِنها﴾ هو نفسه. ومن قرأ بالنون أراد نأكل نحن معه ونتّبعه.

ثمّ حكى أنّ الظالمين نفوسهم بارتكاب المعاصي والكفر قالوا لأتباعهم ومن سمع منهم: ﴿إنْ تَتَّبِعُونَ﴾ أي ليس تتّبعون إن اتّبعتموه ﴿إلّا رَجُلاً مسحُوراً﴾ وقيل: إنّما يخاطبون بذلك المؤمنين المقرّين بنبوّته ليصرفوهم عنه. ومعنى مسحوراً أنّه قد سحر، و«السحر» ما خفي سببه حتّى يظنّ أنّه معجز.

فقال الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿انظر﴾ يا محمّد ﴿كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأمثالَ﴾ يعني الأشباه، لأنّهم قالوا تارة: هو مسحور، وتارةً مثّلوه بالمحتاج المتروك حتّى تمنّوا له الكنز، وتارةً بأنّه ناقص عن القيام بالأمور، وكلّ

---

(١) الأعراف: ١٨٦.

ذلك جهل منهم وذهاب عن وجه الصواب. فقال الله تعالى: ﴿فَضَلّوا﴾ بضرب هذه الأمثال عن طريق الحقّ ﴿فَلا يَستَطيعُونَ سَبيلاً﴾ معناه لايستطيعون طريقاً إلى الحقّ، مع تمسّكهم بطريق الجهل وعدولهم عن الداعي إلى الرشد. وقيل: معناه لايستطيعون سبيلاً إلى إبطال أمرك.

ثمّ قال تعالى: ﴿تَبارَكَ الّذي﴾ أي تقدّس وتعاظم الله الّذي ﴿إنْ شاءَ جَعَل لَكَ خَيراً مِن ذلكَ﴾ يعني ممّا قالوه ـ في قول مجاهد ـ.

ثمّ فسّر «ذلك» فقال الّذي هو خير ممّا قالوه ﴿جنّاتٍ تَجري مِنْ تَحتِها الأنهارُ ويَجعَلْ لَكَ قُصُوراً﴾ وهو جمع قصر، وهو البيت المشيّد المبنيّ، في قول مجاهد. وسمّي القصر قصراً، لأنّه يقصر من فيه عن أن يوصل إليه. ومن جزم «يجعل» عطفاً على موضع «جعل» لأنّه جواب الشرط. ومن رفع استأنف وكان يجوز النصب على الظرف.

قوله تعالى:

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وأعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعيراً (١١) إذَا رَأتهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعيدٍ سَمِعُوا لهَا تَغَيُّظاً وَزَفيراً (١٢) وَإذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣) لا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وادْعُوا ثُبُوراً كثيراً (١٤) قُلْ أذلِكَ خَيْرٌ أمْ جَنَّةُ الخُلْدِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقُونَ كَانت لَهُمْ جَزَاءً وَمَصيراً (١٥) لَهُمْ فيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدينَ كَانَ عَلىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً (١٦) ستّ آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن حال هؤلاء الكفّار الّذين وصفهم وذكرهم بأنّهم كفروا بالله وجحدوا البعث والنشور؛ إنّهم لم يكفروا لأنّك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، بل لأنّهم لم يقرّوا بالبعث والنشور والثواب والعقاب، وهو معنى قوله: ﴿بل كذَّبُوا بالساعَةِ﴾ يعني بالقيامة وما فيها من الثواب والعقاب.

ثمّ أخبر تعالى أنّه أعدّ ﴿لِمنْ كذّب بالساعةِ سَعيراً﴾ و «أعتدنا» أصله أعددنا فقلبت إحدى الدالّين تاءاً، لقرب مخرجيهما. و«السعير» النار الملتهبة، يقال: أسعرتها إسعاراً، واستعرت استعاراً، وتسعّرت تسعّراً. وسعّرها الله تسعيراً و«الإسعار» تهييج النار بشدّة الإيقاد.

ثمّ وصف تلك النار المستعرة، فقال: ﴿إذا رأتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ﴾ ونسب الرؤية إلى النار ـ وإنّما هم يرونها ـ لأنّ ذلك أبلغ، كأنّها تراهم رؤية الغضبان الّذي يزفر غيظاً، فهم يرونها على تلك الصفة، ويسمعون منها تلك الحال الهائلة. و«التغيّظ» انتفاض الطبع لشدّة نفور النفس، والمعنى صوت التغيّظ من التلهّب والتوقّد.

وقال الجبّائي: معناه ﴿إذا رأتهم﴾ الملائكة الموكّلون بالنار ﴿سَمِعُوا لها﴾ للملائكة ﴿تَغيّظاً وزفيراً﴾ للحرص على عذابهم. وهذا عدول عن ظاهر الكلام مع حسن ظاهره وبلاغته من غير حاجة داعية ولا دلالة صارفة. وإنّما شبّهت النار بمن له تلك الحال، وذلك في نهاية البلاغة.

وقوله ﴿وإذا أُلقُوا﴾ يعني الكفّار ﴿منها﴾ يعني من النار ﴿مَكاناً ضَيّقاً﴾ أي في مكان ضيّق ﴿مُقَرَّنينَ﴾ قيل: معناه مغلّلين، قد قرنت أعناقهم إلى أيديهم في الأغلال، كما قال: ﴿مُقَرَّنينَ في الأصفادِ﴾ [(١)] وقيل: مقرّنين مع الشياطين في السلاسل والأغلال. وقيل: يقرن الإنسان والشيطان الّذي كان يدعوه إلى الضلال ﴿دَعَوا هُنالِكَ﴾ يعني في ذلك الموضع يدعون ﴿ثُبُوراً﴾ قال ابن عبّاس: الثبور الويل. وقال الضحّاك: هو الهلاك. وقيل: أصله الهلاك من قولهم: ثبر الرجل: إذا هلك. قال ابن الزِّبَعْرى:

إذ أُجاري الشيطان في سَنَنِ الغَيّ فَمَنْ مالَ مَيلَهُ مَثْبُورُ [(٢)]

(١) إبراهيم: ٤٩، ص: ٣٨.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٧١.

ويقال: ما ثبرك عن هذا الأمر أي ما صرفك عنه صرف المهلك عنه، وقيل معناه: وانصرفاه عن طاعة الله. وقيل: واهلاكاه.

فقال الله تعالى: إنّه يقال لهم عند ذلك: ﴿لا تَدْعُوا اليَومَ ثُبُوراً واحداً وادْعُوا ثُبُوراً كثيراً﴾ أي لا تدعوا ويلاً واحداً، بل ادعوا ويلاً كثيراً، والمعنى أنّ ذلك لا ينفعكم سواء دعوتم بالويل قليلاً أو كثيراً.

ثمّ قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿أَذلِكَ خَيرٌ﴾ يعني ماذكره من السعير وأوصافه خير ﴿أم جَنّةُ الخُلْدِ﴾ وإنّما قال ذلك على وجه التنبيه لهم على تفاوت ما بين الحالين، وإنّما قال: ﴿أذلِكَ خَيرٌ أم جَنّةُ الخُلْدِ﴾ وليس في النار خير، لأنّ المراد بذلك أيّ المنزلين خير؟! تبكيتاً لهم وتقريعاً. وقوله: ﴿الّتي وُعِدَ المتّقُونَ﴾ أي وعد الله بهذه الجنّة من يتّقي معاصيه ويخاف عقابه ﴿كانَتْ لَهُمْ جَزاءً ومصيراً﴾ يعني الجنّة مكافأةً وثواباً على طاعاتهم، ومرجعهم إليها ومستقرّهم فيها.

و﴿لَهُمْ فيها ما يَشاؤُنَ﴾ ويشتهون من اللذّات والمنافع ﴿خالِدينَ﴾ أي مؤبّدين لا يفنون فيها ﴿كانَ عَلى رَبّكَ وَعْداً مسؤُولاً﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: أنّ المؤمنين يسألون الله عزّ وجلّ الرحمة في قولهم: ﴿ربّنا آمنّا فاغْفِر لَنا وارحَمْنا﴾ [1] وقولهم: ﴿وآتِنا ما وَعَدتَّنا عَلَى رُسلِكَ﴾ [2].

والثاني: أنّه بمنزلة قولك: «لك ما تمنّيت منّي» أي متى تمنّيت شيئاً فهو لك، فكذلك متى سألوا شيئاً فهو لهم بوعد الله ـ عزّ وجلّ ـ إيّاهم.

وقرأ ابن كثير ﴿ضيقاً﴾ بتخفيف الياء، الباقون بالتشديد، وهما لغتان بالتشديد والتخفيف، مثل سيّد وسيْد، وميّت وميْت. وقيل: إنّ ذلك هو

---

(١) المؤمنون: ١٠٩.

(٢) آل عمران: ١٩٤.

الوعد المسؤول في دار الدنيا.

قوله تعالى:

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ ءَ أَنتُمْ أَضلَلْتُمْ عِبَادي هؤُلَاءِ أمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغي لَنَا أن نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنَ أولِيَاءَ وَلِكنْ مَتَّعْتَهُمْ وآبَاءَهُمْ حَتّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قوْماً بُوراً (١٨) فَقَد كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطيعُونَ صَرْفاً وَلَا نصْراً * وَمَنْ يَظْلِم مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبيراً (١٩) وَمَا أرسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ المُرسَلينَ إلَّا إنَّهُمْ لَيَأكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمشُون فِي الأسوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أتَصْبِرُون وَكَان رَبُّكَ بَصيراً (٢٠) أربع آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وأبو جعفر وحفص ويعقوب ﴿وَيَومَ يَحشُرُهُمْ﴾ بالياء، الباقون بالنون. وقرأ ابن عامر ﴿فَنَقُول﴾ بالنون، الباقون بالياء. وقرأ أبوجعفر ﴿أنْ نتّخذ﴾ بضمّ النون وفتح الخاء، الباقون بفتح النون وكسر الخاء. وقرأ حفص ﴿فَما تَستطيعُونَ﴾ بالتاء، الباقون بالياء.

من قرأ ﴿يحشرهم﴾ بالياء فتقديره: قلْ يا محمّد يوم يحشرهم الله ويحشر الأصنام الّتي يعبدونها من دون الله. قال قوم: حشر الأصنام إفناؤها. وقال آخرون: يحشرها كما يحشر سائر الحيوان ليبكت من جعلها آلهة.

ومن قرأ بالنون أراد: أنّ الله المخبر بذلك عن نفسه. وابن عامر جعل المعطوف مثل المعطوف عليه في أنّه حمله على أنّه إخبار من الله. ومن قرأ الأُولى بالنون والثانية بالياء عدل من الإخبار عن الله إلى الإخبار عن الغائب.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَومَ يَحشُرُهُمْ﴾ يعني هؤلاء الكفّار الجاحدين للبعث والنشور ﴿و﴾ يحشر ﴿مَا يَعْبُدُونَ من دون الله﴾ قال مجاهد: يعني

عيسى وعُزَير. وقال قوم: هو كلّ ما عبدوه من دون الله ليبكتوا بذلك ﴿فَيَقُولُ﴾ أي فيقول الله لهم: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضلَلْتُمْ عِبادِي هَؤلاءِ﴾ يعني الكفّار أي يقول الله للّذين عبدوهم: أأنتم الّذين دعوتم الكفّار إلى عبادتكم، فأجابوكم ﴿أم هُمْ ضَلّوا السَبيلَ﴾ من قبل نفوسهم عن طريق الحقّ وأخطأوا طريق الصواب؟ فيجيب المعبودون بما حكاه الله فيقولون: ﴿سُبحانَكَ ماكانَ يَنبغِي لَنا أن نَتّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أولياءَ﴾ ندعوهم إلى عبادتنا. ومن ضمّ النون أراد: لم يكن لنا أن نتّخذ أولياء من دونك، وضعّف هذه القراءة النحويّون. فقالوا: لأنّ «من» هذه تدخل في الاسم دون الخبر، نحو ما علمت من رجل راكباً. ولا تقول: ما علمت رجلاً من راكب.

وقال الزجّاج : لا يجوز ذلك كما لا يجوز في قوله: ﴿فَما مِنْكُمْ مِنْ أحدٍ عَنهُ حاجِزينَ﴾[١] ما أحد عنه من حاجزين. وقال الفرّاء: يجوز ذلك على ضعف، ووجهه أن يجعل الاسم في «من أولياء» وإن كانت وقعت موقع الفعل.

[وقوله: ﴿ماكانَ يَنْبَغي لَنا﴾ «كان» زائدة، والتقدير: ما ينبغي لنا، ذكره أبو عبيدة[٢] وهذا لا يحتاج إليه لأنّ هذا إخبار عنهم يوم القيامة أنّهم يقولون: ما كان ينبغي لنا في دار الدنيا أن نتّخذ أولياء من دونك][٣].

وقوله: ﴿وَلكِن مَتَّعتهُمْ وآباءَهُمْ حَتّى نَسُوا الذِكْرَ وكانُوا قَوماً بُوراً﴾ تمام الحكاية عمّا يقول المعبودون من دون الله، فإنّهم يقولون: يا ربّنا إنّك متّعت هؤلاء الكفّار ومتّعت آباءهم في نعيم الدنيا ﴿حتّى نسُوا الذكرَ﴾ أي ذكرك ﴿وكانُوا قوماً بوراً﴾ أي هلكى فاسدين. و«البور» الفاسد، ويقال:

---

(١) الحاقّة: ٤٧. (٢) مجاز القرآن ٢: ٧١.

(٣) ما بين المعقوفتين جاء في الحجريّة قبل قوله: ﴿أتصبرون...﴾ فلاحظ.

بارت السلعة تبور بوراً: إذا بقيت لا تشترى بقاء الفاسد الّذي لا يراد، والبائر الباقي على هذه الصفة. والبور مصدر كالزور، لا يثنّى ولا يجمع ولا يؤنّث، وقيل: هو جمع «بائر» قال ابن الزبعري:

يا رسولَ المليكِ إنّ لساني راتِقٌ ما فَتقتُ إذ أنا بُورُ[١]

ونعوذ بالله من بوار الإثم. وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: كذّبكم الملائكة والرسل يكذّبوكم [تكم، ظ] في قول مجاهد. والثاني: قال ابن زيد: أيّها المؤمنون كذّبكم المشركون بما تقولون من نبوّة محمّدﷺ وغيره من أنبياء الله. قال الفرّاء: من قرأ بالياء معناه كذّبوكم بقولهم[٢].

وقوله: ﴿فما تَستطِيعُونَ صَرْفاً ولا نَصْراً﴾ قال مجاهد: يعني بذلك فما يستطيع هؤلاء الكفّار صرف العذاب عن أنفسهم ولا نصر أنفسهم من عذاب الله تعالى. وقيل: معناه فما يستطيعون لك يا محمّد صرفاً عن الحقّ، ولا نصر أنفسهم من البلاء الّذي هم فيه من التكذيب لك. وليس: ما يستطيعون نصراً من بعض لبعض. ومن قرأ بالتاء خاطبهم بذلك بتقدير: قلْ لهم.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ نفسه بارتكاب المعاصي وجحد آيات الله ﴿نُذِقْهُ﴾ في مقابلة ذلك جزاءاً عليه ﴿عَذاباً كَبيراً﴾ أي عظيماً.

ثمّ خاطب نبيّه محمّداً ﷺ فقال: ﴿وما أَرسَلنا قَبْلَكَ﴾ يا محمّد ﴿مِنَ المُرْسَلِينَ إلّا إنَّهُمْ لَيأكُلُونَ الطَعامَ﴾ مثلك ﴿وَيمْشُونَ في الأسواقِ﴾ طلباً للمعايش، كما تطلبها أنت، وهو جواب لقولهم: ﴿مالِ هذا الرَسولِ يَأكُلُ

---

(١) أنشده الثعلبي في الكشف والبيان ٧: ١٢٧.

(٢) معاني القرآن ٢: ٢٦٤.

الطعام ويَمْشي في الأسواقِ﴾ (١).

وكسرت «إن» في قوله: ﴿إلّا إنّهم﴾ لأنّه موضع ابتداء، كأنّه قال: إلّا هم يأكلون الطعام، كما تقول: ما قدم علينا أمير إلّا إنّه مكرم لي، ولايجوز أن تكون مكسورة لأجل اللام، لأنّ دخولها وخروجها واحد في هذا الموضع.

وقال قوم «من» محذوفة والتقدير: إلّا من أنّهم ليأكلون الطعام نحو ﴿وما منّا إلّا لَهُ مَقامٌ مَعلُومٌ﴾ (٢) أي إلّا من له مقام معلوم، ذكره الفرّاء (٣). وقال الزجّاج: هذا لا يجوز، لأنّ قوله: ﴿إنّهم ليأكلون الطعامَ﴾ صلة «من» ولايجوز حذف الموصول وبقاء الصلة (٤) ومثل الآية قول الشاعر:

ما أعطياني ولا سَألتُهما إلّا وإنّي لحاجزٌ كَرمي (٥)

وقوله: ﴿وَجَعلنا بَعضَكُمْ لِبعْضٍ فِتنةً﴾ قال الحسن: معناه يقول هذا الأعمى: لو شاء لجعل لي عيناً مثل فلان، ويقول هذا السقيم: لو شاء لأصحّني مثل فلان. وقوله ﴿وَكانَ رَبُّكَ بَصيراً﴾ أي بصيراً بمن يصبر ممّن يجزع، في قول ابن جريج. وقال الفرّاء: كان الشريف إذا أراد أن يسلم وقد سبق المشروف إلى الإسلام، فيقول: أسلم بعد هذا ؟! فكان ذلك فتنة (٦).

وقيل: ﴿وجعلنا بعضكم لبعضٍ فتنةً﴾ للعداوات الّتي كانت بينهم في الدين. و«الفتنة» شدّة في التعبّد تظهر ما في نفس العبد من خير وشرّ، وهيالاختبار، وأصله إخلاص الشيء بإحراق ما فيه منالفساد من قولهم: فتنت الذهب بالنار: إذا أخلصته من الغشّ بإحراقه، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ

---

(١) الفرقان: ٧.
(٢) الصافات: ١٦٤.
(٣) معاني القرآن ٢: ٢٦٤.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٦٢.
(٥) لكثيّر عَزّة، راجع ديوانه: ٢١٩.
(٦) معاني القرآن ٢: ٢٦٥.

على النار يُفتَنُونَ﴾ [١] أي يحرقون إحراق ما يطلب إخلاصه من الفساد.

وقوله ﴿أتصبِرُونَ وكانَ ربُّكَ بَصيراً﴾ معناه اصبروا فقد عرفتم ما وعد الصابرون به من الثواب، والله بصير بمن يصبر ومن يجزع.

قوله تعالى:

وَقَالَ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ أوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ استَكبَرُوا في أنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبيراً (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ المَلٰئِكَةَ لَا بُشْرىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجرِمينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (٢٢) وَقَدِمْنَا إلىٰ مَا عمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (٢٣) أصْحَابُ الجَنَّةِ يَومئذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأحسَنُ مَقيلاً (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ ونُزِّلَ الْمَلٰئِكَةُ تَنْزيلاً (٢٥) خمس آيات.

حكى الله تعالى عن الكفّار الّذين لايرجون لقاء ثواب الله ولايخافون عقابه أنّهم قالوا [ما ذكره]. و«الرجاء» ترقّب الخير الّذي يقوى في النفس وقوعه، تقول: رجا يرجو رجاءًا وارتجى ارتجاءاً وترجّى ترجيّاً، ومثل الرجاء الطمع والأمل. والمعنى لا يرجون لقاء جزائنا، وإذا استعملوا الرجاء مع النفي أرادوا به الخوف، كقوله: ﴿لا تَرجُونَ للهِ وقاراً﴾ [٢] وهي لغة تهامة وهذيل. و«اللقاء» المصير إلى الشيء من غير حائل، ولهذا صحّ لقاء الجزاء من الثواب والعقاب، لأنّ العباد يصيرون إليه في الآخرة وعلى هذا يصلح أن يقال: لابدّ من لقاء الله تعالى.

وقوله: ﴿لولا أُنزِلَ عَلينا الملائكةُ أو نَرى رَبَّنا﴾ معناه هلّا أنزل الملائكة لتخبرنا بأنّ محمّدً نبيّ ﴿أو نرى ربَّنا﴾ فيخبرنا بذلك. قال الجبّائي: وذلك يدلّ على أنّهم كانوا مجسّمة، فلذلك جوّزوا الرؤية على الله الّتي تقتضي التشبيه.

ثمّ أقسم تعالى فقال: ﴿لَقَدْ استكبَرُوا﴾ بهذا القول ﴿في أنفسِهمْ﴾ أي

---

(١) الذاريات: ١٣.

(٢) نوح: ١٣.

طلبوا الكبر والتجبّر بغير حقّ، تقول: استكبر استكباراً ﴿وَعَتَوْا﴾ بذلك أي طغوا به ﴿عتوّاً كَبيراً﴾ و«العتوّ» الخروج إلى أفحش الظلم.

وقوله: ﴿يومَ يَرونَ الملائكةَ﴾ يجوز أن يكون المراد به اليوم الّذي تقبض فيه أرواحهم ويعلمون أين مستقرّهم، ويجوز أن يكون يوم القيامة ﴿لا بُشرَى يومئذٍ للمجرمِين﴾ أي لا بشرى لهم في ذلك اليوم. قال الفرّاء: ليس «اليوم» من صلة «بشرى» ولا منصوباً [به][1] بل أضمرت الفاء كقولك: أمّا اليوم فلا مال لك[2].

وقال الزجّاج: يجوز على تقدير: لا بشرى تكون للمجرمين يوم يرون الملائكة، ويكون «يومئذ» مؤكّداً لـ«يوم» ولا يكون منصوباً بـ«لا بشرى» لأنّ ما يتّصل بـ«لا» لا يعمل فيما قبلها، لكن لمّا قيل: ﴿لابُشرَى للمُجرِمينَ﴾ بيّن في أيّ يوم ذلك فكأنّه قال: يمنعون البشرى يوم يرون الملائكة، وهو يوم القيامة[3] و«المجرمين» معناه الّذين أجرموا وارتكبوا المعاصي.

﴿ويَقُولُونَ حِجْراً محجُوراً﴾ أي حراماً محرّماً. وقال قتادة والضحّاك: هو من قول الملائكة يقولون لهم: حراماً محرّماً عليكم البشرى. وقال مجاهد وابن جريج: هو من قول المجرمين، كما كانوا يقولون في الدنيا إذا لقوا من يخافون منه القتل، قالوا: حجراً محجوراً أي حراماً محرّماً دماؤنا. وأصل الحجر الضيق، يقال: حجر عليه يحجر حجراً: إذا ضيّق. والحجر الحرام لضيقه بالنهي عنه، قال المُتَلَمّس:

حَنَّتْ إلى النخلةِ القُصوى فَقلتُ لها حِجرٌ حَرامٌ أَلا تلكَ الدهارِيسُ[4]

(١) من المصدر. (٢) معاني القرآن ٢: ٢٦٦. (٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٦٣.
(٤) ديوان المتلمّس الضبيعي: ٨٥، وفيه: «بَسْلٌ عليكِ» بدل «حجر حرام».

وقال آخر:

فَـهَمَمتُ أن ألقـي إليـها مَـحْجَراً ولمثلِها يُـلقى إليـهِ المـحجَرُ[(١)]

أي حراماً، ومنه حَجَرَ القاضي عليه يَحْجِرُ، وحَجَر فلان على أهـله، ومنه حجر الكعبة، لأنّه لايدخل إليه في الطواف وإنّما يطاف من ورائـه، لتضيّقه بالنهي عنه.

وقوله: ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾[(٢)] أي لذي عقل، لما فيه من التضييق في القبيح. و«الحجر» الأُنثى من الخيل، ومنه الحجرة، وحجر الإنسان.

وقوله: ﴿وَقَدِمْنا إلى ما عملوا مِنْ عملٍ فَجَعلناهُ هَباءً منثوراً﴾ قال البلخي: معناه قدم أحكامنا بذلك. وقال مجاهد: معنى ﴿قدمنا﴾ عمدنا قال الراجز:

وقدم الخوارج الضُلّالُ إلى عباد رَبِّـهم فـقالوا

إنّ دِماءَكم لنا حَلالُ[(٣)]

وفي الكلام بلاغة حسنة، لأنّ التقدير: كان قصدنا إليه قـصد القـادم على ما يكرهه، ما لم يكن رآه قبل فتغيّر به [فيغيّره، خ] و«الهباء» غبار كالشعاع، لا يمكن القبض عليه. وقال الحسن ومجاهد وعكرمة: هو غبار يدخل الكوة في شعاع الشمس. وقال عكرمة: هو رهـج الخـيل. وقـال ابنعبّاس وغيره: هو الماء المهراق.

ثمّ قال تعالى: ﴿أصحابُ الجنّةِ يَومئذٍ خَيرٌ مُستقرّاً وأحسَنُ مَقيلاً﴾ ومعناه أنّ الّذين يحصلون في الجنّة ـ مثابين منعّمين في ذلك اليوم ـ مستقرّهم خير من مستقرّ الكفّار في الدنيا والآخرة، وقيل: إنّما قال ذلك على وجه المظاهرة، بمعنى أنّه لو كان لهم مستقرّ خير ومنفعة لكان هذا خير مـنه.

---

(١) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٢٦٦، ولم ينسبه لأحد.

(٢) الفجر: ٥.

(٣) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٧٤.

﴿وأحسَنُ مُقِيلاً﴾ معناه أحسن موضع قائلة وإن لم يكن في الجنّة نوم، إلّا أنّه من تمهيده يصلح للنوم، لأنّهم خوطبوا بما يعرفون، كما قال: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فيها بُكْرَةً وَعَشيّاً﴾ [١] على ما اعتادوه. وقال البلخي: معنى ﴿خيرٌ مستقرّاً وأحسنُ مقيلاً﴾ أنّه خير في نفسه وحسن في نفسه لا أنّه أفضل من غيره، كما قال ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيهِ﴾ [٢] أي هو هيّن. وقال قوم: معنى ﴿خَيرٌ مستقرّاً وأحسن﴾ أي أنفع من مستقرّهم. وقال ابن عبّاس وإبراهيم وابن جريج: لأنّه يفرغ من حسابهم إلى وقت القائلة.

وقوله: ﴿يَومَ تَشقّقُ السماءُ بالغَمامِ﴾ أي عن الغمام، وهو كقولهم: رميت بالقوس وعن القوس بمعنى واحد.

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر ﴿تشّقّق﴾ مشدّدة ومعناه تتشقّق، فادغم إحدى التاءين في الشين لقرب مخرجيهما. ومن قرأ بالتخفيف أراد أيضاً ذلك ولكنّه حذف إحدى التاءين، وهي تاء «تفعل» لأنّ الأُخرى علامة الاستقبال، لا يجوز حذفها. وقال أبو عليّ الفارسي: المعنى تشقق السماء وعليها الغمام[٣]. وفي التفسير: أنّه تتشقّق سماء سماء. وقال الفرّاء: تتشقّق السماء عن الغمام الأبيض. وقرأ الباقون بالتخفيف[٤].

وقرأ ابن كثير ﴿ونُنزِلُ الملائكةَ﴾ بنونين، وقرأ الباقون بنون واحدة مشدّدة. والمعنيّ بذلك الإخبار عن هول ذلك اليوم وعظم شدائده، وأنّ الملائكة تنزل للمؤمنين بالإكرام والإعظام، وللكافرين بالاستخفاف والإهانة.

ومن قرأ بالنونين أراد أنّ الله المخبر بذلك عن نفسه، ومن قرأ بنون واحدة فعلى ما لم يسمّ فاعله، والمعنيان واحد، والتشديد أجود، لقوله:

---

(١) مريم: ٦٢.
(٢) الروم: ٢٧.
(٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢١٠.
(٤) معاني القرآن ٢: ٢٦٧.

﴿تنزيلاً﴾ والآخر يجوز، كما قال: ﴿وتَبتَّل إليهِ تَبتيلاً﴾ [١] وقوله: ﴿والله أَنبتَكُمْ مِنَ الأرضِ نَباتاً﴾ [٢] وجاء المصدر على غير الفعل، وذلك سائغ جيّد.

قوله تعالى:

المُلْكُ يَومَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحمنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافِرِينَ عَسيراً (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتىٰ لَيْتَني لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَليلاً (٢٨) لَقَدْ أضلّني عَنِ الذِّكْرِ بَعدَ إذْ جَاءَني وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلانْسَانِ خَذُولاً (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إنَّ قَوْمي اتَّخَذُوا هذَا القُرآنَ مَهْجُوراً (٣٠) خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى: إنّ ﴿المُلْكَ﴾ الّذي هو السلطان بسعة المقدور وتدبير العباد في ذلك اليوم ووصفه ملكه بأنّه الحقّ ﴿للرّحمنِ﴾ الّذي أنعم على جميع خلقه. وأنّ ذلك اليوم كان على الكافرين عسيراً، يعني صعباً شديداً. و«العسير» هو الّذي يتعذّر طلبه، ونقيضه اليسير. و«الحقّ» هو ما كان معتقده على ما هو به، معظّم في نفسه، ولذلك وصفه تعالى بأنّه الحقّ، ووصف ملكه أيضاً بأنّه الحقّ لما ذكرناه. وقيل: «الملك» على ثلاثة أضرب: ملك عظمة وهولله تعالى وحده، وملك ديانة بتمليك الله تعالى، وملك جبريّة بالغلبة.

ثمّ قال تعالى: إنّ في ذلك اليوم ﴿يَعضُّ الظالِمُ على يَديهِ﴾ تلهّفاً على ما فرط في جنب الله في ارتكاب معصيته. وقيل: إنّ الآية نزلت في أُبيّ بن خلف وعقبة ابن أبي معيط، وكانا خليلين ارتدّ أُبيّ لمّا صرفه عن الإسلام عقبة، وقتل عقبة ابن أبي معيط يوم بدر صبراً، وقتل أُبيّ بن خلف يوم أُحد، قتله النبيّ صلّى الله عليه وآله بيده، ذكره قتادة. وقال مجاهد: الخليل ـ هاهنا ـ

---

(١) المزمّل: ٨. (٢) نوح: ١٧.

الشيطان وفلان كناية عن واحد بعينه من الناس، لأنّه معرفة. وقال ابن دريد عن أبي حاتم عن العرب: إنّهم كنّوا عن كلّ مذكّر بفلان، وعن كلّ مؤنّث بفلانة، وإذا كنّوا عن البهائم أدخلوا الألف واللام، فقالوا: الفلان والفلانة.

ثمّ بيّن أنّه لم يتبرّأ منه بأن يقول: ﴿والله لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ يعني أغواني عن اتّباع الذكر الّذي هو النبيّ ﷺ ويحتمل أن يكون أراد القرآن.

ثمّ بيّن فقال: ﴿وكانَ الشَيطانُ للإنسانِ خَذُولاً﴾ يخذله في وقت حاجته ومعاونته، لأنّه على باطل ﴿وقالَ الرَسُولُ﴾ أي ويقول الرسول: ﴿إنّ قَومي اتّخذُوا هَذا القُرآنَ مَهجُوراً﴾.

وقيل في معناه قولان: أحدهما: قال محمّد وإبراهيم: إنّهم قالوا فيه هجراً أي شيئاً من القول القبيح، لزعمهم أنّه سحر، وأنّه أساطير الأوّلين. والثاني: قال ابن زيد: هجروا القرآن بإعراضهم عنه وترك ما يلزمهم فيه.

ويشهد لهذا قوله: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهذا القُرآنِ وَالغَوا فِيهِ﴾ [1] ومثل «قال» بمعنى «يقول» قول الشاعر:

مِثْلُ العَصافِير أحلاماً ومَقْدرةً لو يُوزَنُونَ بِزفِّ الريشِ ما وزَنُوا [2]

أي ما يوزنون، وأمّا قول الشاعر:

إنْ يَسمعُوا رِيبَةً طارُوا بها فَرَحاً
منّي وما سَمِعُوا مِن صالحٍ دَفنُوا [3]

فهذا في الجزاء.

---

(١) فصّلت: ٢٦.
(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٧٤.
(٣) أنشده الجوهري في الصحاح ٥: ٢٠٦٨، مادّة «أذن» ونسبه إلى قعنب بن أمّ صاحب.

قوله تعالى:

وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمينَ وَكفىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصيراً ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتيلاً ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسيراً ﴿٣٣﴾ الَّذينَ يُحْشَرُونَ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ إلىٰ جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبيلاً ﴿٣٤﴾ أربع آيات.

معنى قوله: ﴿وكَذٰلِكَ جَعلنا لِكلٍّ نبيٍّ عَدُوّاً من المجرمينَ﴾ قيل فيه قولان: أحدهما: قال ابن عبّاس: جعل لمحمّدﷺ عدوّاً من المجرمين، كما جعل لمن قبله.

والثاني: كما جعلنا النبيّ يعادي المجرم مدحاً له وتعظيماً، كذلك جعلنا المجرم يعادي النبيّ ذمّاً له وتحقيراً، والمعنى أنّ الله تعالى حكم بأنّه على هذه الصفة. وقيل: ﴿جعلنا لِكلٍّ نبيّ عَدوّاً من المجرمينَ﴾ ببياننا أنّهم أعداؤهم، كما يقال: جعله لصّاً أو خائناً. وقيل: معناه أمرنا بأن يسمّوهم عدوّاً.

و«الجعل» وجود ما به يصير الشيء على ما لم يكن، ومثله التصيير، والعدوّ المتباعد من النصرة للبغضة، ونقيضه الوليّ، وأصله البعد، ومنه عدوتا الوادي أي جانباه، لأنّهما بعداه ونهايتاه. وعدا عليه يعدو عدواً: إذا باعد خطوه للإيقاع به، وتعدّى في فعله إذا أبعد في الخروج عن الحقّ.

ثمّ قال تعالى: ﴿وكفَى بِربِّكَ﴾ يا محمّد ﴿هادياً ونَصيراً﴾ أي حسبك الله الهادي إلى الحقّ، والناصر على العدوّ، و «هادياً» منصوب على الحال أو التمييز، فالحال كفى به في حال الهداية والنصرة، والتمييز من الهادين والناصرين، ذكره الزجّاج[1]. ولايقدر أحد أن يهدي كهداية الله ولا أن

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٦٦.

ينصر كنصرته، فلذلك قال: ﴿وكفى بربِّكَ هادياً ونصيراً﴾.

ثمّ حكى أنّ الكفّار، قالوا: ﴿لولا نزّل﴾ أي هلّا نزّل [أُنزل، خ] ﴿القرآنُ﴾ على النبيّ ﴿جملة واحدة﴾ فقيل لهم: إنّ التوراة أُنزلت جملة، لأنّها أُنزلت مكتوبة على نبيّ يكتب ويقرأ وهو موسى، وأمّا القرآن فإنّما أُنزل متفرّقاً، لأنّه أُنزل غير مكتوب على نبيّ أُمّي، وهو محمّد ﷺ. وقيل: إنّما لم ينزل جملة واحدة، لأنّ فيه الناسخ والمنسوخ، وفيه ما هو جواب لمن سأل عن أُمور، وفيه ما هو إنكار لما كان.

وفي الجملة المصلحة معتبرة في إنزال القرآن، فإذا كانت المصلحة تقتضي إنزاله متفرّقاً كيف ينزل جملة واحدة؟! فقال الله تعالى لنبيّه ﷺ: إنّا أنزلناه متفرّقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾ وقال أبو عبيدة: معناه لنطيّب به نفسك ونشجعك(١).

وقوله: ﴿ورتّلناهُ تَرتيلاً﴾ فالترتيل التبيين في تثبّت وترسّل. وقوله: ﴿ولا يأتُونَكَ بِمَثَلٍ إلّا جئناكَ بالحقّ﴾ أي لم ننزل القرآن جملة واحدة لأنّهم لا يأتونك بشيء يريدون به إبطال أمرك ﴿إلّا جئناكَ بالحقّ﴾ الّذي يبطله ﴿وأحسنَ تفسيراً﴾ أي نجيئك بأحسن تفسيراً ممّا يأتونك به وأجود معاني.

ثمّ قال: ﴿الّذينَ يُحشَرُونَ على وجوهِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿إلى جَهَنَّمَ﴾ يعني الكفّار يسحبون على وجوههم. وفي الحديث أنّ الّذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم. ثمّ أخبر تعالى عن هؤلاء الّذين يحشرون على وجوههم بأنّهم ﴿شَرٌّ مَكاناً وأضلّ سبيلاً﴾ عن الحقّ وعن الثواب والجنّة.

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٧٤.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسىَ الكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أخَاهُ هٰرُونَ وَزيراً (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إلَى الْقُومِ الّذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْميراً (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أغْرَقْنَاهُمْ وَجَعلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأعْتَدْنَا لِلظَّالِمينَ عَذَاباً أليماً (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَ وَأصْحَاب الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذٰلِكَ كَثيراً (٣٨) وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الأمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبيراً (٣٩) وَلَقَدْ أتَوا عَلَى الْقَرْيَةِ الّتي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كانُوا لا يَرَجُونَ نُشُوراً (٤٠) ستّ آيات بلا خلاف.

أقسم الله تعالى بأنّه آتى موسى الكتاب يعني التوراة، وأنّه جعل معه أخاه هارون وزيراً يحمل عنه أثقاله، وأنّه قال لهما وأوحى إليهما وأمرهما بأن يذهبا إلى القوم الّذين كذّبوا بآيات الله وجحدوا أدلّته، يعني فرعون وقومه، [و] أخبر أنّهم لم يقبلوا منهما وجحدوا نبوّتهما، فأهلكهم الله ودمّرهم تدميراً. و«التدمير» الإهلاك بأمر عجيب، ومثله التنكيل، يقال: دمّر على فلان إذا هجم عليه بالمكروه.

ثمّ قال: ﴿وقَومُ نُوحٍ﴾ أي أغرقنا قوم نوح لمّا كذّبوا الرسل ﴿أغرقناهُمْ وجعلناهم للناسِ آيةً﴾ وعلامة. و«التغريق» الإهلاك بالماء الغامر، وقد غرق الله تعالى قوم نوح بالطوفان، وهو مجيء ماء السماء المنهمر، وماء الأرض الّذي فجر الله تعالى عيونها حتّى التقى الماء، أي أتى على أمر قد قدّره الله فطبّق الأرض، ولم ينجُ إلّا نوحاً ومن كان معه راكب في السفينة، ويقال: فلان غريق في النعمة تشبيهاً بذلك.

وقوله: ﴿لمّا كذّبوا الرُسُلَ﴾ يعني نوحاً ومن تقدّم من الأنبياء. وقيل: المعني نوحاً والرسل من الملائكة. وقيل: نوحاً ومن بعده من الرسل، لأنّ الأنبياء يصدّق بعضهم بعضاً في توحيد الله وخلع الأنداد، فمن كذّب بواحد

منهم فقد كذّب جميعهم. وقال الحسن: تكذيبهم بنوح تكذيب لسائر الرسل. ثمّ قال تعالى: إنّا مع إهلاكهم العاجل ﴿اعتدنا للظالمينَ﴾ نفوسهم ﴿عذاباً أليماً﴾ أي مؤلماً موجعاً. وقوله: ﴿وعاداً وثَمُودَ وأصحابَ الرسِّ وقرُوناً بَينَ ذلكَ كَثيراً﴾ معناه أهلكنا هؤلاء أيضاً. يقال: «عاد» هم القوم الّذين بعث الله إليهم هوداً، و«ثمود» هم الّذين بعث الله إليهم صالحاً. وأصحاب الرسّ قال عكرمة: الرسّ بئر رسّوا فيها نبيّهم أي ألقوه فيها. وقال قتادة: هي قرية باليمامة، يقال لها: «فَلْج». وقال أبو عبيدة: الرسّ كلّ محفور ـ في كلام العرب ـ وهو المعدن، قال الشاعر:

سَبَقتُ إلى فَرَط ناهلٍ ... تَنابلة يَحفِرُونَ الرِساسا[1]

أي المعادن. وقيل: الرسّ البئر الّتي لم تطو بحجارة ولا غيرها، يقال: رسّه يرسّه رسّاً: إذا دسّه. وقيل: أصحاب الرسّ هم أصحاب ياسين بأنطاكية الشام، ذكره النقّاش. وقال الكلبي: هم قوم بعث الله تعالى إليهم نبيّاً فأكلوه، وهم أوّل من عمل نساؤهم السحر. وعن أهل البيت عليهم السلام[2] أنّهم قوم كانت نساؤهم سحّاقات.

وقوله: ﴿وقُروناً بينَ ذَلكَ كَثيراً﴾ أي أهلكنا قروناً بين هؤلاء الّذين ذكرناهم كثيراً. وقيل: القرن سبعون سنة. وقال إبراهيم: أربعون سنة.

وقوله: ﴿وكُلّاً ضَربْنَا لَهُ الأمثالَ﴾ تقديره: ودلّلنا كلّاً ضربنا له الأمثال، فلمّا كفروا بها دمّرناهم تدميراً ﴿وكُلّاً تبّرنا تَتبيراً﴾ أي أهلكنا كلّاً منهم إهلاكاً. و«التتبير» تكبير الإهلاك، والتبر مكسّر الزجاج ومكسّر الذهب.

وقوله: ﴿ولَقدْ أتَوْا على القَريةِ الّتي أُمطِرَتْ مَطَرَ السَوْءِ﴾ يعني أنّ هؤلاء

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٧٥، ونسبه إلى النابغة الجعدي.

(٢) الكافي ٧: ٢٠٢ ح ١.

الكفّار قد جاؤوا إلى القرية الّتي أهلكها الله بـالمطر السـوء ﴿أفلم يَكونُوا يَرونَها﴾ فيعتبروا بها. والقرية هي قرية «سدوم» قرية قوم لوط، والمطر السوء الحجارة الّتي رموا بها، في قول ابن عبّاس ـ ثمّ قال: ﴿بل﴾ رأوها، وإنّما لم يعتبروا بها، لأنّهم ﴿كانُوا لا يَرجُون نُشُوراً﴾ أي لا يخافون البعث لاعتقادهم جحده، قال الهذلي:

إذا لَسَعَتْهُ الدبـرُ لم يَـرْجُ لَسْـعَها وخالفها في بَيتِ نُوبٍ عَواملِ[١]

فالدبر النحل، أي لم يخف. وقيل: ركبوا المعاصي، لأنّهم لا يرجـون ثواب من عمل خيراً بعد البعث.

قوله تعالى:

وَإذَا رَأوْكَ إنْ يَتَّخِذُونَكَ إلّا هُزُواً أهٰذَا الّذي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حينَ يَرَونَ العَذَابَ مَنْ أضَلُّ سبيلاً ﴿٤٢﴾ أرَأيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلٰهَهُ هَويٰهُ أفَأنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكيلاً ﴿٤٣﴾ أمْ تَحْسَبُ أنَّ أكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلّا كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبيلاً ﴿٤٤﴾ أربع آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى حاكياً عن الكفّار الّذين وصفهم بأنّهم ﴿إذا رَأوْكَ﴾ يا محمّد وشاهدوك لا يتّخذُونَكَ ﴿إلّا هُزُواً﴾ أي سخريّاً، «والهـزو» إظـهار خلاف الإبطان لاستصغار القدر على وجه اللهو. وأنّـهم ليـقولون: ﴿أهذا الّذي بَعثَ اللهُ رسُولاً﴾ متعجّبين من ذلك ومنكرين له، لأنّهم يعتقدون في الباطن أنّه ما بعثه الله.

وقوله: ﴿إنْ كاد ليُضِلُّنا عَنْ آلهتِنا﴾ أي قد قارب أن يأخذ بنا في غـير

---

(١) أنشده الخليل في العين ٦: ١٧٧ مادّة «رجو»، وفيه: «النحل» بدل «الدبر» و«عواسلِ» بدل «عواملِ».

جهة عبادة آلهتنا، على وجه يؤدّي إلى هلاكنا. و«الإضلال» الأخذ بالشيء إلى طريق الهلاك.

وقوله: ﴿لولا أنْ صَبَرنا عَلَيها﴾ أي على عبادتها، لأنّ الهاء شيءٌ تخبر عن ذلك، وحذف الجواب لدلالة الكلام عليه، فقال الله تعالى متوعّداً لهم: ﴿وسوفَ يَعلَمُونَ﴾ فيما بعد إذا رأوا العذاب الّذي ينزل بهم ﴿مَنْ أضلُّ سَبيلاً﴾ عن طريق الحقّ، هم أم غيرهم؟

ثمّ قال لنبيّه: يا محمّد ﴿أَرأَيتَ من اتّخذَ إلَهَهُ هَواهُ﴾ لأنّه ينقاد له ويتّبعه في جميع ما يدعوه إليه. وقيل: المعنى من جعل إلهه ما يهوى، وذلك نهاية الجهل، لأنّ ما يدعو إليه الهوى باطل. والإله حقّ يعظّم بما لا شيء أعظم منه، فليس يجوز أن يكون الإله ما يدعو إليه الهوى، وإنّما الإله ما يدعو إلى عبادته العقل.

ومعنى ﴿أَفَأنْتَ تَكُونَ عَليهِ وَكيلاً﴾ أي لاتكون له أنت حافظاً من الخروج إلى هذا الفساد. قال المبرّد: الوكيل أصله واحد، ويشتمل على فروع ترجع إليه، فالوكيل من تتّكل عليه وتعتمد في اُمورك عليه.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿أمْ تَحْسَبُ﴾ يا محمّد وتظنّ أنّ أكثر هؤلاء الكفّار ﴿يَسمَعُونَ﴾ ما تقول سماع طالب للإفهام ﴿أو يَعْقِلُونَ﴾ ما تقوله لهم؟ بل سماعهم كسماع الأنعام، وهم أضلّ سبيلاً من الأنعام، لأنّهم مكّنوا من طريق الفهم، ولم تمكّن النعم من ذلك، وهم مع ذلك لا يعقلون ما تقول، إذ لو عقلوا عقل الفهم به لدعاهم عقلهم إليه، لأنّه نور في قلب المدرك له.

وقيل: ﴿بَلْ هُمْ أضلُّ سَبيلاً﴾ لأنّها لاتعتقد بطلان الصواب وإن كانت لاتعرفه، وهم قد اعتقدوا ضدّ الصواب الّذي هو الجهل. وقيل: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن صورة منه ترك الأوّل وعبد الثاني. وقيل:

لأنّ الأنعام تهتدي إلى منافعها ومضارّها. وهؤلاء لا يهتدون إلى ما يدعو إليه من طريق الحقّ، فهم أضلّ.

قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴿٤٦﴾ آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وهو متوجّه إلى جميع المكلّفين: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمّد ﴿إلى رَبِّكَ﴾ ومعناه ألم تعلم ربّك ﴿كَيفَ مَدَّ الظِلَّ﴾ قال ابن‌عبّاس والضحّاك وسعيد بن جبير: الظلّ حدّه من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وقال أبو عبيدة: الظلّ بالغداة، والفيء بالعشيّ، لأنّه يرجع بعد زوال الشمس[1]. وقوله: ﴿ولو شاءَ لجَعَلهُ ساكِناً﴾ أي دائماً لايزول، في قول ابن عبّاس ومجاهد.

وقوله: ﴿ثمّ جَعلنا الشَمسَ عَليهِ دَليلاً﴾ قال ابن زيد: يعني بإذهابها له عند مجيئها. وقيل: لأنّ الظلّ يتبع الشمس في طوله وقصره، فإذا ارتفعت في أعلى ارتفاعها قصر، وإن انحطت طال بحسب ذلك الانحطاط، ولوشاء لجعله ساكناً بوقوف الشمس. والظلّ يتبع الدليل الّذي هو الشمس، كما يتبع السائر في المفازة الدليل.

وقوله: ﴿ثمّ قَبضناهُ﴾ يعني الظلّ يقبضه الله من طلوع الشمس، وقيل: بغروبها. فالقبض جمع الأجزاء المنبسطة قبضه يقبضه قبضاً، فهو قابض والشيء مقبوض، وتقابضا تقابضاً، وقبّضه تقبيضاً، وتقبّض تقبّضاً، وانقبض انقباضاً.

فاليسير السهل‌القريب، واليسير نقيض العسير، يسر ييسر يسراً، وتيسّر

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٧٦.

تيسّراً، ويسّره تيسيراً، وأيسر إيساراً أي ملك من المال ما تتيسّر به الأُمور عليه. واليسرى لأنّها يتيسّر بها العمل مع اليمنى، وتياسر أخذ في جهة اليد اليسرى. وقيل: معناه قبضاً خفيّاً، لأنّ ظلمة الليل تجيء شيئاً بعد شيء، فلا تتهجّم دفعة واحدة عقيب غروب الشمس. وقيل: معناه قبضاً سريعاً.

قوله تعالى:

وَهُوَ الّذي جَعلَ لكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً والنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الّذي أرسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ وَأنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً طَهُوراً ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسقِيَهُ مِمَّا خَلَقنَا أنْعَاماً وَأنَاسِيَّ كَثيراً ﴿٤٩﴾ ولَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴿٥٠﴾ فَأَبىٰ أكثَرُ النَّاسِ إلّا كُفُوراً (٥٠) أربع آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿نشراً﴾ بضمّ النون والشين. وقرأ ابن عامر بضمّ النون وسكون الشين، وروى ذلك هارون عن أبي عمرو، وقرأ حمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين، وقرأ عاصم ﴿بشراً﴾ بالباء ساكنة الشين.

من ثقّل أراد جمع نشور مثل رسول ورسل، ومن سكّن الشين فعلى قول من سكّن كُتْبٌ في كُتُبٍ ورُسْلٌ فيرُسُلٍ، ومن فتح النون جعله مصدراً واقعاً موقع الحال، وتقديره: يرسل الرياح حياة أي يحيي بها البلاد الميتة. ومن قرأ بالباء أراد جمع بشور أي تبشّر بالغيث من قوله: ﴿الرِياحَ مُبشِّراتٍ﴾[1] يعني بالغيث المحيي للبلاد. وقرأ حمزةوالكسائي ﴿ليذكروا﴾ خفيفة الذال، الباقون بتشديدها. من شدّد الذال أراد ليتذكّروا، فأُدغم التاء في الذال، وهو الأجود، لأنّ التذكير والتذكّر والإذّكار في معنى [واحد وهو معنى الا تعاض، خ] واحد وهو معنى الاتّعاظ، وليس الذكر كذلك.

---

(١) الروم: ٤٦.

وقد حكى أبو عليّ[١] أنّ الذكر يكون بمعنى التذكّر، كقوله تعالى: ﴿إنّها تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[٢] وقوله: ﴿خُذُوا ما آتَيناكُمْ بِقُوَّةٍ واذكروا ما فيهِ﴾[٣] والأوّل أكثر. والمعنى ليتفكّروا في قدرة الله وموضع نعمته بما أحيى بلادهم به من الغيث.

يقول الله تعالى معدّداً لنعمه على خلقه منها أنّه ﴿جَعَلَ لَكُمْ اللَّيلَ لِباساً﴾ معناه أنّ ظلمته تلبس كلّ شخص، وتغشيه حتّى تمنع من إدراكه، وإنّما جعله كذلك للهدوء فيه والراحة من كدّ الأعمال، مع النوم الّذي فيه صلاح البدن.

وقوله: ﴿والنَومَ سُباتاً﴾ أي جعل نومكم ممتدّاً طويلاً تكثر به راحتكم وهدوؤكم. وقيل: إنّه أراد جعله قاطعاً للأعمال الّتي يتصرّف فيها. و«السبات» قطع العمل، ومنه سبت رأسه يسبته سبتاً: إذا حلقه، ومنه يوم السبت، وهو يوم ينقطع فيه العمل. قال المبرّد: يعني سباتاً سكوتاً يقال: أسبت الرجل: إذا أخذته سكتة.

وقوله ﴿وجَعلَ النَهار نُشوراً﴾ أي للانبساط والتصرّف في الحوائج. و«النشور» الانبساط في تصرّف الحيّ، يقال: نشر الميّت: إذا حيي، وأنشره الله فنشر، قال الأعشى:

حتّى يقول الناسُ ممّا رأوْا     يا عَجَبا للميّتِ الناشِرِ[٤]

ثمّ قال: ﴿وَهوَ الّذي أرسلَ الرِياحَ بُشراً بَين يَدي رَحمتِهِ﴾ وفي الرحمة تجمع الرياح، لأنّه جمع الجنوب والشمال والصبا. وفي العذاب ريح لأنّها هي الدبور وحدها، وهي عقيم لا تُلقح، فكلّ الرياح لواقح غيرها.

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢١٢.
(٢) عبس: ١١ ـ ١٢.
(٣) البقرة: ٦٣، الأعراف: ١٧١.
(٤) ديوان الأعشى: ٩٣.

والرحمة الّتي ينزّلها من السماء هي الغيث، وذكر أنّه قد يرسل الرياح لينشئ السحاب.

ثمّ ينزّل ﴿من السماءِ ماءً طهوراً﴾ أي طاهراً مطهّراً مزيلاً للأحداث والنجاسات مع طهارته في نفسه، وإنّما نزّل هذا الماء ليحيي ﴿بهِ بَلدةً ميتاً﴾ قد مات بالجدب، قال أبو عبيدة: زعم بعضهم أنّه أراد إذا لم يكن فيها نبات، فهو بغير «هاء» وإذا كانت روحانيّة فماتت فهي ميتة[1]. وقال غيره: أراد بالبلدة المكان، فلذلك قال ميتاً بالتذكير، ومعنى ﴿نسقيه﴾ نجعله سقياً للأنعام الّتي خلقها الله تعالى.

وقوله: ﴿وأناسيَّ كَثيراً﴾ جمع إنسان جعلت الياء عوضاً من النون، وقد قالوا: أناسين نحو بستان وبساتين، ويجوز أن يكون جمع أُنسي نحو كرسي وكراسي، وقد قالوا: أناسية كثيرة.

ثمّ قال تعالى: ﴿ولَقَدْ صرّفناهُ بَينهُمْ﴾ قيل: معناه قسّمناه بينهم يعني المطر، قال ابن عبّاس: ليس غمام إلّا يمطر، وإنّما يصرف من موضع إلى موضع. و«التصريف» تصيير الشيء دائراً في الجهات. فالمطر يصرّف بدوره في جهات الأرض. ثمّ بيّن أنّه صرّفه كذلك ليتذكّروا ويتفكّروا، فيستدلّوا على سعة مقدور الله وأنّه لا يستحقّ العبادة سواه.

ثمّ أخبر عن حال الكفّار، فقال: ﴿فأبى أكثرُ الناسِ إلّا كُفُوراً﴾ أي جحوداً لهذه النعم الّتي عدّدناها وإنكارها، ويقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا.

قوله تعالىٰ:

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ نَذيراً ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبيراً ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٧٦.

بَرْزَخاً وَحِجراً مَحْجُوراً ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَديراً ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلىٰ رَبِّهِ ظَهيراً ﴿٥٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى: ﴿لو شِئنا لبَعَثنا في كُلِّ قَريةٍ نَذيراً﴾ يخوّفهم بالله ويحذّرهم من معاصيه، والمعنى: لو شئنا لقسّمنا النذر بينهم، كما قسّمنا الأمطار بينهم، ففي ذلك إخبار عن قدرته على ذلك، لكن دبّرنا على ما اقتضته مصلحتهم، وما هو أعود عليهم في دينهم ودنياهم، وفيه امتنان على النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّا ﴿لو شِئنا لبَعثنا في كلِّ قَريةٍ نَذيراً﴾ فيخفّ عنك كثير من عبء ما حملته، لكنّا حملناك ثقل أوزار جميع القرى لتستوجب بصبرك عليه إذا صبرت عظيم المنزلة وجزيل الكرامة. و«النذير» هو الداعي إلى ما يؤمن معه الخوف من العقاب.

و«الإنذار» الإعلام بموضع المخافة. و«النذر» عقد البرّ على انتفاء الخوف، يقال تناذر القوم تناذراً: إذا أنذر بعضهم بعضاً.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿فَلا تُطعِ الكافِرينَ﴾ يا محمّد بالإجابة إلى ما يريدون ﴿وجاهِدْهُمْ﴾ في الله ﴿جِهاداً كبيراً﴾ شديداً، والهاء في قوله: ﴿به﴾ عائدة إلى القرآن، في قول ابن عبّاس والحسن. وقال الحسن: معنى ﴿فلا تطع الكافرين﴾ لا تطعهم فيما يصرفك عن طاعة الله. وقيل: فلا تطعهم بمعاونتهم فيما يريدونه ممّا يبعّد عن دين الله، وجاهدهم بترك طاعتهم. ثمّ عاد تعالى إلى تعديد نعمه فقال: ﴿وَهُوَ الّذي مَرَجَ البحرينِ﴾ ومعناه أرسلهما في مجاريهما، كما ترسل الخيل في المرج، فهما يلتقيان، فلا يبغي الملح على العذب ولا العذب على الملح، بقدرة الله. و«العذب الفرات» وهو الشديد العذوبة، والملح الأُجاج يعني المرّ.

ثمّ قال: ﴿وجَعل بَينهما بَرْزَخاً﴾ أي حاجزاً يمنع كلّ واحد منهما من تغيير الآخر ﴿وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ معناه يمنع أن يفسد أحدهما الآخر. وقال المبرّد: شُبّه الخلط بحجر البيت الحرام. وأصل المرج الخلط، ومنه قوله: ﴿في أمرٍ مَريجٍ﴾ [١] أي مُخْتَلِطٍ، وفي الحديث: «مَرِجَتْ عُهُودُهُم» [٢] أي اختلطت. وسمّي المرج بذلك، لأنّه يكون فيه أخلاط من الدوابّ، ومرجت دابّتك: إذا ذهبت بتخليتك حيث شاءت، قال الراجز:

رعى بها مَرْجَ رَبيعٍ ممرَجا [٣].

و﴿مرج البحرين﴾ معناه خلا بينهما، تقول: مرجت الدابّة وأمرجتها إذا خلّيتها ترعى.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الّذي خَلَقَ مِنَ الماءِ بَشَراً﴾ يعني من النطفة. وقيل: الماء الّذي خلق الله منه آدم بشراً أي إنساناً، فجعل ذلك الإنسان ﴿نَسَباً وصِهْراً﴾ فالنسب ما رجع إلى ولادة قريبة. و«الصهر» خلطة تشبه القرابة. وقيل: الصهر المتزوّج بنت الرجل أو أُخته. وقال الفرّاء: النسب الّذي لايحلّ نكاحه، والصهر النسب الّذي يحلّ نكاحه، كبنات العمّ والخال ونحوهما [٤].

وقيل: النسب سبعة أصناف ذكرهم الله في ﴿حُرِّمتْ عَليكُمْ أُمّهاتُكُمْ...﴾ إلى قوله ﴿وبَنات الأُخْتِ﴾. والصهر خمسة أصناف ذكروا في ﴿أُمّهاتُكُمْ اللاتي أرضعنَكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿وحَلائِلُ أبنائِكُمُ الّذينَ مِنْ أصلابِكُمْ﴾ [٥] ذكره الضحّاك. وقوله: ﴿وَكانَ ربُّك قدَيراً﴾ أي قادراً على جميع ما أنعم به عليكم.

---

(١) ق: ٥. (٢) النهاية لابن الأثير ٤: ٣١٤.
(٣) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٧٧، ونسبه الى العجّاج.
(٤) معاني القرآن ٢: ٢٧٠. (٥) النساء: ٢٣.

ثمّ أخبر عن الكفّار فقال: ﴿ويَعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الأصنام والأوثان الّتي لا تنفعهم ولا تضرّهم، لأنّ العبادة ينبغي أن توجّه إلى من يملك النفع والضرّ مطلقاً.

ثمّ قال: ﴿وكان الكافر على ربّه ظهيراً﴾ قال الحسن ومجاهد وابن زيد: يظاهر الشيطان على معصية الله. وقيل: ﴿ظَهيراً﴾ معناه هيّناً كالمطرح. والأوّل هو الوجه. وقيل: معنى ﴿ظَهيراً﴾ معيناً. ووصف الأصنام بأنّها لاتضرّ ولاتنفع يدلّ على بطلان فعل الطباع ، لأنّها موات مثلها، والفعل لايصحّ إلّا من حيّ قادر.

قوله تعالى:

وَمَا أرسَلْنَاكَ إلّا مُبَشِّراً وَنَذيراً(٥٦) قُلْ مَا أسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجرٍ إلّا مَنْ شَاءَ أنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبيلاً(٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الّذي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبيراً(٥٨) الّذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أيّامٍ ثُمَّ استَوىٰ عَلَى العَرْشِ الرَّحمٰنُ فَسئَلْ بِهِ خَبيراً(٥٩) وَإذَا قِيلَ لَهُمُ اسجُدُوا لِلرَّحمٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ أَنسجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً(٦٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي ﴿لِمَا يأمُرُنَا﴾ بالياء، الباقون بالتاء. من قرأ بالتاء جعل الخطاب للنبيّ ﷺ وقيل: معناه أنسجد لأمرك فجعلوا «ما» مع مابعدها بمنزلة المصدر. ومن قرأبالياء جعل الياء لمسيلمة الكذّاب، لأنّه كان يسمّي نفسه الرحمن فقالوا للنبيّ ﷺ: إنّا لا نعرف الرحمن إلّا نبيّ اليمامة، فقال الله تعالى: ﴿قُلِ ادعُوا الله أَوِ ادعُوا الرحمن أيّاً ما تَدعُوا فَلَهُ الأسماءُ الحسنى﴾ (١).

وقال أبو عليّ: من قرأ بالتاء أراد أنسجد لما تأمرنا يا محمّد على وجه

---

(١) الإسراء: ١١٠.

الإنكار، لأنّهم أنكروا أن يعرف الرحمن[1] فلايحمل على رحمان اليمامة.

يقول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿ما أرسلناكَ﴾ يا محمّد ﴿إلّا مُبَشِّراً﴾ بالجنّة وثواب الله لمن أطاعه ومخوّفاً لمن عصاه بعقاب الله. وقال الحسن: ما بعث الله نبيّاً قطّ إلّا وهو يبشّر الناس إن أطاعوا الله بالسعة في الدنيا والآخرة، وينذر الناس إن عصوا عذاب الله في الآخرة. و«البشارة» الإخبار بما يظهر سروره في بشرة الوجه، تقول: بشّره تبشيراً وبشارة، وبشارة الأنبياء مضمّنة بإخلاص العبادة لله تعالى. و«النذارة» هو الإخبار بما فيه المخافة ليحذر منه. أنذره إنذاراً ونذارة، وتناذر القوم: إذا أنذر بعضهم بعضاً.

ثمّ أمره، فقال: يا محمّد ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكفّار: إنّي لست أسألكم على ما أُبشّركم به وأُحذّركم منه ﴿أجراً﴾ تعطوني ﴿إلّا مَنْ شاءَ أنْ يتّخذَ إلى ربّهِ سبيلاً﴾ استثناء من غير الجنس، ومعناه أنّه جعل أجره على دعائه اتّخاذ المدعوّ سبيلاً إلى ربّه وطاعته إيّاه، كقول الشاعر:

وَبَــلْدَةٍ لَـيسَ بـها أَنـيسُ إلّا اليَعافِيرُ وإلّا العِيسُ[2]

جعلها أنيس ذلك المكان. وقيل: ﴿إلّا مَن شاءَ أن يَتَّخِذَ إلى ربِّه سَبيلاً﴾ بإنفاقه ماله في طاعة الله واتّباع مرضاته. ثمّ أمره أن يتوكّل على ربّه ﴿الحيِّ الّذي لا يَموتُ﴾ والمراد به جميع المكلّفين لأنّه يجب على كلّ أحد أن يتوكّل على الله ويسلم لأمره. ومعنى ﴿وسبّحْ بحمْدِهِ﴾ أي احمده منزّهاً له ممّا لايجوز عليه في صفاته، بأن تقول: الحمدلله ربّ العالمين، الحمدلله على نعمه وإحسانه الّذي لايقدر عليه غيره، الحمدلله حمداً يكافئ نعمه في عظم المنزلة وعلوّ المرتبة، وما أشبه ذلك. وقوله: ﴿وكفَى بِهِ﴾ أي كفى

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢١٣.

(٢) أنشده سيبويه في الكتاب ٢: ٣٢٢، ولم ينسبه لأحد.

الله ﴿بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبيراً﴾ أي عالماً ﴿الّذي خَلَق السَموات والأرضَ وما بَينهُما﴾ يعني بين هذين الصنفين، كما قال القطامي:

ألم يــحزنك أنّ حــبالَ قَـيس وتَغلبَ قد تَـبايَنَتا انـقطاعا[١]

وقال الآخر:

إنّ المــنيّةَ والحــتوفَ كـلاهما يوفي المخارم يرقبان سوادي[٢]

وقوله: ﴿في سِتَّةِ أيام﴾ قيل: كان ابتداء الخلق يوم الأحد، وانتهاؤه يوم الجـمعة ﴿ثمّ استوى على العَرشِ﴾ وقـيل: ﴿ثمّ استوى على العَرشِ﴾ تـمام الحكاية. ثمّ ابتدأ فقال: ﴿الرحمن فسئَلْ به خبيراً﴾ ومعنى ﴿فسئَلْ به خبيراً﴾ أي فاسأل سؤالك إيّاه خبيراً. قال ابن جريج: الخبير ـ هـاهنا ـ هـو الله. وقيل: معناه فاسأل به أيّها الإنسان عارفاً يخبرك بالحقّ في صفته.

ثمّ حكى أنّه إذا قيل لهؤلاء الكفّار: ﴿اسجُدُوا للرحمنِ﴾ الّـذي أنـعم عليكم ﴿قالُوا وما الرّحمن﴾ أي أيّ شيء الرحمن ؟ أي لا نعرفه ﴿أنسجُدُ لِما تأمُرُنا﴾ وقد فسّرناه ﴿وزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ أي ازدادوا عند ذلك نـفوراً عـن [قبول، خ] قول النبيّ صلى الله عليه وآله والرجوع إلى طاعة الله.

قوله تعالى:

تَبَارَكَ الّذي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فيهَا سِرَاجاً وَقمَراً مُنيراً (٦١) وَهُوَ الّذي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلفَةً لِمَن أرَادَ أنْ يَذَّكَّرَ أو أرَادَ شُكُوراً (٦٢) وَعِبَادُ الرَّحمٰنِ الَّذينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرضِ هَوْناً وإذَا خاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قالُوا سَلَاماً (٦٣) وَالَّذينَ يَبيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً (٦٤) وَالَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إنَّ

---

(١) أنشده الطبري ذيل الآية.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٣٦، ونسبه إلى الأسود بن يعفر.

عَذَابهَا كَانَ غَرَاماً﴿٦٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي ﴿سرجاً﴾ على الجمع، الباقون ﴿سراجاً﴾ على التوحيد. وقرأ حمزة وحده ﴿أن يذكر﴾ خفيفة، الباقون بالتشديد.

من قرأ على التوحيد فلقوله: ﴿وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾. ومن قرأ على الجمع، فلقوله: ﴿زيّنّا السّماءَ الدنيا بِمَصابيحَ﴾ (١) تشبيهاً بالكواكب أعني المصابيح كما شبّهت المصابيح بالكواكب في قوله: ﴿الزُجاجَةُ كَأنّها كَوكَبٌ دُرّيٌّ﴾ (٢).

وقيل: من وحّد أراد الشمس وحدها، ومن جمع أراد الكواكب المضيئة كلّها. واتّفقوا على ﴿وقمراً﴾ إلّا الحسن، فإنّه قرأ بضمّ القاف والميم، ويجوز أن يكون فيه لغتان مثل «ولد، وولد» ويجوز أن يكون أراد الجمع غير أنّ العرب لا تعرف جمع القمر قمراً، وإنّما يجمعونه أقماراً.

وقوله تعالى: ﴿تَباركَ﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: تقدّس وجلّ بما هو ثابت لم يزل ولا يزال، لأنّ أصل الصفة الثبوت. والثاني: أنّه من البركة، والتقدير: جلّ تعالى وتقدّس بما به يقدر على جميع البركات ﴿الّذي جَعَل في السماءِ برُوجاً﴾ والبروج منازل النجوم الظاهرة، وهي اثنتا عشرة برجاً معروفة أوّلها الحمل وآخرها الحوت. وقيل: البروج منازل الشمس والقمر، وقال إبراهيم: البروج القصور العالية، واحدها قصر، ومنه قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ في بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ (٣) قال الأخطل:

كأنّها بُرجُ روميٍ يشيّده لزّ بجصٍّ وآجرٍّ وأحجارِ (٤)

وقال قتادة: البروج النجوم. وقال أبو صالح: هي كبار النجوم.

---

(١) الملك: ٥. (٢) النور: ٣٥. (٣) النساء: ٧٨.

(٤) أنشده الثعلبي في الكشف والبيان ٧: ١٤٤، وفيه: «بان» بدل «لزّ».

و«البرج» تباعد ما بين الحاجبين. قال الزجّاج: كلّ ظاهر مرتفع يقال له: برج، وسمّيت الكواكب بروجاً لظهورها(١).

وقوله: ﴿وجعل فيها سراجاً﴾ يعني الشمس يستضيء بها جميع الخلق. وقوله: ﴿وقَمَراً مُنيراً﴾ أي مضيئاً بالليل إذا لم يكن شمس. فمن قرأ ﴿سراجاً﴾ أراد الشمس وحدها. ومن قرأ ﴿سرجاً﴾ أراد جميع النجوم لأنّه يهتدى بها، كما يهتدى بضوء السراج.

وقوله: ﴿وهو الّذي جَعَل الليلَ والنهارَ خلفةً﴾ أي يخلف كلّ واحد منهما صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه، فمن فاته عمل الليل استدركه بالنهار، ومن فاته عمل النهار استدركه بالليل، قال عمر بن الخطّاب وابن عبّاس والحسن: يخلف أحدهما الآخر في العمل. وقال مجاهد: معناه أحدهما أسود والآخر أبيض، فهما مختلفان. وقال أبو زيد: معناه أحدهما يذهب ويجيء الآخر، قال زهير:

بها العينُ والأرآمُ يَمشينَ خِلفةً وَأطلاؤها يَنْهضْنَ من كلِّ مَجْثَمِ(٢)

وقوله: ﴿لمن أراد أن يَذَّكَّرَ﴾ أي خلقناه كذلك لمن أراد أن يتفكّر ويستدلّ بها على أنّ لها مدبّراً ومصرّفاً،لا يشبهها ولا تشبهه فيوجّه العبادة إليه. وقوله: ﴿أو أراد شُكُوراً﴾ أي يشكر الله على ما أنعم به عليه فيتمكّن من ذلك، لأنّ بهذه الأدلّة وأمثالها يتوصّل إلى ما قلناه.

وقوله: ﴿وعِبادُ الرَحمٰنِ﴾ يعني عباده المخلصين الّذين يعبدونه، المعظّمون ربّهم ﴿الّذينَ يَمشُونَ على الأرضِ هَوْناً﴾ يعني بالسكينة والوقار، في قول مجاهد. وقال الحسن: معناه حلماً وعلماً، لا يجهلون وإن جهل عليهم. وقال ابن عبّاس: بالتواضع لا يتكبّرون على أحد.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٧٣.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى: ٧٥.

﴿وإذا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ﴾ بما يكرهونه أو يثقل عليهم ﴿قالُوا﴾ في جوابه ﴿سلاماً﴾ أي سداداً من القول، ذكره مجاهد. وقيل: معناه أنّهم قالوا قولاً يسلمون به من المعصية لله. وقال قوم: هذا منسوخ بآية القتال. وليس الأمر على ذلك، لأنّ الأمر بالقتال لا ينافي حسن المحاورة في الخطاب وحسن العشرة.

وقوله: ﴿والّذينَ يَبِيتُونَ لربِّهم سُجّداً وقِياماً﴾ يعني يعبدون الله في لياليهم ويقومون بالصلاة ويسجدون فيها ﴿والّذين يَقُولُونَ ربّنا اصرف عنّا عذابَ جَهنّم إن عذابَها كانَ غَراماً﴾ أي يدعون بهذا القول، ومعنى ﴿غراماً﴾ لازماً ملحّاً دائماً، ومنه الغريم لملازمته وإلحاحه. وفلان مغرم بالنساء أي ملازم لهنّ لا يصبر عنهنّ، قال الشاعر:

إن يُعاقِبْ يكُن غراماً وإن يُعـ ـطِ جزيلاً فإنّه لا يبالي[1]

وقال بشر بن أبي حازم:

فَيومُ النِسارِ ويَومُ الجِفَا رِ كانا عذاباً وكانا غَراما[2]

وقال الحسن: ليس غريم إلّا مفارق غريمه غير جهنّم، فإنّها لا تفارق غريمها.

قوله تعالىٰ:

إنَّهَا سَاءَتْ مُستَقَرًّا وَمُقَاماً ﴿٦٦﴾ وَالَّذينَ إذَا أنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَاماً ﴿٦٧﴾ وَالَّذينَ لَا يَدعُونَ مَعَ الله إلٰهاً آخرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتي حرَّمَ اللهُ إلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أثاماً ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيٰمَةِ وَيَخْلُدْ فيهِ مُهَاناً ﴿٦٩﴾ إلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ

---

(١) قائله الأعشى، راجع ديوانه: ١٦٧.

(٢) أنشده الجوهري في الصحاح ٥: ١٩٩٦، مادّة «غرم»، وفيه: «ويوم» بدل «فيوم».

سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحيماً﴿٧٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي عن أبي بكر ﴿يقتروا﴾ بضمّ الياء وكسر التاء، وقرأ أهل البصرة وابن كثير بفتح الياء وكسر التاء، الباقون بفتح الياء وضمّ التاء، وهم أهل الكوفة إلّا الكسائي عن أبي بكر. وقرأ ابن عامر وأبو بكر ﴿يضاعف... ويخلد﴾ بالرفع فيهما، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ﴿يضعف﴾ بتشديد العين وإسقاط الألف، الباقون ﴿يضاعف﴾ بإثبات الألف وتخفيف العين. تقول: قَتَر يَقْتِرُ وَيَقْتُرُ ـ بكسر التاء وضمّها ـ لغتان، وأقتر إقتاراً لغة.

واختلفوا في «السرف» في النفقة، فقال قوم: كلّ ما أنفق في غير طاعة الله فهو سرف، لقوله تعالى: ﴿إنّ المُبَذِّرِينَ كانُوا إخوانَ الشَياطينِ﴾[1]. وقال عليّ عليه السلام: ليس في المأكول والمشروب سرف وإن كثر. وقال قوم: الإسراف في الحلال فقط، لأنّ الحرام لايجوز الإنفاق فيه ولو ذرّة.

ومن قرأ ﴿يضاعف﴾ فمن المضاعفة، ومن شدّد فمن التضعيف ذهب إلى التكثير، والمعنيان متقاربان. ومن جزم جعله بدلاً من جواب الشرط، لأنّ الشرط قوله: ﴿وَمَنْ يَفعلْ ذلكَ﴾ وجزاؤه ﴿يلق أثاماً﴾ وعلامة الجزم سقوط الألف من آخره. و ﴿يُضاعَفْ﴾ بدل منه و «يخلد» عطف عليه. ومن رفع استأنف لأنّ الشرط والجزاء تمّ. وكان يجوز النصب على الظرف، في مذهب الكوفيين. وبإضمار «أن» على مذهب البصريّين، ولم يقرأ به أحد.

لمّا أخبر الله تعالى أنّ عذاب جهنّم كان غراماً لازماً بيّن بأنّها ﴿ساءَتْ مستقرّاً ومُقاماً﴾ أي موضع قرار فيه وإقامة لما فيها من أنواع العذاب،

---

(١) الإسراء: ٢٧.

ونصبها على التمييز.

ثمّ عاد إلى وصف المؤمنين فقال: ﴿والّذينَ إذا أنفَقُوا لم يُسْرِفُوا﴾ أي لم يخرجوا عن العدل في الإنفاق، يقال: فلان مسرف على نفسه إذا أكثر من الحمل على نفسه في المعصية، فشبّه بالمسرف في النفقة ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ أي لم يقصروا عن العدل في الإنفاق، وهو مأخوذ من القترة، وهي الدخان. والإقتار مشبّه به في الإمحاق والإضرار. وفيه ثلاث لغات: قتر يقتر ويقتر، وأقتر إقتاراً.

وقال أبو عليّ الفارسي: من قرأ ﴿يقتروا﴾ بضمّ التاء أراد لم يقتروا في إنفاقهم، لأنّ المسرف مشفٍ على الافتقار [الإقتار، خ]، لسرفه. ومن فتح التاء أراد لم يضيقوا في الإنفاق، فيقصروا عن المتوسّطين، فمن كان في هذا الطرف فهو مذموم، كما أنّ من جاوز الاقتصاد كان كذلك، وبيّن ذلك بقوله: ﴿وكانَ بَينَ ذلكَ قَواماً﴾ أي كان إنفاقهم بين ذلك، لا إسرافاً يدخل في حدّ التبذير، ولا تضييقاً يصير به في حدّ المانع لما يجب(١). وقال ابن عبّاس: الإسراف الإنفاق في معصية الله قلّ أو كثر، والإقتار منع حقّ الله من المال. وقال إبراهيم: السرف مجاوزة الحدّ في النفقة، والإقتار التقصير فيما لابدّ منه. والقوام بفتح القاف العدل، وبكسرها السناد، يقال: هو قوام الأمر وملاكه. ويقال: هي حسنة القوام في اعتدالها، قال الحطيئة:

طافَتْ أُمامَةُ بالرُكْبانِ آوِنَةً ... يا حُسْنَها من قوامٍ كانَ منتقبا(٢)

ثمّ زاد في وصفهم بأن قال: ﴿والّذينَ لا يَدْعُونَ مَع اللهِ إلهاً آخرَ﴾ يوجّهون عبادتهم إليه ﴿ولا يَقْتُلُونَ النَفسَ الّتي حرّمَ اللهُ إلاّ بالحقِّ﴾ والنفس

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) ديوان الحطيئة: ١١، وفيه: يا حسنه من قوام ما ومنتقبا.

المحرّمة هي نفس المسلم والمعاهد، والمستثنى نفس الحربي ومن يجب عليه القتل على وجه القود والارتداد أو الزنا مع الإحصان ﴿ولا يزنُونَ﴾ فالزنا هو الفجور بالمرأة في الفرج.

ثمّ قال: ﴿ومن يفعل ذلك يَلقَ أثاماً﴾ قال قوم: يلقى جزاء الأثام. وقال آخرون: الآثام العقاب، قال بلعاء بن قيس الكناني:

جزى الله ابن عُروة حيث أمسى عقوقاً والعقوق له أثامُ[1]

أي عقاب. وقال ابن عمر وقتادة: هو اسم وادٍ في جهنّم، وهو قول مجاهد وعكرمة. وقال أهل الوعيد: إنّ قوله: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ راجع إلى كلّ واحد من المعاصي المذكورة. وقال أهل الإرجاء: إنّما يرجع إلى جميعه، ويجوز أن يكون راجعاً إلى الكفر وحده، لأنّ الفسوق لا يستحقّ به العقاب الدائم إذا وقع من اهل الصلاة، لأنّ المؤمن استحقّ الثواب الدائم فلو استحقّ مع ذلك العذاب الدائم لأدّىٰ إلى اجتماع الاستحقاقين على وجه الدوام، وذلك خلاف الإجماع، لأنّ الإحباط عندهم باطل، والكلام على ذلك استوفيناه في كتاب الأُصول[2].

ثمّ زاد في الوعيد فقال: ﴿ومَنْ يَفْعَلْ ذلكَ يَلقَ﴾ جزاء آثامه ويضاعف له العذاب في كثرة الإجزاء لا أنّه يضاعف استحقاقه، لأنّ الله تعالى لا يعاقب بأكثر من المستحقّ، لأنّ ذلك ظلم يتعالى الله عن ذلك. وقيل: يضاعف عذابه على عذاب الدنيا، وبيّن تعالى أنّه ﴿يخلد﴾ مع ذلك في النار ﴿مهاناً﴾ مستخفّاً به.

ثمّ استثنى من جملتهم من تاب وندم على معاصيه وعمل عملاً صالحاً، فإنّ الله تعالى يبدّل سيّئاته حسنات، أي يجعل مكان عقاب سيّئاته

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٨١.
(٢) تمهيد الأُصول: ٢٦٣ ـ ٢٦٧.

ثواب حسناته، قال الشاعر في التبديل:

بــدّلن بَــعْدَ حَــرّهِ صَـريعاً وبَعْدَ طُولِ النفسِ الوجيعا[١]

وقوله تعالى: ﴿وكانَ اللهُ غَفوراً رحيماً﴾ أي ساتراً لمعاصي عباده إذا تابوا منها، منعماً عليهم بالثواب والتفضل.

قوله تعالى:

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُم فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴿٧٧﴾ سبع آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر [إلّا حفصاً] ﴿وذرّيّتنا﴾ على التوحيد، الباقون على الجمع. وقرأ أهل الكوفة إلّا حفصاً ﴿ويلقون﴾ بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف، الباقون بضمّ الياء وفتح اللام وتشديد القاف.

من وحّد ﴿الذرّيّة﴾ فلأنّه في معنى الجمع لقوله: ﴿ذرّيّةَ مَنْ حَمَلنا مَعَ نُوحٍ﴾[٢] ومن جمع فكما تجمع الأسماء الدالّة على الجمع، نحو «قوم وأقوام» وقد يعبّر بذلك عن الواحد كقوله: ﴿هَبْ لي مِن لّدُنكَ ذُرّيّةً طيّبةً﴾[٣] ويعبّر به عن الجمع كقوله: ﴿وليَخْشَ الّذينَ لَو تَركُوا مِنْ خَلفِهِمْ ذُرّيّةً

(١) أنشده الطبري ذيل الآية ونسبه إلى ابن عبّاس، وفيه: «خريفاً» بدل «صريعاً» و«الوجيفا» بدل «الوجيعا».

(٢) الإسراء: ٣.

(٣) آل عمران: ٣٨.

ضِعافاً خافُوا عَليهِمْ﴾[١] ومن جمع فللازدواج.

ومن شدّد ﴿يلقون﴾ فعلى أنّ المعنى يلقون التحيّة والسلام مرّة بعد مرّة لأنّ التشديد للتكثير، وشاهده قوله: ﴿وَلقّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾[٢]. ومن خفّف أراد يلقون هم تحيّة، كما قال: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَونَ غَيّاً﴾[٣] وقال بعضهم: لو كان بالتشديد لقال «ويتلقّون» لأنّهم يقولون تلقّيته بالتحيّة، و«لقى» فعل متعدٍّ إلى مفعول واحد فإذا ضعّفت العين تعدّى إلى مفعولين، وقوله: ﴿تحيّة﴾ المفعول الثاني.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ تابَ﴾ من معاصيه وأقلع عنها وندم عليها وأضاف إلى ذلك الأعمال الصالحات ﴿فإنّه يَتُوبُ إلى اللهِ مَتاباً﴾ أي يرجع إليه مرجعاً عظيماً جميلاً، وفرّق الرماني بين التوبة إلى الله والتوبة من القبيح لقبحه، بأنّ التوبة إلى الله تقتضي طلب الثواب، وليس كذلك التوبة من القبيح لقبحه.

ثمّ عاد تعالى إلى وصف المؤمنين فقال: ﴿والّذينَ لا يَشْهَدُونَ الزُورَ﴾ أي لا يحضرونه، ولا يكونوا بحيث يذكرونه بشيء من حواسّهم الخمس: البصر، والسمع والأنف، والفم، والبشرة. ومن لا يشهد الزور فهو الّذي لايشهده ولا يحضره لأنّه لو شهده لكان قد حضره، فهو أعمّ في الفائدة من أن لا يشهد به.

و«الزور» تمويه الباطل بما يوهم أنّه حقّ. وقال مجاهد: الزور ـ هاهنا ـ الكذب. وقال الضحّاك: هو الشرك. وقال ابن سيرين: هو أعياد أهل الذمّة كالشعانين وغيرها. وقيل: هو الغناء، ذكره مجاهد وأهل البيت عليهم السلام.

---

(١) النساء: ٩. (٢) الدهر: ١١. (٣) مريم: ٥٩.

وقوله: ﴿وإذا مرُّوا باللغوِ مرُّوا كِراماً﴾ معناه: مرّوا من جملة الكرماء الّذين لا يرضون باللغو، لأنّهم يجلّون عن الاختلاط بأهله والدخول فيه، فهذه صفة الكرام. وقيل: مرورهم كراماً كمرورهم بمن يسبّهم فيصفحون عنه، وكمرورهم بمن يستعين بهم على حقّ فيعينونه. وقيل: هم الّذين إذا أرادوا ذكر الفرج كنّوا عنه، ذكره محمّد بن عليّ عليه السلام ومجاهد. و«اللغو» الفعل الّذي لا فائدة فيه، وليس معناه أنّه قبيح، لأنّ فعل الساهي لغو، وهو ليس بحسن ولا قبيح، عند قوم، ولهذا يقال: الكلمة الّتي لاتفيد لغو.

وقوله: ﴿والّذينَ إذا ذُكّروا بآياتِ رَبِّهِمْ لم يَخِرُّوا عَليها صُمّاً وعُمياناً﴾ معناه أنّهم إذا ذكّروا بأدلّة الله تعالى الّتي نصبها لهم نظروا فيها وفكّروا في مقتضاها، ولم يكونوا كالمشركين في ترك التدبّر لها حتى كأنّهم صمّ وعميان عنها، ذكره الحسن. وقيل: معناه يخرّون سجّداً وبكيّاً سامعين لله مطيعين، قال الشاعر:

بأَيدي رِجالٍ لم يشيموا سُيُوفَهُمْ ولم تَكْثُرِ القَتْلَى بها حينَ سُلَّتِ[(١)]

أي بأيدي رجال شاموا سيوفهم وقد كثرت القتلى، ومعنى شاموا أغمدوا، ذكره الزجّاج[(٢)].

ثمّ وصف المؤمنين بأنّهم يدعون ﴿يَقُولُون ربَّنا هَبْ لنا مِنْ أزواجِنا وذرّيّاتِنا قُرَّةَ أعين﴾ ومعناه بأن نراهم مطيعين لله، في قول الحسن. و﴿قرّة أعين﴾ يكون من القرّ، وهو بردها عند السرور، ويكون من استقرارها عنده.

(١) أنشده المبرّد في الكامل ١: ٤٠١، ونسبه إلى الفرزدق ولم نعثر عليه في ديوانه، ونسبه ابن رشيق في العمدة ٢: ١٨٦ إلى سليمان بن قتّة في رثاء الإمام الحسين عليه السلام.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٧٨.

وقوله: ﴿واجعلنا للمتّقينَ إماماً﴾ أي يسألون الله تعالى أن يجعلهم ممّن يقتدى بأفعالهم الطاعات. وفي قراءة أهل البيت عليهم السلام ﴿اجعل لنا من المتّقين إماماً﴾ وإنّما وحّد «إماماً» لأنّه مصدر، من قولهم: أمّ فلان فلاناً إماماً، كقولهم: قام قياماً وصام صياماً. ومن جمعه فقال: «أئمّة» فلأنّه قد كثر في معنى الصفة. وقيل: إنّه يجوز أن يكون على الجواب، كقول القائل: من أميركم؟ فيقول: هؤلاء أميرنا، قال الشاعر:

يا عاذلاتي لا تردن ملامتي ... إنّ العواذلَ لسن لي بأمير[1]

ثمّ أخبر تعالى عمَّن جمع هذه الأوصاف من المؤمنين بأن قال: ﴿أُولئكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بما صَبَرُوا﴾ على طاعتهم الّتي ذكرها. و«الغرفة» في الجنّة المنازل العالية، ثواباً على ما صبروا في جنب الله، وعلى مشاقّ الدنيا وصعوبة التكليف، وغير ذلك ﴿و﴾ أنّهم ﴿يُلقَّونَ فيها تَحِيّةً وَسلاماً﴾ من الملائكة، بشارةً لهم بعظيم الثواب.

وقوله: ﴿خالدينَ فيها﴾ نصب على الحال أي هم في الجنّة مؤبّدين ولايخرجون منها ولا يفنون. وأخبر أنّ الجنّة مستقرّهم، وأنّها ﴿حَسُنَتْ مستقرّاً﴾ من مواضع القرار وموضع الإقامة، ونصب على التمييز.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء ﴿ما يَعبؤُ بِكُمْ رَبّي﴾ ومعناه ما يصنع بكم ربّي، في قول مجاهد وابن زيد. وأصله تهيئة الشيء، ومنه عَبأتُ الطِيبَ أعبؤه عَبّاً: إذا هيّأته، قال الشاعر:

كأنَّ بنحرهِ وبمنكبيهِ ... عَبيراً باتَ تَعبؤُهُ عَرُوسُ[2]

---

(١) أنشده ابن جني في الخصائص ٣: ١٧٤، ولم ينسبه لأحد.

(٢) أنشده ابن دريد في جمهرة اللغة ٣: ٢٠٨، مادّة «بعو» ونسبه إلى أبي زبيد الطائي.

أي تهيّئه، وعبّأت الجيش بالتشديد والتخفيف: إذا هـيّأته، و«العبء» الثقل، وما أعبأ به أي لا أهيّء به أمراً. وقال قوم: مالا يعبأ به، فـوجوده وعدمه سواء.

وقوله: ﴿لَولا دُعاؤُكُمْ﴾ قال مجاهد: معناه لولا دعاؤه إيّاكم إلى طاعته لم يكن في فعلكم ما تطالبون به، وهو مصدر أُضيف إلى المفعول، كقولهم: أعجبني بناء هذه الدار، وخياطة هذا الثوب. وقـال الزجّـاج: مـعناه لولا توحيدكم وإيمانكم[1]. وقال البلخي: معناه لولا كفركم وشرككم ما يـعبأ بعذابكم، وحذف العذاب وأقام المضاف إليه مقامه.

ثمّ قال: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ يا معشر الكفّار بآيات الله، وجـحدتم رسـوله ﴿فَسوفَ يَكُونُ لِزاماً﴾ قال مجاهد: معناه القتل يوم بدر، ويكون الخـطاب متوجّهاً إلى الّذين قتلوا يوم بدر. وقيل: اللزام عذاب الآخرة. وقـال أبـو ذؤيب في اللزام:

فَـــفاجأهُ بـــعاديةٍ لزامٍ كما يتفجّرُ الحوضُ اللقيفُ[2]

لزام: معناه كثيرة يلزم بعضها بعضاً، ولقيف متساقط متهدم. وقال صخر الغي في اللزام:

فإما يَنْجوا من حَتْفِ أرضٍ فقد لَقيا حتوفهما لِـزامـاً[3]

أي أنّه واقع لا محالة. وقال الضحّاك: هو لزوم الحجّة لهم في الآخرة. وقال أبو عبيدة: معناه فـيصلاً[4]. [وقـوله: ﴿أولئِكَ يُجْزَونَ الغُرفَةَ﴾] قـال الزجّاج[5]: الأحسن أن يكون قوله: ﴿أُولئكَ يجزون﴾ في آخر السورة هو

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٧٨.
(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٨٢.
(٣) أنشده الزهري في تهذيب اللغة ١٣: ٢٢٠ مادّة «لزم».
(٤) مجاز القرآن ٢: ٨٢.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٧٨.

خبر ﴿وعباد الرحمن﴾[١] فيكون قوله: ﴿الذينَ يمشُونَ على الأرضِ هَوناً﴾ صفة. ويجوز أن يكون خبر ﴿وعباد الرحمن﴾ ﴿الذينَ يمشونُ على الأرضِ هَوناً﴾ ومابعده عطف عليه[٢].

---

(١) الفرقان: ٦٣.

(٢) حاصله: أنّ قوله: ﴿وعباد الرحمن﴾ مبتدأ وخبره في آخر السورة كأنه قيل: وعباد الرحمن الّذين هذه صفاتهم أُولئك يجزون الغرفة. ويجوز أن يكون خبره ﴿ألذين يَمشُونَ﴾ وما بعده عطفاً عليه. «هامش الحجريّة».

## سورة الشعراء

قال قتادة: هي مكّية. وقيل: أربع آيات منها مدنيّة من قوله: ﴿والشعراء...﴾ إلى آخرها، وهي مائتان وسبع وعشرون آية في الكوفي والمدني الأوّل، وستّ في البصري والمدني الآخر.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ (١) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ (٣)

ثلاث آياتٍ في الكوفيّ خاصّة، واثنتان في الباقي، ولم يعدّ ﴿طسم﴾ آية إلّا أهل الكوفة.

قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى والعليمي ﴿طسم، وطس﴾ بإمالة الطاء فيهما، الباقون بالتفخيم، وأظهر النون من هجاء سين عند الميم حمزة وأبو جعفر إلّا أنّ أبا جعفر يقطع الحروف، الباقون يخفونها.

قال أبو عليّ الفارسيّ: تبيين النون من ﴿طسم﴾ على قراءة حمزة هو الوجه، لأنّ حروف الهجاء في تقدير الانفصال والانقطاع ممّا بعدها، وإذا ثبت ذلك وجب أن تبيّن النون لأنّها تخفى إذا اتّصلت بحرف من حروف

الفم، فإذا لم يتّصل بها لم يكن هناك ما يوجب إخفاءها. ووجه إخفائها مع هذه الحروف أنّ همزة الوصل قد وصلت ولم تقطع، وهمزة الوصل إنّما تذهب في الدرج فكما سقطت همزة الوصل، وهي لا تسقط إلّا في الدرج مع هذه الحروف في (ألف لام ميم) الله، كذلك لا تبيّن النون، ويقدّر فيها الاتّصال بما قبلها، ولا يقدّر الانفصال[١].

قيل: إنّما عدّ ﴿طسم﴾ آية، ولم يعدّ ﴿طس﴾ لأنّ ﴿طس﴾ تشبه الاسم المنفرد، نحو «قابيل وهابيل» وليس كذلك «طسم». ووجه التشبيه بالزنة أنّ أوّله لا يشبه حروف الزيادة الّتي هي حروف المدّ واللين، نحو «يس» وليس شيء على وزن المفرد يعدّ إلّا «ياسين» لأنّ الياء تشبه حروف الزيادة فقد رجع إلى أنّه ليس على زنة المفرد. وقد بيّنّا فيما مضى معاني هذه الحروف المقطّعة في أوّل سورة البقرة[٢] فلا نطول بإعادته، وقد بيّنّا قول من قال: إنّها أسماء السور. وقال قتادة والضحّاك: إنّ ﴿طسم وطس﴾ اسم من أسماء القرآن.

وقوله: ﴿تلكَ آياتُ الكتابِ المُبينِ﴾ إنّما أشار بـ«تلك» إلى ما ليس بحاضر لأنّه متوقّع، فهو كالحاضر بحضور المعنى للنفس، وتقديره: تلك الآيات آيات الكتاب. وقيل: تلك الآيات الّتي وعدتم بها هي القرآن.

وقيل: إنّ «تلك» بمعنى «هذا» ومعنى «الكتاب» القرآن، ووصفه بأنّه «المبين» لأنّ به تتبيّن الأحكام، لأنّ البيان إظهار المعنى للنفس بما يتميّز به عن غيره، وهو مأخوذ من البينونة، وهي التفرقة بين الشيء وغيره. فالمبين الّذي يبين الحقّ من الباطل، وسمّي أيضاً فرقاناً لأنّه يفرق بين الحقّ والباطل.

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢١٩.

(٢) تقدّم في ج ١: ٣٥٤ ـ ٣٥٨ فراجع.

وقوله: ﴿لعلّكَ باخِعٌ نَفسَكَ ألّا يَكونُوا مؤمنينَ﴾ قيل فيه قولان: الأوّل: قال ابن عبّاس وقتادة: معناه لعلّك قاتل نفسك. والثاني: قال ابن زيد: مخرج نفسك من جسدك. و«البخع» القتل، قال ذو الرمّة:

أَلا أيّهذا الباخِعُ الوَجْدُ نَفسَهُ لشَيءٍ نَحَتْهُ عن يَديه المَقادِرُ[1]

وقال الفرّاء: موضع «أن» نصب بـ«باخع» لأنّ «أن» جزاء، كأنّه قال: إن لم يكونوا مؤمنين فأنت قاتل نفسك، فلما كان ماضياً نصب «أن» كما تقول: أتيتك أن تأتيني، ولو لم يكن ماضياً لقلت: آتيك إن تأتني، ولو كانت مجزومة مع كسر «إن» كان جائزاً، ومثله ﴿لا يَجْرِمنّكم شنآن قَومٍ أن﴾[2] بالفتح والكسر[3].

قوله تعالى:

إنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أعْناقُهُمْ لَها خاضِعينَ ﴿٤﴾ وَما يَأتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحمٰنِ مُحْدَثٍ إلّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضينَ ﴿٥﴾ آيتان بِلا خلاف.

لما بيّن الله تعالى حرص النبيّ ﷺ على إيمان قومه واجتهاده بهم حتّى كاد أن يقتل نفسه تأسّفاً على تركهم الايمان، أخبره الله تعالى بأنّه قادر على أن ينزّل عليهم آية ودلالة من السماء، تظلّ أعناقهم لها خاضعة بأن تلجئهم إلى الإيمان، لكن ذلك ينقض الغرض بالتكليف، لأنّه تعالى لو فعل ذلك لما استحقّوا ثواباً ولا مدحاً، لأنّ الملجأ لا يستحقّ الثواب والمدح على فعله، لأنّه بحكم المفعول فيه. وقيل: المراد بالأعناق الرؤساء. وقال قتادة: المعنى لا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية.

---

(١) ديوان ذي الرمّة: ٣٦١، وفيه: «يديك» بدل «يديه».

(٢) المائدة: ٢.

(٣) معاني القرآن ٢: ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

وقيل وجه جمع «الأعناق»[١] بالياء والنون ـ مع أنّها لا تعقل، وهذا الجمع يختصّ به ما يعقل ـ: فيه أربعة أقوال:

أحدها: فظلّ أصحاب الأعناق لها خاضعين، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، لدلالة الكلام عليه.

الثاني: أنّه أراد بالأعناق الرؤساء والجماعات، كما يقال: جاءه عنق من الناس أي جماعة.

الثالث: أن يكون على الإقحام. قال أبو عبيدة والمبرّد: «خاضعين» من صفة الهاء والميم، في قوله: ﴿أعناقهم﴾ كما قال الشاعر وهو جرير:

أرى مرّ السنينَ أخذنَ منّي كما أخذَ السَرارُ من الهِلالِ[٢]

فعلى هذا يكون ترك الأعناق وأخبر عن الهاء والميم، وتقديره: فظلّوا خاضعين لها.

الرابع: أنّها ذكرت بصفة ما يعقل لمّا نسب إليها ما يكون من العقلاء، كما قال الشاعر:

تمزّزتُها والديك يدعو صباحه[٣] إذا ما بنو نعشٍ دنوا فتصوّبُوا[٤]

ويروى نادى صباحه. ثمّ أخبر تعالى عن هؤلاء الكفّار الّذين تأسّف النبيّ ﷺ على عدولهم عن إيمانهم أنّه ليس يأتيهم ذكر من الرحمن يعني القرآن، كما قال تعالى: ﴿إِنّا نَحنُ نَزّلنا الذِكْرَ وإنّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾[٥] وقال: ﴿إنْ

(١) في حاشية الحجريّة هكذا: أي الضمير العائد إليها في خاضعين.

(٢) ديوان جرير: ٣٢٢، وفيه: «رأت» بدل «أرى».

(٣) في هامش الحجريّة تمزرتها «المزر» القرص بأطراف الأصابع قرصاً رفيقاً، وفي نسخة: «تمززتها» وفي أُخرى: «تمرّ بها».

(٤) الكشف والبيان ٧: ١٥٨، وفيه: «تمززتها» بدل «تمزرتها».

(٥) الحجر: ٩.

هُوَ إِلّا ذِكْرٌ وقرآنٌ مبينٌ﴾ (١) ووصفه بأنّه ﴿محدث﴾ ولذلك جرّه، لأنّه صفة لـ﴿ذكر﴾.

وقوله: ﴿إلّا كانُوا عَنهُ معرضِينَ﴾ أي يتولّون عنه ولا ينظرون فيه.

قال الفرّاء: إنّما قال: ﴿فظلّت﴾ ولم يقل «فتظلّ» لأنّه يجوز أن يعطف على مجزوم الجزاء بـ«فعل» لأنّ الجزاء يصلح في موضع «فعل يفعل» وفي موضع «يفعل فعل» لأنّك تقول: إن زرتني زرتك، وإن تزرني أزرك، والمعنى واحد (٢).

قوله تعالى:

فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهمْ أنبؤَ مَا كانُوا بِه يسْتهزِؤُن ﴿٦﴾ أوَ لَمْ يَرَوا إلى الأرْضِ كَمْ أنبتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإنَّ ربَّك لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ أربع آيات.

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفّار الّذين وصفهم بأنّهم كذّبوا بآيات الله وجحدوا رسوله وأنّه سيأتيهم فيما بعد، يعني يوم القيامة أخبار ما كانوا به يَستهزؤُنَ. وإنّما خصّ المكذّب بإتيان الأنباء ـ مع أنّها تأتي المصدّق والمكذّب ـ من حيث إنّ المكذّب يعلم بها بعد أن كان جاهلاً، والمصدّق يعلم بها بما كان عالماً به، فلذلك حسن وعيد المكذّب به، لأنّ حاله يتغيّر إلى الحسرة والندم. و«الاستهزاء» السخريّة، وهو طلب اللهو بما عند الطالب صغير القدر.

ثمّ قال: ﴿أو لم يَروْا﴾ هؤلاء الكفّار ﴿إلى الأرضِ كم أنبتنا فيها من كلّ زوجٍ كريمٍ﴾ من أنواع النبات، فيستدلّوا على توحيده، بأن يعلموا أنّ ذلك لا يقدر عليه غيره. ولا يتأتّى من سواه ممّن هو قادر بقدرة، لأنّه لو تأتّى

(١) يس: ٦٩.

(٢) معاني القرآن ٢: ٢٧٦.

من غيره لتأتّي منّا لأنّا قادرون أيضاً بقدرة، فلمّا استحال منّا علمنا استحالة ذلك ممّن يجري مجرانا، فإنّ الفاعل لذلك مخالف لنا وإنّه قادر لنفسه.

ثمّ أخبر تعالى أنّ فيما ذكره من إنبات النبات من كلّ زوج كريم لدلالة لمن يستدلّ بها، ومن يتمكّن من ذلك، وأنّ أكثر الكفّار لا يصدّقون بذلك، ولا يعترفون به عناداً وتقليداً لأسلافهم وحبّاً للراحة وهرباً من مشقّة التكليف.

ومعنى ﴿كلّ زوجٍ كريمٍ﴾ يعني ممّا يأكل الناس والأنعام، في قول مجاهد. وقيل: من الشيء ومشاكله في الانتفاع به. وقيل: من كلّ زوج كريم من أنواع تكرم على أهله. وقيل: من كلّ نوع معه قرينه من أحمر وأصفر، وحلو وحامض، وروائح مختلفة.

ثمّ قال: ﴿وإنّ ربّك﴾ يا محمّد ﴿لَهوَ العزيزُ﴾ الغنيّ القادر الّذي لا يعجز ولا يغلب ﴿الرّحيمُ﴾ أي المنعم على عباده بأنواع النعم الّتي ذكرها.

قوله تعالى:

وإذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسىٰ أنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظالِمينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إنِّي أخَافُ أنْ يُكذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي ولاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي فأَرْسِلْ إلىٰ هٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أنْ يَـقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ﴿ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾ بالنصب يعقوب، عطفاً على ﴿أن يكذّبونِ﴾ الباقون بالرفع عطفاً على ﴿أخاف﴾ ويجوز أن يكون على الاستئناف، والمعنى: وإنّي يضيق صدري.

يقول الله تعالى لنبيّه محمّد ﷺ: واذكر يا محمّد واتل عليهم الوقت الّذي نادى فيه ربّك ـ الّذي خلقك ـ موسى، ومعناه قال له: يا موسى بأن ائت القوم الّذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي. ثمّ بيّن: من القوم

الموصوفون بهذه الصفة؟ بأن قال: ﴿قوم فرعون﴾ وهو عطف بيان ﴿ألا يتّقُونَ﴾ وإنّما قال بالياء، لأنّه على الحكاية. وتقديره: فقلْ لهم: ألا تتّقون، ومثله ﴿قُلْ لِلّذِينَ كَفَرُوا سَيُغلَبُونَ﴾ [1] بالياء والتاء. ولوقرئ بالتاءكان جائزاً.

و«التقوى» مجانبة القبائح بفعل المحاسن، اتّقى الله يتقيّه اتّقاءاً: أي اتّقى عقابه بطاعته بدلاً من معصيته، وأصله صرف الأمر بحاجز بين الصارف وبينه.

ثمّ حكى ما قال موسى وجوابه، فإنّه قال: يا ﴿ربِّ إنّي أخافُ أنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ولا يقبلون منّي. و«الخوف» انزعاج النفس بتوقّع الضرر، ونقيضه الأمن، وهو سكون النفس إلى خلوص النفع، ونظير الخوف الفزع والذعر والجزع.

و«التكذيب» تصيير المخبر كاذباً بإضافة الكذب إليه، كذّبه تكذيباً وأكذبه إكذاباً، والكذب نقيض الصدق، والكذب كلّه قبيح. والتكذيب على وجهين: فتكذيب الصادق قبيح، وتكذيب الكاذب حسن.

وقوله: ﴿ويَضيقُ صَدرِي ولا يَنطلِقُ لساني﴾ حكاية أيضاً عمّا قال موسى، و«ضيق الصدر» غمّ يمنع من سلوك المعاني في النفس، لأنّه يمنع منه كما يمنع ضيق الطريق من السلوك فيه.

وقوله: ﴿ولا ينطلق لساني﴾ أي لا ينبعث بالكلام، وقد يتعذّر ذلك لآفة في اللسان، وقد يتعذّر لضيق الصدر وغروب المعاني الّتي تطلب الكلام. وقوله: ﴿فأرسل إلى هارون﴾ يعني لمعاونتي، كما يقال: إذا نزلت بنا نازلة أرسلنا إليك أي لتعيننا. وقيل: إنّما طلب المعاونة حرصاً على القيام بالطاعة.

﴿ولا ينطلق لساني﴾ للعقدة الّتي كانت فيه. قال الجبّائي: لم يسأل

---

(١) آل عمران: ١٢.

موسى ذلك إلّا بعد أن أذن الله تعالى له في ذلك، لأنّ الأنبياء لا يسألون الله إلّا ما يؤذن لهم في مسألته.

وقوله: ﴿ولَهُمْ عليَّ ذَنْبٌ﴾ يعني قتل القبطي الّذي قتله موسى حين استصرخ به واحد من أصحابه من بني إسرائيل، ذكره مجاهد وقتادة. وقوله: ﴿فأخاف أن يقتلونِ﴾ بدل ذلك المقتول.

قوله تعالى:

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِين ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فعْلتَك الَّتي فعلْت وَأنتَ مِن الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إذاً وَأَنا من الضَّالِّين ﴿٢٠﴾ ستّ آيات.

هذا خطاب من الله تعالى جواباً لموسى عمّا حكيناه عنه ﴿قال كلّا﴾ لايقتلونك ﴿فاذهبا﴾ ومعنى «كلّا» زجر أي لا يكون ذلك، ولا يقتلونك ﴿فاذهبا﴾ أمر لموسى وهارون على ما اقترحه موسى فأُجيب إليه ﴿فاذهبا بآياتنا﴾ أي بأدلّتنا ومعجزاتنا الّتي خصّكما الله بها، و﴿إنّا مَعَكُمْ مستمِعُونَ﴾ أي نحن نحفظكم ونحن سامعون ما يجري بينكم، فهو «مستمع» في موضع «سامع» لأنّ الاستماع طلب السمع بالإصغاء إليه، وذلك لا يجوز عليه تعالى، وإنّما قال بهذا اللفظ ـ لأنّه أبلغ في الصفة، وأشدّ في التعظيم، والله تعالى سامع بما يغني عن مذكّر مستمع ـ لينبئ عن هذا المعنى هو وصفه بسامع يغني عن سماع الجماعة الّتي يقع سماعهم مقاولة [معاونة، خ] وإنّما قال: ﴿مستمعُونَ﴾ بلفظ الجمع بناءً على قوله: ﴿إنّا﴾ وأمرهما بأن يأتيا فرعون وأن يقولا له: ﴿إنّا رسول ربّ العالمين﴾ أرسلنا الله إليك لندعوك إلى عبادته وترك الإشراك به. وإنّما قال: ﴿رسول﴾ على التوحيد

ـ وهو للاثنين ـ لأنّ المعنى أنّ كلّ واحد منّا رسول ربّ العالمين، وقد يكون الرسول فِي معنى الجمع، قال الهذلي:

أَلِكْني إليها وخَيرُ الرسو لِ أعلمهُم بنواحي الخَبرْ[١]

أي وخير الرسل. وقيل: إنّه في موضع رسالة، فكما يقع المصدر موقع الصفة كذلك تقع الصفة موقع المصدر. و«الإرسال» جعل الشيء ماضياً في الأمر، ومثله الإطلاق والبعث، وأنشد في ذلك:

لَقَدْ كَذِبَ الواشُونَ ما بُحتُ عندَهُمْ بسرٍّ ولا أرسلتهُمْ برسولِ[٢]

أي برسالة، وقال الآخر:

ألا من مُبلّغ عنّي خفافاً رسولاً بيت أهلك منتهاها[٣]

فأنّثه تأنيث الرسالة. وقوله: ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ أي أمرك الله بأن تطلق سراح[٤] بني إسرائيل ليجيئوا معنا، وفي الكلام حذف وتقديره: أنّهما مضيا إلى فرعون وقالا له ما أمرهم الله به، فقال فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نربّكَ فينا وليداً﴾ فالتربية تنشئة الشيء حالاً بعد حال. ربّاه يربّيه، ومثله نمّاه ينمّيه نماءًا. وقوله: ﴿وليداً﴾ أي حين كنت طفلاً صغيراً ﴿ولبثت فينا من عُمرِكَ سِنين﴾ أي أقمت سنين كثيرة عندنا ومكثت.

وفي «عمر» ثلاث لغات: ضمّ الميم وإسكانها مع ضمّ العين، وفتح العين وسكون الميم. ومنه قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾[٥] وعمر الإنسان بالفتح لا غير، وفى القسم أيضاً بالفتح لا غير.

---

(١) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ١٨٠، ولم ينسبه لأحد.
(٢) قائله الشاعر كثيّر عزّة، ديوانه: ١٧٨، وفيه: «بليلى» بدل «بسرّ» و«برسيل» بدل «برسول».
(٣) أنشده الثعلبي في الكشف والبيان ٧: ١٦٠.
(٤) في الحجريّة: «سراح» غير موجود.
(٥) الحجر: ٧٢.

وقوله: ﴿وفعلتَ فَعْلَتَكَ الّتي فَعلْتَ﴾ يعني قتله القبطي. وقرأ الشعبي ﴿فِعلتك﴾ بكسر الفاء مثل الجلسة والركبة، وهو شاذّ لا يقرأ به.

وقوله: ﴿وأنتَ من الكافرين﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: قال ابن زيد: أنت من الجاحدين لنعمتنا.

الثاني: قال السدّي: أراد كنت على ديننا هذا الّذي تعيبه كافراً بالله. وقال الحسن: ﴿وأنتَ مِنَ الكافِرين﴾ أي في أنّي إلهك. وقيل : من الكافرين لحقّ تربيتي، فقال له موسى عليه السلام في الجواب عن ذلك: ﴿فعلتها﴾ يعني قتل القبطي ﴿وأنَا من الضالّين﴾.

قال قوم: يعني من الضالّين أي من الجاهلين بأنّها تبلغ القتل. وقال الجبّائي: ﴿وأنَا من الضالّين﴾ عن العلم بأنّ ذلك يؤدّي إلى قتله. وقال قوم: معناه ﴿وأنَا من الضالّين﴾ عن طريق الصواب، لأنّي ما تعمّدته وإنّما وقع منّي خطأً، كما يرمي إنسان طائراً فيصيب إنساناً.

قوله تعالى:

فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَني مِنَ المُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَني إسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا ربُّ العَالَمينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ مُوقِنينَ (٢٤) قالَ لِمَنْ حَولَهُ ألَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) خمس آياتٍ بلا خلاف.

يقول الله تعالى حاكياً عن موسى: إنّه قال لفرعون: إنّي ﴿فَررتُ مِنكُم لَمَّا خِفتُكُم﴾ فالفرار الذهاب على وجه التحرّز من الإدراك، ومثله الهرب: فرّ يفرّ فراراً، ومنه يفترّ: أي يضحك، لأنّه يباعد بين شفتيه مباعدة الفرار.

وقوله: ﴿فَوَهبَ لي ربّي حُكْماً﴾ فالهبة الصلة بالنائل. وهب له يهب هبة فهو واهب، واستوهبه كذا: إذا سأله هبته، وتواهبوا ما بينهم: إذا أسقطوها

عنهم على جهة الهبة.

و«الحكم» العلم بما تدعو إليه الحكمة، وهو الّذي وهبه الله تعالى لموسى من التوراة، والعلم بالحلال والحرام وسائر الأحكام، والخبر عمّا يدعو إليه الحكم أيضاً يسمّى حكماً. والحكم ـ هاهنا ـ أراد به النبوّة، في قول جماعة من المفسّرين. وقوله: ﴿وَجَعلَني مِن المرسَلِينَ﴾ أي جعلني الله نبيّاً من جملة الأنبياء.

وقوله: ﴿وتِلكَ نِعمَةٌ تَمنّها عَليَّ أن عَبّدتَ بني إسرائيلَ﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: أنّ اتّخاذك بني إسرائيل عبيداً قد أحبط ذلك وإن كانت نعمة عَليَّ.

الثاني: أنّك لمّا ظلمت بني إسرائيل ولم تظلمني اعتددت بها نعمة عليَّ؟!

وقيل قول ثالث: إنّه لا يوثق بأنّها نعمة منك مع ظلمك بني إسرائيل في تعبيدهم، وفى كلّ ذلك دلالة وحجّة عليه وتقريع له.

ويجوز في «أن» النصب بمعنى لتعبيدك بني إسرائيل، والرفع بالردّ على النعمة أي [وتلك نعمة عليّ تعبيدك بني إسرائيل وتركك إيّاي غير عبيد، ظ] على تعبيدك بني إسرائيل. و«التعبيد» اتّخاذ الإنسان أو غيره عبداً تقول: عبّدته وأعبدته بمعنى واحد، قال الشاعر:

علامَ يُعبدُ في قومي وقد كثرتْ فيهم أباعرُ ما شاءوا وعبدانُ[1]

وقال الجبّائي: بيّن أنّه ليس لفرعون عليه نعمة، لأنّ الّذي تولّى تربيته أُمّه وغيرها من بني إسرائيل بأمر فرعون لمّا استعبدهم. وقال الحسن: أراد

(١) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٢٧٩، وفيه: «يُعْبِدُني» بدل «يعبد في».

أخذت أموال بني إسرائيل واتّخذتهم عبيداً فأنفقت عليَّ من أموالهم. فأراد أن لا يسوغه ما امتنّ به عليه. وقال قوم: أراد وتلك نعمة ؟! مستفهماً، واسقط حرف الاستفهام.

قوله تعالى: ﴿قالَ فِرعونُ وما رَبُّ العالمينَ﴾ حكاية من الله أنّ فرعون قال لموسى: أيُّ شيءٍ ربّ العالمين الّذي تدعوني إلى عبادته؟! لأنّ هذا القول من فرعون يدلّ على أنّ موسى كان دعاه إلى طاعة الله وعبادته. وقيل: إنّ فرعون عجّب من حوله من جواب موسى، لأنّه طلب منه أيّ أجناس الأجسام هو ؟ جهلاً منه بما ينبغي أن يسأل عنه، فقال موسى في جوابه: ﴿رَبُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما﴾ أي ربّ العالمين هو الّذي اخترع السموات والأرض وخلقهما، وخلق ما بينهما من الحيوان والجماد والنبات ﴿إنْ كُنتُمْ موقنين﴾ بذلك مصدّقين به. فقال فرعون ـ عند ذلك ـ لمن حوله من أصحابه: ﴿ألا تَستَمِعُونَ﴾ أي ألا تصغون إليه، وتفهمون ما يقول معجّباً لهم من قوله حين عجز عن محاورته ومجاوبته.

قوله تعالى:

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمْ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذي أُرْسِلَ إلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلهاً غَيْرِي لأجْعَلَنَّكَ منَ المَسْجُونينَ ﴿٢٩﴾ قَال أَوَ لَوْ جِئتُكَ بِشَىْءٍ مُبينٍ ﴿٣٠﴾

خمس آيات بلا خلاف.

قال لمّا قال فرعون لمن حوله: ﴿ألا تَستَمِعُونَ﴾ إلى قول موسى فإنّه يقول ربّه ربّ العالمين الّذي خلق السموات والأرض وما بينهما! معجباً لهم من قوله، قال موسى: ﴿رَبّكُمْ﴾ الّذي خلقكم ويملك تدبيركم وخلق آباءكم الأوّلين، وملك تدبيرهم وتدبير جميع الخلق. والأوّل الكائن قبل

غيره، والآخر الكائن بعد غيره، والكائن على صفةٍ أوّل في كونه على تلك الصفة، نحو الأوّل في دخول الدار. فقال فرعون ـ عند ذلك حين لم يجد جواباً لكلام موسى ـ لقومه: ﴿إنّ رسولَكُمُ الّذي أُرسِلَ إليكُمْ لَمجنُونٌ﴾ يموّه عليهم، أنّي أسأله عن ماهيّة ربّ العالمين فيجيبني عن غير ذلك، كما يفعل المجنون.

و«الجنون» داء يعتري النفس يغطّي العقل، وأصله الستر من قولهم: جنّه الليل وأجنّه: إذا ستره بظلمته والجنّة البستان الّذي يجنّه الشجر، فقال موسى عند ذلك: إنّ الّذي ذكرته أنّه ﴿ربُّكم وربّ آبائِكُمُ الأوّلِينَ﴾... هو ﴿ربُّ المشْرقِ والمغْرِبِ﴾ فالمشرق الموضع الّذي تطلع منه الشمس، والمغرب الموضع الّذي تغرب فيه الشمس يقال: شرقت الشمس شروقاً: إذا طلعت، وأشرقت إشراقاً: إذا أضاءت وصفت. ﴿وما بينهما إن كنتم تَعقِلُونَ﴾ ذلك وتدبّرونه.

فلمّا طال على فرعون الاحتجاج من موسى تهدّده ﴿قال لَئِنِ اتّخذتَ إلهاً غيري﴾ يعني معبوداً سواي ﴿لأجعَلنّكَ مِنَ المَسجُونينَ﴾ أي محبوساً من جملة المحبّسين، فقال له موسى: ﴿أَوَلو جئتُكَ بشيءٍ مُبينٍ﴾ يعني بمعجزة تدلّ على صحّة ما ادّعيته تبينني من غيري، والمعنى إن جئتك بشيء يدلّ على صدقي تحبسني ؟!.

قوله تعالى:

قَالَ فَأْتِ بهِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقىٰ عَصَاهُ فَإذا هِي ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَه فإذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَا حَوْلَهُ إنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أنْ يُخْرِجَكُمْ من أرضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِه وأخَاهُ وَابْعَثْ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيم ﴿٣٧﴾ فجُمعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ

مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وقيلِ لِلنَّاسِ هلْ أنتُمْ مُجتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إن كانُوا هُمُ الغَالِبينَ ﴿٤٠﴾ عشر آياتٍ بلا خلاف.

لمّا قال موسى لفرعون: ﴿أَوَ لو جئتُكَ بشيءٍ مُبينٍ﴾ قال فرعون: ﴿فأتِ به إن كُنتَ من الصادِقين﴾ أي هات ما ادّعيته من المعجزة إن كنت صادقاً ﴿فألقى عَصاهُ﴾ حينئذٍ موسى ﴿فإذا هي ثُعبانٌ مُبينٌ﴾ وهي الحيّة العظيمة، ومنه المثعب وهو المجرى الواسع، وانثعب الماء انثعاباً: إذا جرى باتساع، ومنه الثعبان لأنّه يجري باتساع لعظمه. وفي قلب العصا حيّة دلالتان:

إحداهما: دلالة على الله تعالى، لأنّه ممّا لا يقدر عليه إلّا هو، وليس ممّا يلتبس بإيجاب الطبائع، لأنّه اختراع، للانقلاب في الحال.

والثاني: دلالة على النبوّة بموافقته الدعوة مع رجوعها إلى حالتها الأُولى لما قبض عليها. وقيل: الثعبان الحيّة الذكر، ووصفه تعالى العصا ـ هاهنا ـ بأنّه صار مثل الثعبان، لا ينافي قوله: ﴿كأنّها جانّ﴾[1] من وجوه:

أحدها: أنّه تعالى لم يقل: فإذا هي جانّ، كما وصفها بأنّها ثعبان، وإنّما شبّهها بالجانّ، ولا يجوز أن تكون مثله على كلّ حال.

والثاني: أنّه وصفها بالثعبان في عظمها، وبالجانّ في سرعة حركتها، فكأنّها مع كبرها في صفة الجانّ لسرعة الحركة، وذلك أبلغ في الإعجاز.

وثالثها: أنّه أراد أنّها صارت مثل الجانّ في أوّل حالها، ثمّ تدرّجت إلى أن صارت مثل الثعبان، وذلك أيضاً أبلغ في باب الإعجاز.

ورابعها: أنّ الحالين مختلفان، لأنّ إحداهما كانت حين ألقى موسى فصارت العصا كالثعبان، والحالة الأُخرى حين أوحى الله إليه وناداه من الشجرة.

---

(١) النمل: ١٠.

ومعنى «مبين» قال ابن عبّاس: مبين أنّه ثعبان لا شبهة فيه. وقيل: معناه مبين وجه الحجّة به. وروي أنّها غرزت ذنبها في الأرض ورفعت رأسها نحو الميل إلى السماء، ثمّ انحطّت فجعلت رأس فرعون بين نابيها، وجعلت تقول: مرني بما شئت، فناداه فرعون أسألك بالّذي أرسلك لما أخذتها، فأخذها، فعادت عصا كما كانت، ذكره ابن عباس والمنهال.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أي أخرجها من جيبه أو عن كمه على ما روي. ويجوز أن يكون المراد حسر عن ذراعه، والمعنى أنّه نزعها عن اللباس الّتي كان عليها. والنزع إخراج الشيء ممّا كان متّصلاً به وملابساً له.

وقوله: ﴿فإذا هي بَيضاءُ﴾ يعني بياضاً نوريّاً كالشمس في إشراقها ﴿للناظِرينَ﴾ إليها من غير برص، فقال فرعون عند ذلك لأشراف قومه الّذين حوله: ﴿إنّ هذا﴾ يعنى موسى ﴿لَساحِرٌ عَليمٌ﴾ أي عالم بالسحر والحيل.

﴿يُريدُ أن يُخرجكُمْ من أرضِكُم بسحره﴾ قيل: معناه يريد أن يخرج عبيدكم بني إسرائيل قهراً. ويحتمل أن يكون أراد يخرجكم من دياركم ويتغلّب عليها.

﴿فماذا تأمُرُونَ﴾ في بابه، وإنّما شاور قومه في ذلك مع أنّه كان يقول لهم: إنّه إله، لأنّه يجوز أن يكون ذهب عليه وعلى قومه أنّ الإله لا يجوز أن يشاور غيره، كما ذهب عليهم أنّ الإله لا يكون جسماً محتاجاً، فاعتقدوا إلهيّته لمّا دعاهم إليها مع ظهور حاجته الّتي لا إشكال فيها، فقال لفرعون أشراف قومه الّذين استشارهم: ﴿أرْجِهْ وأخاهُ﴾ أي أخّرهما، فالإرجاء التأخير، تقول: أرجأت الأمر أرجئه إرجاءاً، وهم المرجئة، لأنّهم قالوا بتأخير حكم الفسّاق في لزوم العقاب.

وقيل: إنّما أشاروا بتأخيره ولم يشيروا بقتله، لأنّهم رأوا أنّ الناس يفتتنون به إن قتل، وأنّ السحرة إذا قاومته زال ذلك الافتتان، وكان له حينئذٍ عذر في قتله أو حبسه بحسب ما يراه.

وقوله: ﴿وابعَثْ في المدائِنِ حاشِرينَ﴾ أي أرسل حاشرين يحشرون الناس من جميع البلدان. فالحشر السوق من جهات مختلفة إلى مكان واحد، حشره يحشره حشراً، فهو حاشر والشيء محشور، وانحشر الناس إلى مكان: إذا اجتمعوا إليه. و«السحر» لطف الحيلة حتّى يتوهّم المموّه [عليه] أنّه حقيقة.

وقوله: ﴿يأتُوكَ﴾ أي يجيئوك ﴿بكلِّ سحّار﴾ مبالغة فيمن يعمل بالسحر ﴿عَليمٍ﴾ أي عالم بالسحر، وفي الكلام حذف، لأنّ تقديره: أنّه أنفذ الحاشرين في المدائن وأنّهم حشروهم ﴿فَجُمِعَ السَحَرَةُ﴾ على ما قالوه ﴿لميقاتِ يَومٍ مَعلُومٍ﴾ لوقت يوم بعينه اختاروه وعيّنوه ﴿وَقيلَ للناسِ هلْ أنتُمْ مُجتَمِعُونَ * لَعَلّنا نَتَّبِعُ السَحَرَةَ﴾ إن غلبوا موسى، فالغلبة الاستعلاء بالقوّة، غلبه يغلبه غلبة: إذا قهره، وتغلّب تغليباً وغالبه مغالبة وتغالبا تغالباً، وقد يوصف المستعلي على غيره بالحجّة بأنّه غلبه.

قوله تعالى:

فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعونَ أَئِنَّ لنَا لأَجْراً إنْ كُنَّا نَحنُ الْغَالِبينَ ﴿٤١﴾ قالَ نَعَم وَإِنَّكُمْ إذاً لِمَنَ الْمُقرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ ألقوا مَا أَنتُمْ مُلقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلقوا حِبَالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ وَقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إنَّا لَنَحْنُ الغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقى مُوسىٰ عَصَاهُ فَإذَا هِي تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ حفص ﴿تلقف﴾ بتخفيف القاف، الباقون بتشديدها إلّا أن البزّي وابن فليح شدّدوا التاء وقنبل مثل الباقين. قال أبو عليّ: من خفّف القاف

فهو الوجه، لأنّ من شدّدها يريد تتلقّف فأدغم، وإنّما أدغم لأنّه يلزمه إذا ابتدأ على هذه القراءة أن يجتلب همزة الوصل، وهمزة الوصل لا تدخل على الأفعال المضارعة كما لا تدخل على أسماء الفاعلين[١].

حكى الله تعالى أنّ السحرة لمّا حشروهم إلى فرعون وحضروا بين يديه قالوا له: ﴿أئِنَّ لَنا لأجراً إنْ كُنّا نَحْنُ الغالِبينَ﴾ أي هل لنا أجر جزاءًا على غلبنا إيّاه إن غلبناه؟ ومن قرأ على الخبر ﴿إنّ لنا﴾ أراد أنّهم لثقتهم بالأجر أخبروا بذلك، والأوّل أقوى لقوله: ﴿قالَ نَعَمْ﴾ وذلك جواب الاستفهام. و«الأجر» الجزاء على العمل بالخير. والجزاء على الشرّ يسمّى عقاباً، ولذلك إذا دعي لإنسان قيل: آجرك الله. والمعنى أئنّ لنا لأجراً عند الملك؟

و«الغالب» الّذي يعلو [على] غيره الّذي يمنع في نفسه بما يصير إليه في قبضته، فالله غالب كلّ شيءٍ، بمعنى أنّه عالٍ عليه لدخوله في مقدوره لا يمكنه الخروج منه، فقال لهم فرعون في جواب ذلك: ﴿نَعمْ﴾ لكم على ذلك الأجر الجزيل ﴿وإنّكُمْ﴾ مع ما تعطون من الجزاء ﴿إذاً لِمَنَ المقَرَّبِينَ﴾. و«المقرّب» المدني من مجلس الكرامة واختصاصه بها.

ثمّ حكى ما قال موسى للسحرة، فإنّه قال لهم: ﴿أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾ وهذا بصورة الأمر والمراد به التحدّي، والمعنى اطرحوا ما أنتم ملقوه ﴿فَألْقَوْا حِبالَهُمْ وعِصيَّهُمْ﴾ أي طرحت السحرة ما كان معهم من السحر من الحبال والعصيّ الّتي سحروها وموّهوا بأنّها تسعى وتتحرّك.

وقيل: إنّهم جعلوا فيها زيبقاً وطرحوها في الشمس، فلمّا حميت بالشمس تحرك الزيبق لأنّه إذا حمي من شأنه أن يصعد فتحرّكت لذلك الحبال والعصيّ، فظنّ الناظرون أنّها تتحرّك. وقالوا حين طرحوا ما معهم:

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢٢٠.

﴿بعزّةِ فِرعَوْنَ﴾ و«العزّة» القوّة الّتي يمتنع بها من لحاق ضيم لعلوّ [بعلوّ خ] منزلتها، وهذا القول قسم منهم وإن كان غير مبرور.

﴿إنّا لَنحنُ الغالِبُونَ﴾ لموسى فيما أتى به ﴿فألقى﴾ عند ذلك ﴿موسى عَصاهُ فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ أي تناولت العصا ما موّهوا به في أوحى[1] مدّة من الزمان، و«التلقّف» تناول الشيء بالفم بسرعة، تقول: تلقّف تلقّفاً والتقف التقافاً واستلقف استلقافاً. ومعنى ﴿ما يأفكون﴾ ما يوهمون وأصله الانقلاب زوراً وبهتاناً. وقيل: كان عدد السحرة اثني عشر ألفاً، وكلّهم أقرّ بالحقّ عند آية موسى.

قوله تعالى:

فَأُلقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسىٰ وَهٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أنْ آذَن لَكُمْ إنَّهُ لَكبِيرُكُمُ الّذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ لأُقطِّعَنَّ أيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أجْمَعِين ﴿٥٠﴾ قَالُوا لا ضَيْرَ إنَّا إلىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥١﴾ ستّ آيات.

قرأ اهل الكوفة إلّا حفصاً ورَوْح ﴿أأمنتُمْ﴾ بهمزتين مخفّفتين على الاستفهام، وروى حفص وورش ورويس بهمزة واحدة على الخبر. الباقون بهمزتين الأُولى مخفّفة والثانية مليّنة، ولم يفصل أحد بين الهمزتين بألف، وقد بيّنّا نظائره فيما تقدّم في الأعراف[2].

حكى الله تعالى أنّ السحرة لمّا بهرهم ما أظهره موسى عليه السلام من قلب العصا حيّة وتلقّفها جميع ما أتعبوا نفوسهم علموا أنّ ذلك من فعل الله، وأنّ أحداً من البشر لا يقدر عليه آمنوا عند ذلك، وأذعنوا بالحقّ وخرّوا ساجدين لله شكراً على ما أنعم به عليهم ووفّقهم للإيمان، وأنّهم قالوا عند

---

(١) أسرع.

(٢) تقدّم في سورة الأعراف تفسير الآية ١٢٣.

ذلك: ﴿آمنّا﴾ وصدّقنا ﴿بِرَبِّ العالَمِينَ﴾ الّذي خلق الخلق كلّهم، الّذي هو ﴿رَبِّ موسى وهارون﴾ وإنّما خصّ ربّ موسى وهارون بالذكر دون غيرهما وإن كان ربّ كلّ شيء للبيان عن المعني الّذي دعا إلى ربوبيّته موسى وهارون، لأنّ الجهّال كانوا يعتقدون ربوبيّة فرعون، فكان إخلاصهم على خلاف ما يقوله الأغبياء، والمعنى الّذي ألقاهم ساجدين قيل فيه قولان:

أحدهما: أنّ الحقّ الّذي عرفوه ألقاهم ساجدين.

الثاني: أنّهم ألقوا نفوسهم ساجدين لما عرفوا من صحّة الدعاء إلى الدين، فقال عند ذلك فرعون مهدّداً لهم: ﴿ءَآمنتم له﴾ أي صدّقتم له فيما يدعو إليه منكراً عليهم ﴿قَبْلَ أن آذَنَ لَكُمْ﴾ في تصديقكم.

ثمّ قال: ﴿إنّه لَكَبِيرُكُمْ﴾ أي أُستاذكم وعالمكم ﴿الّذي عَلّمَكُمُ السِحْرَ فَلَسَوْفَ تَعلَمُونَ﴾ فيما بعد ما أفعله بكم جزاءًا على تصديقكم إيّاه، ودخلت اللام في الكلام تأكيداً.

ثمّ فسّر ذلك فقال: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُمْ وأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ﴾ يعني قطع اليد من جانب والرجل من الجانب الآخر، كقطع الرجل اليسرى واليد اليمنى ﴿ولأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ مع ذلك ﴿أجْمَعينَ﴾ على الجذوع، ولا أترك واحداً منكم، لا تناله عقوبتي، فقالوا له في الجواب عن ذلك: ﴿لا ضَيْرَ﴾ أي [لا] ضرر علينا بما تفعله، يقال: ضرّه يضرّه ضراراً، وضارّه يضيره ضيراً، وضارّه يضوره ضوراً لغة قليلة.

وقوله: ﴿إنّا إلى رَبّنا مُنقَلِبُونَ﴾ أي مصيرنا إلى ثواب الله لا يضرّنا ما تفعله بنا. وقال الجبّائي: في الآية دلالة على أنّ للإنسان أن يظهر الحقّ وإن خاف القتل. وقال الحسن: لم يصل فرعون إلى قتل أحد منهم

ولا قطعه. وقال قوم: أوّل من قطع الأيدي والأرجل فرعون.

قوله تعالى:

إِنَّا نَطمَعُ أنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطايَانَا أنْ كُنَّا أوَّلَ المُؤمِنينَ ﴿٥٢﴾ وَأوْحَيْنَا إلىٰ مُوسىٰ أنْ أسْرِ بِعبَادي إنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ في المَدَائِنِ حَاشِرِيْنَ ﴿٥٤﴾ إنَّ هٰؤلاءِ لشِرْذمَةٌ قَلِيْلُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٦﴾ وإنَّا لَجَميعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٧﴾ فَأخرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٨﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيْمٍ ﴿٥٩﴾ كَذٰلِكَ وَأوْرَثْنَاهَا بَنِي إسْرائِيلَ ﴿٦٠﴾ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِيْنَ ﴿٦١﴾ عشر آياتٍ بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة وابن عامر إلّا الحلواني ﴿حاذِرونَ﴾ بألف، الباقون بغير ألف. من قرأ بالألف قال: هو مثل شرب فهو شارب، وحذر فهو حاذر. وقيل: رجل حاذر فيما يستقبل، وليس حاذراً في الوقت، فإذا كان الحذر له لازماً قيل: رجل حذر، مثل سؤل وسائل، وطمع وطامع، وكان يجوز ضمّ الذال لأنّهم يقولون: حذر وحذر ـ بكسر الذال وضمّها ـ مثل يقظ ويقظ، وفطن وفطن.

وقرأ عبد الله بن السائب ﴿حادرون﴾ بالدال بمعنى نحن أقوياء غلاظ الأجسام، يقولون: رجل حادر أي سمين، وعين حدرة بدرة: إذا كانت واسعة عظيمة المقلة، قال امرؤ القيس:

وَعَينٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ ... شُقّتْ مآقيهما من أُخُرْ[1]

وقيل: الفرق بين الحاذر والحذر أنّ الحاذر الفاعل للحذر أن يناله [مكروه] والحذر المطبوع على الحذر. وقيل: ﴿حاذرون﴾ مؤدّون في السلاح أي ذووا أداة من السلاح المستعدّون للحروب من عدوّ. و«الحذر» اجتناب الشيء خوفاً منه، حذر حذراً فهو حاذر، وحذّره تحذيراً، وتحذّر

(١) ديوان امرئ القيس: ١١٣.

تحذّراً، وحاذره محاذرة وحذاراً.

أخبر الله تعالى عن السحرة أنّهم حين آمنوا وقالوا لفرعون: لا ضرر علينا بما تفعل بنا، لأنّا منقلبنا إلى الله وثوابه قالوا: ﴿إنّا نَطمَعُ أنَ يغفِرَ لنا ربُّنا خَطايانا﴾ أي ما فعلنا من السحر وغيره، لأنّا كنّا أوّل من صدّق بموسى وأقرّ بنبوّته وبما دعا إليه من توحيد الله ونفي التشبيه عنه ممّن كان يعمل بالسحر.

وقيل: إنّهم أوّل من آمن عند تلك الآية. ومن قال: هم أوّل من آمن من قومه فقد غلط، لأنّ بني إسرائيل كانوا آمنوا به. ولو كسرت الهمزة من «أن» على الشرط كان جائزاً.

و«الطمع» طلب النفس للخير الّذي يقدر فيها أنّه يكون، ومثله الأمل والرجاء. و«الخطايا» جمع خطيئة، وهي الزوال عن الاستقامة المؤديّة إلى الثواب.

ثمّ حكى تعالى أنّه أوحى إلى موسى وأمره بأن يسري بعباده الله الّذين آمنوا به، ويخرجوا من بلد فرعون؛ وهم بنوا إسرائيل المقرّون بنبوّته، يقال: سرى وأسرى لغتان؛ فمن قطع الهمزة قال: هو من أسرى يسري، ومن وصلها فمن سرى يسري. وأعلمهم أنّ فرعون وجنوده يتّبعونهم، ويخرجون في طلبهم. وتبع وأتبع لغتان.

ثمّ حكى أيضاً أنّ فرعون أرسل برسله في المدائن حاشرين يحشرون الناس إليه الّذين هم جنوده. وقيل: إنّه حشر جنده من المدائن الّتي حوله ليقبضوا على موسى وقومه، لمّا ساروا بأمر الله ـ عزّ وجلّ ـ فلمّا حضروا عنده قال لهم: ﴿إنّ هؤلاءِ﴾ يعني أصحاب موسى ﴿لَشِرْ ذِمَةٌ قليلُونَ﴾ و«الشرذمة» العصبة الباقية من عصب كثيرة، وشرذمة كلّ شيء بقيّته

القليلة، ومنه قول الراجز:

جاءَ الشتاءُ وقَميصي أخلاقُ شرَاذمٌ يَضحَكُ منه التـوّاقْ[١]

وقال عبد الله بن مسعود: الشرذمة الّذين قلّلهم فرعون من بني إسرائيل كانوا ستّمائة ألف وسبعين ألفاً، وإنّما استقلّهم، لأنّه كان على مقدّمته سبعة آلاف ألف على ما قال بعض المفسّرين[٢].

ثمّ قال: ﴿وإنَّهُمْ﴾ مع قلّتهم ﴿لَنا لَغائِظُونَ﴾ أي يغيظوننا بمخالفتهم إيّانا، ويقال: جمع قليل وقليلون، كما يقال: حيّ واحد وواحدون.

ثمّ أخبر تعالى عن فرعون أنّه قال لجنده: ﴿إنّا لَجَميعٌ حَذِرُونَ﴾ منهم قد استعددنا لقتالهم.

ثمّ أخبر تعالى عن كيفيّة إهلاكهم بأن قال: ﴿فأخرجْناهُمْ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿مِنْ جَنّاتٍ﴾ وهي البساتين الّتي تجنّها الأشجار ﴿وَعُيونٍ﴾ جارية فيها ﴿وَكُنُوزٍ﴾ يعني أموال لهم مخبّئة بعضها على بعض في مواضع غامضة من الأرض، ومنه كناز التمر وغيره ممّا يعبّأ بعضه على بعض ﴿وَمقامٍ كَرِيمٍ﴾ فالمقام الموضع الّذي يقيمون فيه، ويجوز أن يكون مصدراً و«الكريم» هو الحقيق بإعطاء الخير الجزيل، لأنّه أهل للكرم، وهي صفة تعظيم في المدح: كرم كرماً وأكرمه إكراماً، وتكرّم تكرّماً. وقيل: المقام الكريم: المنابر. وقيل: مجالس الأُمراء والرؤساء الّتي كان يحفّ بها الأتباع.

ثمّ قال تعالى: [﴿كذلك﴾ أي] مثل ذلك، أي كما وصفنا لك أخبارهم ﴿وأورَثناها بَني إسرائيلَ﴾ نعم آل فرعون بأن أهلكنا آل فرعون وملّكنا ديارهم وأملاكهم لنبي إسرائيل. و«الإرث» تركة الماضي ممّن هلك لمن

---

(١) أنشده الجوهري في الصحاح ٤: ١٤٥٣ مادّة «توق».

(٢) الطبري في تفسيره ٩: ٤٤٤، وفيه: «سبعة مائة ألف».

بقي. وقيل: صار ذلك في أيدي بني إسرائيل في أيّام داود وغيره.

وقال الحسن: رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد إهلاك فرعون وقومه.

وقوله: ﴿فأتْبَعُوهُمْ مُشْرِقينَ﴾ معناه تبعوا أثرهم وقت إشراق الشمس وظهور ضوئها وصفائه. وقيل معناه مصبحين، ويقال: أتبع فلان فلاناً وتبعه: إذا اقتفى أثره لغتان.

قوله تعالى:

فَلمَّا تَرَاءَ الجَمْعَانِ قالَ أصحَابُ مُوسىٰ إنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ كلَّا إنَّ معِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٣﴾ فَأوْحَيْنَا إلىٰ مُوسىٰ أنِ اضْرِبْ بعصاكَ الْبَحْر فَانْفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٤﴾ وَأزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴿٦٥﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسىٰ وَمَنْ مَعَهُ أجْمَعِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ أغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴿٦٧﴾ إنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤمِنينَ ﴿٦٨﴾ وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزيزُ الرَّحيمُ ﴿٦٩﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ إبْرٰهيم ﴿٧٠﴾ إذ قَالَ لأبيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧١﴾

عشر آياتٍ بلا خلاف.

قرأ حفص ﴿معي ربّي﴾ بفتح الياء، وكذلك [في] جميع القرآن، الباقون بسكونها، فمن سكّن ذهب إلى التخفيف، ومن فتح فعلى أصل الكلمة، لأنّ الاسم على حرف واحد، فقرأه بالفتح إن كان متّصلاً بكلمة على حرفين.

وكان أصحاب موسى فزعوا من فرعون أن يلحقهم وحذّروا موسى، فقالوا: ﴿إنّا لَمُدرَكُونَ﴾ فقال لهم موسى عليه السلام ـ ثقة بالله ـ: ﴿كَلّا﴾ ليس كما تقولون ﴿إنّ معي رَبّي سَيَهْدينِ﴾ وقرأ الأعرج ﴿لمدّركون﴾ مفتعلون من الإدراك وأدغم التاء في الدال. قال الفرّاء: دركت دراكاً وأدركت إدراكاً بمعنى واحد، مثل حفرت وأحفرت، بمعنى واحد[1].

وقرأ حمزة وحده ﴿تَراءَ الجَمْعانِ﴾ بالإمالة، الباقون بالتفخيم على وزن

(١) معاني القرآن ٢: ٢٨٠.

«تراعى» لأنّه تفاعل من الرؤية، وهو فعل ماض موحّد وليس مثنّى، لأنّه فعل متقدّم على الاسم، ولو كان مثنّى لقال: تراءا.

ووقف حمزة ﴿ترى﴾ بكسر الراء ممدود قليلاً، لأنّ من شرطه ترك الهمزة في الوقف، فترك الهمزة الّتي آخر الألف، كأنّه يريدها، فلذلك مدّ قليلاً. ووقف الكسائي ﴿ترآى﴾ أي بالإمالة على وزن تراعى وتنادى. الباقون وقفوا بألفين على الأصل.

وكذلك جميع ما في القرآن مثل ﴿أَنشَأْنَاهُنَّ إنشاءً﴾ (١) و﴿أنزَلَ مِنَ السَماءِ مَاءً﴾ (٢) كلّ ذلك يقفون بالمد بألفين. وحمزة يقف على ألف واحدة. وإذا كانت الهمزة للتأنيث أُسقطت الهمزة في الوقف عند الجميع نحو ﴿بَيْضَآء﴾ (٣) و﴿إنّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ﴾ (٤) و﴿الأخِلَّاءُ﴾ (٥) فيشمّ الضمّة في موضع الرفع ولا يشمّ الفتحة في موضع النصب.

أخبر الله تعالى أنّه ﴿لمّا تراء الجمعان﴾ جمع فرعون وجمع موسى أي تقابلا بحيث يرى كلّ واحد منهما صاحبه، ويقال: تراآ ناراهما أي تقابلا، وإنّما جاز تثنية الجمع، لأنّه يقع عليه صفة التوحيد، فتقول: هذا جمع واحد، ولا يجوز تثنية مسلمين، لأنّه لا يقع عليه صفة التوحيد، لأنّه على خلاف صفة التوحيد.

﴿قالَ أصحابُ موسى إنّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي لملحقون.

فالإدراك الإلحاق، وأدركته ببصري: إذا رأيته، وأدرك قتادة الحسن أي

---

(١) الواقعة: ٣٥.

(٢) البقرة: ٢٢، الرعد: ١٧، إبراهيم: ٣٢، النحل: ١٠و٦٥، طه: ٥٣، الحجّ: ٦٣، فاطر: ٢٧، الزمر: ٢١.

(٣) الأعراف: ١٠٨، طه: ٢٢، الشعراء: ٣٣، النمل: ١٢، القصص: ٣٢، الصّافات: ٤٦.

(٤) البقرة: ٦٩.

(٥) الزخرف: ٦٧.

لحقه، وأدرك الزرع: إذا لحق ببلوغه، وأدرك الغلام: إذا بلغ، وأدركت القدر: إذا نضجت، فقال لهم: موسى ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر على ذلك ﴿إِنَّ مَعِي رَبِّي﴾ بنصره إيّاي ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي سيدلّني على طريق النجاة من فرعون وقومه كما وعدني، لأنّ الأنبياء لا يخبرون بمالا دليل عليه من جهة العقل أو السمع.

وقوله: ﴿فأوحينا إليه أن اضرب بعصاك البحر﴾ أي أمرناه يضرب البحر بعصاه، وقيل: هو بحر قُلْزُم الّذي يسلكه الناس فيه من اليمن ومكّة إلى مصر، وفيه حذف، لأنّ تقديره: فضرب البحر فانفلق وقيل: إنّه صار فيه اثنا عشر طريقاً لكلّ سبط طريق ﴿فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَوْدِ العَظِيمِ﴾ فالطود الجبل، قال الأسود بن يعفر النهشلي:

حَلّوا بأنقرة يَحيشُ عليهم ماءُ الفُراتِ يجيء من أطوادِ[١]

وقوله: ﴿وأزلفنا ثمّ الآخرين﴾ قال ابن عبّاس وقتادة: معناه قرّبنا إلى البحر فرعون، ومنه قوله: ﴿وأُزْلِفَتِ الجَنَّة للمُتَقينَ﴾[٢] أي قرّبت وأُدنيت، قال العجّاج:

ناجٍ طَواهُ الأينُ ممّا وَجَفا طَيَّ الليالي زُلَفا فَزُلَفا
سَماوةَ الهِلالَ حتى احقَوْقَفا[٣]

أي منزله يقرب من منزله، ومنه قيل: ليلة المزدلفة. وقال أبو عبيدة: معنى أزلفنا جمعنا، وليلة مزدلفة ليلة جمع[٤] والمعنى قرّبنا قوم فرعون إلى البحر بما يسّرنا لبني إسرائيل [سلوك البحر وكان ذلك سبب قربهم

---

(١) أنشده الطبري في تفسيره ٩: ٤٤٩ وفيه: «يسيل» بدل «يحيش».

(٢) الشعراء: ٩٠.

(٣) أنشده سيبويه في الكتاب ١: ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٤) مجاز القرآن ٢: ٨٧.

منهم حتّى اقتحموه. وقيل: معناه قرّبناهم إلى المنية][1] بمجيئي وقت هلاكهم، قال الشاعر:

وكلُّ يوم مضى أو ليلة سَلفتْ فيها النفوس إلى الآجال تَزْدَلِفُ[2]

﴿وأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَعَهُ﴾ يعني بني إسرائيل أنجينا جميعهم من الهلاك والغرق ﴿ثمّ أغرقْنا الباقِينَ﴾ من فرعون وأصحابه.

وقال تعالى: ﴿إنَّ في ذلكَ﴾ يعني في فلق البحر فرقاً وإنجاء موسى من البحر وإغراق قوم فرعون لدلالة واضحة على توحيد الله وصفاته الّتي لا يشاركه فيها أحد.

ثمّ أخبر تعالى أنّ أكثرهم لا يؤمنون ولا يستدلّون به بسوء اختيارهم كما يسبق في علمه. فالآخر ـ بفتح الخاء ـ الثاني من قسمي قسيم «أحد» كقولك: نجّى الله أحدهما وغرَّق الآخر. بكسر الخاء فهو الثاني قسمي الأوّل كقولك: نجا الأوّل وهلك الآخر.

وقيل: معنى ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أنّ الناس مع هذا البرهان الظاهر والسلطان القاهر بالأمر المعجز الّذي لا يقدر عليه أحد غير الله ما آمن أكثرهم، فلا تستنكر أيّها المحقّ استنكار استيحاش من قعودهم عن الحقّ الّذي تأتيهم به، وتدلّهم عليه، فقد جروا على عادة أسلافهم في انكار الحقّ وقبول الباطل.

وقوله: ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَهوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي هو القادر الّذي لا يمكن معازّته[3] في أمره، وهو مع ذلك رحيم بخلقه. وفى ذلك غاية الحثّ على

---

(١) ما بين المعقوفتين لم يوجد في الحجريّة.

(٢) أنشده الماوردي في تفسيره ٤: ١٧٥ ولم ينسبه لأحد.

(٣) في الحجريّة: «معازّية» ولكنّ الأولى «معازّة».

طلب الخير من جهة الموصوف بهما.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿وَاتلُ﴾ يا محمّد على قومك ﴿نبأَ إبراهيمَ﴾ أي خبره، حين ﴿قال لأبيهِ وقَومِه ما﴾ الّذي ﴿تعبدون﴾ من دون الله ؟! يعني أيّ شيء معبودكم على وجه الإنكار عليهم، لأنّهم كانوا يعبدون الأصنام.

قوله تعالى:

قَالُوا نَعبُدُ أصنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِيْنَ ﴿٧٢﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٣﴾ أو يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَاكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ أَنتُمْ وَآبَاءُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إلَّا رَبَّ الْعَالمِينَ ﴿٧٨﴾ الّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٩﴾ وَالّذي هُوَ يُطْعِمُني وَيَسقِينِ ﴿٨٠﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشفينِ ﴿٨١﴾ عشر آياتٍ بلا خلاف.

حكى الله تعالى ما أجاب به قوم إبراهيم حين قال لهم إبراهيم: ﴿ما تعبدون﴾؟ فإنّهم ﴿قَالُوا نَعبُدُ أصناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفينَ﴾ أي مقيمين مداومين على عبادتنا يقال: عكف عكوفاً فهو عاكف، واعتكف اعتكافاً. قال ابن عبّاس: معناه فنظلّ لها مصلّين. وقيل في وجه دخول الشبهة عليهم في عبادة الأصنام: أشياء:

أحدها: أنّهم اعتقدوا أنّها تقرّبهم إلى الله زلفى، كما يتقرّب بتقبيل بساط الملك إليه.

ومنها: أنّهم اتّخذوا هياكل النجوم ليحظوا[1] بتوجّه العبادة إلى هياكلها، كما يفعل الهند.

ومنها: ارتباط عبادة الله بصورة يرى منها.

ومنها: أنّهم توهّموا خاصيّة في عبادة الصنم يحظى بها، كالخاصّية في

(١) في الحجريّة: «ليحظى».

حجر المغناطيس.

والشبهة الكبرى العامّة في ذلك تقليد الّذين دخلت عليهم الشبهة، ولذلك قالوا: ﴿وَجَدْنا آباءَنا كَذٰلِكَ يَفعَلُونَ﴾ ولم يحتجّوا بشيءٍ سوى التقليد، الّذي هو قبيح في العقول. و«العبادة» خضوع بالقلب في أعلى مراتب الخضوع، فلا تستحقّ إلّا بأُصول النعم وبما كان في أعلى المراتب من الإنسان، فكلّ من عبد غير الله فهو جاهل بموجب العبادة كافر لنعم الله، لأنّ من حقّها إخلاص العبادة بها.

فقال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿هل يَسمَعُونَكُمْ﴾ هذه الأصنام الّتي تعبدونها إذا دعوتموها! أي هل يسمعون أصواتكم، لأنّ أجسامهم لا تسمع ﴿أو يَنفَعُونَكُمْ﴾ بشيءٍ من المنافع ﴿أو يَضُرُّونَ﴾ بشيءٍ من المضارّ !. وإنّما قال ذلك، لأنّ من لا يملك النفع والضرّ لا تحسن عبادته، لأنّها ضرب من الشكر ولا يستحقّ الشكر إلّا بالنعم، فمن لا يصحّ منه الإنعام يقبح شكره، ومن قبح شكره قبحت عبادته، فقالوا عند ذلك: ﴿وَجدنا آباءَنا كَذٰلكَ يَفعَلُونَ﴾ أحالوا على مجرّد التقليد.

فقال لهم إبراهيم منكراً عليهم التقليد: ﴿أفرأَيتُم ما كُنتُمْ تَعبدُون﴾ من الأصنام ﴿أنتُمْ﴾ الآن ﴿وآباؤكُمُ الأقْدَمُون﴾ المتقدّمون فالأقدم الموجود قبل غيره، ومثله الأوّل والأسبق. و«القدم» وجود الشيء لا إلى أوّل.

ثمّ قال إبراهيم: ﴿فإنّهُمْ عَدوٌّ لِي﴾ يعني الأصنام جمعها جمع العقلاء لما وصفها بالعداوة الّتي تكون من العقلاء، لأنّ الأصنام كالعدوّ في الصورة بعبادتها، ويجوز أن يكون لأنّه كان منهم من لا يعبد إلّا الله مع عبادة الأصنام فغلّب ما يعقل، ولذلك استثناه، فقال: ﴿إلّا رَبَّ العالَمينَ﴾ لأنّه استثناء من جميع المعبودين، وعلى الوجه الأوّل يكون الاستثناء منقطعاً

وتكون «إلّا» بمعنى لكن. ثمّ وصف ربّ العالمين فقال: هو ﴿الّذي خَلَقني﴾ وأخرجني من العدم إلى الوجـود ﴿فَهُوَ يَهدِين﴾ لأنّ هـدايـة الخـلق إلى الرشاد أمر يجلّ، فلا يكون إلّا ممّن خلق الخلق، كأنّه قيل: من يهديك؟ ومن يسدّ خلّتك بما يطعمك ويسقيك؟ ومن إذا مرضت يشفيك؟ فقال دالّاً بالمعلوم على المجهول: ﴿الّذي خَلقَني فَهُوَ يَهدِينِ والّذي هُوَيُطعِمُني ويَسقِينِ﴾ بمعنى أن يرزقني ما يوصلني إلى ما فيه صلاحي ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ بأن يفعل ما يحفظ بدني ويُصِحّ جسمي ويرزقني ما يوصلني إليه.

قوله تعالى:

وَالّذي يُميتُني ثُمَّ يُحيينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذي أطْمَعُ أنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتي يَوْمَ الدّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هبْ لِي حُكْماً وَألحِقْنِي بِالصَّالِحينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الأخِرينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْني مِنْ وَرَثِة جَنَّةِ النَّعيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغفِرْ لأَبِي إنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِني يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إلَّا مَنْ أتَى اللهَ بِقلْبٍ سَليمٍ ﴿٨٩﴾ تسع آياتٍ بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن إبراهيمعليه‌السلام أنّه قال بعد قوله: إنّ الله الّذي يشفيه إذا مرض ﴿والّذي يُميتُني﴾ بعد أن كنت حيّاً ويحييني بعد أن أكون ميّتاً يوم القيامة ﴿والّذي أَطمَعُ أن يَغفِرَ لي خَطِيئَتي يَومَ الدِينِ﴾ أي يوم الجزاء، وهذا انقطاع منهعليه‌السلام إلى الله دون أن يكون له خطيئة يحتاج أن تغفرله يوم القيامة، لأنّ عندنا أنّ القبائح كلّها لا تقع منهمعليهم‌السلام وعند المعتزلة الصغائر الّتي تقع منهم محبطة، فليس شيء منها بمغفور يحتاج أن يغفر لهم يوم القيامة.

وقيل: إنّ الطمع ـ هاهنا ـ بمعنى العلم دون الرجاء وكذلك في قوله: ﴿إنّا نَطْمَعُ أنْ يَغفِرَ لنا رَبُّنا خَطايانا﴾ [1] كما أنّ الظنّ يكـون بـمعنى العـلم.

---

(١) الشعراء: ٥١.

وقيل: إنّ ذلك خرج مخرج التلطّف في الدعاء بذكر ما يتيقّن أنّه كـائن. كما أنّه إذا جاء العلم على المظاهرة في الحجاج وذكر بالظنّ.

ثمّ حكى أنّه سأل الله تعالى فـقال: ﴿رَبِّ هَبْ لي حُكْماً﴾ و«الحكـم» بيان الشيء على ما تقتضيه الحكمة، فسأل ذلك إبراهيم، من حيث كـان طريقاً للعلم بالأُمور.

وقوله: ﴿وأَلْحِقْني بالصَالِحينَ﴾ معناه افعل بي من اللطف ما يؤدّيني إلى الصلاح والاجتماع مع النبيّين في الثواب، وفى ذلك دلالة على عظم شأن الصلاح. و«صلاح العبد» هو الاستقامة على ما أمر الله به ودعا إليه.

وقوله: ﴿واجْعَلْ لي لِسانَ صِدْقٍ في الآخِرينَ﴾ أي ثناءً حسناً في آخر الأُمم، فأجاب الله تعالى دعاءه، لأنّ اليهود يقرّون بنبوّته، وكذلك النصارى وأكثر الأُمم.

وقيل: معنى ﴿واجعل لي لِسانَ صِدْقٍ في الآخِرينَ﴾ أي اجعل من ولدي من يقوم بالحقّ ويدعو إلى الله، وهو محمّد صلى الله عليه وآله ثمّ سأله أن يجعله ﴿مِن وَرَثةِ جَنّةِ النَعيمِ﴾ بأن يفعل معه من الألطاف ما يختار عنده الطاعات، لأنّ الجنّة لا يثاب فيها إلّا بالاستحقاق.

ثمّ قال: ﴿ولا تُخْزِني يَومَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا تفضحني بذنب، ولا تعيّرني يوم يحشر الخلائق. و«الخزي» الفضيحة والتعيير بالذنب بما يردع النفس، يقال: خزي خزياً، وأخزاه الله إخزاءً وهذا موقف خـزي. وهـذا الدعـاء منه عليه السلام انقطاع منه إلى الله تعالى، لأنّا قد بيّنّا أنّ القبائح لا تقع من الأنبياء على حال.

ثمّ وصف اليوم الّذي يبعث فيه الخلائق بأنّه ﴿يَومَ لا ينْفَعُ﴾ فيه ﴿مالٌ﴾ فيفادي به الإنسان فيه نفسه من العقاب ﴿ولا﴾ يـنفع ﴿بَنُونَ﴾ يـنصرونه

﴿إلّا مَنْ أَتَى﴾ أي وإنّما ينفع من يأتي ﴿اللهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ﴾ أي سليم من الفساد والمعاصي.

وإنّما خصّ القلب بالسلامة، لأنّه إذا سلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد، من حيث إنّ الفساد بالجارحة لا يكون إلّا عن قصد بالقلب الفاسد، فإن اجتمع مع ذلك جهل فقد عدم السلامة من جهتين. وقيل: سلامة القلب سلامة الجوارح، لأنّه يكون خالياً من الإصرار على الذنب.

وحكى أنّه سأل الله تعالى أن يغفر لأبيه، وذكر أنّه من الضالّين، قالوا: إنّما سأل الله أن يغفر له يوم القيامة بشرط تقتضيه الحكمة. وهو أن يتوب قبل موته، فلمّا تبيّن أنّه عدوّ لله تبرّأ منه، ووصفه بأنّه ضالّ يدلّ على أنّه كافر، كفر جهل لا كفر عناد.

وقيل: إنّه إنّما دعا لأبيه لموعدة وعده بها، لأنّه كان يطمعه سرّاً في الايمان فوعده بالاستغفار، فلمّا تبيّن أنّه كان عن نفاق تبرّأ منه.

وقال الحسن: عاب الله تعالى من فعل إبراهيم في قوله: ﴿إلّا قَولَ إبراهِيمَ لأَبِيهِ لأَستَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ بعد قوله: ﴿قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبراهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ﴾ [1]. وليس الأمر على ما قاله. ونحن نبيّن الوجه في هذه الآية إذا انتهينا إليها إن شاء الله.

وعند أصحابنا أنّ أباه الّذي استغفر له كان جدّه لأُمّه، لأنّ آباء النبيّ عليه السلام إلى آدم كلّهم مؤمنون موحّدون بأدلّة ليس هذا موضع ذكرها، والدلالة عليها.

قوله تعالى:

وَأُزْلِفتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الجَحيمُ لِلغاوِينَ ﴿٩١﴾ وقِيلَ لَهُمْ أيْنَ ما كُنْتُمْ

---

(١) الممتحنة: ٤.

تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أو يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فيهَا هُمْ وَالْغاوُنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ستّ آيات.

معنى ﴿وَأُزلِفَتِ الجنَّةُ للمتَّقِينَ﴾ قرّبت لهم ليـدخلوها ﴿وبُرِّزتِ الجَحِيمُ للغَاوِينَ﴾ أي أظهرت الجحيم للعاملين بالغواية وتركهم الرشاد، يقال: برز يبرز بروزاً، وأبرزه إبرازاً، وبرّزه تبريزاً، وبارزه مبارزة، وتبارزا تبارزاً. وفي رؤية الإنسان آلات العذاب الّتي أُعدّت لهم عذاب عظيم وألم جسيم للقلب، فبروز الجحيم للغاوين بهذه الصفة.

و«الغاوي» العامل بما يوجب الخيبة من الثواب: غوى الرجل يغوي غيّاً وغواية، وأغواه غيره إغواءً واستغواه استغواءً، وأصله الخيبة، قال الشاعر:

فَمَنْ يَلقَ خَيراً يَحمدُ النـاسُ أمـرَهُ
وَمَنْ يَغْـو لا يُعـدم على الغَيّ لائِما[١]

ثمّ أخبر أنّه يقال لهم ـ يعني للغاوين ـ على وجهالتوبيخ لهم والتقريع: ﴿أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ وإنّما وُبّخوا بلفظ الاستفهام، لأنّه لاجواب لهم عن ذلك إلّا بما فيه فضيحتهم، كقولك: أين ما كنت تعبد من دون الله لا يخلّصك من عقابه ﴿هَلْ يَنصُرُونكُمْ﴾ ويدفعون عنكم العقاب في هذا اليوم ﴿أو يَنتَصِرُونَ﴾ لكم إذا عوقبتم! فمن عبدها فهو الغاوي في عبادته لا يملك رفع الضرر عن نفسه، ولا عن عابده مع أنّه لاحق به.

ثمّ قال: ﴿فَكُبْكِبُوا فيها﴾ ومعناه كُبّوا إلّا أنّه ضوعف، كما قال: ﴿بِريحٍ صَرْصَرٍ﴾[٢] أي صرّ. وقيل: جمعوا بطرح بعضهم على بعض، عن ابن عبّاس. وقال مجاهد: هووا.

---

(١) أنشده ابن عبد ربّه في العقد الفريد ٥: ٣٢٨، ونسبه إلى المرقّش.
(٢) الحاقّة: ٦.

﴿هُمْ والغَاوُنَ﴾ أي وكُبّ الغاوون معهم ﴿و﴾ كُبّ معهم ﴿جُنُودُ إبليسَ﴾ أي من اتّبعه من ولده وولد آدم. وقال أبو عبيدة: ﴿كبكبوا﴾ معناه طرحوا فيها بعضهم على بعض جماعة جماعة[١]. وقال المبرّد: نكّسوا فيها من قولهم: كبّه الله لوجهه.

قوله تعالى:

قَالُوا وهُمْ فيهَا يَخْتَصمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللهِ إن كُنّا لفي ضَلَالٍ مُبينٍ ﴿٩٧﴾ إذْ نُسوّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أضَلَّنا إلَّا الْمُجْرِمونَ ﴿٩٩﴾ فمَا لَنَا مِن شَافِعينَ ﴿١٠٠﴾ وَلا صَديقٍ حَميمٍ ﴿١٠١﴾ فَلوْ أنَّ لنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ ﴿١٠٢﴾ إنَّ في ذٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أكْثرُهُمْ مُؤمِنينَ ﴿١٠٣﴾ وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزيزُ الرَّحيمُ ﴿١٠٤﴾ تسع آياتٍ بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن هؤلاء الكفّار: إنّهم إذا حصلوا في الجحيم ﴿يَختَصِمُونَ﴾ و«الاختصام» منازعة كلّ واحد منهم صاحبه بما فيه إنكار عليه وإغلاظ له، يقال: اختصما في الأمر اختصاماً، وتخاصما تخاصماً، وخاصمه مخاصمة. ويقول بعضهم لبعض: ﴿تَاللّهِ إن كُنّا لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ قال الزجّاج: معناه ما كنّا إلّا في ضلال مبين[٢]. وقال غيره: اللام لام الابتداء الّتي تدخل في خبر «إنْ» و «إنْ» هذه هي الخفيفة من الثقيلة، ويلزمها اللام في خبرها، فرقاً بينها وبين «إن» الّتي للجحد، وتقديره: تالله إن كنّا لفي ضلال مبين في الحال الّتي سوّينا بينكم ـ يخاطبون كلّ معبود من دون الله ـ ﴿بربّ العالَمِين﴾ الّذي خلق الخلق، في توجيه العبادة إليكم. و«التسوية» إعطاء أحد الشيئين مثل ما يعطى الآخر، ومثله المعادلة والموازنة. والمراد ـ هاهنا ـ الشركة في العبادة.

ثمّ قال: ﴿وما أضلّنا إلّا المُجرِمُون﴾ بأن دعونا إلى الضلال فتبعناهم

(١) مجاز القرآن ٢: ٨٧.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٩٤.

وقبلنا منهم. ثمّ يقولون: ﴿فَما لَنا مِن شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي لو كان لنا شفيع لسأل في أمرنا أو صديق لدفع عنّا، فقد آيس الكفّار من شافع، وإنّما يقولون ذلك إذا رأوا جماعة من فسّاق أهل الملّة يشفع فيهم، ويسقط عنهم العقاب ويخرجون من النار، يتلهّفون على مثل ذلك، ويتحسّرون عليه.

و«الصديق» هو الصاحب الّذي يصدق المودّة وصدق المودّة وإخلاصها من شائب الفساد. و«الحميم» القريب الّذي يحمي بغضب صاحبه، والحميم هو الحامي، ومنه الحمى. وأحمّ الله ذلك من لقائه: أي أدناه، بمعنى جعله كالّذي بلغ بنصحه إيّاه، وحمّ كذا أي قدر.

ثمّ أخبر تعالى أنّهم يتمنّون فيقولون: ﴿فَلو أنّ لَنا كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى دار التكليف ﴿فنَكُونَ مِنَ المؤمِنينَ﴾ وإنّما جاز التمنّي بـ«لو» لأنّه للتقدير، كما أنّ التمنّي بـ«ليت» مثل ذلك لتقدير المعنى، إلّا أنّ التقدير بـ«لو» لموجب غيره، والتقدير بـ«ليت» للامتناع بالمقدّر، وإنّما جاز جواب التمنّي، لأنّ المعنى متصوّر بالتمنّي غير أنّه إذا كان بالفاء فهو نصب، فلذلك نصب «فنكون» لأنّ الفاء إذا صرفت عن العطف أضمر معها «أن» للإشعار بالصرف.

ثمّ قال تعالى: ﴿إنّ في ذَلكَ لآيَةً﴾ أي أنّ فيما قصصناه وذكرناه لدلالة لمن نظر فيها واعتبر بها، لكنّ أكثرهم لا يعتبرون بها ولا يؤمنون بها.

وأخبر ﴿إنّ ربَّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَهُوَ العَزِيزُ الرَحِيمُ﴾ وإنّما جمع بين الصفتين: العزيز والرحيم ليرغب في طلب ما عند الله أتمّ الترغيب من حيث هو عظيم الرحمة واسع المقدور، منيع من معازّة غيره.

وقيل في وجه إخبارهم بأنّهم يكونون مؤمنين لو ردّوا إلى دار التكليف قولان:

أحدهما: أنّهم يخبرون عن عزمهم، لأنّ الله تعالى قد أخبر عنهم أنّهم ﴿لو رُدّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عنهُ﴾[1] ولا يجوز ـ أن يكونوا مع رفع التكليف وكمال عقولهم وحصول المعارف الضروريّة ـ أن يكذبوا، لأنّهم ملجأون إلى ترك القبيح بأن يخلق الله فيهم العلم الضروري، إنّهم لو راموا القبيح لمنعوا من ذلك، ولولا ذلك لكانوا مغرّين بالقبيح وذلك لا يجوز.

والثاني: أن يكون ذلك القول منهم قبل دخولهم النار، وقبل أن يصيروا ملجئين. والأوّل أقوى.

قوله تعالى:

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوح الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحُ ألاَ تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إنّي لَكُمْ رَسُولٌ أمينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا الله وأطيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلاّ علَىٰ رَبِّ الْعَالَمينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللهَ وأطيعُونِ ﴿١١٠﴾ ستّ آياتٍ بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن قوم نوح: أنّهم كذّبوا الّذين أرسلهم الله بالنبوّة، وإنّما كذَّبوا جميعهم، لأنّهم كذّبوا كلّ من دعا إلى توحيد الله وخلع عبادة الأصنام ممّن مضى من الرسل، وغيرهم ممّن يأتي. وقال الحسن: لأنّهم بتكذيبهم نوحاً مكذّبون من جاء بعده من المرسلين ولو لم يكن قبله نبيّ مرسل. وقال الجبّائي: كذّبوا من أُرسل قبله. وإنّما قال: ﴿كَذّبتْ﴾ بالتأنيث، والقوم مذكّر لأنّه بمعنى جماعة قوم نوح.

ثمّ بيّن أنّهم إنّما كذّبوه حين قال لهم ﴿إنّي رَسُولٌ﴾ من قبل الله تعالى ﴿أمينٌ﴾ على رسالته. و«الأمين» الّذي يؤدّي الأمانة، وضدّه الخائن. وقد أدّى نوح الأمانة في أداء الرسالة والنصيحة لهم، فلذلك وصفه الله بأنّه أمين. وإنّما سمّاه بأنّه «أخوهم» لأنّه كان منهم في النسب، وذكر ذلك

---

(١) الأنعام: ٢٨.

لأنّهم به آنس وإلى إجابته أقرب فيما ينبغي أن يكونوا عليه، وهم قد صدفوا عنه.

﴿ألا تتّقُونَ﴾ الله باجتناب معاصيه منكراً بهذا القول عليهم، وإنّما جاء الإنكار بحرف الاستفهام لأنّهم لا جواب لهم عن ذلك إلّا بما فيه فضيحتهم، لأنّه إن قالوا: لا نتّقي ما يؤدّينا إلى الهلاك هتكوا نفوسهم وخرجوا عن عداد العقلاء، وإن قالوا: بل نتّقيه لزمهم ترك عبادة الأصنام.

ثمّ قال لهم: ﴿فاتّقُوا اللهَ﴾ واجتنبوا معاصيه وافعلوا طاعاته ﴿وأطيعُونِ﴾ فيما أمركم به وأدعوكم إليه. ثمّ قال لهم: ﴿وما أسألكم عَلَيهِ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿مِنْ أجرٍ﴾ فيصرفكم ذلك عن الإيمان، لأنّه ليس أجري وثوابي ﴿إلّا على رَبِّ العالمِينَ﴾ الّذي خلق جميع الخلائق.

ثمّ كرّر عليهم قوله ﴿فاتّقُوا اللهَ وأَطيعُونِ﴾ لاختلاف المعنى فيه، لأنّ التقدير: فاتّقوا الله وأطيعوني لأنّي رسول أمين، واتّقوا الله وأطيعوني لأنّي لا أسألكم أجراً عليه فتخافوا ثلم أموالكم. و«الطاعة» إجابة الداعي بموافقة إرادته مع كون الداعي فوقه، فالرتبة معتبرة.

قوله تعالى:

قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَما عِلمي بمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إنْ حِسَابُهُمْ إلّا عَلىٰ رَبّي لَوْ تَشعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أنَا بِطارِدِ المُؤمِنينَ ﴿١١٤﴾ إنْ أنَا إلّا نذيرٌ مُبينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لئِنْ لَمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرجُومينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إنَّ قَوْمي كذّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْني وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّني وَمَنْ مَعِيَ مِنَ المُؤمِنينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ المَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أغْرَقْنَا بَعْدُ البَاقينَ ﴿١٢٠﴾ إنَّ في ذٰلِكَ لآيَةً وَمَا كانَ أكْثَرُهُمْ مُؤمِنينَ ﴿١٢١﴾ وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزيزُ الرَّحيمُ ﴿١٢٢﴾ اثنتا عشرة آيةً بلا خلاف.

قرأ يعقوب ﴿وأتباعُكَ﴾ على الجمع، الباقون ﴿واتّبعك﴾ على الفعل الماضي. قال الزجّاج: من قرأ على الجمع فقراءته جيّدة، لأنّ الواو «واو» الحال، وأكثر ما يدخل على الأسماء، تقول: جئتكَ وأصحابُك بنو فلان، وقد يقولون: وصحبَك بنو فلان، وأكثر ما يستعملونه مع «قد» في الفعل[١].

حكى الله تعالى عن قوم نوح أنّهم قالوا لنوح حين دعاهم إلى الله وخوّفهم من معصيته: أنصدّقك فيما تدعونا إليه وقد اتّبعك الأرذلون ؟! يعني السفلة وأوضاع الناس. و«الرذل» الوضيع، ونقيض الرذيلة الفضيلة وجمعه الرذائل. وقيل: إنّهم نسبوهم إلى صناعات دنيئة كالحياكة والحجامة، وإنّهم مع ذلك أهل نفاق ورذالة، فأنفوا من اتّباعه كما اتّبعوه هؤلاء، ولم يجز من نوح أن يقبل قول هؤلاء فيهم، لأنّهم كفّار يعادونهم، فلا تقبل شهادتهم. ويجوز أيضاً أن يكونوا لمّا آمنوا تابوا من قبيح ماعملوا، لأنّ الايمان يجبّ الخطايا ويوجب الإقلاع عنها.

ولم يجز استصلاح هؤلاء بإقصاء من آمن، كما لا يجوز استصلاحهم بفعل الظلم، لأنّ في ذلك إذلالاً للمؤمنين، وذلك ظلم لهم لا يجوز أن يفعل بأهل الإيمان، لأنّه قبيح.

ومن قرأ على الجمع أراد: أنّ الّذين اتّبعوك هم الأرذلون. ومن قرأ على الفعل أراد: اتّبعك من هذه صفته.

فقال لهم نوح عليه السلام: لم أطردهم ﴿وما عِلْمي بِما كانُوا يعمَلُونَ﴾ فيما مضى، لأنّي ما كلّفت ذلك، وإنّما أُمرت بأن أدعوهم إلى الله وقد أجابوني إليه، وليس حسابهم إلّا على ربّي الّذي خلقني وخلقهم لو علمتم ذلك وشعرتموه، وليس أنا بطارد المؤمنين، لأنّي لست إلّا نذيراً مخوّفاً من

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٩٥.

معصية الله مبيّن لطاعته داعٍ إليه.

و«الطرد» إبعاد الشيء على وجه التنفير، طرده يطرده، وأطرده جعله طريداً، وأطرد في الباب استمرّ في الذهاب كالطريد، وطارده مطاردة وطراداً.

فقال له قومه عند ذلك: ﴿لَئِن لَمْ تَنتَهِ﴾ وترجع عمّا تقوله وتدعو إليه ﴿يا نُوحُ لتَكُونَنَّ مِنَ المرجُومِينَ﴾ بالحجارة. وقيل: من المرجومين بالشتم[1]. فالرجم الرمي بالحجارة، ولا يقال للرمي بالقوس: رجم. ويسمّى المشتوم مرجوماً، لأنّه يرمى بما يذمّ به. و«الانتهاء» بلوغ الحدّ من غير مجاوزة إلى ما وقع عنه النهي، وأصل النهاية بلوغ الحدّ، والنهي الغدير لانتهاء الماء إليه.

فقال نوح عند ذلك: يا ربّ ﴿إنّ قَومِي كَذَّبُونِ﴾ وإنّما قال ذلك مع أنّ الله تعالى عالم بأنّهم كذّبوه، لأنّه كالعلّة فيما جاء بعده، فكأنّه قال: ﴿افتح بيني وبينهم فتحاً﴾ لأنّهم كذّبوني، إلّا أنّه جاء بصيغة الخبر دون صيغة العلّة. وإذا كان على معنى العلّة حسن أن يأتي بما يعلمه المتكلّم والمخاطب.

ومعنى ﴿افتَحْ بَيني وبَينَهُمْ فَتْحاً﴾ احكم بيننا بالفعل الّذي فيه نجاتنا وهلاك عدوّنا، وعامل كلَّ واحد منّا بما يستحقّه، يقال للحاكم: الفتّاح، لأنّه يفتح وجه الأمر بالحكم الفصل، ويتقرّر به الأمر على أداء الحقّ. فقال الله تعالى له مجيباً لدعائه: ﴿فأنجَيناهُ ومَنْ مَعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿في الفلك﴾ يعني السفن، يقال شحنه يشحنه شحناً فهو شاحن: إذا ملأه بما يسدّ خلله، وشحن الثغر بالرجال، ومنه الشحنة. قال الشاعر في الفتح بمعنى الحكم:

---

(١) قاله السدّي كما في النكت والعيون ٤: ١٧٩.

ألا أبلغْ بني أعـيا رسـولاً فإنّي عن فُتاحَتِكُمْ غنيُّ[١]

والفلك السفن يقع على الواحد والجمع. ثمّ أخبر تعالى أنّه لما أنجى نوحاً وأصحابه أغرق الباقين من الكفّار بعد ذلك وأهلكهم.

ثمّ قال تعالى: إنّ فيما أخبرنا به من قصّة نوح وإهلاك قومه لآية واضحة على توحيد الله وإن كان أكثرهم لا يؤمنون ولا يعتبرون به.

وقيل: إنّ قوله: ﴿إنّ في ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثرُهُم مُؤمِنِينَ﴾ في عدّة مواضع ليس بتكرير وإنّما هو ذكر آية في قصّة نوح، وما كان من شأنه مع قومه بعد ذكر آية فيما كان من قصّة إبراهيم وقومه، وذكر قصّة موسى وفرعون فيما مضى، فبيّن أنّه إنّما ذكر ذلك لما فيه من الآية الباهرة، وكرّر ﴿وإنّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرحِيمُ﴾ لأنّ المعنى أنّه ﴿العزيز﴾ في الانتقام من فرعون وقومه ﴿الرحيم﴾ في نجاة موسى ومن معه من بني إسرائيل، وذكر ـ هاهنا ـ ﴿العزيز﴾ في إهلاك قوم نوح بالغرق الّذي طبّق الأرض ﴿الرحيم﴾ في نجاته نوحاً ومن معه في الفلك.

و«العزيز» القادر الّذي تتعذّر ممانعتُه لعظم مقدوراته. فصفة «عزيز» وإن رجعت إلى معنى قادر، فمن هذا الوجه ترجع ولا يوصف بالعزيز مطلقاً إلّا الله، لأنّها تفيد معنى قادر، ولا يقدر أحد على ممانعته. والله تعالى قادر أن يمنع كلّ قادر سواه. ومعنى وصفه بأنّه عزيز مبالغة من ثلاثة أوجه: أحدها: لأنّه بزنة «فعيل» والثاني: أنّه لا يوصف به مطلقاً سواه. والثالث: لما فيه من التعريف بالألف واللام.

قوله تعالى:

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرسَلينَ ﴿١٢٣﴾ إذْ قَالَ لهُمْ أَخُوهُمْ هُودُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إنّي لَكُمْ رَسُولٌ

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجازالقرآن١: ٢٢٠، ونسبه إلى بعض مراد، وفيه: «عُصْم» بدل «أعيا».

أمينٌ ﴿١٢٥﴾ فاتَّقُوا اللهَ وَأطيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أسئَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أجرٍ إنْ أجرِيَ إلّا عَلىٰ رَبِّ الْعَالَمينَ ﴿١٢٧﴾ أتَبْنُونَ بِكُلِّ ريعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وتَتَّخذُون مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جبَّارين ﴿١٣٠﴾ فاتَّقُوا اللهَ وَأطيعُونِ ﴿١٣١﴾ تسع آياتٍ بلا خلاف.

أخبر الله تعالى عن عاد ـ وقيل: هم قبيلة ـ أنّهم كذّبوا من أرسلهم الله حين قال لهم أخوهم هود: ـ قال الحسن: كان أخاهم من النسب دون الدين ـ ﴿ألَا تَتَّقُونَ﴾ الله باجتناب معاصيه إلى قوله: ﴿رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ وقد فسّرنا نظائره.

وقوله: ﴿أتَبنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيةً﴾ فالبناء وضع ساف على ساف إلى حيث ينتهي. و«الريع» الارتفاع من الأرض، وجمعه أرياع وريعة، قال ذو الرمّة:

طِراقُ الخَوافي مسرف فَوقَ رِيعةٍ ندى لَيلهِ فـي ريشِـهِ يَـترقْرَقُ[1]

ومنه الريع في الطعام، وهي الزيادة والنماء، قال الأعشى:

وبـهماء قـفر تـجاوزتها إذا خبّ في ريعِها آلُـها[2]

وفيه لغتان: فتح الراء وكسرها بمعنى المكان المرتفع. قال الفرّاء: فيه لغتان: ريع، وراع مثل زير، وزار[3] قال أبو عبيدة: هو الطريق بين الجبلين في ارتفاع[4]. وقيل: هو الفجّ الواسع. وقال قتادة: معناه بكلّ آية طريق أي علامة. ﴿تَعبثُونَ﴾ تلعبون، في قول ابن عبّاس.

وقوله: ﴿وتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعلّكُمْ تخلُدُونَ﴾ قال المؤرّج: لعلّكم تخلدون: كأنّكم تخلدون، بلغة قريش. وقال الفرّاء: معناه كيما تخلدون[5]. قال مجاهد: المصانع أراد بها حصوناً مشيّدة. وقال قتادة: مآخذ للماء،

---

(١) ديوان ذي الرمّة: ١٧٥، وفيه: «واقع» بدل «مسرف».
(٢) لم نظفر به في ديوانه وأنشده الطبري في تفسيره ٩: ٤٦.
(٣) معاني القرآن ٢: ٢٨١، فيه: الرير والرار.
(٤) مجاز القرآن ٢: ٨٨.
(٥) معاني القرآن ٢: ٢٨١.

وهو جمع مصنع، ويقال: مصنعة لكلّ بناء.

وقيل: إنّهم كانوا يبنون بالمكان المرتفع البناء العالي، ليدلّوا بذلك على أنفسهم، وزيادة قوتهم وليفاخروا بذلك غيرهم من الناس، وكانوا جاوزوا في إيجاد المصانع إلى الأسواق فنهوا عن ذلك. وقال الزجّاج: المصانع المباني. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ معناه تفعلون ذلك لكي تبقوا فيها مؤبّدين[1].

﴿وإذا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جَبّارِينَ﴾ فالبطش العسف قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط، في قول ابن عبّاس. و«الجبّار» العالي على غيره بعظم سلطانه، وهو في صفة الله تعالى مدح، وفي صفة غيره ذمّ، فإذا قيل للعبد: جبّار فمعناه أنّه يتكلّف الجبريّة. والجَبّار في النخل ما فات اليد، وقال الحسن: بطش الجبريّة هو المبارزة من غير ثبت ولا توقّف، فذمّهم الله بذلك.

ونهاهم هود فقال: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ باجتناب معاصيه و﴿أطيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه، ولم يكن هذا القول تكراراً من هود، لأنّه متعلّق بغير ما تعلّق به الأوّل، لأنّ الأوّل معناه: فاتّقوا الله في تكذيب الرسل، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه من إخلاص عبادته، والثاني: فاتّقوا الله في ترك معاصيه في بطش الجبّارين وعمل اللاهين وأطيعوني في ذلك الأمر الّذي دعوتكم إليه.

قوله تعالى:

وَاتَّقُوا الّذي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إني أخافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إنْ هٰذا إلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إنَّ في ذلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنينَ ﴿١٣٩﴾ وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٩٦.

الرَّحيمُ ﴿١٤٠﴾ تسع آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ﴿خَلقُ الأوَّلِينَ﴾ بفتح الخاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبوجعفر، الباقون بضمّ الخاء واللام. فمن قرأ بفتح الخاء أراد: ليس هذا إلّا اختلاق الأوّلين، في قول ابن مسعود. ومن ضمّ الخاء واللام: أراد ليس هذا إلّا عادة الأوّلين، في أنّهم كانوا يحيون ويموتون.

وقال بعضهم: المعني في ﴿خُلُقُ الأوّلِينَ﴾ خلق أجسامهم، وأنكر أن يكون المعنى إلّا كذب الأوّلين، لأنّهم يقولون: ﴿ما سَمِعْنا بِهَذا في آبائِنا الأوَّلِينَ﴾ (١).

وليس الأمر على ما ظنّه لأنّهم قد سمعوا بالدعاء إلى الدين، وكانوا عندهم كذّابين، فلذلك قال: ﴿كَذَّبَتْ عادٌ المُرسَلِيَن﴾ (٢) وقال: ﴿إنْ هذا إلّا أساطيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (٣) وإنّما قالوا: ﴿ما سَمِعْنا بِهذا في آبائِنا الأوّلِينَ﴾ أي ما سمعنا أنّهم صدّقوا بشيء منه، أو ذكروا آية حقّ وصواب، بل قالوا باطل وخطأ.

حكى الله تعالى عن هود أنّه قال لقومه: واتّقوا معاصي الله الّذي أمدّكم بالّذي تعلمون من أنواع نعمه، فالإمداد اتّباع الثاني ما قبله شيئاً بعد شيء، على انتظام فهؤلاء أمدّهم الله بالمال وبالبنين ـ يعني الذكور من الأولاد ـ وبالأنعام من الإبل والبقر والغنم، والبساتين الّتي فيها شجر تحتها عيون جارية فيها، فآتاهم رزقهم على إدرار. فالعيون ينابيع ماء تخرج من باطن الأرض، ثمّ تجري على ظاهرها وعين الماء مشبّه بعين الحيوان في استدارته وتردّد الماء إلّا أنّه جامد في عيون الحيوان يتردّد بالشعاع.

---

(١) المؤمنون: ٢٤، القصص: ٣٦. (٢) الشعراء: ١٢٣.
(٣) الأنعام: ٢٥، الأنفال: ٣١، المؤمنون: ٨٣، النمل: ٦٨.

ثمّ قال لهم: ﴿إنّي أخافُ عَليكُمْ عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ﴾ يعني يوم القيامة، و«العظيم» هو الموصوف بالعظم، وفيه مبالغة مثل ما أعظمه لعظم ما فيه من الأهوال. ثمّ حكى ما أجابه به قومه، فإنّهم قالوا له: ﴿سَواء عَلينا أَوعظتَ أَمْ لم تَكُنْ مِنَ الواعِظِينَ﴾ وإنّما لم يقل: سواء علينا أوعظت أم لم تعظ ليتشاكل رؤوس الآي، ومعناه إنّا لسنا نقبل منك ما تقوله، سواء علينا وعظك وارتفاعه. و«الوعظ» حثّ بما فيه تليين القلب للانقياد إلى الحقّ. و«الوعظ» زجر عمّا لا يجوز فعله. ومعنى ﴿سواء﴾ أي كلّ واحد من الأمرين مثل الآخر، حصول الوعظ وارتفاعه.

ثمّ قالوا: ليس هذا الّذي تدعوه ﴿إلّا خُلقُ الأوّلينَ﴾ أي كذبهم، فيمن فتح الخاء. وإلّا عادة الأوّلين وخلقهم. و«الخلق» المصدر من قولك: خلق الله العباد خلقاً، والخلق المخلوق من قولهم: يعلم هذا من خلق الناس. قال الفرّاء: يقولون: هذه الأحاديث خلق، يعنون المختلقة، قال: والقراءة بضمّ الخاء أحبّ إليّ، لأنّها تتضمّن المعنيين. والخلق الاختلاق، وهو افتعال الكذب على التقدير الّذي يوهم الحقّ.

ثمّ أخبروا: أنّا لسنا بمعذّبين على خلاف ما تدعونا إليه، على ما تدّعيه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني هوداً ﴿فَأَهلَكْناهُمْ إنَّ في ذَلكَ لآيَةً﴾ إلى آخر القصّة. وقد فسّرناه.

قوله تعالى:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ المُرْسَلينَ ﴿١٤١﴾ إذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إنّي لَكُمْ رَسُولٌ أمينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ إنْ أجرِيَ إلّا عَلىٰ رَبِّ العَالَمينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ في مَا هٰهُنَا آمِنينَ ﴿١٤٦﴾ في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللهَ

وَأطيعُونِ ﴿١٥٠﴾ عشر آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿فَرِهينَ﴾ بغير ألف، الباقون ﴿فارِهينَ﴾ بألف. حكى الله تعالى عن قوم صالح، وهم «ثمود» أنّهم كذّبوا المرسلين ولم يصدّقوهم فيما دعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد و[ترك] عبادة الأصنام، حتّى قال لهم أخوهم ـ في النسب ـ صالح وهو النبيّ المبعوث إليهم: ﴿ألا تتَّقُونَ﴾ الله باجتناب معصيته وترك عبادة من سواه ﴿إنّي لَكُمْ رَسوُلُ أمينٌ﴾ فالأمين هو الّذي استودع الشيء على أمن منه الخيانة، فالرسول بهذه الصفة، لأنّه يؤدّي الرسالة، كما حملها من غير تغيير لها، ولا زيادة ولا نقصان.

ثمّ أمرهم فقال: ﴿فاتّقُوا﴾ عقاب ﴿اللهَ﴾ باجتناب معاصيه ﴿وأطيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه، ولست أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً فيصرفكم عن القبول؛ لأنّه ليس أجري وثوابي في ذلك إلّا على ربّ العالمين الّذي خلق الخلق.

ثمّ قال لهم: يا قوم ﴿أتُتْرَكُونَ في ما ههنا آمنينَ﴾ منكراً عليهم، فإنّ ما هم فيه من النعم لا تبقى عليهم، وإنّها تزول عنهم وإنّ أمنهم سيؤول إلى الخوف. و«الأمن» سكون النفس إلى السلامة، وهو نقيض الخوف. وقد يكون أمناً مع العلم بالسلامة، ومع الظنّ القويّ.

ثمّ عدّد نعمهم الّتي كانوا فيها، فقال أنتم ﴿في جَنّاتٍ﴾ وهي البساتين الّتي يسترها الشجر ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية ﴿وَزُروعٍ﴾ وهو جمع زرع وهو نبات من الحبّ الّذي يبذر في الأرض، زرعه أي بذره في الأرض كما يزرع البذر، فالبذر المبدّد في الأرض على وجه مخصوص يسمّى زرعاً.

﴿وَنخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ﴾ فالهضيم اللطيف في جسمه، ومنه هضيم الحشا

أي لطيف الحشا، ومنه هضمه حقّه: إذا ما نقصه، لأنّه لطف جسمه بنقصه، ومنه هضم الطعام: إذا لطف واستحال إلى مشاكلة البدن. وقال ابن عبّاس: معنى ﴿هضيم﴾ أي قد بلغ وأينع. وقال الضحّاك: ضمر بركوب بعضه بعضاً. وقال عكرمة: هو الرطب الليّن، وقال مجاهد: هو الّذي إذا مسّ تفتّت. وقال أبو عبيدة والزجّاج والفرّاء: هو المتداخل بعضه في بعض[١].

وقوله: ﴿وتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فارِهِينَ﴾ قال ابن عبّاس: معناه حاذقين، وقال ابن عبّاس أيضاً ﴿فَرِهين﴾ أشرين بطرين. وقال الضحّاك: معناه عليين. وقال ابن زيد: الفره القويّ. وقيل: هو الفرح المرح، كما قال الشاعر:

لا أَستكين إذا ما أزمة أزمَتْ ولن تراني بخير فاره اللبَبِ[٢]

أي مرح اللبب. وقيل: فاره وفره مثل حاذق وحذق. و«الفاره» النافذ في الصنعة بين الفراهة كحاذق بين الحذق، وعبد فاره نافذ في الأُمور.

ثمّ قال لهم: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ في ترك عبادته والإشراك به واجتنبوا معاصيه ﴿وأطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه.

قوله تعالى:

وَلَا تُطيعُوا أمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذينَ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إنَّمَا أنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أنْتَ إلّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَال هٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُم شِرْبُ يَومٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ إنَّ في ذٰلكَ لآيَةً وَمَا كانَ أكثَرُهُمْ مُؤمِنين ﴿١٥٨﴾ وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزيزُ

(١) مجاز القرآن ٢: ٨٨، معاني القرآن وإعرابه ٤: ٩٦، معاني القرآن ٢: ٢٨٢.
(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٨٩، ونسبه إلى عدي بن وداع.

الرَّحيمُ﴿١٥٩﴾ تسع آياتٍ بلا خلاف.

حكى الله تعالى أنّ صالحاً قال لقومه: ﴿لا تُطِيعُوا أمرَ المُسْرِفينَ﴾ وهم الّذين تجاوزوا الحدّ بالبعد من الحقّ. وقيل: عنى بالمسرفين: تسعة رهط من ثمود، كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فنهاهم الله على لسان صالح عن اتّباعهم. وقال: ﴿الذين يُفْسِدُونَ في الأرضِ﴾ بأن يفعلوا فيها المعاصي ويرتكبوا القبائح ﴿ولا يُصلِحُونَ﴾ أي لا يفعلون شيئاً من الأفعال الحسنة.

فقالوا له في الجواب عن ذلك: ﴿إنّما أنتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ﴾ و«المسحّر» هو الّذي قد سحر مرّة بعد مرّة، حتّى يختلّ عقله ويضطرب رأيه. و«السحر» حيلة توهم قلب الحقيقة. وقال مجاهد: معناه من المسحورين. وقال ابن عبّاس: من المخلوقين، لأنّه يذهب إلى أنّه يخترع على أمر يخفى كخفاء السحر. وقيل : معناه أنّك ممّن له سحر: أي رئة، ومنه قولهم: انتفخ سحره، قال لبيد:

فإن تسألينا فيم نحنُ فإنّنا عَصافيرُ من هذا الأنامِ المُسَحَّرِ[1]

أي المعلّل بالطعام وبالشراب، على أمر يخفى كخفاء السحر.

ثمّ قالوا له: ﴿ما أنت إلّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ أي ليس أنت إلّا مخلوقاً مثلنا. فلن نتّبعك ونقبل منك. وقالوا له: ﴿فأتِ بآيةٍ﴾ أي معجزة تدلّ على صدقك ﴿إنْ كُنتَ مِنَ﴾ جملة ﴿الصادِقينَ﴾ في دعواك. فقال لهم: ﴿هذهِ ناقَةٌ﴾ وهي الّتي أخرجها الله من الصخرة عشراء[2] ترغو على ما اقترحوا ﴿لَها شِربٌ﴾

(١) ديوان لبيد: ٧١.

(٢) في الحجريّة «عشواء»، وهي الناقة الّتي لايبصر أمامها، وفي مجمع البيان «عشراء» هي الناقة الحامل.

أي حظّ من الماء، قال الشاعر:

لَمْ يَمنع الشربَ منها غيرُ أنْ نَطَقَتْ حَمامةٌ في غُصونٍ ذات أوقالِ[١]

أي لم يمنع حظّها من الماء و«الشرب» بفتح الشين وضمّها وكسرها تكون مصادر، على ما قاله الفرّاء[٢] والزجّاج. وكانوا سألوا أن يخرج لهم من الجبل ناقة عشراء فأخرجها الله حاملاً كما سألوا، ووضعت بعد فصيلاً، وكانت عظيمة الخلق جدّاً.

ثمّ قال لهم صالح: ﴿ولا تَمسُّوها﴾ يعني الناقة ﴿بِسُوءٍ﴾ أي بضرّ تشعر به، فالسوء هو الضرر الّذي يشعر به صاحبه، لأنّه يسوء وقوعه، فإذا ضرّه من حيث لا يشعر به لم يكن قد ساءه، لكنّه عرّضه لما يسوؤه.

وقوله: ﴿فيأخُذَكُمْ عَذابُ يَومٍ عَظيمٍ﴾ معناه أنّكم إن مسستم هذه بسوء أخذكم عذاب يوم عظيم، أي الصيحة الّتي أخذتهم.

ثمّ أخبر فقال: ﴿فَعقَرُوها﴾ أي أنّهم خالفوه وعقروا الناقة، فالعقر قطع الشيء من بدن الحيّ، فإذا كثر انتفت معه الحياة، وإن قلّ لم تنتفِ. والمراد ـ هاهنا ـ أنّهم نحروها. وقيل: إنّهم عقروها، لأنّها كانت تضيّق المرعى على مواشيهم. وقيل: كانت تضيّق الماء عليهم.

ولمّا عقروها رأوا آثار العذاب فيه جدّاً، ولم يتوبوا من كفرهم، وطلبوا صالحاً ليقتلوه، فنجّاه الله ومن معه من المؤمنين. ثمّ جاءتهم الصيحة بالعذاب، فوقع لجميعهم الإهلاك، ولو كانوا ندموا على الحقيقة، وأقلعوا عن الكفر لما أهلكهم الله.

ثمّ قال تعالى: إنّ فيما أخبرنا به وفعلناه بقوم صالح من إهلاكهم لدلالة واضحة لمن اعتبر بها، لكنّ أكثرهم لا يؤمنون ﴿وإنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَهُوَ

---

(١) أنشده سيبويه في الكتاب ٢: ٣٢٩، نسبه إلى الكناني.

(٢) معاني القرآن ٢: ٢٨٢.

العَزِيزُ﴾ أي العزيز في انتقامه ﴿الرحيم﴾ بمن آمن من خلقه به.

قوله تعالى:

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرسَلينَ ﴿١٦٠﴾ إذْ قَالَ لَهُمْ أخُوهُم لُوطٌ ألا تتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إنّي لَكُم رَسُولٌ أمينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللهَ وأطيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَما أسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أجرٍ إنْ أجرِيَ إلّا عَلىٰ رَبِّ العالَمينَ ﴿١٦٤﴾ أتأتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعَالَمين ﴿١٦٥﴾ وَتذَرُون ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أزْوَاجِكُمْ بَلْ أنتُمْ قَوْمٌ عَادُون ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئن لَم تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتكُونَنَّ مِنَ الْمُخرَجين ﴿١٦٧﴾ قالَ إنّي لِعَمَلِكُمْ منَ القَالينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّني وَأهلي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأهلهُ أجمَعينَ ﴿١٧٠﴾ إلّا عَجُوزاً في الغَابِرينَ ﴿١٧١﴾ ثُمّ دَمَّرْنَا الآخَرينَ ﴿١٧٢﴾ وَأمْطَرْنَا عَلَيهِمْ مَطَراً فَساء مَطَرُ المُنْذَرينَ ﴿١٧٣﴾ إنَّ في ذٰلِكَ لآيَةً وَمَا كانَ أكثرُهُمْ مُؤمِنينَ ﴿١٧٤﴾ وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحيمُ ﴿١٧٥﴾ ستّ عشرة آيةً بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن قوم لوط أنّهم كذّبوا الرسل الّذين بعثهم الله، بترك الإشراك به وإخلاص العبادة له، حين ﴿قالَ لَهُمْ أخُوهُمْ لُوطٌ ألا تَتَّقُونَ﴾ الله فتجتنبوا معاصيه والإشراك به، وأنّه قال لهم: ﴿إنّي لَكُمْ رَسُولٌ أمِينٌ﴾ وقد فسّرناه. وإخباره عن نفسه بأنّه رسول أمين مدح له، وذلك جائز في الرسول كما يجوز أن يخبر عن نفسه بأنّه رسول الله، وإنّما جاز أن يخبر بذلك لقيام الدلالة على عصمته من القبائح. وغيره لا يجوز أن يخبر بذلك عن نفسه، لجواز الخطأ عليه.

وأخبر أيضاً أنّه قال لهم: ﴿فاتّقُوا اللهَ﴾ واجتنبوا معاصيه ﴿وأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأدعوكم إليه، ولست أسألكم على ما أدّيته إليكم وأدعوكم إليه أجراً ولا ثواباً، لأنّه ليس أجري إلّا على الله الّذي خلق العالمين. وإنّما حكى الله تعالى دعوة الأنبياء بصيغة واحدة ولفظ واحد إشعاراً بأنّ الحقّ الّذي يأتي به الرسل ويدعون إليه واحد من اتّقاء الله تعالى واجتناب

معاصيه وإخلاص عبادته وطاعة رسله، وأنّ أنبياء الله لا يكونون إلّا أُمناء لله، وأنّه لا يجوز على واحد منهم أن يأخذ الأجر على رسالته، لما في ذلك من التنفير عن قبول قولهم والمصير إليه إلى تصديقهم.

ثمّ قال لهم منكراً عليهم: ﴿أَتأتُونَ الذُكْرَانَ مِنَ الْعالَمينَ﴾ ؟! يعني من جملة الخلائق ﴿وَتَذرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِن أزواجِكُمْ﴾ أي وتتركون ما خلقه لكم من الأزواج والنساء، وتذرون استغني في ماضيه بـ«ترك» ولا يستعمل إلّا في ضرورة الشعر.

و«الزوجة» المرأة الّتي وقع عليها العقد بالنكاح الصحيح، يقال: زوجة وزوج، قال الله تعالى: ﴿اسكُنْ أنتَ وَزَوجُكَ الجَنَّةَ﴾ (١).

ثمّ قال لهم منكراً عليهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ﴾ أي خارجون عن الحقّ تعدون منه. و«العادي» و«الظالم» و«الجائر» نظائر، و«العادي» من العدوان. وقد يكون من العدو، وهو الإسراع في السعي، فقال له قومه في جوابه: ﴿لَئِن لَمْ تَنْتَهِ﴾ وترجع عمّا تقوله ﴿يا لوطُ﴾ وتدعونا إليه وتنهانا عنه ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ المُخْرَجينَ﴾ أي نخرجك من بيننا وعن بلدنا، فقال لهم لوط عند ذلك: ﴿إنّي لِعَمَلِكُمْ من القالِينَ﴾ يعني من المبغضين. قلاه يقليه: إذا أبغضه.

ثمّ دعا لوط ربّه فقال: ﴿رَبِّ نَجِّني وأَهلِي مِمّا يَعْمَلوُنَ﴾ أي من عاقبة ما يعملونه، وهو العذاب النازل لهم فأجاب الله دعاءه وقال: ﴿فَنجَّيناهُ وأهلَهُ أجمَعِينَ﴾ يعني من العذاب الّذي وقع بهم. وقد يجوز أن يكون أراد النجاة من نفس عملهم، بأن يفعل لهم من اللطف ما يجتنبون مثل أفعالهم، وتكون النجاة من العذاب النازل بهم تبعاً لذلك.

واستثنى من جملة أهله الّذين نجّاهم عجوزاً فإنّه أهلكها. وقيل: إنّها

---

(١) البقرة: ٣٥.

كانت امرأة لوط تدلّ قومه على أضيافه ﴿في الغابِرينَ﴾ يعني الباقين فيمن هلك من قوم لوط، لأنّه قيل: هلكت هي فيما بعد مع من خرج عن القرية بما أمطر الله عليهم من الحجارة. وقيل أُهلكوا بالخسف، وقيل بالائتفاك وهو الانقلاب. ثمّ أمطر على من كان غائباً منهم عن القرية من السماء حجارة، قال الشاعر في الغابر:

فَما ونى محمدٌ مُذْ أَنْ غَفرْ لَهُ الإلهُ ما مضى وما غَبَرْ[1]

وقال الشاعر:

لا تَكْسَعِ الشَوْلِ بأَغبارِها إنّكَ لا تَدرِي مَنِ الناتِجُ[2]

فأغبارها بقيّة لبنها في أخلافها، و«الغابر» الباقي في قلّة، كالتراب الّذي يذهب بالكنس ويبقى غباره، غبر يغبر فهو غابر، وغبر الجصّ بقيّته. وغبر من الغبار تغبيراً، وتغبّر تغبّراً. و«العجوز» المرأة الّتي قد أعجزها الكبر عن أُمور كثيرة، ومثله الكبيرة والمسنّة.

وقوله: ﴿ثمّ دَمَّرْنَا الآخَرينَ﴾ فالتدمير هو الإهلاك بأهول الأُمور، دمّره تدميراً، ومثله تبّره تتبيراً، ودمّر عليه يدمّر دمراً؛ إذا هجم عليه بالمكروه، والدامر الهالك.

وقوله: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ فالإمطار الإتيان بالقطر العامّ من السماء، وشبّه به إمطار الحجارة والإهلاك بالإمطار عقاب اتي الذكران من العالمين. ﴿فَسآءَ مَطَرُ المُنذَرينَ﴾ سمّاه سوءًا وإن كان حسناً لأنّه كان فيه هلاك القوم. ثمّ قال: ﴿إنَّ في ذَلكَ لآيةً﴾ أي دلالة ﴿وَما كَانَ أكثَرُهُمْ مُؤمِنينَ * وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزيزَ الرَحِيمُ﴾ وقد فسّرناه.

---

(١) أنشده الزجّاج في معاني القرآن ٤: ٩٩، ونسبه إلى العجّاج.

(٢) للشاعر الحارث بن حلزة، راجع ديوانه: ٦٥.

قوله تعالى:

كَذَّبَ أصحَابُ الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إنّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْئَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ إنْ أجريَ إلّا عَلىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوفُوا الكَيْلَ وَلا تَكونُوا مِنَ المُخْسرين ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُستَقيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاس أشياءَهُمْ وَلا تَعثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذي خَلَقَكُمْ وَالجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إنَّمَا أنتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَما أَنْتَ إلّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإن نَظُنُّكَ لَمنَ الكَاذِبينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّماء إنْ كنت مِنَ الصَّادِقينَ ﴿١٨٧﴾ قَال رَبِي أعْلمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْم الظُّلَّةِ إنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إنَّ في ذلكَ لآيَةً وَمَا كان أكثَرُهُمْ مُؤمِنينَ ﴿١٩٠﴾ وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزيزُ الرَّحيمُ ﴿١٩١﴾ ستّ عشرة آيةً بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر ﴿أصحابُ لَيْكَةَ﴾ على أنّه اسم المدينة معرفة لا ينصرف. قال أبو عليّ الفارسي: الأجود أن يكون ذلك على تخفيف الهمزة، مثل لَحْمَرُ ونصبه يضعف، لأنّه يكون نصب حرف الإعراب في موضع الجرّ مع لام التعريف[1] وذلك لا يجوز. وحجّة من قرأ بذلك أنّه في المصحف بلا ألف. وقالوا: هو اسم المدينة بعينها. الباقون ﴿أصحابُ الأيكَةِ﴾ بالألف واللام مطلقاً مضافاً. ومثله الخلاف في ص. وقرأ أبو حفص ﴿كسفاً﴾ بفتح السين هاهنا وفي «سبأ» الباقون بإسكانها.

حكى الله تعالى أنّ قوم شعيب ـ وهم أصحاب الأيكة ـ كذّبوا المرسلين في دعائهم إلى خلع الأنداد وإخلاص العبادة له. و«الأيكة» الغيضة ذات الشجر الملتفّ. وجمعه الأيك، قال النابغة الذبياني:

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢٢٥.

تَجْلُو بقادِمَتَيْ حَمامةِ أَيكَـةٍ بَرَداً أُسِفَّ لثاتُهُ بـالإثمِدِ[١]

وقال ابن عبّاس وابن زيد: أصحاب الأيك هم أهل مَدْيَن. وإنّما قال ﴿إذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيبٌ﴾ ولم يقل أخوهم ـ كما قال في سائر من تـقدّم مـن الأنبياء ـ لأنّه لم يكن منهم في النسب وسائر من تقدّم كانوا مـنهم فـي النسب إلّا موسى فإنّه كان من بني إسرائيل، وكانوا هم قبطاً ولم يسمّه الله بأنّه أخوهم. ثمّ حكى عن شعيب أنّه قال لقومه مثل ما قاله سائر الأنبياء وقد فسّرناه. ثمّ قال لهم: ﴿أوفُوا الكَيْلَ﴾ أي أعـطوا الواجب وافـياً غـير ناقص، ويدخل الوفاء في الكيل والذرع والعدد، يقال: أوفى يوفي إيـفاءً ووفاءً. ونهاهم أن يكونوا من المخسرين، فالمخسر المعرض للخسران في رأس المال بالنقصان، أخسر يخسر إخساراً: إذا جعله يـخسر فـي مـاله، وخسر هو يخسر خسراناً، وأخسـره نـقيض أربـحه. وأمـرهم أن يـزنوا بالقسطاس المستقيم، فالوزن وضع شي بإزاء المعيار، لما يظهر منزلته منه في ثقل المقدار إمّا بالزيادة أو النقصان أو التساوي. و«القسطاس» العدل في التقويم على المقدار، وهو على وزن «قرطاط» وجمعه قراطيط. وقال الحسن: القسطاس القبّان. وقال غيره: هو الميزان. وقال قوم: هـو العـدل والسواء، ذكره أبو عبيدة[٢].

ثمّ قال لهم: ﴿ولا تَبْخَسُوا الناسَ أشياءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوها ﴿ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفْسِدينَ﴾ قال قوم: لا تعثوا فيها بالمعاصي. وقـال سـعيد بـن المسيّب: معناه لا تفسدوا فيها بعد إصلاحها. وقال أبو عـبيدة: عـثا يـعثا عثواً، وهو أشدّ الفساد بالخراب[٣]. وقال غيره: عثا يعثو عثواً وعاث يعيث

---

(١) ديوان النابغة الذبياني: ١٤٧.

(٢) مجاز القرآن ٢: ٩٠.

(٣) مجاز القرآن ٢: ٩٠.

عيثاً. ثمّ قال لهم: ﴿واتّقُوا الّذي خَلَقكُمْ﴾ وأوجدكم بعد العدم ﴿والجِبِلَّةَ الأوَّلِينَ﴾ فالجبلّة الخليقة الّتي طبع عليها الشيء بكسر الجيم، وقيل أيضاً بضمّها ويسقطون الهاء أيضاً فيخفّفون. ومنه قوله: ﴿وَلَقَدْ أضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثيراً﴾(١). وقال أبو ذؤيب:

مَنايا يُقَرِّبنَ الحُتوفَ لأهلها جِهاراً ويَسْتَمْتعنَ بالأنَسِ الجِبْلِ(٢)

ومعناه اتّقوا خليقة الأوّلين في عبادة غير الله والإشراك معه، فهو عطف على «الّذي» فيها، ولا يجوز أن يكون منصوباً بـ«خلقكم» لأنّ الله تعالى لم يخلق كفرهم ولا ضلالهم، وإن جعلته منصوباً بـ«خلقكم» على أن يكون المعنى اتّقوا الله الّذي خلقكم وخلق الخلق الأوّلين كان جائزاً، وأخلصوا العبادة للّه. فقالوا في الجواب له: ﴿إنّما أنتَ مِنَ المُسحَّرِينَ﴾ وقد فسّرناه.

﴿وما أَنتَ إلاّ بَشَرٌ مثْلُنا﴾ أي مخلوقاً من الناس مثلنا، ولست بملك حتّى يكون لك فضل علينا. و«البشر» هو الإنسان، والإنسان مشتقّ من الإنْس، ووزنه «فعليان» والأصل إنْسِيان غير أنّه حذف منه الياء، فلما صغر ردّ إلى أصله، فقيل: إنسيان. والبشر من البشرة الظاهرة. و«المثل» و«الشبه» واحد.

و﴿إنْ نَظُنُّكَ لِمَن الكاذِبينَ﴾ معناه أنّا نحسبك كاذباً من جملة الكاذبين. و«إن» هي المخفّفة من الثقيلة، ولذلك دخلت اللام في الخبر.

ثمّ قالوا له: إن كنت صادقاً ومحقّاً في دعواك ﴿فأسقِطْ عَلَينا كِسَفاً مِنَ السَماءِ﴾ أي قطعاً في قول ابن عبّاس. وهو جمع كسفة، ومثله تمرة وتمر، فقال لهم في الجواب عن ذلك: ﴿رَبّي أعلم بِما تَعمَلُونَ﴾ ومعناه أنّه إن كان

---

(١) يس: ٦٢.

(٢) أنشده ابن دريد في جمهرة اللغة ١: ٢١٢، مادّة «جبل».

في معلومه أنّه: متى بقّاكم وأنّكم تتوبون أو يتوب تائب منكم لم يقتطعكم بالعذاب، وإن كان في معلومه أنّه لا يفلح واحد منكم فسيأتيكم عذاب الاستئصال.

ثمّ قال تعالى: ﴿فكَذَّبُوهُ﴾ يعني قوم شعيب كذّبوا شعيباً فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلّة، وهي سحابة رفعت لهم، فلمّا خرجوا إليها طلباً لبردها من شدّة ما أصابهم من الحرّ مطرت عليهم ناراً فأحرقتهم، فهؤلاء أصحاب الظلّة وهم غير أهل مدين، في قول قتادة، قال: أُرسل شعيب إلى أُمّتين.

﴿إنّ في ذَلكَ لآيَةً وما كانَ أكثرُهُمْ مُؤمِنينَ * وإنَّ رَبَّك لَهُوَ العَزيزُ الرَحيمُ﴾ " وقد فسّرناه، وإنّما كرّر ﴿وأنّ ربّك لَهُوَ العزيزُ الرحيمُ﴾ للبيان عن أنّه رحيم بخلقه عزيز في انتقامه من الكفّار.

قوله تعالى:

وإِنَّهُ لتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمينُ ﴿١٩٣﴾ عَلىٰ قَلبِكَ لِتكون مِنَ المُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَان عَرَبِيّ مُبينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰؤُ بَني إسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلىٰ بَعْضِ الأَعْجَمينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرأهُ عَلَيْهِم مَا كَانُوا بِه مُؤمِنينَ ﴿١٩٩﴾ كذٰلِكَ سَلَكْنَاهُ في قُلُوبِ الْمُجْرمينَ ﴿٢٠٠﴾ لا يُؤمِنُونَ به حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأليمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أفَرَأَيْتَ إنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ستّ عشرة آيةً بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وأهل الكوفة إلّا حفصاً ويعقوب ﴿نزّل به﴾ بتشديد الزاي وفتحها ﴿الروحَ الأمينَ﴾ بالنصب فيهما، الباقون بالتخفيف والرفع فيهما.

وقرأ ابن عامر ﴿أوَ لم تكن﴾ بالتاء ﴿آية﴾ بالرفع، الباقون بالياء،

ونصب ﴿آية﴾

من شدّد الزاي فلقوله: ﴿فإنّه نَزَّلَهُ على قَلبِكَ بإذنِ اللهِ﴾[(١)] ﴿وإنّه لتنزيلُ رَبِّ العالمينَ﴾ ومن خفّف فلأنّ التنزيل فعل الله، وهذا فعل جبرائيل، يقال: نزل الله جبرائيل، ونزل جبرائيل. فأمّا قوله: ﴿فإنّه نزّلهُ على قَلبِكَ بإذنِ اللهِ مُصَدّقاً﴾ بالتشديد فلأجل حذف الباء، لأنّك تقول: نزلت به وأنزلته. ومن شدّد فإنّه أضاف الفعل إلى الله. ومن خفّف أضاف الفعل إلى جبرائيل عليه السلام

ومن قرأ ﴿أو لم تكن﴾ بالتاء ورفع ﴿آية﴾ جعلها اسم «كان» وخبره ﴿أن يَعلَمَهُ﴾ لأنّ «أن» مع الفعل بمنزلة المصدر، وتقديره: أو لم تكن لهم آية معجزة ودلالة ظاهرة علم بني إسرائيل بمحمّد في الكتب، يعني كتب الأنبياء عليهم السلام قبله أنّه نبيّ، وأنّ هذا القرآن من عند الله، لكنّه لمّا جاءهم ما عرفوه على بصيرة كفروا به.

ومن قرأ بالياء ونصب ﴿آية﴾ جعلها خبر «كان» واسمه ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ وهو الأقوى في العربيّة، لأنّ ﴿آية﴾ نكرة، و ﴿أن يعلمه﴾ معرفة، وإذا اجتمعت معرفة ونكرة اختير أن يكون المعرفة اسم «كان» والنكرة خبرها، وسيبويه لا يجيز غير ذلك إلّا في ضرورة الشعر، كقول حسّان:

كأَنَّ سلافةً من بَيتِ رأسٍ ... يكونُ مِزاجَها عَسَلٌ وماءُ[(٢)]

من بيت رأس معناه من بيت رئيس، فسمّي السيّد رأساً، قال عمرو بن كلثوم:

برأسٍ من بني جُشمِ بن عَمرو[(٣)]

وبيت رأس بيت بالشام، تتّخذ فيه الخمور. و«الهاء» في قوله: ﴿نزّلَهُ...

---

(١) البقرة: ٩٧. (٢) ديوان حسّان ١: ١٧، وفيه: «خبيئة» بدل «سلافة».

(٣) ديوان عمرو بن كلثوم: ٦٢، وفيه: «بكر» بدل «عمرو».

وإنّه لتَنزيلُ﴾ كناية عن القرآن في قول قتادة. وصفه الله تعالى أنّه تنزيل من ربّ العالمين الّذي خلق الخلائق. ووصفه بأنّه تنزيل من ربّ العالمين، تشريف له وتعظيم لشأنه. ثمّ قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الروحُ الأَمينُ﴾ من خفّف أسند الفعل إلى جبرائيل، ولذلك رفعه. ومن ثقّل أسنده إلى الله تعالى، ونصب ﴿الروح الأمين﴾ على أنّه مفعول به. و«الروح الأمين» جبرائيل عليه السلام. وإنّما قال: ﴿على قلبِكَ﴾ لأنّه بقلبه يحفظه فكأنّه المنزل عليه.

و«الروح الأمين» جبرائيل عليه السلام في قول ابن عبّاس والحسن وقتادة والضحّاك وابن جريج. ووصف بأنّه «روح» من ثلاثة وجوه:

أحدها: أنّه تحيا به الأرواح بما ينزل من البركات.

الثاني: لأنّ جسمه روحاني.

الثالث: أنّ الحياة عليه أغلب، فكأنّه روح كلّه.

﴿على قَلبِكَ لِتَكُونَ من المُنذِرينَ﴾ أي أنزل هذا القرآن على قلبك لتخوّف به الناس وتنذرهم. ثمّ عاد إلى وصفه فقال: ﴿وإنّه لَفي زُبُرِ الأوّلِينَ﴾ ومعناه أنّ ذكر القرآن في كتب الأوّلين على وجه البشارة به، لا لأنّ الله أنزله على غير محمّد صلّى الله عليه وآله.

وواحد الزبر زبور، وهي الكتب، تقول: زبرت الكتاب أزبره زبراً: إذا كتبته. وأصله الجمع، ومنه الزبرة الكتبة لأنّها مجتمعة.

ثمّ قال تعالى: ﴿أَولَم يَكُنْ لَهُمْ آيةً﴾ أي دلالة في علم بني إسرائيل واضحة على صحّة أمره. ومن حيث إنّ مجيئه على ما تقدّمت البشارة به بجميع أوصافه لا يكون إلّا من جهة علّام الغيوب. وقيل: من علماء بني إسرائيل عبد الله بن سلام، في قول ابن مسعود وابن عبّاس ومجاهد.

ثمّ قال: ﴿وَلَوْ نَزّلناهُ﴾ يعني القرآن ﴿عَلَى بَعضِ الأعجَمِينَ﴾ قيل: معناه

على أعجم من البهائم أو غيره ما آمنوا به، ذكره عبد الله بن مطيع. وقيل: معناه ﴿لو نَزَّلناهُ عَلى﴾ رجل أعجم اللسان ما آمنوا به ولتكبّروا عليه، لأنّه من غيرهم، وأنّ المعجزة تفارقه، وفي ذلك تسلية للنبيّ ﷺ حين لم يؤمنوا به ولم يقبلوا منه.

ونقيض الأعجم الفصيح، و«الأعجم» الّذي يمتنع لسانه من العربيّة، والعجمي نقيض العربي، وهو نسبة الولادة، قال الشاعر:

من وائلٍ لا حيّ يعدلهم    من سوقه عربٌ ولا عَجَمُ[١]

وإذا قيل: أعجمي فهو منسوب إلى أنّه من الأعجمين الّذين لا يفصحون كما قال العجّاج:

والدهرُ بالإنسان دَوّاري[٢]

فنسبه إلى أنّه من الدوّارين بالإنسان.

وقوله: ﴿كَذلِكَ سَلَكْناهُ في قُلُوبِ المُجرِمِينَ﴾ فالهاء كناية عن القرآن. ومعناه أقررناه في قلوبهم بإخطاره ببالهم لتقوم به الحجّة عليهم، وللّه لطف يوصل به المعنى في الدليل إلى القلب، فمن فكر فيه أدرك الحقّ به. ومن أعرض عنه كان كمن عرف الحقّ وترك العمل به في لزوم الحجّة له.

والفرق بين من أدرك الحقّ لسلوكه في القلب وبين من أدرك بالاضطرار إليه في القلب أنّ الاضطرار إليه يوجد الثقة به، فيكون صاحبه عالماً به. وأمّا بسلوكه فيكون مع الشكّ فيه.

وقال الحسن وابن جريج وابن زيد: كذلك ﴿سَلكْناهُ﴾ أي الكفر.

---

(١) أنشده الطبري في تفسيره ٩: ٤٧٧، ولم ينسبه لأحد، وفيه: «سوقة» بدل «سوقه».

(٢) أنشده الجوهري في الصحاح ٢: ٧٩١ مادّة «قسر» ونسبه للعجّاج، وهو عجز بيت صدره: أطرباً وأنتَ قيسريّ.

ولاوجه لذلك، لأنّه لم يجر ذكره، ولا حجّة فيه، وإنّما الحجّة في القرآن وإخطاره بالبال، فهو أحسن في التأويل.

وقوله: ﴿لا يُؤمِنُونَ بِهِ حتّى يَرَوا العَذابَ الألِيمَ﴾ إخبار منه تعالى عن قوم من الكفّار أنّهم يموتون على كفرهم، بأنّهم لا يؤمنون حتّى شاهدوا العذاب المؤلم، فيصيرون عند ذلك ملجئين إلى الإيمان، ومعنى ﴿حتّى يَرَوا العَذابَ﴾ أي حتّى شاهدوا أسبابه من نيران مؤجّجة لهم يساقون إليها لا يردّهم عنها شيء. ويحتمل حتّى يعلموه في حال حلوله بهم علم ملابسته لهم.

ثمّ قال تعالى: ﴿فَيأْتِيَهُمْ بَغتَةً﴾ ومعناه: أنّ العذاب الّذي يتوقّعونه ويستعجلونه يجيئهم فجأة. و«البغتة» حصول الأمر العظيم الشأن من غير توقّع بتقديم الأسباب، وقيل: البغتة الفجأة والبادرة، بغته الأمر يبغته بغتاً وبغتةً، قال الشاعر:

وأفضَعُ شيءٍ حينَ يفجؤُكَ البَغْتُ(١)

وأتاه الأمر بغتة نقيض أتاه عن تقدمة. ﴿وهُمْ لا يَشْعُرونَ﴾ أي لايعلمون و«الشعور» هو العلم بما يلطف لطف الشعر.

ثمّ أخبر تعالى أنّه إذا جاءهم العذاب بغتة قالوا: ﴿هَلْ نَحنُ مُنظَرُونَ﴾ أي مؤخّرون، فقال الله تعالى: ﴿أَفبِعذابِنا يَستَعجِلُونَ﴾ على وجه التوبيخ لهم والإنكار عليهم. ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿أفرأيتَ﴾ يا محمّد ﴿إنْ متّعْناهُمْ سِنين * ثمّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ﴾ به من العذاب ﴿ما أَغنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمتَّعُونَ﴾ معناه أنّه لم يغنِ عنهم ما كانوا يمتّعون، لازديادهم من الآثام، واكتسابهم من الأجرام، أي أيّ شيء يغني عنهم ما يمتّعوا به من النعم، لأنّه فانٍ

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ١: ١٩٣، ونسبه إلى يزيد بن ضبّة، وهو عجز لبيت صدره:
ولكنّهم بانوا ولم أدرِ بغتةً.

كلّه[١] و«الإغناء عن الشيء» صرف المكروه عنه بما يكفي عن غيره. والغنى به نقيض الغنى عنه، فالإغناء عنه الصرف عنه، والإغناء به الصرف به. و«الإمتاع» إحضار النفس مافيه اللذّةبإدراكالحاسّة. يقال: أمتعه بالرياحين والطيب، وأمتعه بالنزه والبساتين، وأمتعه بالمال والبنين، وأمتعه بالحديث الظريف.

قوله تعالى:

وَمَا أهلَكْنَا مِنْ قرْيَةٍ إلّا لها مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطيعُونَ ﴿٢١١﴾ إنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المُعَذَّبينَ ﴿٢١٣﴾ وَأنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إنّي بَريءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزيزِ الرَّحيمِ ﴿٢١٧﴾ الّذي يَرٰيكَ حَينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدينَ ﴿٢١٩﴾ إنَّهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ ﴿٢٢٠﴾

اثنتا عشرة آيةً [في] المكّي والمدني الآخر، وثلاث عشرة آية فيما عداه، عدّوا ﴿الشياطين﴾ ولم يعدّها الأوّل.

يقول الله تعالى: ﴿وما أهلَكْنا مِن﴾ أهل ﴿قَريةٍ﴾ بالعذاب الّذي أنزلناه عليهم فيما مضى من الأُمم السالفة ﴿إلّا﴾ وكان ﴿لَها مُنذِرُونَ﴾ يخوّفونهم بالله ويحذّرونهم معاصيه. وقوله: ﴿ذِكرى ومَا كنّا ظَالِمينَ﴾ معناه ذاك الّذي قصصناه من إنزال العذاب بالأُمم الخالية ﴿ذكرى﴾ لكم تتّعظون بها. ثمّ بيّن أنّذلك كان عدلاً، ليكون أشدّ في الزجر، وأنّ الله تعالى لم يكن ظالماً لأحد.

وموضع «ذكرى» يجوز أن يكون نصباً بالإنذار، ويجوز أن يكون رفعاً بالاستئناف على ذلك ذكرى. و«الذكرى» هو إظهار المعنى للنفس تقول:

---

(١) في الحجريّة: «فاتت كلّه».

ذكّرته ذكرى.

وبيّن أنّ ذلك ليس ممّا ينزّل به الشياطين ويغوون به الخلق، بل هو وحي من الله تعالى. ثمّ بيّن أنّه ليس ينبغي للشياطين إنزال ذلك. وأنّهم لا يستطيعون على ذلك. ومعنى ينبغي لك كذا يطلب منك فعله في مقتضى العقل، فتقول: ينبغي لك أن تختار الحسن على القبيح، ولا ينبغي لك أن تختار القبيح على الحسن. وأصله من التبغية الّتي هي الطلب.

وقرأ الحسن ﴿وما تنزّلت به الشياطون﴾ بالواو، ظنّاً منه أنّه مثل «المسلمين». وهذا لحن بلا خلاف، لأنّه جمع تكسير شيطان وشياطين. و«الاستطاعة» هي القدرة الّتي ينطاع بها الفعل للجارحة.

ثمّ قال: ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني الشياطين ﴿عَنِ السَمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ وقيل: معناه أنّهم عن استراق السمع من السماء لمعزولون. وقيل: عن سمع القرآن، في قول قتادة. لمعزولون معناه منحّون، فالعزل تنحية الشيء عن الموضع إلى خلافه، وهو أن يزيله عن أمر إلى نقيضه، كما قال الشاعر:

عَزْلَ الأميرِ بالأميرِ المُبْدَلِ(١)

وإنّما لم ينبغ لهم ذاك لحراسة المعجزة عن أن تتموّه بالباطل، لأنّ الله إذا أراد أن يدلّ بها على صدق الصادق أخلصها بمثل هذه الحراسة، حتّى تصحّ الدلالة.

ثمّ نهى نبيّه صلّى الله عليه وآله والمراد به المكلّفين، فقال: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعذّبِينَ﴾ وتقديره: أنّك إن دعوت معه إلهاً آخر كنت من المعذّبين.

ثمّ أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، قيل: إنّما خصّ في الذكر إنذار عشيرته الأقربين لأنّه يبدأ بهم، ثمّ الّذين يلونهم، كما قال تعالى: ﴿قاتِلُوا

---

(١) أنشده أبوعليّ الفارسي في الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٩٨ ولم ينسبه لأحد.

الذينَ يَلُونكُم مِنَ الكُفّارِ﴾ (١) لأنّ ذلك هو الّذي يقتضيه حسن الترتيب.

ويحتمل أن يكون أنذرهم بالإفصاح عن قبيح ما هم عليه وعظم ما يؤدّي إليه من غير تليين بالقول يقتضي تسهيل الأمر، لما يدعو إليه مقاربة العشيرة، بأنّ من نزل بهم الاغلاظ في هذا الباب أهم. وقيل: ذكّر عشيرتك الأقربين أي عرّفهم أنّك لا تغني عنهم من الله شيئاً إن عصوه.

وقيل: إنّما خصّ عشيرته الأقربين لأنّه يمكنه أن يجمعهم ثمّ ينذرهم، وقد فعل صلى الله عليه وآله ذلك والقصّة بذلك مشهورة، فإنّه روي (٢) أنّه أمر صلى الله عليه وآله عليّاً بأن يصنع طعاماً ثمّ دعا عليه بني عبد مناف وأطعمهم الطعام، ثمّ قال لهم: أيّكم يؤازرني على هذا الأمر يكن وزيري وأخي ووصيّي، فلم يجبه أحد إلّا عليّ عليه السلام. والقصّة في ذلك معروفة.

ثمّ أمره صلى الله عليه وآله بأن يخفض جناحه للمؤمنين الّذين اتّبعوه، ومعناه ألن جانبك وتواضع لهم وحسّن أخلاقك معهم، ذكره ابن زيد.

ثمّ قال: ﴿فإنْ عَصَوْكَ﴾ يعني أقاربك بعد إنذارك إيّاهم وخالفوك فيما تدعوهم إليه إلى ما يكرهه الله، فقل لهم: ﴿إنّي بَرِيءٌ ممّا تَعْمَلُونَ﴾ أي من أعمالكم القبيحة وعبادتكم للأصنام. و«البراءة» المباعدة من النصرة عند الحاجة، فإذا برئ من العمل فقد تباعد من النصرة عليه أو الممالاة. ثمّ أمره عليه السلام أن يتوكّل على العزيز الرحيم، ومعناه أن يفوّض أمره إلى من يدبّره. والتوكّل على الله من الإيمان، لأنّه أمر به وحثّ عليه.

﴿على العَزيزِ الرَحيمِ﴾ يعني القادر الّذي لا يغالب ولا يعاز، الكبير الرحمة الواسع النعمة على خَلقه ﴿الّذي يَراكَ﴾ يا محمّد ﴿حِينَ تَقُومُ وتَقَلُّبَكَ في الساجِدينَ﴾ أي تصرّفك في المصلّين بالركوع والسجود والقيام والقعود،

---

(١) التوبة: ١٢٣. (٢) انظر تفسير القمّي ٢: ١٢٤، تفسير الطبري ٩: ٤٨٣، الكشف والبيان ٧: ١٨٢.

في قول ابن عبّاس وقتادة.

وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس أنّ معناه أنّه أخرجك من نـبيّ إلى نبيّ حين أخرجك نبيّاً. وقيل: معناه يراك حـين تـصلّي وحـدك، وحـين تصلّي في جماعة. وقال قوم من أصحابنا: إنّه أراد تقلّبه من آدم إلى أبيه عبد الله في ظهور الموحّدين لم يكن فيهم من يسجد لغير الله.

والرؤية ـ هاهنا ـ هي إدراك البصر دون رؤيـة القـلب، لأنّ «رأيت» بمعنى علمت لا يتعدّى إلى مفعول واحد، فهي من رؤية البصر، ثمّ قـال: ﴿إنّه هُوَ السَميعُ العَلِيمُ﴾ أي يسمع ما تتلو في صلاتك، العليم بما تضمر فيها.

وقيل: معنى ﴿وَتَوكَّلْ عَلى العَزِيزِ الرَحيمِ﴾ ليظهرك على كيد أعدائك الّذين عصوك فيما أمرتهم به. وقرأ ابن عامر ونافع ﴿فَتَوكَّلْ﴾ بالفاء لأنّ في مصاحف أهل المدينة والشام كذلك، الباقون بالواو. وكذلك هو في مصاحفهم.

و«التوكّل على الله» هو أن يقطع العبد جميع آماله من المخلوقين إلّا منه تعالى، ويقطع رغبته من كلّ أحد إلّا إليه. فإذا كان كذلك رزقه الله من حيث لا يحتسب.

قوله تعالى:

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ سبع آياتٍ بلا خلاف.

لمّا أخبر الله تعالى أنّ القرآن ليس ممّا تنزّل به الشياطين، وأنّه وحي من الله تعالى على نبيّه نبّه خلقه على من تنزّل الشياطين عليه بقوله: ﴿هل

أُنبِّئكُمْ﴾ أي هل أُخبركم ﴿عَلى مَن تَنَزَّلُ الشَياطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفّاكٍ أثيمٍ﴾ أي كذّاب أثيم. وقال مجاهد: الأفّاك الكذّاب. ومعناه الكثير الكذب، والقلب للخبر من جهة الصدق إلى الكذب، وأصله الانقلاب من المؤتفكات وهي المنقلبات. و«الإنباء» الإخبار بما فيه من الغيوب وعظم الشأن، ومنه قولهم: لهذا الأمر نبأ، ومنه اشتقّ وصف الرسول بأنّه نبيّ بعظم شأن ما أتى به من الوحي من الله. و«الآثم» الفاعل للقبيح، أثم يأثم إثماً: إذا ارتكب القبيح، وتأثّم: إذا ترك الإثم مثل تحوّب: إذا ترك الحوب، وأثّمه تأثيماً: إذا نسبه إلى الإثم. ثمّ قال: ﴿يُلقُونَ السَمْعَ﴾ أي يلقون ما يسمعون باستراق السمع إلى كلّ أفاك أثيم، في قول مجاهد. ثمّ أخبر تعالى أنّ أكثرهم كاذبون فيما يلقونه إليهم.

وقوله: ﴿والشعَراءُ يَتّبِعُهُمُ الغاوون﴾ قال الحسن: هم الّذين يسترقون السمع ويلقونه إلى الكهنة، وقال: إنّما يأخذون أخباراً عن الوحي. ﴿إنّهم عَنِ السَمْعِ لَمعزُولُونَ﴾ [1] أي عن سمع الوحي. وقيل: إنّ الشعراء المراد به القصّاص الّذين يكذّبون في قصصهم ويقولون ما يخطر ببالهم.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وادٍ يَهيمُونَ﴾ أي هم لما يغلب عليهم من الهوى كالهائم على وجهه في كلّ وادٍ يعنّ له، وليس هذا من صفة مَنْ عليه السكينة والوقار ومن هو موصوف بالحلم والعقل.

والمعنى أنّهم يخوضون في كلّ فنّ من الكلام والمعاني الّتي يعنّ لهم ويريدونه. وقال ابن عبّاس وقتادة: معناه في كلّ لغو يخوضون: يمدحون ويذمّون، يعنون الباطل. وقال الجبّائي: معناه يصغون إلى ما يلقيه الشيطان إليهم على جهة الوسوسة لما يدعوهم إليه من الكفر والضلال.

---

(١) كذا في النسخ وقد تقدّمت الآية الشريفة وتقدّم تفسيرها آنفاً.

وقيل: إنّما صار الأغلب على الشعراء الغيّ باتّباع الهوى لأنّ الّذي يثير الشعر ـ في الأكثر ـ الفسق، ولذلك يقبح التشبيب، مع أنّ الشاعر يمدح للصلة ويهجو على جهة الحمية فيدعوه ذلك إلى الكذب، ووصف الإنسان بما ليس فيه من الفضائل والرذائل.

وقرأ نافع ﴿يتبعهم﴾ بتخفيف التاء من تبعه: إذا اقتفى أثره، يقال: تبع فلاناً: إذا سار في أثره، وأتبعه لحقه. الباقون: بالتشديد من الاتّباع، ومعناهما واحد.

والآية قيل: نزلت في الشعراء الّذين هجوا رسول الله ﷺ والمؤمنين، وهي تتناول كلّ شاعر يكذّب في شعره، ذكره الفرّاء[1] وقيل: إنّها نزلت في ابن الزبعري وأمثاله.

ثمّ أخبر أنّ هؤلاء الشعراء يقولون ويحثّون على أشياء لا يفعلونها هم وينهون عن أشياء يرتكبونها، ثمّ استثنى من جملتهم الّذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، فاجتنبوا معاصيه، وانتصروا ـ لنفوسهم في الدين ـ من الّذين ظلموهم. وقيل: أراد الشعراء الّذين ردّوا على المشركين هجاءهم للمؤمنين، فانتصروا بذلك للنبيّ والمؤمنين.

ثمّ هدّد الظالمين فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ نفوسهم ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أي أيّ منصرف ينصرفون إليه، لأنّ منصرفهم إلى النار، نعوذ بالله منها. وقيل: أراد الّذين ظلموا نفوسهم بقول الشعر الباطل، من هجو النبيّ والمؤمنين، ومن يكذّب في شعره.

وقوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ نصب «أي» بـ«ينقلبون» ولا يجوز أن يكون منصوباً بـ«سيعلم» لأنّ أيًّا لا يعمل فيها ما قبلها، لأنّ الاستفهام له صدر الكلام حتّى ينفصل من الخبر بذلك وغيره من ضروب الكلام.

(١) معاني القرآن ٢: ٢٨٥.

# سورة النمل

مكّية بلا خلاف، وهي خمس وتسعون آية حجازي، وأربع وتسعون آية بصري وشامي، وثلاث وتسعون آية في عدد الكوفيّين

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى:

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قد بيّنّا معنى الحروف الّتي في أوائل السور فيما تقدّم بمالا نحتاج معه إلى إعادته، وقد بيّنّا قول من قال إنّها أسماء للسور. وقال قوم: ﴿طسٓ﴾ اسم من أسماء القرآن.

وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما وعدوا بمجيئه من القرآن. وقيل: إنّ ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى «هذا» وآيات القرآن هي القرآن، وإنّما أضافها إليه كما قال: ﴿إنّه لَحَقُّ اليَقِينِ﴾ [1].

---

(١) الحاقّة: ٥١.

والقرآن والكتاب معناهما واحد، ووصفه بالوصفين ليفيد أنّه ممّا يظهر بالقراءة ويظهر بالكتابة، وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعاً، وذلك يبطل قول من قال: إنّ كلام الله شيء واحد لا يتصرّف بالقراءة والكتابة. ووصفه بأنّه مبين تشبيه له بالناطق بكذا، وإذا وصفه بأنّه بيان جرى مجرى وصفه له بالنطق بكذا في ظهور المعنى به للنفس.

و«البيان» هو الدلالة الّتي تبيّن بها الأشياء. و«المبيّن» المظهر، وحكم القرآن الموعظة بما فيها من الترغيب والترهيب والحجّة الداعية إلى الحقّ الصارفة عن الباطل، وأحكام الشريعة الّتي فيها مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، والمصلحة فيما يجب من حقّ النعمة لله تعالى ما يؤدّي إلى الثواب ويؤمن من العقاب.

ثمّ وصفه بأنّه ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ وموضع ﴿هُدًى﴾ نصب على الحال، وتقديره: هادياً ومبشّراً، ويجوز أن يكون رفعاً على تقدير: هو هدى وبشرى للمؤمنين، والمعنى أنّ ما فيه من البيان والبرهان يهديهم إلى الحقّ، وما لهم في وجه كونه معجزاً لهم من اللطف يؤدّيهم إلى الثواب ويبشّرهم بالجنّة.

ثمّ وصف المؤمنين الّذين القرآن بشراهم بأنّهم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ بحدودها ويدومون على أوقاتها ويخرجون ما يجب عليهم من الزكاة في أموالهم إلى مستحقّها، وهم مع ذلك يوقنون بالآخرة ويصدّقون بها.

ثمّ وصف تعالى من خالف ذلك ولم يصدّق بالآخرة، فقال: ﴿إنّ الذِينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخِرَةَ زَيّنّا لَهُمْ أعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعمَهُونَ﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: قال الحسن والجبّائي: زيّنّا لهم أعمالهم الّتي أمرناهم بها، فهم يتحيّرون بالذهاب عنها.

الثاني: زيّـنّا لهم أعمالهم بخلقنا فيهم شهوة القبيح الداعية لهم إلى فعل المعاصي ليجتنبوا المشتهى فهم يعمهون عن هـذا المـعنى، أي يـتحيّرون بالذهاب عنها.

ثمّ أخبر تعالى أنّ من وصفه بذلك ﴿لهم سُوءُ العَذابِ﴾ ووصفه بـأنّه سوء لما فيه مـن الألم ﴿وَهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الأخسَرُونَ﴾ لأنـّهم يـخسرون الثواب ويحصل لهم بدلاً منه العقاب فهو أخسر صفقة تكون.

قوله تعالى:

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ستّ آياتٍ بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة ﴿بِشِهَابٍ قَبَس﴾ منوّن غـير مـضاف جـعلوا ﴿قَبَساً﴾ صفة للشهاب على تقدير منوّر، الباقون بالإضافة على تقدير نار.

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيّه مـحمّد ﷺ: ﴿إنّكَ﴾ يـا مـحمّد ﴿لَتُلقَّى القُرآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَليمٍ﴾ أي إنّك لتعطى، لأنّ الملك يلقيه إليه من قـبل الله تعالى، من عند حكيم بصير بالصواب من الخطاء فـي تـدبير الأمـور بما يستحقّ به التعظيم. وقد يفيد «الحكـيم» العـامل بـالصواب المـحكم للأُمور المتقن لها.

و«عليم» بمعنى عالم إلّا أنّ فيه مبالغة. وقال الرماني: هو مثل سامع وسميع، فوصفنا له بأنّه عالم يفيد أنّ له معلوماً، كما أنّ وصفه بأنّه سامع

يفيد بأنّ له مسموعاً ووصفه بأنّه عليم يفيد أنّه متى صحّ معلومه فهو عليم به، كما أنّ «سميعاً» يفيد أنّه متى وجد مسموع لابدّ أن يكون سامعاً.

وقوله: ﴿إذْ قالَ مُوسَى لأهْلِهِ﴾ قال الزجّاج: العامل في إذ «اذكر» وهو منصوب به[١]. وقال غيره: هو منصوب بـ«عليم» إذ قال ﴿إنّي آنَسْتُ ناراً﴾ فالإيناس الإحساس بالشيء من جهة يؤنس بها آنست كذا، إيناساً وما آنستَ به فقد أحسستَ به، مع سكون نفسك إليه.

﴿سَأتيكُم منْها بِخَبَرٍ﴾ يعني بمن يدلّ على الطريق [ويهدينا] إليه، لأنّه كان قد ضلّ ﴿أو آتيكُم بِشهَابٍ قَبَس﴾ قيل: لأنّهم كانوا قد أصابهم البرد، وكان شتاء فلذلك طلب ناراً.

و«الشهاب» نور كالعمود من النار، وجمعه شهب. وقيل للكوكب الّذي يمتدّ وينقضّ: شهاب، وجمعه شهب، وكلّ نور يمتدّ مثل العمود يسمّى شهاباً. و«القبس» القطعة من النار، قال الشاعر:

فــي كــفّهِ صَــعْدةٌ مـثقَّفةٌ    فيها سِنانٌ كشُعلةِ القَبَسِ[٢]

ومنه قيل: اقتبس النار اقتباساً: أي أخذ منها شعلة، واقتبس منه علماً: أي أخذ منه نوراً يستضيء به كما يستضيء بالنار ﴿لَعلَّكُمْ تَصطَلُونَ﴾ معناه لكي تصطلوا، ومعناه لتدفئوا، و«الاصطلاء» التدفّي بالنار، وصلى النار يصلي صلاً: إذا لزمها، فأصله اللزوم. وقيل: الصلاة منه، للزوم الدعاء فيها. والمصلّي الثاني بعد السابق، للزومه وصلاً السابق. وإنّما قال لامرأته: ﴿لَعلّي آتيكُمْ﴾[٣] لأنّه أقامها مقام الجماعة في الأُنس بها والسكون إليها في الأمكنة الموحشة. ويجوز أن يكون على طريق الكناية على هذا التأويل.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ١٠٨.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٩٢، ولم ينسبه لأحد.

(٣) طه: ١٠.

وقوله: ﴿فَلما جَاءَها﴾ معناه يعني النار ﴿نُودِيَ أنْ بُورِكَ مَنْ في النارِ ومَنْ حَوْلَها﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: بورك نور الله الّذي في النار وحسن ذلك، لأنّه ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار، في قول ابن عبّاس وسعيد بن جبير وقتادة والحسن.

الثاني: الملائكة الّذين وكّلهم الله بها على ما يقتضيه ﴿ومَنْ حَوْلَها﴾ في قول أبي عليّ الجبّائي، ولا خلاف أنّ الّذين حولها هم الملائكة الّذين وكّلوا بها. ﴿وسبحان الله ربّ العالمين﴾.

وقوله: ﴿أن بُورِكَ﴾ يحتمل أن يكون نصباً على نودي موسى بأن بورك، ويحتمل الرفع على نودي البركة و«البركة» ثبوت الخير النامي بالشيء. قال الفرّاء العرب تقول: بارك الله، وبورك فيك[١].

وقوله: ﴿إنَّه أنا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ معناه أنّ الله قال لموسى: إنّ الّذي يكلّمك هو الله العزيز القادر الّذي لا يغالب، الحكيم في أفعاله، المنزّه من القبائح. قال الفرّاء: الهاء في قوله: ﴿إنّه﴾ عماد[٢] ويسمّيها البصريّون إضمار الشأن والقصّة. ثمّ أراد أن يتبيّن له دلالة يعلم بها صحّة النداء، فقال: ﴿وألْقِ عَصاكَ﴾ من يدك، وفي الكلام حذف، وهو أنّه ألقى عصاه وصارت حيّة ﴿فَلما رآها تَهتَزُّ كَأنّها جانٌّ﴾ وهي الحيّة الصغيرة مشتقّ من الاجتنان، وهو الاستتار، وقال الفرّاء: هي حيّة بين الصغيرة والكبيرة[٣] قال الراجز:

يَرْفَعهنَ بالليلِ إذا ما أَسـدَفا أعنَاقُ جنّانٍ وهاماً رُجَّفا[٤]

ووصف العصا في هذا الموضع ﴿كأنّها جانٌّ﴾ وفي الشعراء بأنّها ثعبان ـ وهي الحيّة الكبيرة ـ لأنّها جمعت صفة الجانّ في اهتزازه وسرعة

(١) معاني القرآن ٢: ٢٨٦، فيها: باركك الله وبارك فيك.
(٢ و٣) معاني القرآن ٢: ٢٨٧.
(٤) أنشده الطبري في تفسيره ٩: ٤٩٨ ولم ينسبه لأحد.

حركته مع أنّه ثعبان في عظمه، ولذلك هاله فـ﴿ولّى مُدْبِراً﴾.

وقيل: إنّها أوّل شيء صارت جانّاً ثمّ تدرّجت إلى أن صارت ثعباناً، وهم يشاهدونها، وذلك أعظم في الإعجاز.

وقيل: إنّ الحالين مختلفان، لأنّ الحال الّتي صارت فيها جانّاً هي الحال الّتي خاطبه الله في أوّل ما بعثه نبيّاً، والحال الّتي صارت ثعباناً هي الحال الّتي لقي فرعون فيها. فلا تنافي بينهما على حال.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ معناه ولم يرجع، في قول قتادة. وقال الجبّائي: معناه لم يرجع على عقبيه. و«المعاقبة» ذهاب واحد ومجيء آخر على وجه المناوبة. وإنّما ولّى منها موسى بِالبشريّة. لا أنّه شكّ في كونها معجزة له ولا يضرّه ذلك.

وقوله: ﴿يا مُوسَى لا تَخَفْ﴾ نداء من الله تعالى لموسى وتسكين منه، ونهي له عن الخوف. وقال له: إنّك مرسل و﴿لا يَخافُ لَديَّ المُرسَلُونَ﴾ لأنّهم لا يفعلون قبيحاً، ولا يخلّون بواجب، فيخافون عقابه عليه، بل هم منزّهون عن جميع ذلك.

وقوله: ﴿إلّا مَنْ ظَلَمَ ثمّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ صورته صورة الاستثناء، وهو منقطع عن الأوّل وتقديره: لكن من ظلم نفسه بفعل القبيح، ثمّ بدّل حسناً بعد سوء، بأن تاب من القبيح وفعل الحسن، فإنّه يغفر له.

وقال قوم: هو استثناء متّصل وأراد من فعل صغيرة من الأنبياء، فعلى هذا يكون الاستثناء متّصلاً، ذكره الحسن. وهذا تأويل بعيد، لأنّ صاحب الصغيرة لا خوف عليه أيضاً لوقوعها مكفّرة، والاستثناء وقع من المرسلين الّذين لا يخافون، فالأوّل هو الصحيح.

وقوله: ﴿ثمّ بدَّلَ حُسناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ معناه ندم على ما فعله من القبيح،

وتاب منه وعزم على أن لا يعود إلى مثله في القبح، فإنّ مَن تلك صورته، فإن الله يغفر له ويستر عليه لأنّه رحيم. وقيل: المعنى ﴿لا يخافُ لَديَّ المرسلون﴾ إنّما الخوف على مَن سواهم.

﴿إلاّ مَن ظَلَم ثُمّ بدَّلَ حُسناً بَعْدَ سُوء﴾ قال الجبّائي: في الآية دلالة على أنّه يسمّى الحسن حسناً قبل وجوده وبعد تقضّيه، وكذلك القبيح، وهذا إنّما يجوز على ضرب من المجاز دون الحقيقة، لأنّ كون الشيء حسناً أو قبيحاً يفيد حدوثه على وجه وذلك لا يصحّ في حال عدمه، وإنّما سمّي بذلك بتقدير: أنّه متى وجد كان كذلك.

وقال قوم: ﴿إلاّ﴾ بمعنى الواو، فكأنّه قال: إنّي لا يخاف لديَّ المرسلون ولا من ظلم ثمّ بدّل حسناً بعد سوء، فإنّي أغفر له.

قوله سبحانه:

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ أربع آياتٍ بلا خلاف.

أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يدخل يده في جيبه. وقيل: أراد كمّه. وقيل: ثيابه ﴿تَخْرُج بَيْضاءَ مِنْ غَيرِ سُوءٍ﴾ يعني من غير برص. وقال المبرّد: السوء إذا أُطلق يراد به البرص، وإذا وصل بشيء فهو كلّ ما يسوء، قال: وتقديره: كأنّ هاتين مع بقيّة الآيات تسع آيات. والتقدير: أدخل يدك في جيبك فإنّ ذلك مع إلقائك العصا وما بعد ذلك من الآيات تسع آيات، كما يقال: جاء فلان في جمع كثير، وهو أحد ذلك الجمع. وقيل: إنّ معنى

«في» من. وقال ابن مسعود: أتى موسى فرعون وعليه جبّة صوف. وقال مجاهد: كان كمّها إلى بعض يده.

وقوله: ﴿إلى فِرْعَونَ﴾ تقديره: مرسلاً إلى فرعون وقومه في تسع آيات. وحذف، كما قال الشاعر:

رأتني بحبليها فَصدَّتْ مخافةً وفي الحبلِ روعاء الفؤادِ فَرُوقُ[1]

أي رأتني مقبلاً بحبليها. ثمّ أخبر تعالى عن فرعون وقومه بأنّهم ﴿كانُوا قَوْماً فاسِقينَ﴾ والآيات التسع الّتي كانت لموسى عليه السلام: قلب العصا حيّة، واليد البيضاء، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، والبحر وانفلاقه، ورفع الطور فوق رؤوسهم، وانفجار الحجر اثنتا عشرة عيناً. وقيل: بدل البحر والجبل الطوفان والطمس، ذكره ابن زيد.

ثمّ أخبر تعالى عن فرعون وقومه أنّه لمّا جاءتهم آيات الله ودلائله مبصرة ـ وقيل في معنى مبصرة: قولان: أحدهما: أنّها تبصر الصواب من الخطأ، يقال: أبصرته وبصّرته بمعنى واحد، كقولك: أكفرته وكفّرته، وأكذبته وكذّبته. الثاني: مبصرة للحقّ من الباطل، فهي تهدي إليه كأنّها تراه ـ قالوا عند ذلك: إنّه هذه الآيات ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر.

ثمّ قال: ﴿وجَحَدُوا بها واستَيقَنَتْها أَنفُسهم ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ والمعنى أنّهم عرفوها وعلموها بقلوبهم، لكنّهم جحدوا بها بألسنتهم طلباً للعلوّ والتكبّر، ففي ذلك دلالة على أنّهم كانوا معاندين، إذ جحدوا ما عرفوا. وقال الرمّاني: لا تدلّ على ذلك، لأنّ معرفتهم كانت بوقوعها على الحقيقة. فأمّا الاستدلال على أنّها من فعل الله ومن قبله ليدلّ بها على صدق من أعطاها إيّاه فبعد العلم بوقوعها. وقال أبو عبيدة: الباء زائدة، والمعنى وجحدوها،

---

(١) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ١: ٢٣٠، ج ٢: ٢٨٨، ولم ينسبه لأحد.

كما قال العجّاج:

نَضْرِبُ بالسيفِ ونَرجُو بالفَرَجْ[١]

وقيل: إنّهم جحدوا ما دلّت عليه من تصديق الرسول، كما تقول: كذّبت به أي بما جاء به.

ثمّ قال تعالى لنبيّه محمّدﷺ: ﴿فانظر﴾ يا محمّد ﴿كَيفَ كَانَ عاقِبَةُ الْمُفسِدِينَ﴾ لأنّ الله أهلكهم وغرقهم ودمّر عليهم.

ثمّ أخبر الله تعالى بأنّه أعطى داود وسليمان علماً من عنده، وأنّهما قالا: ﴿الحَمدُ للهِ الّذي فَضّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ المؤمِنينَ﴾ بأن جعلنا أنبياء واختارنا من بين الخلائق. والعلم الّذي أوتياه قيل: هو علم الأحكام. وقيل: هو العلم بمنطق الطير وكلام البهائم.

قوله سبحانه:

وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ أربعُ آياتٍ بلا خلاف.

أخبر الله تعالى أنّ سليمان ورث داود، واختلفوا فيما ورث منه، فقال أصحابنا: إنّه ورث المال والعلم. وقال مخالفونا: إنّه ورث العلم، لقولهﷺ:

---

(١) أنشده ابن قتيبة في أدب الكاتب: ٥٤٩، ولم ينسبه لأحد.

نحن معاشر الأنبياء لا نورّث[١].

وحقيقة الميراث هو انتقال تركة الماضي بموته إلى الثاني من ذوي قرابته، وحقيقة ذلك في الأعيان، فإذا قيل ذلك في العلم كان مجازاً. وقولهم: العلماء ورثة الأنبياء لما قلنا. والخبر المرويّ عن النبيّ ﷺ خبر واحد، لا يجوز أن يخصّ به عموم القرآن ولا نسخه به.

وقال بعضهم: إنّ داود كان له تسعة عشر ولداً ذكوراً وورثه سليمان خاصّة، فدلّ على أنّه إنّما ورثه العلم والنبوّة[٢] فخبر واحد لا يلتفت إليه.

وقوله: ﴿يا أَيّها الناسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَيْرِ﴾ أي فهّمنا معاني منطقها وما نفهم به بعضها عن بعض. قال المبرّد: والعرب تسمّي كلّ مبيّن عن نفسه ناطقاً ومتكلّماً، قال رؤبة:

لو أنني أوتيت عِلمَ الحُكْلِ عِلْمَ سلَيمانَ كَلامَ النَمْلِ[٣]

وقال الرمّاني: ﴿منطق الطير﴾ صوت يتفاهم به معانيها على صيغة واحدة، بخلاف منطق الناس، إذ هو صوت يتفاهمون به ومعانيهم على صيغ مختلفة ولذلك لم نفهم عنها مع طول مصاحبتها، ولم تفهم هي عنّا، لأنّ إفهامها مقصورة على تلك الأُمور المخصوصة، ولمّا جعل سليمان يفهم عنها كان قد علم منطقها.

وقوله: ﴿وأُوتينا مِن كُلِّ شَيءٍ﴾ لفظه لفظ العموم والمراد به الخصوص، لأنّه لم يؤت أشياء كثيرة. وقيل: المعنى ﴿وأُوتينا مِن كُلِّ شيءٍ﴾ يطلبه طالب لحاجته إليه وانتفاعه به. ويحتمل أن يكون المراد ﴿وأوتينا من كلّ

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٤٦٣، باختلاف يسير.

(٢) قاله الكلبي كما في النكت والعيون ٤: ١٩٨.

(٣) أنشده الأزهري في تهذيب اللغة ٤: ١٠١ مادّة «حكل» وفيه: «أُعطيت» بدل «أُوتيت».

شيء﴾ علماً وتسخيراً في كلّ ما يصلح أن يكون معلوماً لنا ومسخّراً، غير أنّ مخرجه مخرج العموم أبلغ وأحسن.

ثمّ أخبر أنّ سليمان كان [قد] قال هذا القول: إنّ هذا لَهوَ الفَضلُ الظاهر، اعترافاً بنعم الله. ويحتمل أن يكون ذلك إخباراً من الله بأنّ ما ذكره هو الفضل الظاهر. وقيل: معناه وأُعطينا من كلّ شيءٍ من الخيرات.

وقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيمانَ جُنُودُهُ﴾ أي جُمِعَ له من كلّ جهة جنوده ﴿مِنَ الجِنِّ والإِنسِ والطَّيْرِ﴾ قال محمّد بن كعب القرظي: كان عسكره مائة فرسخ خمسة وعشرون من الإنس، وخمسة وعشرون من الجنّ، وخمسة وعشرون من الطير، وخمسة وعشرون من الوحش.

وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ معناه قال ابن عبّاس: يمنع أوّلهم على آخرهم. وقال ابن زيد: يساقون. وقال الحسن: معناه يتقدّمون . وقول ابن عبّاس أقوى، لأنّه من قولهم: وزعه من الظلم: إذا منعه من ذلك وكفّه، قال النابغة:

على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبا
وقلتُ: أَلمّا أصحُ والشيبُ وازعُ[1]

ويقولون: لابدّ للسلطان من وَزَعَةٍ أي تمنع الناس عنه، وقال الشاعر:

أَلَمْ يَزِع الهوى إذ لم يُوات بلى وسَلوتُ عن طلبِ الفتاةِ[2]

وقيل: معنى يوزعون يمنعون إن نزلوا عن مراتبهم بالجمع مرّة، وبالتفريق أُخرى، حتّى يتقدّموا في مسيرهم. و«الإيزاع» المنع من الذهاب، فإنّما منع أوّل الجنود على آخرهم ليتلاحقوا ولا يتفرّقوا، كما تقدّم الجيوش إذا كثرت بمثل ذلك. وقوله: ﴿حتّى إذا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَمْلِ﴾ معناه سار سليمان وجنوده حتّى بلغوا وادياً فيه النمل.

---

(١) ديوان النابغة الذبياني: ٨٠. (٢) أنشده الطبري في تفسيره ٩: ٥٠٤ ولم ينسبه لأحد.

و﴿قَالتْ نَمْلةٌ يا أَيّهَا النَمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُليمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشعُرُونَ﴾ وقيل: كانت معرفة النمل بسليمان على طريق المعجزة الخارقة للعادة لهعليه السلام على غيره، لأنّه لا يمنع أن تعرف البهيمة هذا الضرب، كما تعرف كثيراً ممّا فيه نفعها وضرّها، فمن معرفة النملة أنّها تكسر الحبّة بقطعتين لئلّا تنبت إلّا الكُزبرة فإنّها تكسرها بأربع قطع، لأنّها تنبت إذا كسرت بقطعتين، فمن هداها إلى هذا هو الّذي يهديها إلى ما يحطمها ممّا لا يحطمها. وقيل: جعل لها منطق تفهم به المعاني، لأنّه يفهم به المعاني كما تفهم به، كالفم وبكما الفرح[١] قال الشاعر:

عجَبتُ لها أنّى تكون غِناؤها فَصيحاً ولم تَفْغَرْ بمنطقها فَما[٢]

وقيل: إنّه ظهر من النملة أمارات من الرجوع إلى بيتها، خوفاً من حطم جنود سليمان إيّاها، فأُعلم به سليمان أنّها تحرزت، فعبّر عن ذلك بالقول مجازاً، كما قال الشاعر:

امتلَأ الحوضُ وقال قَطْني مَهلاً رُويَداً قد ملأتَ بَطْني[٣]

ولم يكن هناك قول من الحوض. ويقولون: عيناك تشهد بسهرك، ويريدون بذلك أمارات السهر الّتي تظهر في العين. وقوله: ﴿لا يَحْطِمَنّكُمْ سُلَيمانُ﴾ أي يكسرنّكم بأن يطأكم عسكره ﴿وَهُمْ لا يَشعُرُونَ﴾ أي لا يعلمون بوطئكم.

فلمّا فهم سليمان هذا تبسّم ضاحكاً من قولها ﴿وقال رَبِّ أَوزِعني﴾ أي ألهمني ما يمنع من ذهاب الشكر عنّي بما أنعمت به عليَّ وعلى والديّ،

---

(١) كذا في الحجريّة وفي مخطوطة: «كما يفهم بشفتاي الفم دعاء الفرح».

(٢) أنشده ابن سيده في المخصّص ١٣: ٩ ولم ينسبه لأحد.

(٣) أنشده الجوهري في الصحاح ٣: ١١٥٣، مادّة «قطط» ونسبه إلى الراجز.

ووفّـــقني ﴿أن أعمل صالحاً تَرضاهُ وأدخِلْني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ كالأنبياء ومن يجري مجراهم ممّن يعمل الأعمال الصالحة ولا يـرتكب شيئا من القبائح. وقال ابن زيد: معنى في عبادك مع عبادك.

قوله تعالى:

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ سبع آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ﴿أو ليأتينّني بسلطان مبين﴾ بنونين الأُولى مشدّدة مفتوحة والثانية مكسورة، الباقون بنون واحدة مشدّدة مكسـورة. وقـرأ ﴿مكث﴾ عاصم وروح بفتح الكاف، الباقون بضمّها، وهما لغـتان. وقـرأ ابـن كـثير وأبو عمرو ﴿من سبأ بنبأ﴾ غير مصروف، الباقون مصروفاً منوّناً.

من لم يصرفه فلأنّه معرفة ومؤنّث، لأنّه قيل: إنّ «سبأ» حيّ من أحياء اليمن. وقيل: هو اسم أُمّهم. وقد قال الزجّاج: «سبأ» مدينة تعرف بمأرب من اليمن، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيّام، فإذا صرفته فعلى البـلد، وإذا لم تصرفه فعلى المدينة[1]. وقيل: من صرفه جعله اسماً للمكان، ومن لم يصرفه جعله اسماً للبقعة، قال جرير:

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ١١٤.

الواردونَ وتَـــيمٌ فـــي ذوي سَـــبأٍ
قد عضَّ أعناقهـم جِلدُ الجَـوامِيسِ[١]

وقال آخرون في ترك صرفه:

مِنْ سَبَأَ الحـاضِرِينَ مـأْرِبَ إذْ يَبنُون مِن دون سَـيْلِهِ العَـرِمَا[٢]

وقرأ الكسائي وأبـو جـعفر ورويس ﴿ألَا يا اسجُدُوا﴾ بـتخفيف «ألا» الباقون ﴿ألّا يسجدوا﴾ مشدّدة. وجه قراءة الكسائي أنّه جعل «أَلا» للتنبيه يا هؤلاء على حذف المنادى «اسجدوا» على الأمر، قال الأخطل:

ألا يا اسلمي يا هِندُ هِندَ بني بَـدْرِ وإن كانَ حيّانا عِدًى آخِرَ الدَهْرِ[٣]

أي ألا يا هذه. وقرأ ابن مسعود ﴿هلّا﴾ وذلك يقوّي قـراءة مـن قـرأ بالتخفيف. ومن قرأ بالتشديد فمعناه وزيّن لهـم الشـيطان ضـلالتهم لئـلّا يسجدوا لله، وشاهد الأوّل قول الشاعر:

ألَا يا اسْلمي يا دارَميٍّ على البِلى ولا زالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعائِكِ القَـطْرُ[٤]

وقال العجّاج:

يا دارَ سَلمَى يـا اسْـلَمي ثـمّ اسْـلَمي
عن سَـمْسَمٍ أو عـن يـمين سَـمْسَمِ[٥]

أخبر الله سبحانه عن سليمان أنّه ﴿تَفَقَّدَ الطَّيرَ فقَالَ مالي لا أرى الهُدْهُدَ﴾ قيل: كان سبب تفقّده الهدهد أنّه احتاج إليه في سيره ليدلّه عـلى المـاء، لأنّه يقال: إنّه يرى الماء في بطن الأرض، كما نراه في القارورة، وذكـره

---

(١) ديوان جرير: ٢٤١، وروايته:
تدعوك تيمٌ وتيمٌ فـي قُـرى سـبأٍ قد عَضَّ أعناقهم جلد الجواميسِ
(٢) أنشده المبرّد في الكامل ٣: ١٢١٥، ونسبه للنابغة الجعدي.
(٣) ديوان الأخطل: ٧٠.
(٤) للشاعر ذي الرمّة، ديوانه ٢٠٢.
(٥) أنشده الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه ٤: ١١٦.

ابن‌عبّاس. وقال وهب بن منبّه: كان تفقّده إيّاه لإخلاله بنوبته. وقيل: كان سبب تفقّده أنّ الطير كانت تظلّه من الشمس، فلما أخلّ الهدهد بمكانه بان بطلوع الشمس عليه.

وقوله: ﴿أَمْ كانَ مِنَ الغائِبينَ﴾ معنى «أم» بل. وقيل معناه: أتأخّر عصياناً أم كان من الغائبين، لعذر وحاجة. ثمّ قال: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أو لَأَذْبَحَنَّهُ أولَيَأتينّي بسُلْطانٍ مُبينٍ﴾ وهذا وعيدمنه‌للهدهد أنّه متى‌لم‌يأت سليمان‌بحجّة ظاهرة في‌تأخّره يفعل‌به أحد ما قاله، عقوبة‌له على‌عصيانه. قال ابن‌عبّاس ومجاهد وقتادة والضحّاك: تعذيب الهدهد نتف ريشه وطرحه في الشمس.

وقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي لبث غير بعيد، وفى ماضيه لغتان: فتح الكاف وضمّها، ثمّ جاء سليمان فقال معتذراً عن تأخّره وإخلاله بموضعه: ﴿أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي علمت ما لم تعلم، وعلم الإحاطة هو أن يعلمه من جميع جهاته الّتي يمكن أن يعلم عليها تشبيهاً بالسور المحيط بما فيه. ثمّ قال له: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبإٍ﴾ يا سليمان يا نبيّ الله ﴿بَنبإٍ﴾ و«سبأ» مدينة أو قبيلة على ما بيّنّاه.

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ «سبأ» رجل واحد له عشرة من العرب فتيامن ستّة وتشاءم أربعة، فالّذين تشاءموا: لخم، وجذام، وغسّان، وعاملة. والّذين تيامنوا: كندة، والأشعرون، والأزد، ومذحج، وحِميرَ، وأنمار، ومن الأنمار خثعم وبجيلة[1].

وقوله: ﴿بنبإٍ يَقينٍ﴾ أي بخبر لا شكّ فيه وأنّه يحتاج إلى معرفته، لما فيه من الإصلاح لقوم قد تلاعب بهم الشيطان في ذلك، فعذره عند ذلك سليمان عليه السلام. وقيل: عذر الهدهد بما أخبره بما يحبّه لما فيه من الأجر

(١) تفسير الطبري ١٠: ٣٦٠.

وإصلاح الملك الّذي وهبه الله[١].

ثمّ شرح الخبر فقال: ﴿إنّي وجدت امرأةً تَملِكُهُمْ﴾ وتتصرّف فيهم بحيث لا يعترض عليها أحد، ومع ذلك ﴿أُوتِيَتْ مِن كُلِّ شيءٍ﴾ أي أُعطيت كلّ شيء، لفظه لفظ العموم، والمراد به المبالغة في كثرة ما أُوتيت من نعم الدنيا وسعة الملك. وقيل: إنّها أُوتيت كلّ شيءٍ يؤتى الملوك. و«العرش العظيم» سرير كريم معمول من ذهب وقوائمه من لؤلؤ وجوهر، في قول ابن عبّاس.

ثمّ أخبر أنّه وجدها ﴿وَقَومَها يَسْجُدُونَ للشَمْسِ مِن دُونِ اللهِ﴾ وأنّ الشيطان زيّن ذلك لهم، فهم لا يهتدون إلى سبيل الحقّ والتوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى.

ثمّ قال الهدهد على وجه التوبيخ والتهجين لفعلهم: ﴿أَلّا يَسْجُدُوا للهِ الّذي يُخْرِجُ الخبءَ في السماوات والأرض وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وما تُعْلِنُونَ﴾ و«الخبء» هو المخبوء، وهو ما أحاط به غيره حتّى منع من إدراكه. وضع المصدر موضع الصفة خبأته أُخبئه خبْأً. وما يوجده الله ويخرجه من العدم إلى الوجود فهو بهذه المنزلة، فخبء السماء الأمطار والرياح، وخبء الأرض الأشجار والنبات.

﴿وَيعْلَمُ ما تُخْفُونَ وما تُعْلِنُونَ﴾ فمن قرأ بالتاء جعله للمخاطبين، ومن قرأ بالياء فللغائبين. و«الخبء» و«الخفاء» نظائر. وقيل: الخبء الغيب، وهو كلّ ما غاب عن الإدراك.

وقوله: ﴿فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ دليل على أنّ المعارف ليست ضرورة، لأنّه أراد لا يهتدون إلى دين الله. وقال الجبّائي: لم يكن الهدهد عارفاً باللّه وإنّما أخبر بذلك، كما يخبر مراهقو صبياننا، لأنّه لا تكليف عليهم إلّا على

---

(١) قوله: «وقيل...» الخ وقع في الحجريّة بعد قوله: «فللغائبين».

الملائكة والجنّ والإنس.

وهذا الّذي ذكره خلاف الظاهر، لأنّ الاحتجاج الّذي حكاه الله عن الهدهد احتجاج عارف بالله وبما يجوز عليه ومالا يجوز، لأنّه قال: ﴿وَجدتُّها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ للشَمْسِ مِن دُونِ اللهِ﴾ ولا يجوز أن يفرّق بين الحقّ في السجود لله وبين الباطل الّذي هو السجود للشمس، وأنّ أحدهما حسن والآخر قبيح إلّا من كان عارفاً بالله وبما يجوز عليه وما لا يجوز، وذلك ينافي حال الصبيان، ثمّ نسب تزيين عملهم إلى الشيطان، وهذا قول من عرفه وعرف ما يجوز عليه في عدله، وأنّ القبيح لا يجوز عليه، ثمّ حكى أنّه قال: إنّ الشيطان صدّهم عن السبيل الحقّ بإغوائهم، وأنّهم مع هذا الصدّ لا يهتدون إلى الحقّ من توحيد الله وعدله.

وقال أبو عبد الله البصري في بعض المواضع: إنّ الهدهد كان رجلاً من البشر اسمه هدهد، ولم يكن من الطير. وهذا غلط، لأنّ الله تعالى [قال]: ﴿وتَفَقّدَ﴾ يعني سليمان ﴿الطَيرَ فقالَ مالي لا أرى الهُدْهُدَ﴾ فكيف يحمل ذلك على أنّه اسم رجل ؟ ! إنّ هذا من بعيد الأقوال.

وقال الفرّاء: من قرأ ﴿أَلَا﴾ بالتخفيف، فهو موضع سجدة، ومن ثقّل فلا ينبغي أن يكون موضع سجدة وقد يجوز السجود على مخالفة تزيين الشيطان[1]. ومعنى ﴿ويَعلَمُ ما يُخفُونَ وما يُعْلِنُونَ﴾ أي ما يسرّون في نفوسهم وما يظهرونه.

وقرأ الكسائي وحفص ﴿ما تُخْفُونَ وما تُعلِنُونَ﴾ بالتاء فيهما على الخطاب، الباقون بالياء على الخبر.

ثمّ أخبر فقال: ﴿الله لا إله إلّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظيمِ﴾ إلى هاهنا تمام

(١) معاني القرآن ٢: ٢٩٠.

حكاية ما قاله الهدهد. و«العرش» سرير الملك الّذي عظّمه الله ورفعه فوق السموات السبع، وجعل الملائكة تحفّ به، وترفع أعمال العباد إليه، وتنشأ البركات من جهته فهو عظيم الشأن كما وصفه تعالى.

قوله تعالى:

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

لمّا سمع سليمان ما اعتذر به الهدهد في تأخّره بما قصّه الله تعالى وذكرناه قال عند ذلك: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذِبينَ﴾ في قولك الّذي أخبرتنا به فأُجازيك بحسب ذلك. وإنّما لم يقل: أصدقت أم كذبت وقال: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين﴾ لأنّه أَليق في الخطاب، لأنّه قد يكون من الكاذبين بالميل إليهم، وقد يكون منهم بالقرابة الّتي بينه وبينهم. وقد يكون منهم بأن يكذّب كما كذّبوا، ومثل ذلك في الخطاب ولينه قولهم: ليس الأمر على ما تقول، فهو ألين من كذبت، لأنّه قد يكون ليس كما تقول من جهة الغلط الّذي لا يوصف بالصدق ولا بالكذب.

ثمّ أمر سليمان الهدهد بأن يذهب بكتابه الّذي كتبه له وأشار إليه بقوله: ﴿هَذا فأَلْقِهِ إليهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظُرْ ماذا يَرْجِعُونَ﴾.

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون، ثمّ تولّ عنهم.

وهذا لا يحتاج إليه، لأنّ الكلام صحيح على ما هو عليه من الترتيب. والمعنى فألقه إليهم ثمّ تولّ عنهم قريباً منهم فانظر ماذا يرجعون، على

ما قال وهب بن منبّه وغيره، فإنّهم قالوا: معنى ﴿تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ استتر عنهم، وفي الكلام حذف لأنّ تقديره: فمضى الهدهد بالكتاب وألقاه إليهم ، فلمّا رأته ﴿قَالَتْ﴾ لقومها: ﴿يا أيّها المَلؤُ﴾ وهم أشراف أصحابها ﴿إنّي أُلقِيَ إليَّ كِتابٌ كَرِيمٌ﴾ ومعنى كريم أنّه حقيق بأن يوصل الخير العظيم من جهته، فلما رأت آثار ذلك في كتاب سليمان وصفته بأنّه كريم. وقيل: أرادت بـ«كريم» أنّه من كريم يطيعه الإنس والجنّ والطير.

والهاء في قوله: ﴿إنّه مِن سُلَيمانَ﴾ كناية عن الكتاب، والهاء في قوله: ﴿وإنّه بسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَحيمِ﴾ كناية عمّا في الكتاب. وقيل: إنّه كان مختوماً، فلذلك وصفته بأنّه كريم.

وقوله: ﴿بسمِ الله الرَّحمنِ الرَحيمِ﴾ حكاية ما قالته على المعنى باللغة العربيّة وإن كانت لم تقل هي بهذا اللفظ، والحكاية على ثلاثة أوجه: حكاية على المعنى فقط، وحكاية على اللفظ فقط من غير أن يعلم معناه، وحكاية على اللفظ والمعنى، وهو الأصل في الحكاية الّتي لا يجوز العدول عنها إلّا بقرينة.

وموضع «أنْ لا تعلوا» يجوز أن يكون رفعاً بالبدل من «كتاب» ويحتمل النصب على معنى بأن لا تعلوا، و«العلوّ على الشيء» طلب القهر له بما يكون به بحسب سلطانه ﴿لا تَعْلُوا عليَّ﴾ أي لا تطلبوا تلك الحال، فإنّكم لا تنالونها منّي. ﴿وأتُوني مُسْلِمينَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: واتوني مؤمنين بالله ورسوله.

الثاني: مستسلمين لأمري فيما أدعوكم إليه فإنّي لا أدعو إلّا إلى الحقّ.

قوله تعالى:

قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾

قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

خمس آياتٍ حجازي، وأربع فيما عداه. عدّ الحجازيّون ﴿شديد﴾ رأس آية ولم يعدّه الباقون.

حكى الله تعالى أنّ المرأة لمّا وقفت على كتاب سليمان، وصفته بأنّه كتاب كريم، وعرّفتهم ما فيه قالت لأشراف قومها: ﴿أفتُوني في أمري﴾ أي أشيروا عليَّ. و«الفتيا» هو الحكم بما هو صواب بدلاً من الخطأ، وهو الحكم بما يعمل عليه كما يسأل العامّي العالم ليعمل على ما يجيبه به.

ثمّ قالت لهم: لم أكن أقطع أمراً ولا أفصل حكماً دونكم ولا أعمل به ﴿حتّى تَشْهَدُونَ﴾ وتعاينوه، وهذا ملاطفة منها لقومها في الاستشارة منهم فيما يعمل عليه، فقالوا لها في الجواب عن ذلك: إنّا ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وأُولُوا بأسٍ شَديدٍ﴾ أي أصحاب قدرة وأصحاب بأس أي شجاعة شديدة ﴿والأمْرُ إلَيكِ فانظري ماذا تأمرِينَ﴾ ما الّذي تأمرينا به لنمتثله، وهذا القول منهم فيه عرض القتال عليها إن أرادت.

فقالت لهم في الجواب: ﴿إنّ الملوك إذا دخلوا قَريةً أفسَدُوها﴾ فكونوا على حذر من ذلك ﴿وجَعَلُوا أعزّةَ أهلِها أذلّةً﴾ قيل: أن يستعبدوهم، فقال الله تعالى تصديقاً لهذا القول: ﴿وَكذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قال ابن عبّاس: إنّما يفعلون ذلك إذا دخلوها عنوة.

ثمّ حكى أنّها قالت: ﴿إنّي مُرْسِلَةٌ إليهم بِهَدِيّةٍ﴾ فأذنوا للأمر في ذلك لأنظر ماعند القوم فيما يلتمسون من خير أو شرّ. وقيل: إنّها أرسلت بجوارٍ وغلمانٍ على زيّ واحد، فقالت: إن ميّز بينهم وردّ الهديّة وأبى إلّا المتابعة

فهو نبيّ، وإن قبل الهديّة فإنّما هو من الملوك وعندنا ما يرضيه، ذكره ابن عبّاس. وقيل: إنّها أرسلت إليه بلبنة من ذهب فأمر سليمان أن تطرح بين أرجل الدوابّ وسراقينها استهانة بذلك.

قوله سبحانه:

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَـٰنِىَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ خمس آياتٍ بلاخلاف.

قرأ حمزة ويعقوب ﴿أتمدُّونّي﴾ بنون واحدة مشدّدة على الإدغام وياءٍ ثابتةٍ في الوصل والوقف، الباقون بنونين.

أخبر الله تعالى أنّ الهديّة الّتي أنفذت بها المرأة لمّا وصلت إليه وجاء الموصل أنّه قال لموصلها: ﴿أتمدّونني بمالٍ﴾ و«الإمداد» إلحاق الثاني بالأوّل والثالث بالثاني إلى حيث ينتهي. والمعنى لست أرغب في المال الّذي تمدّونني به، وإنّما أرغب في الايمان الّذي دعوتكم إليه، والإذعان بالطاعة لله ورسوله.

ثمّ قال: ﴿فما آتاني اللهُ خَيرٌ ممّا آتاكُمْ﴾ بالتمكين من المال الّذي لي أضعافه وأضعاف أضعافه إلى ما شئت منه. ثمّ قال لهم: ﴿بل أنتُمْ بِهَديّتكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي ما يهدى إليكم، لأنّكم أهل مفاخرة في الدنيا ومكاثرة. وقيل بهديّتكم الّتي أهديتموها إليّ تفرحون.

و«الهديّة» العطيّة على جهة الملاطفة من غير مثابة اهدى هديّة، لأنّها تساق إلى صاحبها على هداية. فالأصل الهداية وهي الدلالة على طريق الرشد. ثمّ حكى ما قال سليمان لرسولها الّذي حمل الهديّة ﴿ارجِعْ إليهِمْ﴾ وقلْ لهم: ﴿فَلنأتِينَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها﴾ أي لا طاقة لهم بهم ولا يقدرون على مقاومتهم ﴿ولَنُخرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلّةً وَهُمْ صاغِرُونَ﴾ فالذليل هو الناقص القوّة في نفسه بما لا يمكنه أن يدفع غيره عن نفسه. و«الصاغر» هو الذليل الصغير القدر المهين، يدلّ على معنى التحقير بشيئين، ونقيض الذليل العزيز، وجمعه أعزّة، جمع الذليل أذلّة.

ثمّ حكى تعالى أنّ سليمان قال لأشراف عسكره وأماثلة جنده: ﴿أيُّكُمْ يأتِيني بعَرْشِها قَبلَ أنْ يأتُوني مُسْلِمينَ﴾ فاختلفوا في الوقت الّذي قال سليمان: ﴿أيّكُمْ يأتيني بِعَرْشِها﴾ فقال قوم: قال ذاك حين جاءه الهدهد بالخبر، وهو الوقت الأوّل، لأنّه يبيّن به صدق الهدهد من كذبه ثمّ كتب الكتاب بعد، في قول ابن عبّاس. وقال وهب بن منبّه: إنّما قال ذلك بعد مجيء الرسل بالهديّة.

واختلفوا في السبب الّذي لأجله خصّ بالطلب فقيل: لأنّه أعجبته صفته فأحبّ أن يراه، وكان من ذهب وقوائمه مكلّل من جوهر، على ما ذكره قتادة. وقال ابن زيد: لأنّه أحبّ أن يعاينها ويختبر عقلها إذا رأته أتثبته أم تنكره؟ وقيل: ليريها قدرة الله في معجزة يأتي بها في عرشها.

واختلفوا في معنى ﴿مسلمين﴾ فقال ابن عبّاس: معناه طائعين مستسلمين وقال ابن جريج: هو من الإسلام الّذي هو دين الله الّذي أمر به عباده.

ثمّ حكى تعالى أنّه أجاب سليمان عفريت من الجنّ. ومعنى عفريت مارد قوي داهية، يقال: عِفْريت وعِفْرِيَة، ويجمع عفاريت وعفاري. قال

سيبويه[١]: هو مأخوذ من العِفْر. والمعنى كلّ سديد في مذهبه من الدهاء والنكارة والنجابة، يقال: رجل عِفْرِيَةٍ نِفْرِيَة فيوزن «زبنية» لواحد الزبانية.

وقوله: ﴿أنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أن تَقُومَ مِن مَقامِكَ﴾ أي من مجلسك الّذي تقضي فيه، في قول قتادة. ﴿وإنّي عَلَيْهِ﴾ يعني على الإتيان به في هذه المدّة ﴿لَقَويٌّ أمِينٌ﴾ وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول: القدرة تبع الفعل، لأنّه أخبر أنّه قويّ عليه، ولم يجئ بعد بالعرش. وقال ابن عبّاس: ﴿أمين﴾ على فرج المرأة.

فقال عند ذلك ﴿الّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتاب﴾ قال ابن عبّاس وقتادة: هو رجل من الإنس، كان عنده علم اسم الله الأعظمَ الّذي إذا دعي به أجاب. وقيل: هو يا إلهنا وإله كلّ شيء يا ذا الجلال والإكرام، وقال الجبّائي: الّذي عنده علم من الكتاب سليمان عليه السلام. وقال ذلك للعفريت ليريه نعمة الله عليه. والمشهور عند المفسّرين هو الأوّل.

وقد ذكر أنّ اسمه آصف بن برخيا. وقيل: هو الخضر[٢]. وقال مجاهد: اسمه أُسطوع[٣]. وقال قتادة: اسمه مليخا.

وقوله: ﴿أنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ يَرتدَّ إليكَ طَرْفُكَ﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: قال مجاهد: إنّ ذلك على وجه المبالغة في السرعة.

الثاني: قال قتادة: معناه قبل أن يرجع إليك ما يراه طرفك. وقيل: قبل أن يرجع طرفك خاسئاً إذا فتحتها وأدمت فتحها. وقيل: قبل أن تفتحها وتطبقها. وقيل: حمل العرش من مأرب إلى الشام في مقدار رجع البصر. وقيل: شُقّتْ عنه الأرض فظهر.

---

(١) الكتاب ٣: ٤٣٨.

(٢) قاله ابن لهيعة كما في النكت والعيون ٤: ٢١٣.

(٣) في مجمع البيان وتفسير الثعلبي والكشّاف: «أُسطوم».

وقيل: يجوز أن يكون الله أعدمه ثم أوجده في الثاني بلا فصل بدعاء الّذي عنده علم من الكتاب، وكان مستجاب الدعوة إذا دعا باسم الله الأعظم، ويكون ذلك معجزة له. وقال قوم: كان ذلك معجزة لسليمان.

وفي الكلام حذف، لأنّ تقديره: ﴿أنا آتيكَ به قَبْلَ أن يرتدَّ إليكَ طَرْفُكَ﴾ فأتاه به ﴿فلما رَآهُ﴾ سليمان ﴿مستقرّاً عِندَهُ قال﴾ معترفاً بنعم الله عليه: ﴿هَذا مِن فَضْلِ رَبّي لِيَبْلُوني أَأَشْكُرُ أم أكفُرُ﴾ أي أأشكر على نعمه أم أجحدها؟.

ثمّ قال سليمان: ﴿ومَن شَكَرَ فإنّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنّ ثواب ذلك يعود عليه، ومن جحد نعم الله فإنّما يضرّ نفسه، لأنّ عقاب ذلك يحلّ به، فإنّ الله غنيّ عن شكره وعن كلّ شيء. ﴿كَرِيمٌ﴾ في إنعامه على خلقه.

وقرأ أبو عمرو ونافع وعاصم ـ في رواية حفص ـ ﴿فما أتاني الله﴾ بفتح الياء في الوصل، الباقون ﴿فما آتان﴾ بغير ياء في الوصل.

قوله تعالى:

قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ لَهَا أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾

خمس آياتٍ بلا خلاف ما عدا الكوفي فإنّها في عدده ستّ آيات، عدّ ﴿قوارير﴾ آيةً، ولم يعدّه الباقون.

حكى الله تعالى أنّ سليمان أمر أن ينكّروا لها عرشها، وهو أن يغيّره إلى حال تنكرها إذا رأته أراد بذلك اعتبار عقلها على ما قيل. و«الجحد»

و«الإنكار» جحد العلم بصحّة الشيء، ونقيضه الإقرار، والتنكير تغيير حال الشيء إلى حال ينكرها صاحبها إذا رآها.

وقوله: ﴿ننظر أتهتدي أمْ تَكُونَ مِنَ الذين لا يَهْتَدُونَ﴾ بيان من سليمان أنّ الغرض بتنكير عرشها ننظر أتهتدي بذلك أم تكون من الّذين لا يهتدون إلى طريق الرشد؟ فلمّا جاءت المرأة قال لهـا سـليمان: ﴿أَهَكَذا عَرْشُكِ﴾ فقالت في الجواب: كأنّه هو، ولم تقطع عليه، لما رأت من تـغيّر أحـواله. فقال سليمان: ﴿وأُوتِينا العِلْمَ مِنْ قَبْلِها﴾ قال مجاهد: هو من قول سليمان ﴿وكنّا مُسْلِمينَ﴾ أي مؤمنين بالله مستسلمين له. وقال الجبّائي: هـو مـن كلام قوم سليمان عليه السلام.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿وَصَدّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ﴾ ومنعها منه، وتقديره: وصدّها سليمان عمّا كانت تعبد من دون الله، ومنعها مـنه ﴿إنّها كانَتْ مِن قَومٍ كافِرينَ﴾ بنعم الله عليهم عابدين مع الله غيره.

وقال الفرّاء: يجوز أن يكون المراد: صدّها من الله ما كانت تعبد مـن دون الله من الشمس أنّها كانت من قوم كافرين يعبدون الشمس، فنشأت على ذلك. وكسر «إنّها» على الاستئناف، ولو نصب على معنى لأنّها جاز[1].

ثمّ حكى بأنّه ﴿قِيلَ لَها ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ فالصرح هو الموضع البسـيط المنكشف من غير سقف، ومنه قولهم: صرّح بالأمر: إذا أفصح به ولم يكنِّ عنه، والتصريح خلاف التعريض، وفلان يكذّب صراحاً مـن هـذا. ﴿فلمّا رأتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ يعني أنّ المرأة لما رأت الصرح ظـنّته لجّـةً، و«اللـجّة» معظم الماء. ومنه لجّ البحر خلاف الساحل. ومنه لجج في الأمر: إذا بالغ بالدخول فيه.

(١) معاني القرآن ٢: ٢٩٥.

﴿وكَشَفَتْ عَن ساقَيْها﴾ ظنّاً منها أنّها تريد أن تخوض الماء. وقيل: إنّ سليمان أجرى الماء تحت الصرح الّذي هو كهيئة السطح. وقيل: الصرح صَحْن الدار يقال: صرحة الدار، وراحة الدار، وقاعة الدار، وقارعة الدار كلّه بمعنى صحن الدار. وقيل: صحن القصر، قال الشاعر:

بهنّ نَعامٌ بناها الرجال تُشَبّهُ أعلامَهنّ الصروحا[1]

وقال أبو عبيدة: كلّ بناء من زجاج أو صخر أو غير ذلك موثّق فهو صرح، ومنه ﴿يا هَامانُ ابنِ لي صَرْحاً﴾[2].

وقيل: إنّه أراد أن يختبر عقلها. وقيل: لأنّهم كانوا قالوا: إنّ ساقيها مثل ساق الحمار برجل حمار، لأنّها من ولد بين الإنس والجنّ، لأنّه قيل: إنّ الجنّ خافت أن يتزوّج بها سليمان، فقالوا ذلك لينفروا عنها، فلمّا امتحن ذلك وجده على خلاف ما قيل فيه. وقيل: إنّه كان قيل: إنّ على ساقيها شعراً، فلمّا كشفته بان الشعر فساءه ذلك واستشار الجنّ في ذلك، فعملوا له النورة والزرنيخ. وقيل: إنّه أوّل من اتّخذ له ذلك. وقيل: إنّما فعل ذلك ليريها عظيم آيات الله لتسلم وتهتدي إلى دين الله.

ثمّ قال لها: ﴿إنّه صَرْحٌ مُمرَّدٌ مِن قوارِيرَ﴾ فالممرّد المملس، ومنه الأمرد، وشجرة مرداء ملساء لا ورق عليها، والمارد الخارج عن الحقّ المملس منه. فقالت عند ذلك: يا ربّ ﴿إنّي ظَلَمْتُ نَفْسي﴾ بما أرتكب من المعاصي بعبادة غيرك ﴿وأسلَمْتُ﴾ الآن ﴿مَعَ سُلَيمانَ للهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾ الّذي خلق الخلق. وقيل: إنّها لمّا أسلمت تزوّجها سليمان عليه السلام.

ثمّ أخبر تعالى أنّه أرسل ﴿إلى ثَمُودَ أخاهُمْ صَالِحاً﴾ يعني في النسب، لأنّه كان منهم ﴿أنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ موضع «أن» نصب، وتقديره: أرسلناه بأن

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٩٥، ونسبه إلى أبي ذؤيب.

(٢) غافر: ٣٦.

اعبدوا الله وحده لا شريك له ﴿فإذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني منهم مؤمن بصالح ومنهم كافر به، في قول مجاهد.

قوله تعالى:

قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿٥٠﴾ خمس آياتٍ بلاخلاف.

قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿لتُبيّتَنَّهُ وأهلَهُ ثُمَّ لَتقُولَنّ﴾ بالتاء فيهما جميعاً، الباقون بالنون، وقرأ مجاهد بالياء. وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿مَهلك﴾ بفتح الميم واللام، وفي رواية حفص بفتح الميم وكسر اللام، الباقون بضمّ الميم وفتح اللام.

قال أبو عليّ: من قرأ بضمّ الميم احتمل أمرين:

أحدهما: أراد المصدر من إهلاك أهله أي لم يشهد إهلاكهم.

الثاني: أن يكون المراد لم يشهد موضع إهلاكهم.

وقراءة حفص أيضاً تحتمل أمرين:

أحدهما: ما شهدنا موضع هلاكهم.

والثاني: المصدر أي ما شهدنا هلاكهم[١]. وقراءة أبي بكر معناها المصدر. لمّا أخبر الله تعالى أنّه أرسل صالحاً إلى قومه وأنّهم كانوا فريقين مسلم وكافر يخاصم بعضهم بعضاً قال لهم صالح: ﴿يا قَومِ لِمَ تَستَعجِلُونَ

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢٤٠.

بالسيّئةِ قَبلَ الحَسنةِ﴾ فالاستعجال طلب التعجيل، وهو الإتيان به قبل وقته.

وكان هؤلاء الجهّال إذا خوّفوا بالعقاب قالوا على جهة الإنكار لصحّته: متى هو؟ وهلّا يأتينا به؟ فقال لهم صالح: ﴿لِمَ تَستعجِلُونَ﴾ ذلك قال مجاهد: يعني العذاب قبل الرحمة، والسيّئة هاهنا المراد بها العقاب. سمّاها سيّئة لما فيها من الآلام، ولأنّها جزاء على الأفعال السيّئة، لأنّ السيّئة هي الخصلة الّتي تسوء صاحبها حين يجدها. والسيّئة أيضاً هي الفعل القبيح الّذي لا يجوز لفاعلها فعلها، ونقيضها الحسنة.

فقال لهم: ﴿لَوْلَا تَستَغْفِرُونَ اللهَ﴾ ومعناه هلّا تسألون الله الغفران به بدلاً من استعجال العقاب ﴿لَعلّكُمْ تُرحَمُونَ﴾.

وإنّما خرجت «لولا» إلى معنى «هلّا» لأنّها كانت لامتناع الشيء لكون غيره، كقولك: لولا زيد لأتيتك، فخرجت إلى الإنكار، لامتناع الشيء، لفساد سببه في ﴿لولا تستغفرون الله﴾ به.

ثمّ أخبر بما أجابوه، لأنّهم قالوا: ﴿اطّيّرنا بِكَ وبِمَن مَعَكَ﴾ أي وبمن هو على دينك، فالتطيّر التشاؤم، وهو نسبة الشؤم إلى الشيء[١] على ما يأتي به الطير من ناحية اليد اليسرى وهو البارح، والسانح هو إتيانها من جهة اليد اليمنى. وأصل: «اطّيّرنا» تطيّرنا، دخلت فيه ألف الوصل لمّا سكنت الطاء للإدغام.

فقال لهم صالح: ﴿طائِرُكُمْ عِندَ اللهِ﴾ أي الشيء الّذي تحذرونه بالتطيّر عند الله، لأنّه القادر على عقابكم بما أنتم عليه من الكفر. والمعنى في قول ابن عبّاس معاقبتكم عند الله. ثمّ قال لهم: ليس ذلك للتشاؤم والتطيّر ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ فالفتنة هاهنا قولهم ما زيّن لهم من الباطل.

---

(١) في الحجريّة: «النبيّ» وما أثبتناه من مخطوطة.

ثمّ أخبر تعالى أنّه ﴿كانَ في المَدينَةِ﴾ الّتي بعث الله منها صالحاً ﴿تِسعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ في الأرْضِ﴾ أي يفعلون فيها المعاصي ﴿ولا يُصْلِحُونَ﴾ أي لا يفعلون الطاعات.

وقوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا باللّهِ﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: قالوا متقاسمين إلّا أنّه يحذف منه قد.

والآخر: أنّه أمر، وليس بفعل ماض. ﴿لنبيِّتَنَّهُ وأهلَهُ﴾ حكاية أنّهم قالوا: ﴿لنبيِّتَنَّهُ﴾ فمن قرأ بالنون أراد أنّا نفعل بهم ذلك ليلاً. ومن قرأ بالتاء فعلى أنّه خاطب بعضهم بعضاً بذلك. والمعنى أنّهم تحالفوا: لنطرقنّهم ليلاً، يقال لكلّ عمل بالليل تبييت، ومنه قوله: ﴿إذ يُبَيِّتُونَ مالا يَرْضَى مِنَ القَوْلِ﴾ (١) وأنشد أبو عبيدة:

أتَوْني فلم أرضَ ما بيّتوا وكانوا أتَوْني بأمرٍ نُكُرْ
لِأُنكِحَ أيِّمَهُم مُنذِراً وهل يُنكِحُ العبد حرٌّ لِحُرٍّ (٢)

وقال ابن إسحاق: إنّهم لما أتوا صالحاً لتبييته دفعتهم الملائكة بالحجارة. ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ معناه أنّهم قالوا: إذا قال لنا وليّه وناصره: من فعل هذا؟ قلنا له: ﴿ما شَهِدنا مَهْلِكَ أهْلِهِ﴾ فمن ضمّ الميم أراد ما رأينا إهلاكه، ومن فتح الميم أراد مكان هلاكهم أو إهلاكهم يريد المصدر ﴿وإنّا لصادِقُونَ﴾ في هذا القول.

ثمّ أخبر تعالى أنّهم ﴿مَكَرُوا﴾ بهذا القول ﴿ومَكَرْنا﴾ نحن أيضاً مكراً بأن جازيناهم على مكرهم وجعلنا وباله عليهم، فإنّا أهلكناهم عن آخرهم.

---

(١) النساء: ١٠٨.

(٢) مجاز القرآن ١: ١٣٣، وقد تقدّم من الشيخ الطوسي نسبته إلى الشاعر عبيدة بن همّام وذلك في سورة النساء الآية ٨١، فراجع.

وقيل: إنّ الله أرسل عليهم صخرة أهلكتهم. ويحتمل أن يكون المعنى في ﴿مكرنا﴾ إنّا أنجينا المؤمنين بالمكر بالكفّار بكلّ ما يقدرون عليه من الاضرار بهم، وإلجائهم إلى الايمان، وإنّما نسبه إلى نفسه لمّا كان بأمره.

قوله تعالى:

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿أنّا دَمَّرْناهُمْ﴾ بفتح الألف، الباقون بكسرها. ومن فتح احتمل وجهين:

أحدهما: النصب على البدل من «كيف» و«كيف» نصب بـ«انظر».

والثاني: أن يكون «كيف» في موضع الحال و «دمّرنا» خبر «كان» وتلخيصه: فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أي عاقبة أمرهم التدمير. وقيل: هو نصب بتقدير بأنّا، فلمّا حذف الباء نصب. وقال الكسائي: هو في موضع الجرّ. ويحتمل الرفع أيضاً على البدل من «عاقبة». ويحتمل أيضاً على الجواب، كأنّه قيل: ما كان عاقبة أمرهم؟ فقيل: تدميرنا لهم.

يقول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: انظر يا محمّد وفكّر ﴿كَيفَ كانَ عاقِبَةُ﴾ مَكْرِ هؤلاء الكفّار الّذين كفروا وذكّرناهم. و«العاقبة» الحال الّتي يؤدّي إليها أمر الإنسان[1] تقول: أعقبني هذا الدواء صحّةً، وأعقب هذا الطعام الرديء مرضاً، وكذلك المعاصي تعقب النار. وقيل: إنّ بيوتهم هذه المذكورة بوادي القرى موضع بين الشام والمدينة. و«المكر» الأخذ بالحيلة للإيقاع في بليّة.

(١) في الحجريّة: «البادية» وفي المطبوعة: «البادي‌ء». وما أثبتناه من مخطوطة.

فلمّا مكر أُولئك الكفّار بصالحعليه السلام ليقتلوه ومن آمن ولم يتمّ مكرهم وأدّى مكرهم إلى هلاكهم وتدميرهم ـ و«التدمير» التقطيع بالعذاب ـ فدمّر الله قوم صالح بأن قطعهم بعذاب الاستئصال في الدنيا قبل الآخرة، فلم يبقَ لهم باقية.

ثمّ أخبر تعالى أنّ بيوت أُولئك الكفّار ﴿خاوية﴾ أي خالية فارغة وكان رسمهم أن يكونوا فيها ويأوون إليها، فلمّا أهلكهم الله صاروا عبرة لمن نظر إليها واعتبر بها، وقيل: هذه البيوت المذكورة بوادي القرى.

وقوله: ﴿وأنجينا الّذينَ آمَنُوا وكانُوا يَتَّقُونَ﴾ إخبار منه تعالى أنّه أنجى وخلّص المؤمنين من قوم صالح لأنّهم كانوا يتّقون معاصي الله خوفاً من عقابه. فالاتّقاء الامتناع من البلاء بما يرد عن صاحبه أن ينزل به. والتقي هو العامل بما يتّقي عنه العقاب. وقيل: إنّ الله تعالى دمّر التسعة الرهط الّذين يفسدون في الأرض وقومهم.

وقوله: ﴿ولوطاً إذ قالَ لقَومِهِ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: نصب «لوطاً» بتقدير: وأرسلنا لوطاً. الثاني: واذكر لوطاً حين قال لقومه منكِراً عليهم أفعالهم: ﴿أتأتُونَ الفاحِشَةَ﴾ يعني الخصلة القبيحة الشنيعة الظاهرة القبح، وهي إتيانهم الذكران في أدبارهم ﴿وأنتُمْ تُبصِرُونَ﴾ أي تعلمون أنّها فاحشة. وقيل معناه: ﴿وأنتم تبصرون﴾ أي يرى بعضكم من بعض أنّ ذلك عتوّاً وتمرّداً.

ثمّ بيّن الفاحشة الّتي كانوا يفعلونها بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لتَأْتُونَ الرجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِساءِ﴾ الّتي خلقهنّ الله لكم. ثمّ أخبر تعالى عن لوط أنّه قال لهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْم تَجْهَلُونَ﴾ أي تفعلون أفعال الجهّال لجهلكم بمواقع نعم الله سبحانه وتعالى عليكم.

قوله تعالى:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (٥٨) قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

نصب «جواب قومه» بأنّه خبر «كان» واسمها «أنْ قالوا» ولا يجوز وقع جواب ـ هاهنا ـ لأنّ ما بعد الإيجاب وما قبلها نفي، والنفي أحقّ بالخبر من الإيجاب، ومثله ﴿مَا كانَ حُجَّتَهُمْ إلّا أنْ قالُوا﴾[1].

أخبر الله تعالى عن قوم لوط حين قال لهم لوط ما تقدّم ذكره ـ منكِراً عليهم ـ أنّه لم يكن لهم جواب عن ذلك، بل عدلوا إلى أن قالوا بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً ومن تبعه ﴿مِن قَريَتِكُمْ﴾ فإنّهم ﴿أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي يتطهّرون عن عملكم في إتيان الذكران من العالمين إذ تأمرونهم ويتنزّهون عن ذلك، فلا تجاوروهم وهذه صفتهم، وهو قول ابن عبّاس ومجاهد وقتادة.

فأخبرالله تعالى أنّه أهلك هؤلاءالقوم بأجمعهم وأنجى لوطاً وأهله الّذين آمنوا به من ذلك الهلاك. واستثنى من جملة أهله امرأته، وأخبر أنّه ﴿قدّرناها مِنَ الغابِرينَ﴾ أي جعلها من الغابرين، لأنّ جرمها على مقدار جرمهم، فلمّا كان تقديرها كتقديرهم في الإشراك باللّه جرت مجراهم في إنزال العذاب بهم.

وقيل: ﴿قدّرناها﴾ أي بما كتبنا أنّها من الغابرين، وأخبر تعالى أنّه

---

(١) الجاثية: ٢٥.

أمطر عليهم مطراً. قال الحسن: أمطرت الحجارة على من خرج من المدينة وخسف بأهلها، فهم يهوون إلى يوم القيامة.

﴿فَساءَ مَطَرُ المُنذَرِينَ﴾ وهم الّذين أبلغهم لوطالنذارة، وأعلمهم بموضع المخافة ليتّقوها فخالفوا ذلك. ونقيض النذارة البشارة، وهي الإعلام بموضع الأمن ليجتبى، والنذير البشير ينذر بالنار ويبشّر بالجنّة.

ثمّ قال لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمّد ﴿الحَمْدُللهِ﴾ شكراً على نعمه بأن وفّقنا للإيمان ﴿وَسلامٌ عَلَى عبادِهِ الّذينَ اصطَفَى﴾ يعني اجتباهم الله واختارهم، يقال: صفا يصفو صفاءً، وأصفاه بكذا إصفاءً، واصطفاه اصطفاءً، ويصفّي تصفّياً وصفاءً وتصفيةً، وصافاه مصافاةً.

وقوله: ﴿أمّا يُشْرِكُونَ﴾ من قرأ بالتاء وجّهه إلى أنّه خطاب لهم. ومن قرأ بالياء فعلى الخبر. وقوله: ﴿آللّهُ خَيرٌ أمّا﴾ معناه خير لنا منّا لأنفسا ـ ولفظ «افعل» لا يدخل إلّا بين شيئين يشتركان في حكم ويفضل أحدهما على صاحبه ـ وما يعبدون من دون الله لا خير فيه. قال أبو عليّ: يجوز أن يقع ذلك في الخير الّذي لا شرّ فيه، والشرّ الّذي لا خير فيه وإن كان يتوهّم بعض الجهّال الأمر على خلاف ما هو به، فتقول: هذا الخير خير من الشرّ. وأنكر على من خالف هذا. وأجاز قوم من أهل اللغة ذلك على ما مضى القول فيه في غير موضع.

ثمّ قال لهم: ﴿أمَّنْ﴾ الّذي ﴿خَلَقَ السَموات والأرْضَ﴾ بأن أنشأها واخترعها ﴿وأنزلَ لَكُمْ مِنَ السَماءِ ماءً﴾ يعني غيثاً ومطراً ﴿فأَنبتنا بِهِ﴾ بذلك الماء ﴿حَدائِقَ﴾ وهي جمع حديقة، وهي البستان إذا كان عليه حائط يحوطه ﴿ذاتَ بَهجَةٍ﴾ إنّما وصف «الحدائق» بلفظ الواحد في قوله: ﴿ذات﴾ لأنّ معناه جماعة ذات بهجة. وقيل: الحديقة البستان الّذي فيه

النخل. و«البهجة» منظر حسن، ابتهج به: إذا سُرّ.

ثمّ قال: ﴿مَا كانَ لَكُمْ أنْ تُنبِتُوا شَجَرَها﴾ أي لم تكونوا تـقدرون عـلى إنبات شجر الحديقة، لأنّ الله تعالى هو القادر عليه لا غيره. ثمّ قال منكِراً عليهم: ﴿أإلهٌ مَعَ اللهِ﴾ يقدر على ذلك.

ثمّ قال: ﴿بَلْ هُمْ قَومٌ يَعدِلُونَ﴾ باللّه غيره لجهلهم. وقيل: يعدلون عن الحقّ. ومعنى الآية التنبيه على أنّ من قدر على إنبات الحدائق ذات الشجر وإخراج الشجر بأكرم الثمار، يجب إخلاص العبادة له، وأنّ من عدل إلى الإشراك به كافر بهذه النعمة الخفيّة.

قوله تعالى:

أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أَءِلَـٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ أهل البصرة وعاصم ﴿عَمّا يُشرِكونَ﴾ بالياء، الباقون بـالتاء. وقـرأ أبو عمرو وهشام وروح ﴿قَليلاً ما يَذكّرُونَ﴾ بالياء، الباقون بالتاء. من قرأ بالياء في الموضعين جعله للمخاطبين إلى الغائبين[1].

---

(١) كذا في الحجريّة، ولكنّ الظاهر: من قرء بالتاء في الموضعين جعله للمخاطبين، ومن قرء بالياء فإلى الغائبين.

يقول الله تعالى منبّهاً على مواقع نعمه على خلقه ممتنّاً بها عليهم بأن قال: ﴿أمَّنْ﴾ الّذي ﴿جَعَلَ الأرْضَ قَراراً﴾ بأن أسكنها للاستقرار عليها وإمكان التصرّف عليها، فمن جعلها كذلك لمصالح عباده بها على ما يحتاجون إليه منها عالم حكيم، وهو أولى بالعبادة من الأصنام.

﴿وجَعَل خِلالَها أنْهاراً﴾ يعني خلال الأرض وهي المسالك في نواحيها ﴿أنْهاراً﴾ جمع نهر وهي المجرى الواسع من مجاري الماء، وأصله الاتّساع، فمنه النهار لاتّساع ضيائه، ومنه أنهار الدم إذا جرى كالنهر. ﴿وجَعَلَ لَها رَواسِيَ﴾ يعني الجبال الثابتة، رست ترسو رَسْواً: إذا ثبتت فلم تبرح من مكانها كالسفينة وغيرها ومنه المراسي.

وقوله: ﴿وجَعَل بَيْنَ البَحْرينِ حاجِزاً﴾ فالحاجز هو المانع بين الشيئين أن يختلط أحدهما بالآخر، وقديكون ذلك بكفّ كلّ واحد منهما عن صاحبه. وفيذلك دلالة علىإمكان كفّ النار عنالحطب حتّى لا تحرقه ولا تسخنه كما كفّ الماء المالح عن الاختلاط بالعذب. ثمّ قال: ﴿أإلهٌ مَعَ اللهِ﴾ يقدر على ذلك تبكيتاً لهم على الإشراك به. ثمّ قال: ﴿بَلْ أكثَرُهُمْ لا يَعلَمُونَ﴾ حقيقة ما ذكرناه لعدولهم عن النظر في الدلالة المؤدّية إليه. وقيل: ﴿بَلْ أكثَرُهُمْ لا يَعلَمُونَ﴾ ما لهم وعليهم في العبادة إنْ أخلصوها وأشركوا فيها.

ثمّ قال: ﴿أمَّنْ من يُجِيبُ المضطَرَّ إذا دَعاهُ﴾ فإجابة دعاء المضطرّ هو فعل ما دعا به لأجل طلبه، وذلك لا يكون إلّا من قادر عليه مختار له، لأنّه يقع على ما دعا به الداعي ﴿وَيكْشِفُ السُوءَ﴾ يعني الآلام يصرفها عنكم ﴿ويَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الأرْضِ﴾ أي يجعل أهل كلّ عصر يخلفون العصر الأوّل ﴿أإلهٌ مَعَ اللهِ﴾ يقدر على ذلك؟

ثمّ قال: ﴿قَليلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾ أي تفكّرون قليلاً ممّا قلناه ونبّهنا عليه. ثمّ

قال: ﴿أَمَّنْ يَهدِيكُمْ في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ﴾ بما نصب لكم من الدلالات الّتي تستدلّون بها من الكواكب وغيرها ﴿ومَنْ﴾ الّذي ﴿يُرسِلُ الرِياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحمَتِهِ﴾ يعني بين يدي المطر والغيث.

ومن قرأ بالنون أراد ملفحات. وقيل: معناه منتشرة. ومن قرأ بالباء أراد مبشّرات بالمطر.

ثمّ نزّه نفسه عن الإشراك بهِ واتّخاذ إله معه فقال: ﴿تَعالى عَمّا يُشرِكُونَ﴾ ثمّ قال: ﴿أمَّن يَبْدؤ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يبدؤهم بأن يخترعهم ابتداءً، ثمّ يعيدهم بعد أن يميتهم، ويعيدهم إلى ما كانوا عليه ﴿ومَن يَرزُقُكُمْ مِن السَماءِ والأرضِ﴾ من السماء بالغيث والمطر، ومن الأرض بالنبات وأنواع الثمار ﴿أإلهٌ مَعَ اللهِ﴾ يقدر على ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿هاتُوا بُرهانَكُمْ﴾ وحجّتَكُمْ ﴿إن كُنْتُم صادِقِينَ﴾ في قولكم محقّين في الإشراك معه، فإذا لم تقدروا على إقامة البرهان على ذلك، فاعلموا أنّه لا إله معه، ولا يستحقّ العبادة سواه، لأنّ كلّ ما يكون حقّاً من أمر الدين لابدّ أن يكون عليه دلالة وبرهان.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿لا يَعْلَمُ مَن في السَمواتِ والأرضِ الغَيبَ إلّا اللهُ﴾ يعني الغائب عن الخلق لا يعلم به إلّاالله تعالى أو من أعلمه الله، ثمّ أخبر أنّهم لا يشعرون متى يبعثون ويحشرون يوم القيامة.

قوله تعالى:

بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا

يَمْكُرُونَ﴿٧٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وأهل البصرة بَلْ ﴿أَدْرَكَ﴾ بقطع الهمزة. يقال: تدارك زيد أمره وأدرك بمعنى واحد، ومثله ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[1] وقد شدّد الأعرج، وروى الشموني بكسر اللام ووصل الهمزة وتشديد الدال من غير ألف. الباقون ﴿بَلِ ادّارك﴾ بمعنى تتابع علمهم وتلاحق حتّى كمل. والمعنى بل ادّرك في الآخرة أي حين لم ينفعهم اليقين مع شكّهم في الدنيا، على ماذكره ابن عبّاس. وقيل: إنّه قرأ ﴿بَلَى أدْركَ﴾ و﴿ادّارك﴾ العلم لحاق الحال الّتي يظهر فيها معلومه، ففي الآخرة يظهر الحقّ بما يرى من الأُمور الّتي من شأنها أن يقع عندها علم بمقتضى ما يحدث من عظم الأُمور.

وقيل: معنى ﴿بل﴾ هاهنا «هل» فكأنّه قال: هل ادّرك علمهم، ومعناه أنّهم لا يعلمون الآخرة ﴿بَلْ هُمْ في شَكٍّ مِنها﴾ ومن شدّد الدال قال أصله تدارك فأدغموا التاء في الدال وقلبوا ألف الوصل.

وقرأ أهل المدينة ﴿إذا﴾ على الخبر، الباقون بهمزتين على الاستفهام، ويحقّق الهمزتين ابن عامر وأهل الكوفة وروح، إلّا أنّ هشاماً يفصل بينهما بألف، وابن كثير وأبو عمرو ورويس يخفّفون الأُولى ويليّنون الثانية، ويفصل بينهما بألف أبو عمرو.

وأمّا ﴿أئِنّا﴾ فقراءته على الخبر، وزاد فيه نوناً ابن عامر والكسائي، الباقون بهمزتين وخفّفهما عاصم وحمزة وخلف وروح، الباقون يخفّفون الأُولى ويليّنون الثانية، ويفصل بينهما بألف أهل المدينة إلّا ورشاً وأبوعمرو. وقد مضى تعليل هذه القراءات فيما مضى.

لمّا أخبر الله تعالى عن الكفّار أنّهم لا يشعرون متى يحشرون يوم

---

(١) الشعراء: ٦١.

القيامة وأنّهم ساخرون في ذلك أخبر أنّهم يعلمون حقيقة ذلك يوم القيامة حين يبعثهم الله، وأنّه لا ينفعهم علمهم ذلك الوقت مع شكّهم في دار الدنيا. وأخبر أنّهم في شكّ من البعث في دار الدنيا، وأنّهم عمون عن معرفة حقيقته. وهو جمع «عَميً» وشبّه جهلهم بذلك بالعمى، لأنّ كلّ واحد منها يمنع بوجوده من إدراك الشيء على ما هو به، لأنّ الجهل مضادّ العلم والعمى منافٍ للرؤية.

ثمّ حكى عن الكفّار أنّهم قالوا متعجّبين من البعث والنشور: ﴿أءذاكنّا تُراباً﴾ ويكون ﴿آباؤُنا﴾ تراباً أيضاً ﴿أئِنّا لمخْرَجُونَ﴾ من قبورنا ومبعوثون، يقولون ذلك مستهزئين منكرين. ثمّ أخبر أنّهم يحلفون ويقولون: ﴿لَقَدْ وُعِدنا هذا﴾ البعث ﴿نَحْنُ﴾ فيما مضى، وكذلك وُعِد به ﴿آباؤُنا﴾ ولم نعرف حقيقة ذلك.

ثمّ حكى أنّهم يقولون: ليس ﴿هذا إلّا أساطِيرُ الأوّلِينَ﴾ وإنّما اشتبه عليهم النشأة الثانية لطول المدّة في النشأة الأُولى على مجرى العادة، ولو نظروا في أنّ من أجرى هذه العادة حكيم وأنّه قادر على نقض العادة كما قدر على إجراء بها لزالت شبهتهم.

ثمّ أمر نبيّهﷺ أن يقول لهم: ﴿سِيرُوا في الأرض فانظُرُوا كيف كانَ عاقِبَةُ المجرِمِينَ﴾ لأنّهم يرون آبائهم وكيف أهلكهم الله وخرّب ديارهم كعاد وثمود وغيرهم، فيعلمون عند ذلك صحّة ما قلناه، ولا يأمنوا أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بهم.

ثمّ نهى نبيّهﷺ أن يحزن عليهم ويتأسّف على تركهم الإيمان وأن لا يكون في ضيق نفسه ﴿ممّا يَمكُرُونَ﴾ في ضيق، فإنّ وبال مكرهم عائد عليهم.

قوله تعالى:

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفّار أنّهم ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذا الوَعْدُ﴾ الّذي توعّدنا به ﴿إنْ كُنتُمْ صادِقِينَ﴾ في إخباركم بذلك في البعث والنشور. والوعد من الحكيم على ضربين:

أحدهما: أن يكون مقيّداً بوقت، فإذا جاء ذلك الوقت فلابدّ أن يفعل فيه ما وُعِد به.

والثاني: أن يكون مطلقاً غير مؤقّت إلّا أنّه لابدّ أن يكون معلوماً لعلّام الغيوب الوقت الّذي يفعل فيه الموعود به، فإذا كان ذلك الوقت معلّقاً بزمان تعيّن عليه الفعل في ذلك الوقت، فلابدّ للموعود به من وقت وإن لم يذكر مع الوعد.

ثمّ أمر نبيّهﷺ أن يقول لهم: ﴿عَسى أنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعضُ الّذي تَستَعجِلُونَ﴾ فعسى من الله واجبة، والمعنى أنّ الّذي وعدكم الله به لابدّ أن يردفكم، و«الردف» الكائن بعد الأوّل قريباً منه. والفرق بينه وبين التابع أنّ في التابع معنى الطلب لموافقة الأوّل، وترادف: إذا تلاحق، تلاحقا ترادفا، وأردفه إردافاً. ومعنى ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ قرب منكم ودنا، في قول ابن عبّاس. وقيل: تبع لكم.

و«الاستعجال» طلب الأمر قبل وقته، فهؤلاء الجهّال طلبوا العذاب قبل وقته تكذيباً به. وقد أقام الله عليهم الحجّة فيه. و«ردف» من الأفعال

الّتي تتعدّى بحرف وبغير حرف، كما قال الشاعر:

فَقلتُ لها الحاجاتُ تَطرحْن بالفَتَى وَهــمٌّ تــعنّاني مُــعَنّىً ركــائِبُهُ[١]

وقيل: إنّ الباء إنّما دخلت للتعدية. وقيل: إنّما دخلت لما كان معنى تطرحن ترمين، وكذلك لما كان معنى ﴿ردف لكم﴾ دنا قال: ﴿لكم﴾ قال المبرّد: معناه ردفكم واللام زائدة. وقيل وقلْ: ﴿بعضَ الّذي تستعجِلونَ﴾ يوم بدر. وقيل: عذاب القبر.

ثمّ قال: ﴿وإنّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناسِ﴾ و«الفضل» الزيادة على ما للعبد بما يوجبه الشكر، فالعدل حقّ العبد. والفضل فيه واقع من الله لا محالة إلّا أنّه على ما يصحّ وتقتضيه الحكمة.

ثمّ أخبر أنّ أكثر الناس لا يشكرون الله على نعمه بل يكفرونه.

ثمّ قال لنبيّهﷺ: ﴿وإنَّ ربَّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَيَعلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تخفيه صدورهم، يقال: كننت الشيء في نفسي، وأكننته: إذا سترته في نفسك، فهو مكنّ ومكنون لغتان. قال الرماني: الإكنان جعل الشيء بحيث لا يلحقه أذى لمانع يصدّه عنه ﴿وما يُعلِنُونَ﴾ أي يعلم ما يظهرونه أيضاً.

ثمّ قال: ﴿وما مِنْ غائِبَةٍ في السَماءِ والأرْضِ﴾ أي ليس شيء يغيب علمه عن أهل السماء والأرض ﴿إلّا﴾ ويبيّنها اللهُ ﴿في كِتابٍ مُبينٍ﴾ وهو الكتاب المحفوظ. وقال الحسن: الغائبة القيامة. وقال النقّاش: ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض. وقيل: هو ما أخفاه الإنسان عن قلبه وعينه. وقال البلخي: معنى ﴿في كتاب مبين﴾ أي هو محفوظ لا ينساه، كما يقول القائل: أفعالك عندي مكنونة أي محفوظة.

---

(١) أنشده الجوهري في الصحاح ٦: ٢٤٤١ مادة «عنا» ولم ينسبه لأحد.

قوله تعالى:

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ﴿ولا يسمع﴾ بياء مفتوحة وفتح الميم ﴿الصمّ﴾ بالرفع، ومثله في الروم، الباقون ﴿تسمع﴾ بالتاء وكسر الميم ﴿الصمّ﴾ بالنصب، فوجه قراءة ابن كثير أنّه أضاف الفعل إلى الصمّ، فلذلك رفعه. ووجه قراءة الباقين أنّهم أضافوا الفعل إلى النبيّ ﷺ وجعلوا الصمّ مفعولاً ثانياً.

أخبر الله تعالى أنّ هذا القرآن الّذي أنزله على نبيّه محمّد ﷺ ﴿يَقُصُّ عَلَى بَنِي إسرائيل أكْثَرَ﴾ الأشياء الّتي اختلفوا فيها الكفّار. و«القصص» كلام يتلو بعضه بعضاً فيما ينبئ عن المعنى، ومن أجاب غيره عمّا سأل لم يقل له إنّه يقصّ، لأنّه اقتصر على مقدار ما يقتضيه السؤال.

و«الاختلاف» ذهاب كلّ واحد إلى خلاف ما ذهب إليه صاحبه. و«الاختلاف» أيضاً امتناع أحد الشيئين أن يسدّ مسدّ صاحبه فيما يرجع إلى ذاته.

واختلاف بني إسرائيل نحو اختلافهم في المسيح حتّى قالت اليهود فيه ما قالت وكذّبت بنبوّته، وقالت النصارى ما قالته من نبوّته ووجوب إلهيّته. وكاختلاف اليهود في نسخ الشريعة، فأجازه قوم في غير التوراة وأباه آخرون، فلم يجيزوا النسخ أصلاً، واعتقدوا أنّه بدأ. وكاختلافهم في المعجز، فقال بعضهم: لا يكون إلّا بما لا يدخل تحت مقدور العباد، وقال آخرون: قد يكون إلّا أنّه ما يعلم أنّه لا يمكن العباد الإتيان به.

وكاختلافهم في صفة المبشَّر به في التوراة، فقال بعضهم: هو يوشع بن نون، وقال آخرون: بل هو منتظر لم يأتِ بعد.

وكلّ ذلك قد دلّ القرآن على الحقّ فيه. وقيل: قد بيّن القرآن اختلافهم في مَن سلف من الأنبياء. وقيل: إنّ بني إسرائيل اختلفوا حتّى لعن بعضهم بعضاً كالاسماعينية والعنانية والسامرة.

ثمّ وصف تعالى القرآن بـ﴿إنّه لَهُدىً وَرَحْمَةٌ للمؤمِنينَ﴾ معناه أنّه بيان للحقّ فيما وقع الاختلاف فيه من بني إسرائيل وغيرهم إذا رجعوا إليه علموا مفهومه، وأنّه من عند حكيم لا يقول إلّا بالحقّ، فالهدى الدلالة على طريق الحقّ الّذي من سلكه أدّاه إلى الفوز بالنعيم في جنّة الخلد، فالقرآن هدى من هذا الوجه، ورحمة للمؤمنين في تأديته إلى ما فيه من مرضاة الله تعالى.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿إنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمّد ﴿يَقْضي بَينَهُمْ بِحُكْمِه وَهُوَ العَزيزُ العَليمُ﴾ أي العزيز في انتقامه من المبطلين، العليم بالمحقّ المبيّن منهم من المبطل. وقيل: العليم بصحة ما يقضي به، العزيز بما لا يمكن ردّ قضائه، فهو يقضي بين المختلفين بما لا يمكن أن يردّ ولا يلتبس بغير الحقّ.

وفي الآية تسلية للمحقّين الّذين خولفوا في أمر الدين، لأنّ أمرهم يؤول إلى أن يحكم بينهم ربّ العالمين بما لا يمكن دفعه ولا تلبيسه.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ يا محمّد ﴿إنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبينِ﴾ الظاهر البيّن في ما تدعو إليه. ثمّ شبّه الكفّار بالموتى الّذين لا يسمعون ما يقال لهم، وبالصمّ الّذين لا يدركون دعاء من يدعوهم، من حيث إنّهم لم ينتفعوا بدعائه ولم يصيروا إلى ما دعاهم إليه، فقال: ﴿إنَّكَ﴾ يا محمّد ﴿لا تُسْمعُ المَوْتَىٰ﴾ لأنّ ذلك محال ﴿ولا تُسْمِعُ الصُمَّ الدُعاءَ إذا وَلَّوْا

مُدْبِرِينَ﴾ أي أعرضوا عن دعائك ولم يلتفتوا إليه ولم يفكّروا في ما دعاهم إليه، فهؤلاء الكفّار بترك الفكر في ما يدعوهم إليه النبيّ صلى الله عليه وآله بمنزلة الموتى الّذين لا يسمعون، وبمنزلة الصمّ الّذين لا يدركون الأصوات.

قوله تعالى:

وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ * وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ حمزة ﴿تَهدي﴾ بالتاء مفتوحة وبسكون الهاء ﴿العُمْي﴾ بنصب الياء، ويقف على ﴿تهدي﴾ بالياء، الباقون ﴿بهاد﴾ بباء مكسورة وبألف بعد الهاء وخفض الياء من ﴿العُمي﴾ على الإضافة في الموضعين. فقراءة حمزة تفيد الفعل المضارع، وقراءة الباقين اسم الفاعل.

يقول الله تعالى لنبيّه: لست يا محمّد تهدي العُمي عن ضلالتهم. و«الهادي» هو الّذي يدعو غيره إلى الحقّ ويرشد إليه. وقد يدعو بالنطق بأن يقول: هو صواب، وقد يدعو إليه بأن يبيّن أنّه صواب، فإنّه ينبغي أن يعمل عليه ويعتقد صحّته. و«الضلالة» الذهاب عن طريق الصواب، وهو الهلاك بالذهاب عنه. وإنّما شبّه الله تعالى الكفّار بأنّهم عُمي، لأنّهم من حيث لم يهتدوا إلى الحقّ ولم يصيروا إليه فكأنّهم عُمي، وإنّما نفى أن يهديهم إلى الحقّ بأن يحملهم عليه أو يجبرهم عليه، ولم ينتف أن يكون هادياً لهم بالدعاء إليه ويبيّن لهم الحقّ فيه.

وقوله: ﴿إنْ تُسْمِعُ إلاّ مَن يُؤْمِنُ بآياتِنا﴾ معناه لا تسمع إلاّ من يطلب الحقّ بالنظر في آياتنا ولا يلبث أن يسلم، لأنّ الدلائل تظهر له وعقله يخاصمه حتّى يقول بالحقّ ويعتقده. وإنّما قال: إنّه يسمع المؤمنين من حيث إنّهم الّذين ينتفعون به ويسلمون له.

وقوله: ﴿وإذا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيهِمْ﴾ قال قتادة: معناه وجب الغضب عليهم. وقال مجاهد: حقّ القول عليهم بأنّهم لا يؤمنون. وقيل: معناه إذا وقع القول عليهم بأنّهم قد صاروا إلى منزلة من لا يفلح أحد منهم ولا أحد بسببهم أخذوا حينئذٍ بمنادي العقاب بإظهار البراءة منهم.

وقال ابن عمر وعطيّة: إذا لم يأمر الناس بالمعروف وينهوا عن المنكر تخرج الدابّة. وقيل: إنّها تخرج من بين الصفا والمروة. وروى محمّد بن كعب القرظي عن عليّ عليه السلام أنّه سئل عن الدابّة، فقال: «أمَا والله مالها ذنب وإنّ لها لحية»[1] وفي هذا القول منه عليه السلام إشارة إلى أنّه من ابن آدم. وقال ابن عبّاس: دابّة من دوابّ الله لها زغب وريش لها أربعة قوائم. وقال ابن عمر: إنّها تخرج حتّى يبلغ رأسها الغيم، فيراها جميع الخلق.

ومعنى ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: تكلّمهم بما يسوؤهم من أنّهم صائرون إلى النار، من الكلام بلسان الآدميّين الّذين يفهمونه ويعرفون معناه، فتخاطب واحداً واحداً، فتقول له: يا مؤمن يا كافر. وقيل: تكلّمهم بأنّ الناس كانوا بآياتِنا لا يُوقِنُونَ، أي بهذا القول، ذكره ابن مسعود.

الثاني: تكلّمهم من الكلام. وقيل: إنّها تكتب على جبين الكافر: أنّه

---

(١) تفسير الماوردي ٤: ٢٢٦، وفيه: «للحية» بدل «لحية».

كافر، وعلى جبين المؤمن: أنّه مؤمن. وروي[1] ذلك عن النبيّ ﷺ.

ثمّ قال ﴿وَيَومَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمّةٍ فَوْجاً ممّن يُكذِّبُ بآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ واستدلّ به قوم على صحّة الرجعة في الدنيا، لأنّه قال: من كلّ أُمّة، وهي للتبعيض فدلّ على أنّ هناك يوماً يحشر فيه قوم دون قوم، لأنّ يوم القيامة يحشر فيه الناس عامّة، كما قال: ﴿وَحشرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُم أَحَداً﴾[2].

ومن حمل الآية على أنّ المراد باليوم يوم القيامة قال: إنّ «من» زائدة، والتقدير: ويوم يحشر كلّ أُمّة فوجاً أي فوجاً فوجاً من الّذين كذّبوا بآيات الله ولقاء الآخرة ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يجمعون. وقال ابن عبّاس: معناه يدفعون. وقيل: يساقون. وقيل: يوقف أوّلهم على آخرهم.

وقوله: ﴿وَوَقَعَ القَولُ عَلَيْهِم بِما ظَلَمُوا﴾ أي صاروا إلى منزلة من لا يفلح أحد منهم، ولا أحد بسببهم ﴿فَهُمْ﴾ في ذلك الوقت ﴿لا يَنطِقُونَ﴾ بكلام ينتفعون به. ويجوز أن يكون المراد ﴿لا ينطقون﴾ أصلاً لعظم ما يرونه ويشاهدونه من أهوال القيامة.

وقرأ أهل الكوفة ﴿تكلّمهم أنّ الناسَ﴾ بفتح الألف، لأنّ ابن مسعود قرأ﴿بأنّ الناسَ﴾ فلمّا سقطت الباء نصبوا «أنّ» الباقون بالكسر على الاستئناف. وروي عن ابن عبّاس ﴿تكلمهم﴾ مخفّفاً أي تسمّهم وتجرحهم تقول العرب: كلمت زيداً: إذا جرحته. وقد يقال أيضاً بالتشديد من الجراح، ولا يقال في الكلام إلّا بالتشديد.

قوله تعالى:

أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن

(١) انظر مسند أحمد بن حنبل ٢: ٢٩٥، ٤٩١. تفسير الطبري ١٠: ١٥. (٢) الكهف: ٤٧.

شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ثمان آياتٍ بلاخلاف.

قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ مقصورة على وزن «فعلوه» الباقون ﴿آتوه﴾ ممدودة ومضمومة التاء على وزن «فاعلوه».

وقرأ أهل الكوفة ﴿مِن فَزَعٍ﴾ منوّناً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بفتح الميم، الباقون بغير تنوين على الإضافة إلّا ورشاً فإنّه نصب الميم من ﴿يَوْمئذٍ﴾ مع الإضافة.

ووجه هذه القراءة أنّه جعل «يوم» مع «إذ» كالاسم الواحد، لأنّ إضافة «يوم» إلى «إذ» ليست محضة، لأنّ الحروف لا يضاف إليها ولا إلى الأفعال، وإنّما أجازوا في أسماء الزمان الإضافة إلى الحروف وإلى الأفعال نحو: هذا يوم ينفع، لما خصّ وكثر.

وقرأ أهل البصرة وابن كثير وأبو بكر إلّا يحيى والداجوني عن ابن ذكوان ﴿يَفْعَلُونَ﴾ بالياء، الباقون بالتاء. وقرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب ﴿عَمَّا تَعمَلُونَ﴾ بالتاء، الباقون بالياء.

يقول الله تعالى منبّهاً لخلقه على وجه الاعتبار والتنبيه على النظر بالفكر بجعله تعالى الليل ليسكن فيه خلقه من الحيوان من الحركات، لأنّ من جعل الشيء لما يصلح له من الانتفاع فإنّما ذلك باختياره دون الطبع،

وما يجري مجراه ممّا ليس بمختار، ففي ذلك بطلان قول كلّ مخالف فيه.

وقوله: ﴿والنَهارَ مُبْصِراً﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: أنّه جعل النهار ذا إبصار، كما قال: ﴿عِيشَةٍ راضِيةٍ﴾ (١) أي ذات رضاً، وكما قال النابغة:

كليني لهمّ يا أُميمةُ ناصبِ (٢)

أي لهم ذي نصب.

الثاني: لأنّه يريك الأشياء كما يراها من يبصرها بالنور الّذي تجلّى عنها، فقيل هو كقول جرير:

لَقَدْ لُمتِنا يا أُمَّ غَيلانَ في السُرى ونِمتِ وما لَيلُ المَطيّ بِنائِمِ (٣)

أي بالّذي ينام فيه. ثمّ قال: ﴿إنّ في ذَلكَ لآياتٍ﴾ يعني دلالات واضحات لقوم يصدّقون باللّه وبتوحيده. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ في الصُورِ﴾ منصوب بتقدير: واذكر يوم ينفخ في الصور أي وذلك يوم ينفخ في الصور، يعني قوله: ﴿وَقَعَ القَولُ عَليهم بما ظَلَمُوا.... يَومَ يَنفخُ في الصُورِ﴾ ويجوز أن يكون على حذف الجواب، وتقديره: وتكون البشارة الثانية يوم ينفخ في الصور. وقيل: تقديره: ويوم ينفخ في الصور يفزع، لأنّ المعنى إذا نفخ في الصور فزع إلّا أنّه لمّا جاء الثاني بالفاء أغنى عن «يفعل» لأنّها ترتّب. وقال الحسن وقتادة: الصور صور الخلق. وقال مجاهد: هو قرن كالبوق ينفخ فيه. وقيل: النفخة الأُولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لربّ العالمين.

---

(١) الحاقّة: ٢١، القارعة: ٧.

(٢) صدر بيت وعجزه: وليل أُقاسيه بطيء الكواكِبِ، راجع ديوان النابغة الذبياني: ٤٨.

(٣) شرح ديوان جرير: ٤١٩.

وقيل: معنى ﴿فَفَزِعَ مَن في السَماواتِ ومَن في الأرضِ﴾ من شدّة الإسراع والإجابة، يقال: فزعت إليك في كذا: إذا أسرعت إلى ندائه في معونتك. وقيل: هو ضدّ الأمن، وهو الأولى. وقيل: وجه النفخ في الصور أنّه على تصوّر ضرب البوق للاجتماع على المسير إلى أرض الجزاء بالحال الّتي تعرف في دار الدنيا. ومن ذهب إلى أنّه جمع صورة قال: المعنى نفخ الأرواح في الأجساد بردّها إلى حال الحياة الّتي كانت عليها.

وقوله: ﴿إلّا مَن شاءَ اللهُ﴾ وروي[١] في الخبر أنّ الشهداء من جملة الخلق لا يفزعون ذلك اليوم. وقيل: ﴿إلّا مَن شاءَ اللهُ﴾ يعني من الملائكة الّذين يثبّت الله عزّوجلّ قلوبهم. وقيل: إسرافيل هو النافخ في الصور بأمر الله تعالى.

ثمّ قال:﴿وكُلٌّ أَتوْهُ داخِرينَ﴾ معناه أنّ جميع الخلق جاؤوا الله داخرين أي صاغرين. فمن قصّر حمله على أنّهم أتوه أي جاؤوه. ومن مدّ حمله على أنّهم جايؤه على وزن «فاعلوه». ولفظة «كلّ» هاهنا معرفة، لأنّها قطعت عن الإضافة، كما قطع قوله: ﴿مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾[٢] إلّا أنّه لم يبن، لأنّه قطع عن متمكّن التمكّن التامّ، وليس كذلك ﴿مِن قَبْلُ ومِن بَعْدُ﴾ لأنّه كان ظرفاً لا يدخله الرفع.

وقوله: ﴿وَتَرى الجِبالَ تَحسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمرُّ مَرَّ السَحابِ﴾ قال ابن عبّاس: تحسبها قائمة وهي تسير سيراً حثيثاً سريعاً، قال النابغة الجعدي:

نازعن مِثْل الطَوْدِ يَحسَبُ أنّهم وُقُوفٌ لحاح والركابُ تُهَمْلِجُ[٣]

أي من أجل كثرتهم والتفافهم يحسب أنّهم وقوف فكذلك الجبال.

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٠: ٢٠، وتفسير الماوردي ٤: ٢٣٠. (٢) الروم: ٤.

(٣) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٢١، وفيه: «بأرعن» بدل «نازعن» و«لحاج» بدل «لحاح».

وقوله: ﴿صُنعَ اللهِ الّذي أتقَنَ كُلَّ شَيءٍ﴾ نصب «صنع الله» بما دلّ عليه ما تقدّم من الكلام من قوله: ﴿تَمرّ مَرَّ السَحابِ﴾ فكأنّه قال: صنع الله صنع الّذي أتقن كلّ شيء لا إله إلّا أنّه أظهر اسم الله في الثاني، لأنّه لم يذكر في الأوّل وإنّما دلّ عليه. والإتقان حسن في إيثاق. وقوله: ﴿إنّه خَبيرٌ بما تَفْعَلُونَ﴾ أي عليم بأفعالهم، فيجازيهم بحسبها على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب.

ثمّ بيّن كيفيّة الجزاء، فقال: ﴿مَن جاءَ بالحَسَنَةِ﴾ يعني بالخصلة الحسنة ﴿فَلَهُ خَيرٌ مِنْها﴾ أي خير يصيبه منها. وقيل: فله أفضل منها في عظم النفع لأنّ له بقيمتها وبالوعد الّذي وعده الله بها. ثمّ قال: من أتى بالحسنة الّتي هي الإيمان والتوحيد والطاعة لله يوم القيامة يكون آمناً لا يفزع كما يفزع الكفّار والفسّاق. وقيل: هم من فزع الموت في الدنيا آمنون في الآخرة. وقيل: من فزع يوم القيامة في الجنّة آمنون.

ثمّ قال: ﴿ومَن جاءَ بالسَيّئةِ﴾ يعني بالمعصية الكبيرة الّتي هي مثل الكفر والشرك وما جرى مجراهما. وقال جميع المفسّرين: إنّ السيّئة هاهنا الشرك، فإنّ الله تعالى يكبّه على وجهه في النار. ويقال: كبّه وأكبّه: إذا نكّسه، ويقال لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ بهذا العقاب ﴿إلّا﴾ مكافأة لما كنتم تفعلون وتعملون في دار التكليف من المعاصي.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إنّما أُمرتُ أنْ أعبُدَ رَبَّ هَذهِ البَلْدَةِ﴾ يعني مكّة، في قول ابن عبّاس. وقال غيره: منى، أي أُمرت بعبادة ربّ هذه البلدة لم اؤمر بعبادة سواه الّتي حرّمها.

وقيل: معنى «حرّمها» عظّم من حرمتها من أن يسفك دم حرام فيها أو يظلم أحد فيها أو يصطاد صيدها أو يخلّى خلاؤها. وقيل: حرّمها حتّى

أمن الوحش فيها، فلا يعدو الكلب على الغزال ولا على الطير، ولو خرج من الحرم لنفّر أشدّ النفور. فذكر لهذه الآية في الحرم ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي يملك كلّ شيء بالتصرّف فيه على وجه يريده ويختاره، ليس لأحدٍ منعه منه ﴿وأُمِرْتُ أنْ أكُونَ مِنَ المُسلِمينَ﴾ الّذين يسلمون بتوحيده وإخلاص العبادة له مستسلمين له ﴿و﴾ أُمرت ﴿أنْ أتلُو القُرآنَ﴾ عليكم وأدعوكم إلى ما فيه ﴿فَمَنِ اهتَدَى﴾ إلى الحقّ والعمل بما فيه ﴿فإنّما يهتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لأنّ جزاء ذلك وثوابه يصل إليه دون غيره

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنه وحاد (جار، خ ل) ولم يعمل بما فيه ولم يهتد إلى الحقّ ﴿فَقُلْ﴾ له يا محمّد: ﴿إنّما أنا مِن المُنذِرِينَ﴾ الّذين يخوّفون بعقاب الله من معاصيه ويدعون إلى طاعته. وفي ذلك دلالة على فساد قول المجبّرة الذين يقولون: إنّ الله يخلق الإيمان والهداية والكفر والضلالة.

ثمّ أمر نبيّه ﷺ بأن يقول: ﴿الحَمْدُ للهِ﴾ اعترافاً بنعمه ﴿سَيُريكُمْ آياتِه﴾ يعني دلالاته الّتي ليس يمكنكم جحدها. وقال الحسن: معناه يريكم آياته في الآخرة فتعرفون أنّها على ما قال في الدنيا. وقيل: يريكم في الدنيا ما ترون من الآيات في السماء والأرض فتعرفونها أنّها حقّ، ذكره مجاهد. ثمّ قال: وليس ربّك يا محمّد ﴿بِغافِلٍ عَمّا تَعمَلُونَ﴾ من قرأ بالياء يعني عمّا يفعله المشركون. ومن قرأ بالتاء فعلى تقدير: قلْ لهم: ليس ربّكم بغافلٍ عمّا تعملونه، بل هو عالم بجميع ذلك فيجازيكم عليها وفي ذلك غاية التهديد.

# سورة القصص

مكّية في قول قتادة والحسن وعطاء وعِكرمة ومجاهد، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقال ابن عبّاس: آية منها نزلت بالمدينة. وقيل بالجحفة وهي قوله: ﴿إنّ الّذي فَرَضَ عَليكَ القُرآنَ لَرادّكَ إلى مَعاد﴾ وهي ثمانون وثمان آياتٍ بلا خلاف في جملتها، واختلفوا في رأس آيتين سأذكرها عند كتابتها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ
بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن
نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾.

خمس آياتٍ كوفي، وأربع فيما عداه. عدّ الكوفي ﴿طسم﴾ آية ولم يعدّها الباقون.

قد بيّنّا معنى هذه الحروف في أوائل السور في عدّة مواضع، فلا فائدة في إعادته، وقوّينا قول من قال: إنّها أسماء للسور.

وقوله: ﴿تِلْكَ آياتُ الكِتابِ﴾ أي تلك آيات الكتاب الّتي وعدتم بإنزالها. وقيل: معناه هذا القرآن هو الكتاب المبين، ذكره الحسن. وقيل في معنى ﴿المُبِين﴾ قولان: أحدهما: قال قوم: المبين أنّه من عند الله. وقال قتادة: المبين الرشد من الغيّ. والمبين هو البيِّن أيضاً. وأضاف الآيات إلى الكتاب، وهي الكتاب كما قال: ﴿إنّهُ لَحقُّ اليَقينِ﴾ (١).

ثمّ خاطب نبيّه صلى الله عليه وآله فقال: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ﴾ يا محمّد طرفاً من أخبار ﴿مُوْسَى﴾ عليه السلام ﴿وَفِرْعُونَ بالحَقِّ﴾ على حقيقة.

و«البيان» إظهار المعنى للنفس بما تميّزه من غيره، مشتقّ من أبنت كذا من كذا: إذا فصلته منه. و«البرهان» إظهار المعنى للنفس بما يدعو إلى أنّه حقّ ممّا هو حقّ في نفسه. و«التلاوة» الإتيان بالثاني بعد الأوّل في القراءة بما يتلوه تلاوة، فهو تالٍ لمقدّم، والمقدّم والتالي مثل الأوّل والثاني. و«النبأ» الخبر عمّا هو أعظم شأناً من غيره. و«الحق» هو بما يدعو إليه العقل، ونقيضه الباطل، وهو ما صرف عنه الحقّ.

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ معناه إنّا نتلو عليك هذه الأخبار لقوم يصدّقون باللّه وبما أُنزل عليك، لأنّهم المنتفعون به، و«الإيمان» التصديق بفعل ما يؤمن من العقاب.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿إنّ فِرْعَوْنَ عَلَا في الأرْضِ﴾ أي تجبّر وبغى ـ في قول قتادة وغيره ـ ببغيه واستعباد بني إسرائيل وقتل أولادهم. وقيل: بقهره وادّعائه الربوبيّة. وقيل: بشدّة سلطانه.

﴿وجَعَلَ أهلَها شِيَعاً﴾ أي قوماً ﴿يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ﴾ فيستعبدهم و﴿يُذَبِّحُ أبناءَهُمْ ويَسْتَحيي نِساءَهُمْ﴾ أي يستبقي بناتهم فلا يقتلهنّ، وقيل: إنّه

(١) الحاقّة: ٥١.

كان يأمر بإخراج أحيائهم الّذي فيه الولد. والأوّل هو الصحيح.

ثمّ أخبر تعالى وحكم بأنّ فرعون ﴿كانَ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾ في الأرض والعاملين بمعاصي الله. ثمّ وعد تعالى فقال: ﴿وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلَى الّذينَ استُضْعِفُوا في الأرْضِ﴾ وهو عطف على قوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ﴾ ونحن نريد أن نمنّ. وقال قتادة: يعنى من بني إسرائيل ﴿ونَجَعلَهُم أئمّة﴾ يقتدى بهم ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ﴾ لمن تقدّمهم من قوم فرعون.

وروى قوم من أصحابنا: أنّ الآية نزلت في شأن المهديّ عليه السلام وأنّ الله تعالى يمنّ عليه بعد أن استضعف، ويجعله إماماً ممكّناً، ويورثه ما كان في أيدي الظلمة[1].

قال السدّي: إنّ فرعون رأى في منامه أنّ ناراً أُقبلت من بيت المقدس حتّى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فسأل علماء قومه، فقالوا: يخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يده، فأمر بذبح أبنائهم واستحياء نسائهم، وأسرع الموت في شيوخ بني إسرائيل، فقالت القبط لفرعون: إنّ شيوخ بني إسرائيل قد فنوا، وصغارهم قد قتلتهم، فاستبقهم لعملنا وخدمتنا، فأمرهم أن يستحيوا في عام ويقتلوا في عام، فولد في عام الاستحياء هارون وولد في عام القتل موسى.

قال الضحّاك: عاش فرعون أربعمائة سنة، وكان قصيراً وسيماً، وهو أوّل من خضّب بالسواد. وعاش موسى مائة وعشرين سنة. وقيل: إنّ فرعون كان من أهل الإصْطَخر.

قوله تعالى:

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟

---

(١) انظر أمالي الصدوق: ٣٨٧ ح ٢٦، تفسير القمّي ٢: ١٣٣.

يَحْذَرُونَ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَـٰطِـِٔينَ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴿١٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿وحزناً﴾ بضمّ الحاء وإسكان الزاي، الباقون بفتحهما، وهما لغتان. يقال: حزن وحزن مثل نجل ونجل. وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿ويري فرعون وهامان﴾ بالياء ورفع «فرعون وهامان» بإسناد الرؤية إليهما، الباقون بالنون ونصب «فرعون وهامان» بإسناد الفعل إلى الله، وكونهما مفعولين.

لمّا أخبر الله تعالى أنّه يريد أن يمنّ على الّذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمّة أخبر في هذه الآية أنّه يريد أن يمكّنهم في الأرض، و«التمكين» هو فعل جميع مالا يصحّ الفعل ولا يحصل إلّا معه: من القدرة والآلة واللطف وغير ذلك. وقال الرمّاني: اللطف لا يدخل في التمكين، لأنّه لو دخل فيه لكان من لا لطف له لم يكن ممكناً، ولكن يقال: إنّه من باب إزاحة العلّة. ثمّ بيّن أنّه تعالى ﴿نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ﴾ يعني من بني إسرائيل ﴿ما كانُوا يَحْذَرُونَ﴾ من زوال ملكهم على يد رجل من بني إسرائيل، ولذلك ذبح فرعون أبناءهم. ومن قال: إنّ الآية في شأن المهديّ عليه السلام حمل فرعون وهامان على فرعون هذه الأمّة وهامانها، والكناية [في] ﴿منهم﴾ عائدة على أنصار المهديّ عليه السلام قالوا: وهذه أولى، لأنّه بلفظ الاستقبال، لأنّ في أوّله النون أو الياء على اختلاف القراءتين

وهما للمضارعة.

و«الحذر» توقّي ما فيه المضرّة، فهؤلاء الّذين طلبوا الحذر في غير وجهه، إذ قتلوا الأطفال ظلماً لأجله، ولو طلبوه بالرجوع إلى الله ودعائه ليكشف عنهم لكانوا طالبين له من وجهه.

وقوله: ﴿وأوحَينا إلى أمِّ مُوسَى﴾ أي ألهمناها وقذفنا في قلبها، وليس بوحي نوم ولا نبوّة، في قول قتادة وغيره. وقال الجبّائي: كان الوحي رؤيا منام، عبّر منه مؤمن به من علماء بني إسرائيل. وقوله: ﴿أنْ أرْضِعيهِ﴾ أي ألهمناها إرضاع موسى ﴿فإذا خِفْتِ عَليهِ فألقِيهِ في اليَمِّ﴾ فالخوف توقّع ضرر لا يؤمن به. وقال الزجّاج: معنى ﴿أوحينا إلى أمِّ موسى﴾ أعلمناها[1] وقوله: ﴿فألقيهِ في اليمِّ﴾ أمر من الله تعالى لأُمّ موسى أنّها إذا خافت على موسى من فرعون أن ترضعه وتطرحه في اليمّ. و«اليمّ» البحر، ويعني به النيل. ﴿ولا تَخافي ولا تَحْزَني﴾ نهي من الله تعالى لها من الخوف والحزن، فإنّه تعالى أراد [أن يزيل] خوف أُمّ موسى بما وعدها الله من سلامته على أعظم الأُمور في إلقائه في البحر الّذي هو سبب الهلاك في ظاهر التقدير، لولا لطف الله تعالى بحفظه حتّى يردّه إلى أُمّه. ووعدها بأنّه يردّه عليها بقوله: ﴿إنّا رادّوهُ إليكِ﴾ ووعدها أيضاً بأن يجعله من جملة الأنبياء المرسلين بقوله: ﴿وجاعِلُوهُ مِن المرسَلِينَ﴾.

ثمّ أخبر أنّ آل فرعون التقطوه، وفي الكلام حذف، لأنّ تقديره: أنّ أُمّ موسى طرحته في البحر ومضى في البحر إلى أن بلغ قصر فرعون فالتقطه آل فرعون. و«الالتقاط» هو إصابة الشيء من غير طلب، ومنه اللقطة، قال الراجز:

---

(١) معاني القرآن ٤: ١٣٢.

وَمَـنْهَلٍ وَرَدْتُـهُ التِـقاطا  لم ألقَ إذ وَرِدْتُه فُرّاطا[١]

وقوله: ﴿لِيكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ اللام لام العاقبة، لأنّهم لم يـلتقطوه لأن يصير لهم عدوّاً وحزناً، بل التقطوه ليكون قرّة عين لهم، ومثله قـول الشاعر:

لِدُوا لِلمَوتِ وابنُوا للخَرابِ[٢]

ومنه قوله: ﴿وَلَقدْ ذَرَأنا لِجَهنَّمَ كَثِيراً﴾[٣]. ثمّ أخـبر تـعالى ﴿إنّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئينَ﴾ عاصين لله في أفعالهم، ثمّ حكى تعالى أنّ امرأة فرعون لمّا جيء بموسى إليها ورأته وعطف الله بقلبها عليه جاءت به إلى فرعون، وقالت: ﴿قُرّةُ عَينٍ لي ولَكَ﴾ أي قرّة عين هـذا الولد لي ولك ﴿لا تَقتُلُوهُ عَسى أنْ يَنفَعنا أوْ نتّخِذَهُ وَلداً﴾ إذا ربيناه وكبر ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بأنّ هلاكهم على يديه، في قول قتادة.

ثـمّ قـال: ﴿وَأصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسَى فارِغاً﴾ قـال ابـن عـبّاس وقـتادة والضحّاك: معناه فارغاً من كلّ شيءٍ إلّا من ذكر موسى. وقال الحسن وابن زيد وابن إسحاق: فارغاً من وحينا بنسيانه، فإنّها نسيت ما وعدها الله به. وقيل: فارغاً من الحزن لعلمها، بأنّ ابنها ناجٍ سكوناً إلى ما وعد الله به.

وقوله: ﴿إنْ كادَتْ لَتُبدِي بِهِ﴾ قال ابن عبّاس وقتادة والسـدّي: مـعناه كادت لتبدي بذكر موسى وتقول: يا ابناه. وقيل: إن كادت لتبدي بالوحي.

وقوله: ﴿لَولا أنْ رَبطْنا عَلى قَلبِها﴾ فالربط على القلب تقويته على الأمر حتّى لا يخرج منه إلى مالا يجوز، وجواب «لولا» مـحذوف، وتـقديره:

---

(١) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٣١ ولم ينسبه لأحد.

(٢) صدر بيت وعجزه: فكُلّكُمُ يصير إلى تبابِ، للشاعر أبي العتاهية راجع ديوانه: ٢٣.

(٣) الأعراف: ١٧٩.

لولا أن ربطنا على قلبها لأظهرته. وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ المُؤمِنينَ﴾ معناه فعلنا ذلك بها لتكون من جملة المؤمنين المصدّقين بتوحيد الله وعدله.

قوله تعالى:

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن أُمّ موسى أنّها قالت لأخت موسى: قصّيه أي اتّبعي أثره، يقال: قصّه يقصّه قصّاً: إذا تبع أثره، ومنه القصص، لأنّه حديث يتبع بعضه بعضاً، يتبع الثاني للأوّل، و«الاقتصاص» اتّباع الجاني في الأخذ بمثل جنايته في النفس ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ معنى «فبصرت به» رأته، وهو لا يتعدّى إلّا بحرف الجرّ. والرؤية تتعدّى بنفسها. وقال مجاهد: معناه عن بعد، ومثله أبصرته عن جنابة، قال الأعشى:

أَتيتُ حُـرَيثاً زائِـراً عَـنْ جَـنابَةٍ ... فَكانَ حُرَيثُ عن عَطائي جامِدا[1]

أي عن بعد. وقيل: معنى ﴿عن جُنُب﴾ عن مكان جنب، وهو الجانب لأنّ الجنب صفة وقعت موقع الموصوف لظهور معناه، وكان ذلك أحسن وأوجز ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ قال قتادة: معناه وآل فرعون لا يشعرون أنّها أُخته.

---

(١) ديوان الأعشى: ٤٣.

وقوله: ﴿وَحرّمنا عَليهِ المراضِعَ﴾ وهي جمع مرضعة، ومعناه منعناه وبغّضناهنّ إليه، فكان ذلك كالمنع والنهي، لا أنّ هناك نهياً عن الفعل، قال الشاعر:

جاءت لتصرعني فقلت لها اقصري إنّي امرء صرعي عَليكِ حَرامُ[١]

أي ممتنع فإنّي فارس أمنعك من ذلك، ومثله قولهم: فلان حرام على نفسه كذا بالامتناع منه، كالامتناع بالنهي. وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل ردّه على أمّه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أدُلُّكُمْ عَلَى أهلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ﴾ معناه يضمنونه برضاعه والقيام عليه وينصحونه في ذلك، فقيل لأُخته من أين قلت: إنّهم ناصحون له أعرفت أهله؟ فقالت: إنّما عنيت ناصحون للملك.

و«النصح» إخلاص العمل من شائب الفساد، وهو نقيض الغشّ. نصح ينصح نصحاً، فهو ناصح في عمله، وناصح في نفسه في توبته: إذا أخلصها.

وقوله: ﴿فَرَدَدْناهُ إلى أُمّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها ولا تَحْزَنَ﴾ قيل: إنّ فرعون سأل أُمّه كيف يرتضع منك ولم يرتضع من غيرك ؟! قالت: لأنّي امرأة طيّبة الريح، طيّبة اللبن لا أكاد أُوتى بصبيّ إلّا ارتضع منّي. وبيّن تعالى أنّه إنّما فعل ذلك ﴿كَي تَقَرَّ عَينُها﴾ يعني عين أُمّه، فردّه عليها ﴿وَلِتَعْلَمَ أنّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ﴾ لابدّ من كونه.

ثمّ قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي الخلق ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما يراد بهم. وقيل: من قوم فرعون ما علمته أُمّ موسى، ومن لطيف تدبير الله تسخير فرعون لعدوّه حتّى تولّى تربيته.

وقوله: ﴿ولما بَلَغَ أَشدّهُ واستَوى﴾ قال قتادة: أشدّه ثلاث وثلاثون سنة،

---

(١) ديوان امرئ القيس: ١٦٣، وفيه: «جالت» بدل «جاءت».

واستواؤه أربعون سنة. وقيل: استواء قوّته ﴿آتيناه﴾ به يعني أعطيناه ﴿حُكماً وَعِلماً﴾ وقال السدّي: يعني النبوّة. وقال عكرمة: يعني العقل. وقال مجاهد: الفرقان. والحكم الخبر بما تدعو إليه الحكمة. والمعنى علّمناه من الحكمة ما تقتضي المصلحة، وأوحينا إليه بذلك. ثمّ قال: ومثل ما فعلنا به يجري أيضاً من فعل الإحسان وفعل الطاعات والأفعال الحسنة.

ثمّ أخبر تعالى أنّ موسى ﴿دَخَلَ المدينَةَ﴾ يعني مصر، وقيل: غيرها ﴿عَلى حِينِ غَفْلَةٍ من أهلِها﴾ وقيل: إنّه كان وقت القائلة. وقيل: لأنّهم غفلوا عن ذكره لبعد عهدهم به. وقيل: إنّه كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم.

وقوله: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذا مِن عَدُوِّهِ﴾ قال مجاهد: يعني من شيعته أنّه كان إسرائيليّاً والآخر أنّه كان قبطيّاً. وقال ابن إسحاق: كان أحدهما مسلماً والآخر كافراً.

﴿فاستَغاثَهُ الّذي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الّذي من عَدُوِّهِ﴾ أي استنصره لينصره ﴿فَوَكزَهُ مُوسَى﴾ أي دفع في صدره وجميع كفّه «ولكزه» مثل وكزه ولهزه ﴿فَقَضَى عَلَيهِ﴾ أي مات، فقال عند ذلك موسى: ﴿هَذا مِن عَمَلِ الشَيطانِ﴾ أي من إغوائه حتّى زدت من الإيقاع به وإن لم أقصد قتله. وقيل: إنّ الكناية عن المقتول، فكأنّه قال: إنّ المقتول من عمل الشيطان أي عمله عمل الشيطان. ثمّ وصف الشيطان بأنّه ﴿عَدوٌّ﴾ للبشر ظاهر العداوة.

وقوله: ﴿هَذا مِن شِيعَتِهِ وَهذا مِن عَدُوِّهِ﴾ إشارة إلى الرجلين اللذين أحدهما من شيعة موسى والآخر من عدوّه إنّما هو على وجه الحكاية للحاضر إذا نظر إليهما الناظر قال: هذا من شيعته وهذا من عدوّه.

قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ

رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن موسى أنّه حين قتل القبطي ندم على ذلك وقال: يا ﴿ربِّ إنّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتله، وسأله أن يغفر له، فحكى الله تعالى أنّه غفر له، لأنّ الله ﴿هُوَ الغَفُورُ﴾ لعباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم المنعم عليهم.

وعند أصحابنا أنّ قتله القبطي لم يكن قبيحاً وكان الله أمره بقتله، لكن كان الأولى تأخيره إلى وقت آخر لضرب من المصلحة، فلمّا قدّم قتله كان ترك الأولى والأفضل فاستغفر من ذلك، لا أنّه فعل قبيحاً.

وقال جماعة: إنّ ذلك كان منه صغيرة غير أنّها وقعت مكفّرة لم يثبت عليها عقاب، ويكون قوله: ﴿رَبِّ إنّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ على الوجه الأوّل أي بخست نفسي حقّها بأن لم أفعل ما كنت أستحقّ به ثواباً زائداً. وعلى المذهب الثاني مذهب من يقول بالموازنة يقول: لأنّه نقص من ثوابه، وكان بذلك ظالماً لنفسه.

فأمّا من قال: إنّ ذلك كان كبيرة منه وظلماً فخارج عمّا نحن فيه، لأنّ أدلّة العقل دلّت على أنّ الأنبياء لا يجوز عليهم شيء من القبائح، لا كبيرها ولا صغيرها. ومن قال: إنّه كان ذلك صغيرة قال: كان دفعه له المؤدّي إلى القتل صغيرة، لا أنّه قصد القتل وكان صغيرة.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِما أنعَمْتَ عَلَيَّ فَلن أكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجرِمينَ﴾ معناه إن

أنعمت عليَّ فلن أكون، فهو مشبّه بجواب الجزاء، ولذلك دخلت الفاء في الجواب، وإذا وقع الإنعام قيل: لما أنعمت فلن أكون، لأنّها في كلا الموضعين تدلّ على أنّ الثاني وقع من أجل الأوّل. ويحتمل أن يكون ذلك قَسَماً من موسى بنعم الله عليه بمغفرته وفنون نعمته بأن لا يكون معيناً على خطيئته ولا يكون ظهيراً. و«الظهير» المعين لغيره بما به يصير كالظهر له الّذي يحميه من عدوّه.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ في المَدينَةِ خائِفاً يَترَقَّبُ﴾ معناه أنّ موسى أصبح خائفاً من قتل القبطي يترقّب الأخبار، في قول ابن عبّاس. و«الترقّب» التوقّع وقوله: ﴿فإذا الَّذي استَنصرَهُ بالأمسِ يَستَصْرِخُهُ﴾ يعني رأى من كان استنصره بالأمس، بأن طلب نصرته على عدوّه ﴿يستَصْرِخُهُ﴾ أي يطلب نصرته أيضاً. وقيل: يطلب الصراخ على العدوّ بما يردعه عن الإيقاع بمن قد تعرض له.

﴿قالَ لَهُ مُوسَى إنّك لَغَويٌّ مُبينٌ﴾ أي عادل عن الرشد ظاهر الغواية، ومعناه أنّك لغويّ في قتالك من لا تطيق دفع شرّه عنك من أصحاب فرعون، خائب فيما تقدر أن تفعله.

وقوله: ﴿فَلَمّا أنْ أَرادَ أنْ يَبطِشَ بالَّذي هُوَ عَدوٌّ لَهُما﴾ قيل: إنّ موسى همَّ أن يدفع العدوّ عن نفسه وعن صاحبه ويبطش به ﴿قالَ يا مُوسَى أَتُريدُ أن تَقتُلَني كَما قَتَلتَ نَفْساً بالأمْسِ﴾ قال الحسن: هو من قول الفرعوني، لأنّه كان قد اشتهر أمر القتل بالأمس أنّه قتله بعض بني إسرائيل. وقال ابن عبّاس وأكثر أهل العلم: إنّه من قول الإسرائيلي، لأنّه قال [له] موسى: إنّك لغَويّ مبين، خاف على نفسه فظنّ أنّه يريد الإيقاع به فقال ما قال.

وقوله: ﴿إن تُريدُ إلّا أن تَكُونَ جَبّاراً في الأرْضِ﴾ أي لست تريد بقتل من

قتلته بالأمس إلّا أن تكون جبّاراً متكبّراً في الأرض ﴿وما تُرِيدُ﴾ أي ولست تريد ﴿أن تَكُونَ مِنَ﴾ جملة ﴿المُصْلِحينَ﴾.

وقوله: ﴿وَجاءَ رَجَلٌ مِن أقصى المدينَةِ يَسْعَى﴾ قيل: هو مؤمن آل فرعون ﴿قالَ يا مُوسَى إنّ الملأَ يأتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي يأمر بعضهم بعضاً بقتلك. وقيل: يأتَمِرُونَ معناه يرتاؤن. قال نمر بن تولب:

أَرَى الناسَ قد أحدثوا شِيمةً ... وفي كُلِّ حادثةٍ يُؤتَمَرْ[١]

أي يرتاء. وقال آخر:

ما تأتمرُ فينا فأمـ ... ـرُكَ في يَمينِكَ أو شِمالِكْ[٢]

فقوله: ﴿فاخْرُج إنّي لَكَ مِنَ الناصِحِينَ﴾ حكاية ما قال الرجل لموسى، وأنّه ناصح له بقوله، يحذّره من أعدائه. وقال الزجّاج: وقوله: ﴿لَكَ﴾ ليست من صلة ﴿الناصحين﴾ لأنّ الصلة لا تقدّم على الموصول، لكن تقديره: إنّي من الناصحين الّذين ينصحون لك، يقال: نصحت لك ونصحتك، والأوّل أكثر[٣].

قوله تعالى:

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴿٢٢﴾ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٠٠.

(٢) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٥٠، ولم ينسبه لأحد. (٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ١٣٨.

ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢٥).

خمس آيات كوفي، وستّ فيما عداه، عدّ الكلّ ﴿يسقون﴾ آية إلّا الكوفيّين فإنّهم عدوّها وما بعدها إلى ﴿كبير﴾ آية. قرأ أبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ﴿حتّى يصدر﴾ بفتح الياء وضمّ الدال، الباقون بضمّ الياء وكسر الدال. و«الصدر» الإنصراف عن الماء، صدر يصدر صدراً وأصدره غيره إصداراً، ومنه الصدر لأنّ التدبير يصدر عنه، والمصدر لأنّ الأفعال تصدر عنه. فمن فتح الياء أسند الفعل إلى الرعاء، ومن ضمّه أراد إصدارهم عنه ومواشيهم.

حكى الله تعالى أنّ موسى لمّا أنذره مؤمن آل فرعون وأنّ أشراف قومه ورؤساءهم قد ائتمروا على قتله وأمره بالخروج من المدينة خرج عليه السلام ﴿خائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ أي يطلب ما يكون ويتوقّعه. و«الترقّب» طلب ما يكون من المعنى على حفظه للعمل عليه، ومثله «التوقّع» وهو طلب ما يقع من الأمر متى يكون. وقال قتادة: وخرج منها خائفاً من قتله النفس يترقّب الطلب. وقيل: خرج بغير زاد، وكان لا يأكل إلّا حشاش[1] الصحراء إلى أن بلغ ماء مدين.

وقوله: ﴿قالَ رَبِّ نَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالِمينَ﴾ حكاية ما دعا به موسى ربّه، وأنّه سأله أن يخلّصه من القوم الظالمين الّذين ظلموا أنفسهم بالكفر باللّه، وذلك يدلّ على أنّ خوفه كان من القتل.

وقوله: ﴿ولمّا تَوَجَّهَ تِلقاءَ مَدْيَنَ﴾ فالتوجّه صرف الوجه إلى جهة من الجهات، ويقال: هذا المعنى يتوجّه إلى كذا أي هو كالطالب له بصرف وجهه إليه وتلقاء الشيء حذاه، ويقال: فعل ذلك من تلقاء نفسه أي من

(١) كذا في الحجريّة ولعلّ الصواب حشائش وفي مجمع البيان: «من حشيش الصحراء».

حذا داعي نفسه. و«مدين» لا ينصرف، لأنّه اسم بلدة معرفة، قال الشاعر:

رُهْبانُ مَدْينَ لَوْ رَأوْكِ تَنزّلُوا والعُصْمُ مِنْ شَعَفِ العُقول الفادرِ[1]

«الشعف» أعلى الجبل، و«الفادر» الكبير. وقال ابن عبّاس: بين مصر ومدين ثمان ليال، نحو ما بين الكوفة والبصرة.

وقوله: ﴿عَسَى رَبّي أَنْ يَهدِيَني سَواءَ السَبيلِ﴾ حكاية ما قال موسى في توجّهه، فإنّه قال: عسى أن يدلّني ربّي على سواء السبيل، وهو وسط الطريق المؤدّي إلى النجاة، لأنّ الأخذ يميناً وشمالاً يباعد عن طريق الصواب، ويقرب منه لزوم الوسط على السنن، فهذا هو المسعى في الهداية، وقال الشاعر:

حتّى أُغيَّب في سَواءِ المُلحَدِ[2]

أي في وسطه، وقال عطاء: عرضت له أربع طرق لم يدر أيّها يسلك فقال ما قال. ثمّ أخذ طريق مدين حتّى ورد على شعيب، وهو قول عِكْرِمة. ثمّ حكى تعالى أنّ موسى ﴿لمّا وَرَدَ ماءَ مَدْينَ وَجَدَ عَليهِ أُمَّةً﴾ يعني جماعة ﴿مِنَ الناسِ يَسْقُونَ﴾ بهائمهم ويستسقون الماء من البئر ﴿وَوَجدَ مِن دُونِهمُ﴾ يعني دون الناس ﴿امرأتين تَذُودانِ﴾ أي يحبسان غنمهما ويمنعانها من الورود إلى الماء، يقال: ذاد شاته وإبله عن الشيء يذودها ذوداً: إذا حبسها عنه بمنعها منه، قال سويد بن كراع:

أَبيتُ على باب القوافي كأنّما أذودنها سرياً من الوحش نُزَّعا[3]

وقال الآخر:

---

(١) قائله جرير، راجع شرح ديوان جرير: ٢٢٧.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٠١، ولم ينسبه لأحد.

(٣) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٥٣، وفيه: «أذود بها سرباً» بدل «أذودنّها سرياً».

وَقَدْ سَلَبتْ عَصاكَ بنو تَميمٍ فما تَدرِي بأيّ عَصاً تَذُودُ[١]

وقال الفرّاء: لا يقال: ذدت الناس، وإنّما قالوا ذلك في الغنم والإبل[٢].
وقال قتادة: كانتا تذودان الناس عن شائهما. وقال السدّي: تحبسان غنمهما.

فقال لهما موسى: ﴿ما خَطْبُكُما﴾ أي ما شأنكما ؟ في قول ابن إسحاق، قال الراجز:

يا عَجَبا ما خَطبُهُ وخَطْبي[٣]

و«الخطب» الأمر الّذي فيه تفخيم، ومنه الخطبة، لأنّها في الأمر المعظّم، ومن ذلك خطبة النكاح والخطاب، كلّ ذلك فيه معنى العظم.

فأجابتاه بأنّنا لا نسقي غنمنا حتّى يصدر الرعاء [و] واحد الرعاء راعٍ، ويجمع أيضاً رعاة ورعياناً. والمعنى أنّا لا نسقي حتّى ينصرف الرعاء ـ فيمن فتح الياء ـ أو يصرفون غنمهم ـ فيمن ضمّ الياء ـ لأنّا لا قوّة بنا على الإسقاء، وإنّما ننتظر فضول الماء في الحوض، في قول ابن عبّاس وقتادة وابن إسحاق. ﴿وأبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر على أن يتولّى ذلك بنفسه.

وقوله: ﴿فَسَقَى لَهُما﴾ قال شريح: رفع لهما حجراً عن بئر لا يقدر على رفعه إلّا عشرة رجال ثمّ استقى لهما. وقال ابن إسحاق: إنّه زحم الناس عن الماء حتّى أخّرهم عنه حتّى سقى لهما.

وقوله: ﴿ثمَّ تَوَلّى إلى الظِلِّ فَقَالَ رَبِّ إنّي لِما أَنزلْتَ إليَّ مِنْ خَيرٍ فَقيرٌ﴾ معناه أنّي إلى ما أنزلت، فاللام بمعنى إلى، و«ما» بمعنى الّذي وما بعده من صلته، و«لما» متعلّق بقوله: «فقير» وتقديره: أي فقير إلى ما أنزلت إليَّ من خير. قال ابن عبّاس: أدرك موسى جزع شديد، فقال: ﴿رَبِّ إنّي لِما أنزلْتَ

---

(١) قائله جرير، راجع ديوانه: ١٢٧. (٢) معاني القرآن ٢: ٣٠٥.
(٣) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٢٦ ونسبه إلى رؤبة وصدره: والعَبْدُ حَيّانُ بن ذات القَنْبِ.

إليَّ مِنْ خَيرٍ فقيرٍ﴾

وفي الكلام حذف، لأنّ التقدير: أنّ المرأتين عادتا إلى أبيهما وشكرتا فعله، فقال أبوهما لإحداهما: ادعيه لي لأجزيه على فعله ﴿فَجاءَت إحداهما تَمْشي عَلى استحياءٍ﴾ قيل: معناه مستترة بكمّ درعها أو قميصها، فقالت له: ﴿إنّ أبي يَدعُوكَ﴾ ليكافيك على ما سقيت لنا وإنّ موسى مشى معها حتّى وصل إليه ﴿وَقَصَّ عَليهِ القَصَصَ﴾ من أخباره وما مرّ عليه.

فقال له الشيخ: ﴿لا تَخَفْ نجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظالِمينَ﴾ قال ابن عبّاس: معناه ليس لفرعون سلطان بأرضنا. وقيل: كان الشيخ أبوهما شعيباً عليه السلام. وقال الحسن: بل كان رجلاً مسلماً على دين شعيب قَبِلَ الدين عنه، وشعيب مات قبل ذلك. وقال قوم: إنّه كان ابن أخي شعيب عليه السلام[1].

قوله تعالى:

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ عاصم ﴿جذوة﴾ بفتح الجيم، وقرأ حمزة وخلف بضمّها، الباقون بكسر الجيم، وفيه ثلاث لغات: فتح الجيم وضمّها وكسرها، والكسر أكثر

(١) أورد الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤: ٢٤٧.

وأفصح. و«الجذوة» القطعة الغليظة من الحطب فيها النار، وهي مثل الحزمة من أصل الشجر، وجمعها جذى، قال الشاعر:

كانَتْ حَوَاطِبُ لَيلَى يلتمسن لَهَا جَزْلَ الجِذَى غَير خَوّارٍ ولا ذَعِرِ[١]

وقال قتادة: الجذوة الشعلة من النار.

حكى الله تعالى أنّ إحدى المرأتين قالت لأبيها: ﴿يا أبتِ استأْجِرْهُ﴾ و«الاستئجار» طلب الإجارة، وهي العقد على أمر بالمعاوضة، يقال: أجره يأجره أجراً، وآجره إجارةً وإيجاراً، واستأجره استئجاراً، ومنه الأجير والمأجور. والأجر الثواب، وهو الجزاء على الخير.

ثمّ حكى أنّها قالت لأبيها: ﴿إنَّ خَيْرَ مَنِ استَأجَرْتَ القَويُّ الأمِينُ﴾ قال قتادة: عرفت قوّته بأنّه سقى الماشية بدلو واحد، وعرفت أمانته بغضّ طرفه، وأمره إيّاها بأن تمشي خلفه.

و«القويّ» القادر العظيم المقدور، ومنه وصف الله تعالى بأنّه القويّ العزيز، وأصل القوّة شدّة الفتل من قوى الحبل، وهي طاقاته الّتي يفتل عليها، ثمّ نقل إلى معنى القدرة على الفعل. والأمانة خاصّة للتأدية على ما يلزم فيها، وهي ضدّ الخيانة، والثقة مثل الأمانة.

ثمّ حكى ما قال أب المرأتين لموسى عليه السلام فإنّه قال له: ﴿إنّي أُريد أنْ أُنكِحَكَ إحدَى ابنَتَيَّ هاتَينِ﴾ أي أُزوّجك إحداهما. فالإنكاح عقد وليّ المرأة على غيره الزوجيّة، وهو تزويجه إيّاها، و«النكاح» تزوّج الرجل المرأة، يقال نكحها نكاحاً: إذا تزوّجها.

وقوله: ﴿عَلَى أنْ تأجُرَني ثَمانيَ حِجَجٍ﴾ معناه على أن تجعل أجري على تزويجي إيّاك ابنتي رعي ماشيتي ثماني سنين، لأنّه جعل صداق ابنته هذا

---

(١) أنشده الجوهري في الصحاح ٦: ٢٣٠٠، ونسبه إلى ابن مقبل، وفيه: «باتت» بدل «كانت» و«دَعِر» بدل «ذعر».

الّذي عقد عليه، وجعل الزيادة على المدّة إليه الخيار فيها، فلذلك قال: ﴿فإنْ أَتممْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي هبة منك غير واجب عليك.

ثمّ أخبر أنّه قال: ﴿وَما أُريدُ أنْ أشُقَّ عَلَيكَ﴾ بأن ألزمك عشر سنين ﴿سَتَجِدُني﴾ فيما بعد ﴿إنْ شَاءَ اللهُ مِنَ﴾ جملة ﴿الصالِحينَ﴾ الّذين يفعلون الخيرات. وتعليق الصلاح بمشيئة الله في الآية يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يريد بها الصلاح في الدنيا من صحّة الجسم وتمام القوّة، فإنّ الله تعالى يجوز أن يفعل بأنبيائه أمراضاً امتحاناً لهم ولطفاً، فلذلك قال: إن شاء الله.

والثاني: أن يكون أراد إن شاء الله يبقيني، لأنّه يجوز أن يخترمه الله فلا يفعل الصلاح الديني، فلذلك علّقه بمشيئة الله. ويحتمل أن يكون ذلك لاتّفاق الكلام ولا يكون خبراً قاطعاً، فلا يكون بمشيئة الله شرط في فعل الصلاح. وقال ابن عبّاس: إنّ موسى قضى أتمّ الأجلين وأوفاهما، وقيل: إنّه كان جعل لموسى كلّ سخلة تولد على خلاف شبه أُمّها فأوحى الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى موسى أن ألق عصاك في الماء فولدت كلّهنّ خلاف شبههنّ. وقيل: جعل له كلّ بلقاء فولدن كلّهنّ بلقاً.

ثمّ حكى تعالى أنّ موسى قال له: ﴿ذَلِكَ بَيْني وَبيْنَكَ أيَّما الأجَلَيْنِ قَضيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ﴾ أي لا تعدّي عليَّ، لأنّي مخيّر في ذلك ﴿وَاللهُ عَلَى ما نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي كافٍ وحسيب. وقيل: إنّه من قول الشيخ. ثمّ حكى تعالى أنّ موسى لمّا قضى الأجل تسلّم زوجته وسار بها إلى أن ﴿آنَسَ مِن جانِبِ الطُورِ ناراً﴾ أي أبصر أمراً يؤنس بمثله، و«الطور» الجبل، قال العجّاج:

آنَسَ خِرْبان فَضاءٍ فانكدرْ    دانَى جناحيه من الطور فَمرّْ[1]

---

(١) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٦٧.

فلمّا رأى ذلك قال لأهله: البثوا مكانكم، فإنّي أبصرت ناراً، فأمضي نحوها ﴿لَعلّي آتيكُم مِنها بخَبَر﴾ يعرف منه الطريق، فإنّه روي أنّه كان قد ضلّ عن الطريق[1] ﴿أوْ جَذْوةٍ مِنَ النارِ﴾ أي قطعة من الحطب غليظة فيها النار، وقيل: الجذوة الشعلة من النار لكي تصطلوا بها. وقيل: إنّهما كانا وجدا البرد فلذلك قال ما قال.

ثمّ حكى تعالى أنّ موسى لمّا أتى النار بأن قرب منها ﴿نُودِيَ من شاطِيءِ الوَادِ الأيمَنِ﴾ أي من جانبه وهو الشط، ويجمع شواطئ وشُطّاناً الأيمن من ﴿البُقْعَةِ المُبارَكَةِ﴾ يقال: بقعة وبقعة بالضمّ والفتح، وجمعه بقاع، ووصفها بأنّها مباركة لأنّه كلّم الله فيها موسى.

﴿مِنَ الشَجَرَةِ﴾ قيل: إنّ الكلام والنداء سمعه موسى من ناحية الشجرة، لأنّ الله تعالى فعل الكلام فيها، لا أنّ الله تعالى كان في الشجرة، لأنّه تعالى لايحويه مكان ولايحلّ في جسم، فتعالى الله عن ذلك ﴿أَنْ يا مُوسَى﴾ أي ناداه بأن قال له: يا موسى ﴿إنّي أنا اللهُ رَبُّ العالَمِينَ﴾ الّذي خلقت جميع الخلائق وأخرجتهم من العدم إلى الوجود.

قوله تعالى:

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا

(١) كمال الدين: ١٥١، في غيبة موسى عليه السلام.

بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴿٣٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ﴿مِنَ الرَهَب﴾ بفتح الراء والهاء ابن‌كثير ونافع وأبوجعفر وأبوعمرو، الباقون بضمّ الراء وسكون الهاء، إلّا حفصاً فإنّه قرأ بفتح الراء وسكون الهاء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿فَذانِكَ﴾ مشدّدة النون، الباقون بالتخفيف. وقرأ نافع ﴿رداً﴾ بفتح الدال من غير همز منوّناً. وقرأه أبو جعفر بألف بعد الدال من غير همز وغير تنوين، الباقون بسكون الدال وبعدها همزة مفتوحة منوّنة. وقرأ عاصم وحمزة ﴿يُصَدِّقُني﴾ بضمّ القاف، الباقون بالجزم.

«الرهب» و«الرهب» لغتان مثل النهر والنهر، والسمع والسمع. وقيل في تشديد ﴿ذانِكَ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: للتوكيد. الثاني: للفرق بين النون الّتي تسقط للإضافة وبين هذه النون. الثالث: للفرق بين بنية الاسم المتمكّن وغير المتمكّن. وروي عن ابن كثير أنّه قرأ ﴿فَذانِيكَ﴾ قال أبوعليّ: وجه ذلك أنّه أبدل من إحدى النونين ياءً[1]. كما قالوا: تظنّيت وتظنّنت. ومن جزم ﴿يُصَدِّقْني﴾ جعله جواباً للأمر، وفيه معنى الشرط، وتقديره: إن أرسلته صدّقني. ومن رفع جعله صفة للنكرة، وتقديره ردءاً مصدّقاً لي. وقال مقاتل: الرهب الكمّ، ويقال: وضعت الشيء في رهبي، أي في كمّي، ذكر الشعبي أنّه سمع ذلك من العرب. ومن شدّد ﴿ذانِكَ﴾ جعله تثنية «ذلك» ومن خفّف جعله تثنية «ذاك».

أخبر الله تعالى أنّه لمّا قال لموسى: ﴿إنّي أنا اللهُ رَبُّ العالَمِينَ﴾ أمره أيضاً أن يلقي عصاه، وأنّه ألقاها أي طرحها وأخرجها من يده إلى الأرض فانقلبت بإذن الله ثعباناً عظيماً ﴿تَهتَزُّ﴾ بإذن الله ﴿كَأَنّها جَانٌّ﴾ في سرعة حركته وشدّة اهتزازه، فعلم موسى عند ذلك أنّ الّذي سمعه من الكلام

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢٥٤.

صادر من الله، وأنّ الله هو المكلّم له دون غيره، لأنّ ذلك إنّما يعلمه بضرب من الاستدلال.

وقوله: ﴿وَلّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعقِّبْ﴾ أي لم يرجع، أي خاف بطبع البشريّة وتأخّر عنها ولم يقف ، فقال الله تعالى له: ﴿يا مُوسَى أقبِل ولا تَخَفْ إنّك مِنَ الآمِنينَ﴾ من ضررها. و«العصا» عود من خشب كالعمود. وفي انقلابه حيّة دليل على أنّ الجواهر من جنس واحد، لأنّه لا حال أبعد إلى الحيوان من حال الخشب وما جرى مجراه من الجماد، وذلك يقتضي صحّة قلب الأبيض إلى حال الأسود. و«الاهتزاز» شدّة الاضطراب في الحركة، والحيوان له حركة تدلّ عليه إذا رؤي عليها لا يشكّ في أنّه حيوان بها. وهي التصرّف بالنفس من غير ريح، ولا سبب يولد التصرّف مع كونه على البنية الحيوانيّة. وقيل: إنّ الله أمره أن يدخل يده في فيها، ففعل فعادت عصا كما كانت. ثمّ أمره الله أن يسلك يده في جيبه، أي بأن يدخلها فيه، وكان أسمر شديدة السمرة فلمّا أخرجها خرجت بيضاء نقيّة ﴿مِن غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي من غير برص.

وقوله: ﴿واضْمُمْ إلَيكَ جَناحَكَ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد: يعني يدك ﴿مِنَ الرَهْبِ﴾ يعني من الرعب، والفرق الّذي لحقه لأجل الحيّة، في قول مجاهد وقتادة.وقال قوم: إنّ معناه أمر له بالعزم على ما أُريد له ممّا أمر به، وحثّه على الجدّ فيه، ويمنعه ذلك من الخوف الّذي لحقه، ولا يستعظم ذلك، فيكون ذلك مانعاً ممّا أُمر به، كما قال:﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأَخِيكَ﴾ ولم يرد خلاف الحلّ فكذلك الضمّ ليس يراد به الضمّ المزيل للفرجة، ومثله قول الشاعر:

أُشْدُدْ حَيازِيمَكَ للمَوْت فإنّ المَوْتَ لاقيكَ
ولا تَجْزَعْ مِنَ المَوتِ إذا حَلَّ بـوادِيكَ[1]

وإنّما يريد تأهّب له. ثمّ قال: ﴿فَذانِكَ﴾ يعني قلب العصا حيّة وإخراج اليد البيضاء ﴿بُرهانانِ﴾ أي دليلان واضحان من الله في إرسالك إلى فرعون وأشراف قومه.

ثمّ أخبر تعالى أنّ فرعون وقومه ﴿كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾ خارجين من طاعة الله إلى معاصيه. ثمّ حكى تعالى ما قال موسى، فإنّه قال: يا ربّ ﴿إنّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفساً﴾ يعني القبطي الّذي وكزه فقضى عليه ﴿فأَخافُ أنْ يَقْتُلوني﴾ بدله. وقال أيضاً: ﴿وأَخي هارُونَ هُوَ أفصَحُ مِنّي لِساناً﴾ لأنّ موسى كان في لسانه عقدة ولم يكن كذلك هارون، وسأل الله تعالى أن يرسل هارون معه.

﴿رِدْءاً﴾ أي عوناً، و«الردء» العون الّذي يدفع السوء عن صاحبه، ومنه رَدُؤَ الشيء يردؤ رداءة فهو رديء، فالردء المُعين في دفع الردءة عن صاحبه. ويقال: ردأته أردأه ردءاً: إذا أعنته. وأردأته أيضاً لغتان.

وقوله: ﴿يُصدّقُني﴾ من جزمه جعله جواب الأمر، ومن رفعه جعله صفة للنكرة، وتقديره: ردءاً مصدّقاً. ﴿إنّي أخافُ أنْ يُكَذِّبُونِ﴾ في ادّعاء النبوّة والرسالة.

وقيل: إنّ موسى ما سأل ذلك إلّا بإذن الله، لأنّه لا يجوز أن يسأل نبيّ أن يرسل معه إنساناً آخر نبيّاً، وهو لا يعلم أنّه يصلح لذلك فلا يجاب إليه، فإنّ ذلك ينفر عنه.

فقال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأَخِيكَ﴾ أي سنقوّيك به بأن نقرنه إليك

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٧٢.

في الرسالة لنقوّي بعضكما ببعض. ﴿وَنَجْعلُ لَكُما سُلطاناً﴾ يعني حجّة وقوّة، وهي الّتي كانت لهما بالعصا. و«السلطان» القوّة الّتي يدفع بها على الأمر، والسلطان الحجّة الظاهرة، وتقديره: ونجعل لكما سلطاناً ثابتاً ﴿فَلا يَصلُونَ إليكُما﴾ فيه تقديم وتأخير.

ثمّ قال تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إليكُما﴾ يعني فرعون وقومه لا يتمكّنون من قتلكما ولا أذاكما. ثمّ قال: ﴿بآياتِنا﴾ أي بحججنا وبراهيننا ﴿أنتُما وَمَنِ اتّبعكُما﴾ من بني إسرائيل وغيرهم ﴿الغالِبُونَ﴾ لفرعون، فعلى هذا يكون ﴿أنتما﴾ مبتدءاً ﴿وَمنِ اتّبعكما﴾ عطفاً عليه و﴿الغالِبُونَ﴾ خبره و﴿بآياتِنا﴾ متعلّق بقوله: ﴿الغالبون﴾. وعلى الوجه الآخر يكون ﴿بآياتِنا﴾ متعلّقاً بقوله: ﴿ونَجْعلُ لكُما سُلطاناً .... بآياتِنا﴾ قال الزجّاج: يجوز أن يكون ﴿بآياتنا﴾ متعلّقاً بقوله: ﴿فلا يَصِلُونَ إليكما﴾ بآياتنا وحججنا[1] وكلّ ذلك محتمل.

قوله تعالى:

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ﴿قال مُوسَى﴾ بلا واو، وكذلك هو في مصاحف أهل مكّة،

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ١٤٤.

الباقون بالواو وكذلك هو في المصاحف. وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿من يكون﴾ بالياء، الباقون بالتاء. من قرأ بالياء فلأنّ تأنيث العاقبة ليس بحقيقي. ومن قرأ بالتاء فلأنّ لفظه مؤنث. تقدير الكلام: أنّ موسى مضى إلى فرعون ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسَى بآياتِنا﴾ أي حججنا ﴿بيّناتٍ﴾ أي ظاهرات ﴿قَالُوا﴾ يعني فرعون وقومه ليس ﴿هذا﴾ الّذي يدّعيه ﴿إلّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ أي مختلق مفتعل.

والفرق بين «لو» و«لمّا» أنّ «لو» لتقدير وقوع الثاني بالأوّل، و«لمّا» للإيجاب في وقوع الثاني بالأوّل. وقولك: ولو جاءهم موسى بآياتنا قالوا ليس فيه دليل أنّهم قالوا. وفي «لمّا» دليل على أنّهم قالوا عقيب مجيء الآيات.

وقوله: ﴿سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ أي سحر مختلق لم يبن على أصل صحيح، لأنّه حيلة موهم خلاف الحقيقة، فوصفوا الآيات بالسحر والاختلاق على هذا المعنى جهلاً منهم وذهاباً عن الصواب.

وقوله: ﴿ما سَمِعنا بِهذا في آبائِنا الأوّلين﴾ أي لم نسمع ما يدّعيه ويدعو إليه في آبائنا الّذين كانوا قبلنا، وإنّما قالوا: ﴿ما سَمِعنا بهذا في آبائِنا الأوّلينَ﴾ مع شهرة قصّة قوم نوح وصالح وغيرهم من النبيّين الّذين دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته لأحد أمرين:

أحدهما: للفترة الّتي دخلت بين الوقتين وطول الزمان جحدوا أن تقوم به حجّته.

والآخر: أنّ آباءهم ما صدّقوا بشيء من ذلك ولا دانوا به، ووجه الشبهة في أنّهم ما سمعوا بهذا في آبائهم الأوّلين أنّهم الكثير الّذين لو كان حقّاً لأدركوه، لأنّه لا يجوز أن يدرك الحقّ الأنقص في العقل والرأي،

ولا يدركه الأفضل منهما. وهذا غلط، لأنّ ما طريقه الاستدلال قد يصيبه من سلك طريقه ولا يصيبه من لم يسلك طريقه.

ثمّ حكى ما قال موسى بأنّه قال: ﴿ربّي أعْلَمُ بِمَن جَاءَ بالهُدَى﴾ أي بالدين الواضح والحقّ المبين من عنده، ووجه الاحتجاج بقوله: ﴿ربّي أعلم بمن جاء بالهُدَى مِنْ عِندِه﴾ أنّه عالم بما يدعو إلى الهدى ممّا يدعو إلى الضلال، فلا يمكن من مثل ما أتيت به من يدعو إلى الضلال، لأنّه عالم بما في ذلك من فساد العباد.

ثمّ بيّن هذا بقوله: ﴿إنّه لا يُفْلِحُ الظالِمُونَ﴾ وإنّ عاقبة الصلاح لأهل الحقّ والإنصاف، وهو كما تقول على طريق المظاهرة بحمل الخطاب: الله أعلم بالمحقّ منّا من المبطل، وحجّتي ظاهرة فاكسرها إن قدرت على ذلك. ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدارِ﴾ يعني الجنّة والثواب في الآخرة ﴿إنّه لا يُفلِحُ﴾ أي لا يفوز بالخير من ظلم نفسه وعصى ربّه وكفر نعمه.

ثمّ حكى تعالى ما قال فرعون عند سماع كلام موسى لقومه فإنّه قال لهم: ﴿يا أيُّها الملأ ما عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إلهٍ غَيري﴾ فلا تصغوا إلى قوله حين أعياه الجواب وعجز عن محاجّته. ثمّ قال لهامان: ﴿أوقِدْ لي يا هامانُ على الطِينِ فَاجعَلْ لي صَرْحاً﴾ قال: فالصرح البناء العالي كالقصر، ومنه التصريح شدّة ظهور المعنى، قال الشاعر:

بهنّ نعامٌ بناها الرجا ل تحسب أعلامَهنّ الصروحا[1]

جمع صرح وهي القصور، وقال قتادة: أوّل من طبخ الآجر وبنى به فرعون. ويقال: الآجر بالتخفيف والتثقيل والآجور ثلاث لغات.

وقوله: ﴿لَعلّي اطّلعُ إلى إله مُوسَى﴾ فالاطّلاع الظهور على الشيء من

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٩٥، ونسبه إلى أبي ذؤيب، وفيه: «تشبّه» بدل «تحسب».

عل، وهو الإشراف عليه. وقوله: ﴿وإنّي لأظُنّهُ مِنَ الكاذِبينَ﴾ حكاية ما قال فرعون فإنّه قال: أظنّ موسى من جملة الّذين يكذبون، ثمّ أخبر تعالى أنّ فرعون استكبر وكذلك جنوده، واستكبروا ﴿في الأرض بغَيرِ الحقّ وظَنّوا أنّهم إلينا لا يُرْجَعُونَ﴾ إلى الله وإلى ثوابه وعقابه.

وقوله: ﴿فأخذناهُ وجُنُودَهُ فَنَبذناهُمْ في اليَمِّ﴾ إخبار منه تعالى أنّه أخذ فرعون وجنوده أي جمعهم وطرحهم في البحر وغرقهم. و«النبذ» الإلقاء، قال أبو الأسود الدؤلي:

نـظرت إلى عـنوانِـهِ فَـنَبذتُه كَنبذِكَ نَعْلاً أخلقت من نعالِكا[1]

وقال قتادة: البحر الّذي غرق فيه فرعون يقال له: أساف على مسيرة يوم من مصر.

قوله تعالى:

وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّـآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

أخبر الله تعالى أنّه جعل فرعون وقومه ﴿أئمّة يَدْعُونَ إلى النارِ﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: أنا عرفنا الناس أنّهم كانوا كذلك، كما يقال: جعله رجل شرّ بتعريفنا حاله. والثاني: أنّا حكمنا عليهم بذلك، كما قال: ﴿ما جَعَلَ اللهُ مِن

(١) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٧٤.

بَحِيرَةٍ ولا سَائِبَةٍ﴾[١] وكما قال: ﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ الجِنَّ﴾[٢] وإنّما قال ذلك وأراد أنّهم حكموا بذلك وسمّوه. والجعل على أربعة أقسام:

أحدها: بمعنى الإحداث، كقوله: ﴿وَجَعَلْنا اللّيلَ والنّهارَ آيَتَينِ﴾[٣] وقوله: ﴿وَجَعَلْنا السّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾[٤].

الثاني: بمعنى قلبه من حال إلى حال، كجعل النطفة علقة إلى أن تصير إنساناً.

الثالث: بمعنى الحكم أنّه على صفة، كما قال: إنّه جعل رؤساء الضلالة يدعون إلى النار أي حكم بذلك.

الرابع: بمعنى اعتقد أنّه على حال، كقولهم: جعل فلان فلاناً راكباً: إذا ما اعتقد فيه ذلك. و«الإمام» هوالمقدّم للاتّباع يقتدون به، فرؤساء الضلالة قدّموا في المنزلة لاتّباعهم فيما يدعون إليه من المغالبة، وإنّما دعوهم إلى فعل ما يؤدّي بهم إلى النار، فكان ذلك كالدعاء إلى النار. و«الداعي» هو الطالب من غيره أن يفعل إمّا بالقول أو ما يقوم مقامه، فداعي العقل بالإظهار الّذي يقوم مقام القول. وكذلك ظهور الإرادة يدعو إلى المراد.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ القِيامَةِ لايُنْصَرُونَ﴾ معناه: أنّهم كانوا يتناصرون في الدنيا وهم لا ينصرون فيالآخرة بنصر بعضهملبعض، ولاغيره وإنأحد ينصرهم.

وقوله: ﴿واتَبعْناهُمْ في هَذِه الدُنيا لَعْنَةً﴾ معناه ألحقنا بهم في هذه الدنيا لعنة بأن لعنّاهم وأبعدناهم من رحمتنا. وقال أبو عبيدة: معناه ألزمناهم[٥]. بأن أمرنا بلعنهم قوماً بعد قوم ﴿وَيَوْمَ القِيامَةِ هُمْ مِنَ المقبوُحِينَ﴾ مع اللعنة. و«الاتّباع» إلحاق الثاني بالأوّل، فهؤلاء الدعاة إلى الضلالة أُلحقوا اللعنة

(١) المائدة: ١٠٣. (٢) الأنعام: ١٠٠. (٣) الإسراء: ١٢.
(٤) الأنبياء: ٣٢. (٥) مجاز القرآن ٢: ١٠٦.

تدور معهم حيث ما كانوا، وفي ذلك أعظم الزجر عن القبيح. وقيل: المقبوح المشوّه بخلقته لقبيح عمله، ويقال: قبحه الله يقبحه قبحاً، فهو مقبوح: إذا جعله قبيحاً. وقال أبو عبيدة: معنى المقبوحين المهلكين(١).

ثمّ أخبر تعالى أنّه أعطى موسى الكتاب يعني التوراة من بعد أن ﴿أهلكنا القُرُون الأُولى﴾ من قوم فرعون وغيرهم، وأنّه فعل ذلك ﴿بَصآئِرَ للنّاسِ﴾ وهي جمع بصيرة يتبصّرون بها ويعتبرون بها، وجعل ذلك هدى يعني أدلّة وبياناً، ورحمة أي ونعمة عليهم، لكي يتذكّروا ويتفكّروا فيعتبروا به.

وقوله: ﴿وما كُنتَ بِجانبِ الغَربيِّ إذ قَضَيْنا إلى مُوسَى الأمرَ وما كُنتَ مِنَ الشاهِدِينَ﴾ معناه ما كنت بجانب الغربي [أي] الجبل ـ في قول قتادة ـ حين قضينا إليه الأمر أي فصّلنا له الأمر بما ألزمناه وقومه وعهدنا إليه فيهم، فلم تشهد أنت ذلك ﴿ولكنّا أنشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِم العُمُرُ وَما كُنتَ ثاوِياً في أهلِ مَدْيَنَ﴾ أي مقيماً فالثاوي المقيم، قال الأعشى:

أثْــوَى وَقَــصّرَ لَــيْلَةً ليــزوّدا وَمَضَى وأَخلَفَ من قُتَيلَةَ مَـوْعِدا(٢)

﴿تَتْلُو عَلَيْهِم آياتِنا ولَكِنّا كُنّا مُرْسِلِينَ﴾ والمعنى أنّك لم تشهد إحساننا إلى عبادنا بإرسال الرسل ونصب الآيات وإنزال الكتب بالبيان والهدى وما فيه الشفاء للعمى، كما يقول: لم يرَ أيّ شيءٍ(٣) كان هناك، تفخيماً لشأنه مع أنّك إنّما تخبر به عنّا، ولولا ما أعلمناك منه لم تهتد له.

قوله تعالى:

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم

---

(١) مجاز القرآن ٢: ١٠٦. (٢) ديوان الأعشى: ٥٤.

(٣) كذا في الحجريّة، ولعلّ الصواب كما يقال: «لم ترأيّ شيء كان هناك».

مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة ﴿سِحْرانِ﴾ بغير ألف. الباقون ﴿ساحِرانِ﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: قال مجاهد: أراد موسى وهارون.

والثاني: قال ابن عبّاس: أراد موسى ومحمّداً ﴿تَظاهَرا﴾: أي تعاونا.

ومن قرأ ﴿سِحْرانِ﴾ قال ابن عبّاس: أراد التوراة والقرآن. وقال الضحّاك: أراد الإنجيل والقرآن. وقال عِكرمة: أراد التوراة والإنجيل. ومن اختار ﴿ساحِرانِ﴾ فلأنّه قال تظاهرا وذلك إنّما يكون بين الساحرين دون السحرين. ومن قرأ ﴿سِحْرانِ﴾ قال في ذلك ضرب من المجاز، كما قال: ﴿بِكتابٍ مِنْ عندِ الله هُوَ أهدَى﴾ [1] والكتاب يهتدى به ولا يهدي، وإنّما يقال ذلك مجازاً.

يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿ما كُنتَ بِجانِبِ الطُورِ﴾ الّذي كلّم الله عليه موسى حين ناداه وكلّمه، وقال له: ﴿إنّني أنَا اللهُ﴾ [2] ﴿يا مُوسَى أقْبِلْ ولا تَخَفْ إنّك مِنَ الآمِنينَ﴾ [3] ﴿فَخُذْها بِقُوَّةٍ﴾ [4] وقيل: إنّ هذه المرّة الثانية الّتي كلّم الله فيها موسى ﴿ولكن رَحمةً مِن ربّكَ﴾ ومعناه لكن آتيناك علم

(١) القصص: ٤٩. (٢) طه: ١٤. (٣) القصص: ٣١. (٤) الأعراف: ١٤٥.

ذلك رحمة من ربّك ونعمة عليك لما فيه من العبرة والموعظة، وأنّ سبيلك لسبيل غيرك من النبيّين في التأييد والمعجزة الدالّة على النبوّة.

وقوله: ﴿لتُنذِرَ قَوْماً ما أتاهُم مِن نَذِيرٍ مِن قَبْلِكَ﴾ فالإنذار الإعلام بموضع المخافة ليتّقى، فالنبيّ ﷺ نذير لأنّه مُعْلِم بالمعاصي وما يستحقّ عليها من العقاب، لتتّقى بالطاعات. و«النذر» العقد على ضرب من البرّ بالسلامة من الخوف، والمعنى: إنّا أعلمناك لتخوّف قوماً لم يأتهم مخوّف قبلك ليتذكّروا ويعتبروا وينزعوا عن المعاصي. و«التذكّر» طلب الذكر بالفكر والنظر.

وقوله: ﴿ولَوْلا أنْ تُصِيبَهُمْ مُصيبةٌ بِما قَدَّمَتْ أيدِيهِم﴾ أي لولا أن تلحقهم مصيبة جزاءاً على ما كسبت أيديهم فيقولوا حينئذٍ: ﴿لولا أرسلتَ إلينا رَسُولاً﴾ أي هلّا أرسلت إلينا من ينهانا عن المعاصي ويدعونا إلى الطاعات ﴿فَنَتَّبِعَ آياتِكَ﴾ أي أدلّتك وبيّناتك ﴿ونَكُونَ مِنَ المؤمنينَ﴾[1] بوحدانيّتك لأهلكناهم عاجلاً بكفرهم. فجواب «لولا» محذوف لدلالة الكلام عليه، لأنّ معنى الكلام الامتنان عليهم بالإمهال حتّى يتذكّروا ما أتى به الرسول ﷺ. وقال قوم جواب «لولا» ﴿أرسلْتَ إلينا رَسُولاً﴾.

وفي الآية دلالة على وجوب فعل اللطف، لأنّه لو لم يكن فعله واجباً لم يكن للآية معنى صحيح.

ثمّ أخبر تعالى أنّه ﴿فَلَمّا جَاءَهُمْ﴾ يعني الكفّار ﴿الحَقُّ مِنْ عِندِنا﴾ من عند الله من القرآن والأدلّة الدالّة على توحيده ﴿قَالُوْا﴾ عند ذلك: هلّا أُوتي محمّد من المعجزات ﴿مِثْلَ ما أُوتي مُوسَى﴾ من قَبْل من فلق البحر وقلب العصا حيّة وغير ذلك.

فقال الله تعالى: ﴿أوَ لَمْ يَكفُرُوا بِمَا أُوتي مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ قال الجبّائي:

---

(١) في الحجريّة ومخطوطة: «المصدّقين».

معنى ﴿أَوَ لَمْ يكفُرُوا﴾ أي أولم يكفر من كان في عصر موسى وهارون، ونسبهما إلى السحر فـ﴿قالوا ساحِران تَظاهرَا﴾ أي موسى ومحمّد، في قول ابن عبّاس. وفي قول مجاهد: موسى وهارون.

ومن قرأ ﴿سِحْران﴾ أراد التوراة والقرآن أو التوراة والإنجيل أو الإنجيل والقرآن، على ما حكيناه بخلاف فيه وأنّهم قالوا مع ذلك: ﴿إنّا بكُلٍّ كافِرُونَ﴾ أي بكلّ ما أمر به، وذكر أنّه من عند الله. ويحتمل أن يكون المراد بموسى وهارون. وقال الحسن: المعني بقوله ﴿إنّا بِكُلٍّ كافِرُونَ﴾ مشركو العرب الّذين كفروا بالتوراة والإنجيل والقرآن.

ثمّ أمر تعالى نبيّه ﷺ أن يقول لكفّار قومه: ﴿فأتُوا بِكتابٍ مِنْ عِندِ اللهِ هو أهْدَى مِنْهُما﴾ يعني من كتاب موسى وكتاب محمّد، في قول ابن زيد ﴿اتّبعه إنْ كنتُمْ صادِقينَ﴾ فيما تدعونه.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿فإنْ لَمْ يَستَجيبُوا لَكَ﴾ مع ظهور الحقّ ﴿فاعْلَمْ أنّما يَتَّبعُونَ أهواءَهُمْ﴾ أي ماتميل طباعهم إليه، لأنّ الهوى ميل الطبع إلى المشتهى، وما عمل على أنّه حسن للهوى فلا يجوز أن يكون طاعته[1] لكنّه أُبيح أن يفعله على هذا الوجه كما أُبيح أن يفعله للّذة والشهوة والاستمتاع به. وإنّما يكون طاعة لله ما عمل على أنّه حسن لأنّ الحكم دعا إليه، أو لأنّ الحكمة دعت إليه، إذ كلّما دعت إليه الحكمة بالترغيب فيه فالحكم داع إليه.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتّبعَ هَواهُ بِغَيْر هُدًى مِنَ اللهِ إنّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْم الظالِمينَ﴾ أي لا يهديهم إلى طريق الجنّة. ويجوز أن يكون المراد لايحكم بهدايتهم، لأنّهم عادلون عن طريق الحقّ.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِ

(١) في المطبوعة: طاعة.

هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى: إنّا ﴿وَصَّلْنا﴾ لهؤلاء الكفّار ﴿القَوْلَ﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: قال ابن زيد: ﴿وصَّلْنا لَهُمُ القَوْلَ﴾ في الخبر عن أمر الدنيا والآخرة.

الثاني: قال الحسن البصري: ﴿وصّلْنا لَهُمُ القَوْلَ﴾ بما أهلكنا من القرون قرناً بعد قرن، فأخبرناهم أنّا أهلكنا قوم نوح بكذا وقوم هود بكذا، وقوم صالح بكذا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن كان قبلهم.

وأصل التوصيل من وصل الحبال بعضها ببعض، ومنه قول الشاعر:

فَقلْ لبني مَرْوانَ ما بال ذِمّةٍ وحبلٍ ضَعيفٍ ما يزالُ يوصَّل[1]

والمعنى أنّا أتبعنا القرآن بعضه بعضاً. وقيل: معناه فصّلنا لهم القول.

وقوله: ﴿الّذِينَ آتَيناهُم الكِتابَ﴾ يعني التوراة ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ يعني من قبل القرآن، وقد تقدّم ذكره في قوله: ﴿فَلَمّا جاءَهُم الحَقُّ مِن عندنا قالوا لولا أُوتي مِثْلَ ما أُوتي مُوسَى أَوَ لَمْ يكفُرُوا بِما أُوتي مُوسَى مِن قَبْلُ﴾[2].

وقوله: ﴿هُم بِهِ يؤمِنُونَ﴾ أي هم بالقرآن يصدّقون من قبل نزوله وبعد نزوله. ويحتمل أن تكون الكناية عن النبيّ صلى الله عليه وآله وتقديره: الّذين آتيناهم الكتاب من قبل محمّد هم بمحمّد يؤمنون، لأنّهم كانوا يجدون صفته في التوراة.

ثمّ قال: ﴿وإذا يُتلَى عَلَيْهِمْ﴾ يعني القرآن ﴿قَالُوا آمَنّا بِهِ﴾ أي صدّقنا به ﴿إنَّهُ الحَقُّ مِن رَبّنا إنّا كُنّا﴾ من قبل نزوله ﴿مُسْلِمينَ﴾ به مستمسكين بما فيه.

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٠٨، ونسبه إلى الأخطل.
(٢) القصص: ٤٨.

ثمّ أخبر تعالى أنّ هؤلاء الّذين وصفهم يعطيهم الله أجرهم أي ثوابهم على ما صبروا في جنب الله ﴿مرّتَين﴾ إحداهما: لفعلهم الطاعة، والثانية: للصبر عليها لما يوجبه العقل من التمسّك بها.

و«الصبر» حبس النفس عمّا تنازع إليه فيما لا يجوز أن يتخطّأ إليه، ولذلك مدح الله الصابرين. والصبر على الحقّ مرّ إلّا أنّه يؤدّي إلى الثواب الّذي هو أحلى من الشهد، فهؤلاء صبروا على الامتناع من المعاصي وعلى فعل الطاعات. وقيل: صبروا على الأذى في جنب الله.

ثمّ وصف الصابرين الّذين ذكرهم فقال: ﴿وَيَدرؤُنَ بالحَسنَةِ السَيئَةَ﴾ يعني يدفعون بالتوبة المعاصي، لأنّ الله تعالى يسقط العقاب عندها. وقيل: معناه يدفعون بالكلام الجميل اللغو من كلام الكفّار. وقيل: إنّ ذلك قبل الأمر بقتالهم، ولا يمتنع أن يؤمروا بالإعراض عن مكالمتهم مع الأمر بقتالهم، ولا تنافي بينهما على حال.

ثمّ قال: ﴿ومِمّا رَزَقْناهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي جعلنا لهم التصرّف فيها، وملّكناهم إيّاها ينفقون في طاعة الله وفي سبيل الخير، وإذا سمعوا لغواً من الكلام ورأوا لغواً من الفعل أعرضوا عنه ولم يخاصموا فيه، فقالوا لفاعل اللغو: ﴿لَنا أَعمالُنا وَلَكُمْ أعمالُكُمْ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي ويقولون لهم قولاً يسلمون منه. ويقولون: ﴿لا نَبتَغِي الجاهِلِينَ﴾ أي لا نطلبهم ولا نجازيهم على لغوهم. و«اللغو» الفعل الّذي لا فائدة فيه، وإنّما يفعله فاعله على توهّم فاسد، واللغو واللغا بمعنى واحد، قال الشاعر:

عن اللّغا وَرَفَثِ التَكلُّمِ (١)

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ١: ٧٠، ونسبه إلى العجّاج.

ومن أحسن الأدب الإعراض عن لغو الكلام. وقيل: إنّ هذه الآيات نزلت في عبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي لمّا أسلموا نزلت فيهم هذه الآيات، على ما ذكره قتادة.

وقال غيره: إنّها نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبيّ صلى الله عليه وآله قبل مبعثه: اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه، وثمانية قدموا من الشام منهم بحيرا وابرهه والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع. قال قتادة: آتاهم الله أجرهم مرّتين، لإيمانهم بالكتاب الأوّل وإيمانهم بالكتاب الثاني.

قوله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ أهل المدينة ورويس ﴿يُجبَى﴾ بالياء، الباقون بالتاء. وقرأ أبو عمرو إلّا السوسي ﴿يَعقِلُونَ﴾ بالياء.

يقول الله تعالى لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله: ﴿إنّكَ﴾ يا محمّد ﴿لا تَهدي مَن أَحببتَ﴾ هدايته. وقيل: معناه من أحببته لقرابته. والمراد بالهداية ـ هاهنا ـ اللطف الّذي يحتاج إليه ليختار عنده الإيمان، وذلك لا يقدر عليه غير الله، لأنّه إمّا

أن يكون من فعله خاصّة أو بإعلامه، لأنّه لا يعلم ما يصلح العبد في دينه إلّا الله تعالى، فإذا دبّر الأُمور على ما فيه صلاحه كان لاطفاً له، وهذا التدبير لا يتأتّى من أحد سوى الله تعالى، فلذلك نفى الله ذلك عن نبيّه.

ويؤيّد ما قلناه قوله: ﴿وَهُوَ أَعلَمُ بالمهتدِينَ﴾ ومعناه هو أعلم بمن يهتدي باللطف ممّن لا يهتدي، فهو تعالى يدبّر الأُمور على ما يعلم من صلاح العباد، على التفصيل من غير تعليم.

وهذه الآية نزلت لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يحرص على إيمان قومه ويؤثر أن يؤمنوا كلّهم، ويحبّ أن ينقادوا له ويقرّوا بنبوّته وخاصّة أقاربه، فقال الله تعالى له: إنّك لا تقدر على ذلك، وليس في مقدورك ما تلطف بهم في الإيمان بل ذلك في مقدور الله يفعله بمن يشاء إذا علم أنّهم يهتدون عند شيء فعله بهم، فلا ينفع حرصك على ذلك. وروي عن ابن عبّاس ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم أنّها نزلت في أبي‌طالب. وعن‌أبي‌عبدالله وأبي جعفر أنّ أبا طالب كان مسلماً[1] وعليه إجماع الإماميّة لا يختلفون فيه، ولها على ذلك أدلّة قاطعة موجبة للعلم ليس هذا موضع ذكرها.

ثمّ قال تعالى حاكياً عن الكفّار: إنّهم قالوا: إن نتّبع محمّداً وما يدعونا إليه ونقول: إنّه هدى وموصل إلى الحقّ ﴿نُتَخَطَّفُ مِنْ أرْضِنا﴾ وقيل: إنّها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف، فإنّه قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: إنّا لنعلم أنّ قولك حقّ ولكن يمنعنا أن نتّبع الّذي معك ونؤمن بك مخافة أن يتخطّفنا العرب من أرضنا ـ يعني مكّة ـ ولا طاقة لنا بالعرب، فقال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَما آمِناً﴾ فالتخطّف أخذ الشيء على الاستلاب من كلّ وجه، تخطّف تخطّفاً واختطف اختطافاً وخطفه ويخطفه خطفاً، قال

(١) الكافي ١: ٣٣/٣٧٤، معاني الأخبار: ١/٢٨٥.

امرؤ القيس:

تخطّفُ خـزّان الشـربّة بـالضحى وقد حَجَرتْ منها ثَعالبُ أورالِ[١]

فقال الله تعالى لهم: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمناً﴾ وقيل في وجه جعله الحرم آمناً وجهان:

أحدهما: بما طبع النفوس عليه من السكون إليه بترك النفور ممّا ينفر عنه في غيره، كالغزال مع الكلب والحمام مع الناس وغيرهم.

والوجه الآخر: بما حكم به على العباد وأمرهم أن يؤمّنوا من يدخله ويلوذ به ولا يتعرّض له، وفائدة الآية أنّا جعلنا الحرم آمناً لحرمة البيت مع أنّهم كفّار يعبدون الأصنام حتّى أمنوا على نفوسهم وأموالهم، فلو آمنوا لكان أحرى بأن يؤمنهم الله وأولى بأن يمكّنهم من مراداتهم.

وقوله: ﴿يُجبَى إليه ثَمَراتُ كُلِّ شيءٍ﴾ أي يجلب إلى هذا الّذي جعلناه حرماً ثمرات كلّ شيء.

فمن قرأ بالتاء فلتأنيث الثمرات، ومن قرأ بـالياء فـلأنّ التـأنيث غـير حقيقي.

وقوله: ﴿رِزْقاً مِن لَدُنّا﴾ نصب على المصدر، وتقديره: رزقاً رزقناه من عندنا ﴿ولكنّ أكثَرَهُمْ لاَ يَعلَمُونَ﴾ ما أنعمنا به عليهم. ثمّ قال: ﴿وَكَمْ أهلَكْنا مِنْ قَريَةٍ﴾ أي من أهل قرية استحقّوا العقاب ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَها﴾ قال الفرّاء: معناه أبطرتها معيشتها، كقولهم: أبطرك مالك، فذكرت المعيشة لأنّ الفـعل كان لها في الأصل فحوّل إلى ما أُضيفت إليه فنصبت كما قال: ﴿فإنْ طِبْنَ لَكُمْ عَن َشيءٍ مِنْهُ نَفْساً﴾[٢] فالبطر والأشِر واحد، وهو شقّ العصا بتضيع[٣] حقّ نعم الله، والطغيان فيها بجحدها والكفر بها.

---

(١) ديوان امرئ القيس: ١٤٤. (٢) النساء: ٤. (٣) في المطبوعة: بتضييع.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ﴾ يعني مساكن الّذين أهلكهم الله ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِن بَعدِهِمْ إلّا قَليلاً﴾ من الزمان، ثـمّ هـلكوا وورث الله تـعالى مساكنهم، لأنّه لم يبقَ منهم أحد.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿وَما كَانَ رَبُّكَ﴾ يا محمّد ﴿مُهلِكَ القُرَىٰ حتَى يَبْعَثَ في أُمّها رَسُولاً﴾ وقيل في معنى ﴿أُمّها﴾ قولان:

أحدهما: في أمّ القرى، وهي مكّة.

والآخر: في معظم القرى في سائر الدنيا.

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِنَا﴾ أي يقرأ عليهم حجج الله وبيّناته ﴿وما كُنّا مُهْلِكي القُرَى إلّا وأهلُها ظالِمُون﴾ لنفوسهم بارتكاب المعاصي وكفران نعمه.

ثمّ خاطب خلقه فقال: ﴿وما أُوتِيتُم مِن شَيءٍ﴾ أي ما أُعطيتم من شيء ﴿فَمَتاعُ الحَياةِ الدُنيا﴾ أي هو شيء تنتفعون به في الحياة الدنيا وتـتزيّنون فيها ﴿وَما عِندَ اللهِ﴾ من الثواب ونعيم الجنّة ﴿خَيْرٌ وَأَبقَى﴾ من هذه النـعم لأنّها باقية، وهذه فانية ﴿أَفَلَا تَعقِلُونَ﴾ ذلك وتتفكّرون فيه.

وقوله: ﴿ثَمَراتُ كُلِّ شيءٍ﴾ قيل: إنّ «كلّ» هاهنا البعض، لأنّا نعلم أنّه ليس يجبى إلى مكّة كثير من الثمرات. وقال قوم: ظاهر ذلك يقتضي أنّه يجبى إليه جميع الثمرات إمّا رطباً أو يابساً، ولا مانع يمنع منه.

ومن قرأ ﴿تعقلون﴾ بالتاء فلقوله ﴿وما أُوتِيتُمْ﴾ ومن قرأ بالياء فتقديره: ﴿أفلا يَعقِلُونَ﴾ يا محمّد.

قوله تعالى:

أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ

كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

يقول الله تعالى منبّهاً لخلقه على عظيم ما أنعم به عليهم ورغّبهم فيه من ثواب الجنّة: ﴿أَفَمنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً﴾ يعني من ثواب الجنّة جزاءً على طاعاته يكون بمنزلة من متّعناه متاع الحياة الدنيا ؟ !

وقال السدّي: المعنيّ بقوله: ﴿أَفَمَنْ وَعدْناهُ﴾ حمزة بن عبد المطّلب وعليّ بن أبي طالب عليه السلام وعدهما الله الجنّة. وقيل: النصر في الدنيا والجنّة في الآخرة، ذكره الضحّاك ومجاهد.

﴿كَمَنْ متّعنَاهُ مَتاعَ الحَياةِ الدُنيا﴾ يعني به أبا جهل ﴿ثمّ هُوَ يَوْمَ القِيامَةِ من المُحْضَرِينَ﴾ في النار. وقيل للجزاء. وقيل: نزلت في النبيّ صلى الله عليه وآله وأبي جهل.

والمتعة هي المنفعة. وقد فرّق بينهما بأنّ المتعة منفعة توجب الالتذاذ في الحال، والنفع قد يكون بألم يؤدّي إلى لذّة في العاقبة، فكلّ متعة منفعة، وليس كلّ منفعة متعة. والمتاع على وجهين:

أحدهما: كالأدوات الّتي يتمتّع بها من نحو الفرس والأثاث والثياب وغيرها.

والثاني: يكون بمعنى المتعة. والمراد ـ هاهنا ـ متعة الحياة الدنيا.

وقوله: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيامَةِ مِنَ المُحْضَرينَ﴾ يعني من المحضرين للجزاء بالعقاب، لأنّه تعالى ذكر من وعد وعداً حسناً، فدلّ ذلك على أهل الثواب، ثمّ ذكر أنّه لا يستوي أهل الثواب وغيرهم فدلّ على أهل العقاب، لبعد حال كلّ فريق من الفريقين [عن] الآخر. و«الإحضار» إيجاد ما به يكون الشيء بحيث يشاهد، فلمّا كان هؤلاء القوم يوجدون يوم القيامة ما به

يكرهون بحيث يشاهدهم الخلائق كانوا محضرين، ثمّ قال: ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ﴾ وتقديره: واذكر يوم ينادي الله الكفّار، وهو يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم على وجه التوبيخ لهم والتقريع: ﴿أَيْنَ الّذِينَ﴾ اتّخذتموهم شركائي فعبدتموهم معي على قولكم وزعمكم. و«الزعم» القول في الأمر عن ظنّ أو علم، ولذلك دخل في باب العلم وأخواته، قال الشاعر:

فإن تَزْعُميني كُنتُ أَجهَلُ فيكمْ فإنّي شَريتُ الحِلم بعدكِ بالجَهلِ[١]

ثمّ حكى أنّ ﴿الّذِينَ حَقّ عَلَيْهِمْ القَوْلُ﴾ بالعقاب ـ من الشياطين والإنس والّذين أغووا الخلق من الإنس ـ يقولون ذلك اليوم: ﴿رَبَّنا هَؤُلاءِ﴾ يعني من ضلّ بهم من الناس واتّخذوا شركاء من دون الله هم ﴿الذِينَ أغوَينا أغوَيناهُمْ كَما غَوَينا تَبَرأْنا إلَيكَ ماكانُوا إيّانا يَعْبُدُونَ﴾ أي تبرّأ بعضهم من بعض وصاروا أعداءاً ويقولون: لم يكن الإنس يعبدوننا. ثمّ حكى الله [أنّه] ﴿وقيل﴾ لهم: ﴿أدعُوا شُرَكاءَكُمْ﴾ الّذين عبدتموهم من دون الله.

ثمّ حكى أنّهم يدعونهم فلا يستجيبون لهم ويرون العذاب ﴿لو أنّهم كانوا يهتدون﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: لو أنّهم كانوا يهتدون ما رأوا العذاب.

والثاني: لو كانوا يهتدون لرأوا العذاب.

ثمّ قال: ﴿ويَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ماذا أجبتُمُ المُرْسَلِينَ﴾ فيما دعوكم إليه من توحيد الله وعدله وإخلاص العبادة له.

قوله تعالى:

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ

(١) أنشده سيبويه في الكتاب ١: ١٢١ ونسبه إلى أبي ذؤيب.

ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

لمّا حكى الله تعالى أنّه ينادي الكفّار يوم القيامة ويقرّرهم عمّا أجابوا به المرسلين أخبر أنّهم تعمى عليهم الحجج، فهم لا يسأل بعضهم بعضاً. و«العمى» آفة تنافي صحّة البصر ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنباءُ﴾ فيه تشبيه بالعمى عن الإبصار لانسداد طريق الأخبار عليهم، كما تنسدّ طرق الأرض على الأعمى.

ومعنى ﴿فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ﴾ أي هم لانسداد طرق الأخبار عليهم لم يجيبوا عمّا سئلوا عنه، ولا يسأل بعضهم بعضاً عنه، لانقطاعهم عن الحجّة. ولا ينافي قوله: ﴿فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ﴾ قوله في موضع آخر: ﴿وأَقْبَلَ بَعضُهُم عَلى بَعضٍ يَتَساءَلُونَ﴾[1] لأنّ يوم القيامة مواطن يختلف فيها حالهم، فمرّة تطبق عليهم الحيرة فلا يتساءلون، ومرّة يفيقون فيتساءلون. وقال الحسن: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه شيئاً كما كانوا في الدنيا.

ثمّ أخبر تعالى إنّ من تاب من المعاصي ورجع عنها إلى الطاعات وأضاف إلى ذلك الأعمال الصالحات ﴿فَعَسى أن يَكُونَ مِنَ المُفلِحينَ﴾ وإنّما أدخل «عسى» في اللفظ مع أنّه مقطوع بفلاحه، لأنّه على رجاء أن يدوم على ذلك فيفلح، وقد يجوز أن يزول فيما بعد فيهلك، فلهذا قال: ﴿فَعَسىٰ﴾ على أنّه قيل: إنّ عسى من الله في جميع القرآن واجبة.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمّد ﴿يَخْلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتارُ ما كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ قيل في معناه قولان:

---

(١) الصافّات: ٢٧، الطور: ٢٥.

أحدهما: نختار الّذي كان لهم فيه الخيرة، فدلّ بذلك على شرف اختياره لهم.

الثاني: أن تكون «ما» نفياً أي لم يكن لهم الخيرة على الله بل لله الخيرة عليهم، لأنّه مالك حكيم في تدبيرهم، فيكون على هذا الوجه الوقف على قوله: ﴿ويختار﴾ وهو الّذي اختاره الزجّاج[1]. وقال الحسن: معناه ﴿ماكانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ أي أن يختاروا الأنبياء، فيبعثوهم. وقال مجاهد ﴿لا يَتَساءَلُونَ﴾ بالأنساب والقرابات. وقيل: ﴿لا يَتساءَلُونَ﴾ بما فيه حجج لهم. وقوله: ﴿سُبحانَ الله وتَعَالىٰ عمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معناه ما عظّم الله حقّ عظمته من أشرك في عبادته، لأنّ من تعظيمه إخلاص الإلهيّة له، وأنّه الواحد فيما تفرّد به على استحقاق العبادة، وأنّه لا يجوز أن يستغنى عنه بغيره، فمن أشرك في عبادته فما عظّمه حقّ تعظيمه، فهذا قد قبح فيما أتى وضيّع حقّ نعمه.

ثمّ قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمّد ﴿يَعلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ﴾ أي عالم بما يخفونه وما يظهرونه. يقال: أكننت الشيء في صدري: أي أخفيته و«كننته» بغير ألف صنته. وقيل: كننت الشيء وأكننته لغتان.

ثمّ أخبر تعالى أنّه الإله الّذي لا إله سواه، ولا يستحقّ العبادة غيره في جميع السموات والأرض، وأنّه يستحقّ الثناء والحمد والمدح والتعظيم على ما أنعم به على خلقه في الدنيا والآخرة ﴿وَلَهُ الحُكْمُ﴾ بينهم بالفصل بين المختلفين بما يميّز به الحقّ من الباطل. وأنّ جميع الخلق يرجعون إليه يوم القيامة الّذي لا يملك أحد الحكم غيره.

وقيل قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخلُقُ ما يَشاءُ وَيختارُ﴾ ذلك في الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2] فبيّن الله تعالى

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ١٥١.

(٢) الزخرف: ٣١.

أنّ له أن يختار ما يشاء لنبوّته ورسالته بحسب ما يعلم من يصلح لها.

قوله سبحانه:

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار الّذين عبدوا معي آلهة تنبيهاً لهم على خطئهم: ﴿أَرأَيتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَيلَ سَرْمَداً﴾ أي دائماً ﴿إِلىٰ يَوْمِ القِيامَةِ﴾ بلا نهار ولا ضياء ﴿مَنْ إِلهُ غَيرُ اللهِ يأتِيكُمْ بضِياءٍ﴾ كضياء النهار تبصرون فيه، فإنّهم لا يقدرون على الجواب عن ذلك إلّا بأنّه لا يقدر على ذلك سوى الله تعالى، فحينئذٍ يلزمهم الحجّة بأنّه لا يستحقّ العبادة غير الله. وهذا تنبيه منه لنبيّه صلى الله عليه وآله ولخلقه على وجه الاستدلال على توحيده، ويبطل ذلك قول من قال: المعارف ضروريّة، لأنّه لو كان تعالى معلوماً ضرورة لما احتاج الأمر إلى ذلك، لأنّ كونه معلوماً ضرورة يغني عن الاستدلال عليه، وما لا يعلم ضرورة من أمر الدين فلا يصحّ معرفته إلّا ببرهان دالّ عليه.

وقوله: ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ معناه أفلا تقبلونه وتتفكّرون فيه؟ وفي ذلك تبكيت لهم على ترك الفكر فيه، لأنّهم إذا لم يفكّروا فيما يسمعونه من حجج الله فكأنّهم ما سمعوه. وقيل في قوله: ﴿أَفَلا تَسمعُونَ﴾ قولان:

أحدهما: أفلا تسمعون هذه الحجّة فتتدبّرونها وتعملون بموجبها، إذ كانت بمنزلة الناطقة بأنّ ما أنتم عليه خطأ وضلال يؤدّي إلى الهلاك.

والثاني: أنّ معناه أفلا تقبلون. ثمّ نبّههم أيضاً فقال: ﴿أَرأَيتُمْ إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النّهارَ سَرمَدَاً﴾ أي دائماً ﴿إلىٰ يَوْمِ القِيامَةِ﴾ بلا ليل تسكنون فيه، فإنّهم لا يقدرون على الجواب عن ذلك إلّا بما يدلّ على فساد معتقدهم، وهو أنّه لا يقدر على ذلك غير الله، فحينئذٍ تلزمهم الحجّة بأنّه لا يستحقّ العبادة سواه.

وقوله: ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ معناه أفلا تتفكّرون فيما ترونه، لأنّ من لايتدبّر بما يراه من الحجج والبراهين فكأنّه لم يرها. وقيل: معناه أفلا تعلمون. ثمّ قال: ﴿وَمِن رَحْمَتِهِ﴾ أي من نعمه عليكم أن ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللّيلَ وَالنّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيه﴾ في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بالنهار بالسعي فيه، ولكي تشكروا هذه النعم الّتي أنعم بها عليكم. و«الهاء» في قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فيه﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يعود إلى الليل خاصّة، ويضمر مع الابتغاء هاء أُخرى.

الثاني: أن يعود الضمير اليهما إلّا أنّه وحّد، لأنّه يجري مجرى المصدر في قولهم: إقبالك وإدبارك يؤذيني، والأوّل أصحّ، لأنّ الليل للسكون فيه، والنهار للتصرّف والحركة، ولكنّه يحتمل ليكونوا في هذا على التصرّف وفي ذاك على الهدى وقطع التصرّف، وإنّما كان الفساد في إدامة النهار في دار التكليف ولم يكن في دار النعيم، لأنّ دار التكليف لابدّ فيها من التعب والنصب الّذي يحتاج معه إلى الاستجمام والراحة، وليس كذلك دار النعيم، لأنّه إنّما يتصرّف فيها بالملاذّ.

وقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذّينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قد مضى تفسيره، وإنّما

كرّر النداء بـ﴿أَيْنَ شُركائيَ الذينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ لأنّ النداء الأوّل للتقرير بالإقرار على اليقين بالغي الّذي كانوا عليه ودعوا إليه، والثاني للتعجيز عن إقامة البرهان لمّا طولبوا به بحضرة الأشهاد مع تقريع حاصل به بالإشراك بعد تقريع.

ثمّ أخبر تعالى أنّه نزع ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿شَهِيداً﴾ يشهد على تلك الأُمّة بما كان فيها، ومعنى ﴿نَزَعْنا﴾ أخرجنا وأحضرنا يقال: فلان ينزع إلى وطنه بأن يحنّ إليه حنيناً يطالبه بالخروج إليه. قال قتادة ومجاهد: شهيدها نبيّها الّذي يشهد عليها بما فعلوه. وقيل: هؤلاء الشهود هم عدول الآخرة الّذين لا يخلو زمان منهم يشهدون على الناس بما عملوا من عصيانهم.

وقوله: ﴿هاتُوا بُرهانَكُمْ﴾ حكاية عمّا يقول الله تعالى للكفّار في الآخرة فإنّه يقول لهم: هاتوا حجّتكم على ما ذهبتم إليه إن كنتم صادقين.

ثمّ أخبر تعالى أنّهم عند ذلك يعلمون ﴿أَنَّ الحقَّ للهِ﴾ أي أنّ التوحيد لله والإخلاص في العبادة له دون غيره، لأنّ معارفهم ضرورة ﴿وَضَلَّ عَنْهُم ماكانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي بطل ما عبدوه من دون الله، وإفتراؤهم هو ادّعاؤهم الإلهيّة مع الله تعالى.

قوله تعالى:

إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ

مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

هذا إخبار من الله تعالى ﴿أنّ قارُونَ كانَ مِن قَوْمِ مُوسَى﴾ قال ابن إسحاق: كان موسى ابن أخيه، وقارون عمّه. وقال ابن جريج: كان ابن عمّه لأبيه وأمّه ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ قال قتادة: إنّما بغى عليهم بكثرة ماله. و«البغي» طلب العلوّ بغير حقّ، ومنه قيل لولاة الجور: بغاة، يقال: بغى يبغي بغياً فهو باغ، وابتغى كذا ابتغاءً: إذا طلبه، ويبتغي فعل الحسن أي يطلب فعله بدعائه إلى نفسه.

و«قارون» اسم أعجمي لا ينصرف، وروي أنّه كان عالماً بالتوراة فبغى على موسى وقصد إلى تكذيبه والإفساد عليه[١].

وقوله ﴿وآتَيناهُ مِنَ الكُنُوزِ﴾ أي أعطيناه كنوز الأموال. و«الكنز» جمع المال بعضه على بعض، وبالعرف عبارة عمّا يخبأ تحت الأرض، ولا يطلق اسم الكنوز في الشرع إلّا على مال لا يخرج زكاته، لقوله تعالى: ﴿وَالذَينَ يَكنِزُونَ الذَهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنفِقُونَها في سَبيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعذابٍ أليمٍ﴾[٢] فوجّه الوعيد عليه تعالى فعلم بذلك صحّة ما قلناه.

وقوله: ﴿ما إنَّ مَفاتِحَهُ﴾ «المفتاح» عبارة عمّا يفتح به الأغلاق، وجمعه مفاتيح، ومفاتح جمع مفتح، ومعناهما واحد. وقال قوم: كانت مفاتيحه من جلود، وقال آخرون: مفاتحه خزائنه. قال الزجّاج: وهو الأشبه[٣].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجّاج ٤: ١٥٣ ـ ١٥٤.
(٢) التوبة: ٣٤.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ١٥٥.

وقوله: ﴿لَتنُوءُ بالعُصْبَةِ﴾ أي ليثقل في حمله، يقال: ناء بحمله ينوء نوءاً: إذا نهض به مع ثقله عليه، ومنه أُخذت الأنواء، لأنّها تنهض من المشرق على ثقل نهوضها. وقال أبو زيد: ناءني الحمل: إذا أثقلني. و«العصبة» الجماعة الملتفّة بعضها ببعض. وقال قتادة: العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين. وقال ابن عبّاس: قد يكون العصبة ثلاث. وإنّما قال: لتنوء بالعصبة، والمعنى العصبة تنوء بها، لأنّ المعنى تميل بها مثقلة. وقيل: هو يجري مجرى التقديم والتأخير، كما قال الشاعر:

ونركبُ خيلاً لا هوادةَ بَيْنها ... وتشقى الرماحُ بالضياطِرة الحُمر[1]

وإنّما تشقى الضياطرة بالرماح، وقال آخر:

فَديتُ بنفسِ نَفْسي ومالي ... وما آلوك إلّا ما أُطيق[2]

والمعنى بنفسي ومالي نفسه. وقال الفرّاء: كان الأصل أن يقول: لتنوءُ العصبة أي يثقلهم، بحذف الباء ومثله قوله وهو مقلوب:

إنّ سراجاً لكريم مَفْخَرُه ... حَلَى به العينُ إذا ما تَجْهَرُه[3]

فالوجه أنّ الرجل يعجب العين وكان ينبغي أن يقول: يحلى بالعين، كقوله:

حليت بعينك ريطة مطوية[4]

قال الرمّاني: التأويل الأوّل هو الصحيح، لأنّه ليس من باب التقديم والتأخير لما في ذلك من قلب المعنى وليس كالّذي تبنيه الاعراب.

وقوله: ﴿إذ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إنّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾ حكاية عمّا قال

---

(١) أنشده المرتضى في الأمالي ١: ٤٦٦، ونسبه إلى خداش بن زهير.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٧٩ ـ ١١٠، ولم ينسبه لأحدٍ.

(٣) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ١: ٩٩، ولم ينسبه لأحد، وفيه: «تَحْلَى» بدل «حَلَى».

(٤) لم نهتد إلى قائله.

قوم قارون لقارون حين خوّفوه باللّه ونهوه عن الفرح بما آتاه الله من المال، وأمروه بالشكر عليه. و«الفرح» المرح الّذي يخرج إلى الأنس وهو البطر، ولذلك قال تعالى: ﴿إنّ الله لا يُحبُّ الفَرِحينَ﴾ لأنّه إذا أُطلقت صفة فرح فهو الخارج بالمرح إلى البطر. فأمّا قوله: ﴿فَرِحينَ بما آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (١) فحسن جميل بهذا التقييد، وقال مجاهد: الفرحين فرح البطر. وقال الشاعر:

ولستُ بِمِفراحٍ إذا الدهرُ سرّني ولا جَازعٍ من صَرْفهِ المتقلّبِ (٢)

وقال آخر:

ولا يُنسيني الحَدَثانُ عِرضي ولا أُرخي مِنَ الفَرحِ الإزارا (٣)

وقوله: ﴿وابتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخِرَةَ﴾ حكاية عمّا قال لقارون قومه المؤمنون بموسى وبتوحيد الله. وقال قوم: إنّ المخاطب له كان موسى وإن ذكر بلفظ الجمع ومعناه اطلب فيما أعطاك الله من الأموال الدار الآخرة بأن ينفقها في وجوه البرّ وسبيل الخير.

﴿ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ قال ابن عبّاس: معناه أن يعمل فيها بطاعة الله. وقال الحسن معناه: أن يطلب الحلال ﴿وأَحْسِنْ﴾ أي افعل الجميل إلى الخلق، وتفضّل عليهم كما تفضّل الله عليك.

﴿ولا تَبْغِ الفَسادَ في الأرْض﴾ أي لا تطلب الفساد بمنع ما يجب عليك من الحقوق وإنفاق الأموال في المعاصي ﴿إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾ أي لا يريد منافع من يفسد في الأرض، ولا يريد أن يفعل بهم ثواب الجنّة.

وقوله: ﴿قال إنّما أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْم عِندي﴾ حكاية عمّا قال قارون في جواب قومه، فإنّه قال لهم: أُوتيت هذه الأموال على علم بأنّي مستحقّ

---

(١) آل عمران: ١٧٠.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١١١ ونسبه إلى هُدبَة.

(٣) البيت منسوب إلى قيس بن الحطيم، راجع ديوانه: ٢٣٣.

لذلك، لعلمي بالتوراة. وقال قوم: لأنّي أعمل الكيمياء. وقال قوم: لعلمي بوجوه المكاسب وبما لا يتهيّأ لأحد أن يسلبني إيّاه.

فقال الله تعالى موبّخاً على هذا القول: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ أَهلكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وأَكثَرُ جَمْعاً﴾ كقوم عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، فما أغنى عنهم جمعهم ولا قوّتهم حين أراد الله إهلاكهم، فكيف ينفع قارون ماله وجمعه؟!.

وقوله: ﴿ولا يُسئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ﴾ قال الفرّاء تقديره: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم، فالهاء والميم للمجرمين، كما قال تعالى: ﴿فَيَومَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[1][2] وقال الحسن: لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون لنعلم ذلك من قبلهم، وإن سئلوا سؤال تقريع وتوبيخ.

ثمّ حكى تعالى أنّ قارون خرج ﴿عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ الّتي كان يتزيّن بها. وقيل: إنّه كان خرج مع قومه عليهم في الديباج الأحمر على الخيل، فلما رآه الّذين يريدون الحياة الدنيا من الكفّار والمنافقين والضعيفي الإيمان بما للمؤمنين عندالله من ثواب الجنّة قالوا: ﴿ياليتَ لَنا مِثْلَ ماأُوتيَ قارُونُ﴾ تمنّوا مثل منزلته ومثل ماله، وإنّهم قالوا: إنّ قارون ﴿لَذُو حَظٍّ﴾ من الدنيا ونعيمها ﴿عَظِيمٍ﴾.

ثمّ حكى ما قال المؤمنون بثواب الله المصدّقون بوعده في جوابهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾ ممّا أُوتي قارون، وحذف لدلالة الكلام عليه. وقوله: ﴿ولا يُلَقّاها إِلّا الصَابِرُون﴾ أي ما يلقّى مثل هذه الكلمة إلّا الصابرون على أمرالله. وقيل: وما يلقّى نعمة الله من الثواب إلّا الصابرون.

فإن قيل: أليس عندكم أنّ الله لا يؤتي الحرام أحداً؟ وقد قال ـ هاهنا ـ: ﴿وابتغِ فيما آتاكَ اللهُ﴾ فأخبر أنّه آتاه.

---

(١) الرحمن: ٣٩.

(٢) معاني القرآن ٢: ٣١١.

قيل: لا يعلم أنّ ذلك المال كان حراماً، ويجوز أن يكون حلالاً ورثه أو كسبه بالمكاسب والمتاجر، ثمّ لم يخرج حقّ الله منه وطغى فسخط الله عليه وعاقبه لطغيانه وعصيانه، لا على كسب المال.

قوله تعالى:

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ
ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾
وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا
لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ
هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ثمان آياتٍ بلا خلاف.

روي عن الكسائي الوقف على ﴿وَيْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّ اللهَ﴾ ومن قوله ﴿وَيْكَأَنَّهُ﴾ وروي عن أبي عمرو الوقف على الكاف منهما، قال أبو طاهر: الاختيار إتباع المصحف، وهما فيه كلمة واحدة. وقرأ حفص ويعقوب ﴿لخسف بنا﴾ بفتح الخاء والسين، الباقون بضمّ الخاء وكسر السين على ما لم يسمّ فاعله.

حكى الله تعالى أنّه خسف بقارون وبداره الأرض، فمرّ يهوي فيها حتّى زهقت نفسه على أسوأ حالها، و«الخسف» ذهاب في الأرض في

جهة السفل.

ثمّ أخبر تعالى أنّه لم يكن لقارون ﴿فِئَةٍ﴾ أي جماعة منقطعة إليه. و«الفئة» مشتقّ من فأوت رأسه بالسيف: إذا قطعته، وتصغيرها فُئَيّة. ﴿يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي يمنعونه من عذاب الله الّذي نزل به، وإنّما ذكر امتناع النصرة من الله مع أنّه معلوم أنّه كذلك لأنّ المراد أنّه لم يكن الأمر على ما قدّره من امتناعه بحاشيته وجنده، لأنّ الّذي غرّه من حاله قوّته وتمكنّه حتّى تمرّد في طغيانه.

ثمّ أخبر أنّه كما لم يكن له من ينصره لم يكن هو أيضاً ممّن ينتصر بنفسه لضعفه عن ذلك وقصوره عنه.

ثمّ حكى أنّ ﴿الّذِينَ تَمنّوا مَكانَهُ بالأمسِ﴾ حتّى خرج عليهم على زينته لمّا رأوه خسف الله به أصبحوا يقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِزْقَ لِمَن يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسّع رزقه على من يشاء ويضيّق على من يشاء، اعترفوا بذلك. ومعنى «وي» التنبيه على أمر من الأُمور، وهي حرف مفصول من «كأنّ» في قول الخليل وسيبويه، واختاره الكسائي. وذلك أنّهم لمّا رأوا الخسف تنبّهوا فتكلّموا على قدر علمهم عند التنبيه لهم، كما يقول القائل إذا تبيّن له الخطأ: وي كنت على خطأ، وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

سألتاني الطلاقَ إذ رأتاني ... قَلَّ مالي قد جئتماني بِنُكْرِ
وَيْ كأَنْ مَنْ يَكُنْ لَـهُ نَشَبٌ يُحْـ ... ـبَبْ ومَنْ يَفتقِرْ يعش عَيْشَ ضُرِّ[1]

وقيل: «ويكأنّه» بمنزلة «ألا كأنّه وأما كأنّه» وقيل هي: ويك إنّ الله، كأنّه قال: ينبّهك بهذا إلّا أنّه حذف، قال عنترة:

---

(١) أنشدهما سيبويه في الكتاب ٢: ١٥٥.

وَلَقَدْ شَفى نفسي وأبرأ سُقْمها قيلُ الفوارس: وَيْكَ عنتر أَقْدِمِ[١]

وقال قوم: هي بمنزلة «ويلك» إلّا أنّه حذف اللام تخفيفاً، ونصب أَنّه بتقدير: اعلم أنّه لا يفلح، وهذا ضعيف، لأنّ العلم لا يضمر ويعمل. وقال الفرّاء: سألت امرأة زوجها عن ابنه فقال ويكأنَّهُ وراء الحائط، ومعناه ألا ترينه وراء الحائط[٢]. وقيل: المعنى إنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لا لكرامة عليه، كما بسط لقارون ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيّق لا لهوانة عليه، كما ضيّق على أنبيائه.

ثمّ قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا﴾ وعفا عنا لخسف بنا، كما خسف بقارون ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفلِحُ الكافِرُونَ﴾ أي لا يفوز بثوابه وينجو من عقابه من يجحد نِعَمَ الله ويعبد معه سواه.

وقيل: إنّ قارون جعل لبغيّ جعلاً على أن ترمي موسى بالفاحشة، فلمّا حضرت في الملأ كذّبت قارون وأخبرت بالحقّ فخرّ موسى ساجداً يبكي، فأوحى الله إليه ما يبكيك قد سلّطتك على الأرض فمرها بما شئت، فقال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثمّ قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى حقويهم، ثمّ قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى أعناقهم وهم في كلّ ذلك ينادون يا موسى يا موسى ارحمنا، ذكره ابن عبّاس. وروي أنّ الله تعالى قال: لو قالوا مرّة واحدة: يا الله ارحمنا، لرحمتهم[٣].

ثمّ قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدارُ الآخِرَةُ﴾ يعني الجنّة ﴿نَجْعَلُها للّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأرْضِ﴾ وإنّما قبح طلب العلوّ في الأرض لأنّه ركون إليها، وترك لطلب العلوّ في الآخرة، ومعاملة لها بخلاف ما أراده الله بها من أن تكون

---

(١) ديوان عنترة: ١٨. (٢) معاني القرآن ٢: ٣١٢.

(٣) أورده البيضاوي في تفسيره ٤: ١٨٦.

دار ارتحال لا دار مقام فيها ﴿ولا فَساداً﴾ أي ولا يريدون فساداً في الأرض بفعل المعاصي

﴿وَالعاقِبَةُ للمُتَّقِينَ﴾ إخبار منه تعالى بأنّ العاقبة الجميلة من الثواب للّذين يتقون معاصي الله ويفعلون طاعاته. وقيل: ﴿علوّاً في الأرض﴾: معناه تكبّراً عن الحقّ.

ثمّ أخبر تعالى أنّ من جاء بطاعة من الطاعات وحسنة من الحسنات ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها﴾ ثواباً عليها وجزاءً عليها، لأنّ له بالواحدة عشراً ﴿وَمَنْ جاءَ بالسَيِّئةِ﴾ يعني بالمعصية ﴿فَلا يُجْزَىٰ الّذِينَ عَمِلُوا السيّئاتِ﴾ يعني الّذين عملوا المعاصي إلّا على قدر استحقاقهم على ما فعلوه من غير زيادة، كما قال: ﴿وَمَن جاءَ بالسيّئةِ فَلا يُجْزَىٰ إلّا مِثْلَها﴾ (١).

وقوله: ﴿إنّ الّذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ﴾ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله يقول الله له: إنّ الّذي أوجب عليك الامتثال بما يضمنه القرآن وأنزله عليك ﴿لَرادُّكَ إلى مَعادٍ﴾ قال الحسن: معناه إلى المرجع يوم القيامة. وقال مجاهد: إلى الجنّة. وقال ابن عبّاس: إلى الموت. وفي رواية أُخرى عن عبّاس: إلى مكّة.

والأظهر من الأقوال: لرادّك إلى معاد في النشأة الثانية إلى الجنّة. وأكثر أقوال المفسّرين أنّه أراد إلى مكّة قاهِراً لأهلها.

ثمّ قال له: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿رَبِّي أعلَمُ مَن جاءَ بالهُدَى﴾ الّذي يستحقّ به الثواب ممّن لم يجئ به وضلّ عنه، لايخفى عليه المؤمن من الكافر، ولامن هو على الهدى، ولا من هو ضالّ عنه.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿وَما كُنْتَ﴾ يا محمّد ﴿تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إلَيْكَ الكِتابَ إلّارَحْمَةً مِن رَبِّكَ فَلا تَكونَنَّ ظَهِيراً للكافِرِينَ﴾.

---

(١) الأنعام: ١٦٠.

قال الفرّاء: تقديره: إلّا أنّ ربّك رحمك فأنزله عليك، فهو استثناء منقطع. ومعناه وما كنت ترجو أن تعلم كتب الأوّلين وقصصهم تتلوها على أهل مكّة ولم تشهدها ولم تحضرها، بدلالة قوله: ﴿وَما كُنْتَ ثاوِياً في أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو﴾ [١] أي أنّك تتلو على أهل مكّة قصص مَدْين وموسى ولم تكن هناك ثاوياً مقيماً فتراه فتسمعه، وكذلك قوله: ﴿وما كُنْتَ بِجانِبِ الغَربيّ﴾ [٢] فها أنت تتلو قصصهم وأمرهم، فهذه رحمة من ربّك[٣].

ومعنى ﴿فلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً﴾ أي لا تكوننّ معيناً لهم ﴿ولا يَصُدُّنَّكَ﴾ يعني هؤلاء الكفّار أي لا يمنعك ﴿عن﴾ اتّباع ﴿آياتِ اللهِ﴾ وحججه ﴿بَعْدَ إذْ أُنْزِلَتْ إليْكَ﴾ على ما بيّنها في القرآن.

﴿وادْعُ إلى رَبِّكَ﴾ الّذي خلقك وأنعم عليك ﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ المشرِكِينَ﴾ الّذين يتّخذون مع الله معبوداً سواه ﴿ولا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ﴾ فتستدعي حوائجك من جهته ﴿لا إلَهَ إلّا هُوَ﴾ إخبار منه تعالى أنّه لا معبود إلّا الله وحده لا شريك له.

ثمّ أخبر أنّ كلَّ من سوى الله هالك فإن بائدٌ إلّا وَجْهَهُ، ومعناه إلّا ذاته. وقيل: معناه كلّ شيء هالك إلّا ما أُريد به وجهه. قال الشاعر:

أستغفِرُ اللهَ ذنْباً لَستُ مُحْصِيه ربَّ العبادِ إليهِ الوَجْهُ والعملُ[٤]

ثمّ قال: ﴿لَهُ الحُكْمُ﴾ لأنّه ليس لأحد أن يحكم بشيء إلّا بأمر الله تعالى، ويجعل الحكم له عقليّاً كان أو شرعيّاً و﴿إلَيْهِ﴾ إلى الله ﴿تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة أي إلى الموضع الّذي لا يملك أحد التصرّف فيه سواه، لأنّ الله تعالى قد ملّك في الدنيا لكثير من البشر التصرّف فيها.

---

(١) القصص: ٤٥. (٢) القصص: ٤٤. (٣) معاني القرآن ٢: ٣١٣.
(٤) أنشده سيبويه في الكتاب ١: ٣٧، ولم ينسبه لأحد.

# سورة العنكبوت

قال قوم: هي مكّية، وقال قتادة: العشر الأُول مدني والباقي مكّي. وقال مجاهد: هي مكّية. وهي تسع وستّون آيةً بلا خلاف في جملتها، وفي تفصيلها خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾

خمس آياتٍ كوفي وأربع فيماعداه، عدّوا ﴿ألم﴾ آية، ولم يعدّه الباقون.

قال قتادة: نزلت في أُناس من أهل مكّة خرجوا للهجرة فعرض لهم المشركون فرجعوا، فنزلت الآية فيهم فلمّا سمعوها خرجوا، فقتل منهم من قتل وخلص من خلص، فنزلت فيهم ﴿والّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ الآية[1] وقيل: نزلت في عمّار ومن كان بقرب مكّة، ذكره ابن عمر. وقيل: نزلت في قوم أسلموا قبل فرض الجهاد والزكاة، فلمّا فرضا منعا، فنزلت الآية فيهم.

(١) العنكبوت: ٦٩.

قد بيّنّا في غير موضع اختلاف الناس في ابتداء السور بحروف الهجاء، وذكرنا أنّ أقوى الأقوال قول من قال: إنّها أسماء للسور[1]. وقال قوم: إنّها أسماء للقرآن.

وقوله: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ اختلف الناس في ﴿الٓمٓ﴾ وقد ذكرناه فيما مضى. وقوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ خطاب من الله لخلقه على وجه التوبيخ لهم بأن يقول: أيظنّ الناس أن يتركهم الله إذا قالوا: آمنّا أي صدّقنا، ونقتصر منهم على هذا القدر. و«الحسبان» و«الظنّ» واحد.

وقوله: ﴿أَحسِبَ﴾ معناه التوهّم والتخيّل. وقيل: الحسبان مشتقّ من الحساب، لأنّه في حساب ما يعمل عليه. ومنه الحسيب، لأنّه في حساب ما يختبي. ﴿وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ أي أيظنّون أنّهم لا يختبرون إذا قالوا: آمنّا ؟!، والمعنى أنّهم يعاملون معاملة المختبر لتظهر الأفعال الّتي يستحقّ عليها الجزاء.

وقيل في معنى ﴿أنْ يَقُولُوا آمنّا﴾ قولان: أحدهما: يتركوا لأن يقولوا. الثاني: أحسبوا أن يقولوا على البدل.

وقال مجاهد: معنى ﴿يفتنون﴾ يبتلون في أنفسهم وأموالهم. وقيل: معنى يفتنون يصابون بشدائد الدنيا أي أنّ ذلك لا يجب أن يرفع في الدنيا لقولهم آمنّا. وقال ابن عمر: أظنّوا أن لا يؤمروا ولا ينهوا. وقال الربيع: ألّا يؤذوا ولا يقتلوا ؟ !

ثمّ أقسم تعالى أنّه فتن الّذين من قبلهم ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم ﴿ولَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِينَ﴾ فيه، وإنّما قال: ﴿فَلَيَعْلَمنَّ﴾ مع أنّه للاستقبال والله تعالى عليم فيما لم يزل، لحدوث المعلوم فلا تصحّ الصفة إلّا على معنى المستقبل، إذ لا يصلح ولا يصحّ لم يزل عالماً بأنّه حادث، لانعقاد

(١) تقدّم في ج ١: ٣٥٨ في تفسير الآية الأُولى من سورة البقرة.

معنى الصفة بالحادث، وهو إذا حدث علمه تعالى حادثاً بنفسه. وقيل: معنى ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ ليجازيهم بما يعلم منهم. وقيل: معناه يعلم الله الّذين صدقوا في أفعالهم، كما قال الشاعر:

إذا ما الليثُ كَذَّبَ عن أقرانه صَدَقا[1]

وقال ابن شجرة: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ﴾ معناه فليظهرنّ الله لرسوله صدق الصادق. وقال النقّاش: معناه فليميّزنّ الله الصادقين من الكاذبين. وهو قول الجبّائي.

ثمّ قال تعالى مهدّداً لخلقه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا﴾ أي أيظنّ الّذين يفعلون القبائح والمعاصي أن يفوتونا ؟ ! كما يفوت السابق لغيره. ثمّ قال: ﴿سَاءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس الشيء الّذي يحكمون بظنّهم أنّهم يفوتونا. ثمّ قال: ﴿مَن كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ﴾ أي من كان يأمل لقاء ثواب الله. وقال سعيد بن جبير والسدّي: معناه من كان يخاف عقاب الله، كما قال الشاعر:

إذا لَسَعْتهُ النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها[2]

أي لم يخف. فـ«من» رفع بالابتداء وخبرها «كان» وجواب الجزاء، كقولك: زيد إن كان في الدار فقد صدق الوعد. وقوله: ﴿فإنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ﴾ أي الوقت الّذي وقّته الله للثواب والعقاب جاء لا محالة. والله ﴿هُوَ السَمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿العَلِيمُ﴾ بما تضمرونه في نفوسكم، فيجازيكم بحسب ذلك.

قوله تعالى:

وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) قائله زهير بن أبي سُلمى، راجع ديوانه: ٤٣. وهو عجز لبيت صدره: ليَثٌ بعَثّر يصطاد الرجال إذا...

(٢) أنشده الخليل في العين ٦: ١٧٧، ونسبه إلى أبي ذؤيب، وهو صدر لبيت عجزه:

وخالفها في بيت نُوبٍ عَواسِلِ

وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ﴾ أي من جاهد نفسه بأن يصبر على ما أمره الله به ويعمل بسنّته، ومنه الجهاد وهو الصبر في الحرب على ما جاء به الشرع ﴿فإنّما يُجَاهِدُ لِنفسِهِ﴾ لأنّ ثواب صبره عائد عليه وواصل إليه دون الله تعالى، لأنّه تعالى غنيّ عن جميع الخلائق غير محتاج إلى طاعاتهم، ولا غير ذلك.

ثمّ قال تعالى: ﴿والّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدقوا بوحدانيّته وأقرّوا بنبوّة نبيّه، واعترفوا بما جاء به من عند الله ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ الّتي اقترفوها قبل ذلك. ومن قال بالإحباط قال: تبطل السيّئة الحسنة الّتي هي أكبر منها حتّى يصير بمنزلة ما لم يعمل، كما قال: ﴿إنّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيّئاتِ﴾[1].

و«الإحباط» هو إبطال الحسنة بالسيّئة الّتي هي أكبر منها. و«السيّئة» الخصلة الّتي يسوء صاحبها عاقبتها. و«الحسنة» الخصلة الّتي يسرّ صاحبها عاقبتها. وكلّ حسنة طاعة لله، وكلّ سيّئة هي معصية له تعالى.

وقوله: ﴿لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال الجبّائي: معناه أحسن ما كانوا يعملون طاعاتهم لله، لأنّه لا شيء في ما يعمله العباد أحسن من طاعاتهم لله. وقال قوم: معناه ولنجزينّهم بأحسن أعمالهم، وهو الّذي

(١) هود: ١١٤.

أمرناهم به، دون المباح الّذي لم نأمرهم به ولا نهيناهم عنه.

وقوله: ﴿وَوَصَّيْنا الإنسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً﴾ معناه أمرناه أن يفعل حسناً وألزمناه ذلك. ثمّ خاطب كلّ واحد من الناس فقال: ﴿وإن جَاهَدَاكَ﴾ يعني الوالدين أيّها الإنسان ﴿لِتُشْرِك بِي﴾ في العبادة ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ في ذلك. وقيل: نزلت في سعد بن أبي وقّاص، لأنّه لمّا هاجر حلفت أمّه أنّها لا يظلّها سقف بيت حتّى يعود فنزلت الآية.

ثمّ قال مهدّداً للجميع: ﴿إليَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي إليّ مآلكم ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ أي أُخبركم ﴿بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ في دار التكليف، ثمّ أُجازيكم بحسبه. ثمّ قال تعالى: ﴿والّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وصدّق أنبياءه وأضافوا إلى ذلك الأعمال الصالحات ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ في﴾ جملة ﴿الصَالِحِينَ﴾ الّذين فعلوا الطاعات ويجازيهم الله ثواب الجنّة.

ثمّ أخبر أنّ ﴿مِنَ الناسِ مَن يَقُولُ﴾ بلسانه: ﴿آمنّا باللهِ فإذا أُوذِي في اللهِ﴾ أي: إذا لحقه شدّة في جنب الله ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَاسِ﴾ أي عذاب الناس إيّاهم ﴿كَعَذابِ اللهِ﴾ أي خافوا عذاب الخلق كما يخاف عذاب الله، فيرتدّون. ﴿وَلِئَن جاءَ نَصْرٌ مِن رَبّكَ لَيَقُولُنَّ إنّا كُنّا مَعَكُمْ﴾ وهذا الّذي ذكره صفة المنافقين الّذين إذا جاهدوا الكفّار وكانت الدائرة على المسلمين جعلوا ذلك مثل ما يعذّبهم الله، ومتى ظفروا بأعدائهم قالوا للمؤمنين: ﴿إنّا كُنّا مَعَكُمْ﴾ في الجهاد فلنا مثل ما لكم من الغنيمة، فقال تعالى: ﴿أوَلَيس اللهُ بأَعْلَمَ بِمَا في صُدُورِ العَالَمِينَ﴾ أي الله يعلم بواطن أحوالهم وسرائر ما في نفوسهم، فيجازيهم على حسب ذلك.

قوله تعالى:

وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَـٰيَـٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنۡ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَيۡءٍ إِنَّهُمۡ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالاً مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَـٰهُ وَأَصۡحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

أقسم الله تعالى بأنّه يعلم الّذين يؤمنون بالله على الحقيقة ظاهراً وباطناً فيجازيهم على ذلك بثواب الجنّة، وذلك ترغيب لهم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ المنافِقِينَ﴾ فيه تهديد للمنافقين ممّا هو معلوم من حالهم الّتي يستترون بها ويتوهّمون أنّهم نجوا من ضررها، لأنّه أخفاها[1] وهي ظاهرة عند من يملك الجزاء عليها، وتلك الفضيحة العظمى بها.

ثمّ حكى تعالى أنّ الّذين كفروا نِعَمَ الله وجحدوها يقولون للّذين آمنوا بتوحيده وصدق أنبيائه: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ﴾ نحن ﴿خطاياكم﴾ أي نحمل ما تستحقّون عليها من العقاب يوم القيامة عنكم تهزّؤاً بهم وإشعاراً بأنّ هذا لا حقيقة له، فالمأمور بهذا الكلام هو المتكلّم به أمر نفسه في مخرج اللفظ ومعناه يضمن إلزام النفس هذا المعنى كما يلزم بالأمر، قال الشاعر:

فَقلتُ ادعي وأدعو فإنّ أندى لصوتٍ أن ينـاديَ داعيانِ[2]

معناه ولأدْعو. وفيه معنى الجزاء، وتقديره: إن تتّبعوا ديننا حملنا خطاياكم. ثمّ نفى تعالى أن يكونوا هم الحاملين لخطاياهم من شيء، وإنّهم يكذبون في هذا القول، لأنّ الله تعالى لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره، فلا يصحّ

(١) كذا في الحجريّة، والظاهر: لأنهم أخفوها.

(٢) ديوان الحطيئة: ٢٧٤، ونسبه سيبويه في الكتاب ١: ٤٥ إلى الأعشى ولم يرد في ديوانه.

إذاً أن يتحمّل أحد ذنب غيره، كما قال تعالى: ﴿ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ﴾ (١). ﴿وأنْ لَيْسَ للإنسان إلّا ما سَعَىٰ﴾ (٢) وليس ذلك بمنزلة تحمّل الدية عن غيره، ولأنّ الفرض في الدية أداء المال عن نفس المقتول، فلا فضل بين أن يؤدّيه زيد عن نفسه وبين أن يؤدّيه عمرو عنه، لأنّه بمنزلة قضاء الدين.

وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالَهُمْ وأثقالاً مَعَ أثقالِهِمْ﴾ معناه أنّهم يحملون خطاياهم في أنفسهم الّتي لا يعملونها بغيرهم، ويحملون الخطايا الّتي ظلموا بها غيرهم، فحسن لذلك فيه التفصيل الّذي ذكره الله.

وقوله: ﴿وَلَيُسئَلُنَّ يَوْمَ القِيامَةِ عمّا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي يعملون. ومعناه أنّهم يسألون سؤال تعنيف وتوبيخ وتبكيت وتقريع، لا سؤال استعلام كسؤال التعجيز في الجدل، كقولك للوثني: ما الدليل على جواز عبادة الأوثان؟ وكما قال تعالى: ﴿هَاتُوا بُرهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣).

ثمّ أخبر تعالى أنّه أرسل نوحاً إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وأنّه مكث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً فلم يجيبوه وكفروا به ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُوفانُ﴾ جزاءً على كفرهم، فأهلكهم الله تعالى ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ لنفوسهم بما فعلوه من عصيان الله تعالى والإشراك به. و«الطوفان» الماء الكثير الغامر، لأنّه يطوف بكثرته في نواحي الأرض، قال الراجز:

أفناهُم طُوفانُ موتٍ جارفِ (٤)

---

(١) الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧.
(٢) النجم: ٣٩.
(٣) البقرة: ١١١، النمل: ٦٤.
(٤) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢: ١١٤ ولم ينسبه لأحد.

شبّه الموت في كثرته بالطوفان. ثمّ أخبر تعالى أنّه أنجى نوحاً والّذين ركبوا معه السفينة من المؤمنين به، وجعل السفينة آية أي علامة للخلائق يعتبرون بها إلى يوم القيامة، لأنّها فرّقت بين المؤمنين والكفّار والعاصين والأخيار، فهي دلالة للخلق على صدق نوح وكفر قومه.

قوله تعالى:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿أوَ لَمْ تَرَوا﴾ بالتاء، الباقون بالياء. وقرأ ابن كثير وأبو عمروٍ ﴿النَشاءَة﴾ بفتح الشين ممدودة هنا وفي النجم والواقعة، الباقون بسكون الشين مقصوراً. ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب، تقديره: قل لهم يا محمّد: أوَ لم تروا حين أنكروا البعث والنشور أو لم تروا كيف يبدئ الله الخلق: أي إذا أنكرتم الإعادة كان الابتداء أولى بالنكرة. وحيث أقرّوا بأنّ الله خالقهم ابتداءً فيلزمهم أن يقرّوا بالإعادة ثانياً. ومن قرأ بالياء فعلى الإخبار عنهم، و ﴿يبدىء﴾ فيه لغتان أتى بهما القرآن بدأ الله الخلق وأبدأهم، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الّذِي يبدؤا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[1] فمصدر أبدأ يبدئ إبداءاً، فهو مبدئ. ومن قرأ بدا يبدو بدواً فهو بادي وذاك مبدوّ،

---

(١) الروم: ٢٧.

ويقال: رجع عوده على بدئه بالهمز، وبدا يبدو بغير همز: ظهر. وقال أبوعمر ـ غلام تغلب ـ: يجوز رجع عوده على بده ـ بغير همز ـ بمعنى الظهور، كقولهم: ما عدا ممّا بدا. والنشاءة والنشأة بالمدّ والقصر، لغتان. كقولهم: رأفة ورآفة وكأبة وكآبة وهما مصدران. فالنشأة المرّة الواحدة، يقال: نشأ الغلام، فهو ناشئ وامرأة ناشئة، والجمع نواشئ، ويقال للجواري الصغار، [نشأ] قال نصيب:

وَلَـوْلا أن يـقال صَـبَا نَـصيبٌ  لَـقُلْتُ بـنفسي النَشَـأُ الصِـغارُ[1]

وأنشأهم الله إنشاءً فهو منشئ، ونشت - بغير همز - ريحاً طيّبةً، ورجل نشوان من الشراب. ورجل نشيان للخير: إذا كان يتخيّر الخير، حكاه تغلب.

قوله: ﴿وإبراهِيمَ إذْ قَالَ﴾ يحتمل نصبه أمرين:

أحدهما: أن يكون عطفاً على قوله: ﴿وأرْسَلنا نُوحاً إلى قُومِهِ﴾ وتقديره: وأرسلنا إبراهيم أيضاً.

الثاني: بتقدير: واذكر إبراهيم حين قال لقومه: اعبدوا الله وحده لاشريك له، واتّقوا عقابه باتّقاء معاصيه ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما هو خير لكم ممّا هو شرّ لكم.

وقوله: ﴿إنّما تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أوثاناً﴾ حكاية عمّا قال إبراهيم لقومه كأنّه قال لهم: ليس تعبدون من دون الله إلّا أوثاناً، وهو جمع وثنٍ، وهو ما يعبد من دون الله. وقيل: ما يعمل من حجر وطين يسمّى وثناً. و«ما» في قوله: [﴿إنّما﴾] كافّة وليست بمعنى الّذي، لأنّها لو كانت بمعنى الّذي لكان ﴿أوثان﴾ رفعاً.

---

(١) أنشده الأزهري في تهذيب اللغة ١١: ٤٨١، مادّة «نشأ».

وقوله: ﴿وتَخْلُقُونَ إفْكاً﴾ أي تعملون أصناماً، وسمّاها إفكاً لادّعـائهم أنّها آلهة، وهو قول قتادة والجبّائي. وقال ابن عـبّاس: وتـصنعون كـذباً، وتحقيقه يصنعون على ما يقدرون.

ثمّ قال لهم إبراهيم أيضاً: ﴿إنّ الّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُون الله﴾ يعني الأصنام ﴿لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ أي لا يقدرون على أن يرزقوكم، وإنّما يبتغى الرزق من القادر على المنع، وهو الله الرازق.

و«الملك» قدرة القادر على ما له أن يتصرّف فيه أتمّ التصرّف، وليس ذلك إلّا لله ـ عزّ وجلّ ـ على الحقيقة لأنّ له التصرّف على جميع الأشياء بلا مانع، والإنسان إنّما يملك ما يملّكه الله ويأذن له فـي التـصرّف فـيه. فأصل الملك لجميع الأشياء لله. ومن لا يملك أن يرزق غيره لا يستحقّ العبادة، لأنّ العبادة تجب بأعلى مراتب النعمة. والأصـنام لا تـقدر عـلى ذلك، فإذاً لا يحسن عبادتها.

ثمّ قال لهم: ﴿فابتَغُوا عِندَ اللهِ الرِزْقَ﴾ أي اطلبوا الرزق من عند الله دون من سواه ﴿واعْبُدُوهُ﴾ على ما أنعم به عليكم من أُصول النعم وأعلى مراتب الفضل ﴿واشْكُرُوا لَهُ﴾ أيضاً، لأنّكم إليه ترجعون يوم القـيامة فـيجازيكم على قدر أعمالكم. فمن عبده وشكره جازاه بالثواب، ومن عبد غيره وكفر نعمه جازاه بالعقاب. ويقال: شكرته وشكرت له يؤكّد باللام. فمعنى الشكر له اختصاصه بنفسه من غير احتمال لغيره.

ثمّ قال: ﴿وإنْ تُكذّبُوا﴾ بما أخبركم به من عند الله وما أدعوكم إليه من إخلاص عبادته ﴿فَقَدْ كَذّبَ أُمَمٌ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أنبياءهم الّذين بعثوا فيهم وليس ﴿عَلَى الرسُولِ إلّا البَلاغُ المُبِينُ﴾ يعني إلّا أن يوصل إليهم ويؤدّي إليهم ما أمر به لكونه بياناً ظاهراً يمكنهم معرفته وفهمه، وليس عليه حملهم على الإيمان.

ثمّ قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ﴾ أي ألم يفكّروا فيعلموا كيف اخترع الله الخلق من العدم ﴿ثُمّ يُعِيدُهُ﴾ ثانياً إذا أعدمهم بعد وجودهم. قال قتادة: معنى ﴿ثمّ يُعِيدُهُ﴾ بالبعث بعد الموت. وقيل: ينشئه بالإحياء ثمّ يعيده بالردّ إلى حال الموت. والأوّل أصحّ ﴿إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ غير متعذّر، لأنّ من قدر على الاختراع والإنشاء أوّلاً كان على الإعادة أقدر. ومعنى «يسير» لا تعب عليه فيه ولا نصب، وكلّ فعل كان كذلك فهو سهل يسير. والاحتجاج في ذلك أنّ من قدر على ذلك قادر على إرسال الرسول إلى العباد.

ثمّ قال لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء الكفّار: ﴿سِيرُوا في الأرضِ فانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ اللهُ الخَلْقَ﴾ وفكّروا في آثار من كان قبلكم، وإلى أيّ شيء صار أمرهم لتعتبروا بذلك فيما يؤدّيكم إلى العلم بربّكم.

وقوله: ﴿ثمّ اللهُ يُنشِيءُ النَشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ فالنشأة الآخرة إعادة الخلق كرّة ثانية من غير سبب كما كان أوّل مرّة، لأنّ معنى الإنشاء الإيجاد من غير سبب ﴿إنّ الله عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ إخبار منه تعالى أنّه قادر على كلّ شيء يصحّ أن يكون مقدوراً له.

قوله تعالى:

يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَـٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا

وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ وَمَالَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿مَودّةُ بَيْنِكُمْ﴾ بالرفع والإضافة، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم وابن عامر ﴿مَودّة بَينَكُمْ﴾ منوّناً منصوباً، وروى الأعشى عن أبي بكر برفع ﴿مودّةٌ﴾ و ﴿بَيْنَكُمْ﴾ نصب، وقرأ حفص عن عاصم وحمزة ﴿مَودّةَ بَينِكُمْ﴾ نصباً غير منوّن مضاف.

من رفع يحتمل وجهين أحدهما: أن يجعل «إنّما» كلمتين يجعل ﴿ما﴾ بمعنى الّذي، وهو اسم «انّ» و «مودّة» خبره، ومفعول اتّخذتم «هاء» محذوفة، وتقديره: إنّ الّذي اتّخذتموه مودّة بينكم، كما قال الشاعر:

ذَريـني إنّـما خـطئي وصَـو      بي عليَّ وإنّما أهلكت مالي[1]

يريد أنّ الّذي أهلكته مالي. الثاني: أن يرفعها بالابتداء و﴿في الحَيَاةِ الدُّنيا﴾ خبرها.

ومن نصب جعل «المودّة» مفعول «اتّخذتم».

ومن أضاف جعل «البين» الوصل.

ومن لم ينوّن ولم يضف جعل «البين» ظرفاً. وهو الفراق أيضاً. يقال: بينهما بين بعيد وبون بعيد، وجلس زيد بيننا، وبَيّنّا بالإدغام، ذكره ابن زيد عن ابن حاتم عن الأصمعي. يقال: بان زيد عمراً، إذا فارقه يبونه بوناً، قال الشاعر:

كـأنَّ عـينيّ وَقَـدْ بـانُوني      غـرباً نـصوح غـير محنوني[2]

---

(١) أنشده ابن فارض في مقاييس اللغة ٣: ٣١٨ مادّة «صوب» ولم ينسبه لأحد، وفيه: «أنفقت» بدل «أهلكت».

(٢) أنشده أبوزيد في النوادر في اللغة: ٦٠، ولم ينسبه لأحد، وفيه: «غَرْبانِ في جَدْوَلٍ منجنونِ» بدل «غرباً نصوح غير محنوني».

وقرأ أُبيّ إنّما مودَّةُ بينكم.

أخبر الله تعالى أنّه ﴿يعذّبُ مَن يَشاءُ﴾ من عباده إذا استحقّوا العقاب ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشاءُ﴾ منهم فيعفو عنهم بالتوبة وغير التوبة ﴿وإليهِ تُقْلَبُونَ﴾ معاشر الخلق أي إليه تحشرون وترجعون يوم القيامة. و«القلب» الرجوع والردّ. فتقلبون أي تردّون إلى حال الحياة في الآخرة بحيث لايملك الضرّ والنفع فيه إلّا الله. والقلب نفي حال بحال يخالفها.

ثمّ قال: ولستم بمعجزين في الأرض أي بفائتين، فالمعجز الفائت بما يعجز القادر عن لحاقه. ولهذا فسّروا ﴿ومَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي بفائتين، والمعنى لا تغترّوا بطول الإمهال ﴿في الأرض ولا في السَماءِ﴾ أي لستم تفوتونه في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها، فإنّه قادر عليكم حيث كنتم. وقيل في ذلك قولان: أحدهما: لا يفوتونه هرباً في الأرض ولا في السماء. الثاني: ولا من في السماء بمعجزين، كما قال حسّان:

فمن يهجو رسولَ اللهِ منكُمْ وَيمدَحُهُ وَينصُرُهُ سَوَاءُ[1]

وتقديره: ومن يمدحه وينصره سواء أم لا يتساوون؟!

وقوله: ﴿ومَا لَكُمْ مِن دُونِ اللهِ مِن وَليٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ أي وليس لكم وليّ ولا ناصر من دون الله يدفع عنكم عقاب الله إذا أراد بكم، فالوليّ هو الّذي يتولّى المعونة بنفسه، و«النصير» قد يدفع المكروه عن غيره تارةً بنفسه وتارةً بأن يأمر بذلك.

ثمّ قال تعالى: ﴿والّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ﴾ أي جحدوا أدلّة الله ولقاء ثوابه وعقابه يوم القيامة ﴿أُولئِكَ يَئِسُوا مِن رَحْمَتي﴾ إخبار عن إياسهم من رحمة الله، لعلمهم أنّها لا تقع بهم ذلك اليوم ﴿وأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ أي

(١) ديوان حسّان بن ثابت: ٢٨.

مؤلم. وفي ذلك دلالة على أنّ المؤمن بالله واليوم الآخر لا يجوز أن ييأس من رحمة الله.

ثمّ قال: ﴿فَما كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلّا أنْ قَالُوا اقتُلُوهُ أو حَرِّقُوهُ﴾ وفي ذلك دلالة على أنّ جميع ما تقدّم حكاية ما قال إبراهيم لقومه، وأنّهم لمّا عجزوا عن جوابه بحجّة عدلوا إلى أن قالوا: اقتلوه أو حرّقوه. وفي الكلام حذف، وتقديره: أنّهم أوقدوا ناراً وطرحوه فيها ﴿فأنجَاهُ اللهُ مِنَ النَارِ إنّ في ذَلِكَ لآيٰت﴾ واضحة وحجّة بيّنة ﴿لقَوْمٍ يُؤمِنُونَ﴾ بصحّة ما أخبرناك به من توحيد الله وإخلاص عبادته.

ثمّ عاد إلى حكاية قول إبراهيم وأنّه قال لهم: ﴿إنّما اتّخَذْتُم مِن دُونِ اللهِ أوثاناً مودّةَ بَينِكُم في الحَياةِ الدُنيا ثُمَّ يَوْمَ القِيامَةِ يَكْفُرُ بَعضُكُم بِبعضٍ ويَلعَنُ بَعضُكُم بعضاً﴾ قال قتادة: كلّ خلّة تنقلب يوم القيامة عداوة إلّا خلّةَ المتّقين كما قال: ﴿الأخِلاّءُ يَومَئِذ بَعْضُهُمْ لِبَعضٍ عَدُوٌّ إلّا المتَّقِينَ﴾[1] ومعنى الآية أنّ إبراهيم قال لقومه: إنّما اتّخذتم هذه الأوثان آلهة من دون الله لتتوادّوا بها في الحياة الدنيا، ثمّ يوم القيامة يتبرّأ بعضكم من بعض ويلعن بعضكم بعضاً، ومستقرّكم النار، وما لكم من ينصركم بدفع عذاب الله عنكم.

ثمّ قال لهم: ﴿ومأواكُمُ النارُ﴾ أي مستقرّكم و﴿ما لَكُمْ مِن ناصِرِينَ﴾ يدفعون بالقهر والغلبة. وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه في كتاب التفسير أنّ جميع الدوابّ والهوامّ كانت تطفئ عن إبراهيم النار إلّا الوزغ فإنّها كانت تنفخ النار فأُمر بقتلها[2]. وروي أيضاً أنّه لم ينتفع أحد يوم طرح إبراهيم في النار بالنار في جميع الدنيا[3].

---

(١) الزخرف: ٦٧.
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٦: ٨٣.
(٣) علل الشرائع: ٧/٣٦.

قوله تعالى:

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

ستّ آياتٍ حجازي، وخمس في ما عداه عدّوا ﴿السبيل﴾ آية ولم يعدّها الباقون.

قرأ أهل الحجاز وابن عامر وحفص ويعقوب ﴿إنّكم لَتَأْتُونَ الفاحِشَةَ﴾ بهمزة واحدة على الخبر، وقرأه أهل الكوفة إلّا حفصاً بهمزتين مخفّفتين على الاستفهام، وقرأ أبو عمرو كذلك إلّا أنّه بلين الثانية ويفصل بينهما بألف. وأمّا ﴿إنّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِجَالَ﴾ فإنّهم على أُصولهم.

حكى الله سبحانه أنّ إبراهيم لمّا دعا قومه إلى إخلاص عبادة الله وترك عبادة الأوثان وقبّح فعلهم في ذلك أنّه صدّق به لوط عليه السلام وآمن به، وكان ابن أُخته، فإبراهيم خاله، وهو قول ابن عبّاس وابن زيد والضحّاك وجميع المفسّرين.

وقال لوط: ﴿إنّي مهاجر إلى رَبّي﴾ معناه أي خارج من جملة الظالمين على جهة الهجر لهم لقبح أفعالهم إلى حيث أمرني ربّي، ومن هذا هجرة المسلمين من مكّة إلى المدينة وإلى أرض الحبشة، لأنّهم هجروا ديارهم وأوطانهم لأذى المشركين لهم [فأُمروا] بأن يخرجوا عنها. وقيل: هاجر إبراهيم ولوط من كوثى ـ وهي من سواد الكوفة ـ إلى أرض الشام في

قول قتادة.

وقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ الّذي لا تضيع الطاعة عنده، العزيز الّذي لا يذلّ من نصره.

ثمّ قال: ﴿وَوَهَبْنا لَهُ﴾ يعني لإبراهيم ﴿إسحَاقَ وَيَعقُوبَ وَجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِ النُبوَّةَ وَالكِتابَ﴾ قيل: إنّما لم يذكر إسماعيل مع أنّه نبيّ معظّم، لأنّه قد دلّ عليه بقوله: ﴿وَجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِ النُبوَّةَ والكِتَابَ﴾ فترك ذكر اسمه، لأنّه يكفي فيه الدلالة عليه لشهرته وعظم شأنه، وذكر ولد ولده في سياقه ذكر ولده، لأنّه يحسن إضافته إليه، لأنّه الأب الأكبر له.

وقوله: ﴿وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ في الدنيَا﴾ قال ابن عبّاس: الأجر في الدنيا الثناء الحسن والولد الصالح. وقال الجبّائي: هو ما أمر الله به المكلّفين من تعظيم الأنبياء. قال البلخي: وذلك يدلّ على أنّه يجوز أن يثيب الله في دار التكليف ببعض الثواب. و «الكتاب» أُريد به الكتب من التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، غير أنّه خرج مخرج الجنس. ﴿وإنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَالِحينَ﴾ إخبار منه تعالى أنّ إبراهيم مع أنّه آتاه أجره وثوابه في الدنيا أنّه في الآخرة يحشره الله من جملة الصالحين العظيمي الأقدار، لما قاموا [به] من النبوّة على ما أمر الله به.

وقوله: ﴿وَلُوطاً إذْ قالَ لِقَوْمِهِ﴾ يحتمل نصبه أيضاً بشيئين:

أحدهما: وأرسلنا لوطاً عطفاً على نوحاً وإبراهيم.

والثاني: بتقدير: واذكر لوطاً حين قال لقومه: ﴿إنّكُم لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ﴾.

من قرأ بلفظ الاستفهام أراد به الإنكار دون الاستعلام. ومن قرأ على الخبر أراد أنّ لوطاً أخبرهم بذلك منكراً لفعلهم لا مفيداً لهم، لأنّهم كانوا يعلمون ما فعلوه. و«الفاحشة» - هاهنا - ما كانوا يفعلونه من إتيان

الذكران في أدبارهم ﴿مَا سَبَقَكُمْ بها﴾ بهذه الفاحشة أحد من الخلائق.

ثمّ فسّر ما أراد بالفاحشة فقال: ﴿إنَّكُمُ لَتَأْتُونَ الرِجَالَ﴾ يعني في أدبارهم. و«الفاحش» الشنيع في القبح، فحش فلان يفحش فحشاً وتفاحش تفاحشاً: إذا شنع في قبحه، وهو ظهوره بما تقتضي العقول بالبديهة ردّه وإنكاره.

وقوله: ﴿وَتَقطَعُونَ السَبيلَ﴾ قيل: إنّهم كانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال، وقيل: يقطعون سبيل الولد بإتيان الذكران في الأدبار، وقيل: بالعمل الخبيث لأنّهم كانوا يطلبون الغرباء.

﴿وَتَأْتُونَ في نادِيكُمُ المُنكَرَ﴾ قال ابن عبّاس: كانوا يضرطون في مجالسهم، وقال السدّي: كانوا يحذفون من مرّ بهم. وقال مجاهد: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم. وقال الكلبي: منها الحذف والصفير ومضغ العلك والرمي بالبندق وحلّ أزرار القباء والقميص، وهي ثماني عشرة خصلة. وقال غيره: هي عشرة خصال.

وقوله: ﴿فَما كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلاّ أنْ قَالُوا ائتِنا بِعَذابِ اللهِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَادِقِينَ﴾ حكاية عمّا قال قوم لوط في جوابه حين عجزوا عن مقاومته بالحجّة وأنّهم قالوا له: ﴿ائتِنا بِعذابِ اللهِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَادِقِينِ﴾ في دعواك النبوّة وأنّ الله أرسلك وأمرك بما تدعو إليه. فقال عند ذلك لوط: ﴿ربِّ انصُرْني عَلَىٰ القَوْمِ المُفْسِدِينَ﴾ الّذين فعلوا المعاصي وارتكبوا القبائح وأفسدوا في الأرض والمعنى اكفني شرّهم وأذاهم، ويجوز أن يريد أهلكهم وأنزل عذابك عليهم.

قوله تعالى:

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا

كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب ﴿لَنُنْجينه﴾ بالتخفيف، الباقون بالتثقيل. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ويعقوب ﴿مُنْجُوكَ﴾ غير متحرّك بالتخفيف، الباقون بالتشديد. وقرأ ابن عامر والكسائي عن أبي بكر ﴿مُنزِّلونَ﴾ بالتشديد، الباقون بالتخفيف.

من قرأ ﴿لننجّينّه﴾ بالتشديد وبتحريك النون فلقوله: ﴿ونجّينا الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [١] ولقوله: ﴿إلاّ آلَ لُوطٍ نجّيناهُم بِسَحْرٍ﴾ [٢] ومن خفّف فلقوله ﴿فَأَنجاهُ اللهُ مِنَ النارِ﴾ [٣] يقال: نجا زيد وأنجيته ونجّيته، مثل فرح وفرّحته وأفرحته. ومن قرأ ﴿منزّلون﴾ بالتشديد فلأنّ أصله نزل، كما قال: ﴿نَزَل بِهِ الرُوحُ الأَمِينُ﴾ [٤]. فإذا عدّيته ثقّلته إمّا بالهمزة أو بالتضعيف، والتضعيف يدلّ على التكرار.

وقوله: ﴿إنّا مُنَجُّوكَ وأهْلَكَ﴾ نصب ﴿أهلك﴾ على أنّه مفعول به عطفاً على موضع الكاف. وقوله: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وأَهْلِيكُم﴾ [٥] إنّما كسر اللام وموضعها النصب لأنّ العرب تقول: رأيت أهلك، يريدون جميع القرابات. ومنهم من يقول: أهلين، ويجمع أهل على أهلين، فإذا أضافه ذهبت النون للإضافة، فالياء علامة الجمع والنصب، وكسرت اللام لمجاورتها

(١) فصّلت: ١٨. (٢) القمر: ٣٤. (٣) العنكبوت: ٢٤.
(٤) الشعراء: ١٩٣. (٥) التحريم: ٦.

الياء. وفي الحديث «أنّ لله أهلين، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصّته»[(١)] ومن العرب من يجمع «أهلاً» أهلات، أنشد ابن مجاهد:

فهم أهَلات حَوْلَ قَيْس بن عاصمٍ إذا أَدلجوا بالليل يَدْعُونَ كَوْثَرا[(٢)]

قال ابن خالويه: الصواب أن يجعل أهلات جمع أهلة. قال: فإن قيل: هل يجوز أن تقول: أهلون؟ بفتح الهاء كما يقولون: أرضون، إذ كان الأصل أرضات، قال: إنّ «أهلاً» مذكّر تصغيره أُهيل، وأرضاً مؤنّثة تصغيرها أُريضة، والتاء سايغة في المؤنّث ممتنعة في المذكّر، فهذا يفصل ما بينهما، قال: وما علمت أحداً تكلّم فيه.

أخبر الله تعالى أنّه لمّا جاء إبراهيم رسل الله ـ وهم من الملائكة ـ بالبشرى يبشّرونه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. و«البشرى» البيان والخبر بما يظهر سروره في بشرة الوجه. وقيل للإخبار بما يظهر سروره أو غمّه في البشرة: بشرى، ويقوّي ذلك قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾[(٣)] غير أنّه غلب عليه البشارة بما يسرّ به.

وقوله: ﴿قَالُوا إِنّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ﴾ حكاية ما قالت الملائكة لإبراهيم فإنّهم قالوا له: بعثنا الله وأرسلنا لإهلاك هذه القرية الّتي فيها قوم لوط. و«الإهلاك» الإذهاب بالشيء إلى ما لا يقع به إحساس، فلمّا كانوا بالعذاب قد أذهبوا هذا الإذهاب كانوا [قد] اهلكوا. و«القرية» البلدة الّتي يجتمع إليها للإيواء من جهات مختلفة، وهي من قريت الماء في الحوض

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٢٨.
(٢) أنشده سيبويه في الكتاب ٣: ٦٠٠، ونسبه إلى المخبّل السعدي.
(٣) آل عمران: ٢١، التوبة: ٣٤، الانشقاق: ٢٤.

أقريه قرياً: إذا جمعته، ومنه قِرى الضيف، لأنّك تجمعه إليك بما تعدّه له من طعام. و«الظالم» من فعل الظلم وهو صفة ذمّ.

فقال لهم إبراهيم عند ذلك: ﴿إنّ فيها لُوطاً﴾ كيف تهلكونها؟! فقالوا في جوابه: ﴿نَحْنُ أعلَمُ بِمَن فيها﴾ و«الأعلم» الأكثر معلوماً، فإذا كان الشيء معلوماً لعالم من جهات مختلفة ولعالم آخر من بعض تلك الوجوه دون بعض كان ذلك أعلم.

ثمّ قالوا: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾ أي لنخلّصنّه من العذاب ﴿وَأَهْلَهُ﴾ أي ونخلّص أيضاً أهله المؤمنين منهم ﴿إلّا امرَأتَهُ كانَتْ مِنَ الغابِرِينَ﴾ أي من الباقين في العذاب. قال المبرّد: و «أهلك» عطف على المعنى، لأنّ موضع الكاف الخفض، ولا يجوز العطف على المضمر المخفوض لما مضى، ومثل ذلك قول لبيد:

فإنْ لم تَجِدْ مِنْ دُونِ عَدْنانَ والداً ودونَ مَعَدّ فَلتَرعْكَ العوَاذِلُ[1]

فنصب «ودون» على الموضع.

ثمّ حكى تعالى أنّ رسل الله لمّا جاءت لوطاً سيء بهم، وقيل في معناه قولان:

أحدهما: سيء بالملائكة، أي ساء مجيؤهم لمّا طلبوا منه الضيافة لما يعلم من خبث فعل قومه، في قول قتادة.

الثاني: سيء بقومه ذرعاً، أي ضاق بهم ذرعاً، لما علم من عظم البلاء النازل بهم. فلمّا رأته الملائكة على تلك الصفة ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿لا تَخَفْ ولا تَحْزَنْ إنّا مُنَجُّوكَ﴾ أي مخلّصوك ومخلّصو ﴿أهلك إلّا امرأتَك كانَتْ مِنَ الغابِرِينَ﴾ أي من الباقين في العذاب. وإنّما قال: ﴿مِنَ الغابِرِينَ﴾ على جمع

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ١٣١، وفيه: «باقياً» بدل «والداً» و: «فلتزعك» بدل «فلترعك».

المذكّر تغليباً للمذكّر على المؤنّث إذا اجتمعا. وقيل: كانت من الباقين، لأنّه طال عمرها، ذكره أبو عبيدة[١] وقالوا له: ﴿إنّا مُنْزِلُونَ عَلَى أهلِ هَذِهِ القَرْيَةِ رِجْزاً﴾ أي عذاباً رجزاً ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ويخرجون من طاعة الله إلى معصيته.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْها﴾ يعني من القرية ﴿آيةً بيّنةً﴾ قال قتادة: الآية البيّنة الحجارة الّتي امطرت عليهم. وقال غيره: عفو آثارهم مع ظهور هلاكهم ﴿لِقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾ ذلك ويبصرونه ويتفكّرون فيه ويتّعظون به، فيزجرهم ذلك عن الكفر بالله واتّخاذ شريك معه في العبادة.

قوله تعالى:

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسفنا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ خمس آياتٍ بلاخلاف.

قوله: ﴿وإلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْبَاً﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ أرسلنا نُوحاً إلى قَومِهِ﴾[٢].

وتقديره: وأرسلنا إلى مدين، وقد فسّرنا معنى «مدين» فيما تقدّم[٣]

(١) مجاز القرآن ٢: ١١٥.
(٢) العنكبوت: ١٤.
(٣) تقدّم في تفسير الآية ٨٤ من سورة هود، فراجع.

﴿أخاهُمْ شُعيباً﴾ وأنّه قال لهم: ﴿يا قَوْمِ اِعبُدُوا اللهَ﴾ وحده لا شريك له ولا تشركوا معه في العبادة غيره ﴿وارْجُوا اليَوْمَ الآخرَ﴾ يحتمل أن يكون أراد وخافوا عقاب اليوم الآخرة بمعاصي الله، ويحتمل أن يكون أراد واطلبوا ثواب يوم القيامة بفعل الطاعات ﴿ولا تَعْثَوا في الأرضِ مُفْسِدِين﴾ معناه لا تضطربوا بحال الجهالة يقال: عثى يعثي عثىً، كقولهم عاث يعيث عيثاً، وفيه معنى الأمر بالاستقامة، لأنّه إنّما يخرج عن اضطراب الجهّال إلى الاستقامة في الأفعال. و«الفساد» كلّ فعل ينافي العقل أو الشرع، فهو عبارة عن معاصي الله.

ثمّ أخبر أنّ قومه كذّبوه في ادّعائه النبوّة ولم يقبلوا منه فعاقبهم الله بعذاب الرجفة، وهي زعزعة الأرض تحت القدم، يقال: رجف السطح من تحت أهله يرجف رجفاً، ورجفة شديدة. و«الإرجاف» هو الإخبار بما يضطرب الناس لأجله من غير أن يحقّقونه ﴿فأصبَحُوا في دارِهِمْ جَاثِمِين﴾ قال قتادة: ميّتين بعضهم على بعض. وقيل: باركين على ركبهم. و«الجاثم» البارك على ركبتيه مستقبلاً بوجهه الأرض.

وقوله: ﴿وَعَاداً وَثَمُوداً﴾ أي وأهلكنا أيضاً عاداً وثموداً جزاء على كفرهم ﴿وَقَدْ تبيّنَ لَكُمْ﴾ معاشر الناس كثير ﴿مِنْ مَساكِنِهِمْ﴾.

ثمّ أخبر أنّه ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَيطَانُ أعمالَهُمْ﴾ الّتي كفروا بها وعصوا الله فيها، وذلك يدلّ على بطلان قول المجبّرة الّذين ينسبون ذلك إلى الله.

ثمّ أخبر أنّ الشيطان صدّهم ومنعهم عن طريق الحقّ فهم لا يهتدون إليه، لاتّباعهم دعاء الشيطان وعدولهم عن الطريق الواضح.

﴿وَكَانُوا مُستَبْصِرِينَ﴾ أي وكانوا عقلاء يمكنهم تمييز الحقّ من الباطل بإبصارهم له وفكرهم فيه. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ في

ضلالتهم لتعجّبهم به، فتصوّروه بخلاف صورته.

ثمّ أخبر أنّه تعالى أهلك قارون وفرعون وهامان. ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿الهاء والميم﴾ في قوله: ﴿فَصَدَّهُم عَنِ السَّبيل﴾ وكأنّه قال: فصدّ عاداً وثموداً، وصدّ قارون وفرعون وهامان. وأنّهم ﴿جَاءَهُم مُوسَىٰ بالبَيِّناتِ﴾ يعني بالحجج الواضحات: من فلق البحر وقلب العصا وغير ذلك ﴿فاسْتَكْبَرُوا في الأرْضِ﴾ أي طلبوا التجبّر فيها ولم ينقادوا للحقّ وأنفوا من اتّباع موسى ﴿وما كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي فائتين لله، كما يفوت السابق.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿فَكُلّا أَخَذْنا بِذَنبِهِ﴾ أي أخذنا كلّاً بذنبه ﴿فَمِنْهُم مَن أَرْسَلْنا عَلَيهِ حَاصِباً﴾ وهو الريح العاصفة الّتي فيها حصباء وهي الحصى الصغار، وشبّه به البرد والجليد، قال الأخطل:

وَلَقدْ علمتِ إذا العِشارُ تَروّحتْ ... هَدَجَ الرئالِ تَكُبُّهنَّ شَمالا

تَرْمي الرياحَ بحاصبٍ من ثَلجِها ... حتّى تَبيتَ على العِضاه جُفالا[1]

وقال الفرزدق:

مستَقْبلينَ شَمال الشأم يَضربُنا ... بحاصِبٍ كنَديفِ القُطْنِ مَنْثُورِ[2]

والّذين أُرسل عليهم الحاصب قوم لوط، في قول ابن عبّاس وقتادة. والّذين أخذتهم الصيحة ثمود وقوم شعيب، في قولهما. ﴿وَمِنْهُم مَنْ خَسَفْنا بِهِ الأرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَن أَغْرَقنا﴾ يعني قوم نوح وفرعون.

ثمّ أخبر تعالى أنّه لم يظلمهم بما فعل معهم ﴿وَلكِن كَانُوا أنفُسَهُم يَظْلِمُون﴾ بجحدهم نعم الله واتّخاذهم مع الله آلهة عبدوها وطغيانهم وفسادهم في الأرض. وذلك يدلّ على فساد قول المجبّرة الّذين قالوا: إنّ الظلم من فعل الله، لأنّه لو كان من فعله لما كانوا هم الظالمين لنفوسهم، بل

---

(١) ديوان الأخطل: ٢٤٨.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ١: ٣٦٠.

كان الظالم لهم من فعل فيهم الظلم.

قوله تعالى:

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو ويعقوب وعاصم ـ في رواية حفص ـ والعليمي والعبسي ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ بالياء على الخبر عن الغائب، الباقون بالتاء على الخطاب.

قال أبو عليّ: «ما» استفهام وموضعها النصب بـ«يدعون» ولا يجوز أن يكون نصباً بـ«يعلم» ولكن صارت الجملة الّتي هي منها في موضع نصب، وتقديره: إنّ الله يعلم أوثاناً يدعون من دونه، لا يخفى عليه ذلك[1].

ومثله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ﴾[2] والمعنى سيعلمون المسلم يكون له عاقبة الدار أم الكافر؟ وكلّ ما كان من هذا فهكذا القول فيه، وهو قياس قول الخليل.

شبّه الله سبحانه حال من اتّخذ من دونه أولياء ينصرونه عند الحاجة في الوهن والضعف بحال العنكبوت الّذي يتّخذ بيتاً ليأوي إليه، فكما أنّ بيتالعنكبوت في غايةالوهن والضعف فكذلك حال من اتّخذ من دونالله أولياء مثله في الضعف والوهن. و«المثل» قول سائر يشبّه فيه حال الثاني

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢٦١.

(٢) الأنعام: ١٣٥.

بالأوّل. و«الاتّخاذ» أخذ الشيء على إعداده لنائبة، وهو افتعال من الأخذ.

فلمّا اخذوا عبادة غير الله إعداداً لنائبة كانوا اتّخذوا الأولياء من دون الله، وذلك فاسد، لأنّ عبادة الله هي العاصمة من المكاره دون عبادة الأوثان. والوليّ هو المتولّي للنصرة، وهو أبلغ من الناصر، لأنّ الناصر قد يكون ناصراً بأن يأمر غيره بالنصرة، والوليّ هو الّذي يتولّى فعلها بنفسه. و«العنكبوت» هو دابّة لطيفة تنسج بيتاً تأويه في غاية الوهن والضعف، ويجمع عناكب، ويصغّر عنيكب، ووزنه «فعللوت» وهو يذكّر ويؤنّث، قال الشاعر:

علـى هـطّالهم مـنهم بـيوتٌ كَـأنَّ العـنكبوت هـو ابـتناها[1]

ويقال: هو العنكباء. ثمّ أخبر تعالى ﴿إنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ﴾ الّذي شبّه الله حال من اتّخذ من دونه أولياء به، فإذاً حاله أضعف الأحوال.

وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ صحّة ما أخبرناهم به ويتحقّقونه، لكنّهم كفّار بذلك فلا يعلمونه، فـ«لو» متعلّقة بقوله: ﴿اتَّخَذُوا﴾ أي لو علموا أنّ اتّخاذهم الأولياء كأتّخاذ العنكبوت بيتاً سخيفاً لم يتّخذوهم أولياء، ولا يجوز أن تكون متعلّقة بقوله: ﴿وإنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ﴾ لأنّهم كانوا عالمين بأنّ بيت العنكبوت واهٍ ضعيف.

ثمّ قال تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شيء﴾ سواء كان صنماً أو وثناً أو ما كان مثل ذلك ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ في انتقامه الّذي لا يغالب في ما يريده ﴿الحَكِيمُ﴾ في جميع أحواله وأفعاله واضع لها في مواضعها. ثمّ قال: ﴿وَتِلْكِ الأمثالُ﴾ وهي الأشباه والنظائر، قال الشاعر:

هَـلْ يـذكرُ العَـهْدَ فـي تَـنمُصَ إذ يَضْرِبُ لي قاعداً بـها مَـثَلا[2]

---

(١) أُنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٣١٧، ولم ينسبه لأحد.

(٢) قائله الأعشى، راجع ديوانه: ١٧١.

﴿يَضْرِبُها للنَاسِ وَما يَعْقِلُها إلّا العَالِمُونَ﴾ أي ما يدركها إلّا من كان عالماً بمواقعها.

ثمّ أخبر تعالى أنّه ﴿خَلَقَ السَمَاواتِ والأرْضَ﴾ وأخرجهما من العدم إلى الوجود ﴿بِالحَقِّ﴾ أي على وجه الحكمة دون العبث الّذي لا فائدة فيه وأنّه قصد بها الدلالة على توحيده ﴿إنّ في ذَلِكَ﴾ يعني في خلق الله ذلك على ما ذكرته ﴿لآيَةً للمُؤمِنِينَ﴾ المصدّقين بتوحيد الله، لأنّهم المنتفعون بها دون الكفّار الّذين لم ينتفعوا بها لتفريطهم، فلذلك أسندها إلى المؤمنين.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿أُتْلُ مَا أُوحِيَ إليكَ مِنَ الكِتَابِ﴾ يا محمّد ـ يعني القرآن – على المكلّفين واعمل بما تضمّنه ﴿وَأقِمِ الصَلاةَ﴾ بحدودها ﴿إنَّ الصَلاَةَ تَنْهىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ والمنكَرِ﴾ يعني فعلها فيه لطف للمكلّف في فعل الواجب والامتناع عن القبيح، فهي بمنزلة الناهي بالقول إذا قال: لا تفعل الفحشاء ولا المنكر، وذلك لأنّ فيها التكبير والتسبيح والقراءة وصنوف العبادة، وكلّ ذلك يدعو إلى شكله ويصرف عن ضدّه كالأمر والنهي بالقول، وكلّ دليل مؤدٍّ إلى المعرفة بالحقّ فهو داعٍ إليه وصارف عن ضدّه من الباطل.

وقال ابن مسعود: الصلاة تنهى عن المنكر وتأمر بالمعروف، وبه قال ابن عبّاس. وقال ابن مسعود: الصلاة لا تنفع إلّا من أطاع.

وقوله: ﴿وَلَذِكرُ اللهِ أكْبَرُ﴾ معناه ولذكر الله إيّاكم برحمته أكبر من ذكركم إيّاه بطاعته، ذكره ابن عبّاس وسلمان وابن مسعود ومجاهد. وقيل: معناه ذكر العبد لربّه أفضل من جميع عمله، في رواية أُخرى عن سلمان، وهو قول قتادة وابن زيد وأبي الدرداء. وقال أبو مالك: معناه إنّ ذكر العبد لله تعالى في الصلاة أكبر من الصلاة. وقيل: ذكر الله بتعظيمه أكبر من سائر

طاعاته. وقيل: ولذكر الله أكبر من النهي عن الفحشاء.

وقوله: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من خير وشرّ، فيجازيكم بحسبه. وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال إنّ المعرفة ضرورة، ودلالة على بطلان قول المجبّرة في أنّ الله خلق الكافر للضلال.

قوله تعالى:

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم وقتيبة عن الكسائي ﴿لولا أُنزِلَ عَلَيهِ آيَاتٌ مِن رَبِّهِ﴾ على الجمع لقوله: ﴿قل إنّما الآياتُ﴾ وقرأ الباقون ﴿آيَةٌ﴾ على التوحيد. ومعناهما واحد، لأنّه لفظ جنس يدلّ على القليل والكثير.

قال قتادة: الآية الأولة منسوخة بالجهاد والقتال. وقال غيره: هي ثابتة، وهو الأولى، لأنّه لا دليل على ما قاله، فكيف وقد أمر بالجدال بالّذي هو أحسن، وهو الواجب الّذي لا يجوز غيره كما قال: ﴿وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أحْسَنُ﴾[1] فالآية خطاب من الله تعالى لنبيّه وجميع المؤمنين ينهاهم أن يجادلوا أهل الكتاب: من اليهود والنصارى.

(١) النحل: ١٢٥.

﴿إلّا بالّتي هِيَ أحْسَنُ﴾ وقيل: معناه إلّا بالجميل من القول في التنبيه على آيات الله وحججه والأحسن الأعلى في الحسن من جهة تقبّل العقل له. وقد يكون الأعلى فيالحسن من جهةالطبعله، وقد يكون في الأمرين.

و«الجدال» فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج فيه. وفي ذلك دلالة على حسن المجادلة، لأنّها لو كانت قبيحة على كلّ حال، لما قال: ﴿إلّا بالتي هِيَ أحْسَنُ﴾.

وأصل الجدال شدّة الفتل، يقال: جدلته أجدله جدلاً: إذا فتله فتلاً شديداً، ومنه الأجدل: للصقر لشدّة فتل بدنه. وقيل: إنّه يجوز أن يغلظ المحقّ في الجدل على الظالم فيه، بتأديب الله تعالى في الآية في قوله: ﴿إلّا الذينَ ظَلَمُوا مِنْهُم﴾ فاستثنى الظالم عن المجادلة بالّتي هي أحسن.

فإن قيل: لِمَ استثنى الّذين ظلموا؟ وكلّهم ظالم لنفسه بكفره!

قيل: لأنّ المراد ﴿إلّا الّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في جدالهم أو في غيره ممّا يقتضي الإغلاظ لهم، ولهذا يسع الإنسان أن يغلظ على غيره، وإلّا فالداعي إلى الحقّ يجب أن يستعمل الرفق في أمره. قال مجاهد: ﴿إلّا الّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم﴾ بمنع الجزية. وقال ابن زيد: الّذين ظلموا بالإقامة على كفرهم بعد إقامة الحجّة عليهم.

ثمّ قال تعالى للمؤمنين: ﴿وَقُولُوا آمَنّا بالّذِي أُنزِلَ إلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿وأُنزِلَ إلَيْكُمْ﴾ من التوراة والإنجيل، وقولوا: ﴿وَإلهُنَا وَإلَهُكُم وَاحدٌ﴾ لاشريك له ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ طائعون.

ثمّ قال لنبيّهﷺ: ومثل ما أنزلنا الكتاب على موسى وعيسى من التوراة والإنجيل ﴿أنزلنا إلَيكَ الكِتابَ﴾ القرآن ﴿فالّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الكِتَابَ﴾ يعني الّذين آتيناهم علم الكتاب يصدّقون بالقرآن لدلالته عليه ﴿وَمِنْ

هَؤلاءِ مَن يُؤمِنُ بهِ﴾ أي من غير جهة علم الكتاب. وقيل: ﴿فالّذِينَ آتَيناهُمْ الكِتَابَ﴾ يعني به عبد الله بن سلام وأمثاله. و ﴿من هؤلاء﴾ يعني أهل مكّة ﴿مَن يُؤمِنُ بِهِ﴾. ويحتمل أن يكون أراد بـ«الّذين آتيناهُمُ الكِتَابَ» الّذين آتاهم القرآن: المؤمنين منهم و «ومن هؤلاء» يعني من اليهود والنصارى ﴿مَنْ يُؤمِنُ بِهِ﴾ أيضاً. والهاء في قوله: ﴿به﴾ يجوز أن تكون راجعة إلى النبيّ، ويجوز أن تكون راجعة إلى القرآن ﴿ومَا يَجْحَدُ بآيَاتِنا إلّا الكافِرُون﴾ لأنّ كلّ من جحد بآيات الله من المكلّفين فهو كافر، معانداً كان أو غير معاند.

ثمّ خاطب نبيّه صلى الله عليه وآله فقال: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾ يعني لم تكن تحسن القراءة قبل أن يوحى إليك بالقرآن ﴿ولا تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ﴾ معناه وما كنت أيضاً تخطّ بيمينك. وفيه اختصار، وتقديره: ولو كنت تتلوا الكتاب وتخطّه بيمينك ﴿إذاً لارتابَ المبطِلُونَ﴾ وقال المفسّرون: إنّه لم يكن النبيّ صلى الله عليه وآله يحسن الكتابة. والآية لا تدلّ على ذلك بل فيها إنّه لم يكن يكتب الكتاب وقد لا يكتب الكتاب من يحسنه، كما لا يكتب من لا يحسنه، وليس ذلك بنهي، لأنّه لو كان نهياً لكان الأجود أن يكون مفتوحاً، وإن جاز الضمّ على وجه الإتباع لضمّة الخاء، كما يقال: «ردَّه» بالضمّ والفتح والكسر، ولكان أيضاً غير مطابق للأوّل. ولو أفاد أنّه لم يكن يحسن الكتابة قبل الإيحاء لكان دليله يدلّ على أنّه كان يحسنها بعد الإيحاء إليه، ليكون فرقاً بين الحالتين.

ثمّ بيّن تعالى أنّه لم يكتب، لأنّه لو كتب لشكّ المبطلون في القرآن وقالوا: هو قرأ الكتب أو هو يصنّفه، ويضمّ شيئاً إلى شيء في حال بعد حال، فإذا لم يحسن الكتابة لم تسبق إليه الظنّة.

ثمّ قال: ﴿بَل هُوَ آياتٌ بَيّناتٌ في صُدُورِ الذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ وقيل: معناه بل هي آيات واضحات في صدور العلماء، بأنّه أُمّي لا يقرأ ولا يكتب، على صفته في التوراة والإنجيل، في قول ابن عبّاس. وقال الحسن: بل القرآن آيات بيّنات في صدور العلماء. ثمّ قال: ﴿وما يَجْحَدُ بآياتِنا﴾ أي لا ينكر حججنا ويجحدها إلّا الّذين ظلموا نفوسهم بترك النظر فيها، أو العناد لها بعد طول المدّة وحصول العلم بها. ثمّ حكى عن الكفّار أنّهم قالوا: هلّا أُنزل على محمّد آية من ربّه؟ يريدون آية يقترحونها، وآية كآية موسى: من فلق البحر وقلب العصا حيّة. فقال الله تعالى لهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿إنّما الآياتُ عِندَ اللهِ﴾ ينزلها ويظهرها بحسب ما يعلم من مصالح خلقه ﴿وإنّما أنا نَذِيرٌ﴾ أي منذر مخوّف من معصية الله ﴿مُبِينٌ﴾ طريق الحقّ من طريق الباطل.

قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِالْبَـٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِاللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة ونافع ﴿يَقُولُ﴾ بالياء على معنى: ويقول لهم الموكّلون بعذابهم، الباقون بالنون على وجه الإخبار من الله تعالى عن نفسه. وفي قراءة عبد الله ﴿ويُقالُ لَهُم﴾ على ما لم يسمّ فاعله.

لمّا حكى الله تعالى عن الكفّار أنّهم قالوا: هلّا أُنزل على محمّد آيات

اقترحوها أو آيات كما أُنزل على موسى وعيسى قال الله لهم: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أنزَلْنا عَلَيكَ﴾ يا محمّد ﴿الكِتَاب﴾ يعني القرآن ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فبيّن أنّ في القرآن دلالة واضحة وحجّة بالغة ينزاح معه العلّة وتقوم به الحجّة لا يحتاج معه إلى غيره في الوصول إلى العلم بصحّة نبوّته، وأنّه مبعوث من عند الله، مع أنّ إظهار المعجزات مع كونها إزاحة العلّة يراعى فيها المصلحة. فإذا كانت المصلحة في إظهار نوع منها لم يجز إظهار غيرها.

ولو أظهر الله الأعلام الّتي اقترحوها ثمّ لم يؤمنوا لاقتضت المصلحة استئصالهم كما اقتضت في الأمم الماضية، وقد وعد الله أنّ هذه الأُمّة لا تعذّب بعذاب الاستئصال، كما قال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أنْ نُرْسِلَ بالآياتِ إلاّ أنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوّلُونَ﴾ (١).

والكفاية بلوغ حدّ ينافي الحاجة، يقال: كفى يكفي كفايةً، فهو كافٍ.

وقيل: إنّ الآية نزلت في قوم كتبوا شيئاً من كتب أهل الكتاب شبه الخرافات فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِم﴾ القرآن تهديداً لهم ومنعاً من التعرّض لغيره. وقولهم: كفى الله، معناه أنّه فعل ما ينافي الحاجة بالنصرة. و«التلاوة» هي القراءة وسمّيت تلاوة لأنّه يتلو حرف حرفاً في التلاوة. والقرآن مشتقّ من جمع الحروف بعضها إلى بعض.

ثمّ بيّن الله تعالى ﴿إنّ في ذَلِكَ﴾ أي القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي نعمة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي ما يتذكّر به ومعتبر ﴿لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ يصدّقون به [ويعتبرون، وإنّما أضافه إليهم] (٢) لأنّهم الّذين ينتفعون به. ثمّ أمر نبيّه ﷺ أن يقول: ﴿كَفَىٰ بِالله﴾ أي كفى الله، والباء زائدة ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ يشهد بالحقّ. و«الشاهد» و«الشهيد» واحد، وفيه مبالغة، و«الشهادة» هي الخبر

(١) الإسراء: ٥٩.
(٢) في الحجريّة بدل ما في المعقوفتين «ويعتبر فيمن أضافه إليهم».

بالشيء عن مشاهدة تقوم به الحجّة في حكم من أحكام الشرع، ولذلك لم يكن خبر من لاتقوم به الحجّة في الزنا شهادة وكان قذفاً. ثمّ بيّن أنّ الشهيد الّذي هو الله ﴿يَعلَمُ مَا في السَمَاواتِ والأرْضِ﴾ ويعلم الّذين صدّقوا بالباطل وجحدوا وحدانيّته.

ثمّ أخبر عنهم أنّهم الخاسرون الّذين خسروا ثواب الجنّة بارتكابهم المعاصي وجحدهم بالله، فكان ذلك الخسران الّذي لايوازيه خسران مال. وقوله: ﴿والذِين آمَنُوا بالباطِلِ﴾ إنّما وصفهم بالإيمان مقيّداً بالباطل، كما يقال: فلان كافر بالطاغوت مقيّداً، وإنّما الإطلاق لايجوز فيهما.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿وَيَسْتَعْجلُونَكَ بالعَذابِ﴾ يعني هؤلاء الكفّار يستعجلونك بالعذاب أن ينزّل عليهم بجحودهم صحّة ما تدعوهم به، كما قالوا: ﴿فأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً من السَماءِ﴾ (١).

﴿وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً﴾ يعني وقتاً قدّره الله أن يعاقبهم فيه وهو يوم القيامة وأجل قدّره الله أن يبقيهم إليه لضرب من المصلحة ـ وقال الجبّائي: ذلك يدلّ على أنّ التبقية لا تجب لكونه أصلح، لأنّه علّله بأنّه قدّر له أجلاً ـ ﴿لَجاءَهُمُ العَذَابُ﴾ الّذي استحقّوه ﴿وَلَيأْتِيَنَّهُم﴾ العذاب الّذي يوعدونه ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه.

ثمّ قال: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ يا محمّد ﴿بالعَذَابِ﴾ أي يطلبون العذاب عاجلاً قلّة يقين منهم بصحّته ﴿وَإنَّ جَهَنَّمَ لَمحِيطَةٌ بالكافِرينَ﴾ أي كأنّها محيطة بهم لما قد لزمهم بكفرهم من كونهم فيها. وقيل: معناه أنّه إذا كان يوم القيامة أحاطت بهم. ووجه ثالث: أنّها تحيط بهم ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ العَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْت أرجُلِهِم وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي تكسبون أي

---

(١) الأنفال: ٣٢.

ذوقوا جزاءً على أعمالكم المعاصي الّتي اكتسبتموها.

قوله تعالى:

﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ يحيى والعليمي ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا يُرجَعُونَ﴾ بالياء على الخبر عن الغـائب، الباقون بالتاء على الخطاب. وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿لَنُثْوِينَّهُمْ﴾ بالثاء من أثويته منزلاً أي جعلت له منزل مقام، و«الثواء» المقام. الباقون بالباء من قولهم: بوّأته منزلاً، كما قال تعالى: ﴿مُبوّأَ صِدْقٍ﴾ في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنا بني إسرَائِيلَ مُبوّأَ صِدْقٍ﴾ [(١)] ﴿وإذْ بوّأنا لإبرَاهِيمَ مَكَانَ البَيْتِ﴾ [(٢)] ويحتمل أن تكون اللام زائدة، كقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم بَعْضَ﴾ [(٣)] ويحتمل أن يكون المـراد «بوّأنا» لدعاء إبراهيم مكان البيت، ويقول القائل: اللّهمّ بوّئنا مبوّأ صـدق أي أنزلنا منزل صدق. و«التَبَوّ» اتّخاذ منزل يرجع إليه من يأوى إليه، وأصله الرجوع من قوله: ﴿بَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ [(٤)] أي رجعوا، ومنه قول الحارث ابن عبّاد: «بوئوا بشِسْعِ كُلَيْب» [(٥)] وقيل: معناه لننزّلنّهم من الجنّة علالي.

يقول الله تعالى لخلقه الّذين صدّقوا بوحدانيّته وأقرّوا بنبوّة نبيّه: ﴿يَا عِبادِي الذِينَ آمَنُوا إنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ لبعد أقطارها، فاهربوا من أرض مـن

---

(١) يونس: ٩٣. (٢) الحجّ: ٢٦.

(٣) النمل: ٧٢. (٤) البقرة: ٦١، آل عمران: ١١٢.

(٥) كذا في الحجريّة والمنقول: «بُؤْبِشِسْعِ كُلَيب» كما في جمهرة الأمثال ١: ٢٢٦.

منعكم فيها من الإيمان وإخلاص عبادتي فيها. وقيل: نزلت في مؤمني مكّة أُمروا بالهجرة عنها، وهوقول سعيدبن جبير ومجاهد وعطاء وابن زيد.

وقيل: ﴿أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ بما أُخرج فيها من الرزق لكم، ذكره مطرف بن عبد الله بن السخير العامري. وقال الجبّائي: معناه أنّ أرض الجنّة واسعة، وأكثر أهل التأويل على أنّ المراد به أرض الدنيا.

وقوله: ﴿فإيّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ أي اعبدوني خالصاً، ولا تطيعوا أحداً من خلقي في معصيتي. وقيل: دخول الفاء في الكلام للجزاء وتقديره: إن ضاق موضع بكم فإيّاي فاعبدون، لأنّ أرضي واسعة. و«إيّاي» منصوب بمضمر تفسيره ما بعده.

ثمّ أخبر تعالى أنّ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أحياها الله بحياة خلقها فيها ﴿ذائِقَةُ الموت﴾ «والذائق» الواجد للجسم بحاسّة إدراك الطعم ﴿ثُمّ إلينَا تُرجَعُونَ﴾ أي تردّون إلينا فنجازيكم على قدر استحقاقكم من الثواب والعقاب، وفي ذلك غاية التهديد والزجر.

ثمّ قال: ﴿وَالّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدّقوا بوحدانيّة الله وأقرّوا بنبوّة نبيّهﷺ ﴿وَعَمِلُوا﴾ مع ذلك الأعمال ﴿الصَالحات لَنُبوِّئَنّهم﴾ أي لننزّلنّهم ﴿مِنَ الجَنَّةِ﴾ الّتي وعدها الله المتّقين ﴿غُرَفاً﴾ أي مواضع عاليات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنهارُ﴾ لأنّ الغرف تعلو عليها. وقيل: تجري من تحت أشجارها الماء. وقيل: أنهار الجنّة في أخاديد تحت الأرض. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي يبقون فيها ببقاء الله.

ثمّ أخبر تعالى أنّ ذلك ﴿نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾ أي نعم الثواب والأجر للعاملين بطاعة الله. ﴿الّذين صَبَرُوا﴾ على الأذى في الله، وصبروا على مشاقّ الطاعات، ووكّلوا أُمورهم إلى الله وتوكّلوا عليه في أرزاقهم وجهاد

أعدائهم ومهمّات أُمورهم.

ثمّ قال تعالى: ﴿وكأيِّن مِن دَابّةٍ﴾ معنى كأيّن «كم» وقد فسّرناه في ما مضى[1] ﴿لا تَحْمِلُ رِزْقَها﴾ أي لا تدّخره لغد، في قول عليّ بن الأقمر. وقال الحسن: ﴿لا تَحْمِلُ رِزْقَها﴾ للادّخار. وقيل: إنّ الحيوان أجمع من البهائم والطير ونحوهما لا تدّخر القوت لغدها ـ إلّا ابن آدم والنملة والفأرة ـ بل تأكل منه كفايتها فقط. وقال مجاهد: معناه ﴿لا تَحْمِلُ رِزْقَها﴾ لا تطيق حمل رزقها لضعفها.

﴿اللهُ يَرزُقُها﴾ يعني تلك الدابّة الضعيفة الّتي لا تقدر على حمل رزقها ﴿وإيّاكُم﴾ أي ويرزقكم أيضاً ﴿وَهُوَ السَمِيعُ العَلِيمُ﴾ يعني السميع لما يقول القائل في فراق وطنه، العليم بما في نفسه، لأنّه عالم بجميع الأشياء.

وقيل: الآية نزلت في أهل مكّة: المؤمنين منهم، فإنّهم قالوا لرسول الله: ليس لنا بالمدينة أموال ولا منازل فمن أين المعاش، فأنزل الله الآية.

قوله [تعالى]:

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦).

ستّ آياتٍ بصري وشامي، وخمس في ما عداه، عدّوا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ

(١) تقدّم في سورة آل عمران تفسير الآية: ١٤٦، وسورة يوسف تفسير الآية: ١٠٥ فراجع.

الدِينَ﴾ ولم يعدّه الباقون.

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف والمسيّبي والأعشى والبرجمي والكسائي عن أبي بكر ﴿لِيَكْفُروا وَلِيتَمتَّعُوا﴾ ساكنة اللام، الباقون بالكسر إلّا نافعاً، لأنّه اختلف عنه فيه.

قال أبو عليّ: من كسرها وجعلها الجارّة جعلها متعلّقة بالإشراك، وكان المعنى: يشركون ليكفروا، أي لا فائدة لهم في الإشراك إلّا الكفر والتمتّع بما يتمتّعون به عاجلاً من غير نصيب آجلاً. ومن سكّن جعل ﴿ليكفروا﴾ بمنزلة الأمر وعطف عليه، وكان على وجه التهديد[1].

وقال غيره: تحتمل هذه اللام أن تكون «لام كي» أي كأنّهم أشركوا ليكفروا، إذ لا يدفع الشرك في العبادة من كفر النعمة. ويجوز أن يكون لام الأمر على وجه التهديد بدلالة قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

يقول الله تعالى لنبيّه محمّدﷺ: ولئن سألت هؤلاء الكفّار الّذين جحدوا توحيدي وكفروا بنبوّتك ﴿مَن خَلَقَ السَمَاوات وَالأَرْضَ﴾ والمنشئ لها والمخرج لها من العدم إلى الوجود ﴿وَسَخَّرَ الشَمْسَ والقَمَرَ﴾ في دورانهما على طريقه واحدة لا تختلف؟ ﴿لَيَقُولُنّ﴾ في جواب ذلك ﴿الله﴾ الفاعل لذلك، لأنّهم كانوا يقولون بحدوث العالم والنشأة الأُولى، ويعترفون بأنّ الأصنام لا تقدر على ذلك.

ثمّ قال: ﴿فَأَنّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ هؤلاء أي كيف يصرفون عن صانع ذلك والإخلاص لعبادته، في قول قتادة.

ثمّ قال: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِزْقَ لِمَن يَشاءُ﴾ أي يوسّعه لمن يشاء من عباده بحسب ما تقتضيه المصلحة ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي ضيّق مثل ذلك على حسب

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢٦٥.

المصلحة، ومنه قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيهِ رِزْقُهُ﴾[١] بمعنى ضيّق على قدر ما فيه مصلحته. وقيل: معنى ويقدر ـ هاهنا ـ ويقبض رزق العبد بحسب ما تقتضيه مصلحته، وخصّ بذكر الرزق على الهجرة لئلّا يخلفهم عنها خوف العيلة.

وقوله: ﴿إنّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عالم بما يصلح العبد وبما يفسده، فهو يوسّع الرزق ويبسط بحسب ذلك.

ثمّ قال: ﴿وَلئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني هؤلاء الّذين ذكرناهم ﴿مَن نَزّل مِنَ السَماءِ ماءً﴾ يعني مطراً ﴿فَأحْيا بِهِ الأرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ﴾ في الجواب عن ذلك ﴿الله﴾ فـ﴿قل﴾ يا محمّد عند ذلك: ﴿الحمد لله﴾ على فنون نعمه على ما وفّقنا للاعتراف بتوحيده وإخلاص عبادته.

ثمّ قال: ﴿بل أكثَرُهُمْ﴾ يعني أكثر هؤلاء الخلق ﴿لا يَعْقِلُونَ﴾ ما قلناه لعدولهم عن طريق المفضي إليه.

ثمّ قال تعالى: وليس ﴿هَذِهِ الحَياةُ الدُنيا إلّا لَهوٌ وَلَعِبٌ﴾ لأنّها تزول كما يزول اللهو واللعب، لا بقاء لها ولا دوام كما يزول اللهو واللعب ﴿وإنَّ الدَارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ﴾ أي الحياة على الحقيقة لكونها دائمة باقية ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ صحّة ما أخبرناك به. وقال أبو عبيدة: الحيوان والحياة واحد[٢].

ثمّ قال تعالى مخبراً عن حال هؤلاء الكفّار: إنّهم إذا ﴿رَكِبُوا في الفُلْكِ﴾ وهي السفن وهاجت به الرياح وخافوا الهلاك ﴿دَعَوا الله مُخْلِصينَ لَهُ الدِينَ﴾ لا يوجّهون دعاءهم إلى الأصنام والأوثان ﴿فَلَمّا نَجّاهُمْ إلى البَرِّ﴾ أي خلّصهم إلى البرّ ﴿إذا هُمْ يُشرِكُون﴾ أي يعودون إلى ما كانوا عليه من الإشراك معه في العبادة.

---

(١) الطلاق: ٧.
(٢) مجاز القرآن ٢: ١١٧.

﴿لِيَكفُرُوا بِمَا آتَيناهُمْ﴾ أي يفعلون ما ذكرناه من الإشراك مع الله ليجحدوا نعم الله الّتي أعطاهم إيّاها ﴿وَلِيتَمتَّعُوا﴾ أي وليتلذّذوا في العاجل من دنياهم، فالتمتّع يكون بالمناظر الحسنة والأصوات المطربة والمشامّ الطيّبة والمآكل الملذّة.

ثمّ قال مهدّداً لهم: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي لابدّ أن يعلموا جزاء ما يفعلونه من الأفعال من طاعة أو معصية، فإنّ الله يجازيهم بحسبها وذلك غاية التهديد.

قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لهؤلاء الكفّار: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ومعناه أو لم يعلموا ﴿أنّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطّفُ الناسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي يتناول الناس من حوالي مكّة بسرعة وتؤخذ أموالهم، ومنه خطف البصر لسرعته، ومنه اختطاف الطير لصيده، ومنه الخُطّاف الّذي يخرج الدلو. والمعنيّ بذلك تنبيههم على جميل صنع الله بهم وسبوغ نعمه عليهم، بأن جعلهم في أمن مع أنّ الناس يؤخذون من حولهم، وذلك لا يقدر عليه غير الله. ثمّ قال مهدّداً لهم: ﴿أَفَبالباطِل يُؤمِنُونَ﴾! أي يصدّقون بعبادة الأصنام وهي باطلة مضمحلّة ﴿وَبِنِعْمَةِ اللهِ﴾ الّتي أنعم بها عليهم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ ؟!

ثمّ قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً﴾ أي من أظلم لنفسه ممّن جحد بآيات الله وأضاف إليه ما لم يقله وأمر به من عبادة الأصنام وغيرها

﴿أَوْ كَذَّبَ بالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ من نبوّة محمّدﷺ من القرآن الّذي أُنزل عليه.
ثمّ قال: ﴿أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوىً للكَافِرِينَ﴾ أي موضع مقام للّذين يجحدون نعم الله ويكفرون بآياته.

ثمّ قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعني جاهدوا الكفّار بأنفسهم، وجاهدوا نفوسهم بمنعها عن المعاصي وفعل الطاعة لوجه الله ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ أي نرشدهم السبيل الموصل إلى الثواب. وقيل: معناه لنوفّقنّهم لازدياد الطاعات فيزداد ثوابهم. وقيل: معناه لنرشدنَّهم إلى الجنّة.

﴿وإنَّ اللهَ لمَعَ المُحْسِنينَ﴾ أي ناصر الّذين فعلوا الأفعال الحسنة، ويدفع عنهم أعداءهم.

# سورة الروم

وهي مكّية في قول مجاهد وقتادة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقال الحسن: كلّها مكّية إلّا قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿وحَينَ تظهرون﴾.

وهي ستّون آية كوفي وبصري ومدني الأوّل وشامي، وتسع وخمسون مدني الأخير، ومكّي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله سبحانه:

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾.

خمس آيات كوفي وبصري وشامي، وأربع في ما عداه، عدّ الكوفيّون ﴿آلمَ﴾ وعدّوا ﴿غُلِبَتِ الرُومْ﴾ وعدّ البصري والشامي ﴿غُلِبتِ الرُومُ﴾ وعدّوا ﴿في بِضْعِ سِنينَ﴾ وعدّ المدني ﴿غُلِبتِ الرُومُ﴾ وعدّ إسماعيل والمكّي ﴿غُلِبَتِ الرُومُ في بِضْعِ سِنينَ﴾.

قرأ ابن عمر وأبو سعيد الخدري ﴿غَلَبَت الرُومُ﴾ بفتح الغين، فقيل لابن عمر: على أيّ شيء غلبوا؟ قال: على ريف الشام. وهذا غلط، فإنّ

عند جميع المفسّرين القراءة بالضمّ. والسبب في ذلك معروف، وهو أنّ الروم لمّا غلبهم فارس فرح مشركو قريش بذلك ـ من حيث إنّ أهل فارس لم يكونوا أهل كتاب ـ وساء ذلك المسلمين، فأخبر الله تعالى أنّ الروم وإن غلبهم فارس فإنّ الروم ستغلب في ما بعد فارس.

﴿في بِضْعِ سِنينَ﴾ أي في ما بين ثلاث سنين إلى عشر، فكان كما أخبر، وكان ذلك معجزة ظاهرة باهرة للنبيّ ﷺ. وروي أنّ جماعة من الصحابة راهنوا أُبيّ بن خلف ـ وقيل أبا سفيان ـ إن لم يصحّ الخبر ووافقوهم[١] على أربع سنين، فلمّا أخبروا النبيّ ﷺ قال: «زيدوهم في الخطر واستزيدوا في الأجل» ففعلوا[٢] فغلبت الروم لفارس قبل المدّة.

أخبر الله تعالى أنّ الروم غلبت عليها فارس في أدنى الأرض من أرض الشام إلى أرض فارس، وأنّهم من بعد أن غلبتهم فارس سيغلبون في ما بعد في بضع سنين. وروي عن النبيّ ﷺ أنّ البضع ـ هاهنا ـ ما بين الثلاث إلى العشر[٣].

وروي أنّ سبب ذلك أنّ الروم لمّا غلبتها فارس فرح المشركون بذلك وقالوا: أهل فارس لا كتاب لهم غلبوا أهل الروم، وهم أهل كتاب، فنحن لا كتاب لنا نغلب محمّداً الّذي معه كتاب، فأنزل الله تعالى هذه الآيات تسلية للنبيّ والمؤمنين. وأنّ الروم وإن غلبها فارس فإنّها ستغلب فارس في ما بعد في بضع سنين.

قال أبو سعيد الخدري: كان النصر يوم بدر للفريقين للنبيّ ﷺ والروم على فارس، ففرح المؤمنون بالنصرين. وقيل: كان يوم الحديبية. وقال

(١) في الخطية: «وواقفوهم» بدل «ووافقوهم».
(٢) تفسير الطبري ١٠: ١٦٤.
(٣) تفسير الطبري ١٠: ١٦٣.

الفرّاء: قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ تقديره: غلبتهم، فحذف الهاء للإضافة، كما قيل: وإقَامِ الصَلاةِ[١].

قال الزجّاج: الغلب والغلبة مصدران، مثل الحلب والحلبة[٢] و«الغلبة» الاستيلاء على القرن بالقهر، غلب يغلب فهو غالب وذلك مغلوب، وتغلّب تغلّباً: إذا تعرّض للغلبة، غالبه مغالبة. و«الأدنى» الأقرب، ونقيض الأدنى الأقصى، ونقيض الأقرب الأبعد، والمراد أدنى الأرض إلى جهة عدوّهم. و«البضع» القطعة من العدد ما بين الثلاث إلى العشر، اشتقاقه من بضعته: إذا قطعته تبضيعاً، ومنه البضاعة القطعة من المال في التجارة، ومنه البضعة القطعة من البدن والمبضع، لأنّه يقطع به العرق. والمباضعة الجماع. وقال المبرّد: البضع ما بين العقدين في جميع الأعداد.

ثمّ أخبر تعالى بأنّ ﴿لله الأَمْرُ مِن قَبلُ وَمِن بَعْدُ﴾ تقديره: من بعد غلبهم ومن قبل غلبهم، فقطع عن الإضافة وبني لأنّه على الغاية وتفسيرها أنّه ظرف قطع عن الإضافة الّتي هي غاية، فصار كبعض الاسم، فاستحقّ البناء، وبني على الحركة لأنّ له أصلاً في التمكّن يستعمل، وبني على الضمّة لأنّها حركة لا تكون له في حال الإعراب، فهي أدلّ على البيان.

ثمّ قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤمِنُونَ﴾ أي يوم يغلب الروم لفارس يسرّ المؤمنون تفاؤلاً بأن يغلبوهم المشركين. ثمّ بيّن بماذا يفرحون، فقال: ﴿بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَن يَشاءُ﴾ من عباده ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿الرَحِيمُ﴾ إلى من أناب إليه من خلقه.

قوله تعالى:

وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ

---

(١) معاني القرآن ٢: ٣١٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ١٧٧.

ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ۝ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ۝ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ أهل الحجاز والبصرة والبرجمي والشموني والكسائي عن أبيبكر ﴿عاقبة الّذين﴾ بالرفع، الباقون بالنصب. من نصب جعلها خبر «كان» وقدّمها على الاسم، واسمها يحتمل أن يكون السوء وتقديره: ثمّ كان السوء عاقبة الّذين، ويحتمل أن يكون بعد «أن» في قوله: ﴿أن كذّبوا﴾.

ومن رفع جعلها اسم «كان» والخبر السوء، ويحتمل أن يكون الخبر ﴿أن كذّبوا﴾ وتقديره: ثمّ كان عاقبة المسيء التكذيب بآيات الله، أي لميظفر في شركه وكفره إلّا بالتكذيب، ويكون السوء على هذا نصباً على المصدر في قوله: ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ نصب على المصدر، وتقديره: إنّ ما ذكره الله تعالى من أنّ الروم ستغلب فارس في ما بعد، وعد وعد الله لا يخلف وعده، وتقديره: وعداً لله وعده، كما قال الشاعر:

يَسْعَى الوشاةُ جنابيها وقيلهم إنك يابن أبي سُلْمى لمَقتولُ[1]

أي: ويقولون: قيلهم. و«الإخلاف» فعل خلاف ما تقدّم الوعد به، وسبيل الوعد بالخير والوعيد بالشرّ واحد في أنّه إذا وقع فيه خلاف ماتضمّنه كان خلفاً.

---

(١) قائله كعب بن زهير، راجع ديوانه: ٨٩، وفيه: «بجنبيها» بدل «جنابيها» و«قولهم» بدل «قيلهم».

ثمّ قال ﴿وَلَكِنَّ أكثَرَ النَاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ صحّة ما أخبرناك به لجهلهم بالله وتفريطهم في النظر المؤدّي إلى معرفة الله، ولا يناقض قوله: ﴿لا يعلمون﴾ لقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهراً مِنَ الحَياةِ الدُنيا﴾ لأنّ ذلك ورد مورد المبالغة لهم بالذمّ لتضييعهم على ما يلزمهم من أمر الله، كأنّهم لا يعلمون شيئاً. ثمّ بيّن حالهم في ما عقلوا عنه وما عملوه. ومعنى ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهراً مِنَ الحَياةِ الدُنيا﴾ أي: عمران الدنيا متى يزرعون ومتى يحصدون وكيف يبنون ومن أين يعيشونَ وهم جهّال بأمر الآخرة، وله مضيّعون ـ ذكره ابن عبّاس ـ أي عمروا الدنيا وأخربوا الآخرة.

و«الظاهر» هو الّذي يصحّ ان يدرك من غير كشف عنه، فالله تعالى ظاهر بالأدلّة، باطن عن حواسّ خلقه، والأُمور كلّها ظاهرة له، لأنّه يعلمها من غير كشف عنها ولا دلالة تؤدّيه إليها. وكلّما يعلم بأوائل العقول ظاهر، وكلّما يعلم بدليل العقل باطن، لأنّ دليل العقل يجري مجرى الكشف عن صحّة المعنى في صفته.

و«الغفلة» ذهاب المعنى عن النفس كحال النائم، ونقيضه اليقظة وهي حضور المعنى للنفس كحال المنتبه، ونقيضه السهو.

ثمّ قال تعالى منبّهاً لخلقه على وجه الدلالة على توحيده: ﴿أَوَلَمْ يتفكّرُوا في أنفُسِهِم﴾ فيعلموا أنّ الله لم يخلق ﴿السماوات والأرْضَ وما بَينَهما إلّا بالحَقِّ﴾ بمعنى الاستدلال بهما على توحيده ﴿وَأجَلٍ مُسَمًّى﴾ للأشياء الّتي للعباد فيها مصلحة بالاعتبار به إذا تصوّروا ذلك في الإخبار عنه أنّه معكثرته وعظمه محصّل بتسمية تنبئ عنه، لا يتأخّر ولايتقدّم، بالأوصاف الّتي ذكرها الله تعالى، عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه شيء منه.

ثمّ قال: ﴿وإنّ كَثِيراً مِنَ النَاسِ بِلقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ﴾ أي بلقاء ثواب الله

وعقابه كافرون، يجحدون صحّة ذلك ولا يعترفون به.

ثمّ قال منبّهاً لهم دفعة أُخرى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا في الأرْضِ فَينظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِينَ مِن قَبلِهِمْ﴾ من الأُمم ﴿كَانُوا أَشَدّ مِنْهُمْ قُوّةً وآثارُوا الأرْضَ﴾ أي حرثوها لعمارتها، في قول مجاهد والسدي. ﴿وعَمَرُوها أكثَرَ ممّا عَمَرُوها﴾ هؤلاء يعني أهل مكّة ﴿وجاءَتْهُم رُسُلُهُم بالبيّناتِ﴾ يعني أتتهم الرسل بالدلالات من عند الله، وفي الكلام حذف، لأنّ تقديره؛ فكذّبوا بتلك الرسل وجحدوا الآيات فأهلكهم الله بأنواع العذاب.

ثمّ قال: ﴿فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بأن يهلكهم من غير استحقاق ابتداءً، وفي ذلك بطلان قول المجبّرة: إنّ الله يبتدئ خلقه بالهلاك.

ثمّ قال: ﴿وَلكِن كَانُوا﴾ هم ﴿أنفُسَهُم يَظْلِمُون﴾ بأن جحدوا نعم الله وأشركوا في العبادة معه غيره، وكذّبوا رسله وعصوه بأنواع العصيان، حتّى استحقّوا العقاب عاجلاً وآجلاً.

ثمّ قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الّذِينَ أساؤُا السُوءَ﴾ إخبار منه تعالى بأنّ عاقبة الّذين أساؤا إلى نفوسهم بالكفر بالله تعالى وتكذيب رسله وارتكاب معاصيه «السوء» وهي الخصلة الّتي تسوء صاحبها إذا أدركها، وهي عذاب النار، في قول ابن عبّاس وقتادة وغيرهما.

﴿أنْ كَذّبُوا﴾ ومعناه لأنْ كذّبوا ﴿بِآياتِ اللهِ﴾ أي جحدوا أدلّته ولم يؤمنوا بها ﴿وَكَانُوا بِها﴾ بتلك الأدلّة ﴿يَستَهزِؤنَ﴾ أي يسخرون منها ويتهزّؤن بها. وقيل: معنى الآية أنّهم حفروا الأنهار وغرسوا الأشجار وشيّدوا البنيان وصاروا إلى الهلاك على أسوأ حال بالعصيان لم يفكّروا في الموت، وأنّهم يخرجون من الدنيا ويصيرون إلى الحساب والجزاء.

قوله تعالى:

ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ عشر آياتٍ بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو وروح ويحيى والعليمي ﴿ثمّ إليه يرجعون﴾ بالياء على وجه الخبر، الباقون بالتاء على الخطاب.

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه: إنّه هو الّذي يبدؤ الخلق ثمّ يعيده يبدؤهم ابتداءً فيوجدهم بعد أن كانوا معدومين على وجه الاختراع ثمّ يعيدهم أي يميتهم ويفنيهم بعد وجودهم، ثمّ يعيدهم ثانياً كما بدأهم أوّلاً، ثمّ يرجعون إليه يوم القيامة ليجازيهم على أفعالهم، على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب.

واستدلّ قوم بهذه الآية على صحّة الرجعة بأن قالوا ﴿الله يَبدؤا الخَلْقَ﴾ معناه ابتداءً خلقهم ﴿ثُمَّ يعيدُهُ﴾ إذا أماته في زمان الرجعة ﴿ثُمَّ إليهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة. وهذا ليس بمعتمد، لأنّ لقائل أن يقول: قوله: ﴿ثمّ يُعِيدُه﴾ يجوز أن يكون المراد به إحياءهم في القبر للمساءلة الّتي لا خلاف فيها ﴿ثمّ إليه تُرجَعُونَ﴾ يوم القيامة فلا يمكن الاعتماد عليه. و«البدء» أوّل الفعل وهو على وجهين:

أحدهما: أنّه أوّل الفعل وهو جزء منه مقدّم على غيره.

والثاني: أنّه موجود قبل غيره من غير طريق الفعليّة، يقال: بدأ يبدء بدءاً وابتدأ يبتدئ ابتداءً، و«الابتداء» نقيض الانتهاء، والبدء نقيض العود.

والخلق ـ هاهنا ـ بمعنى المخلوق، ومثله قوله: ﴿هَذا خَلْقُ اللهِ﴾ (١) وتقول: هذا الخلق من الناس، وقد يكون الخلق مصدراً من خلق الله العباد، والخلق كالإحداث والمخلوق كالمحدث. و«الإعادة» فعل الشيء ثانية. وقولهم: أعاد الكلام فهو على تقدير ذلك، كأنّه قد اتى به ثانية إذا أتى بمثله وإن كان الكلام لا يبقى ولا يصحّ إعادته. وقد يكون الإعادة فعل ما به يكون الشيء إلى ما كان من غير إيجاد عينه كإعادة الكتاب إلى مكانه، ومثل الإعادة الرجعة والنشأة الثانية.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَاعَةُ يُبْلِسُ المُجْرِمُونَ﴾ قيل: معناه ييئسون، وقيل: يتحيّرون، وقيل: تنقطع حججهم، فالإبلاس التحيّر عند لزوم الحجّة، فالمجرم يبلس يوم القيامة، لأنّه تظهر جلائل آيات الآخرة الّتي تقع عندها على الضرورة فيتحيّر أعظم الحيرة، قال العجّاج:

يا صَاحِ هل تَعرفُ رَسْماً مُكْرَسَا ... قال نَعَمْ أعرفه وأَبْلَسا (٢)

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُمْ مِن شُرَكائِهِمْ شُفَعاء﴾ أي لم يكن في أوثانهم ـ الّتي كانوا يعبدونها من دون الله ويزعمون أنّها تشفع لهم عند الله ـ من يشفع لهم. وقيل: شركاؤهم لأنّهم كانوا يجعلون لها نصيباً في أموالهم. وقيل: شركاؤهم الّذين جعلوهم شركاء في العبادة ﴿وَكَانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ﴾ أي يجحدون شركاءهم ذلك اليوم، لأنّه يحصل لهم المعرفة بالله ضرورة.

---

(١) لقمان: ١١.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٢٠.

وأصل الشرك إضافة الملك إلى اثنين فصاعداً على طريق القسمة الّتي تمنع من إضافته إلى الواحد. فالإنسان على هذا يكون شريكاً لإنسان آخر في الشيء إذا ملكاه جميعاً، والله تعالى مالك له، ملكه هذا الإنسان أو لم يملكه.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَاعَةُ﴾ يعني القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرّقُونَ﴾ قيل: يتميّز المؤمنون من الكافرين. وقيل: معناه لا يلوي واحد منهم على حاجة غيره ولا يلتفت إليه، وفي ذلك نهاية الحثّ على الاستعداد والتأهّب لذلك المقام.

ثمّ قال: ﴿فأمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَالِحَاتِ﴾ يعني صدّقوا بتوحيد الله وصدق رسله وعملوا الصالحات وتركوا القبائح ﴿فَهُمْ في رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي يسرّون سروراً يبين أثره عليهم، ومنه الحبرة وهي المسرّة، ومنه الحبر العالم، و«التحبير» التحسين الّذي يسرّ به. وإنّما خصّ ذكر الروضة ـ هاهنا ـ لأنّه لم يكن عند العرب شيء أحسن منظراً ولا أطيب ريحاً من الرياض، كما قال الشاعر:

ما رَوضةٌ مِنْ رِياضِ الحَزْنِ مُعشبةٌ    خَضْراءُ جادَ عَلَيها مُسْبِلٌ هطِلُ
يُضاحِكُ الشمسَ منها كوكَبٌ شَرِقٌ    مُـؤزَّرٌ بِعَميمِ النَبْتِ مُكْتَهِلُ
يَوْماً بأَطْيَبَ منها نَشْرَ رائِحَةٍ    وَلا بأحسنَ منها إذ دَنا الأُصُلُ(١)

والحبرة هي السرور والغبطة، قال العجّاج:

فالحمدلله الّذي أعطى الحَبَرْ    مَواليَ الحَقِّ إن المَولَى شَكرْ(٢)

ثمّ بيّن تعالى أنّ الكفّار في ضدّ ما فيه أهل الجنّة، فقال: ﴿وأمّا الّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنعم الله وجحدوا آياته ثمّ أنكروا لقاء ثوابه وعقابه يوم القيامة فَهُمْ

---

(١) قائله الأعشى، راجع ديوانه: ١٤٥.
(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٢٠.

﴿في العَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي محضرون فيها، ولفظة الإحضار لا تستعمل إلّا فيما يكرهه الإنسان، ومنه حضور الوفاة، ويقال: أحضر فلان مجلس السلطان: إذا جيء به بما لا يؤثره. و«الإحضار» إيجاد ما به يكون الشيء حاضراً إمّا بإيجاد عينه كإحضار المعنى في النفس، أو بإيجاد غيره كإيجاد ما به يكون الإنسان حاضراً.

ثمّ قال تعالى: ﴿فَسُبْحانَ اللهِ﴾ أي تنزيهاً لله تعالى ممّا لا يليق به ولا يجوز عليه من صفات نقص، أو ينافي عَظَمته وما اختصّ به من الصفات. وقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصبِحُونَ﴾ فالإمساء الدخول في المساء والمساء مجيء الظلام بالليل، والإصباح نقيضه، وهو الدخول في الصباح، وهو مجيء ضوء النهار.

ثمّ قال: ﴿وَلَهُ الحَمْدُ في السَمَاواتِ﴾ يعني الثناء والمدح في السماوات ﴿وَالأرْضِ وَعَشِيّاً﴾ أي وفي العشيّ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي حين تدخلون في الظهيرة وهي نصف النهار.

وإنّما خصّ تعالى العشيّ والإظهار في الذكر بالحمد وإن كان الحمد واجباً في جميع الأوقات، لأنّها أحوال تذكر بإحسان الله، وذلك أنّ انقضاء إحسان أوّل إلى إحسان يقتضي الحمد عند تمام الإحسان والأخذ في الآخر، كما قال تعالى: ﴿وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ﴾ (١).

وقيل: إنّ هذه الآية تدلّ على الصلوات الخمس في اليوم والليلة، لأنّ قوله: ﴿حِينَ تُمسُونَ﴾ يقتضي المغرب والعشاء الآخرة ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ يقتضي صلاة الفجر ﴿وَعَشِيّاً﴾ يقتضي صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ يقتضي صلاة الظهر، ذكره ابن عبّاس ومجاهد.

---

(١) يونس: ١٠.

ثمّ أخبر تعالى أنّه الّذي ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ الميّتَ مِنَ الحَيِّ﴾ قال ابن عبّاس وابن مسعود: معناه يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ، فإنّه يخرج الإنسان وهو الحيّ من النطفة وهي الميتة، ويخرج الميتة وهي النطفة من الإنسان وهو حيّ. وقال قتادة: يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

وقوله: ﴿وَيُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ أي يحييها بالنبات بعد جدوبها، ولا يجوز أن يكون المراد إحياء الأرض حقيقة، كما لا يكون الإنسان أسداً حقيقة إذا قيل: فلان أسد، لأنّه يراد بذلك التشبيه والاستعارة، فكذلك إحياء الأرض بعد موتها، كأنّها تحيا بالنبات الّذي فيها.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً والأعشى من طريق الطبري بفتح التاء أضاف الفعل الّذي هوالخروج إليهم، الباقون بالضمّ بمعنى يخرجهم الله، والمعنيان قريبان، لأنّهم إذا أُخرجوا فقد خرجوا، والمعنى مثل ما يخرج النبات من الأرض كذلك يخرجكم الله بعد ان لم يكن كذلك، تخرجون إلى دار الدنيا بعد أن لم تكونوا، ويعيدكم يوم القيامة بعد أن كنتم قد أعدمكم الله أي لا يشقّ عليه ذلك، كما لا يشقّ عليه هذا.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَمِن آياتِهِ﴾ أي أدلّته الواضحة ﴿أنْ خَلَقكُم مِن تُرابٍ﴾ يعني أنّه خلق آدم الّذي هو أبو كم وأصلكم، في قول قتادة وغيره. ﴿ثمّ إذا أَنْتُم بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ من نسله وذرّيته وتتفرّقون في أطراف الأرض، فهلّا دلّكم ذلك على أنّه لا يقدر على ذلك غيره تعالى؟ وأنّه الّذي يستحقّ العبادة دون غيره من جميع خلقه.

وفي هذه الآيات دلالة واضحة على صحّة القياس العقلي، وحسن النظر بلا شكّ، بخلاف ما يقول القوم: إنّ النظر باطل. فأمّا دلالته على

القياس الشرعي فبعيد لا يعوّل على مثله.

قوله تعالى:

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ (٢٢) وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)

خمس آياتٍ بلا خلاف.

روى حفص عن عاصم ﴿العالمين﴾ بكسر اللام الأخيرة، الباقون بفتحها، فمن كسرها أسند الآيات إلى العلماء، لأنّهم الّذين ينظرون فيها ويعتبرون بها، كما قال: ﴿هُدًى للمتَّقِينَ﴾ (١) ومن فتح اللام أسند الآيات إلى جميع المكلّفين الّذين يتمكّنون من الاستدلال بها والاعتبار بها، سواء كانوا عالمين بها أو جاهلين، لأنّ الإمكان حاصل لجميعهم وهو أعظم فائدة.

يقول الله سبحانه مخاطباً لخلقه منبّهاً لهم على توحيده وإخلاص العبادة له بـ﴿أنْ خَلَقَ لَكُم مِن أَنْفُسِكُمْ أزواجاً لِتَسْكنُوا إليها﴾ والنفس هي الذات في الأصل ثمّ يستعمل على وجه التأكيد لقولهم: رأيت زيداً نفسه، ويعبّر بها عن الروح وغير ذلك، وقد بيّنّاه (٢). وقال قتادة: المعنى ـ هاهنا ـ

---

(١) البقرة: ٢.

(٢) منها في قوله تعالى: ﴿هو الّذي خلقكم من نفس واحدة...﴾ الآية من سورة الأعراف: ١٨٨.

أنه خلقت حوّاء من ضلع آدم. وقال غيره: المعنى خلق لكم من شكل أنفسكم أزواجاً، وقال الجبّائي: المعنى خلق أزواجكم من نطفكم. قال البلخي: وذلك يدلّ دلالة على قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إليها فَلَما تَغَشّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾[1] أنّه يريد بعض الخلق دون بعض. و«الزوجة» المرأة الّتي وقع عليها عقد النكاح. و«الزوج» الرجل الّذي وقع عليه عقد النكاح. وقد يقال للمرأة: زوج إذا لم يلبس للإشعار بأنّهما نظيران في عقد النكاح عليهما، قال الله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزُوجُكَ الجَنَّةَ﴾[2] وقوله: ﴿لتسكنوا إليها﴾ يعني سكون أُنس وطمأنينة، بأنّ الزوجة من النفس، إذ هي من جنسها ومن شكلها فهو أقرب إلى الأُلفة والميل بالمودّة منها لو كانت من غير شكلها.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَودَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي جعل بينكم رقّة التعطّف، إذ كلّ واحد من الزوجين يرقّ على الآخر رقّة العطف عليه، بما جعله الله في قلب كلّ واحد لصاحبه ليتمّ سروره.

ثمّ قال: ﴿إنّ في ذَلِكَ﴾ يعني في خلق الأزواج مشاكلة للرجال ﴿لآياتٍ﴾ أي لدلالات واضحات ﴿لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك ويعتبرون به، و«الفكر» و«الاعتبار» و«النظر» واحد، فالفكر في أنّ الأزواج لأيّ شيء خلقت؟ ومن خلقها؟ ومن أنعم بها؟ ومن جعلها على الأحوال الّتي يعظم السرور بها؟ وكيف لا يقدر أحد من العباد على ذلك؟ وذلك من أعظم الدلالة على أنّ لها خالقاً مخالفاً لها ومنشئاً حكيماً يستحقّ العبادة ولا يستحقّها غيره.

ثمّ نبّه على آية أُخرى فقال: ﴿وَمِنْ آياتِهِ﴾ الدالّة على توحيده

---

(١) الأعراف: ١٨٨. (٢) البقرة: ٣٥، الأعراف: ١٩.

ووجوب إخلاص العبادة له ﴿خَلْقُ السَمَاواتِ والأرْضِ﴾ وما فيهما من عجائب خلقه من النجوم والشمس والقمر وجريانها على غاية الحكمة والنظام الّذي يعجز كلّ أحد عنها، وبما في الأرض من أنواع الأشجار والنبات وأصناف الجمادات الّتي ينتفع بها، وفنون النعم الّتي يكثر الانتفاع بها ﴿واخْتِلافُ ألسنَتِكُم وَألوانِكُمْ﴾ فالألسنة جمع لسان، واختلافها ما بناها الله تعالى، وهيئتها مختلفة في الشكل والهيئة، وتأتّي الحروف بها.

﴿واخْتِلافُ ألسنَتِكم﴾ أي اختلاف مخارجها الّتي لا يمكن الكلام إلّا بكونها كذلك. وقال قوم: المراد بالألسنة اختلاف اللغات، وهو جواب من يقول: إنّ اللغات أصلها من فعل الله دون المواضعة. فأمّا من يقول: اللغات مواضعة فإنّ تلك المواضعة من فعلهم دون فعل الله، غير أنّه لمّا كانت الآلات الّتي تتأتّى بها هذه الضروب لا يقدر على تهيئها كذلك غير الله جاز أن تضاف اللغات إليه تعالى على ضرب من المجاز.

﴿وَألوانِكُمْ﴾ أي واختلاف ألوانكم من البياض والحمرة والشقرة والصفرة وغير ذلك [﴿إنّ في ذَلِكَ لآياتٍ﴾ أي] إنّ في خلق جميع ذلك لأدلّة واضحات لجميع خلقه الّذين خلقهم وأكمل عقولهم.

ومن كسر اللام أضاف الاعتبار بها إلى العلماء، لأنّهم المنتفعون بها دون غيرهم فكأنّها خلقت لهم دون غيرهم، كما قال: ﴿هُدًى للمتّقِينَ﴾ (١) وإن كانت لجميع المكلّفين.

ثمّ قال: ﴿وَمِنْ آياتِهِ﴾ الدالّة على توحيده وإخلاص العبادة له ﴿مَنامُكُم بِالليلِ وَالنَهارِ﴾ فالمنام والنوم واحد، لأنّ في النوم راحة للأجساد من الكدّ الّذي يلحقها والتعب الّذي يصيبها.

---

(١) البقرة: ٢.

﴿وابتغاؤُكُم﴾ أي طلبكم المعاش وما ينفعكم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ أي ممّا يتفضّل الله به عليكم. قال البلخي: ويجوز أن يكون المراد بالابتغاء المبتغى، فلذلك كان دلالة عليه دون فعل العباد، وإنّما يكون فعل الله دلالة عليه لما كان بإقداره وإهدائه إلى مراشده وترغيبه فيه وتسهيله له ﴿إنّ في﴾ خلق الله تعالى ﴿ذَلِكَ لآياتٍ﴾ واضحات على توحيده ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ذلك ويقبلونه ويفكّرون فيه، لأنّ من لا يفكّر فيه ولا ينتفع به كأنّه لم يسمعه.

ثمّ قال: ﴿وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ و«البرق» نار تحدث في السحاب، بيّن تعالى أنّه إنّما يخلقه ليخافوا من عذابه بالنار على معصيته والكفر به، ويطمعوا في أن يتعقّب ذلك مطر فينتفعون به ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَماءِ ماءً﴾ يعني غيثاً ومطراً ﴿فَيُحْيي بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ أي بعد انقطاع الماء عنها وجدوبها. وقيل: ﴿خوفاً﴾ من المطر في السفر ﴿وطمعاً﴾ فيه في الحضر. وقيل: ﴿خوفاً﴾ من الصاعقة ﴿وطمعاً﴾ في الغيث ﴿إنّ في﴾ خلق الله ﴿ذَلِكَ لآياتٍ﴾ أي لأدلّة واضحة ﴿لِقَوْمٍ يَعقِلُونَ﴾ أي يفكّرون فيه، لأنّ من لا يفكّر فيه ولا ينتفع به وإن كان عاقلاً فكأنّه لا عقل له.

وقيل: في قوله: ﴿وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ البَرقَ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ تقديره: ومن آياته أن يريكم، فحذف «أن» كما قال طرفة:

ألا أيُّهذا الزاجريّ احضُر الوَغَى
وَأن أشهدَ اللذاتِ هلْ أنتَ مُخْلِدي[1]

الثاني: أنّه حذف «أنّه» لدلالة «من» عليها، كما قال الشاعر:

(١) ديوان طرفة بن العبد: ٣١.

وما الدهر إلّا تارتانِ فمنهما
أموتُ وأُخرى أبتغي العيشَ أكْدَحُ(١)

أي فتارةً أموت. وفي الآية حذف تقديره: ومن آياته آية يريكم البرق.

الثالث: ويريكم البرق من آياته على التقديم والتأخير من غير حذف.

ثمّ قال: ﴿وَمِنْ آياتِهِ﴾ الدالّة على ما ذكرناه ﴿أنْ تَقُومَ السَماءُ والأرْضُ بأمرِهِ﴾ بلا دعامة تدعمها ولا علاقة تعلّق بها، بل لأنّ الله تعالى يسكنها حالاً بعد حال لأعظم دلالة على أنّه لا يقدر عليه سواه.

﴿ثمّ إذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأرْضِ﴾ أي أخرجكم من الأرض من قبوركم بعد أن كنتم أمواتاً يبعثكم ليوم الحساب، فعبّر عن ذلك بما هو بمنزلة الدعاء، وبمنزلة ﴿كُنْ فَيكُون﴾ في سرعة تأتي ذلك، وامتناع التعذّر عليه، وإنّما ذكر هذه المقدورات على اختلافها وعظم شأنها ليدلّ على أنّه القادر الّذي لا يعجزه شيء.

وفي الآيات دلالة واضحة على فساد مذهب القائلين بأنّ المعارف ضروريّة لأنّها لو كانت ضرورة لم يكن للتنبيه على هذه الأدلّة وجه ولا فائدة فيه، لأنّ ما يعلم ضرورة لا يمكن الاستدلال عليه.

قوله تعالى:

وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ

---

(١) أنشده سيبويه في الكتاب ٢: ٣٤٦، ونسبه إلى ابن مقبل.

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

خمس آياتٍ بلا خلاف.

يقول الله تعالى بعد أن ذكر ما يدلّ على توحيده وإخلاص العبادة له: إنّ ﴿لَهُ مَن في السّماواتِ والأرْضِ﴾ من العقلاء فإنّه يملكهم ويملك التصرّف فيهم، وليس لأحدٍ منعه منه والاعتراض عليه، وخصّ العقلاء بذلك، لأنّ ما عداهم في حكم التبع.

ثمّ أخبر عن جميع من في السماوات والأرض بأنّهم قانتون له. قال مجاهد: معناه مطيعون. وقال ابن عبّاس: معناه مصلّون. وقال عكرمة: مقرّون له بالعبوديّة.

وقال الحسن: كلّ له قائم بالشهادة، فالقانت الدائم على أمر واحد، فالملائكة وغيرهم من المؤمنين دائمون على أمر واحد في لزوم الطاعة لله تعالى، والكافرون وغيرهم من الفسّاق دائمون على أمر واحد في الذلّة لله ـ عزّ وجلّ ـ إلّا أنّ منهم من هو بخلقته وفعله، ومنهم من هو بخلقته.

ثمّ قال تعالى: ﴿وهو الّذي يَبْدؤُا الخَلْقَ﴾ أي يخترعهم ابتداءً وينشئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إذا أعدمه ﴿وَهُوَ أهْوَنُ عَليهِ﴾ قال ابن عبّاس وقتادة ومجاهد: أي هو أيسر، وكلٌّ هيّن[1]. وروي عن ابن عبّاس أيضاً: أنّ معناه وهو هيّن عليه، فـ«افعل» بمعنى «فاعل» وقال بعضهم: ﴿وهو أهونُ﴾ على الخلق، لأنّ الإنشاء أوّلاً من نطفة إلى علقة ومن علقة إلى مضغة على التدريج،

---

(١) في الخطّية: «كلّ هين» بدون واو.

وفي الإعادة يعادون دفعة واحدة، وحكي عن ابن عبّاس: أنّه قال: المعنى وهو أهون عليه عندكم، لأنّكم أقررتم بأنّه يبدأ الخلق، فإعادة الشيء عند المخلوقين أهون من ابتدائه، قال الشاعر في أهون بمعنى هيّن:

تَمنّى رِجالٌ أن أموتَ وإن أمتْ فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحدِ[١]

أي بواحد. وقال الراجز:

قبحتموا يا آل زَيد نَفَرا أَلْأَمُ قَومٍ أَصْغَرَاً وأَكْبَرا[٢]

أي: صغيراً وكبيراً، وقال معن بن أوس:

لَعمَرُكَ ما أدري وإنّي لأوجلُ على أيّنا تَغْدُو المنيّة أوّلُ[٣]

أي لَواجِل. والله أكبر بمعنى كبير. ويقال للسلطان: الأعظم بمعنى عظيم.

وقوله: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى في السَمَاواتِ والأَرْضِ﴾ قال قتادة وهو قول: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، لأنّه دائم في السماوات والأرض، يقول الثاني فيه كما قال الأوّل. وقيل : المعنى وله الصفة العليا، لأنّها دائرة يصفه بها الثاني كما يصفه بها الأوّل. وقيل: النشأة الأُولى يا أهل الكفر ينبغي أن تكون أهون عليه. ثمّ قال: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ فذلك دليل على أنّه مثل ضربه الله، ذكره الفرّاء[٤].

وقوله: ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ يعني في انتقامه من أعدائه، الحكيم في تدبيره لخلقه. ثمّ قال: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً من أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُم مِن ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُم مِن شُرَكاءَ في ما رَزَقْناكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ المعنى إنّكم إذا لم ترضوا في عبيدكم أن يكونوا شركاء لكم في أموالكم وأملاككم فكيف ترضون

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٦، ولم ينسبه لأحد.
(٢) أنشده المبرّد في المقتضب ٣: ٢٤٧ ولم ينسبه لأحد.
(٣) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٢١.
(٤) معاني القرآن ٢: ٣٢٤.

لربّكم أن يكون له شركاء في العبادة!! وقال قتادة: كما لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاءكم في فراشكم وأزواجكم كذلك لا ترضوا في ربّكم الّذي خلقكم أن يعدل به أحد من خلقه فيشرك بينهما في العبادة.

وقوله: ﴿تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال أبو مخلد: معناه تخافون عبيدكم أن يشاركوكم في أموالكم كما تخافون الشريك من نظرائكم. وقيل: تخافون أن يرثوكم كما يرث بعضكم من بعض، ذكره ابن عبّاس. وقيل: معناه تخافونهم كخيفتكم أنفسكم في إتلاف المال بإنفاقه.

ثمّ قال: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي كما ميّزنا لكم هذه الأدلّة نفصّل الأدلّة لقوم يعقلون، فيتدبّرون ذلك ويفكّرون فيها. وقال سعيد بن جبير: كان أهل الجاهليّة إذا لبّوا قالوا: لبّيك اللّهمّ لك لبّيك لا شريك لك إلّا شريك هولك تملكه وما ملك، فأنزل الله الآية ردّاً عليهم وإنكاراً لقولهم.

ثمّ قال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الذِينَ ظَلَمُوا أهوَاءَهُم بِغَيرِ عِلْمٍ﴾ معناه أنّ هؤلاء الكفّار لم يتفكّروا في أدلّة الله، ولا انتفعوا بها بل اتّبعوا أهواءهم وشهواتهم بغير علم منهم بصحّة ما تبعوه.

ثمّ قال: ﴿فَمَن يَهْدِي مَن أَضَلَّ اللهُ﴾ وقيل: المعنى من يهدي إلى الثواب من أضلّه الله عنه. وقيل: المعنى من يحكم بهداية من حكم الله بضلاله. ثمّ قال: ﴿وَمَا لَهُمْ مِن نَاصِرِينَ﴾ أي ليس لهم من ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله إذا حلّ بهم.

ثمّ قال تعالى مخاطباً لنبيّه ﷺ والمراد به جميع المكلّفين: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِينِ حَنيفاً﴾ أمرهم الله بأن يوجّهوا عبادتهم إلى الله على الاستقامة دون الإشراك في العبادة.

ثمّ قال: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها﴾ قال مجاهد: فطرة الله الإسلام. وقيل: فطر الناس عليها ولها وبها بمعنى واحد، كما يقول القائل لرسوله: بعثتك على هذا ولهذا وبهذا بمعنى واحد. ونصب «فطرة الله» على المصدر، وقيل تقديره: اتّبع فطرة الله الّتي فطر الناس عليها، لأنّ الله تعالى خلق الخلق للإيمان. ومنه قوله ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه»[1] ومعنى الفطر الشقّ ابتداءً يقولون: أنا فطرت هذا الشيء أي أنا ابتدأته، والمعنى خلق الله الخلق للتوحيد والإسلام.

وقوله: ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والضحّاك وابن زيد وإبراهيم: لا تبديل لدين الله الّذي أمركم به من توحيده وعدله وإخلاص العبادة له، وهو قول ابن عبّاس وعكرمة. وقيل: المراد نفي الخطأ.

ثمّ قال: ﴿ذَلِكَ الدِينُ القَيِّمُ﴾ أي ما بيّنّاه من التوحيد والعدل وإخلاص العبادة لله هو الدين القيّم ـ أي المستقيم ـ الّذي يجب اتّباعه ﴿ولكنّ أكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ صحّة ذلك لعدولهم عن النظر فيه.

قوله تعالى:

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٢٣٣، ٢٧٥.

قرأ حمزة والكسائي وابن عامر ﴿فارقوا﴾ بألف وتخفيف الراء، الباقون بغير ألف وتشديد الراء. من قرأ بألف أراد فارقوا دينهم الّذي أُمروا باتّباعه، ومن شدّد أراد أنّهم اختلفوا في دينهم.

قوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيهِ﴾ نصب على الحال وتقديره: فأقم وجهك للدين يا محمّد أنت والمؤمنون منيبين إلى الله، ولا يجوز أن يكون حالاً من ﴿فِطرَةَ اللهِ الّتي فَطَرَ النَاسَ عَلَيْها﴾ لأنّه ما فطرهم منيبين، و«الإنابة» الانقطاع إلى الله تعالى بالطاعة، وأصله على هذا القطع. ومنه الناب لأنّه قاطع، وأناب في الأمر إذا نشب فيه، كما ينشب الناب المقاطع، ويجوز أن يكون من ناب ينوب: إذا رجع مرّة بعد مرّة، فيكون على هذا الإنابة التوبة الّتي يجدّدها مرّة بعد مرّة.

ثمّ قال: ﴿واتَّقُوهُ﴾ أي اجتنبوا معاصيه واتّقوا عقابه ﴿وأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ الّتي أمركم الله تعالى بها أي دوموا عليها وقوموا بأدائها، فالصلاة وإن كانت في حكم المجمل ولم يبيّن شروطها ـ في الآية ـ فقد أحال على بيان النبيّ صلى الله عليه وآله هذا إذا أراد بالصلاة تعريف الجنس، وإن أراد العهد الّذي استقرّ في الشرع فهو على ما قد استقرّ في الشرع. ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكينَ﴾ نهي لهم عن أن يكونوا من جملة من أشرك بعبادة الله سواه.

ثمّ قال: ﴿مِنَ الّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾ قال الفرّاء: يجوز أن يكون التقدير ولا تكونوا من المشركين من جملة الّذين فرّقوا دينهم، ويجوز أن يكون من الّذين فرّقوا ابتداءً، وتقديره: الّذين تفرّقوا وكانوا شيعاً ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [1].

---

(١) معاني القرآن ٢: ٣٢٥.

فالتفريق جعل أحد الشيئين مفارقاً لصاحبه وضدّه الجمع، وهو جمع أحد الشيئين إلى صاحبه، فتفريق الدين جعل أحدهما ليس مع الآخر في معنى ما يدعو إليه العقل، وهو منكر لمخالفته داعي العقل. و«الدين» العمل الّذي يستحقّ به الجزاء، و«دين الإسلام» العمل الّذي عليه الثواب.

ولو جمعوا دينهم في أمر الله ونهيه لكانوا مصيبين، ولكنّهم فرّقوا بإخراجه عن حدّ الأمر والنهي من الله وكانوا بذلك مبطلين خارجين من الحقّ الّذي أمر الله به. ومن قرأ ﴿فارقوا﴾ بألف أراد: فارقوا دينهم الّذي أمرهم الله باتّباعه.

وقوله: ﴿وَكانُوا شِيَعاً﴾ أي فرقاً، و«الشيع» الفرق الّتي يجتمع كلّ فريق منها على مذهب خلاف مذهب الفريق الآخر، وشيعة الحقّ هم الّذين اجتمعوا على الحقّ. وكذلك شيعة أمير المؤمنين عليه السلام هم الّذين اجتمعوا معه على الحقّ. وقال قتادة: المعنيّ بقوله: ﴿مِنَ الّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ اليهود والنصارى. وقال غيره: كلّ من خالف دين الحقّ الّذي أمر الله به داخل فيه وهو أعمّ فائدة.

ثمّ أخبر تعالى أنّ ﴿كُلّ حِزْب﴾ أي كلّ فريق ﴿بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ من الاعتقاد الّذي يعتقدونه يسرّون به لاعتقادهم أنّه الحقّ دون غيره.

وقوله: ﴿وإذا مَسَّ النَاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُنِيبينَ إلَيهِ﴾ قال الحسن: إذا أصابهم مرض أو فقر دعوا الله تعالى راجعين إليه مخلصين في الدعاء له ﴿ثُمَّ إذا أَذاقَهُم مِنْهُ رَحْمَةً﴾ بأن يعافيهم من المرض أو يغنيهم من الفقر نعمة منه تعالى عليهم ﴿إذا فَريقٌ مِنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي يعودون إلى عبادة غير الله بخلاف ما يقتضي العقل في مقابلة النعمة بالشكر. ثمّ بيّن أنّهم يفعلون ذلك ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيناهُمْ﴾ أي بما آتاهم الله من نعمة.

ثمّ قال تعالى مهدّداً لهم: ﴿فتمتّعوا﴾ أي انتفعوا بهذه النعم الدنيائية كيف شئتم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُون﴾ ما فيه من كفركم ومعصيتكم أي تصيرون في العاقبة إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيهِمْ سُلْطاناً﴾ أي هل أنزلنا عليهم برهاناً وحجّة يتسلّطون به على ما ذهبوا إليه، ويحتمل أن يكون المراد هل أرسلنا إليهم رسولاً، فإذا حمل على البرهان فهو بمنزلة الناطق بالأمر لإظهاره إيّاه. وقوله: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كَانُوا به يُشْرِكُونَ﴾ أي هل أنزلنا عليهم سلطاناً أي رسولاً يَتَكَلّم بأنّا أرسلناه بما يدّعونه من الإشراك مع الله في العبادة، فإنّهم لا يقدرون على ذلك ولا يمكنهم ادّعاء حجّة عليه ولا برهان، والكلام وإن خرج مخرج الاستفهام فالمراد به التبكيت.

قوله تعالى:

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ
يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ
يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ
ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ خمس
آيات بلا خلاف.

قرأ نافع وأبو جعفر ﴿لتَربُوا﴾ بالتاء وسكون الواو، الباقون بالياء وفتح الواو، وقرأ ابن كثير ﴿وماءَ اتَيتُم مِن رباً﴾ بالقصر، الباقون بالمدّ. واتّفقوا على المدّ في قوله ﴿وما آتيتم من زكاة﴾ وقرأ حمزة والكسائي وخلف

﴿عمّا يشركون﴾ بالياء، الباقون بالتاء.

قال أبو عليّ: المعنى وما آتيتم من هديّة أهديتموها لتعوّضوا أكثر منها فلا يربو عند الله، لأنّكم قصدتم زيادة العوض دون وجه الله، وهو كقوله: ﴿ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [١] فمن مدَّ أراد أعطيتم من قوله: ﴿فآتاهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنيا﴾ [٢] ومن قصره فالمعنى يؤول إلى قول من مدّ إلّا أنّه على لفظ «فعلتم» ومدّهم لقوله: ﴿وما آتيتم من زكاة﴾ فلقوله: ﴿وإيتاءَ الزَّكاةِ﴾ [٣] ولو قال: أتيت الزكاة لجاز أن يعني به: فعلتها ولكن لفظ القرآن على الإيتاء. ومن ضمّ ﴿لتربوا﴾ فالمعنى لتصيروا ذوي زيادة في ما آتيتم من أموال الناس أي يستدعونها من أربى إذا صار ذا زيادة مثل أقطف واضرب. ومن فتح أسند الفعل إلى الربا المذكور وقدر المضاف، فحذفه كما قيل: اجتذاب أموال الناس واجتلابه. ويجوز ذلك. وسمّي هذا المدفوع على هذا الوجه رباً لما كان فيه من الاستزادة [٤].

يقول الله تعالى مخبراً عن خلقه بأنّه إذا أذاقهم رحمة من عنده بأن ينعم عليهم بضروب النعم ويصحّ أجسامهم ويدرّ أرزاقهم ويكثر مواشيهم وغير ذلك من النعم: إنّهم يفرحون بذلك ويسرّون به، فـ«إذا» شرط وجوابه ﴿فرحوا بها﴾ وإنّما جاء الجزاء بـ«إذا» ولم يجئ بـ«حين» لأنّ «إذا» أشبه بالفاء من جهة البناء، وألزم للفعل من جهة أنّه لا يضاف إلى مفرد، فصار بمنزلة الفاء في ترتيب الفعل، وليس كذلك «حين». وشبّه إدراك الرحمة بإدراك الطعم فسمّاه ذوقاً.

﴿وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ﴾ هو إخبار منه تعالى أنّه إن

---

(١) المدّثر: ٦.
(٢) آل عمران: ١٤٨.
(٣) الأنبياء: ٧٣.
(٤) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢٦٩.

أصابهم عذاب من الله تعالى جزاءً على ما كسبته أيديهم ﴿إذا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي ييأسون من رحمة الله، و«القنوط» اليأس من الفرج، قال حُميد الأرقط:

قد وجدوا الحَجّاج غير قانطِ[1]

وإنّما قال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أيدِيهِمْ﴾ ولم يقلْ بما قدَّموا على التغليب للأكثر الأظهر لأن أكثر العمل وأظهره لليدين، والعمل بالقلب وإن كان كثيراً فهو أخفى، وإنّما يغلب الأظهر. ويجوز أن يكون ما يصيبهم ـ من مصائب الدنيا والآلام بها ـ بعض العقاب، فلذلك قال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أيدِيهِمْ﴾ ويجوز أن يكون لمّا فعلوا المعاصي اقتضت المصلحة أن يفعل بهم ذلك وإن لم يكن عذاباً.

ثمّ قال تعالى منبّهاً لهم على توحيده: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أو لم يفكّروا فيعلموا ﴿أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِزْقَ﴾ أي يوسعه ﴿لِمَن يَشاءُ وَيقْدِرُ﴾ أي ويضيّق على من يشاء على حسب ما تقتضيه مصالحهم، و«بسط الرزق» الزيادة على مقدار القوت منه بما يظهر حاله، وأصل البسط نشر الشيء بما يظهر به طوله وعرضه، وبسط الرزق مشبّه به.

ثمّ قال: ﴿إنّ في ذَلِكَ﴾ يعني في البسط للرزق لقوم وتضييقه لقوم آخرين ﴿لآياتٍ﴾ أي لدلالات ﴿لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ﴾ بالله، لأنّهم يعلمون أنّ ذلك من فضل الله الّذي لا يعجزه شيء.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿فاتِ ذَا القُرْبىَ حَقَّهُ﴾ أي أعط ذوي قرباك يا محمّد حقوقهم الّتي جعلها الله لهم في الأخماس، وهو قول مجاهد.

وقيل: إنّه لمّا نزلت هذه الآية على النبيّ ﷺ أعطى فاطمة فدكاً

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٢٢.

وسلّمه إليها ـ روى[١] ذلك أبو سعيد الخدري وغيره ـ وهو المشهور عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

وقال السدي: الآية نزلت في قرابة النبيّ صلى الله عليه وآله. وقال قوم: المراد به قرابة كلّ إنسان. والأوّل أظهر، لأنّه خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله. ﴿والمِسْكِينَ وابنَ السَبِيلِ﴾ تقديره: وأعطِ أيضاً المسكين ـ وهو الفقير ـ وابن السبيل وهو المنقطع به حقوقهم الّتي جعلها الله لهم في الصدقات وغيرها، والخطاب وإن كان متوجّهاً إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فهو متوجّه إلى جميع المكلّفين.

ثمّ قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني إعطاء الحقوق المستحقّة خير ﴿للّذينَ يُريدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾ بالإعطاء دون الرياء والسمعة ﴿وَأُولِئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بثواب الله.

ثمّ قال: ﴿وَما أَتيتُم مِن رِباً لِيرْبُوا في أَموالِ النَاسِ﴾ قال ابن عبّاس: هو إعطاء الرجل العطيّة ليعطى أكثر منها لأنّه لم يرد بها طَاعة الله.

وقال ابن عبّاس وأبو جعفر: الربوا رباءان أحدهما: حلال، والآخر: حرام. فالأوّل هو ان يعطي الإنسان غيره شيئاً لا يطلب أكثر منه فهو مباح، ولا يربو عند الله. والآخر الربوا الحرام[٢].

وقال ابن طاووس عن أبيه: إذا أهدى الرجل الهديّة ليهدى له أفضل منها فليس فيه أجر ولا وزر، وكلّما فعله الفاعل على أنّه حسن للشهوة فليس فيه حدّ ولا أجر، وشهوته وشهوة غيره في هذا سواء.

وقيل: المعني في الآية التزهيد في الربوا، والترغيب في إعطاء الزكاة. وقال الحسن: هو كقوله: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِبوا وَيُربِي الصَدَقاتِ﴾[٣] ولا خير في

---

(١) انظر بحار الأنوار ٩٣: ٢١٢ حيث رواه مرسلاً عن ابن بابويه.

(٢) تفسير القمّي ٢: ١٥٩، وفيه: «عن أبي عبدالله عليه السلام».

(٣) البقرة: ٢٧٦.

العطيّة إذا لم يرد بها وجه الله. وقال الجبّائي: وما أتيتم من ربا لتربوا بذلك أموالكم فلا يربوا لأنّه لا يملكه المرابي بل هو لصاحبه، ولا يربوا عند الله، لأنّه يستحقّ به العقاب.

وإعطاء المال قد يقع على وجوه كثيرة فمنه إعطاؤه على وجه الصدقة. ومنه إعطاؤه على وجه الهديّة. ومنه الصلة، ومنه الودائع، ومن ذلك قضاء الدين، ومنه البرّ، ومنه الزكاة، ومنه القرض، ومنه النذر وغير ذلك.

ثمّ قال: ﴿وما آتَيتُم مِن زَكَاةٍ تُريدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾ أي ما أخرجتموه على وجه الزكاة وأعطيتموه أهله تريدون بذلك وجه الله دون الربا ﴿فأولئكَ هُمُ المُضْعِفُونَ﴾ أي يضاعف لهم الحسنات كقوله: ﴿مَن جَاءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمثَالِها﴾ [1] وقال الكلبي: تضاعف أمواله في الدنيا، فالمُضعِف ذو الأضعاف كما أن المُيسِر ذو اليسار.

ثمّ خاطب تعالى خلقه فقال: ﴿اللهُ الّذِي خَلَقكُمْ﴾ بعد أن لم تكونوا موجودين ﴿ثُمَّ رَزَقكُمْ﴾ من أنواع الملاذّ وملككم التصرّف فيها وأباحها لكم ﴿ثُمَّ يُمِيتكُمْ﴾ بعد ذلك إذا شاء ليصحّ إيصالكم إلى ما عوّضكم له من الثواب ﴿ثُمَّ يُحيِيكُمْ﴾ ليجازيكم على أفعالكم على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب.

﴿هَلْ مِن شُركائِكُم﴾ الّذين عبدتموهم من دون الله ﴿مَن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِن شيءٍ﴾ أو يقدر عليه فيجوز لذلك توجّه العبادة إليه، فإنّهم لا يقدرون على أن يقولوا: نعم يقدرون عليه، وإنّما يعترفون بعجزها عن ذلك، فيعلموا عند ذلك أنّها لا تستحقّ العبادة فلذلك نزّه نفسه عقيب ذلك عن أن يشرك

---

(١) الأنعام: ١٦٠.

معه في العبادة ويتّخذ معه معبوداً سواه فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فمن قرأ بالياء وجّه الخطاب إلى الغائب، ومن قرأ بالتاء وجّهه إلى المخاطبين، وفي ذلك تنبيههم على وجوب ضرب الأمثال لله تعالى دون غيره من المخلوقات.

قوله تعالى:

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير في رواية ابن مجاهد عن قنبل وروح ﴿لنذيقهم﴾ بالنون، الباقون بالياء. فمن قرأ بالنون فعلى وجه إخبار الله عن نفسه أنّه الّذي يذيقهم. ومن قرأ بالياء فالمعنى ليذيقهم الله بعض الّذي عملوا.

يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الفَسادُ في البَرِّ والبَحْرِ﴾ وقيل: فساد البرّ هو ما يحصل فيها من المخاوف المانعة من سلوكه، ويكون بخذلان الله عزّ وجلّ لأهل العقاب به، وفساد البحر اضطراب أمره حتّى لا يكون متصرّفاً فيه، وكلّ ذلك ليرتدعوا عن معاصيه.

وقال قتادة: المعنى ظهر الفساد في أهل البرّ والبحر، فأهل البرّ أهل البادية وأهل البحر أهل القرى الّذين على الأنهار العظيمة. ويكون قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أيدِي النّاسِ﴾ معناه يخلّي الله بينهم وبين المعاصي جزاءً على ما سبق منهم من المعاصي.

وقال مجاهد: البرّ ظهر الأرض والبحر هو البحر المعروف، لأنّه يؤخذ فيه كلّ سفينة غصباً. وقيل: البرّ الأرض القفر، والبحر المجرى الواسع للماء عذباً كان أو ملحاً، وسمّي البرّ برّاً، لأنّه يبرّ بصلاح المقام فيه خلاف البحر، ومنه البرّ لأنّه يبرّ بصلاحه في الغذاء أتمّ الصلاح.

وقيل: الفساد المعاصي، ودليله قوله تعالى: ﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَسادَ﴾[١] والتقدير: ظهر عقاب الفساد في البرّ والبحر. و«الظهور» خروج الشيء إلى حيث يقع عليه الإحساس والعلم به بمنزلة الإدراك له، وقد يظهر الشيء بخروجه عن وعاء أو وجوده عن عدم أو ظهوره بدليل. وقيل: بالعدل ينبت الله الزرع ويدرّ الضرع، وبالظلم يكون القحط وضيق الرزق.

وقوله: ﴿بِما كَسَبتْ أيدِي النّاسِ﴾ أي جزاء على ما فعله الناس. و«الكسب» فعل الشيء لاجتلاب نفع إلى نفس الفاعل أو دفع ضرر عنه، فالقادر لنفسه يقدر على مثله في الحالتين لاجتلاب نفع إلى غيره أو دفع ضرر عنه، غير أنّه لا يوصف بهذه الصفة وإن قدر على مثله.

وقوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الّذِي عَمِلُوا﴾ معناه ليصيبهم الله بعقوبة بعض أعمالهم الّتي عملوها من المعاصي ﴿لَعَلّهُمْ يَرجِعُونَ﴾ أي ليرجعوا عنها في المستقبل، وتقديره: فعل الله تعالى القحط والشدائد والجدب وقلّة الثمار وهلاك النفوس عقوبة على معاصيهم ليذيقهم بذلك عقاب بعض ما عملوا من المعاصي ليرجعوا عنها في المستقبل، ليذيقهم عقابه غير أنّه أجزى على بعض العمل لأنّهم بذواقهم جزاءه كأنّهم ذاقوه. وهذا من الحذف الحسن، لأنّه حذف المسبّب وإقامة السبب الّذي أدّى إليه مقامه. ثمّ بيّن تعالى أنّه فعل بهم هذا ليرجعوا عن معاصيه إلى طاعته.

---

(١) البقرة: ٢٠٥.

ثمّ خاطب تعالى نبيّه ﷺ فقال له: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿سيرُوا في الأرْضِ فانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلُ كان أَكْثَرُهُم مُشرِكِينَ﴾ أي فكّروا فيمن تقدّم من الأُمم الّتي أشركت بالله أكثرهم والمؤمنون كانوا قليلين فيهم كيف أهلكهم الله ودمّر عليهم؟!

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِين القَيِّم﴾ ومعناه استقم للدين المستقيم بصاحبه إلى الجنّة أي لا يعدل عنه يميناً ولا شمالاً، فإنّك متى فعلت ذلك أدّاك إلى الجنّة، وهو مثل قوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ الله قُلُوبَهُم﴾ [١] مجانس فيه للبلاغة، ومنه قوله: ﴿يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأبصارُ﴾ [٢] ومنه ﴿يَمْحَقُ اللهُ الربوا وَيُربِي الصَدَقاتِ﴾ [٣].

﴿مِن قَبْلِ أنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي استقيموا على الطريق المستقيم قبل يوم القيامة الّذي تتفرّقون فيه فرقتين، فريق في الجنّة وفريق في السعير، ذكره قتادة. وقال الحسن: الدين القيّم الطاعة لله.

ثمّ قال: ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ بالله وجحد نعمه ﴿فَعَليه كُفْرُهُ﴾ أي فعليه جزاء كفره لا يعاقب أحد بذنب غيره، كما قال: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [٤] ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً﴾ يعني الإيمان بالله وأفعال الطاعات ﴿فَلأنفُسِهِم يَمْهَدُونَ﴾ والتمهيد والتمكين والتوطيد نظائر أي ثواب ذلك واصل إليهم وتتمهّد أحوالهم الحسنة عند الله.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَالِحاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ إخبار منه تعالى أنّه الّذي يجزي الّذين يطيعون الله تعالى ويجتنبون معاصيه ثواب الجنّة من فضله على خلقه ﴿إنّه لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ أي لا يريد منافعهم

---

(١) التوبة: ١٢٧.
(٢) النور: ٣٧.
(٣) البقرة: ٢٧٦.
(٤) الأنعام: ١٦٤.

ولا ثوابهم وإنّما يريد عقابهم جزاءً على كفرهم.

قوله تعالى:

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو جعفر وابن ذكوان ﴿كسفاً﴾ بسكون السين، الباقون بتحريكها. وقرأ أهل الكوفة وابن عامر ﴿إلى آثار﴾ على الجمع وأماله الكسائي إلّا أبا الحارث، الباقون على التوحيد.

من سكّن السين من كسف أراد جمع كسفة وهي القطعة الواحدة من السحاب، مثل سدرة وسدر. ويحتمل أن يكون الضمير في «خلاله» راجعاً إليه. ويحتمل أن يكون راجعاً إلى الخلال. ومن فتح السين أعاد الضمير إلى السحاب لا غير. ومن أفرد «أثر» فلأنّه مضاف إلى مفرد وجاز الجمع لأنّ «رحمة الله» يجوز أن يراد بها الكثرة.

يقول الله تعالى: إنّ من الأدلّة الدالّة على توحيدي ووجوب إخلاص العبادة لي إرسال الرياح مبشّرات بالغيث والمطر، وإرسال الرياح تحريكها وإجراؤها في الجهات المختلفة تارةً شمالاً وتارةً جنوباً وصباً وأُخرى دبوراً، على حسب ما يريده الله ويعلم فيه من المصلحة، وذلك لا يقدر

عليه غيره تعالى، لأنّ العباد وإن قدروا على جنس الحركة، فلو اجتمع جميع الخلائق من الجنّ والإنس على أن يردّوا الريح إذا هبّت شمالاً إلى كونها جنوباً، وإذا هبّت جنوباً إلى كونها شمالاً أو صباً أو دبوراً لما قدروا عليه، فمن قدر على ذلك يعلم أنّه قادر لنفسه لا يعجزه شيء مستحقّ للعبادة خالصة له، وإنّما سمّاها مبشّرات لأنّها بمنزلة الناطقة إذا بشّرت بأنّه يجيء مطر وغيث يحيى به الأرض لما فيها من إظهار هذا المعنى ودلالتها على ذلك بجعل جاعل، لأنّه من طريق العادة الّتي أجراها الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِن رَحْمَتِهِ﴾ معطوف على المعنى، وتقديره: أن يرسل الرياح للبشارة والإذاقة من الرحمة ﴿وَلِتَجْرِيَ الفُلْكُ﴾ بها ﴿بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي تطلبوه، فإرسال الرياح لهذه الأُمور، ومعنى ﴿لَعلّكمْ تَشْكُرُونَ﴾ لتشكروا الله على نعمه. وإنّما أُتي بلفظ ﴿لعلّكم﴾ تلطّف في الدعاء إلى الشكر كالتلطّف في الدعاء إلى البرّ في قوله: ﴿مَن ذا الّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [1].

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ على وجه التسلية عن قومه في تكذيبهم إيّاه: ﴿وَلَقَدْ أرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمّد ﴿رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجاءُوهُم بالبيّناتِ﴾ يعني بالمعجزات، وفي الكلام حذف، لأنّ تقديره: فكذّبوهم وجحدوا بهم فاستحقّوا العذاب ﴿فانتَقَمْنا مِنَ الّذِينَ أجْرَمُوا وَكَانَ حقّاً عَلَيْنا نَصْرُ المؤمِنينَ﴾ أي أوجبناه على نفوسنا أن ننصر المؤمنين من عبادنا.

ثمّ قال تعالى: ﴿اللهُ الّذِي يُرْسِلُ الرِياحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ أي تنشئ سحاباً، فإنشاء السحاب وإن كان من فعل الله لكن لمّا كان السحاب سبباً منه جاز

---

(١) البقرة: ٢٤٥، الحديد: ١١.

أن يسند إليها ﴿فَيَبْسُطُهُ في السَماءِ﴾ أي يبسط ذلك السحاب كيف شاء في السماء من كثافة ورقّة وغير ذلك ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً﴾ أي قطعاً، في قول قتادة. ﴿فَتَرىٰ الوَدْقَ﴾ يعني القطر، قال الشاعر:

فلا مُـزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَـها ولا أرضَ أبقَلَ إبقالَها[1]

﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ يعني من خلال السحاب ﴿فإذا أصابَ بِهِ﴾ يعني بذلك القطر ﴿مَن يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي يفرحون ويبشّر بعضهم بعضاً به ﴿وإنْ كانُوا مِن قَبْلِ ان يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ القطر ﴿مِن قَبْلِهِ لمُبلِسِينَ﴾ أي قانطين يائسين، في قول قتادة.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ في الموضعين فيه قولان: أحدهما: أنّه للتوكيد. والآخر: من قبل الإرسال، والأوّل من قبل الإنزال.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ والمراد به جميع المكلّفين: ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمّد ﴿إلى آثارِ رَحْمَةِ الله كَيفَ يحيِي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ يحييها بالنبات بعد جدوبها ﴿إنَّ ذَلِك لمُحْيِي المُوتَىٰ﴾ أي مثل ذلك يحيي الله الموتى بعد أن كانوا جماداً ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٍ﴾ أي قادر وفيه مبالغة.

قوله تعالى:

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾.

---

(١) أنشده سيبويه في الكتاب ٢: ٤٦، ونسبه إلى عامر بن جُوَين الطائي.

ستّ آيات مدني وخمس في ما عداه، عدّ المدني ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يعدّه الباقون.

قرأ ابن كثير ﴿ولا تسمع﴾ بفتح التاء ﴿الصمّ﴾ رفعاً، الباقون بضمّ التاء ﴿الصمّ﴾ نصباً. وهذا مثل ضربه الله للكفّار، والمعنى كما أنّك يا محمّد لا تسمع الميّت لتعذّر استماعه فكذلك لا تسمع الكفّار.

والمعنى أنّه لا ينتفع بسماعه، لأنّه لا يعمل به، فإذا كان كذلك فالمعنيان متقاربان، لأنّ المعنى أنّك لا تسمع الكافر ما في القرآن من حكمة وموعظة كما لا تسمع الأصمّ المدبر عنك.

وضمّ التاء ونصب الميم أحسن لتشاكل ما قبله من إسناد الفعل إليك أيّها المخاطب وحكم المعطوف يجب أن يكون مشاكلاً حكم المعطوف عليه.

وقرأ عاصم وحمزة ﴿من ضعف﴾ بفتح الضادّ في الثلاثة، الباقون بالضمّ فيهنّ، وهما لغتان.

يقول الله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً﴾ مؤذنة بالهلاك ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً﴾ فالهاء يجوز أن يكون كناية عن السحاب، وتقديره: فرأوا السحاب مصفرّاً، لأنّه إذا كان كذلك كان غير ممطر. ويحتمل أن يكون راجعاً إلى الزرع، وتقديره: فرأوا الزرع مصفرّاً. والثاني قول الحسن.

وجواب «لئن» في الشرط أغنى عنه جواب القسم، لأنّ المعنى ليظلن، كما أنّ ﴿أرسلنا﴾ بمعنى أن يرسل فجواب القسم قد ناب عن الأمرين. وكان أحقّ بالحكم لتقدّمه على الشرط ولو تقدّم الشرط لكان الجواب له، كقولك: إن أرسلنا ريحاً ظلّوا ـ والله ـ يكفرون.

و«الاصفرار» لون بين الحمرة والبياض، وهو من النبات الّذي يصفرّ

بالريح للجفاف ويحوّل عن حال الاخضرار، فيصير إلى الهلاك ويقنط صاحبه الجاهل بتدبير ربّه في ما يأخذ به من الشدّة بأمره تارةً والرخاء أُخرى ليصحّ التكليف بطريق الترغيب والترهيب.

ومعنى «ظلّ يفعل» أي جعل يفعل في صدر النهار، وهو الوقت الّذي فيه إلى ظلّ الشمس. و«أضحى يفعل» نظير ظلّ يفعل إلّا أنّه كثر حتّى صار بمنزلة «جعل يفعل».

ثمّ قال لنبيّه: إنّك يا محمّد ﴿لا تُسْمِعُ المُوْتَىٰ ولا تُسْمِعُ الصُمَّ الدُعاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ شبّه الكفّار في ترك تدبّرهم لما يدعوهم الله النبيّ ﷺ تارةً بالأموات وتارةً بالصمّ، لأنّهم لا ينتفعون بدعاء داعٍ؛ لأنّهم لا يسمعونه، وكذلك من يسمع ولا يصغي ولا يفكّر فيه، ولا يتدبّره فكأنّه لم يسمعه. وقوله: ﴿إذا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ معناه إذا أعرضوا عن أدلّتنا وعن الحقّ ذاهبين إلى الضلال غير طالبين لسبيل الرشاد. ولذلك لزمهم الذمّ وصفة النقص.

وقوله: ﴿وَما أَنْتَ بِهادِ العُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ﴾ معناه ليس في هؤلاء حيلة أن يقبلوا الهداية فصار العمي بالضلال صنفين أحدهما: يطلب الهداية فهو يجدها عندك. والآخر: لا يطلب الهداية، فليس فيه حيلة. ثمّ قال: ﴿إنْ﴾ يعني ليس ﴿تُسْمِعُ إلّا مَن﴾ يصدّق بآياتنا وأدلّتنا، لأنّهم المنتفعون بدعائك وإسماعك ﴿فَهُم مُسْلِمُونَ﴾ لك ما تدعوهم إليه.

ثمّ قال: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن ضَعْفٍ﴾ وفيه لغتان الضمّ والفتح مثل الفقر والفقر، والكره والكره، والجهد والجهد، والمعنى أنّه خلقهم ضعفاء، لأنّهم كانوا نطفاً، فحوّلهم إلى أن صاروا أحياء أطفالاً لا قدرة لهم ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ لهم ﴿مِن بَعْد ضَعْفٍ﴾ أي من بعد هذا الضعف ﴿قُوّة﴾ إذا شبّوا وترعرعوا وكملوا ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوّةٍ ضَعْفاً وشَيْبَةً﴾ في حال الشيخوخة والشيب

﴿يَخْلُقُ ما يَشَاءُ﴾ كيف يشاء ﴿وَهُوَ العَلِيمُ﴾ بما فيه مصالح خلقه قادر على فعله فهو يفعل بحسب ما يعلمه من مصالحهم.

ثمّ أخبر تعالى عن حال الكفّار أنّهم ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ﴾ أنّهم ﴿ما لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ وقيل: في قسمهم بذلك مع أنّ معارفهم ضروريّة قولان:

أحدهما: قال أبو بكر بن الأخشاد: ذلك يقع منهم قبل إكمال عقولهم، ويجوز قبل الإلجاء أن يقع منهم قبيح.

والثاني: قال الجبّائي: إنّ المراد أنّه منذ ماانقطع عنّا عذاب القبر ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي يكذّبون، لأنّه إخبار عن غالب الظنّ بما لا يعلمون، قال: ولا يجوز أن يقع منهم القبيح في الآخرة، لأنّ معارفهم ضرورة.

وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ في دار الدنيا ويجحدون البعث والنشور مثل ما حلفوا أنّهم لم يلبثوا إلّا ساعة. قال الفرّاء: وتقديره: كما كذّبوا في الدنيا بالبعث كذلك يكذّبون بقولهم: ما لبثنا غير ساعة[1]. ومن استدلّ بذلك على نفي عذاب القبر فقد أبطل، لأنّ المراد أنّهم ما لبثوا بعد انقطاع عذاب القبر إلّا ساعة.

قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ

(١) معاني القرآن ٢: ٣٢٦.

لَا يُوقِنُونَ﴿٦٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة ﴿لا ينفع﴾ بالياء لأنّ تأنيث المعذرة غير حقيقي، الباقون بالتاء لأنّ اللفظ لفظ التأنيث.

يقول الله تعالى مخبراً عن الّذين قد أعطاهم الله العلم وآتاهم إيّاه بما نصب لهم من الأدلّة الموجبة له ونظروا فيها فحصل لهم العلم فلذلك أضافه إلى نفسه لمّا كان هو الناصب للأدلّة الدالّة على العلوم والتصديق بالله ورسوله: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ أي مكثتم ﴿في كِتَابِ اللهِ﴾ ومعناه أنّ لبثكم مذكور ثابت في كتاب الله بيّنه الله فيه، فصار من أجل أنّ بيانه في كتابه كأنّه في الكتاب، كما تقول: كلّما يكون فهو في اللوح المحفوظ، أي هو مبيّن فيه. وقيل: ﴿في كِتَابِ اللهِ﴾ أي في كتابه الّذي أخبرنا به. واللبث لا يكون إلّا في المكان، كما لا يكون السكون إلّا فيه، والبقاء قد يكون لا في مكان، ولذلك يوصف تعالى بالباقي ولا يوصف بـ«لابث».

﴿إلى يَوْمِ البَعْثِ﴾ يعني يوم يبعث الله فيه خلقه ويحشرهم. وأصل البعث جعل الشيء جارياً في أمر، ومنه انبعث الماء: إذا جرى، وانبعث من بين الأموات: إذا خرج خروج الماء «ويوم البعث» يوم إخراج الناس من قبورهم إلى أرض المحشر.

ثمّ يقول المؤمنون للكفّار: ﴿فَهذَا يَوْمُ البَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ صحّة ذلك وكنتم شاكّين فيه. وقال الحسن: لقد قدّرنا آجالكم إلى يوم البعث ولكنّكم لا تعلمون أنّ البعث حقّ.

ثمّ أخبر تعالى أنّ ذلك اليوم لا تقبل معذرتهم. و«المعذرة» إظهار ما يسقط اللائمة. وإنّما لا تقبل معذرتهم لأنّهم ملجئون في تلك الحال، ولا يصحّ اعتذارهم. وقوله: ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يقبل عتبهم،

ولا يطلب منهم الإعتاب. و«الاستعتاب» طلب صلاح المعاتب بالعتاب، وذلك بذكر الحقوق الّتي تقتضي خلاف ما عمله العامل بما لا ينبغي أن يكون عليه مع الحقّ اللازم له. وليس في قولهم: ما علمنا أنّه يكون ولا أنّنا نبعث عذر، لأنّه قد نصب لهم الدلالة عليه ودعوا إليه.

ثمّ أخبر تعالى أنّه ضرب للناس المكلّفين في القرآن الّذي أنزله على نبيّه محمّد ﷺ من كلّ مثل، يحثّهم به على الحقّ واتّباع الهدى. ثمّ قال لنبيّه: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ يا محمّد أي معجزة باهرة ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ في دعواكم البعث والنشور، عناداً وجحداً للأمور الظاهرة.

ثمّ قال: مثل ما طبع الله على قلوب هؤلاء بأن حكم عليهم بأنّهم لا يؤمنون، كذلك حكم في كلّ من لا يؤمن. وقيل: الطبع علامة يجعلها الله في قلوب الكافرين يفصل بها الملائكة بينه وبين المؤمن.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿فاصْبِرْ﴾ يا محمّد على أذى هؤلاء الكفّار ومقامهم على كفرهم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ في ما وعدك به من النصر وإعزاز دينك ﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي ولا يستفزّنّك ﴿الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ فالاستخفاف طلب الخفّة.

# سورة لقمان

هي مكّية في قول مجاهد وقتادة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقال الحسن: هي مكّيّة إلّا آية واحدة وهي قوله: ﴿الّذِينَ يُقِيمُونَ الصَلاةَ ويُؤتُونَ الزَكَاةَ﴾ لأنّ الصلاة والزكاة مدنيّتان، وهي ثلاث وثلاثون آيةً حجازي، وأربع وثلاثون آيةً في ما عدا الحجازي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِالأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾.

خمس آياتٍ كوفي وأربع بلا خلاف فيما عدا الكوفي.

قرأ حمزة ﴿هدى ورحمة﴾ رفعاً، الباقون نصباً. من رفع جعله خبر ابتداء محذوف، وتقديره: هو هدى ورحمة، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿تِلكَ آياتُ﴾ أي تلك هدى ورحمة. ومن نصب فعلى المصدر وتقديره: يهدي به هدًى ويرحم به رحمة، ويجوز أن يكون على الحال، وتقديره: هادياً أي في حال الهداية والرحمة، ذكره الزجّاج[1].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ١٩٣.

﴿للمحسنين﴾ الّذين يفعلون الأفعال الحسنة من الطاعات ويتفضّلون على غيرهم. وقد بيّـنّا أنّ أقوى الأقوال في معنى ﴿ألم﴾ قول من قال هو اسم السورة، وذكرنا ما في الأقوال في ما تقدّم[1]. قال الرماني: إنّما جعل اسم للسورة على الاشتراك للمناسبة بينها وبين ما يتّصل بها مع الفصل بالصفات، وذلك أنّها استحقّت بذكر الكتاب والمؤمنين به غير العادلين عنه، كما هو في البقرة.

وقوله: ﴿تِلْكَ آياتُ الكِتابِ﴾ إشارة إلى آيات الكتاب الّتي وعدهم الله بإنزالها عليهم في الكتب الماضية، قال أبو عبيدة: ﴿تلك﴾ بمعنى هذه[2] ﴿وآياتُ الكِتَابِ﴾ وإنكانت هيالكتاب فهوجائز كما قال: ﴿حَقُّ اليَقِينِ﴾[3] وكما قالوا: مسجد الجامع، وغير ذلك. وقد بيّنّاه في ما مضى[4] ﴿الحكيم﴾ من صفة الكتاب فلذلك جرّه، وإنّما وصف الكتاب بأنّه حكيم مع أنّه محكم لأنّه يظهر الحقّ والباطل بنفسه كما يظهره الحكيم بقوله. ولذلك يقال: الحكمة تدعو إلى الإحسان وتصرف عن الإساءة. وقال أبوصالح: أُحكمت آياته بالحلال والحرام. وقال غيره: احكمت بأن أتقنت ﴿لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِن بَينِ يَدَيهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ﴾[5].

ثمّ قال: هذا الكتاب ﴿هُدًى وَرَحْمَةً للمُحْسِنِينَ﴾ أي دلالة موصلة لهم إلى الصواب وما يستحقّ به الثواب، ورحمة رحمهم الله بها وإضافته إلى المحسنين وإن كان هدًى لغيرهم لما كانوا هم المنتفعين به دون غيرهم كما قال: ﴿هُدًى للمُتَّقِينَ﴾[6].

---

(١) تقدّم في ج ١ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٨ فراجع.
(٢) مجاز القرآن ٢: ١٢٦.
(٣) الواقعة: ٩٥.
(٤) تقدّم في تفسير أول سورة الرعد فراجع.
(٥) فصّلت: ٤٢.
(٦) البقرة: ٢.

و«الإحسان» النفع الّذي يستحقّ به الحمد فكلّ محسن يستحقّ الحمد، وكلّ مسيء يستحقّ الذمّ، وما يفعله الفاعل على أنّه لا ظلم فيه لأحد لينقطع به عن قبيح في أنّه إحسان فهو إحسان يستحقّ عليه الحمد، لأنّ الحكمة تدعو إلى فعله على هذا الوجه، ولا يدعو إلى أن يفعله للشهوة ولا للهوى.

ثمّ وصف المحسنين فقال: ﴿الّذينَ يُقِيمُونَ الصَلاةَ﴾ أي يديمون فعلها ويقومون بشرائطها وأحكامها ويخرجون الزكاة الواجبة عليهم في أموالهم. وهم بالآخرة مع ذلك يوقنون، ولا يرتابون بها. ثمّ أخبر أنّ هؤلاء الّذين وصفهم بهذه الصفات ﴿عَلَىٰ هُدًى مِن رَبِّهِمْ﴾ أي على حجّة من ربّهم ﴿وَأولئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ﴾ الفائزون بثواب الله ورحمته.

قوله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلّا أبا بكر ﴿ويتّخذها﴾ نصباً، الباقون رفعاً. من قرأ بالنصب عطفه على ﴿لِيُضلَّ عن سَبيلِ اللهِ بَغَيرِ عِلْمٍ ويتّخذَها﴾ أي يشتري لهو الحديث للأمرين. ومن رفع عطف على قوله: ﴿يشتري لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضلَّ عن سبيل الله... ويتّخذها هزواً﴾ ومن قرأ ﴿ليضلّ﴾ بضمّ الياء وكسر الضاد

أراد يفعل ذلك ليضلّ غيره. ومن فتح الياء أراد ليضلّ هو نفسه بذلك.

أخبر الله تعالى أنّ ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿النَاس مَن يَشْتَري لَهْوَ الحَدِيثِ﴾ أي يستبدل لهو الحديث، قيل في معناه قولان:

أحدهما: أنّه يشتري كتاباً فيه لهو الحديث.

الثاني: أنّه يشتري لهو الحديث عن الحديث. و«اللهو» الأخذ في ما يصرف الهمّ من غير الحقّ، تقول: لهى فلان يلهو لهواً، فهو لاهٍ، وتلهّى تلهّياً وألهاه إلهاءً، و«اللهو» و«اللعب» و«الهزل» نظائر. و«الحديث» الخبر عن حوادث الزمان. وقال ابن عبّاس وابن مسعود ومجاهد: لهو الحديث الغناء، وهو المرويّ عن أبي جعفرعليه السلام[1]. وقال قوم: هو شراء المغنّيات. وروى أبو أُمامة عن النبيّصلى الله عليه وآله تحريم ذلك[2]. وقال قتادة: هو استبدال حديث الباطل على حديث الحقّ. وقيل: كلّ ما كان من الحديث ملهياً عن سبيل الله الّذي أمر باتّباعه إلى ما نهي عنه فهو لهو الحديث. وقيل: الآية نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة كان اشترى كتباً فيها أحاديث الفرس، من حديث رستم واسفنديار، فكان يلهيهم بذلك ويظرّف به، ليصدّ عن سماع القرآن وتدبّر ما فيه.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي ليتشاغل بما يلهيه عن سبيل الله. وقال ابن عبّاس: سبيل الله قراءة القرآن وذكر الله، لأنّ حجّة الله قائمة عليه بالدواعي الّتي تزعجه إلى النظر فيما يؤدّيه إلى العلم بالواجب ليعمل، فيتشاغل ليخفّ ذلك الإزعاج. ومن قرأ بالضمّ أراد ليضلّ غيره بذلك.

وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَها هُزُواً﴾ أي يتّخذ سبيل الله سخريّة، فلا يتّبعها ويشغل غيره عن اتّباعها. والضمير في قوله: ﴿ويتّخِذَها﴾ يجوز أن يكون راجعاً

---

(١) الكافي ٦: ٤٣١ / ٤.

(٢) تفسير الطبري ١٠: ٢٠٢.

إلى الحديث، لأنّه بمعنى الأحاديث. ويجوز أن يكون راجعاً إلى «سبيل الله» والسبيل يؤنّث ويذكّر. ويجوز أن يكون راجعاً إلى «آيات الله» في قوله: ﴿تِلكَ آياتُ الكتابِ﴾.

ثمّ أخبر تعالى أنّ من هذه صفته له ﴿عَذابٌ مُهِينٌ﴾ أي عذاب يذلّه. والإذلال بالعداوة هو الهوان. فأمّا إذلال الفقر والمرض فليس بهوان، ولا إذلال على الحقيقة. وإذلال العقاب لا يكون إلّا هواناً وإن كان العذاب على وجه الامتحان فلا يكون هواناً أيضاً.

ثمّ أخبر تعالى عن صفة هذا الّذي يتّخذ آيات الله هزواً ويشتري لهو الحديث أنّه ﴿إذا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آياتُنا﴾ الّتي هي القرآن ﴿وَلّىٰ مُسْتَكبِراً﴾ أي أعرض عنها تكبّراً عن استماعها والكفر فيها، كأنّه ﴿لَمْ يَسْمَعْها﴾ من حيث لم يفكّر فيها ولم يعتبر بها. و ﴿كَأَنَّ في أُذُنيهِ وَقْراً﴾ أي ثقلاً يمنع من سماعه. ثمّ أمر نبيّه صلى الله عليه وآله أن يبشّر من هذه صفته ﴿بعذاب أليم﴾ أي مؤلم موجع.

ثمّ أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المصدّقين بتوحيد الله وصدق أنبيائه فقال: ﴿إنّ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَالِحاتِ﴾ أي صدّقوا بالله ونبيّه عليه السلام وفعلوا الطاعات ﴿لَهُمْ جَنّات النَعِيمِ﴾ يوم القيامة يتنعّمون فيها ﴿خَالِدينَ فِيهَا﴾ أي مؤبّدين في تلك البساتين ﴿وَعْدَ اللهِ حَقّاً﴾ أي وعده الله حقّاً، لا خلف لوعده ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ في انتقامه ﴿الحَكِيمُ﴾ في أفعاله، إذ لا يفعل إلّا ما فيه المصلحة ووجه من وجوه الحكمة.

ثمّ أخبر تعالى عن نفسه بأن ﴿خَلَقَ السَمَاواتِ﴾ فأنشأها واخترعها ﴿بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ أي ليس لها عمد يسندها، لأنّه لو كان لها عمد لرأيتموها فلمّا لم تروها دلّ على أنّه ليس لها عمد، لأنّه لو كان لها عمد

لكانت أجساماً عظيمة حتّى يصحّ منها إقلال السماوات، ولو كانت كذلك لاحتاجت إلى عمد آخر، فكان يتسلسل، فإذاً لا عمد لها، بل الله تعالى سكّنها حالاً بعد حال بقدرته الّتي لا توازيها قدرة قادر.

وقال مجاهد: لها عمد لا ترونها. وهذا فاسد، لأنّه لو كان عمداً لكانت أجساماً عظيمة، لأنّه لا يقلّ مثل السماوات والأرض إلّا مافيه الاعتمادات العظيمة. ولو كانت كذلك لرئيت، وكان يؤدي إلى ما ذكرناه من التسلسل.

ثمّ قال: ﴿وَأَلقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ يعني الجبال الثابتة ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وقيل معناه لئلّا تميد بكم، كما قال الراجز:

والمهرُ يأبى أن يزال مُلْهبا[1]

بمعنى لا يزال. وقال قوم: معناه كراهة أن تميد بكم ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي فرّق فيها من كلّ دابّة أي من كلّ ما يدبّ على الأرض. ﴿وأَنزَلْنا مِنَ السَمَاءِ مَاءً﴾ يعني غيثاً ومطراً ﴿فَأَنْبتْنا فيها﴾ بذلك الماء ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي من كلّ نوع حسن النبت طيّب الريح والطعم.

قوله تعالى:

هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ

---

(١) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٣٢٧، ولم ينسبه لأحد.

سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿١٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

هذا إشارة إلى ما تقدّم ذكره من خلق السماوات والأرض على ما هي به من عظمها وكبر شأنها من غير عمد يمنع من انحدارها، وألقى الرواسي في الأرض لئلّا تميد بأهلها ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ للاعتبار والانتفاع بها، وأنزل من السماء ماءً لإخراج كلّ نوع كريم على ما فيه من بهجة ولذّة يستمتع بها. فهذا كلّه خلق الله فأين خلق من أشركتموه في عبادته حتّى جاز لكم أن تعبدوه من دونه؟ وهذا لا يمكن معه معارضة، وفيه دليل على توحيده تعالى.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بترك الاعتبار بآيات الله ﴿في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ أي عدول عن الحقّ بيّن ظاهر. وما دعاهم إلى عبادتها أنّها تخلق شيئاً ولكن ضلالهم بالجهل الّذي اعتقدوه من التقرّب بذلك إلى الله وأنّها تقرّبهم إلى الله زلفى.

ثمّ أخبر تعالى أنّه أعطى لقمان الحكمة، فقال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة: لم يكن لقمان نبيّاً. وقال عكرمة: كان نبيّاً. وقيل: إنّه كان عبداً أسوداً حبشيّاً ذا شفة، فقال له بعض الناس: ألست الّذي كنت ترعى معنا؟ فقال: نعم، فقال له: من أين أُوتيت ما أرى؟ فقال: بصدق الحديث والصمت عمّا لا يعنيني. والحكمة الّتي آتى الله لقمان هو معرفته بتوحيده، ونفي الشرك عنه، وما فسّرناه في ما بعد وهو أن أمره بأن يشكر لله على نعمه الّتي أنعم بها عليه.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فإنّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي من يشكر نعمة الله ونعمة من أنعم عليه فإنّه يشكر لنفسه، لأنّ ثواب شكره عائد عليه.

﴿وَمَن كَفَرَ فإنّ اللهَ غَنيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي من جحد نعمة الله فإنّه تعالى غنيّ عن شكره، حميد على أفعاله، وعقاب ذلك عائد على الكفّار دون غيرهم، والشكر لا يكون إلّا على نعمة سبقت، فهو يقتضي منعماً، فلا يصحّ على ذلك أن يشكر الإنسان نفسه، لأنّه لا يجوز أن يكون منعماً عليها، وهو جرى مجرى الدين في أنّه حقّ لغيره عليه يلزمه أداؤه، فكما لا يصحّ أن يقرض نفسه فيجب أن يقضي ذلك الدين لنفسه، فكذلك لا يصحّ أن ينعم على نفسه فيلزمه شكر تلك النعمة.

ثمّ قال تعالى: واذكر يا محمّد ﴿إذ قَالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظه يا بُنيَّ لا تُشْرِكْ باللهِ إنَّ الشِرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إذ قال له: لا تعبد مع الله غيره، فإنّ من فعل ذلك فقد ظلم نفسه ظلماً عظيماً. ويجوز أن يتعلّق قوله: ﴿وإذْ قالَ لُقْمانُ﴾ بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَينا لُقْمانَ الحِكْمَة... إذْ قَالَ لِابْنِهِ... لا تُشْرِك بِاللهِ﴾.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَوَصّينا الإنسان بوالِدَيهِ﴾ أي وصّيناه وأمرناه بالإحسان إلى والديه والرفق بهما ﴿حَمَلَتْهُ أمُّه وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ قال الضحّاك: معناه ضعفاً على ضعف، أي ضعف نطفة الوالد إلى ضعف نطفة الأمّ. وقيل: هو ما يلحقها بحملها إيّاه مرّة بعد مرّة من الضعف. وقيل: بل المعنى شدّة الجهد، قال زهير:

فإن يَقُولوا بِحَبْلٍ واهِنٍ خَلَقٍ لوْ كانَ قَومُك في أسبابه هَلَكُوا[١]

وقال ابن عبّاس ﴿وَهناً على وَهْنٍ﴾ أي شدّة على شدّة. وقيل: ضعف الولد حالاً بعد حال، لأنّه كان نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ عظماً ثمّ مولوداً.

وقوله: ﴿وَفِصالُهُ في عَامِيْن﴾ يعني فطامه في انقضاء عامين. وقيل: نزلت في سعد بن أبي وقّاص حلفت أُمّه لا تأكل طعاماً حتّى تموت أو

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى: ٥١، وفيه: «فلن» بدل «فإن».

يرجع سعد ابنها، فلمّا رأته بعد ثلاث لا يرجع عن الإسلام أكلت.

ثمّ قال: ﴿أنِ اشكُرْ لِي وَلِوالدَيْكَ﴾ أي وصّيناه بأن اشكر لي على نعمي، واشكر والديك أيضاً على ما أنعما عليك. ثمّ قال: ﴿إليَّ المَصِيرُ﴾ فيه تهديد أي إليَّ مرجعكم، فأجازيكم أيّها الناس على حسب عملكم.

ثمّ قال: ﴿وإنْ جَاهَدَاكَ﴾ يعني الوالدين أيّها الإنسان ﴿عَلَىٰ أنْ تُشْرِكَ بِي﴾ معبوداً آخر ﴿فَلا تُطِعْهُما وَصَاحِبْهما في الدُنيَا معروفاً﴾ أي أحسن إليهما في الدنيا وارفق بهما. ثمّ قال: ﴿واتَّبِعْ سَبيلَ مَن أنَابَ إليَّ﴾ أي رجع إلى طاعتي من النبيّ والمؤمنين ﴿ثُمَّ إليَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي منقلبكم ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ أي أُخبركم ﴿بِما كُنْتُم تَعمَلُونَ﴾ في دار الدنيا من الأعمال، وأُجازيكم عليها بحسبه.

وقرأ ابن كثير إلّا ابن فليح ﴿يا بنيّ لا تُشرِك باللهِ﴾ بسكون الياء، الباقون بتشديدها وكسرها إلّا حفصاً فإنّه فتحها على أصله ﴿يا بُني أَقِمِ الصَلاةَ﴾ بفتح الياء، وابن كثير إلّا قنبلاً وحفص، الباقون بكسر الياء. فوجه السكون أنّه أجرى الوصل كالوقف، ووجه الفتح على الإضافة وحذف ما قبلها لاجتماع ثلاث ياءات، والكسر على الاجتزاء بها من ياء الإضافة.

وعندنا أنّ الرضاع بعد الحولين يحرم لقوله: ﴿وَفِصَالُهُ في عَامَيْنِ﴾ ولقوله عليه السلام: لا رضاع بعد الحولين(١).

قوله تعالى:

يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّن خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾

(١) سنن الدارقطني ٤: ١٧٣، السنن الكبرى ٧: ٤٥٨.

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر ﴿ولا تصعّر﴾ بغير ألف في التصعير، الباقون ﴿تصاعر﴾ بألف. وقرأ أهل المدينة ﴿مثقال حبّة﴾ رفعاً، الباقون نصباً.

من رفعه جعل «كان» بمعنى حدث ووقع، ولم يجعل لها خبراً. ومن نصب فعلى أنّه خبر «كان» والاسم مضمر فيها أي إن تك الحبّة مثقال. وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿نعمه﴾ على لفظ الجمع، الباقون ﴿نعمة﴾ على التوحيد.

يقول الله تعالى مخبراً عن لقمان ووصيّته لابنه وأنّه قال: ﴿يا بُنَيَّ إنّها إنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ﴾ من خير أو شرّ ﴿فَتَكُنْ﴾ عطف على الشرط فلذلك جزمه، وتقديره: إنّ تلك الحبّة لو كانت في جوف صخرة ـ وهي الحجر العظيم ـ أو تكون في السماوات أو الأرض ﴿يَأْتِ بِها اللهُ﴾ ويحاسب عليها ويجازي، لأنّه لا يخفى عليه شيء منها، ولا يتعذّر عليه الإتيان بها أيّ موضع كانت، لأنّه قادر لنفسه لا يعجزه شيء، عالم لنفسه لا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿يَأْتِ بِها اللهُ﴾ معناه أنّه يجازي بها ويواقف عليها فكأنّه أتى بها وإن كانت أفعال العباد لا يصحّ إعادتها، ولو صحّ إعادتها لما كانت مقدورة لله، وإنّما أراد ما قلناه، وفي ذلك غاية التهديد والحثّ على الأخذ بالحزم. والهاء في قوله «إنّها» قيل: إنّها عماد وهو الضمير على شريطة

التفسير. وقيل: إنّها كناية عن الخطيئة أو الفعلة الّتي تقتضي الجزاء، وهي المضمرة في تك. وإنّما أنّث مثقال لأنّه مضاف إلى مؤنّث وهي الحبّة، كما قيل: ذهبت بعض أصابعه، وكما قيل:

كمَا شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاةِ مِنَ الدَمِ[1]

والصخرة وإن كانت في الأرض أو في السماء فذكر السماوات والأرض بعدها مبالغة كقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ﴾[2]. وقد قال بعض المفسّرين: إنّ الصخرة خارجة عن السماوات والأرض، وهو أيضاً جائز.

وقرأ قتادة ﴿فتكن في صخرة﴾ بكسر الكاف مخفّفاً من «وَكَنَ يَكِنُ» أي جعل الصخرة كالوكنة، وهو عشّ الطائر، ذكره ابن خالويه[3]. وحكاه عن ابن مجاهد سماعاً واستحسنه.

وقوله: ﴿إنّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قال قتادة: معناه ـ ها هنا ـ لطيف باستخراجها، خبير بمستقرّها. و«اللطيف» القادر الّذي لا يحفو عن عمل شيء، لأنّ من القادرين من يحفو عن عمل أشياء كثيرة كإخراج الجزء الّذي لا يتجزّأ وتأليفه إلى مثله، فهو فإن كان قادراً عليه فهو ممتنع منه، لا يحفو عن عمل مثله. و«الخبير» العالم، وفيه مبالغة في الصفة، مشتقّ من الخبر. ولم يزل الله خبيراً عالماً بوجوه ما يصحّ أن يخبر به. و«المثقال» مقدار يساوي غيره في الوزن، فمقدار الحبّة مقدار حبّة في الوزن. وقد صار بالعرف عبارة عن وزن الدينار، فإذا قيل: مثقال كافور أو عنبر فمعناه مقدار الدينار الوازن.

(١) قائله الأعشى راجع ديوانه: ١٨٣، وصدره: وتشرق بالقول الّذي قد أذعته.
(٢) العلق: ١ و٢.
(٣) شواذّ القرآن: ١١٨.

ثمّ حكى ما قاله لقمان لابنه أيضاً قال له: ﴿يا بُنَيّ أقِمِ الصَلاةَ﴾ أي دُم عليها وأقم حدودها وشرائطها ﴿وأمُرْ بالمَعرُوفِ﴾ والمعروف هو الطاعات ﴿وَانْهَ عَنِ المُنكَرِ﴾ وهي القبائح سواء كانت قبائح عقليّة أو شرعيّة ﴿واصْبِرْ على ما أَصَابَكَ﴾ من الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المشقّة والأذى، وفي ذلك دلالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كان فيه بعض المشقّة.

ثمّ قال: ﴿إنَّ ذَلِكَ﴾ أي ما ذكره من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ من العقد الصحيح على فعل الحسن بدلاً من القبيح، و«العزم» العقد على الأمر لتوطين النفس على فعله، وهي الإرادة المتقدّمة للفعل بأكثر من وقت، لأنّ التلوّن في الرأي يناقض العزم. قال الله تعالى: ﴿فاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُسُلِ﴾ (١).

ثمّ حكى ما قال لقمان لابنه فإنّه قال له أيضاً: ﴿ولا تُصَعِّرْ خَدّكَ للنَاسِ﴾ ومعناه لا تعرض بوجهك عن الناس تكبّراً، ذكره ابن عبّاس. وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتّى يُلفت أعناقها فتشبه به الرجل المتكبّر على الناس. وقال عمر بن جنّي التعلبي وأضافه المبرّد إلى الفرزدق:

وكُنّا إذا الجبّارُ صَعّرَ خَدَّهُ أَقَمْنا لَهُ مِنْ مثله فتَقوّما (٢)

قال أبو عليّ الفارسي: يجوز أن يكون تصعّر وتصاعر بمعنى، كقولهم: ضعّف وضاعف، قال أبو الحسن «لا تصاعر» لغة أهل الحجاز و«لا تصعّر»

---

(١) الأحقاف: ٣٥.

(٢) قائله المتلمس الضبعي: ٢٤، وفيه: «من ميله» بدل «من مثله» وحكاه الطبري عن عمرو بن حُنّي التغلبي في تفسيره: ١٠ ٢١٤.

لغة بني تميم، والمعنى ولا تتكبّر ولا تعرض عنهم تكبّراً[١].

﴿ولا تَمْشِ في الأرْضِ مَرَحاً﴾ أي مشي مختال متكبّر ﴿إنَّ الله لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ فالاختيال مشية البطر، قال مجاهد: المختال المتكبّر. والفخر ذكر المناقب للتطاول بها على السامع، يقال: فخر يفخر فخراً وفاخره مفاخرة وفخاراً، وتفاخرا تفاخراً وافتخر افتخاراً.

ثمّ قال له: ﴿واقْصِدْ في مَشْيِكَ﴾ أي اجعل مشيك مشي قصد، لا تمشي مشي مختال ولا متكبّر ﴿واغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي لا ترفع صوتك متطاولاً لأنّه مذموم ثمّ ﴿إنَّ أنكَرَ الأصْواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾ قال الفرّاء: معناه أنّ أشدّ الأصوات. وقال غيره: معناه أقبح الأصوات ـ في قول مجاهد ـ كما يقال: هذا وجه منكر. ثمّ نبّههم على وجوه نعم الله على خلقه، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أنّ اللهَ سَخّرَ لَكُم مَا في السَمواتِ وَما في الأرْض﴾ أي ذلّله لكم تتصرّفون فيه بحسب ما تريدون من أنواع الحالات من الثمار والبهائم، وغير ذلك ﴿وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ أي وسّع عليكم نعمه، و«السابغ» الواسع الّذي يفضل عن مقدار القوت. وقوله: ﴿ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً﴾ أي من نعمه ما هو ظاهر لكم لا يمكنكم جحده ـ من خلقكم وإحيائكم واقداركم وخلق الشهوة فيكم وضروب نعمه ـ ومنها ما هو باطن مستور لا يعرفها إلّا من أمعن النظر فيها. وقيل: النعم الباطنة مصالح الدين والدنيا، ممّا لايشعرون به. وقيل: سخّر لكم ما في السماوات من شمس وقمر ونجم وسحاب وما في الأرض من دابّة وشجر وثمار، وغير ذلك ممّا تنتفعون به في أقواتكم ومصالحكم.

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢٧٣.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَن يُجادِلُ في اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ﴾ أي يخاصم ولا علم له بما يقوله ويجادل فيه ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي ولا حجّة على صحّة ما يقوله ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنيرٍ﴾ أي ولا كتاب من عند الله منير، أي ظاهر عليه نور وهدًى.

قوله تعالى:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ * وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

حكى الله سبحانه عن الكفّار وسوء اختيارهم أنّه ﴿إذا قِيلَ لَهُمْ ٱتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ﴾ من القرآن والأحكام واعملوا بموجبه واقتدوا به ﴿قالوا﴾ في الجواب عن ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ من عبادة الأصنام ولا نتّبع ذلك، فقال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿أو لَوْ كَانَ الشَيطَانُ يَدْعُوهُمْ إلى عَذابِ السَعِيرِ﴾ ومعناه أنّكم تتّبعون ما وجدتم عليه آباءكم، ولو كان ذلك يدعوكم إلى عذاب جهنّم!. وأُدخل على واو العطف ألف الاستفهام على وجه الإنكار.

ثمّ قال: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى اللهِ﴾ أي يوجه طاعته إلى الله ويقصد وجهه بها دون الرياء والسمعة ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي لا يخلط طاعاته بالمعاصي ﴿فَقَدِ استَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَىٰ﴾ أي من فعل ما وصفه فقد تعلّق بالعروة الوثيقة الّتي لا يخشى انتقاضها، و«التوثّق» امتناع سبب الانتقاض،

لأنّ البناء الموثّق قد جعل على امتناع سبب الانتقاض، وما ليس بموثّق على سبب الانتقاض.

ثمّ قال: ﴿وَإلى اللهِ عَاقِبَةُ الأمُورِ﴾ أي إليه ترجع أواخر الأمور على وجه لا يكون لأحد التصرّف فيها ولا الأمر والنهي.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ يا محمّد من هؤلاء الناس ﴿فلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ أي لا يغمّك ذلك ﴿إلينَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي نعلمهم بأعمالهم ونجازيهم على معاصيهم بالعقاب ﴿إنّ الله عَليمٌ بِذاتِ الصُدُورِ﴾ أي بما تضمره الصدور، لا يخفى عليه شيء منها.

ثمّ قال: ﴿نُمتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ أي نتركهم يتمتّعون في هذه الدنيا مدّة قليلة ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي نصيّرهم مكرهين ﴿إلى عَذابٍ غَليظٍ﴾ يغلظ عليهم ويصعب وهو عذاب النار.

ثمّ قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني هؤلاء الّذين كفروا بآيات الله ﴿مَنْ خَلَقَ السَمواتِ والأرضَ لَيَقُولُنَّ﴾ في جواب ذلك: ﴿اللهُ﴾ خلق ذلك، لأنّهم لا يمكنهم أن يقولوا خلق ذلك الأصنام والأوثان لأنّهم يقرّون بالنشأة الأولى، ولأنّهم لو قالوا ذلك لعلم ضرورة بطلان قولهم. فقل عند ذلك يا محمّد: ﴿الحَمْدُ للهِ﴾ على هدايته وتوفيقه لنا بالمعرفة له ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أنّكم وفقكم الله لمعرفته.

قوله تعالى:

لِلَّهِ مَافِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِن بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو ويعقوب وابن شاهي ﴿والبحر يمدّه﴾ نصباً، الباقون رفعاً. من نصبه عطفه على «ما» في قوله: ﴿أنّ ما﴾ لأنّ موضعها نصب بـ«أنّ» لأنّ الكلام لم يتمّ عند قوله: ﴿أقلام﴾ فأشبه المعطوف قبل الخبر. قال ابن خالويه: وهذا من حذق أبي عمرو وجودة تمييزه. وإنّما لم يتمّ الكلام مع الإتيان بالخبر لأنّ «لو» يحتاج إلى جواب. ومن رفع استأنف الكلام.

أخبر الله تعالى أنّ له جميع ما في السماوات والأرض ملك له يتصرّف فيه بحسب إرادته، لا يجوز لأحد الاعتراض عليه. ثمّ أخبر أنّه تعالى ﴿هُوَ الغَنيّ﴾ الّذي لا يحتاج إلى شيء من جميع المخلوقات كما يحتاج غيره من الأحياء المخلوقين، وأنّه ﴿الحَمِيدُ﴾ مع ذلك، يعني المستحقّ للحمد العظيم، ونقيضه الذميم. ويقال: «محمود» بمعنى حميد، ومعناه أنّه أهل الحمد.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أنَّ ما في الأرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقلامٌ والبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعةُ أَبْحُرٍ﴾ وفيه حذف، لأنّ المعنى يكتب به كلام الله ﴿ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ﴾ والآية تقتضي أنّه ليس لكلمات الله نهاية بالحكم، لأنّه يقدر منها على مالا نهاية له. وقال قوم: المعنى أنّ وجه الحكمة وعجيب الصنعة وإتقانها لا ينفد، وليس المراد به الكلام. وقال أبو عبيدة: المراد بالبحر ـ هاهنا ـ العذب، لأنّ المالح لا ينبت الأقلام[1].

وقال ابن عبّاس: نزلت الآية جواباً لليهود، لمّا قالوا: قد أُوتينا التوراة

(١) مجاز القرآن ٢: ١٢٨.

وفيها كلّ الحكمة، فبيّن الله تعالى أنّ ما يقدر عليه من الكلمات لا حصر له ولا نهاية.

و«الشجر» جمع شجرة مثل تمرة وتمر، وهو كلّ نبات يقوم على ساق ويورق الأغصان. ومنه اشتقّت المشاجرة بين الناس في الأمر، ومنه قوله: ﴿فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (١) وشجّر تشجيراً وتشاجروا تشاجراً. ومدّ البحر: إذا جرى غيره إليه حالاً بعد حال، ومنه المدّ والجزر، ومدّ النهر ومدّه نهر آخر يمدّه مدّاً. وقال الفرّاء: يقولون: أمددتك ألفاً فمددت(٢).

﴿إنّالله عَزِيزٌ حَكيمٌ﴾ معناه عزيز فيانتقامه منأعدائه، حكيم فيأفعاله.

ثمّ قال: ﴿مَا خَلْقُكُمْ﴾ معشر الخلق ﴿وَلا بَعْثُكُمْ إلّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي إلّا كبعث نفس واحدة أي لا يشقّ عليه ابتداء جميع الخلق ولا إعادتهم بعد إفنائهم، وأنّ جميع ذلك من سعة قدرة الله كالنفس الواحدة، إذ المراد أنّ خلقها لا يشقّ عليه. وقوله: ﴿إنّ اللهَ سَميعٌ﴾ أي يسمع ما يقول القائلون في ذلك ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يضمرونه في قوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إلّا كَنفْسٍ واحِدَة﴾ وفي ذلك تهدّد على المخالفة فيه.

ثمّ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمّد والمراد به جميع المكلّفين ﴿أَنَّ الله يُولِجُ اللَيلَ في النَهارِ وَيُولِجُ النَهَار في اللَيلِ﴾ قال قتادة: معناه ينقص من الليل في النهار ومن النهار في الليل. وقال غيره: معناه أنّ كلّ واحد منهما يتعقّب الآخر ﴿وَسَخَّرَ الشَمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجرِي﴾ لأنّهما يجريان على وتيرة واحدة لا يختلفان بحسب ما سخّرهما له، كلّ ذلك يجري ﴿إلى أَجَلٍ مُسَمّىٰ﴾ قدّره الله أن يفنيه فيه. وقال الحسن: الأجل المسمّى القيامة. ﴿وأنّ الله﴾ عطف [على] ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فلذلك نصبه، وتقديره: وتعلم ﴿أنّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبير﴾.

(١) النساء: ٦٥.
(٢) معاني القرآن ٢: ٣٢٩.

من قرأ بالياء ـ وهو عبّاس عن أبي عمرو ـ أراد الإخبار، ومن قرأ بالتاء حمله على الخطاب، وهو الأظهر. والمعنى ﴿أنّ الله بما تَعْمَلُونَ﴾ معشر المكلّفين ﴿خَبِيرٌ﴾ أي عالم، فيجازيكم بحسب ذلك ليطابق قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أنّ الله يُولِجُ اللَيلَ في النَهارِ﴾ ثمّ قال: ﴿ذَلِكَ بأنّ اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾ الّذي يجب توجيه العبادة إليه ﴿وأنّ ما تَدْعُونَ مِن دُونِهِ الباطِلُ﴾ ومن قرأ بالياء فعلى الإخبار عنهم، ومن قرأ بالتاء على وجه الخطاب.

يقول الله تعالى: ألم تعلم أنّ ما يدعون هؤلاء الكفّار من الأصنام هو الباطل. ومن قرأ بالياء فعلى قل لهم يا محمّد: ﴿وأَنّ اللهَ هُوَ العَلِيّ الكَبِيرُ﴾ فالعليّ هو الّذي علا على الأشياء واقتدر عليها، و«الكبير» معناه العظيم في صفاته لا يستحقّ صفاته غيره تعالى. وذكر أبو عبيدة ـ في كتاب المجاز ـ أنّ المراد بالبحر المذكور في الآية البحر العذب، لأنّ المالح لا ينبت الأقلام[1].

قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾.

---

(١) مجاز القرآن ٢: ١٢٨.

خمس آيات بصري وشامي وأربع فيما عداهما. عدّوا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِينَ﴾ ولم يعدّه الباقون.

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيّه صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلّفين منبّهاً لهم على جهات نعمه الّتي أنعم بها عليهم وما يدلّهم على أنّه يستحقّ العبادة خالصاً، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ومعناه ألم تعلم ﴿أَنَّ الفُلْكَ﴾ وهي السفن ﴿تَجْرِي في البَحْرِ بِنِعمَةِ اللهِ﴾ عليكم ﴿لِيُرِيَكُمْ مِن آياتِهِ﴾ أي ليريكم بعض أدلّته الدالّة على وحدانيّته.

ووجه الدلالة في ذلك أنّ الله تعالى يجري الفلك بالرياح الّتي يرسلها في الوجوه الّتي تريدون المسير فيها، ولو اجتمع جميع الخلق ليجروا الفلك في بعض الجهات مخالفاً لجهة الرياح لما قدروا على ذلك.

وفي ذلك أعظم دلالة على أنّ المجري لها بالرياح هو القادر الّذي لا يعجزه شيء، وذلك بعض الأدلّة الّتي تدلّ على وحدانيّته، فلذلك قال: ﴿مِنْ آياتِهِ﴾ ثمّ قال: ﴿إنّ في ذَلِكَ لآياتٍ﴾ يعني في تسخير الفلك وإجرائها في البحر على ما بيّنّاه لدلالات ﴿لِكُلِّ صَبّارٍ شكور﴾ يعني الصبّار على مشاقّ التكليف وعلى ألم المصائب وأذى الكفّار ﴿شَكُور﴾ لنعم الله عليهم. وأضاف الآيات إليهم لمّا كانوا هم المنتفعين بها، وإنّما ذكر ﴿كُلّ صَبّار شَكُورٍ﴾ لأنّ الصبر عليه بأمر الله والشكر لنعم الله من أفضل ما في المؤمن. وقال الشعبي: الصبر نصف الإيمان والشكر نصف الإيمان، فكأنّه قال: لكلّ مؤمن.

ثمّ قال تعالى: ﴿وإذا غَشِيَهُم مَوْجٌ﴾ يعني إذا غشي أصحاب السفن الراكبي البحر موج، وهو هيجان البحر ﴿كالظُلَلِ﴾ أي الماء في ارتفاعه وتغطيته ما تحته كالظلل، قال النابغة الجعدي يصف البحر:

يماشيهنَّ اخضر ذُو ظلالٍ على حافّاته فِلَقُ الدِنانِ[١]

شبّه الموج لأنّه يجيء منه شيء بعد شيء بالسحاب الّذي يركب بعضه فوق بعض، ويكون أسود بما فيه من الماء.

﴿دَعوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِينَ﴾ أي طاعة العبادة. فالإخلاص إفراد المعنى من كلّ شائب كان من غيره، أي يخلصون الدعاء في هذه الحال لله تعالى دون الأصنام وجميع ما يعبدونه من دون الله ﴿فَلَمّا نَجّاهُمْ﴾ أي خلّصهم إلى البرّ وسلّمهم من هول البحر ﴿فَمِنْهُم مُقْتَصِد﴾ قال قتادة: يعني منهم مقتصد في قوله مضمر لكفره. وقال الحسن: المقتصد المؤمن. وقيل: مقتصد على طريقة مستقيمة.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بآياتِنا إلّا كُلُّ خَتّارٍ كَفُورٍ﴾ فالختّار الغدّار بعهده أقبح الغدر، وهو صاحب ختل وختر أي غدر، قال عمرو بن معدي كرب:

فإنَّكَ لو رأيتَ أبا عُمَير ملأتَ يَديكَ مِن غَدرٍ وخترِ[٢]

وقال الحسن ومجاهد وقتادة والضحّاك وابن زيد: الختّار الغدّار.

ثمّ خاطب تعالى جميع المكلّفين من الناس فقال: ﴿يَا أيُّها النَاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أمرهم باجتناب معاصيه خوفاً من عقابه ﴿وَاخْشَوْا يوماً لا يجزي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ...﴾ يعني يوم القيامة الّذي لا يغني فيه أحد عن أحد، ولا والد عن ولده ولا ولد عن والده، يقال: جزيت عنك أجزي، إذا أغنيت عنك، وفيه لغة أُخرى: أجزأ يجزئ من أجزأت بالهمزة.

ثمّ قال ﴿إنَّ وَعْدَ الله حَقّ﴾ أي الّذي وعدته من الثواب والعقاب حقّ لا خلف فيه ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُنيا ولا يغرّنّكُم باللهِ الغَرُورُ﴾ قال مجاهد وقتادة والضحّاك: الغرور الشيطان. وقال سعيد بن جبير: هو يمنيك المغفرة في

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٢٩.

(٢) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٢٢٤.

عمل المعصية. قال أبوعبيدة: الغرور كلّ شيء غرّك حتّى تعصي الله، وتترك ما أمرك به الله، شيطاناً كان أو غيره، فهو غرور[١]. وهو أحسن، لأنّه أعمّ.

ثمّ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَاعَةِ﴾ يعني وقت قيام القيامة يعلمه تعالى لا يعلمه سواه ﴿وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ﴾ أي وهو الّذي يعلم وقت نزول الغيث بعينه، وهو الّذي ﴿يَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ من ذكر أو أُنثى.

﴿وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَداً وما تَدْرِي نَفْس بأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ يقال: بأيّ أرض وبأيّة أرض. من قال: بأيّ، فلأنّ تأنيث الأرض بالصيغة لا باللفظ. ومن قال: بأيّة أرض فلأنّ الأرض مؤنّثة. والمعنى أنّه لا يعلم موت الإنسان في أيّ موضع من البلاد يكون سواه. وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ هذه الخمسة أشياء ممّا لا يعلمها غيره تعالى على التفصيل والتحقيق[٢] ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ بتفصيل ذلك ﴿خَبِيرٌ﴾ به لا يخفى عليه شيء من ذلك.

وسأل البلخي نفسه فقال: إذا قلتم: إنّ من اعتقد الشيء على ما هو به تقليداً أو تخميناً أو تنجيماً يكون عالماً، فلو أنّ إنساناً اعتقد أنّ امرأة تلد ذكراً أو رجلاً يموت في بلد بعينه أو يكسب في الغد كذا، فوافق ذلك اعتقاده فيجب أن يكون عالماً، ويبطل الاختصاص في الآية؟!

وأجاب: أنّ ذلك وإن كان جائزاً، فإنّه لا يقع لظاهر الآية. وهذا غير صحيح، لأنّ من المعلوم ضرورة أنّ الإنسان يخبر شيئاً فيعتقده، فيكون على ما اعتقده من هذه الأشياء الخمسة، وإنّما لا يكون علماً لأنّه لا تسكن نفسه إلى ذلك، فأمّا المنع من وقوعه فمعلوم خلافه.

---

(١) مجاز القرآن ٢: ١٢٩.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٢٤، ٥٨. المعجم الكبير للطبراني ١٢: ١٣٢٤٦.

# سورة السجدة

مكّية في قول قتادة ومجاهد وغيرهما، وقال الكلبي ومقاتل: ثلاث آيات منها مدنيّة، قوله ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤمِناً﴾ إلى تمام ثلاثِ آياتٍ. وهي ثلاثون آيةً كوفي وحجازي وشامي. وتسع وعشرون آيةً بصري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله سبحانه:

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَالَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾.

خمس آياتٍ كوفي وأربع فيما عداه، عدّوا ﴿الٓمٓ﴾ آية ولم يعدّها الباقون. روي عن النبيّ ﷺ أنّه كان يقرأ في كلّ ليلة سورة السجدة ﴿ألم تنزيل﴾ و ﴿تبارك الّذي بيده الملك﴾[1].

و﴿تنزيل﴾ رفع على أنّه خبر ابتداء محذوف، وتقديره: ألم هو تنزيل.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣: ٣٤٠.

ويجوز أن يكون ﴿تنزيل﴾ رفعاً بالابتداء، وخبره ﴿لا ريب فيه﴾ ذكره الزجّاج[١]. وقد تكرّر القول بأن أوائل أمثال هذه السور أقوى الأقوال فيها أنّها أسماء للسورة، ورجّحناه على غيره من الأقوال[٢]. والتلفّظ بحروف الهجاء ينبغي أن يكون على الوقف، لأنّها مبنيّة على السكون من حيث كانت حكاية للأصوات.

وقوله: ﴿تنزيل الكتاب﴾ أي هذه الآيات هي تنزيل الكتاب الّذي وعدتم به ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شكّ فيه أنّه وحي من الله، والمعنى أنّه لا ريب فيه عند المهتدين وإن كان ارتاب به خلق من المبطلين، وهو مثل قول القائل: لا ريب في هذا أنّه ذهب أي عند من رآه واعتبره. وقيل: معنى ﴿لا ريب فيه﴾ خبر والمراد به النهي، والمعنى لا ترتابوا به. و«الريب» الشكّ. وقيل: هو أقبح الشكّ.

ووجوه الحكم في الكتاب البيان عن كلّ ما تدعو الحكمة إلى تميّز الحقّ فيه من الباطل بالبرهان عليه ممّا يحتاج إليه في الدين الّذي يرضى به ربّ العالمين، وهو على وجهين: حجّة، وموعظة، واعتماد الحجّة على تبيّن ما يؤدّي إلى العلم بصحّة الأمر، واعتماد الموعظة على الترغيب والترهيب، وفي الموعظة من جهة التحذير بمتضمّنه أي يقرّب ما في السورة المسمّى به من الحكم، وفيه حجّة على العبد من جهة أنّه قد دلّ به على ما يجب أنه يعتقد تعظيمه ويعمل به.

وقوله: ﴿من ربّ العالمين﴾ أي هو تنزيل من عند الله الّذي خلق

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٠٣.

(٢) تقدّم في ج ١ ص ٣٥٨ في تفسير الآية الأُولى من سورة البقرة، وتكرّر أيضاً في تفسير الآية الأُولى من سورة العنكبوت، فراجع.

الخلائق. وقوله: ﴿أم يقولون افتراه﴾ فهذه «أم» منقطعة، ومعناها «بل» وتقديره: بل يقولون افتراه، ففيها معنى «بل» والألف إذا كانت معادلة فمعناها «أو» مع الاستفهام، و «افتراه» معناه افتعله، بل قال تعالى ليس الأمر على ما قالوه ﴿بل هو الحقّ﴾ من عند الله.

و«الحقّ» هو كلّ شيء كان معتقده على ما هو به ممّا يدعو العقل إليه واستحقاق المدح عليه، وتعظيمه بالكتاب حقّ، لأنّ من اعتقد أنّه من عندالله كان معتقده على ما هو به. و«الباطل» نقيض الحقّ، وهو ما كان معتقده لا على ما هو به.

وقوله: ﴿بل هو الحقّ من ربّك﴾ فيه دلالة على بطلان مذهب المجبّرة، لأنّ الله تعالى أنزله ليهتدي به الخلق لا ليضلّوا به عن الدين، والمجبّرة تزعم أنّه أراد ضلال الكفّار عن الدين فيجب كونه منزلاً ليضلّ الكفّار عن الدين.

وقوله: ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ لا ينافي قوله: ﴿وإن من أمّةٍ إلّا خلا فيها نذيرٌ﴾ [١] لأنّ الحسن قال: المعنى وإن من أُمّة أهلكت بالعذاب إلّا من بعد أن جاءهم نذير ينذرهم بما حلّ بهم. وهذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله يقول الله تعالى له: ﴿لتنذر﴾ أي لتخوّف يا محمّد ﴿قوماً﴾ لم يأتهم مخوّف قبلك، يعني أهل الفترة من العرب، فكانوا كأنّهم في غفلة عمّا لزمهم من حقّ نعم الله وما خلقهم له من العبادة. وقد كان إسماعيل عليه السلام نذيراً لمن أُرسل إليه.

ثمّ قال: ﴿الله الّذي خلق السماوات والأرض﴾ أي اخترعهما وأنشأهما وخلق ﴿ما بينهما في ستّة أيّام﴾ أي في ما قدّره ستّة أيّام، لأنّه قبل خلق الشمس لم يكن ليل ولا نهار. وقوله: ﴿ثمّ استوى على العرش﴾ أي استوى

---

(١) فاطر: ٢٤.

عليه بالقهر والاستعلاء، وقد فسّرناه في ما مضى[١].

ودخلت ﴿ثمّ﴾ على ﴿استوى على العرش﴾ وإن كان مستعلياً على الأشياء قبلها كما دخلت حتّى في قوله: ﴿ولنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾[٢] وتقديره: ثمّ صحّ معنى ﴿استوى على العرش﴾ بإحداثه، وكذلك حتّى يصحّ معنى ﴿نعلم المجاهدين﴾ أي معنى وصفهم بهذا وذلك لا يكون إلّا بعد وجود الجهاد من جهتهم.

وقوله: ﴿مالكم من دونه من وليّ ولا شفيع﴾ نفي منه تعالى أن يكون للخلق ناصر ينصرهم من دون الله أو شفيع يشفع لهم، كما كانوا يقولون: نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زلفى.

ثمّ قال: ﴿أفلا تتذكّرون﴾ في ما قلناه وتعتبرون به، فتعلموا صحّة ما بيّنّاه لكم.

وقوله: ﴿يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض﴾ معناه أنّ الّذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في هذه المدّة يدبّر الأُمور كلّها ويقدّرها على حسب إرادته في ما بين السماء والأرض، وينزّله مع الملك إلى الأرض.

﴿ثمّ يعرج إليه﴾ يعني الملك يصعد إلى المكان الّذي أمره الله تعالى أن يعرج إليه، كما قال إبراهيم: ﴿إنّي ذاهب إلى ربّي﴾[٣] أي أرض الشام الّتي أمرني ربّي ولم يكن الله بأرض الشام. ومثله قوله تعالى: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله﴾[٤] يريد إلى المدينة ولم يكن الله في المدينة.

وقوله: ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون﴾ قال ابن عبّاس

---

(١) تقدّم في تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف، فراجع.
(٢) محمّد: ٣١.
(٣) الصافّات: ٩٩.
(٤) النساء: ١٠٠.

والضحاك: معناه يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة ممّا يعدّه البشر. وقيل: معناه خمسمائة عام نزول وخمسمائة عام صعود، فذلك ألف سنة. وقال قوم: يجوز أن يكون يوم القيامة يوماً له أوّل وليس له آخر. وقته أوقاتاً يسمّى بعضها الف سنة وبعضها خمسين ألف سنة. وقيل: إنّ معنى ﴿وإنّ يوماً عند ربّك كألف سنة﴾[1] أنّه فعل في يوم واحد من الأيّام الستّة الّتي خلق فيها السماوات والأرض ما لو كان يجوز أن يفعله غيره لما فعله إلّا في ألف سنة. وقيل: إنّ معناه أنّ كلّ يوم من الأيّام الستّة الّتي خلق فيها السماوات كألف سنة من أيّام الدنيا.

قوله تعالى:

ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾.

خمس آياتٍ عراقي لم يعدّوا ﴿جديد﴾ آية، وستّ في ما عداه، لأنّهم عدّوا ﴿جديد﴾ آية.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿أحسن كلّ شيء خلقه﴾ بإسكان اللام، الباقون بفتحها.

من سكّن اللام فعلى تقدير: الّذي أحسن خلق كلّ شيء أي جعلهم يحسنونه، والمعنى أنّه ألهمهم جميع ما يحتاجون إليه. قال الزجّاج: ويجوز أن يكون على البدل، والمعنى: أحسن كلّ شيء. ويجوز أن يكون

(١) الحجّ: ٤٧.

على المصدر وتقديره: الّذي خلق كلّ شيء خلقه[١].

ومن فتح اللام جعله فعلاً ماضياً، ومعناه أحسن الله كلّ شيء خلقه على إرادته ومشيئته، وأحسن الإنسان وخلقه في أحسن صورة. وقيل: معناه أنّ وجه الحكمة قائم في جميع أفعاله، ووجوه القبح منتفية منها، ووجه الدلالة قائم فيها على صانعها وكونه عالماً. والضمير في قوله: ﴿خلقه﴾ [كناية] عن اسم الله.

لمّا أخبر الله تعالى أنّه الّذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام واستولى على العرش، وأنّه الّذي يدبّر الأُمور ما بين السماوات والأرض بيّن ـ هاهنا ـ أنّ الّذي يفعل ذلك ويقدر عليه هو ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي يعلم السرّ والعلانية ﴿العزيز﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿الرحيم﴾ بعباده، المنعم عليهم. و «الغيب» خفاء الشيء عن الإدراك. و«الشهادة» ظهوره للإدراك فكأنّه قال: يعلم ما يصحّ أن يشاهد وما لا يصحّ أن يشاهد، فيدخل في ذلك المعدوم والحياة والموت والقدرة وجميع ما لا يصحّ عليه الرؤية. و«العزيز» هو القادر على منع غيره ولا يقدر الغير على منعه، وأصله المنع من قولهم: من عزّ بزّ، من غلب سلب، لأنّ من غلب أسيره فمنعه أخذ سلبه.

ثمّ قال: ﴿الّذي أحسن كلّ شيء خلقه﴾ ومعنى ذلك في جميع ما خلقه الله تعالى وأوجده فيه وجه من وجوه الحكمة، وليس فيه وجه من وجوه القبح. وذلك يدلّ على أنّ الكفر والضلال وسائر القبائح ليست من خلقه. ولفظة «كلّ» وإن كانت شاملة للأشياء كلّها فالمراد به الخصوص ـ هاهنا ـ لأنّه أراد ما خلقه الله تعالى من مقدوراته دون مقدور غيره، ونصب قوله:

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٠٤.

﴿خلقه﴾ بالبدل من قوله: ﴿كلّ شيء﴾ كما قال الشاعر:

وظعني إليك الليلَ حِضْنَيْه إنّني    لِتلك إذا هاب الهداي فَعُولُ[١]

وتقديره وظعني حضني الليل إليك. وقال الآخر:

كــأنّ هــنداً ثـناياها وبـهجتها    يوم التقينا على أدْحال دَبّابِ[٢]

والمعنى كأنّ ثنايا هند وبهجة هند.

وقوله: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ أي ابتدأ خلق الإنسان من طين، يريد أنّه خلق آدم الّذي هو أوّل الخلق من طين، لأنّ الله تعالى خلق آدم من تراب فقلبه طيناً ثمّ قلب الطين حيواناً، وكذلك قال: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون﴾[٣] وقال ـ هاهنا ـ ﴿وبدأ خلق الإنسان من طينٍ﴾ وكلّ ذلك لما في التصريفين دليل. وقوله: ﴿ثمّ جعل نسله من سلالة﴾ يعني نسل الإنسان الّذي هو آدم وولده من سلالة، وهي الصفوة الّتي تنسل من غيرها خارجة، قال الشاعر:

فجاءَتْ بهِ عَضْبَ الأديم غَضَنفراً    سُلالةَ فَرجٍ كانَ غَيرَ حَصينِ[٤]

﴿من ماء مهين﴾ قال قتادة: المهين الضعيف. وهو «فعيل» من المهنة.

وقوله: ﴿ثمّ سوّاه﴾ أي عدله ورتّب جوارحه ﴿ونفخ فيه﴾ يعني في ذلك المخلوق ﴿من روحه﴾ فأضافه إلى نفسه إضافة اختصاص وإضافة ملك على وجه التشريف.

ثمّ قال: ﴿وجعل لكم﴾ معاشر الخلق ﴿السمع﴾ لتسمعوا به الأصوات

---

(١) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٣٠، ونسبه إلى حُميد بن ثور الهلالي، وفيه: «وطعني» بدل «وظعني» و«الهِدان» بدل «الهداي».

(٢) قائله الراعي النميري، راجع شعر الراعي النميري: ١٨٩.

(٣) آل عمران: ٥٩.

(٤) قائله حسّان بن ثابت، راجع ديوانه ١: ٥١٩.

﴿والأبصار﴾ لتبصروا بها المرئيّات ﴿والأفئدة﴾ أي وخلق لكم القلوب لتعقلوا بها ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي تشكرون نعم الله قليلاً من كثير، و «ما» زائدة، ويجوز أن تكون مصدريّة، والتقدير: قليلاً تشكركم، لأنّ نعم الله لا تحصى.

ثمّ حكى عن الكفّار فقال: ﴿وقالوا أ إذا ضللنا في الأرض﴾ وفيه لغتان فتح اللام وكسرها، وكلّ شيء غلب عليه غيره حتّى يغيب فيه فقد ضلّ فيه، قال الأخطل:

كُنتَ القَذى في مَوْج أكدر مُزْبدٍ قَذَفَ الأتيُّ به فضَلَّ ضَلالا[1]

وقال مجاهد وقتادة: معنى ﴿ضللنا﴾ هلكنا. وقال أبو عبيدة: همدنا فلم يوجد لهم دم ولا لحم[2].

﴿أءِنّا لَفي خَلْقٍ جديدٍ﴾ حكاية عن تعجّبهم وقولهم: كيف نخلق خلقاً جديداً، وقد هلكنا وتمزّقت أجسامنا.

ثمّ قال: ﴿بل﴾ هؤلاء الكفّار ﴿بلِقاءِرَبِّهِم﴾ بالعذاب والعقاب ﴿كافرون﴾ أي جاحدون، فلذلك قالوا: ﴿أإذا ضللنا في الأرض أءِنّا لفي خلق جديد﴾ جعل ﴿إذا﴾ منصوبة بـ«ضللنا» وتكون في معنى الشرط، ولا توصل ولا تصل إلّا بذكر الفاء بعدها، لأنّ «إذا» قد وليها الفعل الماضي، ولا يجوز أن تنصب «إذا» بما بعدها، إذ لا خلاف بين النحويّين فيه.

وقرأ الحسن ﴿صللنا﴾ بالصاد غير منقوطة. ومعناه أحد شيئين: أحدهما: أنتنّا وتغيّرنا وتغيّرت صورنا، يقال: صل اللحم، وأصل: إذا أنتن. والثاني: صللنا صرنا من جنس الصلة وهي الأرض اليابسة.

---

(١) ديوان الأخطل: ٢٥٢. (٢) مجاز القرآن ٢: ١٣١، وفيه: فلم يوجد لنا لحم ولاعظم.

قوله تعالى:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

أمر الله نبيّهﷺ أن يخاطب المكلّفين بأن يقول لهـم: ﴿يتوفّاكم ملك الموت﴾ أي يقبض أرواحكم، قال قتادة: يتوفّاكم ومعه أعوان من الملائكة. و«التوفّي» أخذ الشيء على تمام، قال الراجز:

إنّ بني الأدرم ليسوا مـن أحـد ولا توفّاهم قريش في العدد[(١)]

ومنه قوله: ﴿الله يتوفّى الأنفس حين موتها﴾[(٢)] ويقال: استوفى الدين، إذا قبضه على كماله. فملك الموت يتوفّى الإنسان بأخذ روحه على تـمام، فيعرج بها إلى حيث أمره الله تعالى.

وقوله: ﴿يتوفّاكم﴾ يقتضي أنّ روح الإنسان هي الإنسان، فـالإضافة فيها وقعت كما وقعت في نفس الإنسان. و«الملك» مشتقّ مـن الألوكـة وهي الرسالة، كما قال الهذلي:

أَلِكْني إليـها وخـيرُ الرسـو لِ أعلمهم بنواحي الخَبَر[(٣)]

---

(١) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٣٢، ونسبه إلى منظور الزبيري، وفيه: «ليسوا إلى قيس وليسوا من أسد» بدل «ولا توفّاهم قريش في العدد».

(٢) الزمر: ٤٢.

(٣) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ١٨٠، ولم ينسبه لأحد.

وقوله: ﴿الّذي وُكِّل بكم﴾ صفة للملك الّذي يتوفّى الأنفس، وأنّ الله قد وكّله بمعنى فوّض إليه قبض الأرواح. و«التوكيل» تفويض الأمر إلى غيره للقيام به، وكّله توكيلاً، وتوكّل عليه توكّلاً، ووكله يكله وكالة.

وقوله: ﴿ثمّ إلى ربّكم ترجعون﴾ معناه أنّكم إلى جزاء الله من الثواب والعقاب تردّون. وإنّما جعل الرجوع إلى الجزاء رجوعاً إليه تفخيماً للأمر. وقيل: معناه تردّون إلى أن لا يملك لكم أحد ضرّاً ولا نفعاً إلّا الله تعالى. وفيه تعظيم لهذه الحال واقتضى الوعيد.

ثمّ قال لنبيّه صلّى الله عليه وآله: ﴿ولو ترى﴾ يا محمّد ﴿إذ المجرمون﴾ فجواب «لو» محذوف وتقديره: ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم إذا بعثوا من الندم على تفريطهم في الإيمان لرأيتم ما تعتبرون به. والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله والمراد به الأُمّة.

﴿ناكسوا رءُوسهم﴾ من الغمّ. وقيل: من الحياء والخزي ممّا ارتكبوه من المعاصي ﴿عند ربّهم﴾ يعني يوم القيامة الّذي يتولّى الله تعالى حساب خلقه. وفي الكلام حذف، لأنّ تقديره قائلين: ﴿ربّنا أبصرنا وسمعنا﴾ ومعناه أبصرنا الرشد وسمعنا الحقّ. وقيل: معناه أبصرنا صدق وعدك وسمعنا تصديق رسلك. وقيل معناه: إنّا كنّا بمنزلة العمي فقد أبصرنا، وبمنزلة الصمّ فسمعنا.

﴿فارجعنا﴾ أي ردّنا إلى دار التكليف ﴿نعمل صالحاً﴾ من الطاعات غير الّذي كنّا نعمل من المعاصي ﴿إنّا موقنون﴾ اليوم لا نرتاب بشيء من الحقّ والرسالة.

ثمّ قال تعالى مخبراً عن نفسه: ﴿ولو شئنا لأتينا كلّ نفس هداها﴾ ومعناه الإخبار عن قدرته أنّه يقدر على إلجائهم إلى الإيمان بأن يفعل أمراً من

الأُمور يلجئهم إلى الإقرار بتوحيد الله، لكن ذلك يبطل الغرض بالتكليف، لأنّ المقصود استحقاق الثواب، والإلجاء لا يثبت معه استحقاق الثواب.

وقال الجبّائي: يجوز أن يكون المراد ولو شئنا لأجبناهم إلى ما سألوا ولرددتهم إلى دار التكليف ليعملوا بالطاعات ﴿ولكن حقّ القول منّي﴾ أن أُجازيهم بالعقاب ولا أردّهم. وقيل: ولو شئنا لهديناهم إلى الجنّة.

﴿ولكن حقّ القول منّي﴾ أي أخبرت وأوعدت أنّي ﴿لأملأنّ جهنّم من الجنّة والناس أجمعين﴾ بكفرهم بالله وجحدهم وحدانيّته وكفرانهم نعمه.

ثمّ حكى تعالى ما يقال لمن تقدّم ذكره الّذين طلبوا الرجوع إلى دار التكليف، فإنّه يقال لهم يوم القيامة إذا حصلوا في العذاب: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي إنّما فعلتم فعل من نسي لقاء جزاء هذا اليوم فتركتم ما أمركم الله به وعصيتموه ﴿إنّا نسيناكم﴾ أي فعلنا معكم جزاءً على ذلك فعل من نسيكم يعني من ثوابه، وتركّكم من نعيمه. و«النسيان» الترك، ومنه قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إلى آدَمَ مِن قَبْل فَنَسِيَ﴾ (١) وقال النابغة:

سفّود شَرْبٍ نسوه عِندَ مُفتأدِ(٢)

أي تركوه فلم يستعملوه. قال المبرّد: لأنّه لو كان المراد النسيان الّذي هو ضدّ الذكر لجاز أن يكونوا استعملوه ﴿وذوقوا عذاب الخلد﴾ الّذي لا فناء له جزاءً ﴿بماكنتم تعملون﴾ من المعاصي.

ثمّ أخبر تعالى عن حال المؤمنين ووصفهم بأنّ المؤمن على الحقيقة الكامل الإيمان بآيات الله وحججه هم ﴿الذين إذا ذكّروا﴾ بحجج الله وتليت عليهم آياته خرّوا سجّداً، شكراً على ما هداهم لمعرفته وأنعم

(١) طه: ١١٥.

(٢) ديوان النابغة الذبياني: ٢٣، وهو عجز لبيت شطره: كأنّه خارجاً من جنب صفحته.

عليهم من فنون نعمه، ونزّهوا الله تعالى عمّا لا يليق به من الصفات وعن الشرك به حامدين لربّهم غير مستكبرين ولا مستنكفين من الطاعة.

قوله تعالى:

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ﴿أخفي﴾ بإسكان الياء حمزة ويعقوب، الباقون بفتح الياء. من سكّن الياء جعله فعلاً مستقبلاً وحجّته قراءة عبد الله ﴿ما تخفي لهم﴾ ومن فتح جعله فعلاً ماضياً على ما لم يسمّ فاعله، فعلى قراءة حمزة «ما» نصب مفعول به، وعلى ما في القرآن أنّ موضع «ما» رفع بما لم يسمّ فاعله والله فاعله. و ﴿قرّة أعين﴾ شيء أعدّه الله لعباده لم يطلعهم عليه في دنياهم، كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «هو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1].

وصف الله تعالى المؤمنين الّذين ذكرهم في الآية الأُولى في هذه الآية بأن قال: وهم الّذين لا يستنكفون عن عبادته ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ أي يرتفعون عن مواضعهم الّتي ينامون عليها، فالتجافي تعاطي الارتفاع عن الشيء، ومثله النبو يقال جفاعنه يجفو جفاء: إذا نبا عنه. وتجافى عنه يتجافى تجافياً، واستجفاه استجفاءً. و«المضجع» موضع

(١) سنن ابن ماجة ٢: ١٤٤٧ ح ٤٣٢٨.

الإضجاع، و«الاضطجاع» هو إلقاء النفس ﴿يدعون ربّهم﴾ أي داعين ربّهم الّذي خلقهم وأوجدهم ﴿خوفاً﴾ من عذابه يسألونه المغفرة ﴿وطمعاً﴾ في ثوابه. وانتصب «خوفاً وطمعاً» على أنّه مفعول له أي للخوف وللطمع.

﴿وممّا رزقناهم ينفقون﴾ في طاعة الله وسبيل ثوابه، ووجه المدح بذلك أنّ هؤلاء المؤمنين يقطعهم اشتغالهم بالدعاء لله عن طيب المضطجع لما يأملون به من الخير والبركة من الله تعالى، لأنّ آمالهم مصروفة إليه، واتّكالهم في أُمورهم عليه ، وقال الشاعر في التجافي:

وصاحبي ذات هباب دَمْشَقُ ... وابن ملاطٍ متجافٍ أدفقُ(١)

أي متنحّ عن كركرتها. وقال أنس وقتادة: إنّه مدح قوماً كانوا يتنفّلون بين المغرب والعشاء. وقال الضحّاك: إنّهم كانوا يذكرون الله بالدعاء والتعظيم. وقال قتادة: ﴿خوفاً﴾ من عذاب الله ﴿وطمعاً﴾ في رحمة الله ﴿وممّا رزقناهم ينفقون﴾ في طاعة الله. وقال أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام: الآية متناولة لمن يقوم إلى صلاة الليل عن لذيذ مضجعه وقت السحر(٢) وبه قال معاذ والحسن ومجاهد. وقال عبد الله بن رواحة في صفة النبيّ صلى الله عليه وآله:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه

إذا استثقلتْ بالمشركين المضاجعُ(٣)

ثمّ قال تعالى: * ﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين﴾ تحتمل «ما» في قوله: ﴿ما أُخفي﴾ أن تكون بمعنى الّذي ويكون موضعها النصب، ويحتمل أن تكون بمعنى «أن» ويكون موضعها الرفع، وتكون الجملة في

---

(١) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٢٣٨، وفيه: «أرفق» بدل «أدفق»، ونسبه إلى الراجز.

(٢) محاسن البرقي: ٢٨٩ ح ٤٣٤ و٤٣٥.

(٣) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٢٤٠.

موضع نصب. والمعنى ليس يعلم أحد كنه ما أعدّ الله لهؤلاء المؤمنين الّذين تقدّم وصفهم من أنواع اللذّات والأشياء الّتي تقرّ عينهم بها على كنه معرفتها. وقولهم: قرّت عيناه أي فرّحها الله، لأنّ المستبشر الضاحك يخرج من عينه ماء بارد من شؤونه. والباكي جزعاً يخرج من عينيه ماء سخن من الكبد، ومنه قولهم: سخِنت عينه بكسر الخاء.

﴿جَزاءً بما كانُوا يعملون﴾ من الطاعات في دار التكليف، وإنّما نفى علمهم مع أنّ المؤمن يعلم أنّه مستحقّ للثواب، لأنّ العلم بالشيء يكون من وجهين:

أحدهما: أن يعلم الشيء على طريق الجملة، وهو الّذي يحصل للمؤمن في دار التكليف.

والآخر: أن يحصل على طريق التفصيل، وذلك موقوف على مشاهدتهم للثواب الّذي يرونه عند زوال التكليف وحضور الثواب.

ثمّ قال تعالى: ﴿أَفَمنْ كَانَ مؤمناً﴾ مصدّقاً بالله عارفاً به وبأنبيائه عاملاً بما أوجبه الله عليه وندبه إليه ﴿كمن كان فاسقاً﴾ خارجاً عن طاعة الله بارتكاب معاصيه على وجه الإنكار لذلك، فلذلك جاء به على لفظ الاستفهام. ثمّ أخبر تعالى بأنّهم ﴿لا يستوون﴾ قطّ، لأنّ منزلة المؤمن الثواب وأنواع اللذّات، ومنزلة الفاسق العذاب وفنون العقاب.

ثمّ فسّر ذلك بما قال بعده فقال: ﴿أمّا الّذين آمنوا﴾ بالله وصدّقوه وصدّقوا أنبياءه ﴿وعملوا الصالحات﴾ وهي الطاعات مع ذلك ﴿فلهم جنّات المأوى﴾ فالمأوى المقام أي لهم هذه البساتين الّتي وعدهم الله بها يأوون إليها ﴿نزلاً بما كانوا يعملون﴾ أي في مواضع لهم ينزلون فيها مكافأةً لهم على طاعاتهم الّتي عملوها. وقال الحسن: ﴿نزلاً﴾ أي عطاءً نزلوه.

﴿وأمّا الّذين فسقوا﴾ بخروجهم عن طاعة الله إلى معاصيه ﴿فمأواهم النار﴾ يأوون إليها نعوذ بالله منها ﴿كلّما أرادوا أن يخرجوا منها﴾ أي كلّما كادوا وهمّوا بالخروج منها لما يلحقهم من العذاب ﴿أُعيدوا فيها﴾ أي ردّوا فيها. وقال الحسن: كلّما كادوا الخروج منها لأنّها ترميهم بلهبها ضربوا بمقامع حتّى يعودوا فيها. وقيل لهم مع ذلك على وجه التقريع والتبكيت: ﴿ذوقوا عذاب النار الّذي كنتم به تكذّبُون﴾ أي العذاب الّذي كنتم به تجحدون في دار الدنيا ولا تصدّقون به.

وقال ابن أبي ليلى: نزلت الآية في رجل من قريش وعليّ عليه السلام. وقال غيره: إنّ هذه الآيات نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام والوليد بن عقبة بن أبي معيط، فالمؤمن المراد به عليّ عليه السلام والفاسق هو الوليد بن عقبة، روي أنّه لقيه يوماً فقال لعليّ: أنا أبسط منك لساناً وأحدّ منك سناناً، فقال عليّ عليه السلام: ليس كما قلت يا فاسق، فنزل قوله: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً﴾ [1] فقال قتادة: والله ما استووا، لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا عند الموت.

قوله تعالى:

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي ورويس ﴿لما صبروا﴾ بكسر اللام والتخفيف أي لصبرهم، الباقون بالتشديد وفتح اللام بمعنى حين صبروا.

---

(١) تفسير القمّي ٢: ١٧٠.

أقسم الله تعالى في هذه الآية ـ لأنّ اللام في قوله: ﴿ولنذيقنّهم﴾ هي الّتي يتلقّى بها القسم، وكذلك النون الثقيلة ـ بأنّه يذيق هؤلاء الفسّاق الّذين تقدّم وصفهم العذاب الأدنى بعض ما يستحقّونه. وقيل: العذاب الأدنى هو العذاب الأصغر وهو عذاب الدنيا بالقتل والسبي والقحط والفقر والمرض والسقم وما جرى هذا المجرى. وقيل: هو الحدود. وقيل: عذاب القبر. وعن جعفر بن محمّدعليهما السلام: أنّ العذاب الأدنى هو القحط، والأكبر خروج المهديّ بالسيف[1].

والعذاب الأكبر عند المفسّرين هو عذاب الآخرة بالنار الّتي يستفزع الإنسان بالآلام. وفي الأدنى معنى الأقرب، وقد يكون الأدنى من الأشياء في الحسن، وهو أن يفعل على أنّه ليس فيه ظلم لأحد إذا فعل للشهوة، والأدنى في القبح ما يفعل وفيه ظلم يسير إتباعاً للشهوة، والأعلى في الحسن هو ما ليس فوقه ما هو أعلى منه يستحقّ به العبادة. والأدنى في العذاب أكبر من الأدنى في الآلام، لأنّ العذاب استمرار الألم، وليس فوق عذاب الكفر عذاب، لأنّ عذاب الفسق دونه.

وقال ابن عبّاس وأُبي بن كعب والحسن: العذاب الأدنى مصائب الدنيا. وقال ابن مسعود: هو القتل يوم بدر. والعذاب الأكبر عذاب الآخرة، وهو قول الحسن ومجاهد وابن زيد وابن مسعود.

وقوله: ﴿لعلّهم يرجعون﴾ إخبار منه تعالى أنّه يفعل بهم ما ذكره من العذاب الأدنى، ليرجعوا عن معاصي الله إلى طاعته ويتوبوا منها. وهو قول عبد الله وأبي العالية وقتادة.

ثمّ قال الله تعالى على وجه التقريع لهم والتبكيت: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لنفسه

---

(١) رواه الماوردي في النكت والعيون ٤: ٣٦٥.

بارتكاب المعاصي وإدخالها في استحقاق العقاب ﴿ممّن ذُكر بآيات ربّه﴾ أي ينبّه على حججه تعالى الّتي توصله إلى معرفته ومعرفة ثوابه ﴿ثمّ أعرض عنها﴾ جانباً ولا ينظر فيها. ثمّ قال: ﴿إنّا من المجرمين﴾ الّذين يفعلون المعاصي بقطع الطاعات وتركها ﴿منتقمون﴾ بأن نعذّبهم بعذاب النار.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ يعني التوراة ﴿فلا تكن في مريةٍ من لقائه﴾ أي في شكّ من لقائه يعني لقاء موسى ليلة الإسراء بك إلى السماء، على ما ذكره ابن عبّاس. وقيل: فلا تكن في مرية من لقاء موسى في الآخرة. وقال الزجّاج: فلا تكن يا محمّد في مرية من لقاء موسى الكتاب[1]. و«المرية» الشكّ. وقال الحسن: فلا تكن في شكّ من لقاء الأذى، كما لقي موسى كأنّه قال: فلا تكن في شكّ من أن تلقى كما لقي موسى.

﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ قال قتادة: وجعلنا موسى هادياً لبني إسرائيل، وضع المصدر في موضع الحال. وقال الحسن: معناه جعلنا الكتاب هادياً لهم.

﴿وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا﴾ قال قتادة: معناه جعلنا منهم رؤساء في الخير يقتدى بهم، يهدون إلى فعل الخير بأمر الله ﴿لمّا صبروا﴾ قيل: فيه حكاية الجزاء، وتقديره قيل لهم: إن صبرتم جعلناكم أئمّة، فلمّا صبروا جعلوا أئمّة، ذكره الزجّاج[2].

﴿وكانوا بآياتنا﴾ أي بحججنا ﴿يوقنون﴾ أي لا يشكّون فيه. و«اليقين» وجدان النفس بالثقة على خلاف ما كانت عليه من الاضطراب والحيرة.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿إنّ ربّك﴾ يا محمّد ﴿هو﴾ الّذي ﴿يفصل بينهم يوم

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٠٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٠٩ ـ ٢١٠.

القيامة﴾ أي يحكم بينهم، يعني بين المؤمن والكافر والفاسق ﴿في ما كانوا فيه يختلفون﴾ في دار الدنيا من التصديق بالله وبرسوله والإيمان بالبعث والنشور وغير ذلك.

قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

القرّاء كلّهم على الياء في قوله: ﴿أولم يهد لهم﴾ بمعني أولم يهد إهلاكنا لهم لمن مضى من القرون. وقرئ بالنون بمعنى الإخبار عن الله تعالى أنّه الّذي بيّن لهم هلاك الماضين وأرشدهم بذلك إلى الحقّ واتّباعه، فأضافه إلى نفسه.

يقول الله تعالى منبّهاً لخلقه على وجه الاعتبار بحججه: ﴿أو لم يهد لهم﴾ ومعناه أولم يبصرهم ويرشدهم من غوايتهم، يقال: هداه يهديه في الدين هدًى، وهدي إلى الطريق هداية، واهتدى: إذا قبل الهداية. والواجب من الهدى: هو ما يؤدّي إلى ما ليس للعبد عنه غنىً في دينه، فاللطف على هذا هدًى، والنظر المؤدّي إلى معرفة الله هدًى.

[و] فاعل «يهد» مضمر فيه، وتقديره: أَوَلم يهد لهم إهلاكنا من أهلكناهم من القرون الماضية جزاءً على كفرهم بالله وارتكابهم لمعاصيه. ولا يجوز أن يكون فاعل «يهد» «كم» في قوله: ﴿كم أهلكنا﴾ لأنّ «كم» لا يعمل فيها ما قبلها إلّا حروف الإضافة، لأنّها على تقدير الاستفهام الّذي

له صدر الكلام، وأجاز الفرّاء أن يكون فاعل «يهد» «كم» ولم يجزه البصريّون.

وقوله: ﴿يمشون في مساكنهم﴾ أي أهلكناهم بغتةً وهم مشاغيل بنفوسهم ويمشون في منازلهم. ثمّ قال: ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ﴾ أي لحججاً واضحات ﴿أفلا يسمعون﴾ ومعناه أفلا يتدبّرون ما يسمعونه من هذه الآيات، لأنّ من لا يتدبّر ما يسمعه ولا يفكّر فيه فكأنّه لم يسمعه.

ثمّ نبّههم على وجه آخر فقال: ﴿أوَلم يروا﴾ ومعناه أَوَلَم يعلموا ﴿أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم﴾ فالسوق الحثّ على السير، ساقه يسوقه سوقاً فهو سائق.

قال الله تعالى: نسوق ماء المطر إلى هذه الأرض الجرز، فننبت به ضروباً من النبات الّذي يتغذّى به الإنسان والأنعام وغيرهم. و«الأرض الجرز» هي الأرض اليابسة الّتي ليس فيها نبات، انقطع ذلك لانقطاع الأمطار، وهو مشتقّ من قولهم: سيف جُراز أي قطّاع، لا يلقى شيئاً إلّا قطعه. وناقة جُراز، إذا كانت تأكل كلّ شيء لأنّها لا تبقي شيئاً إلّا قطعته بفيها. وأرض جَروز، وهي الّتي لا تبقي على ظهرها شيئاً إلّا أهلكته، كالناقة الجُراز، ورجل جروز أكول، قال الراجز:

خَبٌّ جَرُوزٌ إذا جاع بكى(١)

وفيه أربع لغات: أرض جرز بضمّ الجيم والراء، وبضمّ الجيم وإسكان الراء، وبفتح الجيم والراء، وبفتح الجيم وإسكان الراء.

وقال ابن عبّاس: ﴿نسوق الماء﴾ بالسيول، لأنّها مواضع عالية، قال:

---

(١) أنشده ابن سيده في المخصّص ١٥: ١٥٩ ولم ينسبه لأحد، وهو عجز بيت شطره: «تسألني عن بعلها أيّ فتى».

وهي: قرى بين اليمن والشام. ثمّ قال: ﴿أفلا يبصرون﴾ بأن يفكّروا في ذلك فيدلّ على أنّه لا يقدر على ذلك أحد غير الله الّذي لا شريك له.

ثمّ حكى عنهم أنّهم ﴿يقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين﴾ مستعجلين لما وعد الله تعالى من الفصل بينهم.

وقوله: ﴿إنّ ربك هو يفصل بينهم﴾ يعنون متى يجيء فتح الحكم بيننا وبينكم في الثواب والعقاب. و«الفتح» القضاء والحكم. وقيل: إنّه أراد به فتح مكّة، فعلى هذا قوله: ﴿يوم الفتح﴾ يوم فتح مكّة، ﴿لا ينفع الّذين كفروا إيمانهم﴾ لا يليق به. وقيل: لا ينفع الّذين قبلهم خلد ـ من بني كنانة ـ ايمانهم. والتأويل هو الأوّل، فقال الله تعالى لنبيّه محمّد: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد: ﴿يوم الفتح﴾ أي يوم القضاء والفصل. وقال مجاهد: يوم القيامة لا ينفع الّذين كفروا بآيات الله إيمانهم، لأنّ التكليف قد زال عنهم، ومعارفهم تحصل ضرورة. ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي ولا يؤخّرون أيضاً، فلا ينبغي أن يستعجلوا مجيئه.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿فأعرض عنهم﴾ يا محمّد، فإنّه لا ينفع فيهم الدعاء والوعظ. وقيل: كان ذلك قبل أن يؤمر بالجهاد. وقيل: أعرض عن أذاهم. ﴿وانتظر﴾ حكم الله تعالى فيهم وإهلاكه لهم فإنّهم منتظرون أيضاً الموت الّذي يؤدّيهم إلى ذلك. وقيل: إنّه سيأتيهم ذلك، فكأنّهم كانوا ينتظرونه.

# سورة الأحزاب

مدنيّة في قول مجاهد والحسن، وهي ثلاث وسبعون آيةً بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وأبو جعفر ﴿اللاء﴾ بهمزة ليس بعدها ياء، إلّا أنّ أبا عمرو ليّن الهمزة. وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة بهمزة بعدها ياء. وقرأ ﴿تظهرون﴾ بفتح التاء مشدّدة الظاء بغير ألف ابن كثير ونافع وأبوعمرو، وقرأ عاصم إلّا الكسائي عنه ﴿تظاهرون﴾ بضمّ التاء خفيفة

الظاء وألف بعدها، وقرأ ابن عامر بتشديد الظاء والألف وفتح التاء.

فمن قرأ ﴿تظاهرون﴾ بتشديد الظاء أراد تتظاهرون، فأدغم إحدى التاءين في الظاء. ومن قرأ بغير ألف مشدّداً أراد تتظهّرون، وأدغم إحدى التاءين في الظاء. وعاصم جعل الفعل بين اثنين، فقال: ﴿تظاهرون﴾ بضمّ التاء وتخفيف الظاء مع الألف.

وقرأ أبو عمرو ﴿بما يعملون خبيراً﴾ و﴿بما يعملون بصيراً﴾ بالياء فيهما، الباقون بالتاء. وجه قراءة أبي عمرو قوله: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ بأنّ الله يعلم ما يفعلونه، فيجازيهم بحسبه. ووجه التاء الخطاب لهم.

هذا خطاب من الله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وآله والمراد به جميع الأُمّة كما قال: ﴿يا أيّها النبيّ إذا طلّقتم﴾[1] فخصّه بالخطاب وأراد به جميع المكلّفين، يأمرهم الله بتقواه وتجنّب معاصيه وفعل طاعاته، فنهاهم عن طاعة الكافرين الّذين يجحدون نعم الله ويتّخذون معه إلهاً سواه، ومثل ذلك نهاه عن طاعة المنافقين ومتابعتهم لما يريدونه.

وسبب نزول الآية أنّ أبا سفيان وجماعة من الكفّار قدموا على النبيّ صلى الله عليه وآله المدينة ودعوه إلى أشياء عرضوها عليه، فأراد المسلمون قتلهم، فأنزل الله سبحانه ﴿يا أيّها النبيّ اتّق الله﴾ في نقض العهد وقتل هؤلاء الكفّار ﴿ولا تطع الكافرين﴾ في ما يدعونك إليه ولا ﴿المنافقين﴾ في قتلهم ونقض العهد. و«المنافق» هو الّذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر. و«الكافر» هو الّذي يظهر الكفر ويبطنه.

ثمّ قال: ﴿إنّ الله كان عليماً حكيماً﴾ في ما يوحيه إليك من أمرهم ويأمرك بالطاعة وترك المعصية في متابعتهم في ما يريدونه، ولمّا نهاهم

---

(١) الطلاق: ١.

عن متابعة الكفّار والمنافقين قال: ﴿واتّبع ما يوحى إليك من ربّك﴾ أمره أن يتّبع الّذي يوحي الله إليه من أمره ونهيه، فعلى موجب هذه الآية لا يجوز لأحد أن يطيع الكفّار والمنافقين وإن دعوهم إلى الحقّ، ولكن يفعل الحقّ لأنّه حقّ لا لأجل دعائهم إليه.

﴿إنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾ تهديداً لهم، لأنّ المراد أنّه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسبها، إن كان سوءاً عاقبكم وإن كان طاعة أثابكم عليها. ومن قرأ بالياء أراد الإخبار عن الكفّار، والخطاب متوجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله. ومن قرأ بالتاء خاطب الجميع.

ثمّ أمر النبيّ صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلّفين أن يتوكّلوا على الله ويفوّضوا أُمورهم إليه، فإنّ الله تعالى كافٍ في ما يوكّل إليه. و«الوكيل» القائم بالتدبير لغيره بدعاء من له ذلك إليه، فالحكمة تدعو إلى أنّ الله تعالى القائم بتدبير عباده، فهو وكيل عليهم من أوكد الوجوه.

ثمّ قال تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ قال ابن عبّاس: كان المنافقون يقولون: لمحمّد قلبان ، فأكذبهم الله. وقال مجاهد وقتادة ـ وهو في رواية عن ابن عبّاس ـ : إنّه كان رجل من قريش يدعى ذا القلبين من دهائه ـ وهو أبو معمر جميل بن أسد ـ فنزلت هذه الآية فيه. وقال الحسن: كان رجل يقول: لي نفس تأمرني ونفس تنهاني، فأنزل الله فيه هذه الآية. وقال الزهري: هو مثل في أنّ هذا ممتنع كامتناع أن يكون ابن غيرك ابنك.

وروي عن جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه يحبّ بهذا قوماً ويحبّ بهذا أعداءهم[1].

(١) تفسير القمّي ٢: ١٧١، وفيه: «عن أبي جعفر عليه السلام».

ولا يمكن أن يكون لإنسان واحد قلبان في جوفه، لأنّه كان يمكن أن يوصل إنسانان فيجعلان إنساناً واحداً، وقد يمكن أن يوصلا بما لا يخرجهما عن أن يكونا إنسانين، وليس ذلك إلّا من جهة القلب الواحد أو القلبين، لأنّه إذا جعل لهما قلبان يريد أحدهما بقلبه مالايريده الآخر ويشتهي مالايشتهي الآخر، ويعلم مالا يعلم الآخر فهما حيّان لا محالة، وليسا حيّاً واحداً.

وقال الرمّاني: لا يجوز أن توجد الإرادة والمعرفة في جزئين من القلب أو أجزاء وإنّما يصحّ أن توجد في جزء واحد، قال: لأنّ ما يوجد في جزئين بمنزلة ما يوجد في قلبين، وقد بطل أن يكون لإنسان واحد قلبان.

وهذا الّذي ذكره ليس بصحيح ، لأنّه لا يمتنع أن يوجد معنيان مختلفان في جزئين من القلب، لأنّهما وإن وجدا في جزئين فالحالان الصادران عنهما يرجعان إلى الجملة وهي جملة واحدة وليسا يوجبان الصفة للمحلّ الواحد فيتنافى.

فعلى هذا لا يجوز أن يوجد في جزئين من القلب معنيان ضدّان، لاستحالة اجتماع معناهما في الحيّ الواحد، ويجوز أن يوجد معنيان مختلفان أو مثلان في جزئين من القلب ويوجبان الصفتين للحيّ الواحد، وعلى هذا القياس ليس يمتنع أن يوجد قلبان في جوف واحد إذا كان ما يوجد فيهما يرجع إلى حيّ واحد، وإنّما المتنافي أن يرجع ما يوجد منهما إلى حيّين، وذلك محال.

وقوله: ﴿وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهنّ أُمّهاتكم﴾ أي ليس نساؤكم وأزواجكم إذا قلتم لهنّ: أنتنّ عليّ كظهر أُمّي، يصرن أُمّهاتكم على الحقيقة، لأنّ أُمّهاتكم على الحقيقة هنّ اللائي ولدنكم وأرضعنكم. وقال

قتادة: إذا قال لزوجته: أنتِ عليّ كظهر أُمّي، فهو مظاهر وعليه الكفّارة.

وعندنا أنّ الظهار لا يقع إلّا أن تكون المرأة طاهراً، ولم يقربها في ذلك الطهر بجماع، ويحضر شاهدان رجلان مسلمان، ثمّ يقول لها: أنتِ عليَّ كظهر أُمّي، ويقصد التحريم. فإذا قال ذلك حرم عليها وحرمت عليه أن يطأها حتّى يكفّر. وإن اختلّ شيء من شرائطه فلا يقع ظهار أصلاً.

وقوله: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ قال قتادة ومجاهد وابن زيد: نزلت في زيد بن حارثة، فإنّه كان يدعى ابن رسول الله. و«الأدعياء» جمع دعيّ، وهو الّذي تبنّاه الإنسان . وبيّن الله تعالى أنّ ذلك ليس بابن على الحقيقة، ولذلك قال في آية أُخرى: ﴿ما كان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم﴾ [(١)].

وقوله: ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ يعني أنّ قولكم في الدعيّ: إنّه ابن الرجل، قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له عند الله. ثمّ قال: ﴿والله يقول الحقّ﴾ في ما يبيّنه ﴿وهو يهدي السبيل﴾ يعني طريق الحقّ الّذي يفضي بكم إلى الثواب.

ثمّ أمر المكلّفين بأن يدعوا الأدعياء لآبائهم الّذين ولدوهم وينسبونهم إليهم أو إلى من ولدوا على فراشهم ﴿اقسط﴾ أي فإنّ ذلك أعدل عند الله، وأقسط بمعنى أعدل ﴿فإن لم تعلموا آباءهم﴾ ولا تعرفوهم بأعيانهم فهم إخوانكم ﴿في الدين﴾ أي في الملّة فادعوهم بذلك ﴿ومواليكم﴾ أي بنو عمّكم أو لكم ولاءهم إذا كنتم أعتقتموهم من رقّ.

ثمّ قال: ﴿وليس عليكم جناح﴾ أي حرج ﴿فيما أخطأتم به﴾ فنسبتموه إلى من انتمي إليه وأنّ الله لا يؤاخذكم به ﴿ولكن ما تعمّدت قلوبكم﴾ فقصدتموه من ذلك وأردتموه هو الّذي تؤاخذون به، وموضع «ما» جرّ،

---

(١) الأحزاب: ٤٠.

تقديره: ولكن في ما تعمّدت قلوبكم ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يغفر لكم ما لم تعمّدوا من ذلك، ويستره عليكم ويرحمكم بترك مؤاخذتكم به.

قوله تعالى:

ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ابن كثير والكسائي وحفص عن عاصم ﴿الظنونا﴾ بألف في الوقف دون الوصل، وقرأ نافع وأبو جعفر وأبو بكر عن عاصم وابن عامر بالألف فيهما، وقرأ أبوعمرو ويعقوب وحمزة بغيرألف فيهما، وفيالمصحف بألف.

من أثبت الألف أثبته لأجل الفواصل الّتي يطلب بها تشاكل المقاطع، ولأنّ الألف ثابتة في المصاحف، فاتّبعوا المصحف. ومن حذف قال: لأنّ هذا الألف يكون بدلاً من التنوين في حال الوقف، فإذا دخلت الألف واللام أسقطت التنوين، فسقط أيضاً ما هو بدل منه، ولأنّ مثل ذلك إنّما يجوز في القوافي وذلك لا يليق بالقرآن ، قال الشاعر:

أقلّي اللَوْمَ عاذلَ والعِتّابا(١)

(١) شطر بيت لجرير عجزه: «وقولي إنْ أصبتُ فقد أصابا» راجع شرح ديوان جرير: ٥٧.

أخبر الله تعالى أنّ النـبيّ صلى الله عليه وآله أولى بـالمؤمنين مـن أنـفسهم بـمعنى أحقّ بتدبيرهم وبأن يختاروا ما دعـاهم إليـه، وأحـقّ بـأن يـحكم فـيهم بما لا يحكم به الواحد في نفسه، لوجوب طاعته الّتي هي مقرونة بطاعة الله، وهو أولى في ذلك وأحقّ من نفس الإنسان، لأنّها ربّما دعته إلى اتّباع الهوى، ولأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لا يـدعو إلّا إلى طـاعة الله، وطـاعة الله أولى أن تختار على طاعة غيره.

وواحد الأنفس نفس، وهي خاصّة الحيوان الحسّاسة الدرّاكة الّتي هي أنفس ما فيه. ويحتمل أن يكون اشتقاقه من التنفّس، وهو التروّح، لأنّ من شأنها التنفّس به. ويحتمل أن يكون مأخوذاً من النفاسة، لأنّها أجلّ ما فيه وأكرمه. ثمّ قال: ﴿وأزواجه اُمّهاتهم﴾ والمعنى أنّهنّ كالاُمّهات في الحرمة وتحريم العقد عليهنّ.

ثـمّ قـال: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ أولوا الأرحام هم أولوا الأنساب، لمّا ذكر الله أنّ أزواج النبيّ اُمّهاتهم في الحكم من جهة عظم الحرمة، قال: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ أي إلّا ما بيّن الله في كتابه مـمّا لا يـجوز لأزواج النـبيّ صلى الله عليه وآله أن يدعين اُمّهات المؤمنين. وقال قتادة: كـان النـاس يـتوارثـون بـالهجرة، فلا يرث الأعرابي المسلم المهاجر حتّى نزلت الآية. وقـيل: إنّـهم كـانوا يتوارثون بالمؤاخاة الاُولى ثمّ نسخ ذلك.

فبيّن الله تعالى أنّ اُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، أي من كان قرباه أقرب فهو أحقّ بالميراث من الأبعد، وظاهر ذلك يمنع أن يرث مع البنت والاُمّ أحد من الإخوة والأخوات، لأنّ البـنت والاُمّ أقـرب مـن الإخـوة والأخوات، وكذلك يمنع أن يرث مع الاُخت أحد من العمومة والعـمّات

وأولادهم، لأنّها أقرب.

والخبر المرويّ في هذا الباب أنّ «ما أبقت الفرائض فلأُولي عصبةٍ ذكر»[١] خبر واحد مطعون على سنده، لا يترك لأجله ظاهر القرآن الّذي بيّن فيه أنّ أُولي الأرحام الأقرب منهم أولى من الابعد في كتاب الله من المؤمنين الموآخين والمهاجرين.

وقوله: ﴿إلّا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ استثناء منقطع، ومعناه لكن إن فعلتم إلى أوليائكم معروفاً من المؤمنين وحلفائكم ما يعرف حسنه وصوابه فهو حسن، ولا يكون على وجه نهى الله تعالى عنه، ولا أذن فيه. وقال مجاهد: معروفاً من الوصيّة لهم بشيء والعقل عنهم والنصرة لهم، ولا يجوز أن يكونوا القرابة المشركين على ما قال بعضهم، لقوله: ﴿لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء﴾[٢] وقد أجاز كثير من الفقهاء الوصيّة للقرابات الكفّار. وعندنا أنّ ذلك جائز للوالدين والولد.

وقوله: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ يعني أنّ ما ذكره الله كان مكتوباً في الكتاب المحفوظ أثبته الله وأطلع عليه ملائكته لما لهم في ذلك من اللطف فلا يجوز خلاف ذلك، وقيل: مسطوراً في القرآن. و«من» يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون دخلت لـ«أولى» أي بعضكم أولى ببعض من المؤمنين.

والثاني: أن يكون التقدير: وأُولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين أولى بالميراث.

وقوله: ﴿وإذ أخذنا من النبيّين﴾ تقديره: واذكر يا محمّد حين أخذ الله

---

(١) أحكام القرآن للجصّاص ٢: ١٨٤، تهذيب الأحكام ٩: ٢٦٢.

(٢) الممتحنة: ١.

من النبيّين ميثاقهم، قال ابن عبّاس: الميثاق العهد والميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى على الوفاء بما حملوا. وقوله: ﴿ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ يعني ما عهد الله تعالى إلى الأنبياء المذكورين وأمرهم به من إخلاص العبادة له، وخلع الأنداد من دونه والعمل بما أوجبه عليهم وندبهم إليه، ونهاهم عن معاصيه والإخلال بواجباته. وقال البلخي: معناه ما أمرهم الله به من أداء الرسالة والقيام بها.

وقوله: ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ قال مجاهد: معناه فعل ذلك ليسأل الأنبياء المرسلين ما الّذي أجاب به أُممكم، ويجوز أن يحمل على عمومه في كلّ صادق، ويكون فيه تهديد للكاذب، فإنّ الصادق إذا سئل عن صدقه على أيّ وجه قال فيجازى بحسبه، فكيف يكون صورة الكاذب؟!

ثمّ قال: ﴿وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً﴾ أي أعدّ لهم عذاباً مؤلماً، وهو عذاب النار نعوذ بالله منها.

ثمّ خاطب المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اذكرُوا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود﴾ أي في حال ما جاءتكم جنود يعني يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق حيث اجتمعت العرب على قتال النبيّ صلى الله عليه وآله قريش وغطفان وبنو قريظة وتضافروا على ذلك ﴿فأرسلنا عليهم﴾ أي فأرسل الله تعالى عليهم نصرة لنبيّه ونعمة على المؤمنين ﴿ريحاً﴾ استقبلتهم ورمت في أعينهم الحصباء وأُكفئت قدورهم وأُطفئت نيرانهم وقلعت بيوتهم وأطنابهم.

﴿و﴾ أرسل الله عليهم ﴿جنوداً﴾ من الملائكة نصرة للمؤمنين، روى ذلك يزيد بن رومان. ﴿لم تروها﴾ أي لم تروا الملائكة أنتم بأعينكم، لأنّها أجسام شفافة لا يصحّ إدراكها. ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ من قرأ بالياء

أراد أنّ الله عالم بما يعمله الكفّار، ومن قرأ بالتاء وجّه الخطاب إلى المؤمنين.

ثمّ قال: واذكر ﴿إذ جاءُوكم﴾ يعني جنود المشركين ﴿من فوقكم﴾ وهم عيينة بن حصين بن بدر في أهل نجد ﴿ومن أسفل منكم﴾ وهم أبو سفيان في قريش وواجهتهم قريظة، وهو قول مجاهد.

﴿وإذ زاغت الأبصار﴾ أي اذكر إذ عدلت الأبصار عن مقرّها. قال قتادة معناه: شخصت من الخوف ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ أي نأت عن أماكنها من الخوف. وقيل: قال المسلمون: يا رسول الله بلغت القلوب الحناجر فهل من شيء نقوله؟ قال: نعم قولوا: «اللّهمّ استر عورتنا وآمن روعتنا» فضرب الله وجوه أعدائه بريح الصبا، فهزمهم الله بها، و«الحناجر» جمع حنجرة، وهي الحلق، قيل: لأنّ الرئة عند الخوف تصعد حتّى تلحق بالحلق.

﴿وتظنّون بالله الظنونا﴾ قال الحسن: كانت الظنون مختلفة، فظنّ المنافقون أنّه يستأصل، وظنّ المؤمنون أنّه سينصر. وقيل: كانت الريح شديدة البرد تمنع المشركين من الحرب وكانت الملائكة تفقد بعضهم عن بعض.

ومن أثبت الألف في قوله: ﴿الظنونا﴾ تبع المصحف، ولأنّه شبّهها بالقوافي كما قال الشاعر:

أقِلّي اللومَ عاذِلَ والعِتابَا(١)

ومن حذفها قال: لأنّ هذه الألف تكون بدلاً من التنوين فإذا حذفت التنوين لمكان الألف واللام سقط ما هو بدل عنه.

قوله سبحانه:

هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ

---

(١) تقدّم في ص ٥٧٧.

مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴿١٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ حفص عن عاصم ﴿لا مقام﴾ بضمّ الميم أي لا إقامة لكم، الباقون بفتح الميم يعني لا موضع لكم تقومون فيه. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو جعفر وابن عامر ﴿لأتوها﴾ قصراً بمعنى لجاءُوها، الباقون بالمدّ، يعني لأعطوها، وقالوا: هو أليق بقوله: ﴿ثمّ سئلوا الفتنة﴾ لأنّ العطاء يطابق سؤال السائل.

لمّا وصف الله تعالى شدّة الأمر يوم الخندق وخوف الناس وأنّ القلوب بلغت الحناجر من الرعب قال: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾ أي اختبروا ليظهر بذلك حسن إيمانهم وصبرهم على ما أمرهم الله بـه مـن جـهاد أعـدائـه فـ«هنا» للقريب من المكان و«هنالك» للبعيد منه، و «هناك» للوسط بين القريب والبعيد، وسبيله سبيل «ذا، وذاك وذلك».

و«الابتلاء» إظهار ما في النفس من خـير أو شـرّ، ومـثله الاخـتبار والامتحان، و«البلاء» النعمة لإظهار الخير على صاحبه، و«البلاء» النقمة لإظهار الشرّ عليه.

وقوله: ﴿وزلزلوا زلزالًا شديدًا﴾ معناه وحرّكوا بهذا الامتحان تحريكاً عـظيماً، فـالزلزال الاضـطراب العـظيم، ومـنه قـوله: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ [1] و«الزلزلة» اضطراب الأرض. وقيل: إنّه مـضاعف زلّ، وزلزله غيره. و«الشدّة» قوّة تدرك بالحاسّة، لأنّ القوّة الّتي هي القدرة لا تـدرك

(١) الزلزلة: ١.

بالحاسّة وإنّما تعلم بالدلالة، فلذلك يوصف تعالى بأنّه قويّ، ولا يوصف بأنّه شديد.

ثمّ قال: واذكر يا محمّد ﴿إذ يقول المنافقون﴾ الّذين باطنهم الكفر وظاهرهم الإيمان: ﴿والّذين في قلوبهم مرض﴾ أي شكّ من الإيمان بالله ورسوله: ﴿ما وعدنا الله ورسوله﴾ أي لم يعدنا الله ورسوله من الظفر والظهور على الدين ﴿إلّا غروراً﴾ وقيل: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله بشّرهم بأنّه يفتح عليهم مدائن كسرى وبلاد قيصر وغير ذلك من الفتوح، فقالوا: يعدنا بهذا، والواحد منّا لا يقدر على أن يخرج ليقضي حاجة ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً﴾ غرّانا به، فالغرور إيهام المحبوب بالمكر، يقال: غرّه يغرّه غروراً، فهو غارّ، والغرور الشيطان، قال الحارث بن حلزة:

لَمْ يغرّوكم غُروراً ولكنْ يرفع الآل جمعهم والضحاء[١]

وقال يزيد بن رومان: الّذي قال القول معتب بن قشيرة. وقال العتابي: ليس عاقل يقول: إنّ الله وعده غروراً، لكنّهم لما كذّبوا رسوله وشكّوا في خبره فكأنّهم كذّبوا الله، وإذا نسبوا الرسول بأنّه غرّهم فقد نسبوا الله إلى ذلك في المعنى وإن لم يصرّحوا به.

ثمّ قال: واذكر يا محمّد ﴿إذ قالت طائفة منهم﴾ يعني من المنافقين ﴿يا أهل يثرب﴾ أي يا أهل المدينة. قيل: إنّ يثرب اسم أرض المدينة. وقال أبوعبيدة: إنّ مدينة الرسول في ناحية من يثرب[٢]. وقيل: يثرب هي المدينة نفسها. ﴿لا مقام لكم﴾ أي ليس لكم مكان تقومون فيه للقتال، ومن ضمّ أراد لا إقامة لكم، ذكره الأخفش. وقال يزيد بن رومان: القائل لذلك أوس بن قبطي ومن وافقه على رأيه ﴿فارجعوا﴾ أي أمرهم

(١) المعلّقات العشر: ١٧١.
(٢) مجاز القرآن ٢: ١٣٤.

بالرجوع إلى منازلهم.

وحكي أنّ جماعة منهم جاءُوا إلى النبيّ ﷺ فاستأذنوه للرجوع، وقالوا: ﴿إن بيوتنا عورة﴾ أي هي مكشوفة نخشى عليها السرق ـ ذكره ابن عبّاس ومجاهد ـ فكذّبهم الله تعالى في قوله: ﴿وما هي بعورة﴾ وليس يريدون بهذا القول إلّا الفرار والهرب من القتال.

ثمّ قال: ﴿وَلَو دُخِلَت عَلَيهِم مناقطارها﴾ أي من نواحيها يعني المدينة أو البيوت، فهو جمع قطر وهو الناحية ﴿ثمّ سئلوا الفتنة﴾ يعني الكفر والضلال. وقيل: إنّهم لو دعوا إلى القتال على وجه الحميّة والعصبيّة لجاءُوا إليها ـ على قراءة من قصّر ـ ومن مدّ أراد لأُعطوا ما سألوا إعطاءه من ذلك.

﴿وما تلبّثوا بها إلّا يسيراً﴾ قال الفرّاء: وما تلبّثوا بالمدينة إلّا قليلاً حتّى يهلكوا[1]. وقال قتادة: معناه وما احتبسوا عن الإجابة إلى الكفر إلّا قليلاً.

ثمّ قال: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل﴾ يعني عند ما بايعوا النبيّ ﷺ وحلفوا له أنّهم ينصرونه ويدفعون عنه، كما يدفعون عن نفوسهم، وأنّهم ﴿لايولّون الأدبار﴾ أي لا يفرّون من الزحف ﴿وكان عهد الله مسئولاً﴾ يعني العهد الّذي عاهدوا الله عليه وحلفوا له به يسألهم عن الوفاء به يوم القيامة.

قوله تعالى:

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾* قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا

(١) معاني القرآن ٢: ٣٣٧.

ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

لمّا أخبر الله تعالى عن المنافقين الّذين استأذنوا النبيّ صلى الله عليه وآله في الرجوع واعتلّوا بأنّ بيوتهم يخاف عليها وكذّبهم الله في ذلك وبيّن أنّهم يريدون الهرب قال لنبيّه صلى الله عليه وآله ﴿قل﴾ لهم: ﴿لن ينفعكم الفرار إن فررتم﴾ يعني الهرب إن هربتم ﴿من الموت أو القتل﴾ فإنّه لابدّ من واحد منهما، وإن هربتم وبقيتم بعده فلا تبقون و﴿لا تمتّعون إلّا قليلاً﴾ من الزمان ثمّ لابدّ من الموت. و«الفرار» الذهاب عن الشيء خوفاً منه، ومثله الهرب، فرَّ يفرّ فراراً وافترّ: إذا باعد بين شفتيه كتباعد الفارّ.

وإنّما فرّق الله بين الموت والقتل لأنّ القتل غير الموت، فالقتل نقض بنية الحيّ، والموت ضدّ الحياة عند من أثبته معنى، والقتل يقدر عليه غير الله.

وإنّما رفع بعد «إذاً» لوقوع «إذاً» بين الواو والفعل، فصارت بمنزلة ما لم يقع بعده الفعل، كقولك: «أنا آتيك إذاً» لأنّه ممّا يجوز فيه الإلغاء بأنّه يصحّ الاستدراك، كالاستدراك بالظنّ، وقد أُعملت بعد «إنّ» في قوله:

لا تتركنّي فيهم شطيرا إنّي إذاً أهلِك أو أطيرا[1]

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: قل لهم يا محمّد: من الّذي يمنعكم من الله إن أراد أن يفعل بكم سوءاً يعني عذاباً أو أراد بكم رحمة، فإنّ أحداً لا يقدر على منعه ممّا يريد الله فعله به ﴿ولا يجدون﴾ هؤلاء ﴿لهم من دون الله وليّاً﴾ ينصرهم

(١) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٣٣٨، ولم ينسبه لأحد.

﴿ولا نصيراً﴾ يدفع عنهم.

ثمّ قال تعالى: ﴿قد يعلم الله المعوّقين منكم﴾ يعني الّذين يعوّقون غيرهم عن القتال ويثبّطونهم عنه، فالتعويق التثبيط والشغل للقعود عن أمر من الأُمور، فكأنّ هؤلاء يدعون إخوانهم من المنافقين إلى القعود عن الجهاد ويشغلونهم لينصرفوا عنه ﴿والقائلين لإخوانهم هلُمَّ إلينا﴾ أي يعلم القائلين لهم تعالوا.

﴿ولا يأتون البأس﴾ يعني الحرب ﴿إلّا قليلاً﴾ أي إن يكلّفوا الحضور إلى القتال فلا يحضرون إلّا قدر ما يوهمون أنّهم معكم ولا يقاتلون معكم، فهو تعالى عالم بأحوال هؤلاء لا يخفى عليه شيء منها.

ثمّ قال: ﴿أشِحَّةً عليكم﴾ بالغنيمة والنفقة في سبيل الله، في قول قتادة ومجاهد. ونصبه على تقدير: يأتونه أشحّةً، وإن شئت على الذمّ. وقال ابن إسحاق: ﴿أشحّة عليكم﴾ بالضغن الّذي في أنفسهم، فهو نصب على الحال في قول الزجّاج[١] وفي قول غيره على المصدر، وتقديره: يشحّون عليكم شحّة.

﴿فإذا جاء الخوف﴾ يعني الفزع ﴿رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذي يغشى عليه من الموت﴾ يعني من شدّة ما يخافون يلحقهم مثل ما يلحق من شارف الموت وأحواله ويغشى عليه ﴿فإذا ذهب الخوف﴾ والفزع ﴿سلقوكم بألسنة حداد﴾ أي خصّموكم طلباً للغنيمة أشدّ مخاصمة. وقال الحسن: سلقوكم حاوروكم، يقال: خطيب مصقع ومسلق أي بليغ في الخطابة فصيح فيها ﴿أشحّةً على الخير﴾ يعني الغنيمة.

ثمّ قال: ﴿أولئك﴾ يعني من تقدّم وصفه ﴿لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم﴾

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٢٠.

يعني نفع أعمالهم على وجوه لا يستحقّ عليها الثواب، لأنّهم لا يقصدون بها وجه الله. ثمّ قال: ﴿وكان ذلك﴾ يعني إحباط أعمالهم. وقيل: وكان نفاقهم. ﴿على الله يسيراً﴾ قليلاً.

ثمّ وصف هؤلاء المنافقين الّذين تقدّم ذكرهم بالجبن فقال: ﴿يحسبون الأحزاب﴾ الّذين انهزموا ورجعوا من شدّة فزعهم أنّهم ﴿لم يذهبوا﴾ بعد. وقيل: لفرط جهلهم يعتقدون أنّهم لم يذهبوا بعد ﴿وإن يأت الأحزاب يودّوا لو أنّهم بادون في الأعراب﴾ أي وإن جاء الأحزاب تمنّوا أن يكونوا في البوادي مع الأعراب ﴿يسألون عن أنبائكم﴾ أي أخباركم ولا يكونون معكم فيتربّصون بكم الدوائر ويتوقّعون الهلاك.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿ولو كانوا﴾ يعني هؤلاء المنافقون معكم و﴿فيكم ما قاتلوا إلّا قليلاً﴾ أي قدراً يسيراً ليوهموا أنّهم في جملتكم، لا لينصروكم ويجاهدوا معكم.

وقال عاصم الجحدري: يسّاءلون عن أنبائكم بتشديد السين بمعنى يتساءلون، فيسأل بعضهم بعضاً. وهو شاذّ لا يقرأ به.

وقرأ طلحة بن مصرف ﴿يودّوا لو أنّهم بدًّى في الأعراب﴾ جمع باد، مثل غازٍ وغُزًّى، وهي أيضاً شاذّة لا يقرأ بها.

و«هَلُمَّ» بمعنى أقبل، وأهل الحجاز يقولون للواحد والاثنين والجمع والأُنثى: «هلمّ» بلفظ واحد، وإنّما هي «لمّ» ضمّت إليها «ها» الّتي للتنبيه ثمّ حذفت الألف من «ها» إذ صارا شيئاً واحداً، كقولهم: «ويلمه» وأصله «ويل أمه» فلمّا جعلوهما شيئاً واحداً حذفوا وغيّروا.

وأمّا بنو تميم فيصرّفونه تصريف الفعل، فيقولون: هلمّ يا رجل وهلمّا يا رجلان، وهلمّوا يا رجال وهلمّي يا امرأة وهلمّيا يا امرأتان، وهلممن يا

نساء، إلّا أنّهم يفتحون آخرالواحدالبتّة، فيقولون: هلمّيارجل وهلّم الساعة.

قوله تعالى:

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ عاصم ﴿أُسوة﴾ بضمّ الهمزة، الباقون بكسرها، وهما لغتان. والكسر أكثر، ومثله كسوة وكُسوة، ورِشوة ورُشوة.

هذا خطاب من الله تعالى للمكلّفين يقول لهم: إنّ لكم معاشر المكلّفين ﴿في رسول الله أُسوَةٌ حسنةٌ﴾ أي اقتداء حسن في جميع ما يقوله ويفعله، متى فعلتم مثله كان ذلك حسناً. والمراد بذلك الحثّ على الجهاد والصبر عليه في حروبه، والتسلية لهم في ما ينالهم من المصائب، فإنّ النبيّ ﷺ شجّ رأسه وكسرت رباعيته في يوم أُحد وقتل عمّه حمزة. فالتأسّي به في الصبر على جميع ذلك من الأُسوة الحسنة.

وذلك يدلّ على أنّ الاقتداء بجميع أفعال النبيّ ﷺ حسن جائز إلّا ما قام الدليل على خلافه، ولا يدلّ على وجوب الاقتداء به في أفعاله، وإنّما يعلم ذلك بدليل آخر. فالأُسوة حال لصاحبها يقتدي بها غيره في ما يقول به. فالأُسوة تكون في إنسان وهي أُسوة لغيره، فمن تأسّى بالحسن ففعله حسن.

﴿لمن كان يرجوا الله﴾ فالرجاء توقّع الخير، فرجاء الله توقّع الخير من قبله، ومثل الرجاء الطمع والأمل، ومتى طمع الإنسان في الخير من قبل الله فيكون راجياً له.

وقوله: ﴿وذكر الله كثيراً﴾ معناه يذكره تعالى بجميع صفاته ويدعوه بها، فيستحقّ بذلك الثواب من جهته.

ثمّ قال: وقد عاد تعالى إلى ذكر المؤمنين وأنّهم حين عاينوا الأحزاب الّتي اجتمعت على قتال النبيّ صلى الله عليه وآله وتظافروا عليه، وهم أبو سفيان ومن معه من المشركين ﴿قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ من الجهاد في سبيله ﴿وصدق الله ورسوله﴾ في ما أخبرا به، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان أخبرهم أنّه يتظاهر عليكم الأحزاب ويقاتلونكم، فلمّا رآهم المؤمنون تبيّنوا صدق قوله وكان ذلك معجزاً له ﴿وما زادهم﴾ مشاهدة عدوّهم ﴿إلّا إيماناً﴾ وتصديقاً بالله ورسوله ﴿وتسليماً﴾ لأمره.

ثمّ بيّن أنّ ﴿من المؤمنين﴾ رجالاً ﴿صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ من مجاهدة عدوّه، وألّا يولّوا الأدبار. وقيل: ذلك في يوم تأخّروا عن بدر، ثمّ عاهدوا ألّا يفارقوا النبيّ صلى الله عليه وآله في غزواته.

وقوله: ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ أي منهم من صبر حتّى قتل في سبيل الله، وخرج إلى ثواب ربّه ﴿ومنهم من ينتظر﴾ ذلك ﴿وما بدّلوا تبديلاً﴾ أي لم يبدّلوا الإيمان بالنفاق ولا العهد بالحنث. وروي أنّ الآية نزلت في حمزة بن عبد المطّلب وجعفر بن أبي طالب وعليّ بن أبي طالب عليه السلام فالّذي قضى نحبه حمزة وجعفر، والّذي ينتظر عليّ عليه السلام (١).

ثمّ بيّن تعالى أنّه يجزي الصادقين على صدقهم في تنزيله وعهدهم

(١) تفسير القمّي ٢: ١٨٨ ـ ١٨٩.

بالثواب الدائم والنعيم المقيم ﴿وَيُعذِّبَ المنافقين إن شَاءَ أو يتوب عليهم﴾ إن تابوا ﴿إنّ الله كان غفوراً رحيماً﴾.

وقوله: ﴿ويعذّبَ المنافقين إن شاءَ﴾ لا يدلّ على أنّ ما يجب غفرانه من الكبائر عند التوبة يجوز تعليقه بالمشيئة، لأنّ على مذهبنا إنّما جاز ذلك لأنّه لا يجب إسقاط العقاب بالتوبة عقلاً، وإنّما جاز ذلك وعلمناه بالسمع وأنّ الله يتفضّل بذلك.

وقوله: ﴿أو يتوب عليهم﴾ معناه إن شاء قبل توبتهم وأسقط عقابهم إذا تابوا، وإن شاء لم يقبل ذلك، وذلك إخبار عن مقتضى العقل. وأمّا مع ورود السمع وهو قوله: ﴿وهو الّذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيّئات﴾ (١) فنقطع على أنّه تعالى يغفر مع حصول التوبة.

وقوله: ﴿إنّ الله كان غفوراً رحيماً﴾ يؤكّد ذلك، لأنّه إنّما يكون فيه مدح إذا غفر ما له المؤاخذة به ويرحم من يستحقّ العقاب، وأمّا من يجب غفران ذنبه ويجب رحمته فلا مدح في ذلك.

وقال قوم: معناه ﴿ويعذّب المنافقين إن شاء﴾ بعذاب عاجل في الدنيا أو يتوبوا، قالوا: وإنّما علّق بالشرط في قوله: ﴿إن شاء أو يتوب عليهم﴾ لأنّه علم أنّ من المنافقين من يتوب، فقيّد الكلام ليصحّ المعنى، ذكره الجبّائي.

وقيل: إنّ الّذي وعد الله المؤمنين في الأحزاب هو أنّه وعدهم إذا لقوا المشركين ظفروا بهم واستعلوا عليهم في نحو قوله: ﴿ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون﴾ (٢) مع فرض الجهاد.

وقيل: إنّ الّذي وعدهم الله به في قوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتكم مثل الّذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضرّاء وزلزلوا حتّى يقول

---

(١) الشورى: ٢٥. (٢) التوبة: ٣٣، الصفّ: ٩.

الرسول والّذين آمنوا معه متى نصر الله ألا أنّ نصر الله قريب﴾[١] ذكره قتادة.

و«النحب» النذر أي قضى نذره الّذي كان نذره في ما عاهد الله عليه. وقال مجاهد: قضى نحبه أي عهده. وقيل: إنّ المؤمنين كانوا نذروا إذا لقوا حزباً مع رسول الله أن يثبتوا ولا ينهزموا. وقال الحسن: قضى نحبه أي مات على ما عاهد عليه، والنحب الموت، كقول ذي الرمّة:

قَضَى نَحبَهُ في مُلتَقى الخَيل هَوْبَرُ[٢]

أي منيته. وهوبر اسم رجل. والنحب الخطر العظيم، قال جرير:

بطخفَةَ جالدنا الملوكَ وخيلُنا عَشيّةَ بِسْطام جَرَيْنَ على نَحْبِ[٣]

أي على خطر. والنحب المدّ في السير يوماً وليلةً، قال الفرزدق:

وإذ نَحّبتْ كلبٌ على الناس أنّهم

أحقّ نتاج الماجدِ المُتكرّم[٤]

ثمّ أخبر تعالى أنّه ردّ المشركين من الأحزاب عن قتال النبيّ صلى الله عليه وآله بغيظهم الّذي جاءُوا به وخنقهم[٥] لم ينالوا خيراً أمّلوه من الظفر بالنبيّ صلى الله عليه وآله وبالمؤمنين ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ عند رجوعهم. وقيل: وكفى الله المؤمنين القتال بالريح والملائكة.

وقيل: وكفى الله المؤمنين القتال بعليّ عليه السلام ـ وهي قراءة ابن مسعود وكذلك هو في مصحفه ـ في قتله عمرو بن عبد ودّ، وكان ذلك سبب هزيمة القوم. ﴿وكان الله قويّاً عزيزاً﴾ أي قادراً لا يغالب وعزيزاً لا يقهر، لأنّه قويّ في سعة مقدوره عزيز في انتقامه.

---

(١) البقرة: ٢١٤. (٢) ديوان ذي الرمّة: ٢٢٨، وصدره: «عشيّة فرَّ الحارثيون بعدما».

(٣) ديوان جرير: ٥٤، وفيه: «ضاربنا» بدل «جالدنا».

(٤) شرح ديوان الفرزدق ٢: ٣٨٥، وفيه: «أيّهم أحقّ بتاج».

(٥) وفي الحجريّة: «خيفهم» وفي المطبوعة: «خيبهم».

قوله تعالى:

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وابن عامر ﴿نضعّف﴾ بالنون وتشديد العين ﴿العذاب﴾ نصباً أسند الفعل إلى الله تعالى، وقرأ أبو عمرو ﴿يضعّف﴾ بالياء وتشديد العين بلا ألف على ما لم يسمّ فاعله، الباقون ﴿يضاعف﴾ بالياء والألف.

[و]الّذي عليه أكثر المفسّرين أنّ المعنيّ بقوله: ﴿وانزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب﴾ هم بنو قريظة من اليهود، وكانوا نقضوا العهد بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وآله وعاونوا أبا سفيان، فلمّا هزم الأحزاب أمر النبيّ صلى الله عليه وآله مناديه بأن ينادي لا يصلّينّ أحد العصر إلّا ببني قريظة، لأنّ جبرائيل عليه السلام نزل عليه وقال: إنّ الملائكة لم تضع أسلحتها بعد، ففيهم من لحق ذلك بعد وصلّى العصر في الوقت، وفيهم من صلّاها قبل ذلك. وكلّ صوّبه رسول الله.

ثمّ حكم سعد بن معاذ فيهم لأنّهم رضوا بحكمه، فحكم سعد أن تقتل الرجال وتسبى الذراري والنساء وتقسّم الأموال وتكون الأرض للمهاجرين دون الأنصار، فقيل له في ذلك، فقال: لكم دار وليس للمهاجرين دار، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: حكم فيهم بحكم الله تعالى. وفي

بعض الأخبار لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[١]. وهو جمع رقيع اسم من أسماء سماء الدنيا.

وقال الحسن: الآية نزلت في بني النضير. والأوّل أصحّ وأليق بسياق الآيات، لأنّ بني النضير لم يكن لهم في قتال الأحزاب شيء، وكانوا قد انجلوا قبل ذلك.

و«المظاهرة» المعاونة، وهي زيادة القوّة بأن يكون المعاون ظهراً لصاحبه في الدفع عنه، والظهر المعين. وفي قراءة ابن مسعود آزروهم، ومعناه عاونوهم. و«الصياصي» الحصون الّتي يمتنع بها، واحدها صيصيّة، ويقال: جذّ الله صيصية فلان أي حصنه الّذي يمتنع به. و«الصيصية» قرن البقرة وشوكة الديك أيضاً، وهي شوكة الحائك أيضاً، قال الشاعر:

كَوقعِ الصياصِي في النسيج المُمدَّدِ[٢]

وقوله: ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي ألقى في قلوبهم يعني اليهود والمشركين خوفاً من النبيّ ﷺ ﴿فريقاً تقتلون﴾ منهم يعني الرجال ﴿وتأسرون فريقاً﴾ يعني النساء والذراري. ثمّ قال: ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم﴾ يعني ديار بني قريظة وأرضهم وأموالهم، جعلها الله للمسلمين مع ذلك ونقلها إليهم.

﴿وأرضاً لم تطؤها﴾ معناه وأورثكم أرضاً لم تطؤها، قال الحسن: هي أرض فارس والروم. وقال قتادة: هي مكّة. وقال يزيد بن رومان وابن‌زيد: هي خيبر ﴿وكان الله على كلّ شيء قديراً﴾ أي قادراً على توريثكم أرض هؤلاء وأموالهم ونصركم وغير ذلك. إلى هاهنا انتهت قصّة الأحزاب.

---

(١) تفسير القمّي ٢: ١٩١.

(٢) قائله دريد بن الصمّة، راجع ديوانه: ٤٨، وصدره: «فجئتُ إليه والرماحُ تنوشه».

ثمّ انتقل إلى خطاب النبيّ ﷺ فقال له: ﴿يا أيّها النبيّ قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أُمتّعكنّ وأُسرّحكنّ سراحاً جميلاً﴾ قال الحسن: لم يكن ذلك تخيير طلاق، إنّما هو تخيير بين الدنيا والآخرة.

وكان لنزول الآية سبب معروف من بعض أزواج النبيّ ﷺ فعاتبهنّ الله تعالى وخيّرهنّ بين المقام مع النبيّ ﷺ واختيار ما عند الله من الثواب ونعيم الأبد ومن مفارقته بالطلاق وتعجيل المنافع يأخذونها، وبيّن ذلك بقوله: ﴿وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإنّ الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً﴾ وقيّد ذلك بالمحسنات لعلمه أنّ فيهنّ من ربما ارتكبت ما يستحقّ به الخروج عن ولاية الله تعويلاً على ما وعد الله تعالى به من النعيم، فزجرهنّ بالتهديد المذكور في الآية.

وروي أنّ سبب نزول هذه الآية أنّ كلّ واحدة من نسائه طلبت شيئاً فسألت أُمّ سلمة ستراً معلّقاً، وسألت ميمونة حلّة، وسألت زينب بنت جحش برداً يمانيّاً، وسألت أُمّ حبيبة ثوباً سحوليّاً[1] وسألت حفصة ثوباً من ثياب مصر، وسألت جويرية معجزاً[2] وسألت سودة قطيفة خيبريّة، فلم يقدر على ذلك، لأنّ الله تعالى كان خيّره بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختار الآخرة، وقال: «اللّهمّ أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني مسكيناً في جملة المساكين» فحينئذٍ أمره الله تعالى بتخيير النساء[3] فاخترن الله ورسوله فعوّضهنّ الله عن ذلك أن جعلهنّ أُمّهات المؤمنين.

---

(١) كذا في المصدر والخطّية، وفي الحجريّة: «سحوانياً».

(٢) كذا في المصدر والخطّية، وفي الحجرية: «معجراً». والمعجز بكسر الميم المنطقة، لأنها تلي عجز المنطق بها. مجمع البحرين مادة «عجز».

(٣) تفسير الماوردي ٤: ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

وقيل: وأمر الله أن لا يطلّقهنّ ولا يتزوّج عليهنّ بقوله: ﴿لا يحلّ لك النساء من بعد﴾ [١] ذكره ابن زيد.

ثمّ خاطب نساء النبيّ ﷺ فقال: ﴿يا نساء النبيّ من يأت منكنّ بفاحشة يضاعف لها العذاب﴾ من شدّد أراد التكثير، ومن أثبت الألف أراد من المضاعفة، ومن قرأ بالنون أضاف الفعل إلى الله، لأنّ الفاعل لذلك هو الله وإنّما جاز ان يضعّف عقابهنّ بالمعصية لعظم قدرهنّ، وأنّ معصيتهنّ تقع على وجه يستحقّ بها ضعف ما يستحق غيرهنّ، كما أنّ طاعاتهنّ يستحقّ بها ضعف ما يستحقّ به غيرهنّ، من حيث كنّ قدوة في الأعمال وأُسوة في ذلك.

ثمّ أخبر تعالى أنّ تضعيف ذلك عليه يسير سهل. و«الضعف» مثل الشيء الّذي يضمّ إليه، ضاعفته: ازددت عليه مثله، ومنه الضعف، وهو نقصان القوّة بأن يذهب أحد ضعفيها، فهو ذهاب ضعف القوّة.

قال أبو عبيدة: يضاعف لها ضعفين أي يجعل لها العذاب ثلاثة أعذبة، لأنّ ضعف الشيء مثله وضعفي الشيء مثلاه. ومجاز «يضاعف» أن يجعل إلى الشيء شيئان حتّى يكون ثلاثة، فأمّا من قرأ ﴿يضعّف﴾ أراد أن يجعل الشيء شيئين [٢].

وذكر بعضهم أنّ ذلك غلط على أبي عمرو في تشديد يضعّف، لأنّ ذلك نقل عنه على حكاية الفرق بين يضاعف ويضعّف بالتشديد وليس بينهما فرق، لأنّ المضاعفة والتضعيف شيء واحد.

وإنّما قرأ أبو عمرو ﴿يضعف﴾ بضمّ الياء وتسكين الضاد وتخفيف العين وفتحها، والفرق يقع بين هذه وبين يضاعف لأنّك تقول لمن أعطاك

(١) الأحزاب: ٥٢.

(٢) مجاز القرآن ٢: ١٣٦ ـ ١٣٧.

درهماً فأعطيته مكانه درهمين: أضعفت لك العطيّة، فإن أعطيته مكان درهم خمسة أو ستّة قلت ضاعفت له العطية وضعّفت بالتشديد أيضاً. فلمّا رأى أبو عمرو أنّ من أحسن من أزواج النبيّ أُعطي أجرين علم أنّ من أذنب منهنّ عوقب عقوبتين، فقرأ يضعف لها العذاب ضعفين.

وكان الحسن لا يرى التخيير شيئاً. وقال: إنّما خيّرن بين الدنيا والآخرة لا في الطلاق، وكذلك عندنا أنّ الخيار ليس بشيء غير أنّ أصحابنا قالوا: إنّما كان ذلك لنبيّ الله خاصّة، ولمّا خيّرهنّ لو اخترن أنفسهنّ لبنّ. فأمّا غيره فلا يجوز له ذلك.

وقال قتادة: خيّرهنّ الله تعالى بين الدنيا والآخرة في شيء كنّ أردن من الدنيا. وقال عكرمة: في غيرة كانت غارتها عائشة، وكان تحته يومئذٍ تسع نسوة خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأُمّ حبيبة بنت أبي‌سفيان، وأُمّ سلمة بن أبي أُميّة، وسودة بنت زمعة، وكان تحته صفيّه بنت حيّ بن أخطب، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق، فلمّا اخترن الله ورسوله والدار الآخرة فرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله.

قوله تعالى:

وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ

وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي ﴿ومن يقنت منكنّ لله ورسوله ويعمل صالحاً﴾ بالياء فيهما على اللفظ لأنّ لفظة «من» مذكّر. الباقون ﴿ومن يقنت﴾ بالياء حملاً على اللفظ ﴿وتعمل﴾ بالتاء حملاً على المعنى، لأنّ المعنى من النساء فكنّى بلفظ التأنيث، ولأنّه قد ظهر علامة التأنيث في قوله: ﴿منكنّ﴾ فكأنّ الردّ عليه أولى من ردّه على اللفظ. وروي في الشواذّ[1] ﴿ومن تقنت﴾ بالتاء حملاً على المعنى، وذلك جائز في العربيّة غير أنّه ليس بمعروف ولا يقرأ به.

وقرأ عاصم ونافع ﴿وقرن﴾ بفتح القاف بمعنى أقررن ﴿في بيوتكنّ﴾ من قررت في المكان أقرّ قراراً إلّا أنّه نقل حركة العين إلى القاف فانفتحت وسقطت الراء الأُولى لالتقاء الساكنين، كقولهم في ظللت ظلت. وفي أحسست أحست، وقالوا في يحططن من الجبل: يحطن. وقال الزجّاج: فيه لغتان «قررت في المكان وأقررت»[2].

الباقون بكسر القاف بمعنى كنّ أهل وقر، أي هدوء وسكينة من وقر فلان في منزله [مشيه، خ ل] يقر وقوراً: إذا هدأ فيه واطمأنّ. ويجوز أن يكون المراد الاستقرار، على لغة حكاها الزجّاج والكسائي.

لمّا تهدّد الله تعالى نساء النبيّ ﷺ بأنّ من يأت منهنّ بفاحشة ظاهرة

---

(١) شواذّ القرآن: ١٢٠.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٢٥.

من ارتكاب محظور وما نهى الله تعالى عنه أنّه يضاعف لها العذاب ضعفين، لوقوع أفعالهنّ على وجه يستحقّ به ذلك من حيث كنّ سواء أُسوة يتأسّى بهنّ غيرهنّ ورغّبهنّ في هذه الآية بأن قال: ﴿ومن يقنت منكنّ﴾ أي من داوم منكنّ على الطاعة لله ورسوله ﴿وتعمل﴾ مع ذلك الأفعال ﴿صالحاً نؤتها﴾ أي يعطيها الله ﴿أجرها مرّتين﴾ كما لو عصت عاقبها ضعفين. و«القنوت» المداومة على العمل، فمن داوم على العمل لله فهو مطيع، ومنه القنوت في صلاة الوتر، وهو المداومة على الدعاء المعروف. و«العمل الصالح» هو المستقيم الّذي يحسن أن يحمد عليه ويستحقّ به الثواب. و«الأجر» الجزاء على العمل وهو الثواب، آجره يآجره أجراً، والأجر مرّتين ليس يجب بالوعد بل إنّما هو مستحقّ، لأنّ أفعالهنّ تقع على وجه يستحقّ مثلي ما لو استحقّ الغير، لأنّه في مقابلة العذاب ضعفين، ولا يجوز أن يضاعف ضعفين إلّا مستحقّاً، وكذلك الثواب المقابل له.

وقوله: ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ معنى اعتدنا أعددنا، وأُبدل من إحدى الدالين تاء. و«الرزق الكريم» هو الثواب الّذي لا يحسن الابتداء بمثله.

ثمّ قال: ﴿يا نساء النبيّ لستنّ كأحدٍ من النساء﴾ إنّما قال كأحد، ولم يقل كواحدة، لأنّ أحداً نفي عامّ للمذكّر والمؤنّث والواحد والجماعة أي لا يشبهكنّ أحد من النساء في جلالة القدر وعظم المنزلة لمكانكنّ[1] من رسول الله ﷺ بشرط أن تتّقين عقاب الله باجتناب معاصيه وامتثال أوامره، وإنّما شرط ذلك بالاتّقاء لئلّا يعوّلن على ذلك فيرتكبن المعاصي، ولولا الشرط كان يكون إغراءً لهنّ بالمعاصي، وذلك لا يجوز على الله تعالى.

(١) في الحجريّة: ولمكانكنّ.

ثمّ قال لهنّ: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أي لا تلين كلامكنّ للرجال، بل يكون جزلاً قويّاً لئلّا يطمع من في قلبه مرض. قال قتادة: ومعناه من في قلبه نفاق. وقال عكرمة: من في قلبه شهوة للزنا.

ثمّ قال لهنّ: ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ مستقيماً جميلاً بريئاً من التهمة بعيداً من الريبة موافقاً للدين والإسلام. ثمّ أمرهنّ بالاستقرار في بيوتهنّ وألّا يَتَبرّجنَ تبرّج الجاهليّة، على قراءة من فتح القاف. ومن كسر أراد كنّ وقورات عليكنّ سكينة ووقار ﴿ولا تبرّجن﴾ قال قتادة: «التبرّج» التبختر والتكبّر، وقال غيره: هو إظهار المحاسن للرجال.

وقوله: ﴿تبرّج الجاهليّة الأُولى﴾ نصب تبرّج على المصدر، والمعنى مثل تبرّج الجاهليّة الأُولى، وهو ما كان قبل الإسلام. وقيل: ما كان بين آدم ونوح. وقيل: ما كان بين موسى وعيسى. وقيل: ما كان بين عيسى ومحمّد. وقيل: ما كان يفعله أهل الجاهليّة، لأنّهم كانوا يجوّزون لامرأة واحدة رجلاً وخلّاً، فللزوج النصف السفلاني وللخلّ الفوقاني من التقبيل والمعانقة، فنهى الله تعالى عن ذلك أزواج النبيّ صلّى الله عليه وآله. واشتقاق التبرّج من البرج وهو السعة في العين وطعنة برجاء أي واسعة، وفي أسنانه برج، إذا تفرّق ما بينها. وأمّا الجاهليّة الأُخرى فهو ما يعمل بعد الإسلام بعمل أُولئك.

ثمّ أمرهنّ بإقامة الصلاة والدوام عليها بشروطها وإيتاء الزكاة لمن وجبت عليه، وأمرهنّ بطاعة الله وطاعة رسوله في ما يأمرانهنّ به. ثمّ قال: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ روى أبوسعيد الخدري وأنس بن مالك وعائشة وأُمّ سلمة وواثلة بن الأسقع أنّ الآية نزلت في النبيّ صلّى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام

وأهل البيت نصب على النداء أو على المدح[١].

فروي عن أُمّ سلمة انها قالت: إنّ النبيّ ﷺ كان في بيتي فاستدعا عليّاً وفاطمة والحسن والحسين وجللهم بعباء خيبريّة، ثمّ قال: اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ فقالت أُمّ سلمة قلت: يارسول‌الله هل أنا من‌أهل‌بيتك؟ فقال: لا، ولكنّك إلى‌خير[٢].

واستدلّ أصحابنا بهذه الآية على أنّ في جملة أهل البيت معصوماً لا يجوز عليه الغلط وأنّ إجماعهم لا يكون إلّا صواباً، بأن قالوا: ليس يخلو إرادة الله لإذهاب الرجس عن أهل البيت من أن يكون هو ما أراد منهم من فعل الطاعات واجتناب المعاصي، أو يكون عبارة عن أنّه أذهب عنهم الرجس بأن فعل لهم لطفاً اختاروا عنده الامتناع من القبائح.

والأوّل لا يجوز أن يكون مراداً، لأنّ هذه الإرادة حاصلة مع جميع المكلّفين، فلا اختصاص لأهل البيت في ذلك، ولا خلاف أنّ الله تعالى خصّ بهذه الآية أهل البيت بأمر لم يشركهم فيه غيرهم، فكيف يحمل على ما يبطل هذا التخصيص ويخرج الآية من أن يكون لهم فيها فضيلة ومزيّة على غيرهم؟! على أنّ لفظة «إنّما» تجري مجرى ليس، وقد دللنا على ذلك في ما تقدّم[٣] وحكيناه عن جماعة من أهل اللغة، كالزجّاج وغيره. فيكون تلخيص الكلام: ليس يريد الله إذهاب الرجس على هذا الحدّ إلّا

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٦: ٢٩٢، المعجم الكبير ٣: ٥٦، المستدرك ٢: ٤١٦.

(٢) مسند أحمد ٦: ٢٩٢، المعجم الكبير ٣: ٥٤.

(٣) تقدّم في ج ٣ ص ١٥٠ عند تفسير قوله تعالى: ﴿إنّما حرّم عليكم الميتة...﴾ من سورة البقرة آية ١٧٣.

عن أهل البيت، فدلّ ذلك على أنّ إذهاب الرجس قد حصل فيهم، وذلك يدلّ على عصمتهم، وإذا ثبت عصمتهم ثبت ما أردناه.

وقال عكرمة: هي في أزواج النبيّ خاصّة. وهذا غلط، لأنّه لو كانت الآية فيهنّ خاصّة لكنّي عنهنّ بكناية المؤنّث، كما فعل في جميع ما تقدّم من الآيات نحو قوله: ﴿وقرن في بيوتكنّ ولا تبرّجن... وأطعن الله... وأقمن الصلاة وآتين الزكاة﴾ فذكر جميع ذلك بكناية المؤنّث، فكان يجب أن يقول: إنّما يريد الله ليذهب عنكنّ الرجس أهل البيت ويطهّركنّ، فلما كنّى بكناية المذكّر دلّ على أنّ النساء لا مدخل لهنّ فيها.

وفي الناس من حمل الآية على النساء ومن ذكرناه من أهل البيت هرباً ممّا قلناه، وقال: إذا اجتمع المذكّر والمؤنّث غلّب المذكّر فكنّي عنهم بكناية المذكّر. وهذا يبطل بما بيّنّاه من الرواية عن أمّ سلمة وما يقتضيه من كون من تناولته معصوماً والنساء خارجات عن ذلك. وقد استوفينا الكلام في ذلك ـ في هذه الآيات ـ في كتاب الإمامة[1] من أراده وقف عليه هناك.

ثمّ عاد تعالى إلى ذكر النساء فأمرهنّ بأن يذكرن الله تعالى بصفاته وبالدعاء والتضرّع إليه، وأن يفكّرن في آيات الله الّتي تتلى في بيوتهنّ من القرآن المنزل، ويعملن بها وبما فيها من الحكمة ﴿إنّ الله كان لطيفاً﴾ في تدبير خلقه وفي إيصال المنافع الدينيّة والدنيويّة إليهم ﴿خبيراً﴾ أي عالماً بما يكون منهم وبما يصلحهم وبما يفسدهم، وأمرهم بأن يفعلوا ما فيه صلاحهم واجتناب ما فيه فسادهم.

ثمّ أخبر تعالى بـ﴿إنّ المسلمين والمسلمات﴾ وهم الّذين استسلموا

(١) تلخيص الشافي ٢: ٢٥١ ـ ٢٥٣.

لأوامر الله وانقادوا له وأظهروا الشهادتين وعملوا بموجبه ﴿والمؤمنين والمؤمنات﴾ فالإسلام والإيمان واحد عند أكثر المفسّرين، وإنّما كرّر لاختلاف اللفظين. وفي الناس من قال: المؤمن هو الّذي فعل جميع الواجبات وانتهى عن جميع المقبّحات، والمسلم هو الملتزم لشرائط الإسلام المستسلم لها.

﴿والقانتين والقانتات﴾ يعني الدائمين على الأعمال الصالحات ﴿والصادقين﴾ في أقوالهم ﴿والصادقات﴾ مثل ذلك ﴿والصابرين﴾ على طاعة الله وعلى ما يبتليهم الله من المصائب وما يأمرهم به من الجهاد في سبيله ﴿والصابرات﴾. ﴿والخاشعين﴾ يعني المتواضعين غير المتكبّرين ﴿والخاشعات﴾ مثل ذلك.

﴿والمتصدّقين﴾ يعني الّذين يخرجون الصدقات والزكوات ﴿والمتصدّقات﴾ مثل ذلك ﴿والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم﴾ من الزنا وارتكاب أنواع الفجور ﴿والحافظات﴾ فروجهنّ وحذف من الثاني لدلالة الكلام عليه. ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾ الله كثيراً، وحذف كمثل ما قلناه.

ثمّ قال: ﴿أعدّ الله لهم﴾ يعني من قدّم ذكرهم ووصفهم ﴿مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ يعني ثواباً جزيلاً لا يوازيه شيء.

وقيل: إنّ سبب نزول هذه الآية أنّ أُمّ سلمة قالت: يا رسول الله ما للرجال يذكرون في القرآن ولا يذكر النساء؟ فنزلت الآية. فلذلك قال: ﴿إنّ المسلمين والمسلمات﴾ وإن كنّ المسلمات داخلات في قوله: ﴿المسلمين﴾ تغليباً للمذكّر فذكرهنّ بلفظ يخصّهنّ إزالة للشبهة.

قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ

مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ
مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا
لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ
أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى
ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ
وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ
مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة ﴿أن يكون لهم الخيرة﴾ بالياء، لأنّ التأنيث غير حقيقي، الباقون بالتاء لتأنيث الخيرة. و«الخيرة» جمع خيّر وحكي خيرة بفتح الياء وسكونها. وقرأ عاصم ﴿وخاتم﴾ بفتح التاء، الباقون بكسرها، وهو الأقوى، لأنّه مشتقّ من ختم فهو خاتم. وقال الحسن: خاتم وهو الّذي ختم به الأنبياء. وقيل: هما لغتان ـ فتح التاء وكسرها ـ وفيه لغة ثالثة «خاتام» وقرئ به في الشواذّ، وحكي أيضاً «ختام».

وروي عن ابن‌عبّاس وذهب إليه مجاهدوقتادة أنّه نزل‌قوله: ﴿وماكان لمؤمن ولا مؤمنة...﴾ الآية في زينب بنت جحش لمّا خطبها رسول‌الله صلى الله عليه وآله لزيد بن حارثة فامتنعت لنسبها من قريش وأنّ زيداً كان عبداً، فأنزل الله الآية فرضيت به. وقال ابن زيد: نزلت في أُمّ كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط وكانت وهبت نفسها لرسول الله صلى الله عليه وآله فزوّجها زيد بن حارثة.

بيّن الله تعالى في هذه الآية أنّه لم يكن ﴿لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ بمعنى إلزاماً وحكماً ﴿أن يكون لهم الخيرة﴾ أي ليس لهم أن

يتخيّروا مع أمر الله بشيء يترك به ما أمره به إلى ما لم يأذن فيه. والخيرة إرادة اختيار الشيء على غيره. وفي ذلك دلالة على فساد مذهب المجبّرة في القضاء والقدر، لأنّه لو كان الله تعالى قضى المعاصي لم يكن لأحد الخيرَة، ولوجب عليه الوفاء به. ومن خالف في ذلك كان عاصياً، وذلك خلاف الإجماع.

ثمّ قال: ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ في ما قضيا به وأمرا وخالفهما ﴿فقد ضلّ﴾ عن الحقّ وخاب عنه ﴿ضلالًا مبيناً﴾ أي ظاهراً.

ثمّ خاطب النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: واذكر يا محمّد حين ﴿تقول لّلذي أنعم الله عليه﴾ يعني بالهداية إلى الإيمان ﴿وأنعمت عليه﴾ بالعتق ﴿أمسك عليك زوجك﴾ أي احبسها ولا تطلّقها، لأنّ زيداً جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله مخاصماً زوجته زينب بنت جحش على أن يطلّقها، فوعظه النبيّ صلى الله عليه وآله وقال له: لا تطلّقها وأمسكها ﴿واتّق الله﴾ في مفارقتها ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ فالّذي أخفى في نفسه أنّه إن طلّقها زيد تزوّجها وخشي من إظهار هذا للناس، وكان الله تعالى أمره بتزوّجها إذا طلّقها زيد، فقال الله تعالى له: إن تركت إظهار هذا خشية الناس فترك إضماره خشية الله أحقّ وأولى.

وقال الحسن: معناه وتخشى عيب الناس. وروي عن عائشة أنّها قالت: لو كتم رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً من الوحي لكتم ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه﴾ [1].

وقيل: إنّ زيداً لمّا جاء مخاصماً زوجته فرآها النبيّ صلى الله عليه وآله استحسنها وتمنّى أن يفارقها زيد حتّى يتزوّجها فكتم، قال البلخي: وهذا جائز، لأنّ هذا التمنّي هو ما طبع الله عليه البشر، فلا شيء على أحد إذا تمنّى شيئاً

---

(١) الكشف والبيان ٨: ٤٨.

استحسنه. ثمّ قال تعالى: ﴿فلمّا قضى زيد منها وطرًا زوّجناكها﴾ فالوطر الأرَب والحاجة وقضاء الشهوة يقال: لي في هذا وطر، أي حاجة وشهوة، قال الشاعر:

ودّعني قبل ان أُودّعه لمّا قضى من شبابنا وَطَرا[١]

وقال آخر:

وَكيفَ ثَواي بالمدينةِ بَعْدَما قَضَى وَطَراً منها جَميلُ بنُ مَعْمَرِ[٢]

وقوله: ﴿زوّجناكها﴾ يعني لمّا طلّق زيد امرأته زينب بنت جحش أذن الله تعالى لنبيّه في تزويجها، وأراد بذلك نسخ ما كان عليه أهل الجاهليّة من تحريم زوجة الدعيّ على ما بيّنّاه، وهو قوله: ﴿لكي لا يكون على المؤمنين حرج﴾ أي إثم في أزواج أدعيائهم أن يتزوّجوهنّ ﴿إذا قضوا﴾ الأدعياء ﴿منهنّ وطراً﴾ وفارقوهنّ، فبيّن الله تعالى أنّ الغرض بهذا أن لا يكون المتبنّى به إذا طلّق المرأة يجري مجرى تحريم امرأة الابن إذا طلّقت أو مات عنها الابن. وقوله: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ معناه وكان تزويج النبيّ صلى الله عليه وآله زينب بنت جحش كائناً لا محالة.

واستدلّ بقوله: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ على حدوث كلام الله، لأنّ الله تعالى قصّ كلامه، وقد بيّن أنّه مفعول، والمفعول والمحدث واحد.

ثمّ قال تعالى: ﴿ما كان على النبيّ من حرج في ما فرض الله له﴾ أي لم يكن عليه إثم في ما قدّره الله أن يتزوّج زينب بنت جحش الّتي كانت زوجة زيد وإن كان دعيّاً له، وفي جمعه بين التسع.

---

(١) أنشده السيّد المرتضى في الأمالي ١: ٢٥٥، ونسبه إلى الربيع بن ضبع الفزاري، وفيه: «ودّعنا» «نودّعه».

(٢) أنشده المبرّد في الكامل ٢: ٥٦٤، ولم ينسبه لأحد.

وقال: ﴿سنّة الله في الّذين خلوا من قبل﴾ أي ما أمرنا به محمّداً من هذه السنن والعادات مثل سنّة من تقدّم في الأنبياء، وما أمرهم الله تعالى بـه، لأنّه تعالى أباح لكلّ نبيّ شيئاً خصّه به ورفع به شأنه من بين سائر الأُمم ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ فالقدر المقدور هو ما كان على مقدار ما تقدّم من غير زيادة ولا نقصان، قال الشاعر:

واعــلم بأنّ ذا الجــلال قَــدْ قَــدَرْ
في الصحف الأُولى الّتي كان سَطَرْ[1]

وقوله: ﴿الّذين يبلّغون رسالات الله﴾ ولا يكتمونها بل يؤدّونها إلى من بعثوا إليهم ﴿ويخشونه ولا يخشون أحداً إلّا الله﴾ أي لا يـخافون سـوى الله أحداً. وقوله: ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي كافياً ومجازياً.

ثمّ قال: ﴿ما كان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم﴾ نزلت في زيد بن حـارثة لأنّهم كانوا يسمّونه: زيد بن محمّد، فبيّن الله تعالى أنّ النبيّ ليس بـ«أب أحد» منهم من الرجال وإنّما هو أبو القاسم والطيّب والمـطهّر وإبـراهـيم، وكلّهم درجوا في الصغر، ذكره قتادة.

ثمّ قال: ﴿ولكن﴾ كان ﴿رسول الله﴾ ونصب بإضمار «كان» وتقديره: ولكن كان رسول الله ﷺ، وروى[2] عبد الوارث عن أبي عمرو ﴿ولكنّ﴾ بالتشديد ﴿رسول الله﴾ نصب بـ«لكن» ﴿وخاتِم النبيّين﴾ أي آخرهم، لأنّه لا نبيّ بعده إلى يوم القيامة ﴿وكان الله بكلّ شيء عليماً﴾ أي عالماً لا يخفى عليه شيء ممّا يصلح العباد.

وقيل: إنّما ذكر ﴿وخاتم النبيّين﴾ هاهنا لأنّ المعنى أنّ من لا يـصلح

---

(١) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن ١: ٣٨٣، ونسبه إلى العجّاج.
(٢) شواذّ القرآن لابن خالويه: ١٢١.

بهذا النبيّ الّذي هو آخر الأنبياء فهو مأيوس من صلاحه، من حيث إنّه ليس بعده نبيّ يصلح به الخلق.

ومن استدلّ بهذه الآية ـ وهي قوله: ﴿ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم﴾ ـ على أنّه لم يكن الحسن والحسين عليهما السلام ابنيه فقد أبعد، لأنّ الحسن والحسين كانا طفلين، كما أنّه كان أبا إبراهيم وإنّما بقي أن لا يكون أباً للرجال البالغين.

قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ثمان آياتٍ بلا خلاف.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين المصدّقين بوحدانيّته المقرّين بصدق أنبيائه، يأمرهم بأن يذكروا الله ذكراً كثيراً. و«الذكر الكثير» أن نذكره بصفاته الّتي يختصّ بها ولا يشاركه فيها غيره، وننزّهه عمّا لا يليق به. وروي في أخبارنا أنّ من قال: «سبحان الله والحمدلله ولا إله إلّا الله والله أكبر» ثلاثين مرّة فقد ذكر الله كثيراً[1].

وكلّ صفة لله تعالى فهي صفة تعظيم، وإذا ذكر بأنّه «شيء» وجب أن يقال: إنّه شيء لا كالأشياء، وكذلك «أحد» ليس كمثله شيء، وكذلك «القديم» هو الأوّل قبل كلّ شيء، والباقي بعد فناء كلّ شيء. ولا يجوز أن

---

(١) التهذيب ٢: ١٠٧ / ٤٠٥.

يذكر بفعل ليس فيه تعظيم، لأنّ جميع ما يفعله يستحقّ به الحمد. والوصف بالجميل على جهة التعظيم مثل الذكر بالغنى والكرم بما يوجب اتّساع النعم.

و«الذكر» إحضار معنى الصفة للنفس إمّا بإيجاد المعنى في النفس ابتداءً من غير طلب، والآخر بالطلب من جهة الفكر. والذكر قد يجامع العلم، وقد يجامع الشكّ. والعلم لا يجامع الشكّ في الشيء على وجه واحد. والذكر أيضاً يضادّ السهو، ولا يضادّ الشك، كما يضادّه العلم.

وقوله: ﴿وسبّحوه بكرةً وأصيلاً﴾ أمر لهم بأن ينزّهوا الله تعالى عن كلّ قبيح وجميع ما لا يليق به بالغداة والعشيّ، قال قتادة: يعني صلاة الغداة وصلاة العصر. و«الأصيل» العشيّ وجمعه أصائل، ويقال أصل وآصال، وهو أصل الليل أي أوّله ومبدؤه.

وقوله: ﴿هو الّذي يصلّي عليكم وملائكته﴾ يترحّم عليكم بإيجاب الرحمة، ويصلّي عليكم الملائكة بالدعاء والاستغفار، فالأوّل كالدعاء والثاني دعاء. وقيل: معناه يثني عليكم بطريقة الدعاء، كقوله: عليك رحمتي ومغفرتي. وقيل: معناه هو الّذي يوجب عليكم الصلاة وهي الدعاء بالخير، ويوجبه الملائكة بفعل الدعاء. وهذا ممّا يختلف فيه معنى صفة الله تعالى وصفة العباد، كتوّاب بمعنى كثير القبول للتوبة، وتوّاب بمعنى كثير فعل التوبة. وقال الأعشى:

عَلَيكِ مثلُ الّذي صلّيتِ فاعتصمي يوماً فإنّ لجنب المرئ مُضطجَعا[1]

فمن رفع «مثل» فإنّما دعا لها مثل ما دعت له. ومن نصب أمرها بأن تزداد من الدعاء أي عليك بمثل ما قلت. وقوله: ﴿ليخرجكم من الظلمات

---

(١) ديوان الأعشى: ١٠٦، وفيه: «فاغتمضي» بدل «فاعتصمي».

إلى النور﴾ معناه ليخرجكم من الجهل بالله إلى معرفته، فشبّه الجهل بالظلمات والمعرفة بالنور، وإنّما شبّه العلم بالنور لأنّه يقود إلى الجنّة، فهو كالنور. والكفر يقود إلى النار، نعوذ بالله منها. وقال ابن زيد: معناه ليخرجكم من الضلالة إلى الهدى.

ثمّ أخبر تعالى أنّه ﴿كان بالمؤمنين رحيماً﴾ حين قبل توبتهم وخلّصهم من العقاب إلى الثواب بما لطف لهم في فعله.

وقوله: ﴿تحيّتهم يوم يلقونه سلام﴾ أي يحيّي بعضهم بعضاً يوم يلقون ثواب الله بأن يقولوا: السلامة لكم من جميع الآفات والفوز بنعيم ثواب الله. ولقاء الله لقاء ثوابه لا رؤيته، لأنّه بمنزلة قوله: ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه﴾[1] وبمنزلة قول النبيّ صلى الله عليه وآله «من حلف على يمين كاذبة يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»[2] ولا خلاف أنّ هؤلاء لا يرون الله. وقوله: ﴿وأعدّ لهم أجراً كريماً﴾ أي ثواباً جزيلاً.

ثمّ خاطب النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: ﴿يا أيّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً﴾ أي شاهداً على أمّتك في ما يفعلونه من طاعة الله أو معصيته أو إيمان به أو كفر، لتشهد لهم يوم القيامة أو عليهم، فأجازيهم بحسبه، ومبشّراً لهم بالجنّة وثواب الأبد إن أطاعوني واجتنبوا معصيتي.

﴿ونذيراً﴾ أي مخوّفاً من النار وعقاب الأبد بارتكاب المعاصي وترك الواجبات ﴿وداعياً﴾ أي وبعثناك داعياً لهم تدعوهم ﴿إلى الله بإذنه﴾ والإقرار بوحدانيّته وامتثال ما أمرهم به والانتهاء عمّا نهاهم عنه ﴿وسراجاً منيراً﴾ أي أنت بمنزلة السراج الّذي يهتدي به الخلق. و«المنير» هو الّذي يصدر النور من جهته إمّا بفعله وإمّا لأنّه سبب له، فالقمر منير والسراج

---

(١) التوبة: ٧٧. (٢) أمالي الصدوق: ٣٤٦، مسند أحمد بن حنبل ٤: ١٩٢.

منير بهذا المعنى، والله منير السماوات والأرض. وقال الزجّاج: ﴿وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً﴾ وبعثناك ذا سراج، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه[١] وأراد بالسراج القرآن الّذي يحتاجون إلى العمل به.

ثمّ أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بأن يبشّر ﴿المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ أي زيادة على ما يستحقّونه من الثواب كثيراً. ثمّ نهاه عن طاعة الكفّار الجاحدين لله والمنكرين لنبوّته فقال: ﴿ولا تطع الكافرين﴾ الّذين يتظاهرون بالكفر، ولا ﴿المنافقين﴾ الّذين يظهرون لك الاسلام ويبطنون الكفر، ولا تساعدهم على ما يريدونه ﴿ودع أذاهم﴾ أي أعرض عن أذاهم، فأنّا أكفيك أمرهم إذا توكّلت عليّ وعملت بطاعتي، فإنّ جميعهم في سلطاني بمنزلة ما هو في قبضة غيري. ثمّ قال: ﴿وتوكّل على الله﴾ أي أسند أمرك إليه واكتف به ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي كافياً ومتكفّلاً ما يسنده إليه. وقوله: ﴿شاهداً ومبشّراً ونذيراً * وداعياً... وسراجاً﴾ كلّ ذلك نصب على الحال.

قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠)﴾ آيتان بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي ﴿تماسّوهنّ﴾ بألف، الباقون بلا ألف. وقد مضى

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٣١.

تفسيره في البقرة[١].

خاطب الله نبيّه بأنّه إذا نكح واحد من المؤمنين المصدّقين بوحدانيّته المقرّين بنبوّة نبيّه مؤمنة نكاحاً صحيحاً ثمّ طلّقها قبل أن يمسّها ـ بمعنى قبل أن يدخل بها ـ بأنّه لا عدّة عليها منه، ويجوز لها أن تتزوّج بغيره في الحال، وأمرهم أن يمتّعوها ويسرّحوها سراحاً جميلاً إلى بيت أهلها. وهذه المتعة واجبة إن كان لم يسمّ لها مهراً، وإن كان سمّى لها مهراً لزمه نصف المهر، ويستحبّ المتعة مع ذلك، وفيه خلاف.

وقال ابن عبّاس: إن كان سمّى لها صداقاً فليس لها إلّا نصف المهر، وإن لم يكن سمّى لها صداقاً متّعها على قدر عسره أو يسره وهو السراح الجميل. وهذا مثل قولنا سواء. وحكي عن ابن عبّاس أنّ هذه الآية نسخت بإيجاب المهر المذكور في البقرة[٢]. ومثله روي عن سعيد بن المسيّب، والصحيح الأوّل.

ثمّ خاطب النبيّ ﷺ فقال: ﴿يا أيّها النبيّ إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أُجورهنّ﴾ يعني مهورهنّ، لأنّ النكاح لا ينفكّ من المهر وأحللنا لك ما ملكت من الإماء أن تجمع منهنّ ما شئت ﴿ممّا أفاء الله عليك﴾ من الغنائم والأنفال ﴿وبنات عمّك﴾ أي وأحللنا لك بنات عمّك ﴿وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك﴾ أن تعقد عليهنّ وتعطيهنّ مهورهنّ.

ثمّ قال: ﴿وامرأةً مؤمنةً إن وهبت نفسها للنبيّ﴾ فالقرّاء كلّهم على كسر «إن» على أنّه شرط، وقرأ الحسن بفتحها على أنّه بمعنى أحللنا لك لأن وهبت، والمعنى واحد، لأنّه بمنزلة قولك: سرّني إن ملكت وسرّني أن

---

(١) تقدّم في ج ٣ ص ٣٨٨ في تفسير الآية ٢٣٦ من سورة البقرة.

(٢) الآية: ٢٣٧.

ملكت أي سرّني ما ملكت ﴿إن أراد النبيّ﴾ وأحللنا لك المرأة إذا وهبت نفسها لك إن أردتها ورغبت فيها، فروي عن ابن عبّاس أنّه لا تحلّ امرأة بغير مهر وإن وهبت نفسها إلّا للنبيّ صلى الله عليه وآله خاصّة.

وقال ابن عبّاس: لم يكن عند النبيّ امرأة وهبت نفسها له. وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس أنّه كانت عنده ميمونة بنت الحارث بلا مهر وكانت وهبت نفسها للنبيّ. وروي عن عليّ بن الحسين عليهما السلام أنّها امرأة من بني أسد يقال لها: أمّ شريك. وقال الشعبي: هي امرأة من الأنصار. وقيل: زينب بنت خزيمة من الأنصار[١].

وعندنا أنّ النكاح بلفظ الهبة لا يصحّ وإنّما كان ذلك للنبيّ صلى الله عليه وآله خاصّة. وقال قوم: يصحّ غير أنّه يلزم المهر إذا دخل بها، وإنّما جاز بلا مهر للنبيّ صلى الله عليه وآله خاصّة، غير أنّه يبيّن حجّة ما قلناه.

قوله: ﴿إن أراد النبيّ أن يستنكحها خالصةً لك من دون المؤمنين﴾ فبيّن أنّ هذا الضرب من النكاح خاصّ له دون غيره من المؤمنين.

وقوله: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم﴾ يعني على المؤمنين ﴿في أزواجهم﴾ قال قتادة: معناه أي لا نكاح إلّا بوليّ وشاهدين وصداق، وألّا يتجاوز الأربع. وقال مجاهد: ما فرضنا عليهم ألّا يتزوّجوا أكثر من أربع. وقال قوم ﴿ما فرضنا عليهم في أزواجهم﴾ من النفقة والقسمة وغير ذلك.

وعندنا أنّ الشاهدين ليسا من شرط صحّة انعقاد العقد، ولا الوليّ إذا كانت المرأة بالغة رشيدة لأنّها وليّة نفسها. والمعنى على مذهبنا إنّا قد علمنا ما فرضنا على الأزواج من مهرهنّ ونفقتهنّ وغير ذلك من الحقوق مع ﴿ما ملكت أيمانهم﴾ «ما» في موضع جرّ لأنّها عطف على «في»

---

(١) انظر الأقوال في تفسير الكشف والبيان ٨: ٥٤، وتفسير الماوردي ٤: ٤١٤.

وتقديره: في أزواجهم وفي ما ملكت أيمانهم ﴿لكيلا يكون عليك حرجٌ﴾ إذا تزوّجت المرأة بغير مهر إذا وهبت لك نفسها وأردتها.

ثمّ قال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي ساتراً للذنب على المسيئين رحيماً[١] بهم ومنعماً عليهم.

قوله تعالى:

تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ترجئ﴾ مهموزة، الباقون بغير همز. من همز خفّفها ومن ترك الهمز ليّن، وهما لغتان يقال: أرجئت وأرجيت. وقرأ أبو عمرو وحده ﴿لا تحلّ﴾ بالتاء، الباقون

(١) في الحجريّة: «خبيراً» بدل «رحيماً».

بالياء. فمن قرأ بالتاء فلأنّ النساء مؤنّثة. ومن قرأ بالياء حمله على اللفظ لأنّ المعنى: لا يحلّ لك شيء من النساء.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيّه محمّدﷺ يخيّره في نسائه بين أن يرجئ منهنّ من شاء أي تؤخّر وتبعد. قال ابن عبّاس: خيّره الله بين طلاقهنّ وإمساكهنّ. وقال قوم: معناه تترك نكاح من شئت وتنكح من شئت من نساء أُمّتك. وقال مجاهد: معناه تعزل من شئت من نسائك فلا تأتيها وتأتي من شئت من نسائك فلا تقسم لها.

فعلى هذا يكون القسم ساقطاً عنه، فكان ممّن أرجى ميمونة وأُمّ حبيبة وصفيّة وسودة، فكان يقسم لهنّ من نفسه وماله ما شاء، وكان ممّن يأوي عائشة وحفصة وأُمّ سلمة وزينب، فكان يقسم نفسه وماله بينهنّ بالسويّة. وقال زيد بن أسلم: نزلت في اللاتي وهبن أنفسهنّ، فقال الله له: تزوّج من شئت منهنّ واترك من شئت، وهو اختيار الطبري[١] وهو أليق بما تقدّم.

فالإرجاء هو التأخير وهو من تبعيد وقت الشيء عن وقت غيره، ومنه الإرجاء في فسّاق أهل الصلاة. وهو تأخير حكمهم بالعقاب إلى الله.

﴿وتؤوي﴾ منهنّ ﴿من تشاء﴾ فالإيواء: ضمّ القادر غيره من الأحياء الّذين من جنس ما يعقل إلى غيره أو ناحيته، تقول: آويت الإنسان آويه إيواءً وأوى هو يأوي أوياً: إذا انضمّ إلى مأواه.

وقوله: ﴿ومن ابتغيت﴾ يعني من طلبت ﴿ممّن عزلت﴾ قال قتادة: كان نبيّ الله يقسم بين أزواجه، فأحلّ الله تعالى له ترك ذلك. وقيل: ﴿ومن ابتغيت﴾ إصابته ممّن كنت عزلت عن ذلك من نسائك. وقال الحسن: ﴿ترجي من تشاء منهنّ﴾ تذكّر المرأة للتزويج ثمّ ترجيها فلا تتزوّجها

(١) تفسير الطبري ١٠: ٣١٥.

﴿فلاجناح عليك﴾ أي لا جناح عليك في ابتغاء من شئت وإرجاء من عزلت وإيواء من شئت ﴿ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ ولا يحزنّ﴾ أي أقرب إذا علمن أنّ الرخصة من قبل الله كان ذلك أقرّ لعينهنّ، وأنّهنّ لا يطلّقن وأشدّ لسرورهنّ، وهو قول قتادة.

وقيل: ﴿ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ﴾ إذا طمعت في ردّها إلى فراشها بعد عزلها.

﴿ويرضين بما آتيتهنّ كلّهنّ﴾ رفع «كلّهنّ» على تأكيد الضمير وهو النون في «يرضين» لا يجوز غير ذلك، لأنّ المعنى عليه.

ثمّ قال: ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ من الرضا والسخط والميل إلى بعض النساء دون بعض ﴿وكان الله عليماً﴾ بذلك ﴿حليماً﴾ عن أن يعاجل أحداً بالعقوبة.

وقوله: ﴿لا يحلّ لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهنّ﴾ قال ابن عبّاس والحسن: بعد التسع اللاتي كنّ عنده واخترنه مكافأة لهنّ على اختيارهنّ الله ورسوله. وقال أُبيّ بن كعب: لا يحلّ لك من بعد أي حرّم عليك ما عدا اللواتي ذكرن بالتحليل في ﴿إنّا أحللنا لك...﴾ الآية. وهنّ ستّ أجناس النساء اللاتي هاجرن معك وإعطائهنّ مهورهنّ وبنات عمّه وبنات عمّاته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه ومن وهبت نفسها له بجميع ما شاء من العدد، ولا يحلّ له غيرهنّ من النساء. وقال مجاهد: ﴿لا يحلّ لك النساء﴾ من أهل الكتاب ويحلّ لك المسلمات.

وروي أنّ حكم هذه الآية نسخ وأُبيح له ما شاء من النساء، أي أيّ جنس أراد وكم أراد. فروي عن عائشة أنّها قالت: لم يخرج النبيّ ﷺ من

دار الدنيا حتّى حلّل الله له ما أراد من النساء[١]. وهو مذهب أكثر الفقهاء، وهو المرويّ عن أصحابنا في أخبارنا[٢].

﴿ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج﴾ قال ابن زيد: معناه أن تعطي زوجتك لغيرك وتأخذ زوجته، لأنّ أهل الجاهليّة كانوا يتبادلون الزوجات. وقيل: معناه تطلّق واحدة وتتزوّج أُخرى بعدها ﴿ولو أعجبك حسنهنّ إلّا ما ملكت يمينك﴾ استثناء الإماء أي اللاتي تملكهنّ من جملة ما حرّم عليه من النساء ﴿وكان الله على كلّ شيءٍ رقيباً﴾ أي عالماً حافظاً. فالرقيب الحفيظ، في قول الحسن وقتادة، قال الشاعر:

لواحد الرقباء للضرباء أيديهم نواهد[٣]

ثمّ خاطب المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبيّ إلّا أن يؤذن لكم﴾ نهاهم عن دخول دور النبيّ بغير إذن ﴿إلى طعام غير ناظرين إناه﴾ أي بلوغه، وكان يداريهم، وهو نصب على الحال، يقال في الطعام: أناى يأني: إذا بلغ حال النضج، قال الشاعر.

تمخضت المنون له بيومٍ أنى ولكلّ حادثةٍ تمام[٤]

وقال الحطيئة:

وأتيت العشاء إلى سُهيلٍ أو الشعرَى فطال بي الأناءُ[٥]

---

(١) رواه الطبري في تفسيره ١٠: ٣٢٠.

(٢) الكافي ٥: ٣٨٧ح ١، ص ٣٨٨ح ٢، ٣٨٩ح ٤.

(٣) أنشده ابن دريد في جمهرة اللغة ١: ٢٧١، ونسبه إلى دُؤاد الأيادي، وفيه: «كمقاعد» بدل «لواحد».

(٤) أنشده ابن دريد في جمهرة اللغة ٢: ٢٣٠ ونسبه إلى عمرو بن حسّان الشيباني، وفيه: «حاملة» بدل «حادثة».

(٥) ديوان الحطيئة: ص ٥٤، وفيه: «آنَيتُ» بدل «أتيت» و«العشاء» بدل «الأناء».

وقال البصريّون: لا يجوز «غير ناظرين» بالجرّ على صفة «طعام» لأنّ الصفة إذا جرت على غير من هي له لم يضمر الضمير[1] وأجاز ذلك الفرّاء[2] وأنشد الأعشى:

فقلت له: هذه هاتها إلينا بأدماءَ مقتادِها[3]

والمعنى على يدي من اقتادها، وقال الكسائي: سمعت العرب تقول: يدك باسطها، أي أنت. وقال الزجّاج: لو جرّ «غير» لقال: إلى طعام غير ناظرين إناه أنتم، لا يجوز إلّا ذلك[4]. والمعنى غير منتظرين بلوغ الطعام.

ثمّ قال: ﴿ولكن إذا دعيتم فادخلوا﴾ والمعنى إذا دعيتم إلى طعام فادخلوا ﴿فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديثٍ﴾ أي تفرّقوا ولا تقيموا ولا تستأنسوا بطول الحديث، وإنّما منعوا من الاستئناس من أجل طول الحديث لأنّ الجلوس يقتضي ذلك.

والاستئناس هو ضدّ الاستيحاش، والأُنس ضدّ الوحشة، وبيّن تعالى أنّ الاستئناس بطول الجلوس يؤذِي النبيَّ وأنّه يستحيي من الحاضرين، فيسكت على مضض ومشقّة ﴿والله لا يستحيي من الحقّ﴾ ثمّ قال: ﴿وإذا سألتموهنّ متاعاً﴾ يعني إذا سألتم أزواج النبيّ شيئاً تحتاجون إليه ﴿فاسألوهنّ من وراء حجاب﴾ وستر ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ﴾ من الميل إلى الفجور.

ثمّ قال: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ قال أبو عبيدة: «كان»

---

(١) وفي الحجرية: «لم يضمن الضمير».

(٢) معاني القرآن ٢: ٣٤٧.

(٣) ديوان الأعشى: ٥٨، وفيه:

فقلنا له: هذه هاتها بأدماءَ في حبلِ مقتادها

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٣٤.

زائدة والمعنى: ليس لكم أن تؤذوا رسول الله بطول الجلوس عنده ومكالمة نسائه.

﴿ولا﴾ يحلّ لكم أيضاً ﴿أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ لأنّهنّ صرن بمنزلة أُمّهاتكم في التحريم.

وقال السدّي: لمّا نزل الحجاب قال رجل من بني تيم: أنحجب من بنات عمّناأ إن مات عرّسنا بهنّ، فنزل قوله: ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إنّ ذلكم﴾ إن فعلتموه ﴿كان عند الله عظيماً﴾.

ثمّ قال لهم: ﴿إن تبدوا شيئاً﴾ أي إن أظهرتموه من مواقعة النساء ﴿أو تخفوه فإنّ الله كان بكلّ شيء عليماً﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم لا ظاهرة ولا باطنة.

ثمّ استثنى لأزواج النبيّ صلى الله عليه وآله من يجوز لها محادثتهم ومكالمتهم، فقال: ﴿لا جناح عليهنّ في آبائهنّ ولا أبنائهنّ ولا إخوانهنّ ولا أبناء إخوانهنّ ولا أبناء أخواتهنّ ولا نسائهنّ ولا ما ملكت أيمانهنّ﴾ ولم يذكر العمّ والخال لأنّه مفهوم من الكلام، لأنّ قرباتهم واحدة، لأنّهنّ لا يحلّلن لواحد من المذكورين بعقد نكاح على وجه، فهنّ محرّم لهنّ.

﴿ولا نسائهنّ ولا ما ملكت أيمانهنّ﴾ قال قوم: من النساء والرجال. وقال آخرون: من النساء خاصّة. وهو الأصحّ. وقال مجاهد: رفع الجناح ـ هاهنا ـ في وضع الجلباب للمذكورين. وقال قتادة: في ترك الاحتجاب.

ثمّ أمرهنّ بأن يتّقين الله ويتركن معاصيه فقال: ﴿واتّقين الله إنّ الله كان على كلّ شيء شهيداً﴾ أي عالماً لا يخفى عليه شيء من ذلك. وقال الشعبي وعكرمة: وإنّما لم يذكر العمّ والخال، لئلّا ينعتاهنّ لأبنائهما.

وكان سبب نزول الآية لمّا نزل الحجاب، قوله: ﴿فاسألوهنّ من وراء

حجابٍ﴾ قال آباء النساء وأبناؤهنّ: ونحن أيضاً مثل ذلك؟ فأنزل الله الآية وبيّن أنّ حكم هؤلاء بخلاف حكم الأجانب.

قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ * لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً: إنّه يصلّي وملائكته على النبيّ صلى الله عليه وآله وصلاة الله تعالى هو ما فعله به من كراماته وتفضيله وإعلاء درجاته ورفع منازله وثنائه عليه، وغير ذلك من أنواع إكرامه. وصلاة الملائكة عليه مسألتهم الله تعالى أن يفعل به عليه السلام مثل ذلك. وزعم بعضهم أنّ «يصلّون» فيه ضمير الملائكة دون اسم الله مع إقراره بأنّ الله سبحانه يصلّي على النبيّ، لكنّه يذهب في ذلك إلى أنّه في إفراده بالذكر تعظيماً، ذكره الجبائي.

ثمّ أمر تعالى المؤمنين المصدّقين بوحدانيّته المقرّين بنبوّة نبيّه أن يصلّوا أيضاً عليه، وهو أن يقولوا: اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم، في قول ابن عبّاس.

ثمّ أمر المؤمنين أيضاً أن يسلّموا لأمره تعالى وأمر رسوله تسليماً في جميع ما يأمرهم به. و«التسليم» هو الدعاء بالسلامة كقولهم: سلّمك الله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وكقولك: السلام عليك يا رسول الله.

ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله﴾ وأذى الله يقال هو أذى أوليائه، وإنّما أضافه إلى نفسه تعظيماً لأوليائه ومبالغة في عظم المعصية به ﴿لعنهم الله﴾ أي يستحقّون اللعنة من الله، لأنّ معنى «لعنهم الله» أي حلّ بهم وبال اللعن بالإبعاد من رحمة الله. وقول القائل: «لعن الله فلاناً» معناه الدعاء عليه بالإبعاد من رحمته.

وقوله: ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أي هم مبعدون من رحمته تعالى في الدنيا والآخرة، ومع ذلك ﴿أعدّ لهم﴾ في الآخرة ﴿عذاباً مهيناً﴾ أي مذلاًّ لهم. و«الهوان» الاحتقار، يقال: أهانه إهانة. وإنّما وصف العذاب بأنّه مهين لأنّه تعالى يهين الكافرين والفاسقين به، حتّى يظهر الذلّة فيه عند العقاب.

ثمّ قال: ﴿والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾ يعني يؤذونهم من غير استحقاق على شيء فعلوه يستوجبون به ذلك ﴿فقد احتملوا بهتاناً﴾...

وكان سبب نزول الآية أنّ قوماً من الزناة كانوا يمشون في الطرقات فإذا رأوا امرأة غمزوها. وقال النقّاش: نزلت في قوم كانوا يؤذون عليّاًعليه السلام وقيل: نزلت في من تكلّم في عائشة في قصّة الإفك. وقوله: ﴿فقد احتملوا بهتاناً﴾ أي كذباً ﴿وإثماً مبيناً﴾ أي ظاهراً.

ثمّ خاطب النبيّصلى الله عليه وآله بقوله: ﴿يا أيّها النبيّ﴾ وأمره بأن يقول لأزواجه وبناته ونساء المؤمنين ويأمرهنّ بأن يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ، فالجلابيب جمع جلباب، وهو خمار المرأة وهي المقنعة تغطّي جبينها ورأسها إذا خرجت لحاجة، بخلاف خروج الإماء اللاتي يخرجن مكشّفات الرؤوس والجباه، في قول ابن عبّاس ومجاهد. وقال الحسن: الجلابيب الملاحف تدنيها المرأة على وجهها ﴿ذلك أدنى أن يعرفن

فلا يؤذين﴾ ثمّ قال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي ستّار الذنوب على عباده ﴿رحيماً﴾ بهم.

ثمّ قال لنبيّهﷺ: ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ أي لئن لم يرجعوا ﴿والّذين في قلوبهم مرضٌ﴾ أي شكّ ونفاق. وقيل: شهوة الزنا ﴿والمرجفون في المدينة﴾ فالإرجاف إشاعة الباطل للاغتنام به. والمرجفون هم الّذين كانوا يطرحون الأخبار الكاذبة بما يشغلون به قلوب المؤمنين ﴿لنغرينّك بهم﴾ يا محمّد، و«الإغراء» الدعاء إلى تناول الشيء بالتحريض عليه، أغراه يغريه إغراءً وغري به يغرى مثل أولع به كأنّه أخذ بلزومه. وقيل: معناه لنسلّطنّك عليهم، في قول ابن عبّاس.

وقوله: ﴿ثمّ لا يجاورونك فيها إلّا قليلاً﴾ يعني ينفون عن المدينة ولا يجاورونك يا محمّد فيها.

قوله تعالى:

مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

لمّا أخبر الله تعالى وتوعّد المنافقين والذين في قلوبهم مرض أي شكّ والمرجفون في المدينة بما يشغل قلوب المؤمنين وأنّهم إن لم يتوبوا عن ذلك نفوا عنها وصفهم بأنّهم ﴿ملعونين﴾ أي مبعدون ﴿أينما ثقفوا﴾ ونصب «ملعونين» على الحال من الضمير في قوله: ﴿يجاورونك﴾ وقيل: إنّه نصب على الذمّ والصفة لـ«قليل» كأنّه قال: إلّا أذلّاء ملعونين، «وأين ما»

منصوب بـ«ثقفوا» وانجزم به «ثقفوا» على طريق الجزاء. وإنّما جاز ذلك، لأنّ الجازم في الأصل «إن» المحذوفة. وصار «أينما» تقوم مقامها وتغني عنها. ولا يجوز أن يعمل فيه «أُخذوا» لأنّه جواب الجزاء، ولا يعمل الجواب فيها قبل الشرط، لئلّا يختلط أحد الأمرين بالآخر.

وفي الآية دلالة على أنّهم انتهوا، وإلّا كان يوقع الإغراء بهم ويجعلهم بالصفة الّتي ذكرها.

وقوله: ﴿سنّة الله الّتي قد خلت من قبل﴾[1] فالسنّة الطريقة في تدبير الحكيم ومنه سنّة رسول الله، وهي الطريقة الّتي أجراها بأمر الله تعالى، فأُضيفت إليه لأنّه فعلها بأمر الله. وأصل السنّة الطريقة. ومن عمل الشيء مرّة أو مرّتين، لا يقال: إنّ ذلك سنّة، لأنّ السنّة الطريقة الجارية، ولا تكون جارية بما لا يعتدّ به من العمل القليل. وسنّة الله في المتمرّدين في الكفر ـ الّذين لا يقلع أحد منهم ولا من نسلهم ـ الإهلاك في العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ولن تجد لسنّة الله تبديلاً﴾ معناه إنّ السنّة الّتي أراد الله أن يسنّها في عباده لا يتهيّأ لأحد تغييرها ولا قلبها عن وجهها، لأنّه تعالى القادر الّذي لا يتهيّأ لأحد منعه ممّا أراد فعله.

ثمّ قال: ﴿يسألك[2] الناس عن الساعة﴾ يعني عن يوم القيامة ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنّما علمها عند الله﴾ لا يعلمها أحد غيره ﴿وما يدريك﴾ يا محمّد ﴿لعلّ الساعة تكون قريباً﴾ مجيئها.

ثمّ قال تعالى مخبراً: ﴿إنّ الله لعن الكافرين﴾ يعني أبعدهم من رحمته

---

(١) كذا في الحجريّة وهي الآية ٢٣ من سورة الفتح لا الآية الّتي في هذه السورة.

(٢) في الحجريّة: «يا محمّد».

﴿وأعدّ لهم سعيراً﴾ يعني النار الّتي تستعر وتلتهب ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي مؤبّدين فيها لا يخرجون منها ﴿ولا يجدون وليّاً﴾ ينصرهم من دون الله ﴿ولا نصيراً﴾ يدفع عنهم.

واستدلّ قوم بذلك على النار أنّها مخلوقة الآن، لأنّ مالايكون مخلوقاً لايكون معدّاً. وهذا ضعيف، لأنّه يجوز أن يكون المراد إنّ الجنّة والنار معدّتان في الحكم كائنتان لا محالة ، فلا يمكن الاعتماد على ذلك.

قوله تعالى:

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَاْ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ أربع آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ابن عامر ويعقوب ﴿ساداتنا﴾ بألف بعد الدال، الباقون بغير ألف على جمع التكسير، والأوّل على جمع الجمع. وقرأ عاصم وابن عامر في رواية الداجوني عن هشام ﴿لعناً كبيراً﴾ بالباء، الباقون بالثاء.

العامل فيقوله:﴿يوم تقلّب﴾ قولُه:﴿وأعدّ لهمسعيراً... يوم تقلّب وجوههم﴾ فالتقليب تصريف الشيء في الجهات، ومثله التنقيل من جهة إلى جهة، فهؤلاء تقلّب وجوههم في النار، لأنّه أبلغ في ما يصل إليهم من العذاب.

وقوله: ﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ حكاية ما يقول هؤلاء الكفّار الّذين تقلّب وجوههم في النار، فإنّهم يقولون متمنّين: يا ليتنا كنّا أطعنا الله في ما أمرنا به ونهانا عنه، ويا ليتنا أطعنا الرسول في ما دعانا إليه.

وحكى أيضاً أنّهم يقولون: يا ﴿ربّنا إنّا أطعنا﴾ في ما فعلنا ﴿سادتنا وكبراءنا﴾ والسادة جمع سيّد، وهو الملك المعظّم الّذي يملك تدبير السواد

الأعظم، ويقال للجمع الأكثر: السواد الأعظم، يراد به السواد المنافي لشدّة البياض والضياء الأعظم ﴿فأضلّونا السبيلاْ﴾ يعني هؤلاء الرؤساء أضلّونا عن سبيل الحقّ. وقيل: الآية نزلت في الإثني عشر الّذين أطعموا الكفّار يوم بدر من قريش.

ثمّ حكى أنّهم يقولون: ﴿ربّنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ لضلالهم في نفوسهم وإضلالهم إيّانا. وقيل: معناه عذاب الدنيا والآخرة. ﴿والعنهم لعناً كثيراً﴾ أي مرّة بعد أُخرى. ومن قرأ بالباء أراد اللعن الّذي هو أكبر من لعن الفاسق، لأنّ لعنة الكافر أعظم.

ثمّ خاطب تعالى المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين آذوا موسى﴾ أي لا تؤذوا نبيّكم مثل ما أُوذي موسى يعني آذاه قومه بعيب أضافوه إليه لم يقم حجّة بتعييبه. وقيل: إنّ الآية نزلت في المنافقين عابوا النبيّ صلى الله عليه وآله باصطفائه صفيّة بنت حي، فنهاهم الله عن ذلك.

واختلف المفسّرون في العيب الّذي أضافه قوم موسى إليه، فقال قوم: إنّهم آذوا موسى بأن أشاعوا أنّ هارون قتله موسى فأحياه الله ـ عزّ وجلّ ـ حتّى أخبرهم أنّ موسى لم يقتله وأنّ الله تعالى هو الّذي أماته عند انقضاء أجله، وهو معنى قوله: ﴿فبرّأه الله ممّا قالوا﴾ وقيل: إنّهم قالوا: إنّه أبرص. وقيل: إنّهم أضافوه إلى أنّه أدرّ الخصيتين، فبرأه الله من ذلك.

وأجاز البلخي حديث الصخرة الّتي ترك موسى ثيابه عليها على أن يكون ذلك معجزاً له. وقال قوم: ذلك لا يجوز لأنّ فيه اشتهار النبيّ وإبداء سوأته على رؤوس الأشهاد، وذلك ينفر عنه، فبرّأه الله من ذلك.

وقوله: ﴿وكان عند الله وجيهاً﴾ أي عظيم القدر، رفيع المنزلة إذا سأل الله تعالى شيئاً أعطاه. وأثبت الألف في قوله: ﴿الرسولا... والسبيلا﴾ لأجل

الفواصل في رؤوس الآي تشبيهاً بالقوافي.

قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ أربع آياتٍ بلا خلاف.

أمر الله تعالى المصدّقين بوحدانيّته المقرّين بنبوّة نبيّه بأن يتّقوا عقابه باجتناب معاصيه وفعل واجباته، وأن يقولوا ﴿قولاً سديداً﴾ أي صواباً بريئاً من الفساد خالصاً من شائب الكذب والتمويه واللغو. وقوله: ﴿يصلح لكم أعمالكم﴾ جزم بأنّه جواب للأمر، وفيه معنى الجزاء، وتقديره: إن فعلتم ما أمرتكم به يصلح لكم أعمالكم.

وإصلاحه أعمال العباد أن يلطف لهم فيها حتّى تستقيم على الطريقة السليمة من الفساد، وذلك ممّا لا يصحّ إلّا في صفات الله تعالى، لأنّه القادر الّذي لا يعجزه شيء، العالم الّذي لا يخفى عليه شيء.

﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾ قيل: إنّما وعد الله بغفران الذنوب عند القول السديد، ولم يذكر التوبة لأنّ التوبة داخلة في الأقوال السديدة، كما يدخل فيه تجنّب الكذب في كلّ الأمور، فيدخل فيه الدعاء إلى الحقّ وترك الكفر والهزل واجتناب الكلام القبيح.

ثمّ قال: ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ في ما أمراه به ونهياه عنه ودعواه إليه ﴿فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ أي أفلح فلاحاً عظيماً، لأنّه يفوز بالجنّة والثواب

الدائم. وقيل: معناه فقد ظفر بالكرامة من الله والرضوان، وهو الفوز العظيم.

ثمّ أخبر تعالى بأنّه عرض الأمانة على السماوات والأرض، فالأمانة هي العقد الّذي يلزم الوفاء به ممّا من شأنه أن يؤتمن على صاحبه، وقد عظّم الله شأن الأمانة في هذه الآية وأمر بالوفاء بها، وهو الّذي أمر به في سورة المائدة وعناه بقوله: ﴿يا أيّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ (١).

وقيل في قوله: ﴿عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال﴾ ـ مع أنّ هذه الأشياء جمادات لا يصحّ تكليفها ـ أقوال:

أحدها: أنّ المراد عرضنا على أهل السماوات وأهل الأرض وأهل الجبال.

وثانيها: أنّ المعني في ذلك تفخيم شأن الأمانة وتعظيم حقّها، وأنّ من عظم منزلتها أنّها لو عرضت على الجبال والسماوات والأرض مع عظمها، وكانت تعلم بأمرها لأشفقت منها، غير أنّه خرج مخرج الواقع لأنّه أبلغ من المقدّر.

وقوله: ﴿فأبين ان يحملنها﴾ أي منعن أن يحملن الأمانة ﴿وأشفقن منها﴾ أي خفن من حملها ﴿وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً﴾ أي ظلوماً لنفسه بارتكاب المعاصي، جهولاً بموضع الأمانة واستحقاق العقاب على ارتكاب المعاصي. وقال ابن عبّاس: معنى الأمانة الطاعة لله، وقيل لها: أمانة لأنّ العبد اؤتمن عليها بالتمكين منها ومن تركها. وقال تعالى: ﴿ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾ (٢) فرغب في الأحسن، وزهّد في تركه. وقيل: من الأمانة أنّ المرأة اؤتمنت على فرجها والرجل على فرجه أن يحفظاهما من الفاحشة. وقيل: الأمانة ما خلق الله تعالى في هذه الأشياء من الدلائل على ربوبيّته وظهور ذلك منها، كأنّهم أظهروها، والإنسان

---

(١) المائدة: ١.

(٢) هود: ٧.

جحد ذلك وكفر به. وفائدة هذا العرض إظهار ما يجب من حفظها وعظم المعصية في تضييعها.

وقيل: معنى ﴿حملها الإنسان﴾ أي خانها، لأنّ من خان الأمانة فقد حملها، وكذلك كلّ من أثم فقد حمل الإثم، كما قال تعالى: ﴿وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ (١).

وقال البلخي: يجوز أن يكون معنى العرض والإباء ليس هو ما يفهم بظاهر الكلام، بل إنّما أراد تعالى أن يخبر بعظم شأن الأمانة وجلالة قدرها وفظاعة خيانتها وترك أدائها، وأنّه أوجد السماوات مع عظمها لا تحملها وأنّ الإنسان حملها، وليس الإنسان ـ هاهنا ـ واحداً بعينه، ولا هو المطيع المؤمن، بل هو كلّ من خان الأمانة ولم يرد الحقّ فيها.

وحمل الإنسان الأمانة هو ضمانة القيام بها وأداء الحقّ فيها، لأنّ ذلك طاعة منه لله، واتّباع لأمره، والله لا يعتب على طاعته وما أمر به ودعا إليه، لكن معنى «حملها» أنّه احتملها ثمّ خانها ولم يؤدّ الحقّ فيها، كأنّه حملها فذهب بها واحتمل وزرها، كما يقولون: فلان أكل أمانته أي خان فيها، والعرب تقول: سألت الربع، وخاطبت الدار فأجابني بكذا، وقالت كذا. وربّما قالوا: فلم يجب، وامتنعت من الجواب.

وليس هناك سؤال ولا جواب، وإنّما هو إخبار عن الحال الّتي تدلّ عليه، وعبّر عنه بذكر السؤال والجواب، كما قال تعالى: ﴿ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ للسموات والأرض ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ (٢) وهو تعالى لا يخاطب من لا يفهم ولا يعقل، وقال تعالى: ﴿لقد جئتم شيئاً إدّاً * تكاد السماوات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّاً﴾ (٣) ونحن نعلم أنّ السماوات

---

(١) العنكبوت: ١٣. (٢) فصّلت: ١١. (٣) مريم: ٨٩ ـ ٩٠.

لم تشعر بما كان من الكفّار وأنّه لا سبيل لها إلى الانفطار في ذات أنفسها، ويقول القائل: أتيت بكذب لا تحتمله الجبال الراسيات، قال الشاعر:

فقال لي البحرُ إذ جئته كيف يجيز ضريرٌ ضريرا

وقال جرير:

لمّا أتى خَبَرُ الزبير تواضعت سُور المدينَةِ والجِبال الخُشَّعُ[1]

وقال آخر:

فأجهشتُ للتوباد[2] حينَ رأَيتُه
وكبّر للرحمن حينَ رآني
فقلت له أين الذين عهدتهم
بجنبيك في خفض وطيب زمان
فقال مَضَوا فاستودعُوني بلادَهُمْ
ومن ذا الّذي يبقى على الحَدَثانِ[3]

والتوباد جبل، وقال آخر:

امتلأ الحوضُ وقال قطني مهلاً رويداً قد ملأتَ بطني[4]

وقال بعض المحدّثين:

يا قصر ويحك هل أوعيت من خبر
فقال هل خبر أنبأ من العبرِ
قد كان يسكنني قوم ذو خطر
بادوا على الدهر والأيّام والغيرِ

---

(١) ديوان جرير: ٢٥٩.
(٢) كما في الديوان وفي الحجريّة: «للبوباه».
(٣) قائله مجنون ليلى، ديوانه: ١٩٢، وفيه: «وهلّل» بدل «وكبّر» و«خواليك في خصبٍ وطيب زمان» بدل «بجنبيك».
(٤) أنشده ابن السكيت في إصلاح المنطق: ٥٧ ونسبه إلى الراجز، وفيه: «سلاً» بدل «مهلاً».

وقد أتاني وقرب العهد يذكرني
منصور أمتكم في الشوكِ والشجرِ
حتّى أناخ على بابي فقلت له
أما كفاك الّذي نبّئت من خبري
إن لا أكن قلته نطقاً فقد كتبت
به الحوادث في صخري وفي حجري
خطاً قديماً جليلاً غير ذي عِوَجٍ
يقرأ بكلّ لسان ظاهر الأثرِ
فحلني ثمّ أفناه الزمان ولم يطق
دفاعاً لما قد حمّ من قَدَرِ
وكلّهم قائل لي أنت لي ولمن
خلفت من ولدي حظراً على البشرِ
فما تملى بنو الآباء بعدهم
ولا هم سكنوا إلّا على غَررِ

وقد قال بعض الحكماء: سل الأرض من شقّ أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً.

والعرض على وجوه يقال: عرضت المال والعمل على فلان، فهذا بالقول والخطاب. وعرضت هذا الأمر على فكري البارحة، وهذا أمر إن عرض على العقول لم تقبله، ومنه قولهم: عرضتُ الناقة على الحوض، يريدون عرضتُ الحوض على الناقة.

و«الإباء» على وجوه: فمنه الامتناع وإن لم يكن قصد لذلك، ومنه ألّا يصلح لما يريده، تقول: أردت سلّ سيفي فأبى عليَّ. وتقول: هذه الأرض

تأبى الزرع والغرس أي لا تصلح لهما.

فعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿فأبين أن يحملنها﴾ أي لا تصلح لحملها، وليس في طباعها حمل ذلك، لأنّه لا يصلح لحمل الأمانة إلّا من كان حيّاً عالماً قادراً سميعاً بصيراً، بل لا يلزم أن يكون سميعاً بصيراً، وإنّما يكفي أن يكون حيّاً عالماً قادراً.

وقال قوم: معناه إنّا عرضنا الأمانة على أهل السماوات وأهل الأرض وأهل الجبال، كما قال ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾[١] يعني أهل السماء وأهل الأرض فأبوا حملها على أن يؤدّوا حقّ الله فيها إشفاقاً من التقصير في ذلك ﴿وحملها الإنسان﴾ يعني الكافر جهلاً بحقّ الله واستخفافاً بعرضه ﴿إنّه كان ظلوماً﴾ لنفسه ﴿جهولاً﴾ بما يلزمه القيام بحقّ الله.

وإنّما قال: ﴿فأبين﴾ ولم يقل: فأبوا حملاً على اللفظ، ولم يرده إلى معنى الآدميّين، كما قال: ﴿والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾[٢] وقوله: ﴿فظلّت أعناقهم لها خاضعين﴾[٣] حملاً على المعنى دون اللفظ، وكلّ ذلك واضح بحمد الله.

ثمّ قال: ﴿ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ يعني بتضييع الأمانة، وقال الحسن وقتادة: كلاهما خانا الأمانة.

﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ بحفظهما الأمانة لأنّهما كليهما أدّيا الأمانة ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي ستّاراً لعيوب خلقه رحيماً بهم في إسقاط عقابهم إذا تابوا ورجعوا إلى الطاعة.

---

(١) الدخان: ٢٩.
(٢) يوسف: ٤.
(٣) الشعراء: ٤.

# الفهارس

فهرس الآيات المستشهد بها
فهرس الأحاديث
فهرس الأشعار والأرجاز
فهرس المباحث العامّة
فهرس المواضيع

# فهرس الآيات


| رقم الآية | | الصفحة |
|---|---|---|
| | **البقرة (٢)** | |
| ٢ | ... هُدىً للمتّقين | ٥٠٤و٥٠٦و ٥٣٢ |
| ٢٢ | ... أنزل من السماء ماءً... | ٣١٠ |
| ٣٥ | ... اسكن أنت وزوجك الجنّة... | ٣٣٥و ٥٠٥ |
| ٦١ | ... بَآءُو بغضب من الله... | ٤٨٦ |
| ٦٣ | ... خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا مافيه... | ٢٦٨ |
| ٦٥ | ... كونوا قردةً خاسئين | ٤١ و ١٧٤ |
| ٦٩ | ... إنّها بقرة صفراء... | ٣١٠ |
| ٩٧ | ... فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله... | ٣٤١ |
| ١١١ | ... هاتو بُرهانكم إن كنتم صادقين | ٤٦٠ |
| ١٢٧ | وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل... | ٢١٥ |
| ١٢٨ | ... وَمن ذرّيّنا أُمّةً مُسلمة لك... | ١٢٢ |
| ١٣٧ | وإن تولّوا فإنّما هم في شقاق | ٢٢٨ |
| ١٤٨ | وَلكلّ وجهةٌ هو مولّيها... | ١٣٩ |
| ١٧٣ | إنّما حرم عليكم المَيتة... | ٦٠٠ |

| | | |
|---|---|---|
| ٢٠٥ | ... وَالله لا يُحبّ الفساد | ٥٢١ |
| ٢١٤ | أم حسبتُم أن تدخلوا الجَنَّةَ ولمّا يَأتِكم مَثلُ الّذين... | ٥٩٠ |
| ٢٢٠ | ... وَلو شاء اللهُ لأَعنتكم... | ١٢٢ |
| ٢٢٦ | ... فإن فآؤ فإنّ الله... | ٢٢٨ |
| ٢٣٨ | حافِظُوا على الصلوات... | ١٢٧ |
| ٢٤٥ | مَن ذا الّذي يُقرض الله قرضاً حسناً... | ٥٢٤ |
| ٢٥٥ | ... من ذا الّذي يشفع عنده إلّا بإذنه... | ١٨ |
| ٢٧٦ | يمحق اللهُ الربَوا ويُربي الصدقات... | ٥١٨ و٥٢٢ |
| ٢٧٨ | ... وَذَرُوا ما بَقِيَ من الرِبوٓا... | ٥٤ |
| ٢٨٢ | ... أن تضلّ إحداهما... | ٢١ |
| ٢٨٢ | ... إلّا أن تكون تجارة... | ٣٠ |
| ٢٨٦ | لا يكلّف الله نفساً إلّا وُسعها... | ١٢٢ و١٥٥ |


## آل عمران (٣)


| | | |
|---|---|---|
| ١٢ | قُل للّذين كفروا ستغلبون... | ٢٩٣ |
| ٢١ | ... ويقتلون النبيّين بغير حقّ... | ١٧٨ |
| ٢١ | ... فبشّرهم بعذابٍ أليم | ٤٧٢ |
| ٣٨ | ... هَب لي من لدنك ذرّيّةً طيّبةً... | ٢٨١ |
| ٥٩ | إنّ مثل عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب... | ٥٥٨ |
| ٩٦ | إنّ أوّل بيت وضع للناس للّذي ببكّة مباركاً... | ٤١ و٩٠ |
| ١١٢ | بَآءُو بغضب من الله... | ٤٨٦ |
| ١٤٨ | فآتاهم الله ثواب الدنيا... | ٥١٦ |
| ١٦٧ | ... يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم... | ١٠٤ |

| | | |
|---|---|---|
| ١٧٠ | فرحين بما آتاهم الله من فضله... | ٤٤٧ |
| ١٩٤ | ... وآتنا ما وَعدتَنا على رسلك... | ٢٤٩ |


## النساء (٤)


| | | |
|---|---|---|
| ٤ | ... فإن طِبن لكم عن شيءٍ منه نفساً... | ٤٣٦ |
| ٦ | ... فإن آنستم منهم رُشداً... | ٢٠١ |
| ٩ | وليخش الّذين لو تركُوا من خلفهم ذرّيّةً ضعافاً خافوا عليهم... | ٢٨١ |
| ١١ | ... فإن كان له إخوة... | ٤٧ و ٢٠٠ |
| ٢٣ | حرّمت عليكم أُمّهاتكم... وبنات الأُخت وأُمّهاتكُم... | ٢٧١ |
| ٢٩ | ... لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلّا أن تكون تجارةً... | ٢٣٨ |
| ٤٣ | ... لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارَى... | ٩٩ |
| ٥٨ | إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأماناتِ إلى أهلِها... | ١٢٧ |
| ٧٨ | ... وَلو كنتم في بروج مُشيّدة... | ٢٧٥ |
| ١٠٠ | ... وَمَن يخرج من بيته مُهاجراً إلى الله ورسوله... | ٥٥٥ |
| ١٠٨ | ... إذ يبيّتُون ما لا يرضى من القول... | ٣٧٩ |
| ١٧٦ | ... يُبيّن الله لكم أن تضِلّوا... | ٢١ |


## المائدة (٥)


| | | |
|---|---|---|
| ١ | يا أيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعُقوُد... | ٦٢٦ |
| ٢ | ... لا يجر منّكم شنآنُ قَومٍ أن... | ٢٨٩ |
| ٧١ | ... ثمّ عَمَوا وصَمُّوا كثيرٌ منهم... | ٥ |
| ١٠٣ | ما جَعل اللهُ مِن بَحيرةٍ وَلا سائبة... | ٤٢٦ |

## الأنعام (٦)


| | | |
|---|---|---|
| ٢٥ | ... إن هذا إلّا أساطير الأوّلين | ٣٢٨ |
| ٢٨ | .... ولَو رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهوا عنه... | ١٦٠و ١٧٠و ١٧٤و ٣٢١ |
| ١٠٠ | ... وَجَعلُوا لله شركاءَ الجِنّ... | ٤٢٧ |
| ١٠٢ | ... خالق كلّ شيء... | ٢٢٣ |
| ١٣٣ | وربّك الغنيّ ذوالرحمة إن يشأ يُذهبكم ويستخلِف من بعدكم... | ٢٣١ |
| ١٣٥ | ... فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار... | ٤٧٧ |
| ١٦٠ | ... ومن جاء بالسيّئة فلا يُجزى إلّا مِثلَها.... | ٤٥٢ |
| ١٦٠ | مَن جاء بالحسنة فلَهُ عَشرُ أمثالِها... | ٥١٩ |
| ١٦٤ | ... ولا تزر وازرةٌ وِزرَ أُخرى... | ٤٦٠و ٥٢٢ |


## الأعراف (٧)


| | | |
|---|---|---|
| ١٩ | ... اسكنْ أنتَ وزوجك الجنّة... | ٥٠٥ |
| ٣٢ | قُل مَن حرّم زينة الله الّتي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق... | ١٥٢ |
| ٤٣ | ... الحمدُلله الّذي هَدانا لِهَذا... | ٧٨ |
| ١٠٨ | ... بيضاء... | ٣١٠ |
| ١٢٩ | ... عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض... | ٢٣١ |
| ١٤٥ | ... فخُذها بقوّةٍ... | ٤٢٩ |
| ١٧١ | ... خُذُوا ما آتيناكم بقوّةٍ واذكُروا ما فيه... | ٢٦٨ |
| ١٧٩ | ... وَلَقد ذرأنا لجهنّم كثيراً... | ٤٠٦ |
| ١٨٦ | مَن يضلل اللهُ فلا هادى له ويذرُهُم... | ٢٤٦ |
| ١٨٨ | هو الّذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجَها ... | ٥٠٥ |

## الأنفال (٨)


| | | |
|---|---|---|
| ٣١ | ... إن هذا إلّا أساطيرُ الأوّلين | ٣٢٨ |
| ٣٢ | ... فَأمطر علينا حجارةً من السماء... | ٤٨٥ |
| ٤١ | ... وَما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجَمعانِ... | ٣٢ |
| ٥٨ | ... فَانبِذ إليهم على سواء... | ٦٤ |


## التوبة (٩)


| | | |
|---|---|---|
| ٣٣ | ... ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون... | ٥٩٠ |
| ٣٤ | ... والّذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في ... | ٤٤٥ و٤٧٢ |
| ٦٠ | ... وفي الرقاب... | ٢٠٩ |
| ٦٣ | ألم يعلموا أنّه من يحادد الله ورسوله فإنّ له نار جهنّم... | ١٤٣ |
| ٧٧ | فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه... | ٦٠٩ |
| ١٢٣ | ... قاتلوا الّذين يلونكم من الكفّار... | ٣٤٧ |
| ١٢٧ | ... ثمّ انصرفوا صرف الله قلوبهم... | ٥٢٢ |


## يونس (١٠)


| | | |
|---|---|---|
| ١٠ | ... وَآخرِ دَعواهم أن الحمدلله ربّ العالمين | ١٨٧ و٥٠٢ |
| ١٦ | ... ولا أدرأتكم به... | ٧٢ |
| ١٩ | ... وَلولا كلمة سبقت من ربّك... | ٦٢ |
| ٣٨ | ... فَأتوا بسورة مثله... | ٣٧ |
| ٩٣ | ولقد بوّأنا بني إسرائيل مبوّأ صدق... | ٤٨٦ |


## هود (١١)


| | | |
|---|---|---|
| ٧ | ... ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً... | ٦٢٦ |

١١٠ ولولا كلمة سبقت من ربّك... ٦٢

١١٤ ... إنّ الحسنات يذهبن السيّئات... ٤٥٧


### يوسف (١٢)


٤ ... والشمس والقمر رأيتهم... ٢٣ و ٦٣٠

٨ ... ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا ونحن عصبةٌ... ١٩٠

١٠ .. يلتقطه بعض السيّارة... ٣١

٧٠ ... إنّكم لسارقون ٣٨


### الرعد (١٣)


١٦ ... خالق كلّ شيء... ٢٢٣

١٧ ... أنزل من السماء ماءً ٣١٠

٢٦ اللهُ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر... ٥١

٢٨ الّذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكرالله... ٨٥


### إبراهيم عليه السلام (١٤)


١٩ ألم تر أنّ الله خلق السموات... ٢٢٣

٣٢ ... أنزل من السماء ماءً... ٣١٠


### الحجر (١٥)


٩ إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون ٤ و٨ و١٦٩ و ٢٩٠

٢٢ ... فأسقيناكُمُوه... ١٣٦

| | | |
|---|---|---|
| ٢٦ | ولقد خلقنا الإنسان... | ١٦٩ |
| ٧٢ | لعمرك... | ٢٩٥ |

## النحل (١٦)

| | | |
|---|---|---|
| ١٠ و ٦٥ | ... أنزل من السماء ماءً... | ٣١٠ |
| ٤٤ | ... وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل إليهم... | ٤ |
| ٦٦ | ... بطونه... | ١٣٧ |
| ٧٧ | ... وما أمر الساعة إلّا كلمح البصر أو هو أقرب... | ١٧٧ |
| ١٢٥ | ... وجادلهم بالّتي هى أحسن... | ٧٣ و ٤٨٠ |

## الإسراء (١٧)

| | | |
|---|---|---|
| ٣ | ذُرّيّة من حملنا مع نوح... | ٢٨١ |
| ١٢ | وجعلنا الليل والنهار آيتين... | ٤٢٧ |
| ١٥ | ... ولا تزر وازرة وزر أُخرى... | ٤٦٠ |
| ٢٧ | إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشياطين... | ٢٧٨ |
| ٤٩ | ... أ إذا كنّا عظاماً ورفاتاً... | ١٢٩ |
| ٥٩ | وَما منعنا أن نرسل بالآيات إلّا أن كذّب بها الأوّلون... | ٧ و ٤٨٤ |
| ٨٠ | ... أدخلنى مدخل صدق... | ١١٢ و ١٣٨ |
| ١١٠ | قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا... | ٢٧٢ |

## الكهف (١٨)

| | | |
|---|---|---|
| ٤٧ | ... وحشرناهم فلم نُغادِر منهم أحداً | ٣٩٥ |

### مريم (١٩)


| | | |
|---|---|---|
| ٤٤ | يا أبت لا تعبد الشيطان... | ٦٠ |
| ٥٩ | ... فسوف يلقون غيّاً | ٢٨٢ |
| ٦٢ | ... ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً | ٢٥٧ |
| ٨٩ ـ ٩٠ | لقد جئتم شيئاً إدّاً * تكاد المساوات يتفطّرن منه وتنشقّ ... | ٦٢٧ |


### طه (٢٠)


| | | |
|---|---|---|
| ١٠ | ... لعلّي آتيكم... | ٣٥٤ |
| ١٤ | إنّنى أنا الله... | ٤٢٩ |
| ٢٢ | ... بيضاء... | ٣١٠ |
| ٥٣ | ... أنزل من السماء ماءً... | ٣١٠ |
| ٦٤ | ... قد أفلح اليوم مَن استعلى | ١٤٨ |
| ٨٩ | ... ألّا يَرجعُ... | ١٨٧ |
| ١١٥ | ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى... | ٥٦٢ |
| ١٢٩ | ولولا كلمة سبقت من ربّك... | ٦٢ |


### الأنبياء (٢١)


| | | |
|---|---|---|
| ١ | اقترب للناس حسابهم... | ١٧٧ |
| ٢٢ | لوكا فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا... | ١٥٩ و١٦٧ |
| ٣٠ | ... وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ... | ٢٢٣ |
| ٣٢ | وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً... | ٤٢٧ |
| ٦٥ | ... لقد علمت ما هؤلاء ينطقون | ٢٣ |
| ٧٣ | ... وإيتاء الزكاة... | ٥١٦ |

## الحجّ (٢٢)


| | | |
|---|---|---|
| ٢٦ | وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت... | ٤٨٦ |
| ٢٩ | ثمّ ليقضوا... | ٧٤ |
| ٤٦ | ... فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتي في الصدور | ٥٩ |
| ٤٧ | ... وإنّ يوماً عند ربّك كألف سنة... | ٥٥٦ |
| ٦٣ | ... أنزل من السماء ماء... | ٣١٠ |
| ٦٧ | لكلّ أُمّةٍ جعلنا منسكاً هم ناسكوه... | ٩٣ |
| ٧٨ | ... ما جعل عليكم في الدين من حرج... | ١٢٣ |


## المؤمنون (٢٣)


| | | |
|---|---|---|
| ٢٠ | ... تنبت بالدهن... | ٨٥ |
| ٢٤ | ... ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين | ٣٢٨ |
| ٣٣ | ... وأترفناهم في الحياة الدنيا... | ١٥٦ |
| ٨٣ | ... إن هذا إلّا أساطير الأوّلين | ٣٢٨ |
| ١٠٩ | ... ربّنا آمنّا فاغفر لنا وارحمنا... | ٢٤٩ |


## النور (٢٤)


| | | |
|---|---|---|
| ٣٢ | وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين... | ١٨٤ |
| ٣٥ | ... الزجاجة كأنّها كوكبٌ درّيٌّ... | ٢٧٥ |
| ٣٧ | ... يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار | ٥٢٢ |
| ٥٩ | وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا... | ٢٠١ |
| ٦١ | ... فسلّموا على أنفسكم... | ١٩٢ |

**الفرقان (٢٥)**

| | | |
|---|---|---|
| ٢ | ... خلق كلّ شيء فقدّره تقديراً | ٢٢٣ |
| ٧ | ... مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق... | ٢٥٢ |
| ٦٢ | وهو الّذي جعل اليل والنهار خلفة... | ٢٣١ |
| ٦٣ | وعباد الرحمن... | ٢٨٦ |

**الشعراء (٢٦)**

| | | |
|---|---|---|
| ٤ | ... فظلَّت أعناقهم لها خاضعين | ٦٣٠ |
| ٣٣ | ... بيضاء... | ٣١٠ |
| ٥١ | إنّا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا... | ٣١٥ |
| ٦١ | ... إنّا لمدركون | ٣٨٧ |
| ٩٠ | وأُزلفت الجنّة للمتّقين | ٣١١ |
| ١٢٣ | كذّبت عادٌ المرسلين | ٣٢٨ |
| ١٩٣ | نزل به الروح الأمين | ٤٧١ |

**النمل (٢٧)**

| | | |
|---|---|---|
| ١٠ | ... كأنّها جانٌّ... | ٣٠٠ |
| ١٢ | ... بيضاء... | ٣١٠ |
| ٣١ | ألا تعلوا عليَّ... | ١٤٨ |
| ٦٨ | ... إن هذا إلّا أساطير الأوّلين | ٣٢٨ |
| ٧٢ | ... ردف لكم... | ٤٨٦ |

**القصص (٢٨)**

| | | |
|---|---|---|
| ٤ | إنّ فرعون علا في الأرض... | ١٤٨ |

٢٣ ولمّا ورد ماء مدين.. ٥٩
٣١ ... يا موسى أقبل ولا تخف إنّك من الآمنين ٤٢٩
٣٢ ... بيضاء... ٣١٠
٣٦ ... ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين ٣٢٨
٤٤ وما كنت بجانب الغربيّ... ٤٥٣
٤٥ ... وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلوا... ٤٥٣
٤٨ فلمّا جاءهم الحقّ من عندنا قالوا لولا أُوتي مثل ما أُوتي ... ٤٣٢
٤٩ ... بكتاب من عندالله هو أهدى... ٤٢٩
٨٥ إنّ الّذي فرض عليك القرآن... ١٧٩

## العنكبوت (٢٩)

١٣ وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم... ٦٢٧
١٤ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه... ٤٧٤
٢٤ ... فأنجاه الله من النار... ٤٧١
٦٩ والّذين جاهدوا فينا... ٤٥٤

## الروم (٣٠)

٤ ... من قبلُ ومن بعدُ... ٣٩٨
٢ وهو الّذي يبدؤا الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه... ٤٦١ و٢٥٧

## لقمان (٣١)

١١ هذا خلق الله... ٥٠٠

### الأحزاب (٣٣)


| | | |
|---|---|---|
| ٦ | .... وأزواجه امّهاتهم... | ١٢٢ |
| ٤٠ | ما كان محمّد صلى الله عليه وآله أبا أحد من رجالكم... | ٥٧٦ |
| ٥٢ | لا يحلّ لك النساء من بعد... | ٥٩٥ |
| ٥٣ | يا أيّها الّذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبيّ إلّا أن يؤذن لكم... | ٢٣٧ |


### فاطر (٣٥)


| | | |
|---|---|---|
| ١٨ | ولا تزر وازرةٌ وزر اُخرى... | ٤٦٠ |
| ٢٢ | ... وما أنت بمسمع من في القبور | ٢٧ |
| ٢٤ | ... وإن من اُمّة إلّا خلا فيها نذيرٌ | ٥٥٤ |
| ٢٧ | ... أنزل من السماء ماءً... | ٣١٠ |
| ٣٩ | هو الّذي جعلكم خلائف في الأرض | ٢٣١ |
| ٤٣ | ... ولا يحيق المكر السيّئُ إلّا بأهله... | ٢٨ |


### يس (٣٦)


| | | |
|---|---|---|
| ٣٩ | والقمر قدّرناه منازل... | ٤٣ و ٩٥ |
| ٦٢ | ولقد أضلّ منكم جبلّاً كثيراً... | ٣٣٩ |
| ٦٥ | اليوم نختم على أفواههم... | ١٩٨ |
| ٦٩ | ... إن هو إلّا ذكرٌ وقرآنٌ مبين | ٢٩١ |
| ٧٨ | ... من يحيي العظام... | ١٢٩ |


### الصافّات (٣٧)


| | | |
|---|---|---|
| ١٠ | إلّا من خطف الخطفة... | ٩١ |

| | | |
|---|---|---|
| ٢٧ | وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون | ١٧١ و ٤٤٠ |
| ٤٦ | بيضاء... | ٣١٠ |
| ٨٩ | ... إنّي سقيم | ٣٧ |
| ٩٩ | ... إنّي ذاهب إلى ربّي... | ٥٥٥ |
| ١٠٣ و ١٠٤ | وتلّه للجبين * وناديناه... | ٥٨ |
| ١٦٤ | وما منّا إلّا له مقام معلوم | ٢٥٣ |

ص (٣٨)

| | | |
|---|---|---|
| ٣١ | ... الصافنات الجياد | ٩٧ |

الزمر (٣٩)

| | | |
|---|---|---|
| ٧ | ولا تزر وازرة وزر أُخرى | ٤٦٠ |
| ٢١ | ... أنزل من السماء ماءً... | ٣١٠ |
| ٤٢ | ألله يتوفّى الأنفس حين موتها | ٥٦٠ |
| ٧٣ | ... حتّى إذا جاؤها وفتحت أبوابها... | ٥٨ |
| ٧٤ | ... وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنّة حيث نشاء... | ٦٣ |

عافر (٤٠)

| | | |
|---|---|---|
| ٣٦ | ... يا هامان ابن لي صرحاً... | ٣٧٦ |
| ٦٠ | ... ادعوني أستجب لكم... | ١٢٣ |
| ٦٢ | ... خالق كلّ شيء... | ٢٢٣ |

### فصّلت (٤١)


| | | |
|---|---|---|
| ١١ | ... ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين | ٦٢٧ |
| ١٧ | وأمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى... | ٢٢٤ |
| ١٨ | ونجّينا الّذين آمنوا وكانوا يتّقون | ٤٧١ |
| ٢٦ | ... لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه... | ٢٥٩ |
| ٤٢ | لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل... | ٥٣٢ |
| ٤٥ | ... ولولا كلمة سبقت من ربّك... | ٦٢ |


### الشورى (٤٢)


| | | |
|---|---|---|
| ١٤ | ... ولولا كلمة سبقت من ربّك... | ٦٢ |
| ٢٥ | وهو الّذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيّئات... | ٥٩٠ |


### الزخرف (٤٣)


| | | |
|---|---|---|
| ٣ | إنّا جعلناه قرآناً عربيّاً... | ٨٤ |
| ٣١ | ... لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم | ٤٤١ |
| ٤٤ | وإنّه لذكر لك ولقومك... | ١٦٠ |
| ٤٩ | ... يا أيّه الساحر... | ٢٠٤ |
| ٦٧ | الأخلّاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوّ إلّا المتّقين | ٣١٠ و٤٦٧ |


### الدخان (٤٤)


| | | |
|---|---|---|
| ٢٩ | فما بكت عليهم السماء والأرض... | ٦٣٠ |
| ٣٢ | ولقد اخترناهم على علم على العالمين | ٣٣ |
| ٤٩ | ذُق إنّك أنت العزيز الكريم | ٢٣ |

## الجاثية (٤٥)


| | | |
|---|---|---|
| ١٤ | ... ليجزى قوماً... | ٥٤ |
| ٢٥ | ... ما كان حجّتهم إلّا أن قالوا... | ٣٨٢ |


## الأحقاف (٤٦)


| | | |
|---|---|---|
| ٣٥ | فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل... | ٥٤٢ |


## محمّد صلى الله عليه وآله (٤٧)


| | | |
|---|---|---|
| ٣١ | ولنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصابرين... | ٥٥٥ |


## ق (٥٠)


| | | |
|---|---|---|
| ٥ | ... في أمر مريج | ٢٧١ |
| ١٨ | ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيبٌ عتيدٌ | ١٥٦ |
| ٢٢ | لقد كنت في غفلة من هذا | ٢١٦ |


## الذاريات (٥١)


| | | |
|---|---|---|
| ١٣ | يوم هم على النار يفتنون | ٢٥٢ و ٢٥٣ |


## الطور (٥٢)


| | | |
|---|---|---|
| ٢٥ | وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون | ٤٤٠ |


## النجم (٥٣)


| | | |
|---|---|---|
| ١٩ ـ ٢٠ | أفرأيتم اللات والعزّى * ومناة الثالثة الأُخرى | ١٠٧ |

٣٩ وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى ٤٦٠

القمر (٥٤)

١ اقتربت الساعة... ١٧٧
٣٤ ... إلّا آل لوط نجّيناهم بسحرٍ ٤٧١

الرحمن (٥٥)

٣١ ... أيُّه الثقلان ٢٠٤
٣٩ فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جانّ ٤٤٨

الواقعة (٥٦)

٣٥ أنشأناهنّ إنشاءً ٣١٠
٩٥ ... حقّ اليقين ٥٣٢

الحديد (٥٧)

١١ من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً... ٥٢٤

الممتحنة (٦٠)

١ .... لاتتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء ٥٧٩
٤ قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والّذين معه... ٣١٧

الصفّ (٦١)

٩ ... ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون ٥٩٠

**الطلاق (٦٥)**

١ يا أيّها النبيّ إذا طلّقتم... ٥٧٣
٧ ... ومن قدر عليه رزقه... ٥١ و٤٩٠
١٠ و١١ ... ذكراً * رسولاً... ٨

**التحريم (٦٦)**

٦ ... قوا أنفسكم وأهليكم... ٤٧١

**الملك (٦٧)**

٥ ... زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح... ٢٧٥

**الحاقّة (٦٩)**

٦ ... بريح صرصر... ٣١٨
٢١ ... عيشة راضية ٣٩٧
٥١ ... إنّه لحقّ اليقين ٣٥١و٤٠٢

**نوح (٧١)**

١٣ ... لا ترجون لله وقاراً ٢٥٤
١٧ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ٢٥٨

**المزمّل (٧٣)**

٨ ... وتبتّل إليه تبتيلاً ٢٥٨

٢٠ ... علم أن سيكون... ١٨٧

**المدّثر (٧٤)**

ولا تمنن تستكثر ٥١٦

**الدهر (٧٦)**

١١ ... ولقّاهم نصرةً وسروراً ٢٨٢

٢١ ... وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً ١٣٦

**النازعات (٧٩)**

١١ أ إذا كنّا عظاماً نخرةً ١٢٩

٤٠ ـ ٤١ وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى * فإنّ الجنّة... ١٥٩

**عبس (٨٠)**

١١ ـ ١٢ ... إنّها تذكرة * فمن شاء ذكره ٢٦٨

٢٢ ثمّ إذا شاء أنشره ٢٤٤

٣٤ ـ ٣٦ يوم يفرّ المرء من أخيه * وأُمّه وأبيه * وصاحبته وبنيه ١٧١

**الانشقاق (٧٤)**

٢٤ فبشّرهم بعذاب أليم ٤٧٢

**الفجر (٨٩)**

٥ ... لذي حجرٍ ٢٥٦

### التين (٩٥)


| | | |
|---|---|---|
| ٢ | ... طور سينين | ١٣٢ |


### العلق (٩٦)


| | | |
|---|---|---|
| ١ و٢ | إقرأ باسم ربّك الّذي خلق * خلق الإنسان من علق | ٥٤١ |


### الزلزلة (٩٩)


| | | |
|---|---|---|
| ١ | إذا زلزلت الأرض زلزالها | ٥٨٢ |


### القارعة (١٠١)


| | | |
|---|---|---|
| ٧ | عيشةٍ راضيةٍ | ٣٩٧ |

## فهرس الأحاديث


**إبراهيم عليه السلام:**

لا إله إلّا أنت سبحانك ربّ العالمين، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ٤١

**النبيّ صلى الله عليه وآله:**

أربعة أنهار من الجنّة: النيل والفرات وسيحان وجيحان ١٣٤

اللّهمّ سنين كسني يوسف ١٦١

إنّ البِضع هاهنا مابين الثلاث إلى العشر ٤٩٤

أنّ الشهداء من جملة الخلق لا يفزعون ذلك اليوم ٣٩٨

أنّ سبأ رجل واحد له عشرة من العرب فتيامن ستّة وتشاءم أربعة... ٣٦٥

أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ٥٦٣

أيّكم يؤازرني على هذا الأمر يكن وزيري وأخي ووصيّي، فلم يجبه أحد إلّا عليّ عليه السلام ٣٤٧

[روى أبو امامة عن النبيّ صلى الله عليه وآله ] تحريم شراء المغنّيات ٥٣٤

تكتب على جبين الكافر أنّه كافر وعلى جبين المؤمن أنّه مؤمن ٣٩٤

كلّ مولود يُولد على الفطرة فأبواه يُهوّدانه ويُنصّرانه ويُمجّسانه ٥١٢
لا يبقى على الأرض بيت مدر ولا وبر إلّا ويدخله الإسلام بعزّ عزيز أو ذلّ ذليل ٢٣٠
لا يحلّ مال امرئ مسْلم إلّا عن طيب نفسه ٢٣٧
لم يكذب إبراهيم إلّا ثلاث كذبات كلّها في الله ٣٧
ما منكم أحد إلّا وله منزلان: منزل في الجنّة ومنزل في النار... ١٢٨
مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلّا الله... ٥٥١

**الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام:**

أما والله ما هو تنّور الخبز، ثمّ أومأ بيده إلى الشمس فقال: طلوعها ١٤٠
أما والله مالها ذنبٌ وانّ لها لَلِحيةٌ ٣٩٤
أنّ المحصن يجلد مائة بالقرآن ثمّ يرجم بالسُنّة ١٨٣
يحطّ عنه ربع مال الكتابة ٢٠٩
الطائفة واحد ١٨٢
ليس في المأكول والمشروب سرف وإن كثر ٢٧٨
مَن حلف على على يمين كاذبة يقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله عزّ وجلّ
وهو عليه غضبان ٦٠٩
نحن أهل الذكر ٨

**الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام:**

إنّها امرأة من بني أسد يقال لها: أمّ شريك ٦١٢

**الإمام محمّد بن عليّ الباقر «أبو جعفر» عليه السلام:**

الآية متناولة لمن يقوم إلى صلاة الليل عن لذيذ مضجعه وقت السحر ٥٦٤

إنّ الله تبارك وتعالى لمّا هبط آدم إلى الأرض وكانت السماوات رتقاً... ١٩
إنّ أباطالب كان مسُلماً ٤٣٥
أنّ ذلک وعدٌ للمؤمنين بأنّهم يرثون جميع الأرض ٦٣
أنّ المعنيّ بالآية أميرالمؤمنينعليه‌السلام بخلاف ما وصف خصمه الّذي ذكره... ٢٢٧
أنّه تعالى مدح قوماً إذا دخل وقت الصلاة تركوا تجاراتهم وبيعهم واشتغلوا بالصلاة ٢١٦
لأنّه أعتق من الغرق أيّام الطوفان، فغرقت الأرض كلّها إلّا موضع البيت ٩٠
لهو الحديث الغناء ٥٣٤
المغفرة في تفسير الآية الكريمة ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ ٨٨
وأمّا القرية الّتي أمطرت مطر السوء فهي سدوم ٤٣
هم أصحاب المهديّعليه‌السلام في آخر الزمان ٦٣
هم الّذين إذا أدركوا ذكر الفرج كنّوا عنه ٢٨٣
هم رجال ونساء كانوا على عهد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله مشهورين بالزنا... ١٨٤

**الإمام جعفر بن محمّد الصادق «أبوعبدالله» عليه‌السلام:**

الآية متناولة لمن يقوم إلى صلاة الليل عن لذيذ مضجعه وقت السحر ٥٦٤
إن احتاج إلى ظهرها ركبها من غير أن يعنف عليها و... ٩٢
أنّ أباطالب كان مُسلماً ٤٣٥
انّ العذاب الأدنى هو القحط والأكبر خروج المهديّ بالسيف ٥٦٧
أنّه تعالى مدح قوماً إذا دخل وقت الصلاة تركوا تجاراتهم وبيعهم واشتغلوا بالصلاة ٢١٦
البدن يركها المحرم من موضعه الّذي يحرم فيه... ٩٢
يجلد ثمانين حرّاًكان أو مملوكاً ١٨٦

الرجس من الأوثان الشطرنج، وقول الزور الغناء ٩٠
ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه يحبّ بهذا قوماً ويحبّ بهذا أعداءهم ٥٧٤

**أهل البيت عليهم السلام:**

إنّ المراد بذلك المهدي عليه السلام لأنّه يظهر بعد الخوف ويتمكّن بعد أن كان مغلوباً ٢٣٢
إنّهم قوم كانت نساؤهم سحاقات ٢٦٣
الّذين يحافظون على مواقيت الصلوات فيؤدّونها في أوقاتها ولا يؤخّرونها حتّى يخرج الوقت ١٢٨
وكن من عالم لا يرجع إليه ولا ينتفع بعلمه ولا يلتفت إليه ١٠٣

**ما رُوي عن المعصومين عليهم السلام**

إنّ الآية نزلت في حمزة بن عبدالمطّلب وجعفر بن أبي‌طالب وعليّ بن أبي‌طالب عليه السلام... ٥٨٩
إنّ الآية نزلت في شأن المهديّ عليه السلام وانّ الله تعالى يمنّ عليه... ٤٠٣
انّ الله تعالى قال: لو قالوا مرّة واحدة: يا الله ارحمنا لرحمتهم... ٤٥١
أنّ الله أعطى هذه الأمّة ثلاثة أشياء لم يعطها أحداً من الأُمم... ١٢٣
انّ الّذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ٢٦١
انّ جميع الدوابّ والهوامّ كانت تطفئ عن إبراهيم النار... ٤٦٧
انّه لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت من ذكرهم الله بغير إذنهم قدر حاجتهم من غير إسراف ٢٣٧
انّه لقيه يوماً فقال لعليّ عليه السلام: أنا أبسط منك لساناً وأحدّ منك سناناً... ٥٦٦
انّه لمّا نزلت هذه الآية ﴿وَآتِ ذا القربى حقّه﴾ أعطى فاطمة فدكاً وسلّمه إليها ٥١٧

انّه لم ينتفع أحد يوم طرح إبراهيم في النار بالنار في جميع الدنيا ٤٦٧
أنّه يصبّ على رؤوسهم الحميم، فينفذ إلى أجوافهم فيسلب ما فيها ٨١
أنّها غرزت ذنبها في الأرض ورفعت رأسها نحو الميل إلى السماء ثمّ... ٣٠١
الزور هو الغناء ٢٨٢
في أخبارنا انّ من قال: سبحان الله والحمدلله ولا إله إلّا الله والله أكبر ثلاثين مرّة... ٦٠٧
قال: يكذّب نفسه على رؤوس الناس حتّى يضرب ويستغفر ربّه... ١٨٥
كان رسول الله ﷺ لا ينام حتّى يقرأ ألم تنزيل السجدة وتبارك الّذي بيده الملك ٥٥٢
كان كرماً وقد بدت عنا قيده فحكم داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان غير هذا... ٤٥
الكتب كلّها ذكر ﴿وأنّ الأرض يرثها عبادى الصالحين﴾ قال: القائم عليه السلام وأصحابه ٦٣
نحن معاشر الأنبياء لا نورث ٣٦٠
والأيّم أحقّ بنفسها ٢٠٧
الأيّام المعلومات أيّام التشريق، والمعدودات العشر ٨٩

**أمّ سلمة:**

أنّ الآية نزلت في النبيّ ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ٥٩٩
أنّ النبيّ ﷺ كان في بيتي فاستدعا عليّاً وفاطمة والحسن والحسين وجللهم بعباء خيبريّة ٦٠٠

**عائشة:**

لو كتم النبيّ ﷺ شيئاً ممّا أوحى إليه لكتم هذه الآية... ٦٠٤
لم يخرج النبيّ ﷺ من دار الدنيا حتّى حلّل الله له ما أراد من النساء ٦١٥

**ابن عبّاس:**

انّ الله هادي أهل السماوات والأرض ٢١١
انّه منوّر السماوات والأرض بنجومها وشمسها وقمرها ٢١١
أنّها وسط البحر ٢١٣
أنّ معناه ﴿هو أهون عليه﴾ وهو هيّن عليه ٥٠٩
لاشرقيّة بشروق الشمس عليها فقط ولا غربيّة بغروبها عليها فقط، بل... ٢١٣
مثل نوره وهو طاعته ٢١٢
ولذكر الله إيّاكم برحمته أكبر من ذكركم إيّاه بطاعته ٤٧٩

**سلمان:**

ذكر العبد لربّه أفضل من جميع عمله ٤٧٩

# فهرس الأشعار والأرجاز


| صدر البيت | القافية | الشاعر | الصفحة |
|---|---|---|---|
| | [الهمزة] | | |
| إنّ سليمى | يرزؤها | ابن هرمة | ٢٩ |
| أيرجو | ورائياً | سوّار بن المضرّب | ١٧٠ |
| كأنّ | ماء | حسّان | ٣٤١ |
| فمن | سواء | حسّان بن ثابت | ٤٦٦ |
| وأتيت | الأنناء | الحطيئة | ٦١٦ |
| | [الباء] | | |
| بها | فصليبٌ | علقمة بن عبدة الفحل | ١٦ |
| تمزّزتُها | فتصوّبوا | النابغة الجعدي | ٢٣ و ٢٩٠ |
| لاتذكرى | الأجرب | عنترة بن شدّاد | ٢٥ |
| ولو | الكلابا | جرير | ٥٤ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| لعمرو | أبي كعب | ... | ٥٩ |
| ألم تكسف | الواجب | أوس بن حجر | ٩٧ |
| وكنتُ | عصيب | عديّ بن زيد | ١٤٠ |
| واهية | لهوب | عبيد بن الأبرص | ١٥٠ |
| أرنا | بالشراب | امرئ القيس | ١٦٦ |
| ألم تر | يتذبذب | النابغة الذبياني | ١٨٠ |
| طافت | منتقبا | الحطيئة | ٢٧٩ |
| لا أستكين | اللبب | عدي بن وداع | ٣٣١ |
| فقلت | ركائبه | | ٣٩٠ |
| وليل | ناصب | النابغة الذبياني | ٣٩٧ |
| لِدُوا | تباب | أبي العتاهيّة | ٤٠٦ |
| والعبد | خطبى | الراجز | ٤١٥ |
| ولستُ | المتقلّب | هُدبة | ٤٤٧ |
| ... | مُلهِبا | الراجز | ٥٣٦ |
| كأنّ | دَبّاب | الراعي النميري | ٥٥٨ |
| أقلّى | أصابا | جرير | ٥٧٧ و ٥٨١ |
| بطخفة | نحب | جرير | ٥٩١ |

[ت]

| | | | |
|---|---|---|---|
| ولكنّهم | البغت | يزيد بن ضبّة | ٣٤٤ |

[ث]

| | | | |
|---|---|---|---|
| فقال | الحدثان | مجنون | ٦٢٨ |

[ ج ]


| | | | |
|---|---|---|---|
| نحن | بالفرج | الراجز | ١٣٥ |
| لاتكسع | الناتج | حارث بن حلزة | ٣٣٦ |
| نازعن | تهملج | النابغة الجعدي | ٣٩٨ |
| | بالفرج | العجّاج | ٣٥٩ |


[ ح ]


| | | | |
|---|---|---|---|
| وَلَه | كَلح | الأعشى | ١٧٣ |
| ليُبكَ | الطوائح | | ٢١٤ |
| ألستم | راح | جرير | ٢٢٦ |
| أبو | سَبوح | ... | ٢٣٤ |
| بهنّ | الصروحا | أبي ذؤيب | ٣٧٦ و ٤٢٥ |
| وما | أكدح | ابن مقبل | ٥٠٨ |


[ د ]


| | | | |
|---|---|---|---|
| وَكلّ | الفرقدان | عمرو بن معدى كرب | ١٦ |
| إنّ المنيّة | سوادى | الأسود بن يعفر النهشلي | ٢٠ و ٢٧٤ |
| قالت | هُمّدا | الأعشى | ٧١ |
| ضمنت | الأجردا | الأعشى | ٨٥ |
| ألم يأتيك | زياد | | ٨٦ |
| اتق | فساداً | ... | ٩٥ |
| لا تحسبنّي | الشيد | الشمّاخ | ١٠٣ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| حتّى | الشردا | الهذلي | ١٤٠ |
| ومن | أبعدا | | ١٤٤ |
| إنّ الخليط | عدوا | زهير بن أبي سلمى | ٢١٦ |
| حَلّوا | أطواد | الأسود بن يعفر النهشلي | ٣١١ |
| تجلو | بالإثمد | نابغة الذبياني | ٣٣٨ |
| اتيت | جامداً | الأعشى | ٤٠٧ |
| وقد | تذود | جرير | ٤١٥ |
| أثوى | موعداً | الأعشى | ٤٢٨ |
| ألا | مخلدي | طرفة بن العبد | ٥٠٧ |
| تمنّى | بأوحد | ... | ٥١٠ |
| إنّ بني | العدد | الراجز | ٥٦٠ |
| كأنّه | مفتأد | النابغة الذبياني | ٥٦٢ |
| فجئتُ | الممدّد | دريد بن الصمّة | ٥٩٣ |
| كمقاعد | نواهد | دؤاد الأيادى | ٦١٦ |
| فقلنا | مقتادها | الأعشى | ٦١٧ |

[ ر ]

| | | | |
|---|---|---|---|
| باتت | الأقتارا | الراجز | ٢٣ |
| ترتع | إدبار | الخنساء | ٢٥ |
| وإنّك | ناصره | الفقعسي | ٧٧ |
| بجمع | للحوافر | زيد الخيل | ٨٠ |
| تروي | ينصهر | ابن الأحمر | ٨٢ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| من قصب | المصطهَر | العجّاج | ٨٢ |
| ألاهل | بيقرا | امرؤ القيس | ٨٦ |
| فإن تكن | عامر | ليلى الأخيليّة | ٨٧ |
| عليَّ | نذوراً | الراجز | ٩٦ |
| وحلق | موفوراً | الراجز | ٩٦ |
| ألِفَ | كسيرا | | ٩٧ |
| شاده | وكور | عدي بن زيد | ١٠٢ |
| يطول | قصير | | ١٠٥ |
| تمنّى | المقادر | ... | ١٠٨ |
| ... | فمرّ | العجّاج | ١٣٥ |
| يراوح | جُؤارا | الأعشى | ١٥٦ |
| من دونهم | غمر | ابن الأحمر | ١٥٧ |
| وأعلمُ | لا يسير | | ١٦٥ |
| فقال | وزير | ... | ١٦٥ |
| على لاحِبٍ | جرجراً | امرؤ القيس | ١٧٨ |
| حيّوا | إنكار | ... | ٢١٩ |
| إذ | مثبور | ابن الزبعرى | ٢٤٨ |
| يا رسول | بور | ابن الزبعرى | ٢٥٢ |
| فهممت | المحجر | ... | ٢٥٦ |
| حتّى | الناشر | الأعشى | ٢٧٨ |
| كأنّها | أحجار | الأخطل | ٢٧٥ |
| يا عاذلاتي | بأمير | | ٢٨٤ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ألا أيّها | المقادر | ذو الرمّة | ٢٨٩ |
| أَلِكني | الخبر | الهذلي | ٢٩٥ و ٥٦٠ |
| وعين | أُخر | امرؤالقيس | ٣٠٦ |
| فإن | المسحَّر | لبيد بن ربيعة العامري | ٣٣٢ |
| فماونى | غبر | عجّاج | ٣٣٦ |
| أطرياً | دوّارى | العجّاج | ٣٤٣ |
| ألا | الدهر | الأخطل | ٣٦٤ |
| ألا | القطر | ذي الرمّة | ٣٦٤ |
| أتوني | نُكر | أبوعبيدة بن همّام | ٣٧٩ |
| لأُنكح | لحُرّ | أبوعبيدة بن همّام | ٣٧٩ |
| أرى | يؤتمر | نمر بن تولب | ٤١٢ |
| رهبان | الفادر | جرير | ٤١٤ |
| آنس | فمرّ | العجّاج | ٤١٨ |
| ونركب | الحمر | خداش بن زهير | ٤٤٦ |
| إنّ سراجاً | تجهره | ... | ٤٤٦ |
| ولايُنسيني | الإزارا | قيس بن الحطيم | ٤٤٧ |
| سألتاني | بنكر | زيد بن عمرو بن نفيل | ٤٥٠ |
| وَى | ضُرّ | زيد بن عمرو بن نفيل | ٤٥٠ |
| وَلولا | الصغار | نصيب | ٤٦٢ |
| فهم | كوثرا | المخبّل السعدى | ٤٧٦ |
| مستقبلين | منثور | الفرزدق | ٤٧٦ |
| قبحتموا | أكبرا | الراجز | ٥١٠ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| لا تتركنّي | أطيرا | ... | ٥٨٥ |
| عشيّة | هوبر | ذي الرمّة | ٥٩١ |
| ودّعنا | وَطرا | الربيع بن ضبع الفزاري | ٦٠٥ |
| وكيف | معمر | ... | ٦٠٥ |
| واعلم | سطر | العجّاج | ٦٠٦ |
| فقال | ضريراً | | ٦٢٨ |
| يا قصر | العبر | | ٦٢٨ |
| قد كان | والغير | | ٦٢٨ |
| وقد | الشجر | | ٦٢٩ |
| فما تملى | غرر | | ٦٢٩ |
| خطأً | الأثر | | ٦٢٩ |
| فحلنى | قدر | | ٦٢٩ |
| وكلّهم | البشر | | ٦٢٩ |
| حتّى | خبرى | | ٦٢٩ |
| إن لا أكن | حجرى | ... | ٦٢٩ |
| فالحمد | شَكر | العجّاج | ٥٠١ |
| فإنّك | ختر | عمرو بن معدي كرب | ٥٥٠ |
| أِلكني | الخبر | الهذلي | ٥٦٠ |

[س]

| | | | |
|---|---|---|---|
| فقلت | الفراديس | جرير | ١٢٩ |
| حنّت | الدهاريس | المتلمّس الضبيعيّ | ٢٥٥ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| سبقت | الرساسا | النابغة الجعدي | ٢٦٣ |
| وبلدةٍ | العيس | ... | ٢٧٣ |
| كأنّ | عروس | أبوزبيد الطائي | ٢٨٤ |
| في كفّه | القبس | | ٣٥٤ |
| الواردون | الجواميس | جرير | ٣٦٤ |
| يا صاح | أبلسا | العجّاج | ٥٠٠ |
| سبقتُ | الرساسا | النابغة الجعدي | ٢٦٣ |

[ط]

| | | | |
|---|---|---|---|
| ومنهل | فُرّاطا | | ٤٠٦ |
| | غير قانط | حميد الأرقط | ٥١٧ |

[ع]

| | | | |
|---|---|---|---|
| ألم | انقطاعا | القطامي | ٢٠ و٢٧٤ |
| لمال | القنوع | الشمّاخ | ٩٧ |
| وأعطاني | قنوعي | لبيد | ٩٨ |
| وجدّك | مدفعاً | امرئ القيس | ١١٩ |
| تعدّون | المقنعا | جرير | ١٩٢ |
| بدّلن | الوجيعا | ... | ٢٨١ |
| على حين | وازع | النابغة | ٣٦١ |
| أبيت | نزّعا | سويد بن كراع | ٤١٤ |
| يبيت | المضاجع | عبدالله بن رواحة | ٥٦٤ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| عَليكِ | مُضطجعاً | الأعشى | ٦٠٨ |
| لمّا | الخشع | جرير | ٦٢٨ |

[ف]

| | | | |
|---|---|---|---|
| بنو | طرف | جرير | ٣٤ |
| ففاجأه | اللقيف | أبوذؤيب | ٢٨٥ |
| ناجٍ | فزلفا | العجّاج | ٣١١ |
| ... | احقوقفا | العجّاج | ٣١١ |
| وكلّ | تزدلف | ... | ٣١٢ |
| يرفعهنّ | رُجّفا | الراجز | ٣٥٥ |
| | جارف | الراجز | ٤٦٠ |

[ق]

| | | | |
|---|---|---|---|
| ... | العميق | الراجز | ٨٨ |
| ألم | سملق | جميل بن معمر | ١١٤ |
| مَن | آلق | ... | ١٩٣ |
| إنّ الجليد | تلق | الراجز | ١٩٣ |
| إنّ الحصين | تلِق | | ١٩٣ |
| ... | الحلق | ... | ١٩٣ |
| جاء | التوّاق | الراجز | ٣٠٨ |
| طراق | يترقرق | ذو الرمّة | ٣٢٦ |
| رأتني | فروق | حميد بن ثور | ٣٥٨ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| فديتُ | أُطيق | عروة بن الورد | ٤٤٦ |
| ليث | صدقا | زهير بن أبي سلمى | ٤٥٦ |
| وصاحبى | أدفق | الراجز | ٥٦٤ |

[ ك ]

| | | | |
|---|---|---|---|
| فَإن يقولوا | هلكوا | زهير بن أبي سلمى | ٥٣٨ |

[ ل ]

| | | | |
|---|---|---|---|
| والنبع | العجل | ... | ٢٦ |
| لله | موئّل | لبيد بن ربيعه | ٤٢ |
| ومعى | مجفل | الهذلي | ٤٧ |
| فإن تك | تنسل | امرئ القيس | ٥٨ |
| عسلان | فنسل | النابغة الجعدي | ٥٨ |
| يعرف | الزلزال | ... | ٦٧ |
| ... | يذهل | كثير بن عزّة | ٦٨ |
| أُريد | سبيل | كثير بن عزّة | ٨٥ |
| وتيماء | بجندل | امرئ القيس | ١٠٣ |
| تطاولن | يستهلّ | أبوزيد | ١٠٥ |
| فاعقلي | عقل | لبيد بن ربيعة العامري | ١٢٤ |
| وهل | بغل | حميدة | ١٣٠ |
| ... | بالسلائل | الراجز | ١٣٠ |
| إذا | سلائله | | ١٣٠ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| رأيت | البقل | زهير | ١٣٥ |
| سقى | هلال | لبيد بن ربيعة العامري | ١٣٦ |
| فهيهات | نواصله | جرير | ١٤٤ |
| قوم | التنزيلا | الراعي | ١٥٠ |
| حصان | الغوافل | حسّان بن ثابت | ١٩٢ |
| فلا مزنة | إبقالها | عامر بن جوين الطائي | ٢٢١ و٥٢٥ |
| وقدم | فقالوا | ... | ٢٥٦ |
| ... | حلال | الراجز | ٢٥٦ |
| إذا | عوامل | الهذلي | ٢٦٤ |
| بأيدي | سُلَّت | فرزدق | ٢٨٣ |
| أرى | الهلال | جرير | ٢٩٠ |
| لقد | برسول | كثير بن عزّة | ٢٩٥ |
| وبهماء | آلها | الأعشى | ٣٢٦ |
| لم يمنع | قال | الكناني | ٣٣٣ |
| منايا | الجبل | أبو ذؤيب | ٣٣٩ |
| ... | المُبَدل | ... | ٣٦٤ |
| لو أنّني | النمل | رؤبة | ٣٦٠ |
| ما تأتمر | شمالك | ... | ٤١٢ |
| نظرت | نعالكا | أبو الأسود الدؤلي | ٤٢٦ |
| فقل | يوصّل | الأخطل | ٤٣٢ |
| تخطّف | أورال | امرئ‌القيس | ٤٣٦ |
| فإن | بالجهل | أبوذؤيب | ٤٣٩ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| أستغفر | العمل | ... | ٤٥٣ |
| إذا | عواسل | أبوذؤيب | ٤٥٦ |
| ذريني | مالي | ... | ٤٦٥ |
| فإن | العواذل | لبيد بن ربيعة | ٤٧٣ |
| ولقد | شمالا | الأخطل | ٤٧٦ |
| ترمى | جفالا | الأخطل | ٤٧٦ |
| هل | مثلا | الأعشى | ٤٧٨ |
| يسعى | لمقتول | كعب بن زهير | ٤٩٦ |
| ما روضةٌ | هطلُ | الأعشى | ٥٠١ |
| يُضاحِكُ | مُكتهِل | الأعشى | ٥٠١ |
| يوماً | الأُصل | الأعشى | ٥٠١ |
| لعمرك | أوّل | معن بن أوس | ٥١٠ |
| فلا مُزنة | إبقالها | عامر بن جوين الطائي | ٥٢٥ |
| وظعني | فعول | حميد بن ثور الهلالي | ٥٥٨ |
| كنت | ضلالا | الأخطل | ٥٥٩ |

[م]

| | | | |
|---|---|---|---|
| من الناس | نائم | | ٥٦ |
| يدعونى | الأدهم | عنترة | ٧٦ |
| إنّ الخليفة | الخواتيم | جرير | ٧٩ |
| فلما | نهيم | أبي الجرّاح | ٨٦ |
| عُقِمَ | عقم | ... | ١١٠ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| كذب | سوام | جرير | ١٩٠ |
| فإن | أتأيّم | ... | ٢٠٧ |
| ما أعطياني | كرمى | كثيّر عزّة | ٢٥٣ |
| بها | مَجثم | زهير | ٢٧٦ |
| فيوم | غراما | بشر بن أبي حازم | ٢٧٧ |
| جزى | أثام | بلعاء بن قيس | ٢٨٠ |
| فإمّا | لزاماً | صخر الغيّ | ٢٨٥ |
| فمَن | لائما | المرقّش | ٣١٨ |
| من وائل | عجم | ... | ٣٤٣ |
| من سبأ | العرما | النابغة الجعدي | ٣٦٤ |
| يادار | سمسم | العجّاج | ٣٦٤ |
| لقد | بنائم | الجرير | ٣٩٧ |
| ... | التكلّم | العجّاج | ٤٣٣ |
| ولقد | أقدم | عنترة | ٤٥١ |
| وكنّا | فتقوّما | المتلمس الضبعى | ٥٤٢ |
| وَإذ | المتكرّم | فرزدق | ٥٩١ |
| جاءت | حرام | امرئ القيس | ٤٠٨ |
| تمخضت | تمام | عمرو بن حسّان الشيباني | ٦١٦ |

[ ن ]

| | | | |
|---|---|---|---|
| بوادٍ | والشبهان | ... | ٨٥ |
| فجاءت | حصين | حسّان بن ثابت | ١٣٠ و٥٥٨ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| أُحبّ | الغوانيا | جميل بثينه | ٢٠٧ |
| مثل | وزنوا | ... | ٢٥٩ |
| إن يسمعوا | دفنوا | قعنب بن امّ صاحب | ٢٥٩ |
| برأس | الحُزونا | عمرو بن كلثوم | ٣٤١ |
| إمتلأ | بطنى | الراجز | ٣٦٢ و٦٢٨ |
| كأنّ | محنوتى | ... | ٤٦٥ |
| يماشيهنّ | الدِنان | النابغة الجعدي | ٥٥٠ |
| فقلت له | زمان | | ٦٢٨ |

[و]

| | | | |
|---|---|---|---|
| | لهوتُه | جرير | ١٠٥ |
| عجبتُ | أبوان | | ٢٢٧ |
| عجبتُ | فَماً | حميد بن ثور | ٣٦٢ |
| فقلتُ | داعيان | الحطيئة | ٤٥٩ |
| وتشرق | الدم | الأعشى | ٥٤١ |

[ى]

| | | | |
|---|---|---|---|
| ولأنتَ | لا يفرى | زهير بن أبي‌سلمى | ١٣١ |
| ان يعاقب | لا يبالى | الأعشى | ٢٧٧ |
| ألا | منتهاها | العبّاس بن مرداس | ٢٩٥ |
| ألا | غنّى | | ٣٢٥ |
| ألم | الفتاة | | ٣٦١ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| أُشدد | بواديك | علي عليه السلام | ٤٢٢ |
| ... | مطوية | | ٤٤٦ |
| على | ابتناها | ... | ٤٧٨ |
| تسألني | بكى | الراجز | ٥٧٠ |
| لم يغرّوكم | الضحاء | حارث بن حلزة | ٥٨٣ |
| فأجهشتُ | رآني | | ٦٢٨ |

## فهرس المباحث العامّة


دليل على أنّه لا يجوز التقليد في الدين وأنّه لا يقبل دين إلّا بحجّة واضحة ١٦
دليل على حدوث القرآن ٤، ٣٢
ردّ على من يقول: إنّ الله أرسل رسلاً إلى الحيوانات والبهائم ٨
دليل على وحدانيّة الله ونقض التعدّد ١٥
دليل على استحالة تبنّي الله الولد كما يستحيل أن يكون له ولد ١٧، ١٦٧
دليل على أنّ الملائكة ليسوا مطبوعين على الطاعات ١٩
دليل على أنّ الأنبياء لا يصدر منهم كذب وردّ رواية من يروي أنّ إبراهيم
قد صدر منه كذب ٣٧
ردّ على القائلين بأنّ يونسﷺ ذهب مغاضباً لربّه ٥١
ردّ على الحشويّة حيث يجوّزون صدور المعاصي من الأنبياء ٥٣
ردود على المجبّرة في اعتقاداتهم الفاسدة ٦٤،٧٣،١٥٥، ١٧٠، ٤٧٥، ٤٨٠، ٥٥٤
دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٠١
دليل على أنّ العقل هو العلم وأنّ القلب محلّ العقل والعلوم ١٠٤
دليل على أنّ من جوّز عبادة غير الله فهو كافر ١٢٠
ردّ على من يقول: إنّ المتمتّع بها ليست زوجة ١٢٦
دليل على أنّه لا يموت أحد إلّا ويعرف اضطراراً منزلته عندالله ١٧٠

دليل على انّ الله لخلقه ما لا يريده الشيطان ١٩٥
دليل على جواز وقوع المعاصي ممّن شهد بدراً ١٩٧
ردّ على من يقول: إنّ الوعيد على القذف خاصّ بمن قذف عائشة ١٩٨
دليل على أنّ الله لا يتكلّم بآلة وأنّه ليس بجسم ٢١٨
ردّ على أهل الإرجاء وعلى أهل الوعيد ٢٨٠
ردّ على من يدّعي أنّ الأنبياء لا يورثون المال ٣٦٠
ردّ على من يقول: القدرة تتبع الفعل ٣٧٣
استدلال على صحّة الرجعة ٣٩٥، ٤٩٩
دليل على أنّ كثرة الاتّباع لأمر لا يدلّ على صحّته ٤٢٤
دليل على وجوب اللطف ٤٣٠
ردود على من يقول: المعارف ضروريّة ٤٤٢، ٤٨٠، ٥٠٨
ردود على أنّ المؤمن لا ييأس من رحمة الله ٤٦٧
دليل على حسن المجادلة وردّ على من يدّعي نسخ «ولاتجادلوا» ٤٨٠
ردّ على من يستدلّ على أنّ النبيّ لم يكن يحسن الكتابة بقوله تعالى «ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون» ٤٨٢
دليل صحّة القياس العقلي والنظر دون القياس الشرعي ٥٠٣
ردّ على من يفسّر «بلا عمد ترونها» بأنّ السماء لها عمد لا يرى ٥٣٦
دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع المشقّة ٥٤٢
ردّ على البلخي حول ما اختصّ الله به من علم ٥٥١
حوار حول القلبين في إنسان واحد ٥٧٥
ردّ على من يورث مع البنت أو الأُمّ أحد من الاخوة ٥٧٨
استدلال على عصمة أهل البيت وعلى صواب ما أجمعوا عليه ٦٠٠

# فهرس المواضيع


| | |
|---|---|
| سورة الأنبياء | ٣ |
| سورة الحجّ | ٦ |
| سورة المؤمنون | ١٢٤ |
| سورة النور | ١٧٩ |
| سورة الفرقان | ٢٤٢ |
| سورة الشعراء | ٢٨٧ |
| سورة النمل | ٣٥١ |
| سورة القصص | ٤٠١ |
| سورة العنكبوت | ٤٥٤ |
| سورة الروم | ٤٩٣ |
| سورة لقمان | ٥٣١ |
| سورة السجدة | ٥٥٣ |
| سورة الأحزاب | ٥٧٢ |